






المجلد التاسع عشر — الجزء الأول
مايو سنة ١٩٥٧

عـــدد خـــاص

فى ذكرى

المرحوم الأستاذ عبد الوهاب عزام

مطبعة جامعة القاهرة
١٩٦٠

تصــدر هذه المجلة مرتين كل سنة ، فى مايو وديسمبر . وتطلب من مكتبة جامعــة القــاهرة بالجيزة . وتوجه المكاتبات الخاصــة بالنــاحية العلمية الى المشرف على تحريرها السيد الدكتور محمد حمدى البكرى الأســتاذ بجامعة القاهرة وثمن الجزء الواحــد من اى مجلد ثلاثون قرشــا مصريا

# فهرس القسم العربى

# كلمة المحرر

تعد جامعة القاهرة بحق الجامعة الأم لجامعات الجمهورية العربية المتحدة ، فهى اقدم هذه الجامعات وهى التى قامت عليها جميعا وتعهدتها حتى ترعرع عودها ؛ ونحن حينما نصف جامعة القاهرة بالقدم فانما نرجع بالذاكرة الى عام ١٩٠٨ حينما نشات الجامعة المصرية . وحينما لم تكن الجامعة المصرية سوى كلية الآداب . ولهذا تعد كلية الآداب بجامعة القاهرة اعرق الكليات الجامعية فى الجمهورية العربية المتحدة ، ولا ادل على ذلك من انها اصبحت تعد فى سجل الخلود عددا ضخما من الجامعيين الذين اقاموا صرحها ، وثبتوا دعائمها ، وبلغوا بها ارقى ما بلغته الكليات الجامعية من مكانة .

ومن حق هؤلاء الخالدين على كلية الآداب ان تعترف بفضلهم بعد انتقالهم عن الدنيا ، ولا اقول بان نخلد ذكرهم ، فقد خلدتهم اعمالهم ، ولكن بان نذكرهم وذلك اضعف الايمان .

ولهذا فان مجلة كلية الآداب تصدر هذا العدد فى ذكرى احد هؤلاء الخالدين . فى ذكرى المغفور له الدكتور عبد الوهاب عزام ٦

المحرر

# عبد الوهاب عزام

### بقلم تلميذه يحيى الخشاب

**درجاته العلمية :**

١ — عالمية مدرسة القضاء الشرعى ، وكان أول المتخرجين ، عام ١٩٢٠
٢ — ليسانس من الجامعة المصرية ، عام ١٩٢٣
٣ — درجة الماجستير من جامعة لندن ، مدرسة اللغات الشرقية ، عام ١٩٢٨
٤ — درجة الدكتوراه من كلية الآداب جامعة القاهرة ، عام ١٩٣٢

## أعماله العلمية

**التـاليف :**

١ — مدخل الشاهنامه العربية للبندارى ، ١٩٣٢
٢ — التصوف وفريد الدين العطار ، ١٩٤٥
٣ — مهد العرب ، دار المعارف ١٩٤٦ ، ١٩٥٥
٤ — الشوارد أو خطرات عام ، كراتشى ١٩٥٣
٥ — الأوابد ، دار المعارف ١٩٤٢
٦ — اللمعات ( ضمها الى ترجمة پيام مشرق ) ، كراتشى ١٩٥١
٧ — محمد اقبال ، مطبوعات پاكستان ، ١٩٥٤
٨ — الأدب الفارسى بالاشتراك مع يحيى الخشاب ، ١٩٤٨
٩ — التصوف فى الشعر الاسلامى ( صحيفة الجامعة المصرية ) ، ينـاير وابريل ١٩٣٣
١٠ — أوزان الشعر الفارسى ( مقال بمجلة كلية الآداب ) ، ١٩٣٣
١١ — ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام ، بغداد ١٩٣٦ ، والقاهرة ١٩٥٦
١٢ — موقع عكاظ ، دار المعارف ، ١٩٥٠

١٣ — نواح مجيدة من الثقافة الاسلامية . مطبعة المقتطف ، ١٩٣٨.
١٤ — النفحات ، ١٩٥٣
١٥ — رحلات عبد الوهاب عزام . مطبعة الرسالة ١٩٣٩.
١٦ — مقالات كثيرة فى المجلات الأدبية ، وتحقيق أماكن بعينها فى الجزيرة العربية .
١٧ — المعتمد بن عباد . ( ظهر بعد وفاته سنة ١٩٥٩ ) .

**الترجمة :**

١ — فصول من المثنوى ( عن الفارسية ) ١٩٤٦
٢ — پيام مشرق ، اقبال ( عن الفارسية ) ، كراتشى ١٩٥١
٣ — چهار مقاله ، عروضى ( عن الفارسية ) بالاشتراك مع يحيى الخشاب ، ١٩٤٩
٤ — اتحاد المسلمين لجلال نورى ( عن التركية ) بالاشتراك مع حمزة طاهر ١٩٢٠
٥ — مقتطفات كثيرة من الشعر الفارسى والشعر التركى ، نشرت فى مجلة الرسالة وغيرها .
٦ — ضرب الكليم ، اقبال . مطبعة مصر ١٩٥٢
٧ — ديوان الأسرار والرموز ، اقبال مطبعة المعارف ١٩٥٦.

**النشر :**

١ — الشاهنامه التى نقلها الى العربية البندارى ١٩٣٢
٢ — ديوان المتنبى ١٩٤٤
٣ — مجالس السلطان الغورى ١٩٤١
٤ — كليلة ودمنة ١٩٤١
٥ — رسائل الصاحب بن عباد . بالاشتراك مع الدكتور شوقى ضيف ١٩٤٧
٦ — الورقة لمحمد بن الجراح . بالاشتراك مع عبد الستار فراج ، ١٩٥٣

**وظائفه :**

١ — عين معيدا عام ١٩٢٠ بمدرسة القضاء الشرعى على أثر تخرجه فيها .
٢ — اماما للسفارة المصرية بلندن عام ١٩٢٣

٣ — مدرسا بكلية الآداب ، جامعة القاهرة ، عام ١٩٢٧
٤ — أستاذا مساعدا بالكلية عام ١٩٣٤
٥ — أستاذا بالكلية عام ١٩٣٩ . فعميدا لها عام ١٩٤٥
٦ — وفى هذه الفترة انتدب مرتين للتدريس بجامعة بغداد
٧ — عضوا بالمجمع اللغوى عام ١٩٤٦
٨ — عضوا بالمجمع العلمى العربى بدمشق وبغداد .
٩ — وزيرا مفوضا ثم سفيرا بوزارة الخارجية ، حيث مثل بلاده فى المملكة العربية السعودية وفى پاكستان ، ١٩٤٧

ولما عرض أمر نقله من الجامعة الى وزارة الخارجية تمسكت به الجامعة وقرر مجلسها فى ١٩٤٧/١١/٣ : « ان الجامعة لا يمكن أن تستغنى عن حضرة الأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام نهائيا وانما يوافق المجلس على ندب سيادته مؤقتا لمدة ثلاثة شهور يعود بعدها للجامعة » .

١٠- ثم عين مديرا للجامعة السعودية ، وقد لحق بربه وهو يؤدى واجبه بها.

**المؤتمرات :**

١ — العيد الألفى للفردوسى الذى عقد بطهران ، عام ١٩٣٤.
٢ — الاحتفال بالمتنبى الذى عقد بدمشق ، عام ١٩٣٦
٣ — مؤتمر المستشرقين ببروكسل ، عام ١٩٣٨
٤ — مؤتمر أبى العلاء المعرى بدمشق عام ١٩٤٤
٥ — الندوة العالمية للاسلاميات بلاهور عام ١٩٥٧

**رحلاته :**

ارتحل كثيرا الى البلاد العربية كلها ، ثم ارتحل مرات الى تركيا وايران وپاكستان والهند . وشارك فى النشاط العلمى والأدبى فى البلاد التى زارها .

**الأوسمة :**

١ — النيشان العلمى من حكومة ايران ، عام ١٩٣٥
٢ — وسام الأرز الوطنى من درجة قومندور من الحكومة اللبنانية ، عام ١٩٤٧

* * *

هذا بعض ما تعيه الذاكرة فى هذه الساعة العصيبة التى أرانى أكتب فيها شيئا عن الرسميات فى حياة أستاذى الجليل ، وصديقى الوفى الأمين ، وزميلى العالم الفذ والأديب العظيم ، عبد الوهاب عزام .

ولكن عبد الوهاب عزام لم يكن يشعرك بأنه يحمل هذه الألقاب كلها ، ولم يكن فى حديثه المتواضع ، الهادىء ، الرصين ، يشعرك بأنه صاحب هذه الأعمال العلمية والأدبية كلها . ولم تكن تحس من الرجل الذى عرف هـذا القدر من اللغات ، الشرقية والغربية ، والذى أقام فى أوربا سنوات وأقام فى بلاد شرقية سنوات طويلة أخرى ، والذى كان مرهف الحس ، رقيق الذوق ، لم تكن تحس منه شيئا جديدا غير ما ألفت فيه وهو شاب حديث التخرج فى مدرسة القضاء .

انه نسيج وحده ، يتسع أفقه ، وتزداد ثقافته وتتنوع ، ويقرأ بالانجليزية والتركية والفارسية والأردوية ، وهو فى هذه اللغات كلهـا يقرأ لخير كتابها ومتصوفيها وفلاسفتها ، فلا يبعث هذا فى نفس الأستاذ الا مزيدا من التواضع ، وشوقا الى التطلع لمعرفة أكثر . وأشـهد أنى ما رأيت عالما ، فيـه السماحة ، والتواضع ، واجلال العلم ، كما رأيته . وأشهد أنى ما جلست بمجلس علماء فيه الأستاذ الا وكان أميلهم الى الصمت وأحرصهم على السمع وأقلهم شـوقا الى الكلام ، ومع ذلك فكان هو الذى ترنو اليه الأنظار وتوجه اليه الأسئلة ، كان كلامه هو المرتجى وحديثه هو المنشود .

* * *

ان الذين أتيح لهم أن يتلقوا العلم كتلاميذ لعبد الوهاب عزام ، ثم أتيح لهم أن يكونوا له زملاء فى الجامعة ، ثم أتيح لهم بعد هذا كله أن يصفو بينهم وبينه الود فتكون الصداقة الحقة التى لا تشوبها شائبة من دنيات مطالب الحياة ، ان هؤلاء يعرفون حق المعرفة أن عبد الوهاب عزام قد امتاز عن أقرانه الأساتذة بميزة خاصة هى أنه رسم لنفسه خطة منذ كان طالبا بالقضاء الشرعى ، وأنه ظل طوال حياته يسير فى اتجاه واحد لتحقيق ما يقدر عليه من هذه الخطة . انها خدمة الاسـلام والعربية . قل أن تقرأ للأسـتاذ بحثا أو كتابا لا يكون مدار الحديث فيه الاسلام أو العربية .

والأستاذ أول من عمل فى مصر على انشاء الدراسات الشرقية وأول من علم الفارسية والتركية وآدابهما فى الجامعة ، وهو أستاذ جميع من يعنون بهذه الدراسات فى الجمهورية العربية المتحدة اليوم . وكان الأستاذ يهدف الى خدمه الثقافة العربية خاصة والثقافة الاسلامية بوجه عام بتعليم الدراسات الشرقيـة جنبا الى جنب مع اللغة العربية وآدابها .

وهو أول من قدم الى العرب شاعر الاسلام محمد عاكف . وقصـة عزام وعاكف ، رحمهما الله ، تكشف عن القلب الكبير الذى كان يحمله فقيدنا عبد الوهاب عزام . لقد كان حريصا الحرص كله على أن يشعر شاعر الاسلام بمكانته وصادق دعوته الى تقوية روح المسلمين وتذكيرهم بماضيهم المجيد ممثلا فى حياة النبى الكريم صلوات الله عليه وحياة صحبه الذين حكموا العالم الاسلامى حكما يعد المثل الأعلى فى الحياة السياسية الناجحة الهادفة العاملة . ومن ثم أتاح عزام لعاكف منبر الجامعة ، وجاء به يقدمه الينا ونحن طلاب ويذكر لنا رسالة محمد عاكف التى هى أصلح ما تكون لبث الوعى الاسلامى ولبث العزة فى نفوس المسلمين ثم اذا به يحدثنا عن شعر محمد عاكف وتأثره الشديد بالثقافة العربية الخالصة سواء من ناحية الفكر أو من ناحية الألفاظ أو من ناحية الهدف الذى يقصد اليه الشاعر .

وعرف عزام كيف يكون الطريق لبث آراء محمد عاكف ، فلم يكتف بما أتاح له من محاضرات لطلاب الجامعة ، بل عكف على أشعار عاكف و«صفحاته» يقلبها ويختار الدر منها وينشره على الناس كافة فى مجلة الرسالة ليكون النفع بهذه الآراء أعم وأكثر شمولا .

ويعمل عزام سفيرا لبلاده فى پاكستان ، وخطته دائما نصب عينيـه ، فهو ينتهز فرصة اقامته فى هذا البلد الاسلامى لكى يزور قبر صديقه اقبال فيتعرف على ابنه ومريديه ، وهناك ينكب على آثار اقبال درسا وبحثا وترجمة ، فيخرج الى العربية « پيام مشرق » ويوحى اليه هـذا السفر أن ينظم « اللمعات » فيلحقها بترجمته العربية ، ثم هو يزداد اقبالا على اقبال فيكتب عنه بالعربية كتابا يضمنه آراءه ويشرح فلسفته فى الذاتيـة . ولقد كان عزام معتزا بهـذه « الذاتية » لأنها تدفع المرء الى أن يعتز بنفسه والى أن يطرح التواكل والتسليم

والى أن يعمل ويعمل لأن بناء المجتمع السليم هو نتيجة جهد كل فرد فيه ، واذا أصيب مجتمع بتخاذل أفراده فان الانحلال سرعان ما يعمل فيه هدما وتدميرا .
وهكذا يقدم عزام « اقبالا » للعرب وللمسلمين كما قدم من قبل صديقه الشاعر التركي العظيم محمد عاكف .

واذا كان اقبال خصما عنيدا لشاعر التصوف الفارسى حافظ الشيرازى ، مع اعجابه به ، هذا الاعجاب الذى يجمع أهل الرأى عليه ، فان عزاما كاقبال كان كذلك يخشى على المسلمين من تصوف حافظ . انه من هذه المدرسة العملية التى تدعو الناس الى اطراح التصوف مع التفانى والانقطاع عن الدنيا والشرود فى ملكوت الله . انه يدعو الى الزهد فى زيف المظاهر ويدعو الى العمل على نهج عمر وأبى بكر ، هذا النهج العازف عن زخرف الدنيا والقائم فى الوقت نفسه على تعمير هذه الدنيا وبث غاية العمران فيها .

وهذا هو التصوف عند عزام : ترك المظاهر الزائفة فهى قشور والتمسك بالجوهر الحق فهو سر الحياة .

ويعمل عزام سفيرا لبلاده فى الحجاز واليمن ، وخطته دائما نصب عينيه ، فهو يدرس الجزيرة العربية ، دراسة الجواب ، يجوب أرجاءها ويحقق مكان سوق عكاظ وغيره من هذه المواضع التى قرأ عنها والتى لها فى ماضى العرب أطيب الذكريات . ثم هو يعكف على تاريخ العرب قبل الاسلام ، ويطرق البلاد التى عرفناها فى الكتب « باليمن السعيدة » ، ليرى بنفسه آثار العمران التى يتحدث عنها المؤرخون وليحقق بنفسه مكان سد مأرب وكيف أدى صدعه الى هجرة عرب الجنوب الى الشمال . وتكون نتيجة هذا كله أبحاثا دقيقة واعية تذكرنا بعلمائنا القدامى الذين كانوا يكملون ثقافتهم بالرحلات العلمية ويرون فيها منهلا للدرس لا غنى عنه .

والأستاذ حريص أشد الحرص على عروبته واسلامه ، غيور على لغته ، وقد انبرى للدفاع عن الحروف العربية يوم دعا الأستاذ الجليل المغفور له عبد العزيز فهمى الى الحروف اللاتينية . وقد خشى عزام أن تلقى دعوة عبد العزيز قبولا لدى العرب ، ومنطق عبد العزيز فهمى وقوة بيانه وقدرته على الدفاع عن رأيه كل هذا كان كفيلا بأن يقنع بعض الناس برأيه . ولكن « عزام » الأستاذ

الهادىء الوديع يعرف ما لم يكن يعرفه عبد العزيز فهمى . انه يعرف ماذا كان من أمر التراث الاسلامى فى بلاد الترك بعد أن ألغى مصطفى كمال الحروف العربية واستبدل بها الحرف اللاتينى . وهو يعرف ما يعانيه الجيل الجديد فى البلاد التركية من جهل بأصول ثقافته ومجد ماضيه ومن عجزه عن ايقاظ الروح الاسلامى فى بلاد كانت يوما الحافظة للدين وللتراث الاسلامى جميعا . وهو يقرأ أنات الترك المفكرين مما فرضته السياسة المضللة التى حكمت على أمة بأن تنسى ماضيها وأن تجهل تراثها . وهو يقرأ أيضا عن محاولات بذلت فى ايران لنبذ الحروف العربية ، محاولات باءت بالفشل لأن الأمة الايرانية المجيدة ذادت عن لغتها وعن نصيبها العظيم فى التراث الاسلامى . فقام « عزام » خطيبا فى قاعات المحاضرات وكاتبا فى « الثقافة » يفند الحجج التى قدمها عبد العزيز فهمى، ويذكر تاريخ القضية والنتائج التى ترتبت على هذه التجربة الخاطئة فى تركيا ، مستشهدا بأقوال الترك أنفسهم . وكان لجهد الأستاذ فى هـذا التوفيق ، فنامت فكرة الحرف اللاتينى ، وتنبه الناس الى ثقافتهم وتراثهم الخالد واستمسكوا بلغة القرآن والحضارة الاسلامية فى ثوبها الذى عرفت به قشيبا مبرءا من كل سوء .

هذا هو عزام صاحب الرسالة .

أما عزام صاحب الخلق فالحديث عنه مشوق يطول . شاركته فى مؤتمر المستشرقين فى بروكسل وكان قد جاء مع المغفور له أستاذنا الجليل أحمد أمين، وأشهد ما رأيت ودا ودودا كالذى رأيته من عزام نحو أحمد أمين . كان يخاطبه « بالأستاذ » ويقدمه على نفسه فى كل شىء ، فى الوقت الذى كان أحمد أمين يكن له من الاكبار والاجلال ما لا يخفى على الحاضرين .

ومات صديقه وزميله وأستاذنا الجليل عبد الحميد العبادى ، فاذا به يرثيه فى الجرائد واذا به يسهر الليالى ليكتب عنه مقالا ولكن المقال يطول ، والفكر يدأب ، والذكريات تتداعى ، فاذا المقال كتاب ، كتاب يوم ينشر يعرف الناس أن العالم الفذ والأديب العبقرى عبد الوهاب عزام ، كان الى جانب علمه وأدبه على خلق عظيم .

رحمه الله .

يحيى الخشاب

# كتاب بيان الأديان

تاليف

**أبو المعالى محمد الحسينى العلوى**

ترجمه عن الفارسية الى العربية

**يحيى الخشاب**

**مقـــدمة :**

كتاب « بيان الأديان » الذى تم تأليفه فى غزنة سنة ٤٨٥/ ١٠٩٢ يعد أقدم نص فارسى عن الملل والنحل حتى الآن . وكاتبه أبو المعـالى محمد الحسينى العلوى سنى تبدو ثقافته الواسعة من كتابه الذى نقدمه الى قراء العربية اليوم . فهو يذكر ضمن مراجعه :

البدء والتاريخ . . . للمقدسى

أبد على الأبد . . . للعامر النسابورى

آراء الهنـــد . . . للبيرونى

المقـــالات . . . لأبى عيسى الوراق

المقنع فى الغيبة . . . السيد المرتضى

مما يدل على أن الكاتب يرجع فى كتابته الى مصادر أصيلة فى المواضيع التى يتناولهـــا .

والكتاب على صغره شامل للأديان القديمة وما جد فى الاسلام من مذاهب . وهو سليم المنهج لا يلمس فيه القارىء عصبية أو ميلا لرأى دون رأى . وقد أشار الى فرقة الناصرية أتباع ناصر خسرو ؛ لأول مرة فيما نعلم .

وقد عنى المستشرقون بهذا الكتاب . نشره شارل شيفر Charles Schefer فى المجلد الأول من : Chrestomathie Persane سنة ١٨٨٣ : ص ١٣٢ — ١٧١

وعنى بترجمته الى الفرنسية هنرى ماسيه Henri Massé ، وقد نشرت ترجمة فى : Revue de l'Histoire des Religions بالعدد ٩٤ سنة ١٩٢٦ ، ص ١٧ — ٧٥ .

وترجمة ماسيه هى للنص ذاته الذى نشره شيفر من قبل . وهو يذكر فى ص ٧٢ أن ماسينيون أخبره أن بهبهانى كان يملك نسخة أوفى من بيان الأديان لأن بها اشارات للحلاج ولأبى هاشم الكوفى .

والواقع أن أبا المعالى يتحدث عن أصول المذاهب الاسلامية ويقول انها لا تعدو الثمانية وهى : السنة والجماعة ، المعتزلة ، الشيعة ، الخوارج ، المجبرة ، المشبهة والكرامية ، الصوفية ، المرجئة .

ولكن النص الذى بأيدينا لا يتناول سوى المذاهب الأربعة الأولى مما يدل على أنه غير كامل . ( ص ٣٢ من هذه الترجمة ) .

وجاء عباس اقبال فنشر نص شيفر مرة أخرى مع تعديلات طفيفة ولكنها قيمة ترجع فى الأكثر الى التدقيق فى تفهم النص .

وفى عام ١٩٤٢ رأى أستاذنا الجليل المغفور له الدكتور عبد الوهاب عزام أن يدرس كتاب بيان الأديان لطلاب معهد اللغات الشرقية وآدابها كنص جامع للأديان القديمة ولأهم الفرق الاسلامية ، فقمنا بتدريسه ونقلناه الى اللغة العربية حينذاك .

واليوم اذ نخرج هذا العدد من مجلة كلية الآداب احياء لذكرى الأستاذ العظيم عبد الوهاب عزام ننشر هذه الترجمة اعترافا بفضله وحسن توجيهه .

يحيى الخشاب .

بسم الله الرحمن الرحيم

ان علينا أن نشكر الله جل جلاله وعم نواله لما عرفنا عن ذاته وأظهر لقلوبنا طريق معرفته لنعلم أنه موصوف بصفات الكمال فعظمته بغير منتهى وأوله وآخره بغير ابتداء وانتهاء ، لا يجوز عليه التشبيه ولا الكيف ولا المكان ، خالق الماء والنار والتراب والهواء والخلاء والملا ، ما هو بالساكن أو المتحرك وهو الذى يختار ويبعث الأنبياء وخاصة أفضل الخلق محمد صلى الله عليه وسلم المصطفى والمجتبى والمعلى الذى هدى الناس الى الحق ودعاهم الى العدل والصدق وعلم أمته الطريق الى الحق والاسلام وأنار وأضاء شمع ( الهداية ) فى كل القلوب . فصلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليما .

هكذا يقول مؤلف الكتاب الأمير السيد الأجل الامام العالم أبو المعالى محمد بن عبيد الله بن على بن الحسن بن الحسين بن جعفر بن عبيد الله بن الحسين ابن على بن أبى طالب رضى الله عنهم وتغمدهم برحمته أن ليس شىء فى العالم أوجب بعد طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم والقيام بالفرائض والشريعة من طاعة أولى الأمر الذين اختارهم الله من بين الخلق وولاهم أمر عباده ليرشدوا خلقه الى العدل والصدق وليحفظوا الضعيف من القوى . والدليل على استقامة هذا المعنى أن الله تعالى أمر بطاعتهم فى المصحف المجيد الشريف أمره بطاعته ورسوله وهو قوله عز وجل : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » (١) .

## فاتحة الكتاب

أعلم أنه كان للملوك الغابرين من عهد أبينا آدم عليه السلام حتى اليوم نعم وتحف وطرف وأنها فنيت جميعا ولم يبق لأى منها ذكر الا لما صنف لهم من كتب العلم والحكمة أو ما قيل فى مدحهم من الأشعار الجميلة فهذه تبقى وتسير على الألسن فيموتون ويبقى ذكرهم خالدا بين الناس . ومن جملة الحاجات التى طلبها ابراهيم عليه السلام من ربه هى أن يبقى ذكره بين الناس قوله عز وجل :

« واجعل لى لسان صدق فى الآخرين » (٢) واللسان الصدق هو الثناء الحسن ، فاستجاب الله تعالى لدعائه وقضى أن يذكر كل يوم فى الصلوات الخمس . « كما صليت . باركت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم انك حميد مجيد » .

موضوع الكتاب :

دار الحديث فى مجلس ملكى عن شرح الأديان والمذاهب الجاهلية والاسلامية وفى معنى الخبر المروى عن النبى ( صلعم ) ومؤداه أن أمتى تختلف الى ثلاث وسبعين فرقة يهلك اثنان وسبعون وتنجو فرقة واحدة . هذه الفرق الثلاث والسبعون ما هى وما لقب كل منها وما مقالته وبأى شىء توصم كل منها حتى يقرأ الناس مذاهب أهل الضلال ويعرفوا ضلالهم وحتى يعرف أهل السنة قدر نعمة الله تعالى الذى عصمهم بتوفيقه من مثل هذه الضلالات . واذ ذاك يشكرون تلك النعمة على قدر وسعهم ( لقوله تعالى ) : الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله » (٣) ومن ناحية أخرى فانهم ( أهل السنة ) يعرفون حجة خصومهم ويقفون على عثرات المذاهب وفضائحها ، فيستطيعون افحامهم على أيسر وجه ويظهر حسن المذهب السنى اذا قوبل بقبح غيره فيعرف السنى أن اختياره كان خيرا عظيما وأنه يتمشى مع قانون العقل ويصح عنده ، وعلى ذلك تزداد بصيرته ويزداد يقينه بمذهبه السديد .

وقد سمينا هذا الكتاب بيان الأديان وأوضحنا فهرست الأبواب هنا تسهيلا للباحث ، والله الموفق وصلى الله على محمد وآله .

ولم نأت بما كتبناه فى هذه الأبواب من عندنا وانما ذكرنا ما تعلمناه وقرأناه ، فمنه ما قرأناه على الأساتذة أو الأئمة ومنه ما تلقفته الذاكرة وما التقطناه من كتب المشاهير وذكرنا غالبا أسماء الأساتذة والكتب وأحلنا عليهم الكلام حتى لا ينسب الينا قارىء ما لا يحلو له من هذا الكتاب فقد قيل :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدى المساويا

## الباب الأول

### فى بيان أن أكثر الخلق فى جميع الأزمان والأقاليم يقرون بالصانع

نبدأ الكلام فى هذا الباب بقول الله تعالى فى محكم كتابه « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله » (٤) . ( يلى ذلك شرح فارسى للآية يقول المؤلف ان أقوال المفسرين مجمعة عليه ) . وعندى أن كلمة الله اسم مخصوص به تعالى والقول عن اشتقاقه اللغوى غير محقق . واسماء الله صنفان فبعضها من الأسماء المشتركة بحيث يجوز أن يسمى بها المخلوق مثل الحكيم والعليم وما شابه هذا ، والبعض الآخر يختص الله بمعناه بحيث لا يجوز تسمية مخلوق بها مثل الخالق والبارىء والمصور فهو مخصوص بمعنى هذه الأسماء فانه هو الخالق والبارىء والمصور ولا يجوز أن يسمى بهذه الأسماء مخلوق قط . وبعض هذه الأسماء يختص الله بلفظه كالرحمن والله وهما خاصان بالله تعالى ولم يسم العرب بهما انسانا أبدا الا جماعة من بنى حنيفة سمت مسيلمة الكذاب رحمن اليمامة وسنذكر ذلك فى مكانه ان شاء الله . أما هذان الاسمان « الرحمن والله » فخاصان بالله تعالى عز من قائل : قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياما تدعوا فله الأسماء الحسنى» (٥) والمقصود من هذا الكلام هو أن اسم الله كان مشهورا ومعروفا عند العرب وأنهم ما كانوا يدعون بهذا الاسم أحدا غير الله وكانوا يذكرونه فى الأشعار الجاهلية . وكانوا ، قبل الاسلام ، يكتبون فى بدء رسائلهم « باسمك اللهم » كما نكتب نحن فى الاسلام بسم الله الرحمن الرحيم . وفى الخبر أن النبى عليه السلام أمر حين نزلت هذه الآية « وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرسيها » (١) أن يبدأوا كتاباتهم بكلمة بسم الله فلما نزلت هذه الآية « قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن » (٢) أمر بكتابة

« بسم الله الرحمن » ثم لما نزلت هذه الآية « انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم » (٨) بقى ( الاستفتاح ) على هذه السورة الأخيرة .

### الفرس

ان الفرس ( القدماء ) سموا الله تعالى هرمزد وايزد ويزدان . وقد أقروا بوجود الصانع . وهذه الفرقة منهم كانت تعبد النار وكان مذهبها فى عبادة النار كمذهب عباد الأصنام من العرب فى الصنم وقد قال تعالى حكاية عن هؤلاء : « ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى » (٩) ، وقد اعتقد عباد النار هذا الاعتقاد نفسه . وكل من ملك فى العجم وتحققت له أعمال عظيمة كانوا يرون فيه شيئا يسمونه « فر ايزدى » أو « يزد فره » . وقد جاء فى تاريخ المقدسى (١٠) أن فى فارس معبدا للنار يقال انه قديم جدا وان به كتابا جاء به زردشت فى ثلاثة أبواب : زند وپازند وأوستا . وقد بدأ هذا الكتاب بهذه الألفاظ « فى كمان هى رستخيز هى بهستى هرمزد وامشا سپندان » . ومعناها : لا ترتابن فى يوم القيامة ولا ترتابن فى وجود الله وملائكته » .

### الفارسية الدرية

وهم يسمون الله تعالى بالفارسية خداى وبارخداى وخداوند ويقولون أن معنى خداى أنه موجود بنفسه ولم يوجده أحد وأنه ليس مخلوقا .

### الفلاسفة

يقول الحكماء والفلاسفة المسمون أساطين الحكمة أن الله تعالى هو الخير الأول كما يقولون أنه واهب العقل وانه البارى . ولأبى الحسن العامى (١١) كتاب سماه « أبد على الأبد » ذكر فيه أن جالنيوس لم يكن يسمى حكيما أو فيلسوفا لأنه قال انى أشك فى أوصاف الخير الأول فقيل له ان من يشك فى أوصاف خالقه لا يستحق اسم حكيم أو فيلسوف ، فعليك بالمادة ومعالجة المرضى . ومن هنا سموه الطبيب .

وذكر أبوالخير الخمار (١٢) فى كتابه أن أفلاطون صنف كتابا سماه استيطكين (١٣) يقول فيه : « اننا لا نبعد من الحق اذا قلنا عن الخالق أنه الخير الأول بحكم أنه مظهر الخيرات وأنه فى الحقيقة هو المعطى وبعد ذلك نعرف أن كل ثناء منا سليه

مهما عظم فانه لا يليق بعظمته اذ ليس لنا قدرة على أن تثنى عليه ثناء لائقا به .
ونحن لا نستطيع ادراكه بالحواس وليس للعقل احاطة بذاته . فهو الذى أظهر
كل ما ظهر وعليه حفظ ما خلق ، ليس له ابتداء أو وسط أو انتهاء ولا شبيه له
ولا نظير » هذا هو مذهب أفلاطون وتلاميذه فى توحيد الله تعالى .

أما ارسطاطاليس فقد كتب الى الاسكندر حين ذهب لحرب دارا بن دارا
( دار الثالث ) كتابا قرأت نسخته فى تاريخ المقدسى ، قال فيه : يا اسكندر قل
لدارا لا تفخر بجيشك وسلاحك وعدتك فانى ملاقيك بعسكر قليل عددهم لكن
قوتهم عظيمة ، فان جندى يطلبون النصر من الخالق الواحد الذى لا أول له ولا
آخر ولا شبيه له ولا نظير ، الملك الذى لا زوال لملكه ، القادر الذى لا يجوز
عليه العجز ، السلطان الذى لا يجوز عليه الموت ، انى أطلب منه النصرة ، وبهذا
الجيش الذى وصفت سوف أحاربك *

فلما بلغ خبر الفتح أرسطاطاليس كتب له كتابا آخر قال فيه :
« يا اسكندر لا تحسبن ما لقيت من النصر والظفر من عندك ولكن اعلم أنه من
التأييد الالهى فاشكر البارى جل وعز وقل ان الحمد والمنة فى الحقيقة لك ،
انى أعرفك وأرفع اليك حاجتى وأتطلع الى استجابتك يا من لا ابتداء لألوهيته
ولا زوال لملكه ، خلقت الخلق ومن العدم خلقت الوجود ، أيها القوى الذى
لا يضعف أبدا ، أيها القادر الذى لا يعجز أبدا ، أيها الحكيم الذى لا يجد
الجهل طريقا اليه ، أيها الوهاب الذى لا يبخل أبدا ، يا من لا تجوز عليه التجزئة
ولا الكيف ، يا من عجز فكر الخلق عن معرفته وادراك عظمته ، انا عن شكر
مواهبك وعطاياك عاجزون » .

## الروم والقبط والحبش

لغتهم السريانية فأكثرهم من النصارى . والسريانية قريبة من العربية .
وهذا هو اسم الله تعالى فى لغتهم : « الاها ، مارا ، قودشا » ، يعنى الله ورب
وقدوس . أما باللغة العبرية ، لغة اليهود ، فيذكر اسم الله تعالى بهذه الألفاظ :
« الوهيم آذوناى اهيا اشراهيا » . وهذا هو أول التوراة : « بريشيث بارا
الوهيم » ولا شك أنهم يقرون بالصانع ولو أن بين مقالة اليهود ومقالة
المسيحين اختلافا وسنذكر ذلك فى مكانه ان شاء الله تعالى .

* لم نستطع الرجوع الى النص العربى .

## الترك

الترك يسمون الله تعالى تاكرى وبرتاكرى أى الله الواحـد وكوك تاكرى يعنى رب السماء وسمعت أنهم يسمونه أيضا ألغ بايات يعنى أكبر الكبار .

## الهنـد

يقول المقدسى ان الهنود يسمون الله تعالى سرشتيا وايت مهاديو . وقد أورد المنجم أبو ريحان فى كتابه الذى سماه آراء الهند جميع طرق الهنود ومذاهبهم، وفى الباب الثانى من هذا الكتاب ذكر فصلا فى التوحيد أنقله هنا .

قال : وللهنود كتاب يسمونه پاتنجل (١٤) الكلام فيـه على طريقة السؤال والجواب على هذا النحو :

قال السائل :

من هذا المعبود الذى ينال التوفيق بعبادته ؟

قال المجيب :

هو المستغنى بأزليته ووحدانيته عن فعل لمكافأة عليه براحة تؤمل وترتجى أو شدة تخاف وتتقى ، والبرىء عن الأفكار لتعاليـه عن الأضـداد المكروهة والأنداد المحبوبة ، والعالم بذاته سرمدا ، اذ العلم الطـارىء يكون لما لم يكن بمعلوم وليس الجهل بمتجه عليه فى وقت ما أو حال .

ثم يقول السائل بعد ذلك :

فهل له من الصفات غير ما ذكرت ؟

ويقول المجيب :

له العلو التام فى القدر لا المكان فانه يجل عن التمكن ، وهو الخير المحض التام الذى يشتاقه كل موجود ، وهو العلم الخالص من دنس السهو والجهل .

قال السائل :

أفتصفه بالكلام أم لا ؟

قال المجيب :

اذا كان عالما فهو لا محالة متكلم .

قال السائل :

فاذا كان متكلما لأجل علمه فما الفرق بينه وبين العلماء الحكماء الذين تكلموا من أجل علومهم .

قال المجيب :

الفرق بينهم هو الزمان فانهم تعلموا فيه وتكلموا بعد أن لم يكونوا عالمين ولا متكلمين ونقلوا بالكلام علومهم الى غيرهم فكلامهم وافادتهم فى زمان ، واذ ليس للأمور الالهية بالزمان اتصال فالله سبحانه عالم متكلم فى الأزل وهو الذى كلم ابراهيم ( براهم ) وغيره من الأوائل على أنحاء شتى ، فمنهم من ألقى اليه كتابا ، ومنهم من فتح لواسطة اليه بابا ، ومنهم من أوحى اليه فنال بالفكر ما أفاض عليه .

قال السائل :

فمن أين لهم هذا العلم ؟

قال المجيب :

علمه على حاله فى الأزل ، واذ لم يجهل قط ، فذاته عالمة ثم تكتسب علما لم يكن له كما قال فى بيذ الذى أنزله على براهم : احمدوا وامدحوا من تكلم بيذ وكان قبل بيذ .

قال السائل :

كيف تعبد من لم يلحقه الاحساس ؟

قال المجيب :

تسميته تثبت أنيته فالخبر لا يكون الا عن شيء والاسم لا يكون الا لمسمى وهو وان غاب عن الحواس فلم تدركه فقد عقلته النفس وأحاطت بصفاته الفكرة وهذه هى عبادته الخالصة وبالمواظبة عليها ينال السعادة .

فهذا كلامهم فى هذا الكتاب المشهور .

وقد أورد أبو ريحان فى هذا الكتاب أسماء كتب الهند فى التوحيد : كبتا وبهارت وباسديو وسانك وارجن .

ويجرى الكلام فى هذه الكتب الخمسة على النحو الذى ذكرنا • ويسمى بعض الهنود الله « أيشفر » (١٥) أى المستغنى الجواد •

### الزنوج (١٦)

أما الزنوج فمع أنهم بين الآدميين كالسباع ، وانهم لا يشتغلون بشىء غير المرح واللهو ، فانهم يقرون بالصانع • واسم الله تعالى فى لغتهم فلكوى حلوى•

والغرض من ذكر هذه الأسماء هو أن يتقرر أنه مع ما كان ويكون بين الخلق من تفاوت فان أكثرهم يعترفون بالصانع ويذكرونه تعالى باسم مخصوص من لغتهم ويرفعون اليه أكفهم ضراعة وقت الشدائد ، وهذا أكبر دليل على وجوده•

وهكذا ننهى هذا الباب كما قلنا بعون الله ومنّه •

## الباب الثانى

### فى بيان المذاهب قبل الاسلام

نبتدىء بمذاهب العرب • حكى أبو عيسى الوراق (١٧) فى كتابه أن جماعة من العرب كانوا يقرون بالصانع وبيوم القيامة ولكن لم يؤمنوا بالرسل صلوات الله عليهم وقد احتج بقول زهير بن أبى سلمى :

يؤخر فوضع فى كتاب فيدخر ليوم حساب أو يعجل فينقم (١٨)

وكان بعضهم يعبد الأصنام ولا يعرف غير الصنم صانعا • وكان بعضهم يضع هذه الأصنام فى الكعبة ويضع لكل صنم اسما •

وقد ذكر الله تعالى أسماء بعض الأصنام فى القرآن المجيد • قوله تعالى : « ولا تَذرُنّ ودّاً ولا سُواعاً ولا يغوث ويعوق ونسرا (١٩) » وقوله فى آية أخرى : « أفرأيتم اللات والعزى ومنات الثالثة الأخرى » (٢٠) •

ولما كان الله تعالى قد ذكر أسماء بعض هذه الأصنام فلنذكر نحن الأصنام المشهورة لكل قبيلة حتى يعرفها القارىء • كان سواع لبنى هذيل ، وود لبنى كلب ، ويغوث لهمدان ، ونسر لبنى كلاع بأرض حمير ، ويعوق لمذحج واليمن

وحده دومة الجندل ؛ واللات لثقيف بالطائف ، والعزى لقريش وكنانه ، ومناة للأوس والخزرج وغسان ، أما هُبل فقد وضعوه فى الكعبة وهو أعظم الأصنام ، ووضع اساف ونايله على الصفا والمروة ، وسعد لبنى ملكان بن كنانة** وعدا هذه الأصنام أصنام كثيرة كل منها خاص بقبيلة كما ذكرنا (٢١) .

وقد اعتنق بعض العرب مذهب التعطيل فكانوا دهريين (٢٢) كما يقول الله تعالى فى القرآن حكاية عنهم : « وقالوا ما هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر » (٢٣) وقد قال شاعرهم فى انكار الحشر ويوم القيامة :

أيخبرنا الرسول بأن سنحيا ... وكيف حياة أصداء وهامِ

وكان بعضهم يعبد الملائكة ويقولون انهم بنات الله . تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا . وقد قال الله تعالى عن قولهم : « ويجعلون لله البنات سبحانه » (٢٤)

وكان بعضهم يقر بالقيامة كما يقول شاعرهم :

أبُنى زودنى اذا فارقتنى ... فى القبر راحلة برحل قاتر
للبعث أركبها اذا قيل أظعنوا ... مستوثقين معا لحشر الحاشر(٢٥)

وكان بعضهم على دين الاسلام فقد جاء فى الأخبار أن رجلا يسمى تُبع ابن كليكرب الحميرى آمن بالنبى عليه السلام قبل بعثه وقال شعرا فى هذا المعنى ، هذا نصه :

شهدت على أحمد أنه ... رسول من الله بارى النسم
فلو مد عمرى الى عمره ... لكنت وزيرا له وابن عم

ومن هؤلاء قس بن ساعدة الايادى حكيم العرب . وقد قال النبى عليه السلام انى أذكره فقد رأيته فى سوق عكاظ على جمل أحمر وهو يعظ الناس . وهذه قصة طويلة وقد أثنى عليه الرسول عليه السلام .

---

* لا محل هنا لكلمة سعد ملكان التى جاءت بالنص الفارسى ، ص ١١ سطرا
** النص الفارسى هنا مضطرب ، والتصحيح عن مفاتيح العلوم للخوارزمى ، ص ٣٩

ومنهم أبو قيس صرمة بن أنس (٢٦) من بنى النجار فانه سئم عبادة الأصنام وجعل بيته مسجدا وقال انى أعبد رب ابراهيم ، فلما بعث النبى عليه السلام آمن به وبلغ فى الاسلام درجة عالية .

ومنهم خالد بن سنان (٢٧) من بنى عبس بن غيث فقد آمن بدين الاسلام قبل النبى عليه السلام ، بل ولما يولد النبى ، وقد مات مقتولا . ثم ان ابنته أدركت النبى وآمنت به .

ومنهم أمية بن أبى الصلت الثقفى وكان قد سئم عبادة الأصنام وقال ان نبيا سيبعث وان بعثه قريب وقد ظن أنه سيكون ذلك النبى ، فلما بعث النبى عليه السلام وظهرت رسالته ملأه الحسد فلم يؤمن به ومات على غير دين . وقد قرىء شعره أمام النبى عليه السلام فقال : « هذا الرجل آمن لسانه وكفر قلبه » .

ومنهم زيد بن عمرو بن نفيل (٢٨) وعامر بن الظرب العدوانى (٢٩) الحكيم وعمرو بن يزيد الكلبى (٣٠) فهؤلاء الثلاثة كانوا يودون لو امتد بهم العمر حتى يلاقوا النبى عليه السلام ويؤمنوا به ولكنهم ماتوا قبل ذلك .

وكان بعض العرب كهانا مثل سطيح وشق (٣١) وأخبارهم معروفة ، وكان بعضهم يهودا كأهل خيبر ، وبعضهم نصارى كبنى غسان وبنى تغلب وبعضهم مجوسا كبنى تميم وبنى عبس .

واذ فرغنا من ذكر مذاهب العرب نشرح مذاهب الفلاسفة ان شاء الله تعالى.

## مذاهب الفلاسفة

روى ارسطاطاليس عن معلمه أفلاطون الذى كان تلميذا لسقراط الحكيم أن سقراط قال : ان مذهب المتقدمين وأئمة الفلاسفة الذين كانوا حكماء زمنهم مثل أغاذيمون وهرمس وفيثقرس وغيرهم هو أن الله تعالى واحد ، أزلى ، كامل ، ليس بناقص ، وهو سبب الأسباب وعلة العلل ، وهو الخير المحض ، وصانع الموجودات الحقيقى ، وهو مبدع كل شىء ، ليس مركبا ولا مصورا ولا موضوعا ، لاند له ولا ضد ولا كفؤ ، ولا حاجة به الى نظير . وكانوا يفرضون على كل انسان أن يذكر الله تعالى بغاية التبجيل والتعظيم وكانوا يتحلون

التطهر بالماء عند الحاجة اذ لا يضر به أحد ، وكانوا يفرضون الكسب والعمل على الأصحاء ، ويعاقبون من يرون فيه اعوجاجا : ويفرضون فلاحة الأرض على أهلها ، وكان الفلاحون موضع احترامهم الكامل : وكان تلقى العلم والحكمة من الفرائض عندهم ، وكانوا لا يقتلون من الحيوانات الا ما كان فيه خطر أو أذى للناس ، وكانوا يعظمون الملوك ويدفعون العشر والخمس . ومذهبهم فى الأرواح هو أن الروح كلية وجزئية والروح الجزئية هى التى تحل فى جسم الانسان لتتهذب ثم تخرج منه وتعود الى كلها ، وما خرج من غير تهذيب يظل فى الأثير ولا يستطيع بلوغ الروح الكلية .

## مذهب اليهود(٣٢)

اتفق اليهود على أن الصانع واحد . ولكن فرقة منهم مشبهة تقول بالتشبيه. وفرقة أخرى لا تقول بالتشبيه . ويعتقد اليهود فى نبوة موسى وهرون ومن سبقهم من الأنبياء عليهم السلام ، ويؤمنون بالأنبياء الذين جاءوا على دين موسى وهارون مثل يوشع وأمثاله ، وينكرون عيسى ومحمدا عليهما السلام ويؤمنون بالتوراة والزبور وكتب الله جل جلاله التسعة عشر .

**١ ـ السامرية(٣٣) :**

لا يؤمنون بغير التوراة والأنبياء الثلاثة : موسى وهارون ويوشع بن نون عليهم السلام .

**٢ ـ العنانية :**

كان من آل داود عليه السلام رجل يسمى عنانى الزاهد ويسميه البعض اعانى وتنسب اليه فرقة من اليهود .

**٣ ـ الراعية :**

تنسب هذه الفرقة الى واحد منهم ظهر بينهم وادعى دعاوى عظيمة .

* * *

**راس الجالوت :**

هو اسم رئيس اليهود والعرف أن يكون من أبناء داود عليه السلام ، وعلامته عندهم أن تكون يده طويلة بحيث أن طرف أصبعه يعدو ركبتيه اذا مد ذراعه ( الى أسفل ) .

**الحبر :**

هم اسم العالم عندهم .

**الراهب :**

هو ساكن الصومعة وجمعه أحبار ورهبان . والقسس هم الرهبان . قال الله تعالى « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم ... » (٩-٣١)

**توراة الثمانين :**

وهى التوراة التى جمع لها ملك من ملوك اليهود ثمانين من الأحبار والرهبان وطلب اليهم أن يترجموا التوراة ، وأفرد لكل منهم مكانا بعيدا عن الآخرين . فلما أتموا عملهم اجتمع كل منهم بزملائه ( لمراجعة ترجمته ) فلم يجدوا أى تفاوت بين تراجمهم . وقد سميت هذه الترجمة « توراة الثمانين » وهم يعظمونها ويقسمون عليها القسم العظيم .

## مذهب النصارى

يقولون للصانع الجوهر وهو إقانيم ثلاثة ويفصلون هذه الأقانيم الثلاثة بأنها : أبا وبرا وروحا قوذشا ( الأب والابن وروح القدس ) وهم ثلاث فرق . اليعقوبية والنسطورية والملكانية .

**١ ـ اليعقوبية :**

ينسبون الى رجل اسمه يعقوب وشارح مذهبه رجل من الأساقفه اسمه متى بن التميم اليعقوبى . ومذهبهم هو أن الصانع قديم من ناحية ومحدث من ناحية ، له صفات اللاهوت أى أنه الله ، وله صفة الناسوت أى أنه آدمى . تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

**٢ ـ النسطورية :**

ينسبون الى رجل اسمه نسطور . يقولون ان الابن وجد من الأب لا على سبيل التناسل والتوالد ولكن كما يجىء النور من الشمس ، والشمس لا تكون بغير نور أبدا . ويقول البعض أن المسيح كان عبدا حل فيه ملكوت الله تعالى وقوته فهو اذا اله وهو آدمى أيضا ، هو ماسح وهو ممسوح ، ومن هنا سمى المسيح .

٣ ــ الملكانية [٣٤] :

ينسبون الى ملكا وأكثر النصارى على مذهب الملكانية وهم يقولون ان المسيح جوهر طاهر ، دخل فى أذن مريم ثم خرج من جنبها الأيمن ولم يمتزج بها مطلقا . ويقولون ان الروح نفذت من مريم كما ينفذ الماء فى الميزاب . ويقولون ان كل من يطهر نفسه من طعام الدنيا يرى الله جل جلاله .

الهيكل :

هو الاسم الذى يطلقونه على مكان عبادتهم ، وقد رسمت فيه صور الأنبياء وصورة عيسى عليه السلام .

مراتبهم فى الدين والحرب :

صاحب المرتبة الأولى عندهم البطريق ولهم دائما أربعة بطارقة يقيم أولهم فى القسطنطينية والثانى يقيم فى روميه والثالث فى الأسكندرية والرابع فى أنطاكيه . وهذه المراكز الأربعة تسمى الكراسى ــ جمع كرمى .

والجاثليق أقل مرتبة من البطريق وكانت اقامته فى دار الخلافة ببغداد . وكان تابعا لبطريق انطاكيه .

والمطران تابع للجاثليق ومقامه فى خراسان ويتبعه أسقف فى كل اقليم والشماس تلميذ القسيس .

ويسمون قيصر عظيم الروم وطاغية الروم وكلب الروم . وكان لابد له من اثنى عشر بطريقا أى اثنى عشر قائدا يحكم كل منهم عشرة آلاف رجل ، وكان ستة من بين هؤلاء يبقون على الدوام الى جانب القيصر والستة الآخرون يتنقلون فى الأقاليم .

والطرنكار تابع للبطريق ويسمونه أيضا قسطيار وينفذ أوامره ألف رجل .

والقومس أقل درجة من الطرنكار ويرأس مائتى رجل .

والعسطرتج أقل درجة من القومس ويرأس أربعين رجلا .

والزاوج أقل درجة من العسطرتج ويرأس عشرة رجال .

مذاهب المجوس [٣٥]

جاء فى الخبر أن الرسول عليه السلام قال : « سنوا فى المجوس سنة أهل الكتاب غير ناكحى نسائهم ولا آكلى ذبائحهم » . ومذهبهم أن كل الخير من

الله وكل الشر من الشيطان . وهم يسمون الله تعالى يزدان ويسمون الشيطان أهرمن . ويقولون ان الله قديم وان الشيطان محدث . وعندهم أن أول الخلق كيومرث . ويقولون ان الصانع لما كان بصيرا تفكر فى تبصره فظهر من تفكره أهرمن . تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

وهم يعزون النار ويكبرونها ويخدمونها ولا يؤذون الماء أى أنهم لا يلوثونه بشيء قط ، ويقصرون استعماله على الشرب ، وهم يلهون ويشربون الخمر . ويسجد المجوس للشمس ثلاث مرات كل يوم وذلك حيثما تكون الشمس . وهم لا يتكلمون وقت الطعام ولكنهم يرون الزمزمة واجبة فى هذا الوقت . ويحترزون من الموتى . ويبيحون نكاح الأقارب كالأم والأخت والبنت . ويرجمون اللوطى . ولا يضعون الموتى فى القبور ولكنهم يودعونهم الدخمة (٣٦) فى الهواء . ويسمون راعى النار هربذ .

## مذهب زردشت (٣٧)

يقول المجوس كان لنا نبى اسمه زردشت هو الذى سن هذه الشرائع وله ثلاثة كتب يسمونها الزند والپازند والأوستا . وفى هذه الكتب ألفاظ غير مفهومة ولكن جماعة من المجوس وضعت لها تفسيرا وتأويلا .

## مذهب مزدك (٣٨)

ظهر أيام قباد بن فيروزان رجل من مدينة نسا اسمه مزدك وقد ادعى النبوة وحول بعض الناس عن شريعة زردشت ، وأباح الأموال والفروج للخلق ، وقد اعتقد الناس فيه . ومذهبه أن هذا المال وهذه النعمة ملك للناس جميعا فى الأصل ، وهى لا تزال كذلك . وظل يقوم بدعوته حتى ناظره أنوشروان فأفحمه وقتله .

## مذهب مانى (٣٩)

كان مانى أستاذا فى صناعة التصوير وقد ظهر بين المجوس أيام شابور بن أردشير وادعى النبوة وكان يدعم ادعاءه بالنقش والتصوير . ويقال انه كان قد رسم خطا على قطعة من الحرير الأبيض فما أن نزعوا خيطا من القماش حتى اختفى هذا الخط .

وقد ألف كتابا بأنواع التصاوير يسمى أرزنك مانى ؛ وهو فى خزائن غزنين (٤٠) . وطريقته هى نفس طريقة زردشت فهو ثنوى كما ذكرنا من قبل .

## مذهب الثنوية

وهم يقولون كما قال زردشت بأن الصانع اثنان ، أحدهما النور وهو صانع الخير والآخر الظلمة وهو صانع الشر . وكل ما فى العالم من راحة وضياء وطاعة وخير يرجع الى صانع الخير ، كما يرجع الى صانع الشر كل ما فى العالم من شر وفتنة ومرض وظلام . ولكنهم يقولون بقدم الصانعين . وهم يرون واجبا التصدق بالعشر من أموالهم ويقتنون ثوبا واحدا فى السنة كما يعملون لقوت يوم واحد ، ويرون الباقى حراما . ويصومون سبع عمرهم ويصلون أربع صلوات . ويعترفون برسالة آدم عليه السلام وبرسالتى شيث ( ونوح ) ثم برسالة رجل فى هندوستان يسمى بدوه ( بوذا ) وبرسالة زردشت فى فارس . ويقولون ان مانى خاتم النبيين ويعجبون به اعجابا عظيما . وهذا مذهب الصابئة بعينه .

حكاية : أمر المأمون أن تجرى مناظرات بين جميع أصحاب المذاهب أمامه . فأتى متكلم يدين بالثنوية وناظر على هذا المذهب فأمر المأمون بجمع المتكلمين وفقهاء الاسلام لمناظرته . فلما بدأ ذلك الرجل كلامه قال : أرى عاملا للخير والشر والنور والظلمة والطيب والخبيث فمما لا جدال فيه أن لكل من هذه الأضداد صانعا فالعقل لا يسيغ أن صانعا يعمل الخير ثم هو بعينه يعمل الشر . وأخذ يسوق حججا من هذا النوع . فارتفع صوت رجل من المجلس قائلا: يا أمير المؤمنين لاينبغى أن تكون المناظرة مع مثل هذاالرجل بغير السيف . فأطرق المأمون هنيهة ثم سأله ما المذهب ؟ فقال الرجل هو أن الصانع اثنان صانع الخير وصانع الشر وفعل كل منهما وصنعه واضحان فالذى يعمل الخير لا يعمل الشر والذى يعمل الشر لا يعمل الخير . فقال المأمون : أكلاهما بأفعاله قادر أم عاجز ؟ فأجاب الرجل كلاهما بأفعاله قادر والصانع لا يعجز مطلقا . قال المأمون وإذا فلا يجوز العجز عليهما ؟ فقال الرجل كلا ! وكيف يكون المعبود عاجزا ؟ فقال المأمون الله أكبر يريد صانع الخير أن يكون له كل شىء وأن لا يوجد صانع الشر أو يريد صانع الشر أن لا يوجد صانع الخير أيكون ذلك بارادتهما

ومرادهما أم لا يكون ؟ فقال الرجل لا يكون وليس لأحدهما سلطان على الآخر . فقال المأمون اذا فقد ظهر عجز كل منهما والعجز لا يجوز على الله . فتحير ذلك الثنوى وأمر المأمون بقتله (٤١) . وقد أثنى الحاضرون على المأمون .

## منهب عبدة الأصنام

ولو أن الحديث عن عبادة الأصنام قد سبق مع بعض أسماء الأصنام المشهورة عند العرب فانا نريد أن نفرد بابا خاصا لذكر عقيدتهم ، ذلك لأنه ليس من فرقة أشد حمقا من تلك التى تنحت شيئا وتصوره وتتخذه الها وتعبده ، وكذلك فان طبقاتهم كثيرة جدا من هند وعرب وغيرهم . ويقال ان ابتداء عبادة الأصنام هو أنه كان هناك ملك اسمه هوشنك (٤٢) وكانت له ابنة يعشق صورتها وقد ماتت هذه الابنة ، فأمر بجعل صورتها فى الهيكل وكان يذهب لرؤيتها كل يوم ، حتى اضطر الى سفر فلم يستطع صبرا على ترك هذه الصورة فأمر بصنع تمثال بصورة هذه البنت وكان يحمله أينما ذهب . فلما مضت الأيام على ذلك ومات هوشنك ظهرت عبادة الأصنام فى العالم .

ويقول الهنود ان تلك الصور التى أقاموها فى المعابد والهياكل انما هى للقربى من الملائكة والكواكب ، فهم قد مثلوها بهذه الصور وعبدوها . وعندهم أن بيت مكة ( الكعبة ) منسوب الى زحل وأن نوبهار بلخ منسوب الى القمر وهكذا يسمون الهياكل السبعة أسماء تنسبها الى الكواكب السبعة .

ويسمى من يشتغل بخدمة الصنم « عابد الصنم » . وكانت عبادة الأصنام عند العرب فى الجاهلية ، أما اليوم فلا يوجد عندهم دين آخر غير دين الاسلام. وقد قال النبى عليه السلام « لا يجتمع فى جزيرة العرب دينان » . ولا جرم فان العرب قد تطهروا من كل نجس وذلك ببركة قرابتهم الى الرسول عليه السلام سواء فى النسب أو فى اللغة .

أما فى الهند فعبدة الأصنام هم الأكثرون وسنذكر هنا مذاهبهم وفرقهم .

## مذاهب الهنود (٤٣)

ليس لفرقة من المخالفين ما للهنود من الدهاء والذكاء فان علوم الطب والنجوم والحساب وأنواع الأدوية والسم والترياق والنجوم والطوالع والأحكام

دخلت من الهند الى خراســان والعراق وغيرهـــا • وهم مختصون بالحدس والفراســة الى حد أنهم يوقعون عدوهم فى الحيرة ويهلكونه • وقد قرأت فى هذا حكايات وأخبارا ، ولكن ايرادها لا يفيد وخصة فى هذا الكتاب •

هذا هو مجمل حال ذكائهم وعلمهم وأما بلاهتهم فى أمور الدين فهى الى حد أن جماعة منهم يعبدون الأصنام ويقتلون أنفسهم أو يلقون بها فى النار من أجل الصنم • وهم مقرون بنبوة آدم عليه السلام ، ويقر بعضهم بنبوة ابراهيم عليه السـلام ، وبعضهم ينكر الصانع ويدين بالدهرية وبعضهم يعبـد الكواكب ، وبعضهم يعبد ما يبدو جميلا أمام عينيه وبعضهم يدين بالتناسخ ويقول ان الروح تنتقل من جسد الى جسد آخر • ويقول أبو زيد الحكيم (٤٤) أن اسم الصنم فى لغتهم قاقليط • وهم يحرمون اللحم على أنفسهم وخاصـة لحم البقر وأكثرهم لا يشرب الخمر بل ويحرمونها على أنفسهم • وهم يأكلون من النبات ولا يأكلون الحيوان • وهم على درجة كبيرة من الأمانة والاستقامة • وزاهدهم البرهمن •

## منهب التنـاسخ (٤٥)

يقول أهل هذا المذهب ان الأرواح واحدة • والتناسخ أربعة أنواع : النسخ والمسخ ، والفسخ والرسخ • فالنسخ خروج الروح من جسم آدمى الى جسم آدمى آخر ، والمسخ خروج الروح من جسم آدمى الى جسم حيوان ، والفسخ خروج الروح من جسم آدمى الى جسم حشرة من حشرات الأرض وهوامها ، والرسخ خروج الروح من جسم آدمى الى الشجر والنبات •

وفى الجملة فهم يقولون ان العالم لا نهاية له وان عقوبة الأرواح بقـدر ما اقترفته من آثام فاذا كان الميت ظالما فان روحه ـ حينما يموت ـ تحل فى جسد سائمة أو فأر أو وحش ، واذا كان حميد السيرة فان روحه تحل فى جسد رجل تقى أو ملك • وهذا المذهب أسوأ المذاهب كلها •

## منهب الصـابئة (٤٦)

يدين بهذا المذهب جماعة من فلاسفة بلاد اليونان وهم يسمون بالصـابئة ، والصابىء فى اللغة هو من يتنقل من دين الى دين . ولكن سميت هذه الطبقـة صابئة • وكان على رأسهم أرانى ( Arane ) * وأغاذيمون ( Agademon

* آدانى هى آرانى ، وقد صحف هذا الاسم فى العربية كثيرا فقيل اوادى وارادى . انظر حاشية Massé فى مجلة R H R مجلد ٩٤

وهرمس (Hermes) وسولن (Solon ) الذى كان جد أفلاطون لأمه وقد ذكرهم على هذا النحو أبو الحسن النويزى فى كتاب « الاختصارات » (؟)

والصابئة يصلون ثلاث مرات فى اليوم الصبح والظهر والعشاء ويصلون تطوعا للكواكب الثابتة فكل يوم يصلون للكوكب الذى سمى اليوم باسمه فمثلا يوم السبت يوم زحل وهكذا .. ويصومون كل سنة ثلاثين يوما كاملة ولكنها متفرقة، فيصومون ثمانية أيام متواصلة من أول شهر آزار ثم يصومون سبعة أيام ثم ستة أيام متفرقة . وهم لا يأكلون اللحم فى أيام الصوم ، وهم يقدمون القرابين الى الكواكب أربع مرات فى الشهر فيذبحون الديوك ويدفنون دمها ويحرقون ريشها وعظمها . وهم لا يأكلون لحوم الجمل والدراج والحمام كما أنهم لا يأكلون السمك وهم يجيزون عقوبة الأرواح بما أثمت كما قدمنا قبل ذلك فى مذهب الفلاسفة .

## مذاهب القرامطة والزنادقة (٤٧)

وجد فى جميع الأزمان رجال اختاروا ، تخاذلا ، أن يكونوا بغير دين ، فأنكروا الأديان جميعا ، والقرامطة والزنادقة والاباحية مجمعون على نفى الصانع ، لعنهم الله .

وينسب القرامطة الى رجل اسمه أحمد بن قرمط .

وينسب الزنادقة الى زندك وهو رجل من فارس ، وحين عرب اسمه قلبت الكاف قافا ، ويسمى من يدين بمذهبه زنديق .

كذلك الخرمية ( خرمدينان ) (٤٨) — دين الملذات — وهم فرقة اختاروا راحة الجسد واللذة وأخذوا من كل مذهب ما راقهم .

وكذلك تقول الاباحية الا أنهم أقل فرق الكفار حمية ، فهم لا يمنعون نساءهم عن غيرهم . والمعطلة هى تلك الطبقة التى قالت فى هذه المعانى (الروحية) بالتعطيل والنفى .

## السوفسطائية

ذكر أصحاب المنطق والفلاسفة فى كتبهم فرقة تسمى السوفسطائية . ومذهبهم أن ليس لأى شىء مما نرى أصل ، وأن ما نراه فى اليقظة هو بعينه

ما نراه فى النوم • وقد سمعت أيضا أن هذا كلام وضعه أصحاب المنطق • ولم يدن بهذا المذهب انسان قط فى أى عصر •

* * *

كانت هذه مقالة الذين عاشوا قبل الاسلام ودانوا بمذاهب مختلفة •
والآن نأتى الى مذاهب الاسلام فنشرحها •

## الباب الثالث[٤٩]

### فى بيان ما جاء بالخبر ، أن النبى عليه السلام قال :
### (( ستختلف بعدي امتي علي ثلاث وسبعين فرقة ))
### ووجه اسناد هذا الخبر وشرح هذه الفرق الثلاث والسبعين وايضاح معانيها

أخبرنا القاضى الامام أبو الفتح عبدالرحيم بن عبدالله قال أخبرنا الشيخ أبو الفضل عبد الصمد محمد العاصى قال حدثنا أبو عبد الله الحسين بن محمد الكوفى بمكة حرسها الله قال أبو الحسين الدينورى قال حدثنا هارون بن يزيد عن موسى بن جعفر بن محمد الصادق رضى الله عنهم عن أبيه عن جيده عن الحسين بن على رضوان الله عليهم عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه قال كنا مع رسـول الله صلى الله عليه وسلم فى سفر وقد نزلنا على غدير يقال له غدير خُم اذ خـرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمر أن ينادى فى القوم الصلاة جامعة فاجتمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وصعد على ربوة* من الأرض وأخذنى بيدى وقال « ان الله تعالى خلق الخلق من أشجار شتى وخلقنى وعليا من شجرة واحدة وأنا أصلها وعلى فرعها والحسن والحسين أثمارها وأشياعنا أغصانها وأوراقها فمن تعلق ببعض منها نجا ومن خلف عنهـا تردى » ثم قال : « ألست أولى بكم وبالمؤمنين من أنفسهم ؟ » قالوا : اللهم نعم • قال : « اذا أنا كنت مولاه فعلى مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله وأدر الحق معه» ثم قال : «اختلف قوم موسى بعده على احدى وسبعين فرقة هلكت منها سبعون فرقة ونجت واحدة منهم وهم من قال الله تعالى فيهم «ومن قوم موسى

---

* فى الترجمة الفارسيه لهذا الخبر قال المؤلف : صعد على ربوه وقيل اعد أصحابه منبرا له من رحال الجمال .

أمة يهدون بالحق وبه يعدلون » • (٧ــ١٥٩) فهم الفرقة الناجية ، واختلف قوم عيسى بعده على اثنتين وسبعين فرقة هلكت منها احدى وسبعون فرقة ونجت واحدة منهم وهم من قال الله فيهم : « وجعلنا فى قلوب الذين اتبعــوه رأفة ورحمة » • (٥٧ــ٢٧ ) فهم الفرقة الناجية ، وستختلف بعدى أمتى على ثلاث وسبعين فرقة يهلك اثنتان وسبعون وتنجو فرقة واحدة وهم من قال الله تعالى فيهم « الذين يتبعون الرســول النبى الأمى » ( ٧ ــ ١٥٧ ) ، الا انى تارك فيكم الثقلين ان تمسكتم بهما لن تضلوا أبدا : كتاب الله جل ممدود من السماء وعترتى أى أهل بيتى وانهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض » فقام القوم كلهم يهنئونتى بما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه بخ بخ يا أبا الحسن أصبحت مولى كل مسلم ومسلمة •

وقد روى هذا الحديث عن الرسول بطرق عــديدة وقد سمعته على هــذا النحو الذي ذكرته وأوردته باسـناده ورويته بلفظــه ، وهــذه الرواية أوفى الروايات وأحسنها • وقد ذكرتها باللغة العربية تبركا • ( تلى ذلك ترجمة فارسية للخبر تشغل فى طبعة اقبال من ص ٢٤ س ١٠ الى ص ٢٥ س ١٦ ) •

هذا شرح الخبر الذى ذكرناه والله أعلم بالصواب • وينبغى أن نشرح هــذه المذاهب الثلاثة والسبعين ، حتى ترى رأى العين أن النبى صلى الله عليه وسلم لا يقول كذبا قط وليس قوله الا صوابا •

## فصــل

ان أصول مذاهب الفرق الاسلامية لا تعدو الثمانية وهى :

مذهب السنة والجماعة ، مذهب المعتزلة ، مذهب الشيعة ، مذهب الخوارج، مذهب المجبرة ، مذهب المشبهة والكرامية ، مذهب الصوفية ، مذهب المرجئة •

هذه هى أصول الاعتقادات والمذاهب ، ولكنها انقسمت الى فرق كثــيرة وسيجىء شرح ذلك فى مكانه انشــاء الله تعــالى •

### ١ ــ مذهب السنة والجماعة :

انقسم أهل السنة والجماعة الى فرقتين •

(١) أصحاب الحديث وهم خمس فرق :

(١) الداودية (٢) الشافعية (٣) المالكية (٤) الحنبلية (٥) الأشعرية *.
(٢) أصحاب الرأى وهم فرقة واحدة هى الحنفية .

**٢ ـ المعتزلة :**

وقد انقسموا الى سبع فرق :
(١) الحسنية (٢) الهذيلية (٣) النظامية (٤) المعمرية (٥) البشرية (٦) الجاحظية (٧) الكعبية .

**٣ ـ الشيعة :**

**وقد انقسموا الى خمس فرق :**

**١ ـ الفرقة الأولى وقد انقسمت الى خمس فرق :**
**(١) الأبترية (٢) الجارودية (٣) الخشبية (٤) الذكيرية (٥) الخلفية .**

**٢ ـ الفرقة الثانية من الشيعة :**
**(١) الكيسانية (٢) الكربية (٣) المختارية (٤) الاسحاقية (٥) الحربية .**

**٣ ـ الفرقة الثالثة من الشيعة : الغلاة وهم تسع فرق** ** **.**
**(١) الكاملية (٢) السبائية (٣) المنصورية (٤) الغرابية (٥) البزيغية (٦) اليعقوبية (٧) الاسماعيلية (٨) الأزدرية .**

**٤ ـ الفرقة الرابعة من الشيعة : انقسمت الى فرقتين :**
**(١) الصباحية (٢) الناصرية .**

**٥ ـ الفرقة الخامسة من الشيعة هى الامامية الاثنى عشرية .**

**٤ ـ مذاهب الخوارج :**

وهم خمس عشرة فرقة :
(١) الأزارقة (٢) النجدات (٣) العجاردة (٤) البِدعية (٥) الخازمية

---

* فى النص الفارسى العشرية .
** لم يذكر المؤلف سوى ثمان فرق .

(٦) الثعالبة (٧) الحرورية* (٨) الصفرية (٩) الاباضية (١٠) الحفصية (١١) اليزيدية (١٢) البيهسية (١٣) الشمراخية (١٤) الفضلية (١٥) الضحاكية .

٥ ـ مذاهب المجبرة :

وهم ست فرق :

(١) الجهمية (٢) الأفطحية (٣) النجارية (٤) الضرارية (٥) الصفاتية (٦) النواصبة .

٦ ـ مذاهب المشبهة :

وهم عشر فرق :

(١) الكلابية (٢) الكرامية (٣) الهشيامية (٤) الشيبانية (٥) المعتزلة (٦) الزرارية (٧) المقاتلية (٨) المنهالية (٩) المتبيضة (١٠) النعمانية** .

٧ ـ مذاهب الصوفية :

(١) النورية (٢) الحلولية .

٨ ـ مذاهب المرجئة :

وهم ست فرق :

(١) الرزامية (٢) الغيلانية (٣) التومنية (٤) الصالحية (٥) الشمرية (٦) الجهمية .

فجملة هذه المقالات ثلاث وسبعون فرقة كما فصلنا وقد صح ما قاله الرسول صلوات الله عليه . أما وقد ذكرنا أصل هذه الفرق الثلاث والسبعين فالآن نستقصي الكلام عن كل منهما .

---

* في نص شيفر : الخدورية وقد اقترح اقبال الحرورية تصويبا لها ومع ذلك وردت في القائمة الثانية للخوارج التي ذكرها المؤلف « الجرودية أصحاب عبد الله بن جرود » وذلك في كل من نصي شيفر واقبال .

** لم يذكرها المؤلف أو اسقطها الناسخ واضافها اجتهادا عباس اقبال . ص ٢٧ هامش ٨

# الباب الرابع

## فى بيان هذه المذاهب الاسلامية

## وعرض مقالة كل منها وشرح احوالهم باستقصاء

وسنتكلم بتوفيق الله تعالى ، عن الأديان والمذاهب على هذا الترتيب الذي قدمنا حتى تتم شرح الفرق الثلاث والسبعين ، آملين أن نكون من الفرقة الناجية وان لا نكون من الهالكين بفضل الله تعالى .

### ١ ـ مذاهب السنة والجماعة :

تقول ان أصحاب السنة والجماعة هم الوسط بين أهل الاسلام فانك لا تجد من المسلمين جماعة لها مذهب الا وتقول اذا سألتها ان مذهبنا السنة والجماعة .

وأما قاعد هذا المذهب فهى أن الله تعالى بجميع صفاته قديم ؛ وأن القرآن غير مخلوق ، وأن الجنة والنار مخلوقتان وموجودتان ، وأن رؤية أهل الجنة لله بالعين حقيقة ، وأن عذاب القبر وسؤال منكر ونكير حقيقة ، وهم لا يقولون بكفر مرتكب الكبيرة ولو مات بغير توبة ، بل يعاقب فى النار بقدر اثمه ثم يذهب الى الجنة بشفاعة النبي صلوات الله عليه ، وهم يقولون بمعراج النبى صلى الله عليه حتى قاب قوسين ، وبرؤيته ملكوت السموات ، وهم يرون القضاء والقدر والخير والشر بارادة الله ولكن لا يبطل هذا أن يثاب المرء أو يعاقب حسب عمله ، ويقولون ان الخير والشر بارادة الله تعالى وان الانسان مختار لفعله ، وان الله تعالى بعلمه القديم خلق الفعل وفقا لاختيار كل انسان ، وهذا معنى كلمة القدر خيره وشره من الله . وهم يقولون ان توفيق الانسان أو خذلانه أزليان كما أراد الله وليس فى يد الانسان سوى الطاعة والجهد ، فالمخذول قد كتب عليه الخذلان منذ الأزل ، والمقبول قد كتب له القبول منذ الأزل ، وهذا هو قول الله تعالى « نحن قسمنا بينهم » ( ٤٣ ـ ٣٢ ) وقول الرسول صلوات الله عليه : « السعيد من سعد فى بطن أمه والشقى من شقى فى بطن أمه » وهم مقرون باللوح والقلم والعرش والكرسى كما ذكرها الله تعالى ، ويقولون ان القلم يسطر كل ما قدر ولن يزاد عليه شيء أو ينقص منه شيء

والقضاء عندهم نوعان : مبرم ومعلق ، وهم يرون صـــلاة الجماعة حقا ؛ وهم بعيدون عن القول بالتشبيه والتعطيل فى صفات الله تعالى . ولا يوقعوز بين الصحابة * ويقولون بخلافة أبى بكر الصديق رضى الله عنه ويجعلونه فوق منازعات أصحاب الفرق ، ومن بعده عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ومن بعده عثمان بن عفان رضى الله عنه ، ومن بعده على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، وهم يحبون الخلفاء الأربعة بدرجة واحدة .

هذه هى أصول مذهب السنة والجماعة .

## ( ا ) أصحاب الحديث

وهم خمس فرق :

(١) الداودية : أصـحاب داود بن على الاصفهانى ويسمونهم أصـحاب الظواهر ، لأنهم يعملون بظاهر الأخبار والآيات وينكرون القياس .

(٢) الشافعية : أصحاب الامام عبد الله بن محمد ادريس الشافعى المطلبى رضى الله عنه . ومذهبه فى أصول الدين والتوحيد هو ما ذكرنا . وخلافه مع أصحاب الرأى يتعلق بالفروع ( ولا خلاف فى الأصول ) الا على شىء واحد هو حديث الايمان ، فان صحـة الايمان فى مذهبه تتحقق بشروط ثلاثة : الاقـرار باللســان والتصديق بالجنان والعمل بالأركان ، وعلى هذا فالايمان عنده يزيد وينقص بالمعصية . وهو يقول بصحة الاجتهاد والقياس **

(٣) المالكية : أصحاب مالك بن أنس بن مالك وهو امام العراق وصاحب كتاب الموطأ ، ويعتنق مذهبه معظم المغاربة وسكان حدود اليمن ، وهم يتعلقون بالحديث ويأكلون لحم الحمير المستأنسة ويبيحون اللواط مع نسائهم .

(٤) الحنبلية : أصحاب الامام أحمد بن حنبل . وبعضهم مشبهة . وكان ابن حنبل شيخا حين دخل عليه الشافعى . وقد قام ابن حنبل بخدمة الشافعى وأمسك بعنان فرسه وقال « اقتدوا بهذا الشاب المهتدى » .

(٥) الأشعرية : وهم أصحاب على بن اسماعيل الأشعرى وهو من نسل أبى موسى الأشعرى ... ( فى الأصل بعد هذا كلمة غير مفهومة ) .

---

* اى لا يطعنون فى احد الصحابة حبا فى غيره كما يفعل بعض فرق الشيعة بسبهم ابا بكر وعمر .

** فى نص شيفر بكويد وجاءت بالنفى خطا فى طبعة اقبال .

**(ب) اصحاب الرأى**

هم أصحاب الامام أبى حنيفة النعمان بن ثابت بن المرزبان الكوفى الفارسى رضى الله عنه . وقد استنبط مسائل الفقة وصنف كتبه . وظهر له تلامذة كأبى يوسف القاضى ومحمد بن الحسن الشيبانى وزفر وأبى مطيع البلخى رحمهم الله. والايمان عنده اقرار باللسان وتصديق بالقلب . والنقص والزيادة فى الايمان غير جائزين عنده . وهم يجيزون القياس والاجتهاد . وفقهاء خراسان من أتباع أبى حنيفة يتبعون مذهب السنة والجماعة فى الأصول ، وبعض فقهاء العراق يتبع فى الأصول مذهب المعتزلة وفى الفروع مذهب أبى حنيفة .

**٢ ــ المعتزلة :**

قاعدة مذهبهم ان الله قديم بذاته لا بصفاته ، وفرقوا بين صفات الذات وصفات الفعل . فيقولون ان صفات الذات مثل العلم والقدرة ، اذ لا نستطيع القول بأن الله عالم حينا وغير عالم حينا آخر وأنه قادر حينا وغير قادر حينا ، فهذه صفة ذات ، ويقولون لهاتين الصفتين وأمثالهما انها قديمة . وصفات الفعل مثل الخلق والتكلم وما أشبه ، وهم يقولون انهـا ليست قديمة بل هى محدثة وذلك لجواز القول بأن الله كلم موسى ولم يكلم فرعون فهو تكلم حينا ولم يتكلم حينا،ولهذا السبب قالوا ان القرآن مخلوق وينكرون رؤية الله تعالى ويقولون انه تعالى ليس على هذا النحو الذى يمكن به ادراكه بالحواس أو رؤيته بالعين المجردة: « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار » ( ٦ ــ ١٠٣ ) . وينكرون عذاب القبر وسؤال منكر ونكير ويقولون هـذا سؤال من يحتاج الى أن يعرف اعتقاد هذا الانسان الميت ، والله عالم السر والخفيات وليس محتاجا الى أن يسأل . ويقولون ان الله تعالى لم يخلق الجنة والنار بعد وانما يخلقهما فى اليوم الذى ذكره ، فانه قال : « يوم تبدل الأرض غير الأرض » ( ١٤ــ٤٨ ) . وان الله تعالى لا يقضى بالمعصية ولا يخلق الزنا والكفر والبهتان ولكن هذه أفعال الناس وذلك حتى يستحقوا العقوبة بأعمالهم ، وان الانسان مستطيع قبل الفعل .

وعندهم أن مرتكب الكبيرة خرج من حد الايمان ولكنه لا يصير كافرا بل يصير فاسقا ، وهذه عندهم المنزلة بين المنزلتين . فاذا تاب يعود مؤمنا ، واذا مات بغير توبة فانه يخلد فى النار ، فكل من كان من أهل الجنة لا يرى النار ، ولا يخرج من النار من كان من أهلها ، بل يخلد فيها . ولا يقول المعتزلة بأزلية السعادة

والشقاوة ولكنهما مرتبطتان بأعمال العباد . وهم لا يوقعون بين صحابة النبى صلوات الله عليه ، ولكن فرقة منهم تقول بتفضيل على كرم الله وجهه .

والمعتزلة سبع فرق :

١ — الحسنية : وهم أصحاب الحسن البصرى .

٢ — الهذيلية : وهم أصحاب أبى الهذيل العلاف .

٣ — النظامية : وهم أصحاب النظام .

٤ — المعمرية : وهم أصحاب معمر بن عباد السلمى .

٥ — البشرية : وهم أصحاب بشر بن المعتمر .

٦ — الجاحظية : وهم أصحاب عمرو بن بحر الجاحظ .

٧ — الكعبية : وهم أصحاب أبى القاسم الكعبى البلخى .

### ٣ — مذهب الشيعة :

أساس مذهبهم أن عليا كرم الله وجهه ومن بعده ذريته أحق الناس بالامامة بعد النبى صلوات الله عليه . وهم يسمون ( الخلفاء ) الآخرين الظالمين والبغاة . ويقولون ان امامة على منصوص عليها بنصين ،أحدهما جلى وهو أن النبى صلوات الله عليه قال يوم غدير « خم » : اذا أنا كنت مولاه فعلى مولاه ، والثانى خفى وهو أن النبى صلوات الله عليه قال : وأفضلكم على وأنت منى بمنزلة هارون من موسى الا أنه لا نبى بعدى . والشيعة تفضل عليا على نظرائه .ويقولون ان الزمن لا يخلو من امام معصوم وهم يوالون أهل البيت ويبرأون من أعدائهم . ويجيزون التقية . والتقية أنهم ، خشية الخلق ، يعملون أو يتكلمون فى الظاهر على غير مذهبهم . وهم لا يجيزون المسح على الخفين ( فى الوضوء ) ولكنهم يمسحون ظهر القدم ، عملا بظاهر الآية : « وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم » ( ٥ — ٦ ) وهم يجيزون نكاح الصيغة . وهم لا يضعون فى الصلاة يدا على يد بل يرسلون أيديهم .وهم لايجيزون السجود على التراب أو فوق ماينميه التراب. ويقرأون القنوت عقب كل صلاة . وفى الركعة الثانية ، بعد أن يفرغوا من قراءة القرآن ، يرفعون أيديهم ويقولون :

لااله الا الله الحليم الكريم ، لااله الا الله العلى العظيم ، سبحان رب

السموات السبع وما فيهن وما بينهن وهو السميع العليم وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين . وفى الأذان يزيدون « حى على خير العمل » يقولونها مرتين . ولا يجيزون الصلاة فى ثوب الحرير . وعندهم أن من يقول لفظة آمين فى الصلاة يخرج منها ، فانهم يقولون ان هذا اللفظ ليس من القرآن . ويرون الاغتسال يوم الجمعة فريضة . ولا يقرءون القرآن وهم خلف الامام ( امام المسجد ) . وأكثر مذهبهم فى العبادات يتفق مع بعض قواعد مذهب الشافعى . وهم يرفعون أيديهم وقت القيام والركوع . ويجلسون( قليلا ) قبل القيام من الركعة الثانية . ولا يجيزون الاجتهاد (؟) أو القياس قط . وهم كالمعتزلة فى أصول مذهبهم ، وذلك فى نفى الرؤية والتشبيه وخلق القرآن وحدوث صفات الفعل والاستطاعة ، الا فى أمر واحد وهو مرتكب الكبيرة الذى يقول المعتزلة انه « اذا مات ولم يتب فانه يخلد فى النار » ، أما هم فيقولون انه لا يخلد فيها بل ان الله يرحمه ويخرجه من النار بفضله ورحمته .

هذه هى أصول مذهب الشيعة وهم خمس فرق :

### (١) الزيدية

وهم أصحاب زيد بن على ، الذى خرج أيام دولة بنى أمية ، فقبضوا عليه وقتلوه ، فهرب ابنه يحيى بن زيد الى خرسان ولكنهم قبضوا عليه أيضا وقتل بأمر نصر بن سيار فى جوزجانان . وقبره بأزغوية .

وأساس مذهبهم أنه بعد على والحسن والحسين يجوز لكل علوى معصوم أن يطالب بالامامة وينبغى لذلك أن يكون من نسل على وأن يكون تقيا معصوما . وهم خمس فرق :

١ — المغيرية : وهم أصحاب كثير النواء ولقبه الأبتر واسمه المغيرة بن سعيد .

٢ — الجارودية : وهم أصحاب أبى زياد .

٣ — الذكيرية : وهم أصحاب ذكير بن صفوان .

٤ — الخشبية : وهم أصحاب صرخاب الطبرى ، وقد اتخذوا سلاحهم من الخشب حين خرجوا .

٥ — الخليفة : وهم أصحاب خلف بن عبد الصمد .

## (ب) الكيسانية

وهم أصحاب كيسان الذى كان مولى لعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه . ومذهبهم أن الخلافة بعد الحسن والحسين صارت الى محمد بن على الذى يسمونه ابن الحنفية لأن أمه كانت تسمى الحنفية . ويقولون أنه حى لا يموت أبدا وأنه مختف فى شعب رضـــوى فاذا أتى وقت ظهوره يخرج ، فيملك العـــالم ويعمره بالعدل . وهم أربع فرق :

١ — المختارية : وهم أصحاب المختار بن أبى عبيد الثقفى .

٢ — الكربية : وهم أصحاب أبى كرب الضرير .

٣ — الاسحاقية : وهم أصحاب اسحاق بن عمر .

٤ — الحربية : وهم أصحاب عبد الله بن حرب .

## ( ج ) الغـالية

وشر فرق الشيعة فرقة الغالية وهم كفار كفرا محضا وهم من الجماعة التى ذهب واحد منها الى على وقال : يا على الأعلى السلام عليك . فأمر على كرم الله وجهه بأن يحرقوه . ثم قال :

يهلك اثنان محب مفرط ومبغض مفترى .

وهم ثمان فرق :

١ — الكاملية : أصحاب أبى كامل .

٢ — السبائية : أصحاب عبد الله بن سبأ .

٣ — المنصورية : أصحاب أبى منصور العجلى .

٤ — الغرابية : وهم يقولون بأن على بن أبى طالب يشبه الغراب .

٥ — البَزَيغية : أصحاب بزَيغ بن يونس .

٦ — اليعقوبية : أصحاب محمد بن يعقوب وهم يقولون ان عليا حـــين يجىء الى الدنيا يخرج من بين السحاب .

٧ — الاسماعيلية : أصحاب اسماعيل بن على .

٨ - الأزدرية : وهؤلاء يقولون ان عليا أبا الحسن والحسين ليس عليا الامام وانما الامام رجل يسمونه على الأزدرى ، وعلى الامام هذا لا ولد له فهو الصانع. ملئت أفواههم ترابا .

سمعت من السيد على أبى طالب : حين كنت فى الكوفة ، كان شيخ علوى يدين بهذا المذهب ويظهره ويكتب ( فى مكاتباته ) فلان الأزدرى . ثم قال السيد وقد مات هذا العلوى وأنا فى الكوفة ولأنه كان علويا معروفا معظما فقد دفنوه بجانب مشهد أمير المؤمنين على كرم الله وجهه . ففاحت فى ليلة دفنه رائحة كريهة من قبره بحيث أهاجت أهل المشهد . فجاء رجال هذا العلوى وأولاده ففتحوا قبره وعمقوه عشرين ذراعا وأعادوا دفنه ، ففاحت الرائحة الكريهة فى اليوم التالى أكثر مما كانت ، وهاج أهل المشهد وثاروا فجاء أبناؤه خلسة فى الليلة التالية وسرقوا جثمانه من هناك ودفنوه حيث شاءوا . وهكذا أثر اعتقاده فيه حتى أنه فضح على هذا النحو بعد موته . نعوذ بالله من الخذلان .

## الفرقة الرابعة من الشيعة
## ( د ) الباطنية

أساس مذهبهم ظاهره التشيع وحب أمير المؤمنين كرم الله وجهه وباطنه كفر محض ، وقد ظهرت هذه الفرقة فى مصر .

فقد اجتمع ثلاثة رجال ، أبو ميمون القداح وعيسى چهار لختان وفلان الدندانى ، وثلاثتهم كافر وملحد ، وتصادقوا وكانوا يأكلون ويشربون معا . قال أبو ميمون القداح ذات يوم انى أضيق بدين محمد ، وليس عندى جيش أحارب أهله به وليس لدى مال ، ولكنى فى الحيلة طويل الباع بحيث اذا لقيت عونا من أحد قلبت دين محمد رأسا على عقب ؛ فقال چهار لختان ان لدى نعما كثيرة أنفقها ، غير آسف ، فى تلك السبل . واتفقا على هذا . وكان لأبى ميمون القداح ولدجميل الوجه مشهور بالجمال حتى أنهم كانوا يرتكبون معه الفحشاء . وادعى أبو ميمون القداح الطب والعلاج ؛ وأطال شعر ابنه كما يفعل العلويون وأمده چهار لختان بالمال حتى توفرت للولد أسباب الأبهة ومظاهرها وأشاعوا أنه علوى وأنهم خدامه . ثم أحضروه الى مصر فى أبهة عظيمة وكانوا لا يجلسون فى حضرته ؛ وكانوا يعظمونه ويجلونه فى مخاطبتهم

اياه ، ولا يسمحون لكل شخص أن يقابله ، حتى علا شأنه ، وحينذاك أعلنوا هذا المذهب وقالوا ان للشريعة ظاهرا وباطنا . والظاهر هو ما تعلق به المسلمون ومارسوه وقالوا ان لكل شيء باطنا والباطن ( في الشريعة ) كان يعلمه الرسول صلوات الله عليه ولم ينقله لأحد غير علي وأن عليا قاله لذريته وشيعته وخاصته، وأن من عرف الباطن استراح من عناء الطاعة والعبادة . وهم يسمون النبى صلوات الله عليه الناطق ، وعليا الأساس . وعندهم مواضعات وألقاب ، فيقولون للعقل السابق والأول أى أنهم يقولون ان النفس ظهرت من العقل وان كل شيء فى الدنيا أوجدته النفس ، وهم يفسرون الآية « والتين والزيتون وطورسنين وهذا البلد الأمين » ( ٩٥ ـ ١ ) بأن التين هو العقل وهو لب كله ، وأن الزيتون هو النفس وكلها لطافة مختلطة بكثافة شأن الزيتون مع النواة ، وأن طورسنين هو الناطق يعني محمدا صلوات الله عليه الذى كان يشبه الجبل الوعر فى الظاهر والذى كلم الناس بالسيف ، ولكن فى باطنه أشياء كالجبل فيه الجواهر ، والبلد الأمين هو الأساس يعنى عليا الذى أول الشريعة وبه أمن الناس من البلاء . وكذلك أولوا أنهار الجنة الأربعة ، وغرضهم من ذلك ابطال الشريعة ، عليهم لعنة الله . ويقولون أن النبى عليه السلام أب المؤمنين وأن عليا أمهم ، وان النبى حل فى علي بالعلم والمعرفة فتولد منهما سويا العلم الباطن . ويقولون ان أول شيء وجد هو عالم العقل وتلاه عالم النفس وحينئذ وجدت هذه المخلوقات كلها ، وأن الآدمي وجد بالنفس الجزئية فاذا مات عادت هذه النفس الجزئية الى ( نفسها ) الكلية .

ولو يسألهم أحد من أى شيء وجد عالم العقل قالوا ظهر بالأمر ، فاذا سئلوا بأمر من قالوا لا نعلم ، وليس لنا قدرة على معرفة الحق والصانع ، فنحن لا نقول أنه موجود ولا نقول انه ليس موجودا ولكن المحققين فى مسائل التوحيد يقولون أن المقصد هو ذاك أى أنه ليس موجودا (؟) . تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا .

وبهذه الطريقة أخرجوا المسلمين من الدين ، بعد أن يكونوا قد حدثوهم حديثا مأخوذا عن القرآن والحديث ، وحين تنعم النظر تجد أنهم ينكرون معجزة القمر . ويقولون ان مرجع تأييد النبى صلوات الله عليه ثلاثة أشياء هى النجد

والفتح والخيال وهذه عندهم جبريل وميكائيل واسرافيل . ويقولون أن النبى أتى بهـذه الشريعة من أجل البله والجهلاء وذلك حتى يشغلهم ويبلبل أفكارهم فينصرفوا عن الفضول ، وليس فى الشريعة شىء غير هذا . وقد وضعوا لـكل حكم من أحكام الشريعة تأويلا وباطنا ولو أنعمت النظر اليهم رأيت أنهم جميعا حاولوا ابطـال الشريعة ، لعنهم الله ، فمثلا يقـولون فى تأويل الخبر عن النبى صلوات الله عليه :

« القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران » ان القبر هو جسم الانسان الذى هو قبر لشخصه والنفس فيـه ، فاذا كان هذا الانسـان باطنيا ، أحل نفسه من أحكام الشريعة ، فانه لا يتعب ويكون جسمه روضـة الجنة ، فاذا لم يعرف باطن الشريعة وتأويلها فانه يتعب بالطاعة والعبادة ويكون جسمه حفرة من حفر النار . ويقولون ان شجرة طوبى التى يقال عنها أن ليس فى الجنة مكان لا تصل اليه أغصانها هى الشمس التى تشمل العالم كله كل يوم والتى لا يوجد مكان فى أية ناحية لا ينفذ اليه شعاع من نورها .

وقد أولوا على هذا النحو القرآن والشريعة والصلاة والصوم والحج والأيمان ، ولو شرحنا كل واحد منها لطال الكتاب ، ويكفى للايضاح القدر الذى ذكرناه .

وقد بنى مذهبهم على العدد سبعة . فهم يقرون ، فى الظاهر بسبعة أنبيـاء ولو أنهم ينكرونهم جميعا فى الباطن ، ويقولون ان هناك سبعة أئمة ، وهـذا الذى لم يظهر بعد والذى ينتظرونه يسمونه ولى الزمان . ويأخذون يوم عيد الفطر من كل انسان درهما ودانقا أى سبعة دوانيق ولهم فى كل قطر رجل يدعو لمذهبهم يسمونه صاحب الجزيرة ، ويعمل تحت رياسته الدعاة فى كل مدينة ، والشخص الذى يدعى الى المذهب يسمى المستجيب .

وفى زماننا عرف رجلان بلغا منصب صـاحب الجزيرة أولهما ناصر خسرو وهو يقيم فى يمكان وقد أضل الناس عن الطريق السوى ، وانتشرت طريقته هناك ، والثانى حسن الصباح الذى كان فى اصفهان ومن هناك جاء الى آمد ثم توارى ، وقد أضل الناس فى خراسان والعراق ودعاهم الى هذا المذهب .

وكان فى غزنين أحد هؤلاء ويسمى محمد أديب ، كان داعى الفاطميين وقد أضل أناسا لا حصر لهم فى المدن والقرى •

وقد كتبنا فى هذا ( الموضوع ) بهذا القدر حتى يعلم من يسمع كلاما من هذا النوع أنه كلامهم فلا يلتفت اليه ولا يضل بضلالهم • وهم فرقتان :

١ — الناصرية : أصحاب ناصر خسرو وهو ملعون عظيم وصاحب تصانيف، وكتاب وجه دين وكتاب دليل المتحيرين من تصنيفه وهما فى الكفر والالحاد ، وقد ضل كثير من أهل طبرستان واعتنقوا هذا المذهب •

٢ — الصباحية : أصحاب جسن الصباح وهو رجل عربى اللسان وأصله من مصر وكان داعيا عظيما •

## الفرقة الخامسة من الشيعة

### ( ه ) الامامية ( الاثنا عشرية )

هم فرقة واحدة وليس فى الشيعة فرقة أكثر منهم عددا وهم كثيرون فى العراق ومازندران وفى خراسان أيضا ومذهبهم هو مذهب الشيعة بعينه الذى ذكرناه من قبل • وهم يصلون فى اليوم احدى وخمسين ركعة ، منها الفريضة المعلومة وما بقى تطوع • وعندهم أن صلاة ركعة للشكر عقب كل صلاة واجبة• وهم لا يتلون فى الصلاة السور التى فيها آيات السجود ، حتى لا يجمعوا بين سجودين ، سجود الصلاة وسجود التلاوة • وهم يذبحون الضحية قبل صلاة عيد الأضحى • ويعتبرون الفقاع حراما كالخمر ويروون عنى النبى صلوات الله عليه أنه « نهى عن نبيذ الحقة ، والحقة الشعير » • ويحرمون لحم الأرانب • ويجيزون النكاح بغير شاهد ولا ولى • أما الطلاق فلا يقع عندهم بغير شاهد عدل ، وهم يحتجون بظاهر هذه الآية « فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف وأشهدوا ذوى عدل منكم » ( ٦٥ — ٢ ) فيقولون ان الله سبحانه وتعالى اشترط الاشهاد على الطلاق لا على النكاح ، ويقولون ان ( يمين ) الثلاث طلقات دفعة واحدة لا يقع مطلقا لقوله تعالى « الطلاق مرتان » ( ٢—٢٢٩ ) ويكبرون فى صلاة الجنازة خمس مرات بحكم أن هذه ليست صلاة إنما هى دعاء • ويجيزون صلاة الجنازة بغير طهر • ويقولون ان الامامة بعد النبى صلوات الله

| الاسم | الكنية | اللقب | المولد | الوفاة | العمر | المدفن | الام | اسم القاتل |
|---|---|---|---|---|---|---|---|---|
| على | ابو الحسن | المرتضى | بمكة بعد عام الفيل بثلاثين سنة | سنة اربعين | ٦٣ | بالقرى بالكوفة | فاطمة بنت اسد | عبد الرحمن بن ملجم |
| الحسن بن على | ابو محمد | الزكى | بالمدينة بالسنة الثانية من الهجرة | بالمدينة سنة تسع واربعين | ٤٧ | بالمدينة | فاطمة بنت الرسول | جعده بن اشعث بن قيس |
| الحسين بن على | ابو عبد الله | الشهيد | بالمدينة فى السنة الرابعة من الهجرة | فى سنة احدى وستين | ٥٧ | بكربلاء | فاطمة بنت الرسول | شمر وسنان لعنهما الله |
| على بن الحسين | ابو ابراهيم | زين العابدين | بالمدينة سنة ثمان وثلاثين هـ | بالمدينة سنة عشر بعد المائة | ٢٧ | بالمدينة | شهرباو بنت يزدجرد | هشام |
| محمد بن على | ابو جعفر | الباقر | بالطيبة سنة تسع وخمسين هـ | بالمدينة سنة تسع عشر بعد المائة | ٦٠ | بالمدينة | تربية بنت الهشم ابن محمد بن ابى بكر | ابراهيم بن الوليد |
| جعفر بن محمد | ابو عبد الله | الصادق | بالمدينة سنة ثلاث وثمانين هـ | سنة ثمان واربعين بعد المائة | ٦٥ | بالمدينة | حميده البربرية | المنصور |
| موسى بن جعفر | ابو ابراهيم | الكاظم | سنة ثمان ومائة هـ | سنة اربع وستين بعد المائة | ٥٦ | بمقابر قريش | ام البنين | هارون الرشيد |
| على بن موسى | ابو الحسن | الرضا | بالمدينة سنة ثمان واربعين بعد المائة | بطوس سنة ثلاث ومائتين | ٥٥ | بطوس | خيزران | المامون |
| محمد بن على | ابو جعفر | التقى | بالمدينة سنة خمس وتسعين بعد المائة | سنة عشرين ومائتين | ٢٥ | بمقابر قريش | سمانة | ام الفضل بنت المامون |
| على بن محمد | ابو الحسن | النقى | بالمدينة سنة اثنى عشر ومائتين | سنة اربع وخمسين ومائتين | ٤٢ | بسر من رأى | حديثة | المستعين |
| الحسن بن على العسكرى | ابو محمد | الزكى | سنة اثنين وثلاثين ومائتين | سنة ستين ومائتين | ٢٨ | بسر من رأى | حكيمة | المتوكل |
| محمد بن الحسن | ابو القاسم | المهدى | بسر من رأى سنة خمس وخمسين ومائتين | | | | | |

عليه لأمير المؤمنين على والنبى محمد أفضل ممن تقدم من الأنبياء جميعا ، ومن بعد على ذريته ، يقولون ان الامامة تظل فيهم حتى الامام الثانى عشر . ويذكرون أسماءهم بالترتيب مع شرح أحوالهم . ولكنهم لا يلقبون بأمير المؤمنين أحدا غير على رضى الله عنه ، ويسمون الباقين أئمة . ويقولون ان أبا بكر وعمر وعثمان ظلمة طغاة وان كل ما عملوه باطل . ويرون أن فدك ميراث لفاطمة رضى الله عنها ، ويقولون انه ما من أمة الا وتحيا بعد موتها شأن العزيز وأهل الكهف ومن شابههم ويستدلون على ذلك بقوله تعالى « ألم تر الى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم » ( ٢ — ٢٤٣ ) .

وعندهم أن الدعاء لأصحابهم واجب وكذلك الدعاء السيء على مخالفيهم وأعدائهم . ويسمون من كان من أهل مذهبهم « مؤمنا » لأن المؤمن هو من آمن بالظاهر والباطن ويسمون « مسلما » من آمن بالظاهر وفى باطنه غير ما يظهر . وذلك لأنه يسلم من ( ضرب ) السيف ولكنه لا يكون مؤمنا ، ويحتجون بهذه الآية :

« قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان فى قلوبكم » ( ٤٩—١٤ ) .

وهم يقولون ان الشر يصدر عن الله تعالى . ويقولون ببقاء الامام الثانى عشر وبطول غيبته وذلك بحكم ما نص عليه الأئمة السابقون . وقد قرأت فى هذا الباب كتابا للسيد المرتضى (٥) شرح فيه هذا شرحا تاما وسماه « المقنع فى الغيبه » .

وقد عملنا جدولين فيهما شرح لأسامى الأئمة الاثنى عشر وأيامهم وأحوالهم وفقا لمذهبهم ليقف عليهما القارىء .

ومذهبهم أن الأئمة الاثنى عشر معصومون وأن لكل منهم معجزة وكرامة. وكل منهم قد ظهر فى حياته مع شيعته وكانت فتاواهم وأجوبتهم ظاهرة . وكان كل منهم أثناء حياته قد عين خلفه الذى أصبح اماما من بعده ، حتى كان الامام الحسن العسكرى وقد نقل الامامة من بعده الى ابنه . وقال : انه المهدى وانه قائم الزمان . وكانت ولادته فى سامرا سنة خمس وخمسين ومائتين . وهناك سرداب يقال ان هذا الطفل ( محمد بن الحسن ) دخل فيه واختفى والناس يذهبون الى

هذا السرداب لزيارته . وقد انقضى من تاريخ ولادته الى تاريخ تأليف هـذا الكتاب مائتان وثلاثون سنة قمرية ، والله أعلم بالحقيقة والصواب .

## ٤ ـ مذهب الخوارج

كان ابتداء مذهب الخوارج وظهور مقالتهم من وقت حرب صـفين التى كانت بين أمير المؤمنين على رضى الله عنه ومعاوية ، وقد طالت مدة هذه الحرب ، وسبب طولها أن أصحاب على لم يبدؤها وكان على اذا عاد أصحابه من قتالهم ( قتال معاوية ) يطلب منهم ايقافها والا لما طالت هـذه الحرب ، الى أن اشتد القتال ذات يوم اذ تقدم مالك الأشـتر النخعي وكاد النصر يتم لعلي ، فسـأل معاوية عمرو بن العاص اذا كان لديه حيلة فأجابه عمرو بأن لدي حيلة واحـدة وليس هناك غيرها ، وهي أن تأمر رجال الجيش بجمع المصاحف وبرفعهـا على أسنة رماحهم وبالنداء بأن كتاب الله تعالى حكم بيننا وبينكم ونحن نرضى بما يحكم به كتاب الله تعالى . وهكذا فعلوا فتوقف أصحاب علي لهذا السبب عن الحرب رغم ماقال علي من أن الأمر خداع وحيلة فلم يستمعوا له وقالوا انا لانحارب بأية حال من حكموا كتاب الله وكلفوه أن يمنع أنصاره عن القتال . وفي هـذه الأثناء كان مالك الأشتر وأصحابه يقاتلون بعنف . فطلب أنصـار على منه أن يستدعى مالك الأشتر ، فأرسل له علي شخصا ليكف عن القتال فقال له مالك الأشتر «ان الحرب بدأت منذ ساعة وينبغى التمسك بالصبر حتي يتقرر مصيرها» فرفع أصحاب على سيوفهم فى وجهه وقالوا انا نقتلك ان لم ترجعه عن القتال . فأرسل على الى مالك رسـولا يقول له « اذا كنت تحارب من أجلى فكف عن الحرب لئلا يقتلونى قبل أن تصل فيضيع مجهودك » فلما سمع مالك هذا الكلام اغتم وكف عن القتال وجاء الى على ولام هذه الجماعة فجردوا سيوفهم وتوجهوا اليه حتى تدخل بينهم على وأخمد الفتنة . وحينئذ أرسلوا الى معسـكر معاوية رسولا يسأله ما يريد برفع المصـاحف ؟ فأجاب أن ألوفا من المسلمين سيقتلون فينبغى انتخاب حكمين من الجيشين وما يقضيان به فى هذا الأمر يطاع فقال أمير المؤمنين علي أن هذا غدر وتلبيس لا فائدة فيه ، فلم يذعن له أصحابه وقالوا ينبغي أن نعمل بما يقولون واتفقوا على هذا ، فاختير من ذلك الجانب عمرو بن العاص فقال علي أنا أرسل عبد الله بن عباس من جانبى . فقـال قومه جميعـا

نحن لا نرضى بهـذا قط انه ابن عمك ، وينبغى أن ترسـل أحدا ليس منك .
واختاروا أبا موسى الأشعرى فقبل هذا وقام بالأمر بغير رضى من على رضى الله
عنه ، ولولم يذعن لهذا الاختيار لبقى مستضعفا بين أيديهم ؛ وكان يقول « لا رأى
لمن لا يطاع » . وكان أبو موسى الأشعرى رجلا طيب القلب بينما كان عمرو بن
العاص من الدهاة ، حتى أنه خدع أبا موسى فى أول مجلس . فقد بدأ بأن كان
يقدمه على نفسه فى السير والجلوس فكان على أبى موسى أن يتكلم أولا ومن
بعده يتكلم عمرو فيقول حينئذ ما يشاء ، وهكذا جازت هذه الخدعة على أبى
موسى ، فكان يتقدم عمرو بن العاص ولكنه يخضع له . ومضى على هذا مدة
طويلة والأمور تسير على رغبة عمرو . ثم أخذ هذا يهيىء لمقصده فى قلب أبى
موسى فقال له ذات يوم يا أبا موسى لقد فكرت ودبرت أمرا فيه مصلحة المسلمين
وهو أنه لا شك فى عظمة علي ولكن أهل الشـام لا يريدونه وكذلك لا يليق
معاوية للأمر وأحسب أن ليس أليق منك بهذا المنصب فان لك بين الصحابة حقوق
المهاجرين . فاستسلم أبو موسى لهذا الحديث ، وقال لعمرو : أما وقد نصبت
حكما فكيف لى باختيار نفسى ؟ فقال عمرو : لا تختر نفسك ، ان عليك أن تخرج
صاحبك ( عليا ) من الأمر حتى أدخلك أنا فيه ، ففى ذلك مصلحة المسلمين .
فقال أبو موسى هذا هو عين الصواب . واتفقا على هذا ، حتى اذا جاء اليـوم
المحدد واجتمع خلق كثير من الفريقين ، دخل أبو موسى ومن خلفـه عمرو بن
العاص ، ثم جلس . وقد تطلع الخلق لما سيظهر ، فوقف أبو موسى وخطب ثم
أثنى على الله ورســـوله ( صلعم ) وقال « لقـد فوضتم الحـكم الينـا ،
نحن الاثنين ، وقد قلبنا الأمر على جميع وجوهه مدة شهرين ثم تدبرناه فوجدنا
الصواب أن نخرج عليا من هذه القضية كما يخرج الخاتم من الأصبع » ثم خلع
خاتمه من اليد اليمنى ووضعه فى يسراه . ووقف من بعـده عمرو بن العاص
فخطب ثم قال « كما خلع أبو موسى عليا من الأمر أنصب أنا معاوية » . وكان
أبو موسى يطمع فى أن يوليه عمرو الأمر كما وعده فلمـا لم يفعل ضاق صدر
أبى موسى فصاح : يا غرار يا طرار لقد كذبت وغدرت وقد عنـاك الله تعالى فى
القرآن بقوله « مثله كمثـل الكلب ان تحمل عليـه يلهث أو تتركه يلهث » .
( ٧ــ١٦٧ ) فقال عمرو : أنت الكذاب الطرار وقد عناك الله تعالى بقوله : « كمثل
الحمار يحمل أسفارا » . ( ٦٢ــ٥ ) فأخذ الناس يتجادلون ويغدر بعضهم ببعض

ثم تفرقوا • وانصرفت جماعة منهم الى شأنهم فتجمعت أثناء ذلك فرقة من أصحاب علي وقالوا لماذا رضى علي بحكم الحكمين هذا ولماذا أعرض عن حكم الله ، لقد كفر بما فعل ولزم علينا أن نحاربه حتى يسلم مرة أخرى ويتوب عن هذا الاثم ، أو نقتله • وصمموا على هذا وظهر منذ ذلك اليوم هذا المذهب وقد وضعت قواعده هذه الجماعة التى ابتدأت بذلك القول ، ثم دعوا الناس اليه وكان شعارهم فيما بينهم « لا حكم الا الله » حتى قوى أمرهم وبايعهم عليه ثلاثة أو أربعة آلاف رجل • ثم أخبروا عليا بالأمر فدعا أفاضلهم ونصحهم فلم يجد من هذا أية فائدة ولم يعملوا برأيه ، ثم قالوا ما دمنا فى جند على فلن نحصل على ما نريد والرأى أن ننفصل عنه حتى نستطيع أن نعمل ، فتركوا الجيش وتجمعوا فى النهروان وأخذوا يفسدون فيها ، وصبر علي وتحمل ، حتى ضاق بهم ذرعا فسار اليهم ودعا جماعة من رؤسائهم ومتكلميهم وقال « لقد كان ظهرى قويا بكم وكنتم صحابتى فبأى حجة تعصونني ؟ » فقالوا « كنا صحابتك ما كنت مسلما ، فلما كفرت تركناك • فاذا اعترفت باثمك وتبت عنه وأسلمت تبعناك • والا فانا نحاربك ، فاما قتلناك واما قتلنا جميعا » •

فقال علي رضى الله عنه « أى اثم أثمت » ، قالوا : لقد رضيت حكم المخلوق ووليت عن حكم الله والله تعالى يقول « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون » ( ٥ ــ ٤٧ ) فقال على رضى الله عنه قد قلت لكم يوم الحكمين ان ما تعملون مكيدة ووهن فلم تسمعوا لرأيى وأكرهتمونى وصحابتى على الكف عن الحرب ، فماذا تقولون فى ذلك الآن • قالوا : بلى لقد كفرنا نحن أيضا فى ذلك اليوم وأخطأنا كما أخطأت وقد تبنا الآن وعدنا مسلمين فأقر أنت أيضا بما قلت وعد الى الاسلام • فقال على رضى الله عنه : سبحان الله لقد أسلمت قبل الناس جميعا وهاجرت مع رسول الله تعالى وهزمت المبارزين أمامه ، واليوم فى كهولتى أشهد بكفرى وأعود مسلما مرة أخرى وأضيع كل تعبى • ولو يحكمك رجل فى حادث لمؤمن فلماذا يكفر ؟ أليس الله تعالى هو الذى أمر بالتحكيم فى الخصومة بين الزوجة والزوج فى قوله تعالى : « فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها » ( ٤ ــ ٣٥ ) أو لم يأمر الله بتحكيم ذوى عدل فى تقويم ما يقتل من الصيد فى الحرم فى قوله عز من قائل « يحكم به ذوا عدل منكم » ( ٥ ــ ٩٥ ) ومع هذا فانا لم أرض تحكيم الحكمين وأنتم حملتمونى عليه قهرا ، وقد

عرف ما عملوا وانه لغدر وتلبيس فان رضيب به أنا نفسي فلماذا أكفر ؟ وأخذ يسوق لهم مثل هذه الأدلة حتى عاد اليه ألف وخمسمائة رجل تائبين وأما الآخرون فقد أصروا على ذلك الاعتقاد السيء واتخذوا نهم في النهروان معسكرا ، وقالوا بأن مرتكب الكبيرة ومرتكب الصغيرة كفران ، وكانوا يقتلون المسلمين : رجالا ونساء صغارا وكبارا . وكان على رضى الله عنه يخدعهم وينصحهم كل يوم بلا جدوى ، حتى أخبر ذات يوم أن رجلين مع امرأتين وحمارين مروا بهم فأمسكوهم وسألوهم عن مذهبهم فأخبرهم أحد الرجلين أنه نصرانى وهذه زوجته فتركوهما وشأنهما ولم يتعرضوا لهما وقال الثانى انه مسلم فقتلوه وقتلوا زوجه ( الحامل ) وهلك مع حملها . فلما بلغ هذا الخبر أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه قال لا يجوز السكوت على هذا العمل فركب وتوجه لقتالهم واشترط لوقف القتال أن يقروا بالله تعالى وبالدين وبالشريعة فلم يجيبوه الى ذلك ، ولكنهم ازدادوا تمردا وابتدءوا يقاتلونه فقامت هذه الحرب وقتلوا .

وأما صاحب الثديه الذى كلم النبى صلى الله عليه وسلم عليا عنه فلم يجدوا له أثرا ، على كثرة ما بحثوا عنه وتلك قصة معروفة .

ومنذ ذلك الوقت ظهر هذا المذهب بين الناس ، والخوارج ينكرون عليا وكل من أتى بعده ، وظلت طائفة منهم قائمة فى كل زمان . وكان منهم فصحاء وخطباء ومبارزون عظماء مثل نافع بن الأزرق وقطرى بن الفجاءة التميمى والضحاك بن قيس وأمثالهم . وهم خمس عشرة فرقة .

١ — الأزرقية : أصحاب نافع بن الأزرق .
٢ — النجدات : أصحاب نجدة بن عامر الحنفى .
٣ — العجارده : أصحاب عبد الكريم ( بن ) عجرد .
٤ — الخازمية : أصحاب شعيب بن خازم .
٥ — الثعالبية : أصحاب ثعلبة بن عامر .
٦ — الجرودية : أصحاب عبد الله بن جرود .
٧ — الصفرية : أصحاب زياد ( بن ) الأصفر .
٨ — الاباضية : أصحاب عبد الله بن اباض .

٩ — الحفصية : أصحاب حفص بن المقدام •

١٠— البيهسية : أصحاب أبى بيهس بن هيصم •

١١— اليزيدية : أصحاب يزيد بن أنيسه •

١٢— الشمراخية : أصحاب عبد الله بن شمراخ •

١٣— الفضلية : أصحاب الفضل بن عبد الله •

١٤— الضحاكية : أصحاب الضحاك بن قيس •

١٥— البدعية : أصحاب يحيى بن الأصرم •

والخوارج يشهدون أنهم ينقسمون الى ثمان فرق •

هذه هى فرقة الخوارج ومذهبهم واحد فى الأصل ولكل من هـذه الفرق التى ذكرنا قضية ولكل منها ثورة كبيرة • وجماعة من العـامة يتهمون الجرودية بأنهم أكثر الفرق كفرا وأنهم كانوا يقولون انا نعمل غضبا من على • ولـكن هذا القول لا أساس له ، وقد جاء فى كثير من الكتب أقوال كثيرة فى بيان هذا المذهب ، وقد كتبت مجمله الصحيح فمن أراد التفصيل فليرجع الى كتاب أحسن الكبار (٥١) •

( انتهى النص )

( التعليقات )

(١) سورة ٤ ، آية ٥٩
(٢) سورة ٢٦ ، آية ٨٤
(٣) سورة ٧ ، آية ٤٣
(٤) سورة ٢٩ ، آية ٦١
(٥) سورة ١٧ ، آية ١١٠
(٦) سورة ١١ ، آية ٤١
(٧) سورة ١٧ ، آية ١١٠
(٨) سورة ٢٧ ، آية ٣٠
(٩) سورة ٣٩ ، آية ٣

(١٠) يقصد كتاب البدا والتاريخ لمطهر بن طاهر المقدسى المتوفى بعد سنة ٩٨٥/٣٧٥

( حواشى بيان الاديان ، طبعة اقبال ، ص ٥١ ) .

(١١) كذا فى الأصل وهو ابو الحسن محمد بن يوسف العامرى النيسابورى من تلاميذ ابى زيد احمد بن سهل البلخى ( ٢٣٤ / ٨٤٨ — ٣٢٢ / ٩٣٣ — ٤ ) واستاذ ابى على احمد بن محمد مسكوية المتوفى سنة ٤٢١ / ١٠٣٠ . اشتغل بالفلسفة وسمى « صاحب الفلاسفة » أو « صاحب الفلسفة » وقد شرح بعض كتب ارسطو والف كتاب « الأبد على الأبد » . وكتاب « النسك العقلى » . توفى سنة ٣٨١ / ٩٩١

( حواشى اقبال ، ص ٥٢ ) حيث رجع الى :

معجم الأدباء ، ج ١ ، ص ٤١١ . وج ٢ ، ص ٨٩ ؛ والملل والنحل للشهرستانى ص ٢٤٨ ؛ وتاريخ الحكماء للشهرزورى ، والمقابسات لأبى حيان التوحيدى ص ٦٠ ، ١٦٥ ، ٢٠٢ ، ٢٠٧ ، ٣٠١ — ٣٠٩

(١٢) هو ابو الخير حسن بن سوار بن بابا بهرام الخمار النصرانى ، من الفلاسفة واهل المنطق . ولد فى بغداد فى ربيع الأول سنة ٩٤٢/٣٣١ . كان من المترجمين الذين نقلوا من السريانية الى العربية . بعد أن اتم علوق ذهب الى خوارزم والتحق بخدمة ابى العباس مأمون بن محمد خوارزمشاه . ولما فتح السلطان محمود الغزنوى خوارزم سنة ١٠١٧/٤٠٨ ، كان أبو الخير ضمن العلماء القيمين ببلاط خوارزمشاه من امثال ابن سينا والبيرونى . وقد صحب هؤلاء السلطان محمود بعد خروجه من خوارزم .

( حواشى اقبال ص ٥٢ — ٥٣ ، حيث فصل المراجع ) .

(١٣) استيطكين : ليس لافلاطون كتاب بهذا الاسم ، ولعله يقصد كتاب Phèdre الذى يتناول علم الجمال (Esthétique) ( اقبال ، ص ٥٤ ) .

(١٤) باتنجل : اسم كتاب ذكره ابو ريحـان فى الصفحتين ١٢ ، ١٤ حيث نقل ابو المعالى . وهذا الكتاب نقله ابو ريحان من السنسكريتية الى العربيـة . وقد نقلنا نص ابى ريحان كاملا . وجاء فى صفحة ١٤ :

وفى كتاب كيتا وهو جزء من كتاب بهارث فيما جرى بين باسديو وبين ارجن : انى انا الكل من غير مبدأ بولادة ومنتهى بوفاة لا اقصد بفعلى مكافاة ولا اختص بطبقة دون اخرى لصداقة او عداوة قد اعطيت كلا من خلقى حاجته فى فعله فمن عرفنى بهذه الصفة وتشبه بى فى ابعاد الطمع عن العمل انحل وثاقه وسهل خلاصه وعتاقه .

وفى السطر ٢٠ : وفى كتاب سانك قال الناسك : هل اختلف فى الفعل والفاعل .

فهذا قول خواصهم فى الله تعالى ويسمونه ايشفر اى المستغنى الجواد الذى يعطى ولا ياخذ .

(١٥) جاءت فى كتاب البيرونى « الهند » ايشفر ، لا « اسفر » كما جاء فى النص الفارسى ، والمقصود بها Isavara ونص البيرونى عنها هو :

« ويسمـونه ( اى الخـواص ) ايشـفر اى المستغنى الجـواد الذى يعطى ولا ياخذ » .

( الهند ، ص ١٥ ) . ( وحواشى اقبال ، ص ٥٤ ) .

(١٦) جمع الأسـتاذ M. Devic مدرس اللغـة العربيـة بجامعة مونپليه النصوص المتعلقة بالزنوج والواردة فى الكتب العربية فى كتابه :

Le pays des Zendjs ou La Côte d'Afrique au moyen-âge ... d'après les Ecrivains Arabes. Paris 1883.

وراجع تعليقات Schefer ص ١٤٣

(١٧) المقصود هنا كتابه « المقالات » الذى كان من اشهر كتب المسلمين فى الملل والنحل . وقد عاش ابو عيسى الوراق فى النصف الأول من القرن الثالث الهجرى ، وتوفى سنة ٢٤٧ / ٩٥٨ ونقل عنه كتاب الفرق الكثير فى كتبهم .

( اقبال ، ص ٥٤ ــ ٥٥ ) .

(١٨) هذا البيت من معلقة زهير التى مطلعها :

امن ام اوفى دمنـة لم تكلم بحـومانة الـدراج فالمتثلم

(١٩) سورة ٧١ ، آية ٢٣

(٢٠) سورة ٥٣ ، آية ١٩ ، ٢٠

(٢١) عن اصنام العرب انظر كتاب الأصنام لابن الكلبى ( نشر احمد زكى باشا ، مطبعة دار الكتب المصرية ) .

وذكر صاعد فى كتاب « التعريف فى طبقات الامم » انه كان للعرب مذاهب عدة فكانت حمير تعبد الشمس ودليل ذلك حكاية الله تعالى فى كتابه عن الهدهد اذ قال لسليمان واصفا حال بلقيس الحميرية « وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله » . قال ابو محمد الهمدانى فلما ملك سليمان وتغلب على اليمن وغيرها رفضت حمير عبادة الشمس وتهودت . وقال هشام بن محمد الكلبى كانت حمير

نعبد الشمس ، وكنانة القمر ، وميسم الدبران ، ولخم وجذام المشترى ، وطى سهيلا وقيس الشعرى العبور ، وأسد عطاردا .

وقال ابن قتيبة كانت النصرانية فى ربيعة وغسان وبعض قضاعة ؛ وكانت اليهودية فى حمير وبنى كنانة وبنى الحارث بن كعب وكنده ، وكانت المجوسية فى تميم . وكانت الزندقة فى قريش أخذوها عن أهل الحيرة . وكانت عبادة الأوثان فاشية فى العرب .

قال صاعد : وجميع عبدة الأوثان من العرب موحدة لله تعالى وانما كانت عبادتهم لها ضربا من التدين بدين الصابئة فى تعظيم الكواكب والأصنام الممثلة بها فى الهياكل لا على ما يعتقده الجهال بديانات الأمم .

(٢٢) قال صاعد فى كتابه « التعريف فى طبقات الأمم » عن عبدة الأوثان من العرب :

« وانما جاء نص القرآن بمخالفتهم فى البعث والنشور ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم فكان جمهورهم ينكر ذلك ولا يصدق بالمعاد ويرى أن العالم لا يخرب ولا يبيد وان كان مخلوقا مبتدعا .

(٢٣) سورة ٤٥ آية ٢٤

(٢٤) سورة ١٦ ، آية ٥٧

(٢٥) ومما روى فى هذا المعنى قول خزيمة بن الأيثم يوصى ابنه :

| | |
|---|---|
| يا سعد اما أهلكن فاننى | أوصيك ان أخ الوصاة الأقرب |
| لا تتركن اباك يمشى خلفهم | تعبا ، يجر على اليدين وينكب |
| واحمل اباك على بعير صالح | وثق الخطية : انه هو اصوب |

(٢٦) أبو قيس صرمه بن انس الأنصارى الخزرجى من بنى النجار . ترك عبادة الأصنام واعتنق النصرانية وبنى كنيسة كان لا يسمح لطامث أو جنب ان يدخلها . وفى أواخر أيام حياته ذهب الى المدينة واعتنق الاسلام مع من كانوا معه وقد قال هذا الشعر فى ذلك الوقت :

| | |
|---|---|
| ثوى بقريش بضع عشرة حجة | يذكر لو يلقى صديقا مواتيا |
| ويعرض فى اهل المواسم نفسه | فلم يلق من يؤمن ولم ير داعيا |
| فلما اتانا واطمأنت به النوى | واصبح مسرورا بطيبة راضيا |
| واصبح لا يخشى عداوة واحد | قريبا ولا يخشى من الناس باغيا |
| بذلنا له الأموال من جل مالنا | وانفسنا عند الوغى والتآسيا |
| اقول اذا صليت فى كل بيعة | حنانيك لا تظهر علينا الأعاديا |

راجع كتاب « أسد الغابة » ج ٣ ؛ ص ١٨ ؛ وتاج العروس مادة صرم .

(٢٧) خالد بن سنان من بنى عبس ، واسم جده غيث . وقد جاء فى كتاب الاغانى ان ابنته أسلمت حين سمعت النبى يتلو السورة الثانية بعد المائة وكانت تقول انها سمعتها من ابيها .

( كتاب الاغانى ، ج ١٦ ص ٧١ – ٨٠ ) .

(٢٨) هو الذى سمع يقول لعامر بن ربيعة :

انا انتظر نبيا من ولد اسماعيل ثم من بنى عبد المطلب ، ولا اراني ادركه : وانا اومن به واصدقه واشهد انه نبى ، فان طالت بك مدة فرايته فاقرئه منى السلام ، وساخبرك ما نعته حتى لا يخفى عليك . قلت هلم ! قال : هو رجل ليس بالطويل ولا بالقصير ، ولا بكثير الشعر ولا بقليله ، وليست تفارق عينيه حمرة ؛ وخاتم النبوة بين كتفيه ؛ واسمه احمد ، وهذا البلد مولده ومبعثه ، ثم يخرجه قومه منها ويكرهون ما جاء به حتى يهاجر الى يثرب فيظهر امره ؛ فاياك ان تخدع عنه ، فانى طفت البلاد كلها اطلب دين ابراهيم ، فكل من اسأل من اليهود والنصارى والمجوس يقولون هذا الدين وراءك وينعتونه مثل ما نعته لك ، ويقولون لم يبق نبى غيره .

قال عامر بن ربيعة : فلما اسلمت اخبرت رسول الله ( صلعم ) قول زيد بن عمرو واقراته منه السلام ، فرد عليه السلام وترحم عليه وقال : « قد رايته فى الجنة يسحب ذيولا » .

( الطبقات الكبرى لابن سعد ، ج ١ ، ص ١٤٣ ) ؛ وفى سيرة ابن هشام انه وقف فلم يدخل فى يهودية ولا نصرانيـة وفارق دين قومه فاعتزل الأوثان والميتة والدم والذبائح التى تذبح على الأوثان ونهى عن قتل المؤودة وقال اعبد رب ابراهيم وبادى قومه بعيب ما هم عليه .

وروى عنه انه رؤى ، وكان شيخا كبيرا ، مسندا ظهره الى الكعبة وهو يقول : يا معشر قريش والذى نفس زيد بن عمرو بيده ما اصبح منكم احد على دين ابراهيم غيرى . ثم يقول : اللهم لو أنى اعلم اى الوجوه احب اليك عبدتك به ولكنى لا أعلمه . ثم يسجد على راحته .

وزيد بن عمرو بن نفيل هو عم عمر بن الخطاب .

( سيرة بن هشام ، ص ١٤٣ – ١٤٥ ، ج ٢١ طبعة صبيح ) .

(٢٩) هو حكم العرب فى الجاهلية . قيل انه لما اسن واعتراه النسيان امر بنته أن تقرع بالعصا اذا جو فه عن الحكم وجار عن القصد . ويقال له ذو الحلم .

( البيان والتبيين ، ج ٣ ص ٢٧ ، طبعة السندوبى ) .

(٣٠) لم نقف على تعريف له فيما لدينا من مصادر . ويرجح شفر انه عمرو بن يزيد المعروف بابن سمى ( ص ١٥٥ ) .

(٣١) راجع الكامل فى التاريخ لابن الأثير ، ج ١ ؛ ص ٢٠١ – ٢٠٢
وانظر :

Caussin de Perceval :
" Essai sur l'histoire des Arabes avant l'islamisme", t. I, p. 97.

(٣٢) راجع التسهرستانى ، الملل والنحل ، ج ٢ ، ص ٤٠ وما بعدها على هامش الفصل لابن حزم ، طبعة عبد الرحمن خليفة . وابن حزم ، الفصل فى الملل والنحل ، ص ٨٢ وما بعدها طبعة عبد الرحمن خليفة . القاهرة ١٣٤٧ هـ .

(٣٣) عن السامرية انظر :

Dictionnaire des connaissances religieuses, J. Bricout, Paris 1928.

The Jewish Encyclopedia.

The Ency. of Religions and Ethics.

(٣٤) الملكانية : هو الاسم الذى يطلق على النصارى الذين عاشوا خاضعين للدولة الاسلامية وتابعين لمذهب كنيسة بيزنطية . وهم من الناحية الروحية موالون لبطريكية روما الجديدة .

اما عن كلمة : بطريق : وطرتكار وفسطيار وعسطرتج وزازج :

فراجع شيفر ص ١٥٧

وقد رجعنا فى الكلمات العبرية الى الزميل الدكتور حمدى البكرى .

(٣٥) اصلها من الفارسية القديمة ماكو Magu وعرفت عند اليونان Magus . وفى الفارسية الحديثة أصبحت مغ ، وقد اطلق اسم المجوس على قبيلة كانت فى ايران القديمة وهى التى ظهر فيهازردشت واصبح كهنة دينه من هذه القبيلة . وهذا راى من أرجح الآراء فى بيان كلمة مجوس وهناك من الباحثين من قال بغيره . وقد أصبح اسم المجوس فيما بعد علما يدل على اتباع الديانة الزردشتية وما تفرع عنها من مذاهب .

وازن بين ما ذكره الشهرستانى فى الملل والنحل ( ج ١٢ ، ص ٥٧ وما بعدها ) وبين ما كتبه أبو المعالى .

وانظر ايضا : M. N. Dhalla: Zoroastrian Theology, New-York 1914

وكذلك كتب پور داوود عن كتاب الأوستا .

وانظر بالعربية : فصل فى اسلام الفرس ، ليحيى الخشاب ص ١ — ٢٤ من كتاب تراث فارس القاهرة ١٩٥٩

(٣٦) الدخمة بناء اسطوانى مفتوح يضع الزردشتية فيه موتاهم فى الجبال أو الأماكن الخلوية لتتحلل فى الهواء الطلق . لأنهم يؤمنون بانه لا يجوز أن تلوث الأرض بدفن الموتى فيها .

(٣٧) لدراسة تاريخ زردشت انظر :

A. V. Williams Jackson: Zoroaster, the prophet of Iran.

نيويورك ، ١٩٢٦

(٣٨) عن مزدك ودعوته . انظر : دائرة المعارف الاسلامية مادة مزدك (Guidi)

وانظر : Christensen فى Le Regne du Roi Kawādh I et le communisme mazdakite, Copenhagen, 1926.

وانظر : فصل المزدكية فى كتاب « ايران فى عهد الساسانيين » ، الذى كتبه Christensen ونقله الى العربية يحيى الخشاب وراجعه عبد الوهاب عزام . القاهرة ١٩٥٨

(٣٩) انظر : تقى زاده « مانى ودين او » ، طهران ١٣٣٥

وانظر : وليم جاكسون فى كتابه "Researches in Manichaeism" "نيويورك ١٩٣٢

(٤٠) عن تصوير مانى انظر الفصل الذى جاء عنه فى كتاب « ايران فى عهد الساسانيين » عن مانى .

(٤١) لم ترد هذه القصة فى مصدر آخر . والمأثور عن المأمون انه كان متسامحا مع أرباب العقائد المختلفة . وقد رويت قصة عن احد رؤساء المانوية هو

يزدانبخت وكان المأمون قد احضره من الرى بعد ان امنه فقطعه المتكلمون فقال له المأمون : « اسلم يا يزدانبخت : فلولا ما أعطيناك من الأمان لكان لنا ولك شأن » فأجاب يزدانبخت بقوله : « نصيحتك يا أمير المؤمنين مسموعة وقولك مقبول ولكنك ممن لا يجبر الناس على ترك مذاهبهم » .

ابن النديم : الفهرست ، ص ٣٣٨ طبعة أوروبا .

(٤٢) هوشنك او اوشهنك او هوشهنك هو ثانى ملوك البيشداديين وأول من لقب بيشداد .

راجع الشاهنامة العربية لعزام ص ١٧ من الحاشية فى الجزء الأول .

(٤٣) راجع فى مذهبهم كتاب الفهرست وكتاب البدء والتاريخ لأبى زيد البلخى وكتب الملل والنحل وكتاب الهند للبيرونى .

(٤٤) هو ابو زيد احمد بن سهل البلخى ( ٢٣٤ — ٣٢٢ ) صاحب كتاب « صور الأقاليم » وله كتب كثيرة وكانوا يسمونه جاحظ خراسان .

راجع الفهرست ص ١٣٨ ومعجم الأدباء الجزء الأول ص ١٤١ — ١٥٢

وراجع اقبال ص ٥٨

(٤٥) راجع كتابنا : Nasir è Hosraw فى الصفحات : ٢٤٨ — ٢٥٨ حيث تكلمنا عن هذا المذهب بشىء من التفصيل ؛ ثم انظر حاشية ماسيه ص ٤٠ وهو يذكر راى كريستنسن الذى يرى أن المؤلف نقل التعريفات الأربعة عن البيرونى فى الهند ( ص ٣٢ ) مع اختصارها وتعديلها تعديلا طفيفا .

(٤٦) انظر عنهم : تبصرة العوام فى معرفة مقالات الأنام ( فارسى ) ، ٢٧ — ٢٨

والملل والنحل للشهرستانى ، ج ٢ ، ص ٧٦ ، طبعة عبد الرحمن خليفة .
والفهرست لابن النديم ، ص ٤٤٢ وما بعدها ، طبعة مصر . ودائرة المعارف الاسلامية .

وحواشى Schefer ص ١٦٠ — ١٦٣

(٤٧) عن القرامطة انظر الفصل ٤٦ من سياستنامه . وانظر دائرة المعارف الاسلامية .

وأما كلمة زنديق فليست كما يقول صاحب « بيان الأديان » . وانما اخذت الكلمة عن زندك وهو تفسير كتاب الأوستا . فالذى يتبع التفسير دون النص ، أى يجتهد فى التفسير ولا يتقيد بالنص يسمى زندكيا وزنديقا . وأطلقت الكلمة على اتباع مانى الذى تقدم ذكره وكان مانى قد اتى بتفسير جديد لبعض احكام الأوستا ، فلما قتل واضطهد اتباعه سموا بالزنادقة ، ثم توسع فى اطلاق هذا اللفظ بعد الاسلام ، فشمل المانوية والمزدكية والمزدية بشكل عام .

وراى يقول ان كلمة زنديق مشتقة من الكلمة الآرامية صديق ، وهى اسم طبقة من المتدينين من المانوية . وكانت الكلمتان زنديق ومانوى بمعنى واحد .

(٤٨) راجع سياستنامه ، فصل ٤٧

ثم غلام حسين صديقى فى كتابه : Les Mouvements Religieux Iraniens.

(٤٩) انظر تعليقاتنا على الفصل الثانى من الباب الثانى من كتاب مفاتيح العلوم للخوارزمى ، والتى نشرت بمجلة جمعية الدراسات التاريخية المجلد السابع سنة ١٩٥٨ ، من صفحة ١٦٤ — ٢١٢

وقد اكتفينا بهذه التعليقات فى هذا الباب .

(٥٠) هو علم الهدى الشريف أبو القاسم على بن حسين المرتضى ( ٣٥٥ — ٤٣٦ / ٩٦٧ — ١٠٤٤ ) وكتابه « المقنع » من اشهر كتب الامامية فى مسألة الغيبة .

حواشى اقبال رقم ٤٩ ، ص ٥٩

(٥١) ذهب Schefer الى أن اسمه الكامل : « أحسن الكبار فى معرفة الأئمة الأطهار » تأليف محمد بن ابى زيد بن عربشاه الوراميني .

وقال اقبال ان محمد هذا متأخر جدا عن أبى المعالى فلا يعقل أن ينقل عنه . ورجح أن يكون اسم كتاب عربى فى الملل والنحل .

حواشى اقبال ، رقم ٥٠ ، ص ٥٩ — ٦٠

## كشاف الموضوعات

# فى العلاقة بين السكان والتضاريس

## دراسة فى جغرافية السكان

للدكتور جمال حمدان

للسكان فى الدراسة الجغرافية وضع خاص ، فهى تصنف كجزء من الجغرافيا الحضارية Cultural Geog. ، ولكنها فى الحقيقة ليست عنصرا حضاريا ، بل بالأحرى صانعة الحضارة . ولهذا يفرد لها البعض وضعا خاصا مستقلا بين الجغرافيا الطبيعية والحضارية (١) كغطاء مستقل Homosphere Anthroposphere . وهى فى هذا الوضع تمثل مماسا لكل العناصر والعوامل الجغرافية من طبيعية وبشرية . وسندرس هنا من هذه الضوابط والقوى عنصرا واحدا هو التضاريس ، بل جانبا واحدا منها ــ التضاريس الموجبة . وتتضح أهمية هذا العامل فيما يقول راتزل :

"La carte topographique est l'expression la plus exacte et la plus fidèle en tous ses details de la répartition de la population."(٢)

ولكن لابد أن نحذر حتما طبيعيا صارما فى السكان ؛ فسنرى مع سوروكين (٣) أن العلاقة بين التضاريس والسكان ليست علاقة بسيطة مباشرة ثابتة ، بل هى مركبة ، مباشرة وغير مباشرة ، ومتطورة . بل حتى فكرة السهل كضابط سكانى هى فكرة معقدة : تنتظم قوى وضوابط أخرى كالتربة والجيولوجيا (٤) . ولهذا ربما كانت العلاقة بين الكثافة البشرية والمرتفعات أكثر وضوحا ومباشرة منها مع السهول .

(١) Finch, V C., Trewartha, G.T., Robinson, A.H. & Hammond, E., Elements of Geog., 1957, pp. vi, 501.

(٢) Brunhes, Jean, La Géog. Humaine, Paris, 1925, t.I., p. 182.

(٣) Sorokin, Pitirim, Contemporary Sociological Theories, N.Y., 1928, p. 166

(٤) George, Pierre, Intro. à l'Étude Géog. de la Pop. du Monde, Paris, 1951, pp. 60-1.

وسنقسم بحثنا هذا الى أربعة عناصر — العلاقة العامة بين التضاريس والكثافة ، كثافة السكان داخل المرتفعات ، كثافة السكان بين خط العرض وخط الكنتور ، العلاقة السكانية بين الجبل والسهل .

## اولا — العلاقة العامة بين التضاريس والكثافة

١ — اذا نظرنا الى خريطة كثافة السكان فى العالم وجدنا أن المرتفعات والجبال عامة مخلخلة فى السكان ، فهى بمثابة جزر سكانية فقيرة تبدو « كبقع بيضاء Bare Spots » على الخريطة . ورغم أن تحديد كثافة السكان للمناطق الجبلية عملية صعبة غير مجدية لشدة تقطع السكنى والعمران فان الأرقام الآتية توضح هذه الحقيقة . مثلا لا تزيد الكثافة عن ٢—٤٠ فى الكم فى شمال غرب الألب الدينارية ، تنخفض الى ١٥—٢٥ فى جنوبها الشرقى . وهى لا تزيد عن ٢٩ فى كل التيرول . وفى « الايلاندز » الاسكتلندية ١٦ ، ترتفع الى ١٩ فى اقليم الـ Crofters أغنى وأكثف أجزاء « الهايلاندز » . وقد تصل الكثافة الى ١٠٠ فى بعض أودية الألب الفرنسية ولكنها لاتزيد عن ٢٠ —٢٥ لكل هضبة فرنسا الوسطى (٥) . فلا شك اذن فى ظل الحضارة البشرية الحالية أن المرتفعات مضادة لتكاثف السكان : مثلا لاحظ راتزل على أيامه أن مدينة مائة ألفية واحدة هى التى تقع فوق كنتور ٥٠٠ متر فى أوربا — ميونيخ ، بينما الباقى أغلبه أسفل ١٠٠ متر بل بضعة أمتار فوق سطح البحر (٦) . صحيح أن العلاقة بين السكنى والتضاريس قد تطورت تاريخيا ، فكان السكان يتبعون خطوط المرتفعات وينأون عن السهول المناقعية فى بريطانيا ما قبل التاريخ مثلا . ولكن الواقع فى الوقت الحالى أن كثافة السكنى فى الجبال تشبهها فى أطراف المعمورة ، فان الجبال كأطراف العالم وهوامش القارات ، بل هى أطراف العالم — فقط رأسيا ... ولا تتخلف المرتفعات فى السكنى اليوم فقط ، بل هى تخلفت زمنيا أيضا . فان سكنى الجبال أتت متأخرة نسبيا ، فلا تظهر البقايا الأركيولوجية القليلة للجنس الألبى فى وسط أوربا الا فى تاريخ حديث بالنسبة لبقية القارة ، مما يدل على تأخر تعمير السلسلة الجبلية . بل ان سلسلة Mittelgebirge

---

(٥) Beaujeu-Garnier, Jacqueline, Géog. de la Population, Paris, 1956, t.I.p.127.
(٦) Sorre, Max., Fondements de la Géog. Hum., Paris, 1952, p. 202.

بألمانيا لم تعمر بالسكنى الا منذ العصور الوسطى ! كذلك يوضح شولى Cholley أن التعمير الحقيقى لجبال ساڤوا لم يحدث الا فى القرنين ١١ ، ١٢ (٧) . كل هذا مع ملاحظة أن جبال أوربا بالذات أقل أبعادا وأكثر تمزقا وتغلغلا بالأودية الغائرة العديدة ، كما تقع فى محيط سكانى قديم وكثيف مما جعلها أكثر تأثرا بالغطاء البشرى من جبال أخرى كثيرة (٨) . كذلك فى تعمير أمريكا وصلت موجة السكنى غربا حتى ١٨٤٠ الى خط طول ١٠٠° بينما كانت الأديروندالك وكاتسكيل وأوزارك لا تزال من « البقع البيضاء » التقليدية (٩) .

والسؤال الآن : ما هى عوائق السكنى فى المرتفعات ؟ هذه ثلاث ــ ميكانيكية وطبيعية وحيوية .

فأما الميكانيكية فان التضرس والصعود ضد الجاذبية عملية شاقة فى ذاتها . وتزداد هذه الصعوبة ان كان المنحدر عاريا من النبات فى ظل مطر فانه يكون صخريا حادا ؛ ولكنه لا يقل صعوبة اذا اكتسى فى مستقبل المطر بالغابات الكثة اذ تتعذر الحركة Accessibility على السواء باجتماع خط الكنتور والغطاء النباتى . فمثلا كما أدركوا هم أنفسهم ، لم يوقف الرومان شمالا مرتفعات جنوب ألمانيا المتوسطة العلو وانما الغابة النفضية شبه الصماء (١٠) . ولقد درس هنتنجتون صعوبات النقل والحركة المترتبة على التضرس دراسة وافية : فبالنسبة للسكة الحديد مثلا : الطاقة الميكانيكية البحتة المضاعفة ، كثرة الانحناءات وتطويل المسافات أضعافا ، سرعة استهلاك الآلات ، التكاليف الانشائية الباهظة فى التمهيد والأنفاق والكبارى ، الأخطار الميكانيكية فى الانحناءات ؛ والطبيعية طوال الطريق من هيارات وانهيارات landslides وفيضانات ... الخ (١١)

---

(٧) Peattie, Roderick "Height Limits of Mountain Economies", Geog. Rev., vol. XXI, No. 3, July, 1931, p. 427.

(٨) Beaujeu-Garnier, p. 119.

(٩) Semple, Ellen Churchill, Influences of Geog. Environment, Lond., 1911, pp. 522, 533.

(١٠) Zon, Raphael. "Forests & Hum. Progress", Geog. Rev., Sept., 1920, p. 111 & Semple, p. 521.

(١١) Huntington, E., Williams, F. & Valkenburg, S. V., Econ. & Soc. Geog., N. Y., 1933, pp. 160 ff.

أما العوائق الطبيعية فنجد أن البرودة تشتد مع الارتفاع ( ـــ٦ر٠ درجة مئوية لكل ١٠٠ متر)؛ وأن المطر يتزايد حتى ارتفاع معين (القمة عند ٢٠٠٠ متر كما وجد هـان ) (١٢) ثم تكثر الثلوج ، وأن الرطوبة المطلقة والضغط الجوى يتناقصان باطراد حتى ليصل الضغط الجوى على ارتفاع ٥٠٠٠ مترا الى نصفه عند سطح البحر . وتخلخل الهواء هكذا rarified air يؤدى الى دوار الجبال Mal de Montagne, Mountain Sickness وصعوبة التنفس والأمراض الرئوية واختلال ضغط الدم حتى الانفجـار وشـدة الضغط على القلب والخفقـان حتى الموت (١٣) . ولهذا نجد أن ارتفاع ٥٠٠٠ مترا هو الحد الأعلى الفيزيولوجى لامكان السكنى البشرية : تخلخل الهواء : تخلخل السكان ؛ ولا تصل اليـه السكنى فعلا الا فى المناطق المدارية ، لا سيما فى بيرو وبوليفيا ، وتندر ان لم تمتنع على الاطلاق فى المناطق الباردة .

أما العوائق الحيوية فمرتبطة بانتاج الغذاء ، فان التضرس يحدد كثيرا من الرقع القابلة للزراعة . ونسبة الجزء الصالح للزراعة والسكنى تقل كلما تعمقنا وتغلغلنا فى الجبل . قدر كريس Krebs أن نسبة اللامعمور inœkumene فى جبال الألب فى النمسا القديمة تبلغ ستة أعشار المساحة الكلية ، ترتفع الى ٨٠٪ فى الكتـل الداخليـة ، بينمـا لا تزيـد عن ٥٠ ٪ للمقـدم prèalpe. كذلك وجـد دى مارتون نسـبة اللامعمـور فى الألب الدولومية Dolomites نحو ٨٠٪ (١٤) . يضاف أن التضرس يؤدى الى تفتيت وتشتيت الرقع الزراعية ، وبذلك يشق العمل الزراعى كثيرا . والخصوبة بعد هذا منخفضة لضحولة سمك الغطاء Regolith بما فيه التربة لقابليتها للانهيار ، وفى السفوح الجرداء تختفى التربة تماما بالتعرية الشديدة ـ الا اذا صـنعت المدرجات . كذلك الارتفاع والبرودة قد تهبط بحد الثلج الدائم الى مجرى الوادى Thalweg ، والثلج عموما ضابط رئيـسى فى تحديد نطاق الغابات الجبلى ، كما أن الهيارات تخرب وتهدد الزراعة الجبلية كثيرا . والواقع أن الامكانيات الحيوية للجبـل تتحدد

---

(١٢) Peattie, p. 418.

(١٣) Duhot, Emile, Les Climats et l'Organisme Humain. Coll. Que Sais-Je ?, Paris, 1948, pp. 59-61.

(١٤) Beaujeu-Garnier, p. 129.

نتيجة صراع كثير من الضوابط الطبيعية المتعارضة . فالاشعاع الشمسى — بما يعنى من حرارة وضوء وأشعة فوق البنفسجية — يزداد مع الارتفاع اذا كان الهواء صافيا . هذا قد يجعل حرارة التربة فى الكنتورات العالية أدفأ منها فى السفلى ، مما قد يجعل الزراعة على السفوح العليا فى ميزة السفوح السفلى على الأقل — لولا أن العامل الفعال حقا هو التربة : فهى تزداد فقرا مع الارتفاع مما يقصر السفوح العليا على الرعى (١٥) . لكل هذا تنزلق الزراعة الى حرفة ثانوية فى اقتصاديات المرتفعات ويكون للرعى اليد العليا . ولكن قد يعوض بعض هذا امتياز الجبال بالمعادن الوفيرة اذا ما قورنت بالمنخفضات والسهول ، فان بروز الجبال بطبيعتها عن سطح الأرض العام يقرب مكنون الأرض المعدنى من أعماق سحيقة الى أعماق معقولة للتعدين ، لا سيما بما تحتويه من فتحات الالتواءات وفوالق الانكسارات . وصحيح أن هناك التعدين الفيضى fluvial mining فى الأنهار ، ولكنه غالبا لمعادن لا فلزية قليلة الأهمية والحدوث ، أما التعدين الجبلى فهو الأغنى والأكثر انتشارا .

٢ — هذه عوائق السكنى الجبلية . هى اذن وظيفة مباشرة وغير مباشرة للتضاريس . لكن أكثر من هذا نجد أن هذه العوائق تتناسب تناسبا طرديا مع الارتفاع كما وكيفا :

"Other structural features being the same, mountains are barriers... in proportion to their height; for, with few exceptions, the various anthropo — geographic effects of upheaved areas are intensified with increase of elevation." (١٦)

أى أن كثافة السكان تتناسب عكسيا مع الكنتور والانحدار Slope. gradient (١٧) ؛ وهما اللذان يتوقفان على الموقع من الدورة التحاتية أى على ثالوث ديفيز من البنية ، العملية ، المرحلة Structure, process, Stage.

---

(١٥) Peattie, p. 422.
(١٦) Semple, p. 541.
(١٧) Brunhes, p. 228.

فأما عن الارتفاع فان الهضاب المسطحة ، وهى ليست الا سهولا مرتفعة كما يدل الاسم الاسبانى Altiplano ، Planalto ، أعلى كثافة من الجبال العالية المضرسة ــ قارن هضاب جنوب ألمانيا ووسط فرنسا بجبال الألب : هضبة رودوب بجبال الألب الدينارية ، وهضبة المكسيك Anahuac بجبال الانديز . ولكن لابد أن ندرك دور عامل الكتلة mass : فكلما زادت كتلة المرتفع كلما كانت درجة الحرارة أعلى فى نفس الكنتور ، ومن ثم طال موسم الانبات ، ولهذا فمن الحقائق العامة الهامة التى لا يمكن أن يخطئها حتى المسافر العابر أن حدود الزراعة على الهضاب الممتلئة أعلى منها على الجبال المدببة (١٨) . ويتضح تناسق التدرج فى العلاقة العكسية بين الكنتور والكثافة بكل اختصار فى التقسيم الثلاثى لاسكتلندة : Lowlands ( + ٥٠٠ فى الميل ٢ ) Uplands، (٥٠–١٠٠) Highlands (ـ ٥٠) (١٩) ؛ وتتضح فى الولايات المتحدة بين سهول البرارى Prairie Plains والسهول العظمى .Great P والمرتفعات الغربية(٢٠) . ولكن ليس معنى هذا الترابط المطرد أن كل الهضاب أفضل بالضرورة من الجبال . فهناك هضاب خالية أو شبه خالية من السكان لا لسبب التضاريس مباشرة ولكن بسبب المناخ . فالواقع أن الهضاب الجافة أكثر من الهضاب الرطبة وذلك اما لأن الارتفاع يترك فى الهواء قدرا ضئيلا من بخار الماء أو لأن الموقع بين السلاسل الجبلية intermontane plateaus يتركها فى ظل المطر (٢٠)

وبين الجبال أنفسها نجد أن الأكثر ارتفاعا أقل سكانا : فالكربات أكثر كثافة من الألب ، وشبه جزيرة ايطاليا والأبنين أكثر كثافة من شبه جزيرة البلقان والألب الدينارية (شكل ١)، وأورال أحسن حظا من القوقاز، وتيان شان الأقرب الى السطح الهضبى أفضل من الهملايا ، والقطاع الأوربى من الحلقة الالتوائية فى العالم القديم أفضل حالا من القطاع الاسيوى (٢١) ، والأبلاش أكثف بكثير من الروكى ، بل لا تكاد تختلف كثيرا عن كثافة السهول المحيطة (٢٢) . وبعض

---

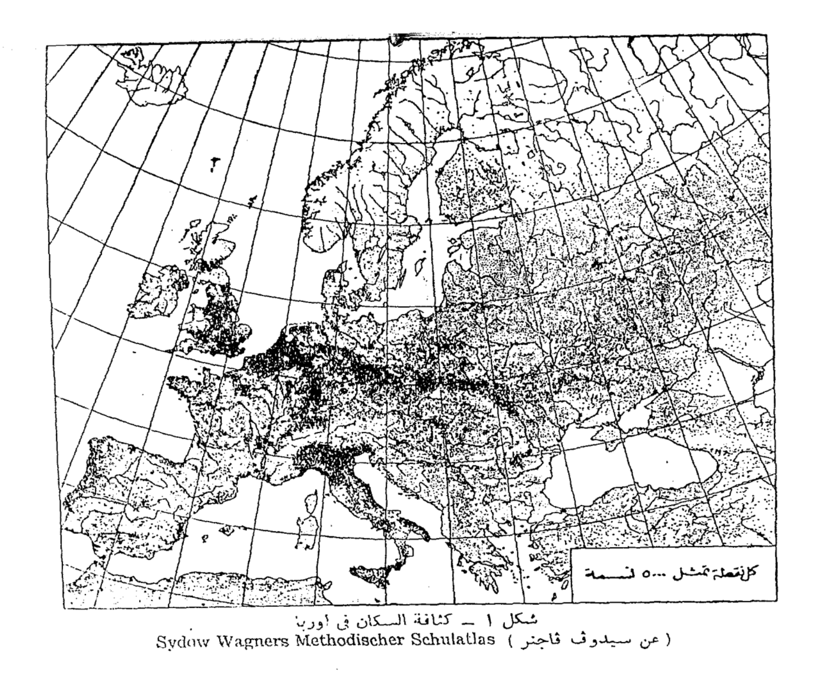
(١٨) Peattie, p. 417.

(١٩) Houston, J.M., A Social Geog. of Europe, Lond., 1953, p. 226 · & Brunhes, p.180 & Stamp, L. Dudley, Intermediate Geog, Lond, 1941, p. 90

(٢٠) Finch and Trewartha, pp. 406-7.

(٢١) Pierre George, p. 58.

(٢٢) Huntington, Williams and Valkenburg, op. cit., p. 164.




شكل ١ ـــ كثافة السكان فى أوربا
( عن سيدوف فاجنر Sydow Wagners Methodischer Schulatlas )

هذه الفوارق فى الارتفاع يرجع الى البنيــة ـ فالكربات والألب ، والأبنين والألب الدينارية ، وان اشتركت أساسا فى البنية الا أنها تختلف فيها ثانويا من حيث قوة حركة الرفع • والبعض الآخر يرجع الى اختلاف جوهرى فى البنية ، فالابنين أحدث جيولوجيا فأعلى من البنين ، والروكى من الابلاش . والقوقاز من الأورال • فالجبال القديمة لطول ما تعرضت للتعرية أوطأ وبالتالى أقل ارتفاعا ووعورة وعقبات سكنية • وليست التضاريس المخففة هى الميزة الوحيــدة للجيولوجيا القديمة ، بل لهـا ميزة أخرى من حيث الجيولوجيا الاقتصـادية Economic Geology ، فالثورة المعدنيــة الهـامة تستدعى نشـأة قديمة لكى تتكون وتوجد ، كما أن شدة القدم والتآكل تجعل التعدين يتم على أعمــاق أقل وبذا يكون أيسر وأكثر اقتصادية •

أما اذا انتقلنا الى التلال (٢٣) ( ٥٠٠ ـ ٢٠٠٠ قدما ) فان من الواضح أنها تقع فى مرتبة وسط بين السهل والجبل من حيث السكنى البشرية • وتتوقف هذه المرتبة بالدقة على نوع التعرية وعلى موقع التل من دورة التعرية • ففى التعرية النهرية فى أوائل مراحـل الدورة والنضــج ومرحـلة Submature dissection تشتمل المنطقة التلية على بعض مساحات مرتفعة مسطحة كالهضاب تمكن للسكنى ولو أنها تكون عادة منفصلة عن بعضها البعض وعن الأقاليم المجـاورة بأودية شديدة الانحدار • ففى القطاع الغربى الأكثر انخفاضا من اقليم تلال الليجينى ـ كمبرلند توجد الطرق والمزارع والقرى على المرتفعــات وتقتصر فائدة الأودية التى تبدو كالخوانق على اتخاذها مسالك للسكك الحديدية فقط • وفى المرحلة التالية من الدورة تمتاز المناطق التلية بالأودية العريضة المفتوحة والانحدارات اللطيفة مما يقدم ميزات كبيرة للزراعــة ، فتحتل الأودية المزارع ، والتــلال المستديرة الملفوفة المراعى ، أمــا المنحــدرات الشديدة فتترك تحت الغابات • وأخيرا فى المناطق التليــة الناضجــة التقطع لا نجدها تصلح للزراعة نظرا لقلة المســاحة القابلة للزراعــة حيث أن كلا من القيعــان bottomlands والبطوح المستوية على السـواء تكاد أن تنعدم بينما يشتد الانحــدار فى الجوانب (٢٣) • أما فى حالة التعرية الجليدية فنجد أن معظم المناطق التلية الرئيسية التى عراها

---

(٢٣) Finch and Trewartha, pp. 416-9.

الجليد يحدث أن تتفق فى موقعها مع مناطق الصخور البلورية القديمة . هذا نجده فى الأجزاء العليا من الكتلة الكندية وفى جبال الأديروندالك وأجزاء من نيوانجلند ومرتفعات اسكتلندة Highlands ومرتفعات اسكندناوة . فهنا تكون التلال مستديرة ملفوفة عارية وليس لها قيمة زراعية البتة . ولكن الى الجنوب من هذا النطاق تعدى الجليد الصخور البلورية الى الصخور الرسوبية أو المناطق التى تشمل كثيرا من الصخور الرسوبية . ولذلك فان التلال ليست عارية من الرجوليث والهشيم drift بنفس الدرجة فى مناطق الصخور البلورية : مما يكسبها تربة أغنى للزراعة . مثل هذا نجده فى تلال البنين وجبال جرين فى ڤرمونت وتلال جنوب نيويورك (٢٤) . هذا كله عن علاقة الارتفاع بدرجاته المتراتبة بالسكنى والعمران .

أما عن الانحدار فهو يبدو واضحا فى قطاع الجبل فى اللاندسكيب . وهو أقرب الى فكرة الوعورة والتضرس ruggedness من عنصر الارتفاع . فهناك سهول مرتفعة ولكنها ليست وعرة مضرسة . وربما كانت العلاقة العكسية بين الكثافة والتضرس أقوى منها بين الكثافة والارتفاع (٢٥) . وكلما كانت كتلة الجبل أكبر كلما كان الانحدار ألطف ، وحينئذ تكون الطرق أسهل والقرى أعلى . (٢٦) والانحدار يفرق فى الكثافة بين الجبال المختلفة أو بين السفوح المختلفة للجبل الواحد . فتتمثل الحالة الأولى فى الجبال البركانية السترية المخروط . فنوع هواى Hawaiian type شديد التدرج جدا . ( مونالوا Mauna Loa من أهم جبال جزر هواى البركانية ، ارتفاعه من قاع المحيط ٣٠ ألف قدم وقطره عند مستوى سطح البحر ١٠٠ ميل ! ) . ولذا تسهل السكنى وترتفع الكثافة وتزحف على الجزء الأكبر من هذا المخروط . وعلى النقيض من هذا نوع Puys الذى يبدو كمسلة عمودية بركانية ـ Mt. Pelée ـ وتختفى منه السكنى . هذا والنوع الأول تشكل هكذا لأن اللاقا الذى تكون منها تتألف من صخور ومعادن قاعدية basic تظل سائلة حتى نقط تجمدها دون أن تصبح غروية viscous ولذا تنساب لمسافات طويلة فى انحدار لطيف شبه أفقى . أما النوع الثانى فعلى العكس يتكون من لاقا تتألف

(٢٤) Ibid, pp. 428-30.

(٢٥) Stamp. p 83.

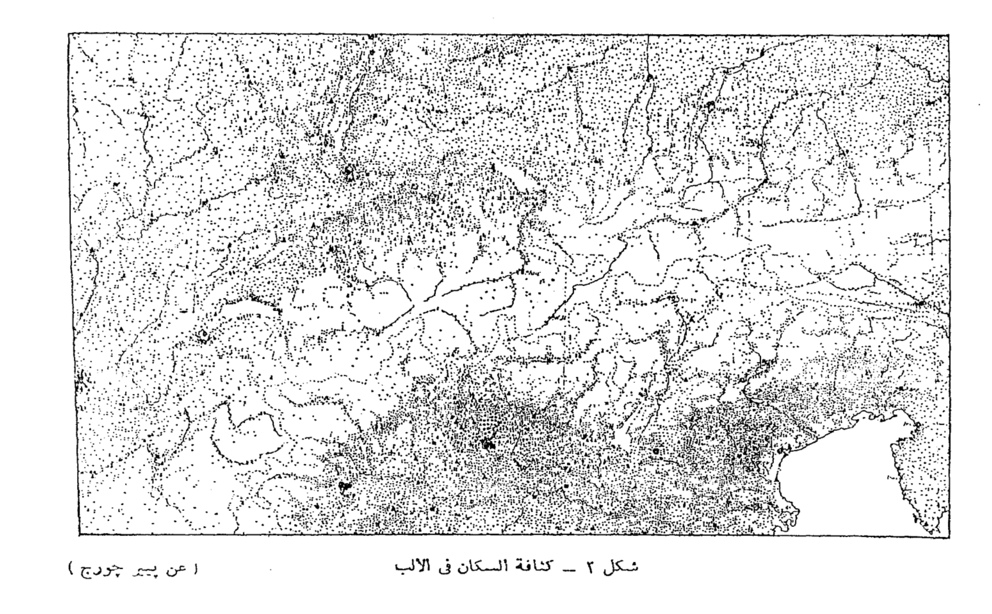
(٢٦) Peattie, p. 418.

من معادن حامضية acidic تتحول الى الغروية بسرعة اذ تبرد ، ولذا تجمد حول الفوهة على شكل عمودى قائم • ومعظم براكين العالم هى من النوع الثانى الحامضى الشديد الانحدار ، ولكن رغم أنها أشد انحدارا من النوع الأول ، الا أن بعضا منها يتكون غالبا من مواد رمادية ashy دقيقة تذروها الرياح سريعا فيكون المخروط عريضا منخفضا (٢٧) • هذا بين الجبال المختلفة •

ولكن الانحدار عامل تفرقة هام بين سفوح الجبل الواحد • فينـدر أن يكون قطاع الجبل سمتريا • ولهذا كان الجبل عادة حكما متحيزا من وجهة نظر الحركة والتوجيه والتوطين البشرى (٢٨) • فالسفح المتحدر بشدة يكون أقل جاذبية وامكانية للسكان من السفح الأطول المتدرج (٢٨) • وفى حركة عبور السلسلة الجبلية تكون الأفضلية للقادم من ناحية السفح المتدرج وتكاد تتعذر تماما على القادم من ناحية السفح المتحدر ، ومعنى هذا أن الأول يصبح محطة ارسال ، والثانى محطة استقبال • ولهذا نجد أن سكان السفح المتدرج تطغى على السفح المتحدر وتغزوه وخاصة على طول الأدوية أو الممرات العرضية كما فى حوض التيسنيو على السفوح الجنوبية المتحدرة للألب : فقد استمد كثافته من الشمال السويسرى لا الجنوب الايطالى (٢٨) • ويلاحظ أنه — فيما عدا الجبال التى تقوم على سهل مستمر على الجانبين Inselberge — يرتبط تحديد السفح المتدرج عادة بوجود هضبة تجاهه ، والسفح المتحدر بوجود سهل منخفض تجاهه — كما فى الألب بين هضاب جنوب ألمانيا ووسط فرنسا وبين حوض البو ، وكما فى الهملايا بين التبت وحوض الجنج — السند • وفى هذه الحالة تجتمع جاذبية السهل وطرد الهضبة مع سهولة الحركة على السفح المتدرج من ناحية الهضبة ، ولذلك تكون مثل هذه الجبال محصورة بين كثافة أعلى ناحية السفح المنحدر وكثافة أقل نسبيا ناحية السفح المتدرج ، كما أن هذا الوضع يتأكد ويتبلور نظرا لأن ناحية السفح المتدرج — محطة الارسال — تفرغ السكان باطراد ، فكثافتها منقوصة ، بينما ناحية السفح المنحدر — محطة الاستقبال — تتكدس وتتكاثف باطراد ، فكثافتها مضاعفة ( شكل ٢ ) •

(٢٧) Wooldridge, S.W. and Morgan, R.S., Physical Basis of Geog., 1937.

(٢٨) and Finch and Trewartha, pp. 269, 438.
Semple, pp. 542-3.



شكل ٢ — كثافة السكان فى الألب (عن بيير جورج)

٣ ــ رأينا أن التضاريس لا تمثل عقبات سكنية فحسب ، وانما هنالك علاقة طردية وثيقة بين الطرفين . ولا تخرج طبيعة الأودية الجبلية (٢٩) عن أن تكون مظهرا من مظاهر هذه العلاقة . فاذا كانت الجبال فى مجموعها تمثل فى الاقليم جزرا سكانية مخلخلة ، فان الأودية فى الجبال تمثل واحات سكانية كثيفة نسبيا . كما أنها توجه وتقنن حركات السكان وبذا تحدد مناطق الاحتشاد والتكاثف عند نهاياتها فى السهول . ويصر برون على فكرة أثيرة عنده وهى فكرة الغطاء البشرى فى الجبل كمنثور من « الواحات » المنفصلة عن بعضها البعض تماما ، ويشبهها بالواحة البشرية فى فجوة الغابة وجزيرة البحر وواحة الصحراء (٣٠) ... فالأودية همزة الوصل بين السهول والجبال لا فى المعنى الفيزيقى فقط وانما أيضا فى المعنى السكنى . والأودية الجبلية خير مثال لأثر التضاريس المحلية Local Relief على السكنى . فالعمران والمساكن تتجاذب وتنتظم على طول الأودية الجبلية « كبرادة الحديد على القضيب المغنطيسى » ، حتى لتأخذ أشكال السكنى فى الحلة الواحدة أو فى مجموع حلات الوادى نمطا خطيا شريطيا من صفين وربما صف واحد : Etablissements en Espaliers (٣١) . فتتخذ السكنى فى الجبال نمط شبكة الأودية فيها الى حد بعيد ، وهذه تتأثر بدورها بنمط البنية غالبا (٣٢) .

ففى المناطق التلية التى تكونت عن تعرية الأنهار لهضبة سابقة مسطحة أفقية الطبقات نجد أن النظام النهرى والوادى نظام شجرى dendritic، أى تتدرج الأنهار والأودية فى الحجم والعمق والاتساع باطراد من المسايل الى الجذع نظرا لتجانس الأساس الصخرى والطبقى، ونجد أن نمط السكنى والسكان شجرى أيضا تتدرج فيه الكثافة والعدد باطراد فى هيرارشية شجرية واضحة، فتتكدس القرى والمزارع والطرق فى الأودية الأولية ، وتخف نوعا فى الأودية الثانوية ، ثم تندر أو تتحدد الحلات فى أنماط خطية صارمة فى المسايل ... الخ . مثل هذا واضح فى منطقة تلال الليجينى ــ كمبرلند فى الأپلاش ، وفى أوزارك وبوسطن ، والتلال التى تحف بجبال دراكنزبرج ، وكثير من هضبة الدكن ، وجنوب ألمانيا .

---

(٢٩) Ibid., pp. 583-4.
(٣٠) Brunhes, p. 176.
(٣١) Ibid.
(٣٢) Finch and Trewartha, pp. 417-23.

أما فى المناطق التلية والجبلية الالتوائية فقد يأخذ التصريف نمطا بسيطا جدا : Ridge-and-Valley Pattern يتناوب فيه الوادى مع الحافة بصورة تتفق مع تناوب وتوازى المحدب والمقعر ، ومن أحسن الأمثلة جبال الچورا حيث المحور العام شمالى شرقى — جنوبى غربى وحيث نجد أن مزارع وطرق وقرى الاقليم كله تتركز فى الأودية فقط رغم أنها ليست عظيمة الجودة . ومن الأمثلة وادى الأپلاش العظيم ، فلو أخذنا قطاعا عرضيا فى مجموعة الأپلاش لوجدنا حافة غابية تعقبها حافة غابية ، وبينهما أودية تختص بالحقول ورقع المزارع والطرق والقرى ، تتعاقب معها على الترتيب والتوالى .

وقد يأخذ نمط التصريف فى التلال والجبال الالتوائية صورة مركبة نسبيا هى صورة التكعيبة المستطيلة Trellis ، Gridiron نتيجة لوجود أنهار طولية على طول المقعرات تتصل بها أنهار عرضية تجرى عبر نواة الالتواء "across the grain" ، فيكون نمط السكنى بالمثل كالتكعيبة . هذا نجده فى جبال الأپلاش وفى القطاع الأوسط من جبال زاجروس فى ايران .

ما هى اذن ميزات الوادى الجبلى العمرانية ؟ أيضا ميكانيكية ، طبيعية ، وحيوية . فالميكانيكية لأنها تمثل خطوط المقاومة الدنيا مما يجعل الوادى توا مرادفا للممر بالنسبة للعالم الخارجى و « للشارع » بالنسبة للجبل . كذلك تعمل الأودية كخطوط العبور والترانزيت عبر الجبال ، والواقع أن مدى قيام الجبل كعقبة يتوقف على مدى تغلغله بالأودية أكثر منه على الارتفاع المطلق كما يدل بلاغة الفارق التاريخى الهائل بين الألب والبرانس . وكثيرا ما يتفاوت الانحدار بين أجزاء الوادى الواحد ، فعلى جانب الوادى حيث تبرز نتوءات من التكوينات الأصلب والأكثر مقاومة للتعرية outcrops يقوم قطاع شديد التحدر طارد للسكنى ، بينما توجد عند التكوينات اللينة التى تتعرى بسهولة رفوف benches كالعتبات ledges لطيفة الانحدار أو كالمدرجات . مثل هذه الرفوف تمكن للاستغلال الزراعى لجوانب الوادى حيث كان يمنعه الانحدار التام (٣٣) . وثمة مظهر آخر من ميزات الوادى الميكانيكية يتمثل فى المناطق

---

(٣٣) Ibid., p. 442 ; Brunhes. p. 170.

الجليدية والثلاجات ؛ فالأودية المعلقة Hauging V. بطبيعتها الشلالية تمثل بلا ريب أفضل وأيسر النقط لاستثمار القوى المائية (٣٤) .

أما عن ميزات الأودية الطبيعية فلأنها أكثر انخفاضا بالضرورة من مستوى الجبل ولذلك يكون مناخها أقل قسوة وبرودة ، لاسيما لأنها محمية وبنأى عادة عن مستوى الثلوج . كذلك هى تمثل خطوط الصرف وبالتالى تتوفر فيها المياه للشرب والزراعة ، كما تتكدس فى قيعانها التربة المنقولة والمجروفة التى تهدلت من المرتفعات المحيطة وتخرها السفوح فتكسبها الأودية ، وبذا تتواجد فيها عناصر ومقومات الاستقرار الزراعى لا سيما بفضل المدرجات والمصاطب الجليدية ــ تلك العتبات الممهدة الممدودة الصالحة للاستثمار فى السلاسل الشمالية . كذلك الأودية تقرب الى الثروة المعدنية فى باطن الجبل لأنها ــ وهى خدوش الطبيعة على وجهه ــ بمثابة الدهليز أو السرداب الأول للمنجم shafts.

أما عن الميزات الحيوية أخيرا فهى تترتب على الميزات السابقة . فمناطق الأودية الجبلية عامة فقيرة الموارد . ولكن افادتها من تجارة المرور سواء بالجزية أو بالسلب تزيد امكانياتها وقدرتها على التحمل بالسكان (٣٥) . ثم هناك الامكانيات المحلية الزراعية الكثيفة اذ يوفر كل القطاع الخامل للتربة للزراعة ، بينما تقام المساكن خارجه مباشرة على الصخور الجرداء ، وليس هذا اقتصادا للتربة المنقولة فحسب بل فيه حماية للمساكن من أخطار تضخم المياه فى قاع الوادى عند ذوبان الثلوج .

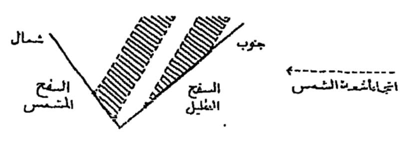
على أن أهمية الأودية من حيث السكنى تتفاوت بحسب بنية المرتفعات التى تمتد عليها . فالجبال الالتوائية تمتاز عادة بالأودية الطويلة longitudinal بينما الهضاب المقطعة تمتاز غالبا بالأودية العرضية transversal التى تؤدى من القلب الهيدرولوجى الى حافة المرتفعات . فالأودية الطولية عادة طويلة عريضة مستوية القاع . أما الأودية العرضية فضيقة فى أغلب الأحيان وسفوحها شديدة الانحدار قد ترقى مباشرة من حواف النهر . ولهذا كانت الأودية الطولية أعظم أهمية من الناحية البشرية ــ فى توجيه الحركة التاريخية ، وفى تكدس القرى

(٣٤) Finch etc., p. 451.

(٣٥) Semple, pp. 552-3.

والمدن أى فى تحديد كثافة السكان • ومن أمثلة الأودية الطولية الرون الأعلى، والان والانجادين، والايزر والأورنط والليطانى أى وادى الغاب Hinter Rhine انبقاع ، ووادى الأپلاش العظيم (٣٦) • ومن أمثلة الأودية العرضية أودية جبال الكرپات، ولذا كانت أودية الألب أكثف سكانا من أودية الكرپات(٣٧) • ويلاحظ أن اتجاه محور السلسلة الالتوائية التى يقع عليها الوادى له أثر فى تحديد أهميته : فاذا كان المحور شماليا جنوبيا كما فى السكورديرا الأمريكية وقعت الأودية الطولية بين الجبلية intermontane فى ظل المطر وقلت كثافتها ، بينما قد تستفيد الأودية العرضية — ولكن فقط تلك الواقعة على السفوح المواجهة لمصدر الرطوبة • أما اذا كان المحور شرقيا غربيا كما فى أوراسيا فانه يؤدى الى تحييد neutralize عامل المطر تاركا عامل البنية العامل المسيطر master factor.

على أن أهمية الوادى — سواء الطولى أو العرضى — من حيث السكنى تتفاوت من السفح الى السفح الآخر بحسب توجيه orientation الوادى بالنسبة للاشعاع الشمسى ، وهذا ما يعرف « بالوجهة Aspect » • ولما كانت الشمس أهم عنصر فى الجغرافيا البشرية للجبل ، فان تحديد السطح والوجهة لتوزيعها يوضح تماما كيف أن الطبوغرافيا المحلية أساس فى الجغرافيا البشرية للجبل (٣٨) ( شكل ٣ ) •




شكل ٣ — « الوجهة » فى الأودية الجبلية ( عن سودريا )

والتفرقة بين سفوح الأودية بحسب الوجهة مسألة جوهرية جدا فى حياة الجبليين الى درجة أن كل المناطق الجبلية فى أوربا تدركها تمام الادراك وتكاد كل لهجة محلية تعرف هذا ، بل ان القرى قد تسمى أحيانا بحسب هذه

(٣٦) Semple, pp. 532-5.
(٣٧) Houston, p. 223.
(٣٨) Peattie, pp. 417, 423

التفرقة . فالسفوح المواجهة للشمس ، وهى التى تطل نحو الجنوب تقريبا فى نصف الكرة الشمالى ، هى السفوح المشمسة : باللاتينية ad directum ؛ بالفرنسية adret ، l'endroit ؛ adra فى فريبورج ؛ وبالايطالية adretto ، indritto ؛ وبالالمانية Sonnenseite ، Sonnenberg ؛ وبالكاتلانية sola ، soula ، solana ... هذه هى السفوح المشمسة ــ وهى مشمسة لسببين: طول مدة سطوع الشمس ، وقوة الاشعاع الشمسى نظرا لوقوع الأشعة عليها قريبة من العمودية ، لا سيما مع ميل مستوى السفح نفسه . ولا تنس أن السفوح الشمالية للوادى هى فى السفوح الجنوبية لكتل الجبل ، فهو فى ظهرها يحميها من الرياح الشمالية القاسية .

أما السفوح المجانبة للشمس ، فهى التى تعطى ظهرها لخط الاستواء ، وبذلك تطل نحو القطب تقريبا فى نصف الكرة الشمالى ، ولذلك فهى السفوح الظليلة : باللاتينية ad opacum ؛ بالفرنسية ubac ، l'envers ؛ وبالايطالية opaco ، inverso ؛ وبالالمانية Schattenseite ، Schattenberg ؛ وعند الكاتالان ubach ، baga ، umbaga[٣٩]. وهى ظليلة لعكس الأسباب السابقة تماما . ولهذا نجد أن السفوح المشمسة تصل فيها الزراعة والسكنى والكثافة الى درجة أعلى وارتفاع أكبر بكثير منه على السفوح الظليلة ، وفصل الانبات فى الأولى أطول والنضج أسرع وموسم الصقيع أقصر وخط الثلج الدائم أعلى . أما السفوح الظليلة فقد تترك على غاباتها البكر دون تعمير أو سكنى . وغالبا يقتصر استغلال السفح الظليل على المراعى ، لا سيما أن الظل يعنى بخرا أقل مما على السفح المشمس وبالتالي عشبا غضا ، هـذا بينما لا يكفي الاشعاع مدة وحدة لنضج الزراعة . أما الحبوب والكروم فتحتل السفح المشمس ــ مقابل الغابات والأعشاب على السفح الظليل . وفى حدود كنتورات ١٣٥٠ ، ١٦٥٠ مترا وجدت جارنت أن الأرض التى تستقبل أقل من ٥٠٪ من قوة الاشعاع تترك للغابات ، ولكنها تستغل كمراع اذا تلقت ٥٠ـــ٧٠٪ ، وتتحول الى الحبوب والجذريات

(٣٩) Peattie, pp. 423 et seq. : Houston. 223, 243, 249 ; Soudrillat, I. M., Géog. Agricole de la France. Coll. Que Sais-Je ?, 1950, pp. 18-9.

اذا زادت عن ٧٠٪، ولا يظهر القمح الا اذا وصلت الى ٩٠٪(٤٠) . فكل المزايا للسفح المشمس ، والمثالب للظليل . بل ان السفح المشمس قد يكون أفضل من مجرى الوادى نفسه thalweg لا فى الاشعاع فقط ولكن فى عدم تجمع الصرف الهوائى البارد فيه ليلا وفى عدم تعرضه للفيضانات التجائية (٤١) . لكل هذا فان السواد الأعظم من مجموع السكان فى الوادى يتركز — بكل ما يعنى من غطاء حضارى ، من طرق ومواصلات وحلات وزراعة ... — فى السفح المشمس .

ومن المستحيل حصر الأمثلة على هذا كله : فكل دراسة اقليمية لجبل هى مثال . وسنكتفى هنا بعدة نماذج . فاذا وجدت أمثلة مضادة فهذا لأن الضوابط الطبيعية الأخرى قد تضعف أو تلغى عامل الوجهة محليا أو مؤقتا . فمثلا قد تكون المواصلات أفضل على الجانب الظليل بسبب التضاريس فتزيد به القرى عنها فى الجانب المشمس . ومثلا فى سيرانيفادا تصل القرى الى كنتور ١٢٠٠ مترا مترا على السفوح الشمالية الظليلة بينما لا تعدو كنتور ٩٠٠ مترا على السفوح الجنوبية المشمسة ، ولكن هذا الشذوذ يرجع الى صخور الكتلة الجرانيتية الجدباء (٤٢) . ولا ننس عاملا آخرا يفرق بين السفحين فى الأهمية العمرانية ، وهو عامل الانحدار ، ويبدو بوضوح فى الأودية الطولية فقط . فكثير من الأودية الطولية تختطها أنهار تميل الى أن تحرك أوديتها وتنقلها الى أسفل على جانب الطبقات المائلة sidewise عن طريق التآكل الجذرى undercutting فينتج عن هذا حافة كالكوستا وواد ذو حائط شديد الانحدار وآخر لطيف الميل . وعادة ينعكس اختلاف درجتى الانحدار فى اختلاف مظاهر الاستغلال والسكنى البشرية اختلافا كبيرا بين السفحين (٤٣) . ومن الواضح أن هذه التفرقة قد تختلف وقد تأتلف ، تتنافر أو تتضافر ، مع التفرقة التى تنشأ عن الوجهة والاشعاع الشمسى ، أى أن هذا قد يلغى أحيانا بسبب الانحدار المضاد . ولكن فيما عدا هذه الحالات الشاذة المحلية :

---

(٤٠) Garnett, Alice, "Insolation, Topography and Settlement in the Alps", Geog. Rev., vol. XXV No. 4, Oct., 1935, p. 611

(٤١) Peattie.

(٤٢) Peattie, p. 421 ; Taylor. G., Urban Geog., Lond., 1949, pp. 259 ff.

(٤٣) Finch etc, p. 441 and Garnett, 606.

ففاعلية الوجهة عالمية فى كل الجبال الشمالية الباردة ، وقيمة الشمس البشرية أساس فى السكنى . فالقاعدة الأصولية أن الحلات تتحاشى بقدر الامكان ، أو تقع على حافة ، « منطقة ظل الظهر noonday shadowarea » ([٤٤]) ، وأن السكنى أعلى على السفح المشمس منها على الظليل كثيرا .

ويمكننا أن نرى اختلال ميزان توزيع السكان على جانبى الوادى فى سويسرة حيث يعلو مستوى السكنى فى السفوح المشمسة بحوالى ٢٣٠ قدما عنه فى السفوح الظليلة . وفى وادى الرون الأعلى فى Haut-Valais يتركز ٨٦٪ من السكان فى السفوح المشمسة ، وفى Höhe Tauern تصل النسبة الى ٩٠٪ ، وفى Queyras فى فرنسا حيث تصل السكنى الى ٢٠٠٠ متر تصل النسبة الى ٩٠٪ . فالوجهة ضابط أساسى فى توزيع السكان فى الوادى الجبلى ([٤٥]) . ولكن أكثر من هذا تؤثر الوجهة كذلك على الجغرافيا الاجتماعية البحتة للغطاء البشرى : فالسفوح المشمسة دائما أغلى فى قيم الأرض وأعلى فى قيم الايجار من السفوح الظليلة ، ولهذا تجنح الاولى الى الارتباط بالطبقات الغنية والثانية بالطبقات الفقيرة ــ نظام طبقات بحسب الشمس ، أو « أرستقراطية الشمس Aristocratie du Soleil » كما يسميها البعض ([٤٦]) !! هكذا ليس ثمة مثال أقوى لأثر السطح المحلى local relief على المناخ المحلى microclimate ولهذا بدوره على السكنى والعمران .

## ثانيا ــ كثافة السكان داخل المرتفعات

١ ــ كما أن الجبل « تضاغط » فى خطوط الارتفاع والحرارة والمطر والنبتات compressed isopleths فانه كذلك منطقة تضاغط من الوجهة البشرية والسكانية . فاذا كانت السلاسل الكبرى « تختزل » قارات برمتها من الجنوب الى الشمال ، فانها أيضا تجمع بين أعلى الكثافات وأقلها :

"... every degree of density from congestion to vacancy." ([٤٧])

---

(٤٤) Garnett, p. 607.

(٤٥) Brunhes and Houston

(٤٦) Brunhes, p. 161.

(٤٧) Semple, p. 558.

ومرجع ذلك أنه فى الجبل الواحد كلمـا زاد الارتفاع كلمـا زادت عقبـات التضاريس وبالتالى كلما قلت كثافة السكان ــ أى أن الكثافة تتناسب عكسيا مع الكنتور • ويأخذ الانتشار السكانى فى هرم الجبل شكلا هرميا متراتبا ـ أو نمطا عنقوديا وهيراركية تنازليـة كلما صعدنا (٤٨) • وعلى هـذا فان نطاقات السكنى والكثافة فى الجبل هى أســاسا نطاقات ارتفاعية vertical, altimetric zonation • ويمكن أن نميز منهـا ثلاث طبـاق tiers ــ القمـة والسفح والحضيض •

فأما القمـة فهى نطاق الثلج الدائم الذى يعلو خط الثلج الدائم ، والذى يتفاوت ارتفاعه بحسب خط العرض ، فيرتفع فى المدارين ويقترب من سطح البحر ناحية القطب ؛ وبحسب المطر فاذا تساوت الحرارة كان منخفضا حيث المطر غزير ومرتفعا حيث يقل ؛ وبحسب الاشعاع فهو مرتفع على السفوح المعرضة لاشعاع الشمس ومنخفض على السفوح المجانبة له • والنتيجة العامة أن مستوى خط الثلج الدائم عند المدارين يتراوح بين ٢٠ ، ١٤ ألف قدم ، وفى العروض الوسطى بين ١٠ ، ٥ الآف قدم ، وعلى هوامش المنطقة القطبية بين ٢٠٠٠ قدم وسـطح البحر (٤٩) • ومعنى هذا أنه قد يتداخل فى تحديد السكنى فى العروض المدارية ودون القطبية ، بينما يندر هذا فى العروض الوسطى • وعلى العموم فان القمة كنطاق تخرج توا من المعمور الى اللامعمور •

أما السفح (٥٠) فهو النطاق الذى يتلو خـط الثلج الدائم ويعلو حـدود الحضيض • ولكن السكنى لا تنتشر فى جميع أجزائه الا حين تصل السكنى الى الحد الأعلى الفيزيولوجى كما فى الانديز وبعض جبال آسيا حيث يصل الى ١٥ ألف قدم • على أن هذا أمر نادر • كذلك قد لا يكون لخط الأشجار tree-line دلالة سـكنية هامة وذلك اذا لم تصـل السكنى الى الحد المنـاخى الكافى كما فى أوربا • ومن هنا لم يكن من الضرورى أن يترادف خط الشجر وحـد

---

(٤٨) Smailes, A. E., Geog. of Towns, Lond., 1953, p. 55

(٤٩) Finch, etc., p. 446

(٥٠) Houston, pp. 220-3.

الغابات forest limit . وعموما يتحكم ارتفاع القمم المطلق فى ارتفاع حد الغابات ـ كما يلى ـ بالأقدام :

| | متوسط الارتفاع | حد الغابات |
|---|---|---|
| الكريات | ١٢٨٠٠ | ٦٥٠٠ — ٨٦٥٠ |
| النوج | ٤١٦٠ | ٣٠٠٠ |

فهذا الفارق يؤثر فى حدود السكنى البشرية . ولقد وجد فليكجر Flückiger فى دراسته التفصيلية للألب السويسرية ـ ذلك المتحف الطبوغرافى الحى للجغرافيا البشرية (٥١) ـ أن حدود السكنى تقع عادة تحت خط الغابات بحوالى ٣٠٠٠ قدم ، وتحت خط الثلج الدائم بحوالى ٢٥٠٠ ـ ٢٨٠٠ قدم . وعموما فكلما زاد المطر انخفض خط الثلج الدائم وحد الغابات وكلما قل ارتفعا ، ومن هنا يتوقف اتساع الأعشاب الألبية alp ، mayen على كمية المطر (٥٢) . على أن من الواضح أن خضوع النباتات لمركب من العوامل الأولية يجعلها أساسا ثانويا ان لم يكن أقل بحيث لا تحسن التعميمات . بل ان نوربرت كربس يشك فيما اذا كان للمناطق النباتية دلالة هامة كفكرة نظرا لكثرة الفروق المحلية . على ان مشكلة تحديد الحد الأعلى للسكنى على الجبل تتعقد أكثر اذا ما فرقنا بين السكنى الدائمة والسكنى المؤقتة ، فان بينهما منطقة متذبذبة تتأرجح من موسم الى موسم ـ الترانس هيومانس ـ ومن عام الى عام بل ومن فترة تاريخية الى فترة أخرى . فنسبة كبيرة من سكنى الجبال ليست استقرارا بقدر ماهى ترحل nomadism ـ ترحل رأسى أو جبلى ؛ ليست settlement ولكن occupance (٥٣) . ففى النرويج مثلا يأتى ثلث مجموع محاصيل العلف الحيوانى fodder crops من مراعى السيتر Saeter أى مراعى الصيف . وفى سويسرا قدر فالزر Walser أن نصف المساحة الكلية مسكون سكنى دائمة ( ٥٤ ٪ ) ، وأن ربعا آخر يسكن موسميا فقط ( ٢٤٫٢ ٪ ) . بل ان نسبة المساحة المسكونة

---

(٥١) Brunhes, p. 168.

(٥٢) James, Preston E., A Geog. of Man, Boston, 1949; An Outline of Geog.

(٥٣) James, Preston E, "Terminology of Regional Description", A.A.A.G., June 1934, p. 81.

موسميا فقط قد تتراوح محليا بين ٣٢٫٢٪ كما فى ثاليه ، ٦١٫٦٪ كما فى سارين Sarine ، Gummennen . وعلى هذا فان حد السكنى الأعلى ليس خطا على الاطلاق ، وانما هو منطقة مذبذبة يطلق عليها الجغرافيون الفرنسيون ممن تخصصوا فى مدرسة جرينوبل ودراسات الألب والرون Etudes Rhodaniennes فى جغرافية الجبل ، يطلقون عليها اسم « سقف السكنى plafond » . ومن أهم أسباب تذبذب هذه المنطقة أنها منطقة صراع Zone of Strife بحيث سماها راتزل Kampfsaum . وهذا الصراع يقوم بين الضوابط الطبيعية من ناحية والقوى الاقتصادية والاجتماعية من ناحية أخرى . وقد كانت نتيجة هذا الصراع تناقص سكان الجبال وارتبط بهذا انخفاض حد السكنى الأعلى . ورغم أن السقف لم يكن قط ثابتا فى يوم ما كما توحى أدلة العصور الوسطى فى الألب الفرنسية الا أن حركة تهاوى هذا الحد اشتدت منذ منتصف القرن ١٩ ، خاصة فأصبحت الحلات العليا الدائمة مؤقتة ، بينما هجرت المؤقتة كلية . وقد ارتبط بهذا التناقص فى السكان والانخفاض فى السكنى انخفاض حدود الحبوب فى الألب والكروم فى البرانس والابنين . فاذا أضفنا العوامل المحلية البحتة كالتعرض للرياح أو الثلوج أو الهيارات الجليدية أو الفيضانات ، اتضحت ديناميكية الحدود العليا للسكنى . وقد يكون للتضاريس أثر واضح صارم على هذه الحدود . فحيث أن توزيع السكان يتبع عادة الأودية ، فان حد السكنى الدائمة يتوقف على درجة ارتفاع الوادى فوق سطح البحر . فمثلا فى مقدم الألب الفرنسية foreland يبلغ هذا الحد ارتفاع ٢٥٠٠ قدم فقط ، بينما فى الألب الوسطى فى سافوا ودوفينيه حيث الأودية أعلى يبلغ ارتفاع ٥٢٠٠ قدم بل يصل الى ٥٩٠٠ فى الألب النمسوية . أما أثر المناخ فعام بدرجة أكبر ولذا فهو أقل صرامة ووضوحا فى التفصيلات . وقد يبدو أن التقدم نحو الجنوب يصحبه زيادة فى كثافة السكنى فى الجبال ، ومع ذلك فان السييرات الاسبانية والبرتغالية قليلة السكان جدا ولا يرتفع سقف السكنى فيها كثيرا (٥٤) . وعلى العموم فان مافوق حد السكنى الدائمة فى أغلب الجبال هو من قلب الجبل الحقيقى وفيه تصبح السكنى قاصرة على « سكان الطوارىء

(٥٤) Beaujeu-Garnier, p. 129.

« Emergency » مثل حراس الطرق والغابات ورجـال الانقـاذ والدين وكلاب الانقاذ ... الخ (٥٥) .

ويمكننا أن نستعرض أثر اجتماع خط العرض وخط الكنتور على حـد السكنى الدائمة فى المجموعات الآتية (٥٦) :

| المنطقة | بالأقدام | ملاحظات |
|---|---|---|
| **اسكنديناوه :** | | |
| لاپلاند | ١٦٠٠ | |
| النرويج ( متوسط ) | ١٩٠٠ | |
| Dalecarlia | ٣٠٠٠ | |
| Storefjelds ( جنوب النرويج ) | ٣٨٠٠ ـ ٥٥٠٠ | |
| **ايبريا :** | | |
| جبال ايبريا ( البرانس ) | ٣٢٠٠ | أندورا أعلى حلة فى أيبريا |
| السيرات الوسطى | ٤٥٠٠ | |
| سيرانيفادا | ٤٨٠٠ـ٥٥٠٠ | Trévelez ١٧٥٠ مترا . Alpujarro هى الأعلى بعد أندورا |
| **شمال اوربا :** | بالأمتار | |
| شمال الجزر البريطانية | ٤٠٠ | |
| جنوب النرويج ـ السفوح الغربية المحيطية | ٦٠٠ | |
| جنوب النرويج ـ السفوح الشرقية المشمسة | ١٠٠٠ | |
| **وسط اوربا :** | | |
| مقدم الألب الشمالى ( متوسط ) | ٨٠٠ ـ ١٠٠٠ | |
| مقدم الألب الشمالى ( حد أقصى ) | ١٤٠٠ـ١٦٠٠ | |
| الألب النمساوية | ١٨٠٠ | |
| التيرول ( متوسط ) | ١٠٧٠ | |
| التيرول ( حد أقصى ) | ١٩٢٧ | قرية Obergugl |
| أعلى قرى الألب | ٢٠٠٠ | |

(٥٥) Semple, p. 549.

(٥٦) Houston, loc. cit. and Beaujeu-Garnier, p. 130.

الحضيض . أو أقدام الجبل ـ البيدمونت piedmont . أو متقدم الجبل avant-pays montagnard . premontagne . avant-mont . alpine foreland اذا كان الجبل يمثل منطقة انتقال من حيث السكان ، فان البيدمونت يمثل منطقة الانتقال وحلقة الاتصال بين السهل والجبل ـ معا فى المعنى الطبيعى والمعنى الايكيومينى . فالبيدمونت عادة أقل كثافة من السهل ودائما أكثف من الجبل كما يبدو جليا فى شرق أوروبا . فهو أكثف نطاقات الجبل سكانا تحقيقا للتناسب انعكسى بين الكنتور والكثافة . والبيدمونت بطبيعته منطقة تدرج وئيد فى التضاريس ، ومن هنا قيمته البشرية الخاصة : فالأرض ككل تدين بكثير من قابليتها للسكنى habitability بهذه المنحدرات التدريجية الطويلة . بل أن المناطق والقارات التى تخلو منها تعانى من ذلك النقص الذى يعد عليها نقطة ضعف ـ مثل سواحل جنوب افريقيا وشرق استراليا ، بينما على النقيض من ذلك الواجهة الاپلاشية بهضبتها المثالية بيدمونت التى تعد بحق اسما على مسمى .

والأسباب التى تجعل من البيدمونت قاعدة الجبل سكانيا كما هو طبيعيا ترجع الى أن قوة الجاذبية تحابى كل ما تواضع من سطح الأرض : فهنا سهولة التضاريس المتدرجة ، وتكدس التربة المتهدلة والمنهارة ، وتكون المراوح الفيضية cônes de dejection . alluvial fans وتفرعها فى جميع الجهات ، وهنا تعدل المناخ تعدلا جوهريا للانخفاض ، وهنا مجمع الثروة الهيدرولوجية والهيدروليكية للجبل جميعه حيث تصب كل الروافد ومخارج الأنهار وحيث يسهل ضبط المياه أكثر منه فى أى نقطة أخرى من المجرى بدرجة جعلت الاسبان فى المكسيك يطلقون على مخرج النهر من الكورديپيرا اسم « فم الماء Boca del Agua » وحيث تنبجس المياه الباطنية المتجمعة من ذوب الثلوج أو المياه الهاربة تحت مكدسات الرمال والحصى على شكل ينابيع وعيون طبيعية Fontanili أو آبار اصطناعية (٥٧) ، وهنا الموضع الطبيعى لضبط واستغلال القوة المائية فى شكل شلالات ومساقط لتوليد الكهرباء والقوة المحركة وخاصة فى الجبال الحديثة والجليدية ، وهنا يتركز تعدين معظم الثروة المعدنية الجبلية وخاصة

---

(٥٧) La Blache, P.V., Principles of Hum. Geog., Lond., 1926, p. 85.
قد يؤدى تجدد نشاط التعرية فى مراوح البيدمونت الفيضية الى تكوينها على شكل سلم من المدرجات. وهنا يصبح للمدرجات قيمة بشرية كبيرة فى توقيع القرى والطرق والزراعة لارتفاعها عن مستوى الفيضان فى السهل المحيط . راجع
De Martonne, E., A Shorter Physical Geog., Lond., 1946, pp. 157-9.

فى الجبال القديمة ؛ وما قد يترتب عليها محليا من صناعة ثقيلة أو خفيفة ؛ وهنا تتركز الأهمية الاستراتيجية للجبال (٥٨) ؛ ونقطة الارتكاز لكل أنواع النشاط عبر — الجبلى كالتجارة والمرور ، فمثلا نجد أن الحمالين الجبليين وان عملوا عبر الجبل أساسا الا أن منازلهم الدائمة تتجمع هنا ، كما نجد الأسواق والحانات والفنادق والنزل — وحتى قبل العصر الحديث حوانيت الحدادين لحدوة الخيل ! (٥٩) — وذلك لخدمة التجار والمسافرين . وتأخذ مراكز هذه الخدمات بالضرورة ؛ هى وما قد يستتبع الثروة المعدنية من صناعة ، شكلا مدنيا ؛ أى أن المدن تكثر ونسبة المدنية ترتفع عند أقدام الجبال ، بل حتى حيث تكون كثافة سكان الريف والسكان عامة منخفضة نسبيا (٦٠) . ومعنى هذا أن البيدمونت فى الواقع « نقطة مرحلة امتدت » a stage-point stretched أو هى « نقطة انقطاع اتصلت » break-of-bulk . من كل هذا يبدو بوضوح أن معظم موارد الجبل عامة تطرق هنا فى البيدمونت ؛ أى أنها لا تستثمر فى موضعها بصرامة in situ ، وانما sub-situ كما يجوز لنا أن نسميها . من هنا ارتفاع كثافة السكان النسبى relative over-density فمثلا فى مقاطعات النمسا الالبية الحقة الثلاث — التيرول وسالزبورج وكارينثيا — حيث تخلو نصف المساحة العامة من السكنى تماما ، وتقتصر الأراضى الزراعية على ١/٧ المساحة تصل عليها الكثافة الى ٧٥ فى الميل ٢ ، تتضاعف الكثافة تماما خارج الجبال مباشرة أى فى البيدمونت . وهذا الوضع يشبه كثيرا الوضع فى الجزر والاوخبيلات حيث تطرق موارد مجموعة كبيرة من الجزر بالتركيز فى جزيرة واحدة — uni-situ كما قد تقول — مما يرفع كثافتها الى مستوى غير عادى . ونظرا لهذه الكثافة المزادة فان البيدمونت يصبح أغنى أجزاء الجبل أو المنطقة الجبلية وبالتالى أقواها سياسيا . من هنا كان من المحتوم فى المناطق الجبلية انتصار مقاطعات البيدمونت على بقية المقاطعات الجبلية وقيادتها فى موضوع التوحيد السياسى : مثلا سويسرا ، وبيدمونت فى ايطاليا (٦١) .

---

(٥٨) Pierre George, Introduction, p. 56.
(٥٩) Semple, p. 531, 550.
(٦٠) Ibid., p 527.
(٦١) Semple, p. 527.

٢ — هـذه اذن هى نطاقات التسكن فى المرتفعات ؛ ويمكننا الآن ان نستعرض بعض أمثلة اقليمية لها (٦١) ؛ أعطى راتزل هذا المثل القديم لبجنتال ارزجبرج بحسب الشرائح الارتفاعية المترية المئوية (٦٢) .

| ١٢٠٠ــ١١٠٠ مترا | ١ذ نسمة | ٤ فى الكم ٢ |
|---|---|---|
| ١١٠٠ــ١٠٠٠ | ١٥٠٧ | ٥٦ |
| ١٠٠٠ــ٩٠٠ | ٦٤٤٠ | ٥٢ |
| ٩٠٠ ــ٨٠٠ | ٢١٢٩٣ | ٤٤ |
| ٨٠٠ ــ٧٠٠ | ٦٣٢٩١ | ٩٢ |
| ٧٠٠ ــ٦٠٠ | ١٣٨٥٣٤ | ١٢٩ |
| ٦٠٠ ــ٥٠٠ | ١٧٤١٩٠ | ١٤٢ |
| ٥٠٠ ــ٤٠٠ | ٢٨١٢٦٢ | ١٩١ |
| ٤٠٠ ــ٣٠٠ | ٥١٢٣٤٦ | ٤٩٠ |

كذلك فى سويسرة فى ١٨٨٨ كان ٥ ٪ فقط من مجموع السكان العام يتوزع فوق خط كنتور ١٠٠٠ متر ، وحتى فى كانتون ــ مقاطعة ــ جبلية بحتة مثل فاليه Valais كان ٤٤٪ من السكان يتخذون هذا التقع . وفى مقاطعة Grisons فقط كان ٥٠٪ من السكان يعيشون فوق كنتور ١٠٠٠ متر ، ولكن حتى هنا لم تزد نسبة السكان عن الخمس فوق كنتور ١٥٠٠ متر . وثمة حالة ارتباط أعم وأهم : الكنتور والكثافة فى أوربا (٦٣) فى المتوسط ، حيث نجد أن التناسب يكاد يكون عكسيا باطراد ، وأن أكثف أجزاء القارة ما قل عن ١٠٠ متر ارتفاعا ، وأن متوسط الكثافة على ارتفاع ٣٠٠ ــ ٤٠٠ يهبط الى نحو ١/٥ ما هو عليه تحت كنتور ١٠٠ متر .

| الارتفاع بالمتر | الكثافة فى الكم ٢ | الارتفاع بالمتر | الكثافة فى الكم ٢ |
|---|---|---|---|
| ١٠٠ــ | ٣٣٤ | ٨٠٠ــ٩٠٠ | ٤٤ |
| ١٠٠ــ٢٠٠ | ٢١٦ | ٩٠٠ــ١٠٠٠ | ٢٣ |
| ٢٠٠ــ٣٠٠ | ١٣٤ | ١٠٠٠ــ١١٠٠ | ١٨ |
| ٣٠٠ــ٤٠٠ | ٦٩ | ١١٠٠ــ١٢٠٠ | ١٫٣ |
| ٤٠٠ــ٥٠٠ | ٧٩ | ١٢٠٠ــ١٣٠٠ | ٠٫٨ |
| ٥٠٠ــ٦٠٠ | ٣٤ | ١٣٠٠ــ١٤٠٠ | ٠٫٠ |
| ٦٠٠ــ٧٠٠ | ٥٣ | ١٤٠٠+ | ٠٫٠ |
| ٧٠٠ــ٨٠٠ | ٤٣ | | |

(٦٢) Brunhès, p. 224.

(٦٣) Sorokin, p. 108.

وفى آسيا نجد وسطها مشهورا بثالوث الطبقية الحضارية السكانية ولكل كثافته : اسبتس ــ رعاة رحل منتشرون ، وبيدمونت ــ رى وزراعة مستقرة وتركز فى مدن عقدية تجارية وصناعية ، وجبل ــ جماعات مخلخلة من الزراع والرعاة . وتبدو نفس الطباقية فى جبال أطلس حيث تشتد وتتبلور على السفوح الجنوبية بسبب الفارق الكبير بين كثافة البيدمونت وتخلخل طوارق الصحراء جنوبا وبربر المرتفعات شمالا . وفى كلمنيارو : شريط ساحلى من الاسبتس والصحراء يسكنه بقارة السواحيلى ، ثم بيدمونت ١٠٠٠ ــ ٢٤٠٠ قدم يمثل منطقة غنية من الأبعديات والحدائق كثيفة السكان ، ثم فوق ٦٠٠٠ قدم رعاة البقر المازاى الذى يغيرون على الشريط الساحلى للحصول على الأبقار ، ويحصلون على كل غذائهم من الخضروات من نطاق البيدمونت الزراعى . كذلك فى الأپلاش نجد فى أودية الأنهار : نطاق الموانى البحرية والزراعة المدية ، ثم نطاقا تليا يمتاز بزراعة خاصة ، ثم نطاق المزارع المرتفعة وصناعات القوى المائية وتعدين المجارى العليا . ومثل هذا يوجد فى المنحدرات البحرية الطويلة لفرنسا وألمانيا وشمال ايطاليا . وقد تتعدل هذه الطبقية فى الحالات والمواقع المختلفة . ففى جرينلند تقتصر الحياة والسكنى على الشريط البيدمونتى الساحلى، ولا يعلو ذلك الا صحراء الحقول الجليدية. وفى النرويج نجد حضيضا مديا tide-washed يحمل الأغلبية العظمى من السكان ، يعلوه منحدر عنيف مخلخل السكان ، يعلوه قمة هضبية برية موحشة يسكنها فقط الرعاة الرحل أو لاب الرنة المهاجرون. وفى الألب تظهر هذه الطباقية فى الاقتصاد الزراعى . فعلى المنحدرات السفلى يقوم نطاق الكروم والزراعة الكثيفة ووفرة العائد وتكاثف السكان . يعلو ذلك نطاق الزراعة الحقلية وهو أقل انتاجية وسكانا . يعلو ذلك نطاق عريض من زراعة الدبس وتربية الماشية يحمل سكانا مخلخلة شبه ترحلية مع بعض القرى التى تقل وتتضاءل الى أن تختفى عند ارتفاع ٢٠٠٠ مترا . وعلى مخروط بركان اتنا ميز الباحثون طويلا بين ٣ نطاقات واضحة ــ نطاق الزراعة فالغابات فالقمة

الصحراوية . على أن الاقتصاد الزراعى فى نطاق الزراعة هنا يبدى طباقية داخلية بينة : فهناك من أسفل الى أعلى شريط البرتقال والليمون ثم شريط الكروم والزيتون حتى ٨٠٠ مترا ، ثم شريط المحاصيل الصيفية حتى ١٥٥٠ مترا ، ثم شريط آجام القسطل حتى ١٨٥٠ مترا . وعلى طول كل هذه النطاقات تتزايد الكثافة بانتظام الى ٤٠٠ نسمة فى الميل المربع قرب الساحل (٦٤) .

### ثالثا ــ كثافة السكان بين خط العرض وخط الكنتور

رأينا أن القاعدة العامة فى سكنى المرتفعات هى التناسب العكسى بين الكنتور والكثافة . ولكن هل هى حقا قاعدة عامة ؟ صحيح أنها صادقة فى الغالبية العظمى من الحالات والمناطق . ولكنها تنقلب رأسا على عقب فى حالات ثلاث معينة ، لا تقل أهمية ، بحيث يمكن اعتبارها قاعدة ثانية أكثر منها شذوذا للقاعدة الأولى . هذه الحالات الثلاث هى العروض السفلى ، والمناطق المناقعية ، ومناطق الحماية والالتجاء .

١ — فى العروض السفلى يجعل المناخ من السهول مناطق طرد ، وذلك فى حالتين ــ اذا اجتمعت شدة الحرارة والرطوبة ، أو اذا اجتمعت شدة الحرارة والجفاف .

فاذا اجتمعت شدة الحرارة والرطوبة تكونت الغابات المدارية الكثيفة التى تعوق الحركة وتاد الحضارة والسكنى وتطرد مستنقعاتها السكان . فهنا تصلح التضاريس ما أفسد المناخ ، وتصبح المرتفعات قطب الجاذبية لتلطف الحرارة وتخلخل الغطاء النباتى وتحسن البيئة الصحية . فان ارتفاع قدم واحد رأسيا يعادل الانتقال شمالا ميلا أفقيا (٦٥) ، فكأنما ينقل الجبل موقعه « بالقوة »

(٦٤) Semple, pp. 524, 558-60.
(٦٥) Fairgireve, J., Geog. in School, Lond., 1949, p. 43.

بضع عشرات من الدرجات العرضية بعيدا عن خط الاستواء . والمثال الكلاسيكي هو امريكا المدارية حيث يخلق الارتفاع ثلاث طباق ارتفاعية ـ مناخية ـ نباتية ـ سكانية :

النطاق الحار Tierra Caliente = البيدمونت الساحلي La Costa — ٣٠٠ قدما والغابي لامونتانيا

النطاق المعتدل Tierra Templada = المنحدرات العليا ٣٠٠٠—٧٠٠٠ قدما

النطاق البارد Tierra Fria = الهضبة + ٧٠٠٠ قدما

ولقد ثبتت أفضلية المرتفعات للسكنى قبل كولمبس وبعده . فان السكنى الهندية منذ فجر التاريخ تجمعت فى النطاقين العلويين . بل ان حضارة العالم الجديد لم تصل الى قمتها الا على القمم — والقمم المدارية فقط . وبعد كولمبس تحاشى الاسبان المنخفضات الغابية الملتهبة ـ مقبرة الرجل الأبيض ، ولنذكر أن مدينة مثل فيراكروز توصم بأنها مدينة الموتى Ciudad de los muertos ، وتزاحموا مع الهنود على المرتفعات = مصحات المدارين sanatoria ومناجم المعادن النفيسة . بينما أدى جلب الزنوج وتولد الخلاسيين mulattoes الى رفع كثافة البيدمونت والمونتانيا (٦٧) . ولكن السكنى الحقيقية لا تبدأ الا عند كنتور ٢٠٠٠ مترا ، أى تستثنى النطاق الحار بينما يضم النطاقان العلويان تسعة أعشار السكان . وبينما قد تصل الكثافة على الهضبة الى مثلها فى فرنسا ، لا يحتل البيدمونت الا فلول من الهنود المشتتين . وفى اكوادور يتزاحم ¾ السكان فى أحواض الهضبة المحصورة بين الجبال على ارتفاع ٢٥٠٠ مترا ( ٨٠٠٠ قدما ) . ومثل هذا فى بيرو حيث يصل التكاثف الى مستوى ٣٥٠٠ مترا ( ١١٫٠٠٠ قدما ) ـ ولو أن شريطها الساحلي يختلف عن كل سواحل أمريكا المدارية فى أنه صحى جاف غنى نسبيا بمجارى مياه الرى وبالتالى فى أنه كثيف السكان نسبيا . أما فى بوليفيا فان ٧٢ ٪ من السكان يعيشون على ارتفاع ٦٠٠٠—١٤٠٠٠ قدما ، بينما تقع خمس من أكثف المقاطعات سكانا فوق

---

(٦٦) Brunhes, p. 228.
(٦٧) Semple, pp. 560-1.

١٠٠٠٠ قدما (٦٨) • وفى المكسيك يتركز ثلثا السكان جميعا بما فيهم العاصمة مكسيكو سيتى (٣ مليون نسمة) فى الهضبة الوسطى على ارتفاع يتأرجح بين أعلى النطاق المعتدل وأسفل النطاق البارد • هنا اذن مدن العالم وسكانه « المعلقة » • واذا كانت البامير هى « سقف العالم » ، فهنا فى أمريكا المداريه « سقف البشرية » ... وفى كل هذه الحالات نجد أن كل المدن الكبرى بل والصغرى معلق على ارتفاعات لا تقل عن ٢٠٠٠ مترا • والجدول الآتى يلخص هذه الحقيقة — بالمتر (٦٩) •

| المدينة | الارتفاع | المدينة | الارتفاع | المدينة | الإرتفاع |
|---|---|---|---|---|---|
| كولومبيا | | بيرو | | بوليفيا | |
| Ibarra | ٢٢٢٣ | اركيبا | ٢٤٠٠ | كوتشاباميا | ٢٥٦٠ |
| كيتو | ٢٨٥٠ | كوزكو | ٣٤٠٠ | سكرى | ٢٧٠٠ |
| Cuenca | ٢٥٨٠ | Sicuani | ٣٥٣٢ | لاباز | ٣٧٠٠ |
| Loja | ٢٢٢٠ | أوروبا | ٣٦٢٥ | أورورو | ٣٧١٥ |
| المكسيك | | Puno | ٣٨٦٠ | بوتوسى | ٤٠٠٠ |
| | | Crucero | ٣٧٥٠ | Huanchaca | ٤١٠٠ |
| مكسيكو سيتى | ٢٣٥٦ | كرو دى باسكو | ٤٢٥٠ | | |

وفى العالم القديم نجد صورة مشابهة فى جزر جبلية مدارية أو دون مدارية عديدة • ففى الحبشة يميز بين ٣ طباق ارتفاعية — حيوية : الجلا ، والقوينا ديجا ، والديجا • فنجد الطبقة المعمورة الحقيقية معلقة بين الديجا والقوينا ديجا، وتنحصر بين كنتورى ١٨٠٠ ، ٢٥٠٠ مترا ، فتشمل كل المدن الهامة مثل (٦٩) :

| | | | |
|---|---|---|---|
| هرر | ١٨٥٦ | اديس ابابا | ٢٤٢٤ |
| عدوة | ١٩٥٠ | انكوبر | ٢٦٠٠ |
| غندار | ٢٢٧٠ | | |

ونطاق الصحارى فى العالم القديم غنى بالأمثلة : اليمن حيث صنعاء ٢١٥٠ مترا (٧٥٠٠ قدما) (٧٠) ، وهضبة ايران حيث طهران ١١٣٠ مترا ، همدان (اكتبانا القديمة) ١٨٠٠ مترا ، اصفهان ١٥٨٥ مترا ، كابول ١٨٠٠ مترا ؛ وهضبة التبت حيث لاسا ٣٥٥٠ مترا ، Chigatze ٣٩٢ ، Gyangtse ٤٠٠٠ ،

(٦٨) Ibid.
(٦٩) Brunhes, pp. 225-6.
(٧٠) Fisher, W.B., The Middle East, Lond, 1950, pp. 234-235.

Pheri ٣٥٠٤متراً وفى هضبة يونان فو على ارتفاع ١٩٠٠ متراً(٧١).
هذا فى العالم القديم . وهنا يبرز الفارق فى كثافة السكان بين أجزاء السلسلة الالتوائية الألپية فى كل من العالم القديم والجديد . فكما رأينا فى العالم القديم يمتاز القطاع الأوربى عن القطاع الاسيوى بأنه أكثف وذلك لأنه أقل ارتفاعاً — فالفارق تضاريسى وليس مناخياً ، وذلك لأن المحور الشرقى الغربى العام يوحد خط العرض الى درجة كبيرة . أما فى العالم الجديد فان الانديز أكثف من الروكى ، لا لفارق تضاريسى ، وانما للفارق المناخى الذى يخضع السلسلة لقانونين سكانيين مختلفين تماما ، وذلك لأن المحور الشمالى الجنوبى يجعل السلسلة « تراڤرس » مناخى شديد التنوع والتباين .

ماذا اذا اجتمعت شدة الحرارة والجفاف ؟ هنا تتكون الصحارى الحارة ويصبح عامل الطرد هو تفريط المطر لا افراطه كما فى الحالة السابقة . فتصبح المرتفعات كمصاد فمصايد عليا للأمطار الأوروجرافية . ويعوض من صعوبة التضرس تعدل الحرارة . وبذا تصبح المرتفعات بحق جزرا طبيعية وبشرية . فاذا كانت جبالا شديدة الارتفاع تجمع كل السكان المستقرين على ضلوعها السفلى وكما تكثر المدن عند أقدام الجبال فى العروض المعتدلة تكثر هنا القرى المختلفة أى يصبح البيدمونت منطقة الكثافة العظمى . أما اذا كانت جبالا منخفضة فان طبيعتها كعقبة تتلاشى وتصبح فى جملتها مركزا للسكان . فجبل مرة البركانى أغنى جهات دارفور مطرا وسكانا . فارتفاعه ٦٠٠٠ قدما ، وتوجد به المياه الجارية ابتداء من ٤٠٠٠ قدما كحد أعلى الى ٣٢٠٠ قدما كحد أسفل. وتحت هذا الأخير تختفى المياه من على السطح ولا يمكن الحصول عليها الا بالآبار التى يزداد عمقها وينضب معينها كلما زادت المسافة من قلب الجبال . ومثل هذا نجده أيضا فى واداى . وفى قلب استراليا الميت تمثل سلسلة مكدونل نواة الجزء الشمالى من منطقة الأرانتا ، والى الشمال منها تكون سلسلة مرتشيزون الغنية بعيون المياه ملجأ وقلعة قبيلة الوارامونجا Warrumunga (٧٢)

٢ — الحالة الثانية التى تنعكس فيها العلاقة العكسية بين الكنتور والكثافة هى مناطق المستنقعات . فحيث تساحل الجبال الساحل فى العروض المدارية أو

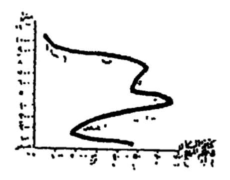
(٧١) Sorre, p. 203

(٧٢) Semple, pp. 526-7.

شبه المدارية تنتهى مياه الأمطار على شكل « دافق run-off » الى أقدام الجبل الساحلية حيث تجرى كفيضانات فجائيـة مغرقة ؛ أو تركد فى صورة مستنقعات ملارية يهرب منها السكان الى سفوح الجبل الأقل حرارة والأنقى صحيا . وقد تزحف السكنى الى أسفل لتغطى السهول الملارية فى فترات التطهير والاستصلاح ثم تنحسر عنها مرتدة الى أعلى مرة ثانيـة فى فترات الاهمال . أى قد تحدث دورة سكنية ما بين تعمير وتناقص سكانى depop. and repop. فى السهول بينما تمثل السكنى فى الجبل عامـلا ثابتا constant (٧٣) . وهنا تبرز فائدة الجبال اذا قارنا مستنقعات السهول الداخليـة مثل بريبت Pripet Marshes بمستنقعات السهول الساحلية الجبلية مثـل Pontine M. ففى الأولى لا معوض لقلة كثافة السكان . ويمكننا أن نضرب من مستنقعات بوتنين مثلا فذا لظاهرة الدورة السكنية فى السهول الملارية. وأبرز ما تتضح الحقائق السابقة فى حوض البحر المتوسط الشبه مدارى والذى تغلقه وتطوقه حلقة جبلية. فنسبة كبيرة من السكان على طول سواحله تتركز على المنحدرات التلية بين ارتفاع ٦٠٠، ١٢٠٠ قدما حيث تزرع أيضا معظم المحاصيل الشجرية . ففى توسكانيا مثلا يقع ½ السكان بين كنتور ١٠٠ ، ١٦٠٠ قدما ، وفى اتنا بصقلية تحمل التربة اللافية الخصبة كثافات تتراوح بين ٩٠٠ ، ١٥٠٠ فى الميـل المربع على ارتفاع ٢٥٠٠ ــ ٣٠٠٠ قدما، بينما لاتزيد الكثافة عن ١٠ فى الميل بين ٣٠٠ ، ٦٠٠ قدما وفى كورسيكا التى يبلغ متوسط ارتفاعها ١٨٠٠ قدما ، حدث تركز تقليـدى السكان بين ٩٠٠ ، ٢٥٠٠ قدما ، مع وصول الكثافة أحيـانا الى ٢٥٠ للميـل ( شكل ٤ ) . وفى الشمال الشرقى من الجزيرة فى منطقة Chataigneri e أى منطقة الكستناء لا زال هناك تركز واضح للقرى بين ١٨٠٠ ، ٢٥٠٠ قدما (٧٤) ويرسم أنفوسى Anfossi عدة رسوم بيانية تبين العلاقة بين كثافة السكان والارتفاع فى قطاعات مختلفة من كورسكا وكذلك للجزيرة كـكل . وفى كل الحالات ترسم المنحنيات سموكا معينا واحدا : فهى لا تمثل « وزا » مستقيمـا فى مثلث قائم الزاوية ولكن تبرز فى وسطها « كتف » أو عدة أكتاف وسلمات . أى أنه بعد

(٧٣) George, p. 69.
(٧٤) Houston, p. 235.

أن تبدأ الكثافة متناسبة عكسيا مع الكنتور تعود فى منتصف الطريق الى تناسب طردى حتى ارتفاع معين بعده تعود العلاقة العكسية ...



شكل ٤ ـ العلاقة بين الكنتور وكثافة السكان
فى كورسيكا ، ١٩١١ ( عن انفوسى )

٣ ـ مناطق الالتجاء والحماية الجبلية تنقض العلاقة العكسية بين الكنتور والسكان . ففيها يلعب عامل الطرد البشرى الدور الرئيسى . ففى فترات الحروب والأخطار والصراع والقرصنة الساحلية فى الماضى كان لعامل الحماية اعتبار هام فى توقيع السكان . فكانت الجماعات المهددة أو المستضعفة أو الأقليات تهرع من السهول والوديان الى الجبال ابتغاء الحماية ، ويتحول المنفى الى ملجأ . فالجبال كما رأينا أطراف العالم رأسيا ، فكما تطرد العناصر المستضعفة بحركة ضد اعصارية الى الخارج الى هوامش القارات ، تطرد كذلك بحركة لولبية spiral الى أعلى ـ الى سفوح الجبال . فهى لذلك مناطق طرد والتجاء .
ويترتب على هذا ، عدا أن تصبح الجبال متاحف إثنولوجية فريدة ، أنها فى النهاية تتحمل بعدد من السكان فوق طاقتها الحقيقية ، أى يحدث افراط الكثافة over-density ـ كثافة وتكثيف بالقهر والدفع densité par refoulement كما يسميها فيدال . ومع إفراط الكثافة يأتى افراط السكان overpop. الذى يبدو دليله فى سيادة الفقر العام والبؤس بين السكان ، كما يتمثل جليا فى جبال البلقان (٧٥) . ولكن كما يلاحظ بيير جورج لا يصدق قانون الالتجاء على جميع أجزاء السفح ، وانما على أسفله ـ على البيدمونت ـ على جبهة الالتحام بين السهل والجبل ، فان دور الملجأ سواء لعبته الجبال أو المستنقعات

---

(٧٥) George, p. 68.

أو الغابات انما يتم على هوامشها lisières دون اغلب ، وقد يعود اللاجئون بعد انتهاء الخطر الى النزول الى السهول وبهذا تتحقق دورة رأسية للسكنى تتألف من مرحلة حشد ومرحلة تفريغ وتشبه الدورة المرتبطة باستصلاح واهمال السهول الساحلية الجبلية الملارية . وتؤكد الدورتان مبدأ ارتفاع بعيدا التفاوت variability فى حجم سكان البيدمونت وفى كثافتهم ارتفاعا كبيرا بالنسبة لكل من السهل الأصيل وقلب الجبل العلوى . وتتضح هذه الظاهرة بقوة فى شرق وجنوب شرق أوربا (٧٦)، وعموما فمن الواضح أن ظاهرة الالتجاء قد قلت أهميتها فى العصر الحديث مع استقرار النظام والسلام ، ولو أن الاستعمار الأوربى خلقها فى مناطق جديدة .

ويمكننا الآن أن نستعرض بعض أمثلة للالتجاء الجبلى . ففى ايطاليا تدل الأبحاث الاركيولوجية على أن السكنى بدأت أول ما بدأت على الجبال وبعد مدة أخذت تزحف تدريجيا الى السهول . وفى انجلترا فى العصر البرنزى أدى غزو الجماعات الأحدث الى ازاحة العناصر البدائية الى الجبال حيث «تحفرت» قراها فى مدرجات المنحدرات . وفى شرق أمريكا الشمالية ميز الهنود الحمر جيدا بين دلالة السهل والجبل ولجأ الشيروكى Cherokee الى حشد أمتهم فوق الجبال نظرا لاحداق جماعات عديدة معادية . وفى هضبة أرمينيا نجد أن سفوح الجبال أكثف سكانا من الأودية ، لأن الموقع المسيطر والحماية أوفر فى السفوح ولذا لجأ اليها الأكراد الأشداء الأحدث بينما تركوا الأودية الزراعية للأرمن المستضعفين الأسبق ، ولذا نجد هنا قلبا للترتيب المعهود حيث يحتل الأحدث الأقوى المناطق الأسهل الأغنى (٧٧) . وفى البلقان أدى اجتياح الأتراك الى التجاء الوطنيين المسيحيين الى الاعتصام بالجبال هربا من الضرائب ومن التبشير بالاسلام . وفى حوض البحر المتوسط الغربى عرفت السواحل فى صقلية وايطاليا وبروفانس واسبانيا أخطار قراصنة المور وجيوش الاسلام فلجأوا الى الجبال . وفى اللڤانت أدى اضطهاد الأقليات الدينية قديما من الدروز والموارنة والعلويين الى تكثيف السكان على جبل الدروز وجبل لبنان والنصيرية .

---

(٧٦) Ibid., pp. 58-ff.

(٧٧) Semple, pp. 562-8.

وفى المغرب أدى التجاء البربر الى جبل النفوسة والقبايل وأوراس فى الماضى ثم انتزاع المستعمر الفرنسى حديثا للأرض الخصبة فى السهول وطرد الوطنيين منها الى هذه الجبال ـــ أدى كل هذا تكثيف السكان بدرجة غير ممكنة أو منتظرة لو لا ذلك (٧٨) .

## رابعا ـ العلاقة السكانية بين الجبل والسهل

١ ـــ بين الجبال والسهول علاقة عمرانية وثيقة ، ومتبادلة . تشبه العلاقة بين الصحارى ومناطق الاستقرار فى أنها تؤكد « تكامل » البيئات الطبيعية المتناقضة التركيب تكاملا وظيفيا . وتأخذ ثمرة هذا التكامل شكل ارتفاع كثافة السكان على جبهة الالتحام بين النقيضين . فكما لاحظ ڤيدال أن كثافة السكان ترتفع عند التقاء الصحراء بالسڤانا أو بالغابات ، فكذلك نلاحظ أن البيدمونت ، وهو نطاق الالتحام الرأسى لا الأفقى ، ترتفع عليه الكثافة لدرجة تفوق أيا من الطرفين . وفى علاقة التكامل هذه بين السهول والمرتفعات تختلف نظرة كل منهما للآخر .

فأما السهول فتنظر الى الجبال على أنها أساسا مناطق عبور ، وكل اهتمامها بها هو فقط فى الممرات والأودية . فلا تأتى علاقة السهول بالجبال عن طرد أو جذب طبيعى ـــ الا فى الحالات الشاذة المحددة كالعروض السفلى والسهول الملارية والترانس هيومانس ، ولكنها تأتى غالبا عن طرد بشرى كما فى مناطق الحماية والالتجاء أو لحدوث افراط السكان فى السهل ، ففى الظروف العادية لا يبدأ سكان السهول فى الزحف الى أقدام وضلوع المرتفعات الا تحت ضغط إفراط السكان . وحيث أن هذا الضغط ما أسهل أن نصل اليه فى فترة ما ، فقد كاد تسلق سكان السهول للجبل وتسربهم عليهم أن يكون القاعدة العامة بحيث لا نخشى اذا افترضنا فى أى جبل أن سكانه الحقيقيين كانوا فى الماضى أوطأ ثم انكمشت منطقتهم وتقلصت الى أعلى نتيجة لاحتلال سكان السهول لمساكنهم السفلى بالتدريج ، مما يعطى البيدمونت صفة التحرك على العصور Shifting (٧٩) .

---

(٧٨) عزة النص . احوال السكان فى العالم العربى . القاهرة ١٩٥٥ ص ٤٥

(٧٩) Semple, pp. 521-6.

أما علاقة الجبل بالسهل فترجع الى عوامل الطرد والجذب الطبيعى ، وهى لذلك علاقة أكثر حدوثا وانتشارا من علاقة السهول بالجبال . فالجبل عند فلير مثلا «مناطق الصعوبة Regions of Difficulty» وهى تصدر الرجال وتشكل طوال تاريخها حركة من نزول السكان Downhill, Valley-ward Movement (٨٠) أى أن الحركة الى أسفل قد تكون أكثر شيوعا من الحركة الى أعلى . مثلا بين القرنين ١٧ ، ١٨ هاجرت ٢٠٠٠ أسرة من سافوا ووادى آوستا الى باقاريا والغابة السوداء وسويسرا والراين واللورين . وفى البلقان أدى احتلال الأتراك للجبال الى نزول سكان الألب الدينارية الى كل السهول المحيطة . وفى العصور الوسطى انصرف سكان غسقونية ولانجدوك الى استعمار وتعمير كامل للريف الاسبانى فى سهول ابرو وذلك مع طريق الحج الشهير (٨١) . وقد أدى تقدم الحضارة الى جذب سكان الجبال الى السهول من « الألب » الى البيدمونت والوديان ، وخاصة بعد الانقلاب الصناعى — تماما كما جذب تقدم الحضارة الموانى من الحافة الخارجية Outer Edge الى الحافة الداخلية للسواحل Inner Edge (٨٢) . وفى هذا الصدد يعتقد موجلى Mougeolle فى «قانون للارتفاع a law of latitude» عام بمقتضاه تنزل مناطق كثافة السكان والمدن باطراد الى كنتورات أوطأ كلما ارتفعت الحضارة ، من الجبال والهضاب الى السهول ... واذا كان البعض يشك فى هذا « القانون » ، فليس من شك فى تحرك نطاقات الكثافة بالنسبة للارتفاع (٨٣) . والملاحظ أن بعض الجماعات التى لزمت فى حركتها الجبال أظهرت فى القرنين الأخيرين حركة تفريغ سكانى فى السهول المجاورة — مثل العناصر الألبية فى وسط أوربا . ومن الضرورى أن ندرك أن كثافة السكان فى الجبال قد تكون أعلى مما يمكن للموارد الموضعية أن تعلل ، وذلك بصرف النظر عن حالات التكثيف بالقوة والقهر أو تحت ضغط الالتجاء ... الخ ، وحينئذ فالسبب هو السهول — هو المكاسب الاقتصادية التى يجنيها سكان الجبال من الهجرات المؤقتة أو الموسمية للعمل فى السهول المحيطة ، كأن السهل قاعدة سكانية غير منظورة أو جزئية لسكان الجبل . فلقد كانت هذه الهجرات

(٨٠) Fleure, H. J., "Regions in Hum. Geog.", Geog. Teacher 1917-8 pp. 36-8 and Scot. Geog. Mag., March, 1919, pp. 105 ff

(٨١) Beaujeu-Garnier, p. 118

(٨٢) Semple, p. 563.

(٨٣) Sor[illegible]n, p. 109

قانونا منتظما فى معظم جبال أوربا حتى الانقلاب الصناعى (٨٤) : من ألب سافوا الى جنوة وميلانو مع المنزات الجبلية . والى جنيف مع طريق التجارة العبر قارية التقليدية ؛ ومن السفن les Cévenols الى لانجدوك لجمع الكروم ؛ ومن الأوفرن الى الفوج لقطع الأخشاب، ومن الجورا والهضبة الوسطى وليموزان(٨٤) الى باريس ؛ ومن سافوا والبرانس للحصاد فى أكيتين وروسيون وقاربونية بل وفى أسبانيا . وقد كانت هذه الحركات الموسمية ضخمة حقا : قدر حجم الهجرة الشتوية من سافوا وحدها فى القرن ١٨ بنحو ١٠٠ ألفا ! ولكنها كانت قد هبطت فى بدء القرن ١٩ الى نحو ١٠ آلاف لكل البرانس ؛ ٢٥ ألفا للألب ؛ ٥٠ ألفا للهضبة الوسطى .

٢ — ولقد بدأ التطور الخطير فى العلاقة بين الجبل والسهل منذ الانقلاب الصناعى (٨٥) . ولكن عادت فانعكست مرة أخرى فى العقود الأخيرة المعاصرة. ولهذا ينبغى أن نميز بين مرحلتين : مرحلة الانقلاب الصناعى ، والمرحلة الحديثة المعاصرة .

فأما مرحلة الانقلاب الصناعى فقبلها كان الجبليون يحلون مشكلتهم السكانية داخليا باستصلاح وزراعة كل واد متروك ؛ وبالترانس هيومانس والهجرة الفصلية والمؤقتة الى السهول . ولكن هناك أدلة على أنهم كانوا قد وصلوا الى آخر امكانيات التوسع الزراعى الجبلى لا منذ القرن ١٨ ، بل منذ القرن ١٥ ؛ وأن التوسع أحيانا تعدى الحدود السليمة فارتد عنها الى أسفل . كما أن اعادة تنظيم الاقتصاد السهلى بعد الانقلاب الصناعى والمخصبات ألغى نظام البور فامتنع الترانس هيومانس والحصر الجبليون فى حدود بيئتهم التى لم تعد تقبل التوسع ؛ كذلك لا ننسى طول استنزاف عناصر التربة الجبلية بسبب كثرة حمل الزبد والألبان فى الجبل بدون تعويض من التخصيب مما هدد بضعف التربة ونقص الغذاء وبالتالى أدى الى طرد السكان وضغطهم ؛ وفوق هذا فان الصناعة الحديثة الآلية كسا وأدت الصناعات الريفية الصغيرة وأدت الصناعة الجبلية التقليدية . وهكذا أصبح هناك فائض من زراع وصناع الجبال لا محل

---

(٨٤) Demangeon, A., Problèmes de Géog. Hum., Paris, 1952, La Montagne dans le Limousin, pp. 239 ff.

(٨٥) Beaujeu-Garnier, pp. 126 ff.

له من اقتصاد الجبل : فالانقلاب الصناعى أدى الى افقار واقفار الجبال . من هنا بدأ « الهروب من الجبال mountain exodus » كالهروب من الريف rural exodus » . واذا كانت الهجرة النهائية التى أسفرت تخفف من ضغط السكان وتترك مستوى المعيشة المحلى أرقى ، فهذا مؤقت : فالانتعاش الناتج لا يلبث أن يؤدى الى تزايد سريع للسكان فينتكس الوضع وتبدأ الدورة من جديد . وكثيرا ما أدى هذا الى تناقص المواليد ، وهذا مع الهجرة خفض الكثافة فى بعض الجهات الجبلية تخفيضا شديدا : بنسبة ٥٠ ٪ فى الألب الفرنسية وبنسبة أكثر من ٦٠ ٪ فى متحليات منها ، وبنسبة ٤٧ ٪ فى الايلاندز فى اسكتلند ، وبنسبة ٧٢ ٪ فى السفن ... على أن هذه الحركة الطردية لم تبدأ فى كل الجبال فى نفس الوقت وبنفس السرعة : منذ ١٨٤١ بدأت مرتفعات انجلترا تفرغ سكانها ، واشتد المعدل منذ ١٨٦١ حتى الوقت الحالى حيث انتقل قلب ويلز الى اللامعمور . وفى الألب الدينارية استمرت الحركة التى بدأت منذ القرن ١٥ واشتدت فى القرن ١٨ ، فأصبحت أشد فى القرن ٢٠ . وفى الألب الفرنسية بدأت الهجرة منذ ١٨٤٦ . أما الألب النمسوية فلم تعرفها الا منذ أواخر القرن ١٩ ، واشتدت منذ ١٩٢٠ ومأساة « النمسا الصغرى » . وفى ايطاليا تأخرت الحركة كلما اتجهنا من الشمال الى الجنوب ــ منذ ١٨٧١ فى الألب ، ومنذ ١٩٢٧ فى الاپنين الشمالية ، وأبروزى بين ١٩١٠ ، ١٩٢١ ؛ أما أقصى الجنوب « الصقليتان » فقد ظلت تنمو باستمرار تقريبا ولم تعرف تناقصا شأنها فى ذلك شأن مرتفعات اسبانيا والبرتغال الا منذ عقد أو اثنين على الأكثر . هذا وقد وجد فى كل هذه الحالات أن معظم هذه الهجرات الجبلية لا تذهب بعيدا جدا ، بل على قرب من الجبل الأصلى ، كما أن نسبة أقل مما نعتقد هى التى تتجه الى المدن ، فالغالبية تستقر فى الأرياف المجاورة أو مقدم الجبل وأقدام البيدمونت أحيانا . أما الهجرة الى الخارج فظاهرة حديثة الى حد بعيد .

أما عن المرحلة الحديثة المعاصرة فيمكن القول ان التطور الديموغرافى الجبلى حاليا فى كل غرب أوروبا قد دخل فى مرحلة جديدة : فقد كف السكان عن التناقص ، وبدأوا فى بعض الحالات فى التزايد ، وذلك بفضل التغيرات الاقتصادية الجارية . فبتعبير باتريك جدس P. Geddes (٨٦) .

---

(٨٦) Cities in Evolution, 1915

اذا كان الانقلاب الصناعى الفحمى الپاليوتكنى palaeotechnic قد فرغ الجبال من سكانها ، فان الانقلاب الصناعى الجديد الكهربى النيوتكنى neotechnic قد جعل الألومنيوم معدن الجبال فى أوربا الغربية وأعاد اليها نموها وأبناءها . فقد فتحت الكهرباء الجبال للصناعة خاصة المعادن الكهربية والكيميائيات الكهربية ، لا بالضرورة كمدن مركزة ولكن كوحدات ومصانع فى صميم الوسط الزراعى والمراعى ، ولكن الأغلب على البيدمونت . ثم كانت السياحة الجبلية التى أصبحت «خدمات الجبال» والتى لايمكن المبالغة فى قيمتها الديموغرافية لها(٨٧) . وهكذا انتهى عصر الاقتصاد المعاشى Subsistence econ . والكفاية الذاتية autarchy فى الجبال ، وبدأ الجبليون يعتمدون على الاقتصاد التبادلى ، ولهذا تحول التركيز من انتاج الغذاء الى منتجات الألبان ، فأخذت حدود الحبوب والكروم تهبط تدريجيا ، وأحيانا تعود الكروم الى الصعود والزحف ثانيا اذا ارتفعت الأسعار (٨٨) . ومثل هذه الظاهرة تعرفها جيدا سفوح المرتفعات المحيطة بحوض سوڤا Suwa basin للتوت فى اليابان (٨٩) .

---

(٧٨) Beaujeu-Garnier, p. 119.

(٨٨) Peattie, p. 427.

(٨٩) Cressey, G. Asia's Lands and Peoples, 1953, p. 218.

# المصادر


1. Beaujeu-Garnier, Jacqueline, Géog. de la Population, Paris, 1956.
2. La Blache, P. Vidal, Principles of Hum. Geog. Lond., 1926.
3. Brunhes, Jean, La Géog. Hum., Paris, 1925.
4. Cressey, G., Asia's Lands and Peoples, 1952.
5. Démangeon, Albert, Problèmes de Géog. Hum. Paris, 1592.
6. Dubot, Emile, Les Climats et l'Organisme Humain, Coll. Que Sais-Je? Paris, 1948.
7. Fairgrieve, James, Geog. in School. Lond., 1949.
8. Fleure, H. John, "Regions in Hum. Geog.", Geog. Teacher, 1917-8 and Scot. Geog. Mag., March, 1919.
9. Fisher, W. B., The Middle East, Lond., 1950.
10. Finch, V. C., Trewartha, G. T., Robinson, A. H. and Hammond E., Elements of Geog., 1957.
11. Garnett, Alice, "Insolation, Topography and Settlement in the Alps", Geog. Rev., vol. XXV, No. 4, Oct., 1935.
12. Geddes, Patrick, Cities in Evolution, Lond., 1915.
13. George, Pierre, Introduction à l'Etude Géog. de la Population du Monde, Paris, 1951.
14. Houston, J.M., A Social Geog. of Europe, Lond., 1953.
15. Huntington, E., Williams, F. and Valkenburg, S. V., Economic and Social Geog., N. Y., 1983.
16. James, Preston E., A Géog. of Man, Boston, 1949.
17. James, Preston E., An Outline of Geog.
18. James, Preston E., "Terminology of Regional Description", Ann, Assoc. Amer. Geog., June, 1934.
19. De Martonne, E., A Shorter Physical Geog., (trans.) Lond., 1948.
20. Peattie, Roderick, "Height Limits of Mountain Economies", Geog. Rev., vol. XXI, No. 3, July, 1931.
21. Semple, Ellen Churchill, Influences of Geog. Environment, Lond., 1911.

22. Smailes, Arthur E., Geog. of Towns, Lond., 1958.

23. Soudrillat, J.-M., Géog. Agricole de la France, Coll. Que Sais-Je? Paris, 1950.

24. Sorokin, Pitirim, Contemporary Sociological Theories, N. Y., 1928.

25. Sorre, Maximillian, Fondements de la Géog. Hum., Paris, 1952.

26. Stamp, L. Dudley, Intermediate Geog., Lond., 1941.

27. Taylor, Griffith, Urban Geog., Lond., 1949.

28. Wooldridge, S. W. and Morgan, R. S., Physical Basis of Geog., Lond., 1937.

29. Zon, Raphael, "Forests and Hum. Progress", Geog. Rev., Sept., 1920

٣٠ ـ عزة النص . احوال السكان فى العالم العربى . القاهرة ١٩٥٥

# ضمـــــير المتكلم المرفوع

للدكتور خليل يحيى نامى

١ — لم نعثر على ضمير المتكلم المنفصـــل المرفوع فى النقوش العربيـــة الجنوبية (١) ، وكذلك فى النقوش والكتابات النبطية (٢) والصفوية (٣) ، ولكنه وجد فى الكتابات الثمودية (٤) وفى الكتابات اللحيانية (٥) ، وكان ضمير المتكلم المنفصـــل المرفوع يكتب فى هاتين الكتابتين الجاهليتين بالهمزة والنـــون فقط ( أى أن ) ، ويقال انه كان ينطق تلك اللهجتين العربيتين الجاهليتين بألف لينـــة بعد النون أى ( أنا ) • وقد ورد الضمير بصورته الموجودة فى اللغة العربيـــة فى النقش العربى المعروف باسم نقش حران اللجا (٦) المكتوب سنة ٥٦٨ م • ويفهم من تلك الكتابات الجاهلية أن ضمير المتكلم المنفصل المرفوع كان يكتب وينطق فى شمال الجزيرة العربية قبل الاسلام كما يكتب وينطق فى اللغة العربية لغة القرآن الكريم ولغة الشعر العربى •

وقد يعترض على ذلك بالقول لماذا لا يظن أن بعض العرب القـــدماء كانوا يكتبون وينطقون ضمير المتكلم المنفصل المرفوع ألفا مهموزة ونونا ( أى أن ) كمـــا يشاهد ذلك فى النقوش الثمودية واللحيانيـــة ، وأن بعض العـــرب كان يكتبه كما كان ينطقه بألف لينة بعد النون ، كما يشاهد ذلك فى نقش حران اللجاء

---

(١) Maria Höfner, Altsüdarabische Grammatik, 8.30—31.

(٢) Enno Littman, Safaitic Inscriptions (Leiden 1943) p. XV, XVI

(٣) J. Cantineau, Le nabatéen, T.I, p. 51.

(٤) ALB. Van den Branden, Les Inscriptions Thamoudéenes, p. 35.

ALB. Van den Branden, Les Textes Thamoudéens de Philby, Vol. 1, p. 25, Vol. II, p. XXXII.

(٥) انظر Werner Caskel, Lihyan und Lihyanisch, S. 63.

(٦) René Dussaud, mission de la Syrie moyenne, p. 324, 325. Répertoire D'Epigraphie sémitique, Tome 1 N. 485, P. 367. J. Cantineau, Le Nabatéen, Tome II, p. 50.

وللرد على ذلك الاعتراض تقول ان الثموديين واللحيانيين الذين كانوا يكتبون ضمير المتكلم المنفصل بألف مهموزة ونون فقط كانوا كمعظم الأمم السامية يعتمدون فى كتاباتهم على الحروف الصامتة التى يكتبونها من غير الحركات على اختلاف أنواعها ، أما نقش حران اللجا الموجود فيه الضمير منتهيا بألف لينة بعد النون فهو نقش عربى مكتوب بالخط النبطى ، والخط النبطى كما نعرف هو خط آرامى اتخذه النبط خطا لهم ، كما اتخذوا اللغة الآرامية لغة رسمية لهم يتكلمونها ويكتبون بها كتاباتهم ، وكان الآراميون ومنهم النبط يعرفون الألف اللينة ، كما كانوا يعرفون الألف المهموزة بدليل أنهم كانوا يستخدمون الألف اللينة فى آخر الأسماء لتعريفها ويتضح ذلك من النقوش النبطية المكتوبة فى القرنين الأول قبل الميلاد والأول بعد الميلاد . واتخذ العرب الخط النبطى بخصائصه وقواعده الآرامية خطا قوميا لهم بعد أن سقطت المملكة النبطية سنة ١٠٦ م ، وبعد أن ضم الرومان أملاك النبط الى المملكة الرومانية كما يتضح ذلك من النقوش النبطية المكتوبة فى القرنين الثالث والرابع الميلاديين، ولذلك نجد العرب يستخدمون الألف اللينة فى ضمير المتكلم ( أنا ) لأن الألف اللينة كانت معروفة فى الخط النبطى ، كما يظهر ذلك من نقش حران اللجا الذى كتب سنة ٥٦٨ م .

٢ — واختلف العرب فى ضمير المتكلم فكان بنو تميم يثبتون ألف ( أنا ) فى الوصل كما كانوا يثبتونها فى الوقف وكان غيرهم كما يقول النحاة واللغويون لا يثبتونها فى الوصل الا فى الضرورة (٧) ، كما كان بعض العرب يقفون على نون الضمير بالسكون (٨) ، كما كان بعضهم يقف على الضمير بها السكت أى ( أنه ) للابانة بالهاء عن فتحة النون (٩) ، ويقولون ان ضمير المتكلم فيه خمس لغات أفصحها أثبات ألفه وقفا وحذفها وصلا والثانية اثباتها وصلا ووقفا وهى لغة

---

(٧) الجزء الثانى من شرح الكافية للاسترابادى ص ٩
(٨) الجزء الثانى من شرح الكافية ص ٩
(٩) الجزء الثانى من شرح الكافية للاسترابادى ص ٩ وشرح المفصل لابن يعيش ﺟ ٣ ص ٩٤

تميم كما سبق أن بينا ذلك والثالثة ( هنا ) بابدال همزة الضمير ( أنا ) هاء والرابعة ( آن ) بمد بعد الهمزة والخامسة ( أن ) كمن حكاها قطرب (١٠) .

واختلف البصريون والكوفيون فى أصل الضمير فقال الكوفيون ان الألف بعد النون من نفس الكلمة أى أن الضمير هو عبارة عن مجموع الأحرف الثلاثة التى يتكون منها الضمير . وقال البصريون ان ألف الضمير زائدة والاسم هو الهمزة والنون وأتى بالألف الزائدة فى الوقف لبيان فتحة النون لأن فتحتها تسقط فى الوقف فكتب الضمير بالألف خوفا من أن تلتبس بأن الحرفية لسكون النون فى الوقف (١١) . وجاء فى ص ٦٠ من الجزء الأول من كتاب همع الهوامع للسيوطى ما يلى : وقيل أنا مركب من ألف أقوم ونون نقوم ... الخ . وقال الاستراباذى فى ص ١٠ من الجزء الثانى من شرح الكافية ما يلى : وأما أنت الى أنتن فالضمير عند البصريين أن وأصله أنا. وكأن أنا عندهم ضمير صالح لجميع المخاطبين والمتكلم ، فابتدأوا بالمتكلم وكان القياس أن يبينوه بالتاء المضمومة نحو أنت الا أن المتكلم لما كان أصلا جعلوا ترك العلامة له علامة ، وبينوا المخاطبين بتاء حرفية بعد أن كالاسمية فى اللفظ وفى التصرف .اهـ .

ويفهم من كلام الاستراباذى السالف الذكر أن ضمير المتكلم مجرد من العلامة الدالة عليه ، بينما توجد التاء فى ضمير المخاطب أنت للدلالة عليه ؛ وقد علل العرب خلو ضمير المتكلم من العلامة الدالة عليه بأنه أصل ولذلك فخلوه من العلامة علامة له لأن القياس يقتضى أن تلحق به التاء المضمومة الموجودة فى الفعل كتبت ، وقد يدل ذلك الرأى على أن علماء العرب كانوا يرون أن الضمائر المنفصلة المرفوعة مركبة من مقطع أن ومن حرف أو ضمير يدل عليه ، غير أن وجود الألف اللينة فى نهاية الضمير أنا وسقوطها منه فى حالة الوصل جعل العلماء البصريين يظنون أن الألف اللينة زائدة ، وأن الضمير مجرد من العلامة الدالة عليه ؛ ويخالف هذا القول ما بينته الدراسات التاريخية المقارنة وهو أن ضمير المتكلم أنا مكون من مقطع أن ومن الهمزة المفتوحة الموجودة فى الفعل

(١٠) الجزء الاول من شرح الاشمونى ص ٩٠ – الطبعة الثانية مطبعة مصطفى الحلبى سنة ١٩٣٩

(١١) الجزء الثالث من شرح المفصل لابن يعيش ص ٩٣ – ٩٤

المضارع أكتب (١٢) ، وقد خففت الهمزة المفتوحة النهائيــة لوقوع همزتين فى أول مقطعين متتاليين (١٣) ، وقد قال علماء العرب ان الضمير المتصل أو حرف التــاء قد دعم (١٤) أو كثر (١٥) بأن ، وقال الأستاذ برجستراسر فى ص ٤٨ من كتاب التطور النحوى : ان مقطع أن يحتمل أن يكون من أدوات الأشارة .

٣ — قال علماء العرب فى ضمير المتكلم المتصل المرفوع ان التاء قد ضمت فى المتكلم لمناسبة الضمة لحركة الفاعل (١٦) ؛ وخصــوا المتكلم بالضمة لأن القياس وضع المتكلم أولا ثم المخاطب فالغــائب (١٧) ، ولما كان ضمير المتكلم المتصل المرفوع يتشابه مع ضمير المخاطب المتصل المرفوع فى التاء فرقوا بينهما بالحركات فجعلوا الضم للمتكلم لأنهم أنزلوه وهو أول قبــل غــيره منزلة الفاعل (١٨) ، وقيل انه الزم الحركة الثقيلة مع اسمه لأنه اذا أخبر لا يكون الا واحدا ، واذا خاطب فقد يخاطب أكثر من واحد (١٩) ، وخصوا المخاطب بالفتحة لأنهم أنزلوه منزلة المفعول ، أو أنهم حركوا ضمير المخاطب بالحركة الخفيفــة لأن خطاب المذكر أكثر فالتخفيف به أولى من المؤنث الذى حرك بالكسرة (٢١) ، وقال أبو حيان : وهذه التعاليل لا يحتاج اليها لأنها تعليل وضعيات لا تعلل (٢٢)، ونقول نحن ان تعليلات النحويين العرب لضم ضمير المتكلم المتصل المرفوع قد تكون صحيحة من جهة أننا نجد ضم الضمير فى اللغــة العربيــة وفى اللغــات

---

(١٢) انظر كتاب برجستراسر : التطور النحوى للغة العربية ص ٢٦ و ٤٨ وكتاب : Jacob Barth, Pronominalbildung, s. 3. Carl Brockelmann, Grundriss der vergleichenden Grammatik der semitischen sprachen المجلد الاول ص ٢٣٩ و ص ٢٩٧

(١٣) انظر كتاب برجستراس : التطور النحوى ص ٢٥ — ٢٦

(١٤) انظر شرح الكافية ج ٢ ص ١٠

(١٥) انظر الجزء الأول من حاشية الصبان على الاشمونى ص ١٠١

(١٦) انظر شرح الكافية ج ٢ ص ٧ و ابن يعيش : شرح المفصل ج ٣ ص ٨٦ والسيوطى : همع الهوامع ج ١ ص ٥٦

(١٧) انظر : شرح الكافية ج ٢ ص ٧

(١٨) شرح المفصل ج ٣ ص ٨٦

(١٩) همع الهوامع ج ١ ص ٥٦

(٢٠) انظر شرح المفصل ج ٣ ص ٨٦

(٢١) انظر شرح الكافية ج ٢ ص ٧

(٢٢) انظر كتاب : السيوطى : همع الهوامع ج ١ ص ٥٦

لأكادية (٢٣) وفى اللغة الحبشية القديمة (٢٤) ، غير أن العلماء المحدثين قد لاحظوا أن تاء الفعل فعلت غير موجودة فى ضمير المتكلم المنفصل ، وقد قال علماء العرب ان ضمير المتكلم المنفصل كان يجب أن تكون فيه التاء الموجودة فى الفعل الماضى كتبت ، ولكنهم جردوه من العلامة لكى يميزوه عن المخاطب الذى فيه التاء (٢٥) ، ولكن الغرض الذى فرضه العرب غير صحيح لأننا اذا تتبعنا ضمير المتكلم فى اللغات السامية القديمة والحديثة لا نجد أى أثر للتاء فى أى صورة من صور الضمير الموجودة فى تلك اللغات بينما نجد أن بعض اللغات السامية كانت تستخدم الكاف ضميرا للمتكلم المرفوع ، وتوجد هذه الكاف فى ضمير المتكلم المنفصل المرفوع فى بعض اللغات السامية كاللغات الأكادية (٢٦) ، واللغة الأجريتية (٢٧) ، واللغة العبرية (٢٨) ، وكذلك فى اللغة المصرية القديمة وفى اللغة القبطية (٢٩) ، ومما لا شك فيه أن استخدام الكاف ضميرا متصلا للمتكلم المرفوع مع وجود الكاف فى ضمير المتكلم المنفصل المرفوع فى بعض اللغات السامية يدل على أن التاء الموجودة فى الفعل ( كتبت ) غير أصيلة بين الضمائر المتصلة ، كما يدل على أن الجماعات السامية القديمة كانت تستخدم الكاف ضميرا متصلا للمتكلم المرفوع ، وقد بقى ذلك الاستعمال وعاش فى اللغات الأكادية وفى اللغات الحبشية وفى اللغة الحميرية كما تصورها الكتب العربية (٣٠) ،

---

(٢٣) انظر كتاب : Wolfram von Soden, Grundriss der Akkadischen Grammatik, S. 98.

(٢٤) انظر كتاب Carl Bezold, Ethiopic Grammar, p. 205 (London 1807),

(٢٥) انظر كتاب : محمد بن حسن الرضى : شرح الكافية جـ ٢ ص ١٠

(٢٦) انظر كتاب : Wolfram von Soden, Grundriss der Akkadisthen Grammatik, 5. 41.

(٢٧) انظر كتاب : Cyrus H. Gordon, Ugaritic manual, p. 30.

(٢٨) انظر كتاب Le P. Paul Joüon, Grammaire de L'Hebren Biblique, p 90.

(٢٩) انظر كتاب : Jacob Barth, Pronominabildung. s, 4.
وكتاب Alan Gardner, Egyptian Grammar
وكتاب عبد المحسن بكير : قواعد اللغة المصرية ص ٢٤

(٣٠) جاء فى كتاب تاريخ صنعاء اليمن لاسحاق بن جرير الصنعانى لوحة ١٦٧ أن أم وهب بن منبه قالت : رايتك بنحلم كولدك ابنا من طيب ، والطيب الذهب بالحميرية ، قالت : رايت كانى ولدت ولدا من طيب (نسخة مصورة عن مخطوطة ببلدية الاسكندرية رقم ٣٦٨٢ ج ) وجاء فى الجزء الثامن من الاكليل =

وفى بعض لهجات جنوب بلاد العرب الحديثة كالمهرية والشحارية والسقطرية والبوتاحارية والحرسوسية (٣١) ، وكذلك فى قضاء حراز الواقع فى غرب صنعاء وفى قضاء الطويلة الواقع فى شمال غربى صنعاء (٣٢) ، ولكن اللغات السامية الأخرى ومنها اللغة العربية عدلت عن استخدام الكاف كضمير للمتكلم المرفوع . واستخدمت التاء قياسا على تاء المخاطب الموجودة فى الفعل الماضى كتبت ، وضمير المخاطب أنت ، وفرقت اللغة العربية وتلك اللغات بين تاء المتكلم وتاء المخاطب بالحركات فضمت تاء المتكلم وفتحت تاء المخاطب ، كما أن بعض الجماعات السامية الأخرى استخدمت الكاف ضميرا متصلا للمخاطب المرفوع قياسا على كاف المتكلم التى كانت موجودة قديما فى تلك اللغات واللهجات ، أى أن اللغات السامية القديمة كانت تفرق فى أول الأمر بين المتكلم والمخاطب بالحروف فجعلت الكاف للمتكلم والتاء للمخاطب ، ثم جانست تلك الجماعات العربية القديمة بعد ذلك بين المخاطب والمتكلم فى الحروف وفرقت بينهما بالحركات فاستخدمت اللغة العربية وغيرها من اللغات السامية الأخرى التاء للمتكلم وللمخاطب وقد ضمت تلك اللغات تاء المتكلم فى الفعل الماضى كتبتُ ، كما فتحت تاء المخاطب فى الفعل الماضى كتبتَ ، وجانست بعض الجماعات السامية الأخرى بين المتكلم والمخاطب فى الحروف فاستخدمت الكاف للمتكلم وللمخاطب وفرقت بينهما بالحركات فضمت كاف المتكلم فى الفعل الماضى ( كُنتكُ ) بمعنى كنت وفتحت كاف المخاطب فى الفعل الماضى كنتكَ = بمعنى كنتَ .

وتوجد فى كتب اللغة والنحو العربية بعض الشواهد التى تدل على أن بعض القبائل العربية كانت تستخدم الكاف كضمير متصل مرفوع للمخاطب فقد جاء فى الجزء الحادى عشر من كتاب تاريخ أنساب الأشراف وأخبارهم

---

= ( طبعة القاهرة ) ص ١٨٢ وكذلك فى كتاب ملوك حمير وأقيال اليمن ص ١٦٠ ( وهو شرح قصيدة نشوان الحميرى ) وفى RES رقم ٣١٨٢ ما يلى : انى سمعة ( أو شمعة ) بنت ذى مرائد كنك اذا وحمك = كنت اذا اشتهيت .

(٣١) انظر Marcel Cohen, Philological Note, in the book of Bertram Thomas, Four Strange Tongues, p. 105 وكتاب Bittner, Mehri-Sprache حـ ٥ ص ٤٢ وكتاب Bittner, Shauri-Sprache جـ ٤ ص ١٢

(٣٢) انظر : خليل يحيى نامى : من اللهجات اليمنية الحديثة ـ (المجموعة الثانية) مجلة كلية الآداب المجلد ١٥ الجزء الأول ص ١٠٧ ـ ١٠٨

للشيخ الامام أبي الحسين البلاذري ص ٤٨ ما يلي : وجعل أهل الشام يقولون وهم يرمون :

يا ابن الزبير طالما عصيكا ، وطالما عنيتنا اليكا ، لتحزنن بالذى أتيكا .

ومعنى طالما عصيكا هو طال ما عصيت ، أى ان الكاف فى هذا الرجز ضمير للمخاطب المتصل المرفوع وروى هذا الرجز أيضا فى كتاب النوادر فى اللغة لأبي زيد سعيد بن أوس الأنصارى ص ١٠٥ وهو منسوب لراجز من حمير ، غير أن المصراع من ذلك الرجز يروى هكذا : لنضربن بسفينا قفيكا ، كما جاء هذا الرجز أيضا فى الجزء الأول من سر صناعة الاعراب لابن جنى ص ٢٨١ ، وقد قال ابن جنى فى ذلك الكتاب بعد ذلك الرجز ما يلى : أبدل الكاف من التاء لأنها أختها فى الهمس وكان سحيم اذا أنشد شعرا جيدا قال : أحسنك والله ، يريد : أحسنت . وجاء ذلك الرجز أيضا فى شواهد خزانة الأدب لعبد القادر البغدادى فى باب الاضافة ، وقد روى عن أبى على فى المسائل العسكرية أن أبا الحسن الأخفش قال : ان شئت قلت أبدل من التاء الكاف لاجتماعها معها فى الهمس ، وان شئت قلت أوقع الكاف موقعها وان كان فى أكثر الاستعمال للمفعول لا للفاعل لاقامة القافية .

وروى البغدادى أيضا أن ابن هشام فى المغنى قال : ليس هذا من استعارة ضمير النصب مكان ضمير الرفع كما زعم الأخفش وابن مالك ، وانما الكاف بدل من التاء بدلا تصريفيا .

٤ — صاغت اللغة العربية ضمير المتكلمين على غير نسق صيغة المتكلم المفرد واستخدمته للمذكر وللمؤنث وللمثنى وللجمع على السواء ، وعلل لغويو العرب ونحويوهم ذلك بقولهم ان صيغة ( نا ونحن ) ارتجلت لمثنى المتكلم وجمعه لأنه لم يرد ضم متكلم الى متكلم ؛ كما أن التثنية هى عبارة عن ضم اسم الى اسم ولذلك لم يضعوا فى الضمير ألفا للمثنى وللجمع واوا كما هى الحال فى مثنى المخاطب وجمعه ومثنى الغائب وجمعه لأن مثنى كل ضمير منهما هو عبارة عن اسم ضم اليه لفظ آخر مثله ، أما الضمير ( نحن ) فليس كل أفراده متكلما أى ( أنا ) بل ان مثناه وجمعه يشملان المتكلم والمخاطب والغائب فتقول

فى المثنى مثلا ( أنا وزيد ) أو ( أنا وأنت ) كما تقول فى الجمع مثلا ( أنا وأنت وهو أو أنا وزيد وعمرو ) لذلك لم يثنوا الضمير ولم يجمعوه وفق ما أجرى عليه سائر الجموع والمثنيات بل ارتجل العرب القدماء صيغة لمثنى المتكلم وأشركوا الجمع فيها للأمن من اللبس بسبب القرائن (٣٣) .

٥ — واختلف علماء العرب فى علة بنائه على الضم فقال الفراء وثعلب انه بنى على الضم لأنه تضمن معنى التثنية والجمع فقوى بأقوى الحركات وهى الضمة (٣٤) ، وقال أبو اسحق الزجاج ان ( نحن ) للجماعة ومن علامة الجماعة الواو ، والضمة من جنس الواو ، وهى أقرب الحركات الى معنى الجمع (٣٥) ؛ وقال أبو الحسن الأخفش الصغير ان الضمير ( نحن ) للمرفوع لذلك حرك بحركة المرفوع (٣٦) ، وقال أبو العباس المبرد ان ضمير نحن شبه يقبل وبعد لأنه متعلق بشىء هو الاخبار عن اثنين فأكثر لذلك حرك بالضم كما حركت قبل وبعد لأنهما يصلحان للشىء وللشيئين فما فوقهما لذلك صارت ( نحن ) غاية كقبل وبعد (٣٧) .

وما سبق أن ذكرناه هو عبارة عن أهم الآراء التى قيلت فى تحريك ضمير المتكلمين بالضمة ، وأقرب هذه الآراء الى الحقيقة والصحة هو رأى أبى اسحق الزجاج الذى يقول ان الضمير ( نحن ) حرك بالضمة لأنها أقرب الحركات الى معنى الجمع لأن الضمة من جنس الواو التى هى علامة الجمع ، لأن المقارنات التاريخية للغات السامية تدل على أن ضمة الضمير ( نحن ) أصلها ضمة مشبعة أى واو وقصرت بعد ذلك الى ضمة لوقوعها فى نهاية الاسم ووقع النبرة عليها .

وتحريك الضمير ( نحن ) بالضمة أو بالضمة المشبعة أى بالواو التى هى علامة الجماعة يشبه تحريك ضمير المخاطبين ( أنتم ) وضمير الغائبين ( هم ) بالضمة أو بالواو فى حالة الوصل ، أى أن الضمير ( نحن ) عندما استخدمته

---

(٣٣) انظر : شرح المفصل لابن يعيش ج ٣ ص ٩٤ وشرح الكافية لمحمد ابن حسن الاسترابادى ج ٢ ص ٧ وتاريخ التطور النحوى لبرجستراسر ص ٤٩.
(٣٤) انظر همع الهوامع للسيوطى ج ١ ص ٦٠
(٣٥) انظر شرح المفصل لابن يعيش ج ٣ ص ٩٤ و همع الهوامع ج ١ ص ٦٠
(٣٦) انظر شرح المفصل لابن يعيش ج ٣ ص ٩٤ و همع الهوامع ج ١ ص ٦٠.
(٣٧) انظر شرح المفصل لابن يعيش ج ٣ ص ٩٤ و همع الهوامع ج ١ ص ٦٠.

الجماعات القديمة للدلالة على جمع ضمير المتكلم أضافت اليه العلامة التى أضيفت الى جمع ضمير المخاطب والغائب ، أى أن الواو التى قصرت الى ضمة فيما بعد كانت عند الجماعات السامية القديمة علامة من علامات جمع ضمائر المتكلم والمخاطب والغائب .

ومن الجائز أن يقال أيضا ان ألف ضمير المتكلمين المتصل ( نا ) هى التى جعلت علماء العرب يقولون ان ضمير المتكلمين ( نحن ونا ) أرتجل للمثنى وأشرك الجمع فيه للأمن من اللبس بسبب القرائن كما ذكرنا ذلك من قبل ، وذلك لأن الألف هى علامة التثنية فى ضمير المخاطبين ( أنتما ) و فى ضمير الغائبين ( هما ) .

وألف ( نا ) موجودة أيضا فى ضمير المتكلمين المنفصل فى بعض اللغات السامية وفى بعض اللهجات العربية الحديثة فنجد مثلا ( أنحنا ) فى آرامية العهد القديم وفى آرامية أوراق البردى المصرية ، كما توجد ( نحنا ) فى الترجوم [٣٨] . ( نِحْنَ ) فى اللغة الحبشية القديمة ( نحنا ) فى لغة تيجرينيا [٣٩] ، ( احنا ) فى اللهجات العربية الحديثة فى مصر وفى سوريا وفى العراق [٤٠] ، كما يقال أيضا ( نحنا و نِحنا ) فى سوريا وفلسطين [٤١] . وضمير المتكلمين المتصل فى معظم اللغات السامية هو ( نا ) كما هو فى لغتنا العربية ، غير أنه عبارة عن نون مضمومة ونون مكسورة فى اللغات الأكادية ، ونون وواو فى اللغة العبرية ، وقد يدل ذلك على أن الحركة النهائية للضمير فى اللغات السامية لا تتفق مع حركة الضمير المتصل .

٦ — توجد فى اللغة الأوجريتية صيغة لمثنى ضمير المتكلم المتصل وهى عبارة عن نون وياء [٤٢] ، وتستخدم هذه الصيغة أيضا فى اللغة المصرية القديمة لمثنى ضمير المتكلم المتصل ، وهذا مما قد يدل على أن المصريين القدماء

---

(٣٨) انظر كتاب : Jakob Barth, Pronominal Bildung in den Semitischen Sprachen ; Carl Brockelmann, Grundriss der vergleichenden Grammatik der semitischen Sprachen ص ٣٠٠

(٣٩) انظر كتاب بروكلمان السالف الذكر ص ٢٩٩

(٤٠) انظر كتاب بروكلمان السالف الذكر ص ٢٩٩

(٤١) انظر كتاب : G. R. Driver, A Grammar of the Colloquial Arabic in Syria and Palestine, p. 25.

(٤٢) انظر كتاب : Cyrus H. Gordon, Ugaritic manual ص ٣١ وكتاب Joseph Aistleitner, Untersuchungen zur Grammatik des Ugaritischen ص٢٧ و٢٩

والأوجريتيين كانوا يثنون كل الضمائر ولا يقصرون التثنية على ضميرى المخاطب والغائب كما فى اللغة العربية (٤٣) .

٧ — ومما سبق أن ذكرناه نقول انه من الجائز أن الجماعات السامية القديمة كانت تستخدم صيغتين لمثنى ضمير المتكلم وجمعه وهما :

(١) صيغة منتهية بواو بعد النون كما فى اللغة العبرية ، أو منتهية بنون مضمومة وهى موجودة فى اللغة العربية وفى اللغة الكنعانية القديمة كالفينقية .

(٢) صيغة منتهية بألف لينة بعد النون أو بنون مفتوحة وهى موجودة فى اللغات الآرامية وفى اللغات الحبشية وفى بعض اللهجات العربية الحديثة ، وقد كانت هذه الصيغة فى القديم عبارة عن ياء ساكنة مسبوقة بفتحة .

واستخدمت الجماعات القديمة الصيغة الأولى وهى صيغة ( أنحنو ، نحنو ، نحنُ nīnu ) (٤٤) لجمع ضمير المتكلم كما استخدمت الصيغة الثانية وهى صيغة ( أنحنا ، نحنا ، نحنَ ) لمثنى ضمير المتكلم ، وكان الضمير المتصل لمثنى المتكلم هو عبارة عن نونَ مفتوحة فياء وصار بعد ذلك نونا مفتوحة فألفا لينة أى (نا) ، وكان الضمير المتصل لجمع ضمير المتكلم هو عبارة عن نون مضمومة فواو ساكنة ، وقصرت بعد ذلك الى نون مضمومة ، أى أن تلك الجماعات السامية القديمة كانت تثنى ضمير المتكلم كما كانت تثنى ضميرى المخاطب والغائب ، ومما يؤيد ما نقوله أن الأوجريتيين وكانوا من الجماعات السامية القديمة ، قد ثنوا ضمائر المتكلم والمخاطب والغائب ، وكان يفعل كذلك المصريون القدماء الذين كانت تربطهم بالجماعات السامية صلات قربى وعلاقات عديدة .

٨ — وأخذت فكرة تثنية ضمير المتكلم تضعف عند الجماعات السامية القديمة وتتلاشى من الاستعمال للتخفيف أو لأسباب أخرى نجهلها ، غير أن

---

(٤٣) انظر كتاب : Cyrus H. Gordon, Ugaritic manual ص ٣١

(٤٤) انظر كتاب: Wolfram von Soden, Grundriss der Akkadischen Grammatik ص ٤١ و ٤٢ صيغة nīnu موجودة فى اللغة الآشورية القديمة وفى اللغة البابلية اى من سنة ١٩٥٠ الى سنة ١٥٣٠ قبل الميلاد ونجد فى البابلية المتوسطه وفى الآشورية التوسطة صيغا عديدة اخرى هى nīnu و nīni nēnu وذلك من سنة ١٥٣٠ الى سنة ١٠٠٠ قبل الميلاد ، ونجد فى البابلية الحديثة صيغة anēnu وهى تقابل صيغة انحنا الآرامية وكان ذلك من سنة ١٠٠٠ الى سنة ٦٢٥ قبل الميلاد .

فكرة تثنية ضمـير المتكلم ظلت آثارها باقيـة عند تلك الجماعات حتى القرن الرابع عشر قبل الميلاد كما يتضح ذلك من اللغة الأوجريتية التى احتفظت بالضمير المتصل لمثنى المتكلم ، وكان ذلك لكثرة استخـدام الضمائر المتصلة ولكثرة شيوعها على ألسنة الجماعات وتداولها بينهم .

٩ ـ استخدمت بعض الجماعات السامية القديمة صيغة الضمير المتصل لمثنى المتكلم للدلالة على الجمع أيضا لأن صيغة المثنى كانت شائعة بين الناس لخفتها وسهولتها ، كما كانت كثيرة التداول على ألسنتهم مثل ni و ne فى اللغات الأكادية القديمة (٤٥) . واستخدمت بعض الجماعات القـديمة صيغة الضمير المنفصل لمثنى المتكلم وهى ( أنحنا ونحنا ونحن ) وأشركت الجمع فيـه ، كما احتفظت بعض الجماعات الأخرى بصيغة الجمع وهى ( nīnu ونحن وأنحنو ) وأشركت المثنى فيه . واستخدمت اللغة العربية صيغة الضمير المتصـل لمثنى المتكلم وهى صيغة ( نا ) للدلالة على الجمع أيضا مع أنها احتفظت بصيغة الجمع لضمير المتكلم المنفصل وهى صيغة ( نحن ) للدلالة على التثنية أيضا ، وكذلك كان يفعل الأكاديون القدماء والبابليون والآشوريون (٤٦) ؛ فقد كان ضمـير المتكلم المنفصل الجمع عندهم هو nīnu وكان الضمير المتصل لمثنى المتكلم عندهم هو ni و ne ، وبهذا القول نكون قد انتهينا من مناقشة آراء العرب فى ضمير المتكلم الجمع والادلاء برأينا فيه .

(٤٥) انظر كتاب Von Soden السابق الذكر ص ٤٢ و ٤٤
(٤٦) انظر كتاب Von Soden السابق الذكر ص ٤١ و ٤٣–٤٤

# مكانة الفن الاسلامى بين الفنون

للدكتور محمد عبد العزيز مرزوق

لا شيء مثل الفن الجميل يصفى الذوق ، ويرهف الحس ، ويذكى فى النفس حب الجمال . وتصفية الذوق ، وارهاف الحس ، واذكاء حب الجمال أمور لا غنى لأى أمة عنها ان شاءت أن تتبوأ مكانا كريما بين الأمم الراقية .

ولقد أدرك أجدادنا من المسلمين هذه الحقيقة فوجهوا للفن نصيبا وفيرا من عنايتهم ، وكان من أثر هذه العناية أن أصبح لهم فن جميل أبدعوه أيام عظمتهم هو ذلك الفن الذى اصطلح على تسميته بالفن الاسلامى .

ولقد أتى حين من الدهر لم يكن فيه هذا الفن شيئا مذكورا ، ولم تكن له بين فنون الفراعنة واليونان والرومان والساسان والبيزنطيين وغيرها من فنون الأمم التى سبقت المسلمين أو لحقت بهم مكانة ملحوظة . ولعل ذلك راجع الى أن معرفتنا بالحضارة الاسلامية كانت حتى فجر القرن التاسع عشر الميلادى لا تتجاوز ما سجلته كتب التاريخ ، فلما ولد علم الآثار واستقام عوده [1]

---

(1) دراسة الآثار القديمة لم تعرفها الأمم القديمة ولم تهدف اليها ، بل هى ثمرة من ثمار المدنية الأوربية الحديثة . وقد تجلت أولى خطوات هذه الدراسة فى اقتناء التحف المختلفة التى ابدعتها الأجيال القديمة ، وكان المسلمون أول من عنى بجمع هذه التحف وترتيبها فى مكان واحد فكان لهم بذلك فضل انشاء أول متحف أثرى ، وخير مثال نسوقه لبيان ذلك هو متحف الخليفة الفاطمى المستنصر بالله الذى كان يعيش فى القاهرة فى القرن الخامس الهجرى ( الحادى عشر الميلادى ) . وقد كان لهذا المتحف أهم الخصائص التى للمتحف الأثرية كما نعرفها اليوم ولم يختلف عنها الا فى الغرض من انشائه . فقد انشأه المستنصر للمباهاة والافتخار ولم يهدف فى تكوينه الى أن يجعله مكانا للدرس أو للترويح عن النفس كما هو الحال فى المتاحف اليوم . ولم يعرف الغربيون المتاحف الا بعد أن عرفها العرب بنحو خمسة قرون اى قبيل القرن السادس عشر الميلادى عندما استيقظوا من سباتهم فى تلك الفترة التى اصطلح المؤرخون على تسميتها بعصر النهضة الأوربية . واخذوا ينظرون الى التراث الفنى لليونان والرومان نظرة اعجاب امتزجت فيها عوامل التقديس =

انصرف فريق من العلماء الى دراسة الفن الاسلامى كما يتجلى فى العمائر والتحف المنقولة دراسة علمية صحيحة ، وبدأت بعد ذلك تظهر مكانته بين الفنون فى وقت كان المسلمون أنفسهم فيه فى غفلة عن هذا التراث وأهميته .

ترى كيف نشأ هذا الفن ؟ وأين تقع مكانته بين الفنون التى سبقته أو لحقت به ؟

الجواب على ذلك يقتضينا أن نعود الى الوراء لنرى الاسلام الذى ينسب اليه هذا الفن عند أول اشراقه على الوجود ثم نمضى عبر السنين مع الذين اعتنقوه لنرى كيف أخذ يتكون حتى نصل الى العصر الذى اكتملت فيه شخصيته ، وبدأ يفصح عن نفسه ويترك فى المحيط الذى قدر له أن يعيش فيه أثرا واضحا .

والعرب الذين ظهر الاسلام بينهم عرف معظمهم منذ نشأتهم بالبداوة والسذاجة ، وجاء الاسلام معبرا بأصوله ومبادئه عن هذه الصفات التى انعكست بأوضح صورة فيما أقاموه فى فجر حياتهم بعد الاسلام من مساجد وفيما أخرجته أيديهم حينئذ من مصنوعات .

---

= التى اكتسبها هذا التراث بحكم القدم مع عوامل التقديس التى استحقها لأنه من صنع أولئك الذين اتخذوهم لهم قادة فى حياتهم الجديدة يسيرون على هديهم وينسجون على منوالهم . وفى القرن الثامن عشر الميلادى فى عهد الثورة الفرنسية التى هدمت الحواجز الفاصلة بين طبقات المجتمع الفرنسى اصبحت قصور الملوك والاشراف بما حوته من تحف أثرية ملكا للشعب ، وانقلب قصر اللوفر بما فيه من نفائس شتى جمعها ملوك فرنسا فى العصور المختلفة الى متحف أهلى عظيم ، وفى هذا القرن بالذات بدات الخطوة الثانية من خطوات دراسة الآثار اذ اخذ فريق من العلماء يعنون بالبحث فى هذا التراث القديم فولد بذلك علم الآثار بين جدران المتاحف اولا ثم اتسعت دائرته فشملت دراسة العمائر القديمة ، ثم زادت الساعة فاتجه العلماء الى التنقيب عن آثار الماضى فى مظان وجودها ، ثم ظهر التخصص فى هذا العلم واتجه فريق من الباحثين الى دراسة التراث الفنى للمسلمين والى التنقيب عنه ولم يتركوا جانبا من جوانب هذا التراث الا قتلوه بحثا ، ومؤلفاتهم وحفائرهم ومؤتمراتهم ومعارضهم ومتاحفهم خير دليل على ذلك .

وفيما يتعلق بالتحف التى خلفها المستنصر راجع خطط المقريزى (طبعة بولاق) ج ١ ص ٤٠٨ — ٤٢٥ وكنوز الفاطميين للدكتور زكى محمد حسن ( من مطبوعات المتحف الاسلامى بالقاهرة ص ٢٧ — ٦٥ . وفيما يتعلق بالنهضة الاوربية راجع كتاب سيدنى دارك الذى ترجمه محمد بدران ( من مطبوعات بيت المغرب ) . وفيما يتعلق بنشأة المتاحف الأوربية راجع كتاب Sir Fredric Kenyon, Libraries and Museums, pp. 54-65., : London, 1930.

خرج العرب من صحرائهم غزاة فاتحين ، وارتفعت أعلام الاسلام فوق ربوع فارس والعراق والشام ومصر والمغرب والأندلس واستطاعت هذه الأمة التى خرجت وليس عندها من مقومات الحياة الاجتماعية الا عناصر بسيطة — أن تنتصر بفئتها القليلة وحضارتها الساذجة على تلك الأمم العريقة فى الحضارة . ولم تستخفها نشوة ذلك النصر المبين فتدفع بها الى تقويض دعائم النظم التى وجدتها قائمة فى تلك البلاد التى فتحتها ، ولا أغرتها حلاوة الظفر بالقضاء على ما لم يكن مألوفا لديها أو متفقا وآراءها ، أو منسجما ومذاهبها فى الحياة ، بل هدتها فطرتها السليمة ومرونتها المحمودة الى تثبيت النظم التى كانت سائدة فى تلك البلاد ما دامت لا تتعارض والمبادىء العليا التى أتى بها الاسلام . وتلك لا شك ميزة من مزايا العرب اكتسبوها — أغلب الظن — من بيئتهم الجغرافية الفقيرة ، فتلك الصحارى القاحلة التى عاشوا فى جنباتها والواحات القليلة التى لم تكن حاصلاتها لتسد رمق أهلها ، والحشائش الذابلة المنبثة هنا وهناك لتكفى فى يسر لرعى حيواناتها مما دفع بالعرب الى الاشتغال بالتجارة مع الرعى . وقد مهد لهم الاشتغال بالتجارة سبيل الاختلاط بغيرهم من الأمم والاطلاع على حضارتهم الأمر الذى علمهم احترام أديان غيرهم فقل تعصبهم ، كما أكسبهم أيضا مرونة فى أخلاقهم فصار لهم استعداد واضح لقبول الجديد اذا ما اقتنعوا بفائدته (٢) .

وما كاد العرب يضعون عن كواهلهم عتاد الحرب ، ويخلدون الى السكينة والسلم حتى تدفقت عليهم الثورة من كل حدب وصوب ، وهموا يخرجون من بداوتهم ولكن أبابكر وعمر كانا لهم بالمرصاد فكبحا جماحهم ما استطاعا الى ذلك سبيلا ، وجاء عثمان وكان حييا لينا لم يرزق قوة أبى بكر ولا حزم عمر

---

(٢) لعل هذه الميزة تبدو واضحة جلية اذا ما قارنا بين العرب والأتراك ، فالعرب كما ذكرنا اضطروا بسبب فقر بيئتهم الى الاشتغال بالتجارة ، اما الأتراك فقد اكتفوا بالاشتغال بالرعى لأن بيئة المراعى التى نشأوا فيها قد أغنتهم بخيراتها عن الاشتغال بغير الرعى فاستقلوا فى جميع شئونهم عن العالم الخارجى واصبحوا متعصبين لدينهم وعقائدهم ، شديدو المحافظة على عاداتهم ، يحتقرون غيرهم ويؤمنون بأنهم افضل الأمم . والتاريخ خير ما يؤيد هذه الحقيقة الجغرافية فالعرب افقدونا فى مصر لغتنا ودين الأغلبية منا ، وطبعونا بطابعهم بينما الأتراك دخلوا وخرجوا منها وكأنهم لم يقضوا بها تلك الحقبة الطويلة التى قدر لهم ان يحكموا فيها بلادنا .

فأفلت الزمام من يده ، وكانت البيئات الجديدة التى استقر بها العرب قد أثرت فى نفوسهم فاندفعوا الى الترف يأخذون منه بأوفى نصيب وحرصوا على الاستمتاع بالحياة ومتعها المشروعة فتأنقوا فى مأكلهم وملبسهم واستبدلوا دورهم القديمة الساذجة بقصور فخمة شاهقة ، رشيقة التكوين ، موزونة الأبعاد ، منمقة الجدران ، وكأنما أحسوا وهم يستمتعون بهذه الحياة الجديدة التى رفت عليهم فيها ظلال الدعة والترف ــ بما بين بيوتهم وبيوت الله من بون شاسع وفارق عظيم ، وتذكروا قول الله عز وجل : « فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه » (٣) فأقبلوا على المساجد يرفعون من شأنها بتشييدها وتنميقها اجلالا لها وتعظيما لقدرها ، وبعدا بها عن مواطن الاستهانة اذا ما قورنت ببيوتهم الجميلة أو بتلك الكنائس الفخمة التى شاهدوها فى البلاد التى أخضعوها لسلطانهم . وقد كان مسجد المدينة المنورة أول مسجد يلبس على يدى الخليفة الثالث عثمان بن عفان ثوبا من الجمال قشيبا اذ بناه بالحجارة المنقوشة والقصة ( أى الجص ) ، وجعل عمده من حجارة منقوشة وسقفه بخشب الساج وحسنه (٤) .

وتزيين المساجد والباسها حلة من البهاء والأبهة مسألة حاول بعض المستشرقين وعلماء الآثار من الأجانب أن يرجعوها الى عوامل سياسية فردوها الى ذلك الدور الذى كانت تلعبه المساجد فى الحياة السياسية فى صدر الاسلام اذ فيها كان يبسط الحاكم سياسته ، ويدعو الناس اليها طورا بالترغيب وانا بالترهيب ؛ ولكى يذيع وجهة نظره فى الحكم ، ويؤيدها ويقيم الدليل على صلاحيتها أمام أكبر عدد ممكن من الرعية عمل على تجميل مسجد العاصمة ليستهوى النفس ويروق فى العين ويغرى المسلمين بالسعى اليه تاركين وراءهم مساجدهم المحلية الساذجة البسيطة (٥) .

---

(٣) سورة النور ــ آية ٣٦

(٤) Creswell (K. A. C.), Early Muslim Architecture, Vol. I, p. 31. (The University Press, Oxford, 1932).

والمراجع التى يشير اليها .

(٥) انظر ما كتبه كرزول فى كتابه المذكور فى الفقرة السابقة ( ص ٣٥ ) والمراجع التى يشير اليها فى تلك الصفحة .

على أنه ان صح أن للعامل السياسى أثر فى ذلك فأنه وحده لا يكفى لتعليل هذه المسألة ولا ينهض بمفرده دليلا عليها ، بل هو لا يكاد يعدو أن يكون عاملا مساعدا فحسب ؛ ذلك لأن مسألة زخرفة المساجد لا نرى فيها من التعقيد ما يحمل على التماس العلل لها ، بل هى أمر طبيعى اقتضته سنة النشوء والارتقاء ، فلقد أذن الله أن ترفع المساجد أى تعظم بيوته ، ومن وسائل هذا التعظيم تشييدها على أحسن وجه ممكن وزخرفتها فى أبهى صورة مستطاعة لتملأ أقطار العين بروعتها وجمالها ، وتفرض على النفس اجلالها واحترامها (٦) .

وهكذا ولد الفن الاسلامى فى عصر الخليفة الثالث عثمان بن عفان الذى خرج بمسجد المدينة عن بساطته القديمة وجعل منه أثرا جميلا يسر بمرآه الناظر .

ولقد شجع المسلمون على العناية بالتجميل أو بعبارة أوضح على العناية بالفن الجميل وأغراهم به ما وجدوه فى الاسلام من تسامح فى كل ما يتصل بمباهج الحياة ومتعتها ما دامت لا تتعارض مع أصوله فى شيء ، وما دامت لا تخرج عن دائرة الاعتدال ؛ ولقد وقف الاسلام على طبيعة الانسان ، وعلم ما يضطرب بين جنبيه من نزعات ، وما ركب فيه من غرائز وميول فلم يحاول كبتها بالزامه الوقوف عند حد الضرورى اللازم لبقائه بل تركه يلبى ما تنطوى عليه نفسه من غرائز السمو دون أن يعترض سبيله أو يحد من نشاطه فمهد له بذلك سبيل الوصول الى ذروة التقدم المادى . لقد ذكره القرآن الكريم بالحياة الدنيا وما لها عليه من الحق : « وابتغ فيما أتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله اليك » (٧) ولقد بصره القرآن بما فى الوجود من زينة وحببها اليه . « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق » (٨) . فليس الاسلام اذن دين تقشف وخشونة كما يذهب

---

(٦) راجع كتاب مساجد القاهرة قبل عصر المماليك لكاتب هذا البحث ــ الطبعة الثانية ص ٢١ ــ ٢٣
(٧) سورة القصص آية ٣٧
(٨) سورة الاعراف آية ٣٢

الى ذلك بعض الناس ، وليس المثل الأعلى فيه هو الزهد فى زينة الحياة الدنيا ، بل هو يدعو مع العبادة الى العمل على الرقى ، والى انتهاج كل سبيل الى التقدم المعنوى والمادى .

لقد لفت القرآن أنظار المسلمين الى ما يحيط بهم من المخلوقات ، ودعاهم الى النظر اليها والى التأمل فى شأنهـا . « قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق » (٩) . « أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء » (١٠) . وهو بهذه الدعوة انما يشحذ فيهم قوة الملاحظة وقوة التفكير وقوة التدبر وهى جميعا عماد الحضارة والفن فلا عجب اذا اندفع المسلمون فى سبيل الفن بنفوس راضية وأقبلوا عليه بقلوب مطمئنة . نعم لقـد كان النبى صلوات الله عليه ــ وهو المثل الأعلى للمسلم الصحيح ــ شـديد الزهـد فى الماديات ، ولكنه كان على زهده شديد الحرص على أن يحيط بهذه الماديات ويلم بها ، كان زاهدا فى اللباس ولكن هذا الزهد لم يمنعه من أن يرتدى فى بعض الأحيان من أقمشة اليمن لباسا فاخرا ، وكان متقشفا فى طعامه ولكن تقشفـه هذا لم يحل بينه وبين أن يأكل ــ فى بعض الأحيان ــ من فاخر الأطعمة كالعسل وزند الخروف والحلوى . على أنه لا ينبغى أن ننسى هنـا أن النبى الكريم كانت له حكمة بالغة فى أن يغلب زهده على تمتعه بطيبات الحياة ، فقد اخشوشن فى معيشته لكى يضرب للناس المثل الأعلى فى السيطرة على متع الحياة الدنيا سيطرة لا يتسرب اليها ضعف أو وهن .

فالمسلمون اذن لم يجدوا فى دينهم ما يحول بينهم وبين الاقبال على الفنون الجميلة فى شتى صورها . والواقع أن الاسلام قد وقف من تلك الفنون موقفا يختلف عن موقف اليهودية أو المسيحية . فاليهودية قد وقفت من بعض مظاهر الفنون الجميلة موقف العداء السافر فحرمت على معتنقيها مزاولة فن النحت والتصوير (١١) . والمسيحية دعت الى ترك الدنيا والتجرد منها والانقطاع الى

---

(٩) سورة العنكبوت آية ٢٠

(١٠) سورة الأعراف آية ١٨٥

(١١) جاء فى التوراة الاصحاح العشرين من سفر الخروج « لا تصنع لك تمثالا منحوتا ولا صورة ما مما فى السماء من فوق وما فى الأرض من تحت وما فى الماء من تحت الأرض . ولا تسجد لهن ولا تعبدهن لأنى انا الرب الهك اله غيور » .

الآخرة والاقبال عليها ومثل هذه الدعوة ليس فيها ما يشجع على قيام الفنون الجميلة وازدهارها لأن تنكر جمال هذه الدنيا وتطالب بكبت ما فى الانسان من ميول وغرائز لذلك لم تبتدع المسيحية فنا جميلا الا اذا سمينا الرموز التى رسمها المسيحيون الأوائل فى السراديب والكهوف Catacombs كالسمكة والحمامة والراعى فنا . ولكن المسيحية عندما ثبتت أصولها واعترفت الدولة الرومانية بها وأقبل الناس على اعتناقها استعانت بالفن الرومانى فى نشر عقائدها وتقريبها الى معتنقيها (١٢) . أما الاسلام فلم ينكر الفنون الجميلة كما أنكرتها اليهودية ولم يستفد بها فى نشر دعوته كما استخدمتها المسيحية ولكنه تضمن توجيهات مختلفة كان لها أبعد الأثر فى تكوين الفن الاسلامى وفى نضوجه (١٣).

وقد ازداد انصراف المسلمين فى عصر الدولة الأموية الى الحياة المدنيـة ، وأبدعوا فيما أبدعوا فنون العمارة والنقش والخط والحفر والنحت والتصوير والزخرفة وما اليها ، واستعانوا فى ذلك ــ فى أول أمرهم ــ بمن وجـدوه بين أيديهم من فنانى وصناع الأمم التى خضعت لهم ، فعمل هؤلاء فى تشييد المساجد والقصور وفى صناعة الخزف والمنسوجات وفى نقش المعادن والعاج والأخشاب. والتأمل فيما وصل الينا من الأبنية والتحف التى ترجع الى هذا العصر لا يترك مجالا للشك فى أنها جميعا تزدان بفن هو مزيج من فن الروم فى بيزنطة وشمال افريقية ، وفن الفرس فى ايران والعراق ، وفن القبط فى مصر ، وفن القوط فى

---

(١٢) راجع الاسلام والفنون الجميلة لكاتب هذا البحث ص ٩ مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٤٤ . وراجع ايضا بحث الاستاذ احمد محمد عيسى امين مكتبة جامعة القاهرة فى مجلة الأزهر ــ شوال ١٣٧ ( سنة ١٩٥١ ) بعنوان « المسلمون والتصوير » .

(١٣) هذه التوجيهات بعضها ايجابى مثل تشريف الخط ، وتفضيل الزخارف النباتية والهندسية ووصف قصور الجنة . وبعضها سلبى مثل تحريم الربا وكراهية التصوير وتنظيم استعمال الذهب والفضة والحرير . وبعضها عوامل مساعدة استمدت اصولها من الدين وكان لها اثر فعال ــ وان كان غير مباشر ــ فى تكوين الفن الاســلامى مثل النقابات والحسبة والوقف ( راجع ص ١٠ ــ ٢٥ من كتابنا « الاسلام والفنون الجميلة » )ونستطيع ان نضيف الى ما تقدم عامل آخر لم نذكره من قبل هو الحج الذى هو فى الحقيقة أمر صادر الى الأغنياء للسفر الى مكة حيث يجتمعون بغيرهم من المسلمين فى الأقطار الأخرى فيتبادلون السلع المختلفة عن طريق التجارة او الاهداء ويحملون هذه السلع الى بلادهم فتؤثر فى مصنوعاتهم . وقد يكون الحجاج انفسهم من أهل الصناعة فيتناقشون فى شئونها وقد يتبادلون اسرارها .

الأندلس . فالفن الاسلامى الذى شاهدنا مولده فى عهد عثمان بن عفان قد شب الآن عن الطوق ولكن شخصيته لم تتحدد بعد .

وسقطت الخلافة الأموية فى الشرق وقامت على أنقاضها الخلافة العباسية فى العراق ، وقام الى جانب هذه خلافة ثانية فى الأندلس وخلافة ثالثة فى مصر . واذا كان الفن الاسلامى لم ينضج فى عهد الدولة الأموية الشرقية كما قدمنا فهو الآن قد استقام عوده وتحددت معالمه واكتملت شخصيته ، اذ سرعان ما حذق المسلمون ما أخذوه من فنون الأمم السابقة عليهم وتمثلوه وأضافوا اليه وهذبوا فيه ثم أخرجوا لنا بعد ذلك فنا جميلا فيه للفكر متعة وللعين روعة ، وللنفس لذة وغبطة ، أبدعوا ذلك الفن الذى أثر فى فنون أوربا أثرا اعترف به علماء الآثار ومؤرخو الفن من الغربيين قبل أن نفطن اليه نحن معشر الشرقيين . فالفن الاسلامى قد اعتمد فى نشأته على فنون الأمم التى سبقته الى الوجود ولكنه ما كاد يتفتح عن أكمامه ويتضوع عبيره حتى أخذ بدوره يؤثر فى الفنون التى عاصرته أو أتت بعده ويسعى ليأخذ مكانه بينها .

ولكننا قبل أن نفصل القول فى مدى هذا التأثير وبيان هذه المكانة نرى من الضرورى أن نقف قليلا متسائلين كيف تسرب الفن الاسلامى الى أوربا واستطاع أن يؤثر فى فنونها ويأخذ مكانه بينها .

الواقع أنه نفذ اليها عن طريقين رئيسيين : طريق السلم وطريق الحرب . أما عن طريق السلم فقد عرفه الحجاج الأوروبيين عند زيارتهم لقبر السيد المسيح فى بيت المقدس ، ولا يغيب عن الذهن أن عدد هؤلاء الحجاج لم يكن فى العصور الوسطى قليلا فقد كانت سيطرة الدين حينئذ على النفوس قوية عظيمة ، وكان الناس أكثر اشتغالا بأمور دينهم عما هم عليه الآن . كما عرفه أيضا التجار من الأوروبيين عندما تبادلوا سلعهم مع سلع التجار من المسلمين الذين وفدوا الى بلادهم يحملون اليها أجمل ما أخرجته مصانع بلادهم (١٤) من شتى المصنوعات الشرقية وأفخم ما أبدعته أنوالهم من أجمل المنسوجات والطنافس ( أى الأبسطة ذات الخمل Pile Carpets ) وثمت وسيلة أخرى قد

---

(١٤) Kramers (J. H.), Geography and Commerce, p. 100. The Legacy of Islam, Oxford University Press, 1947.

نكون أقل شأنا من الوسيلتين سالفتى الذكر ولكن من العسير اغفالها تلك هى الهدايا التى كان يبعث بها الخلفاء والسلاطين فى المناسبات المختلفة الى ملوك أوروبا وأمرائها .

وهكذا عرف الأوروبيين الفن الاسلامى ممثلا فى التحف المختلفة التى تقلوها من الشرق أو نقلت اليهم ، ولكنهم فى الواقع قد ازدادوا معرفة بهذا الفن عندما غزت جيوش المسلمين بعض أنحاء قارتهم : ففى الأندلس ، وفى جنوب فرنسا ، وفى صقلية ، وفى جنوب ايطاليا ، وفى بولنده ، وفى اليونان عاش المسلمون ردحا من الزمن اختلفت مدته باختلاف الظروف التى أحاطت بهم ، وشيدوا لأنفسهم فى تلك البلاد العمائر المختلفة من مساجد وقلاع وأسوار وقصور ضاع الكثير منها ولم يبق الا القليل ، وقد طعموا الفن المحلى الذى كان سائدا وقت سيطرتهم بالكثير من عناصر فنهم ، ولقد توفر بعض علماء الآثار من الغربيين والشرقيين على دراسة تلك العناصر المعمارية التى تسربت من الفن الاسلامى الى فنون أوربا ، وجلوها على الناس فى صورة واضحة لا يتسرب اليها الشك (١٥) .

ومن خير الأمثلة على عناية الأوروبيين بدراسة العمائر الاسلامية خروج المهندس الانجليزى جونز ( Ouen Jones ) من انجلترا عام ١٨٣٤ الى أسبانيا لدراسة قصر الحمراء القائم فى مدينة غرناطة بالأندلس حيث قضى مدة طويلة مواصلا دراسة هذا القصر العظيم من حيث التصميم والزخرفة ، وقد أخرج لنا بعد دراسة استغرقت ثمانى سنوات مؤلفه العظيم عن هذا الأثر الاسلامى المنعدم النظير الذى تتجلى فيه دقة التصميم ، وجمال الصنع ، ورقة الزخرفة ، وبهجة المنظر (١٦) .

(١٥) كتب برتو فى سنة ١٨٩٥ عن الفن الاسلامى فى جنوب ايطاليا .
Bertaux (E.), Les Arts de l'Orient Musulman dans l'Italie Meridionale
وكتب الدكتور احمد فكرى فى سنة ١٩٣٤ بالفرنسية عن الفن الاسلامى فى جنوب فرنسا
Fikry (A.), L'Art Roman de Puy et les influences Islamiques.
ونشر مانكوسكى بحثا عن الفن الاسلامى فى بولنده فى مجلة جامعة متشجان
Mankowsky (T.), Influences of Islamic Art in Poland, Ars Islamica, Vol. II pp. 93-117.

(١٦) Jones (O.), Plans, Elevetaion, Sections and details of the Alhambra, London, 1842-1848, 2 vols.

ولقد لعبت الحروب الصليبية فى هذا الصدد دورا هاما ، فقد غزت جيوش أوربا بلاد الشرق ، ورأى الأوربيون عن كثب معالم الحضـارة الاسـلامية ، والآثار العظيمة للفن الاسلامى ، وآمنوا عن يقين أن العرب قد وصلوا الى ذروة التقدم والرقى ، وليسوا برابرة متأخرين كما كانوا يظنون . فعن طريق هـذا الاتصال وعن طريق الأمارات الأوربية التى أسسها الصليبيون كنتيجة لتلك الحروب فى بيت المقدس وفى بعض مدن الشام والتى استمرت فترة من الزمن اتسعت دائرة معرفة الأوربيين بالفن الاسلامى اتساعا عظيما .

ولا يتسع المجال الآن لكى تتقصى جميع النواحى التى نلمس فيها أثر الفن الاسلامى فى فنون أوربا حتى تقف على مكانته بين هذه الفنون ولذلك سنكتفى بالاشارة الى البارز منها فحسب ، ويمكن للقارئ الراغب فى الاستزادة فى هذا الموضوع أن يرجع الى الفصل الذى عقده الأستاذ ميجون فى آخر الجزء الثانى من كتابه الجامع عن الفن الاسلامى (١٧) . والى الفصل الذى عقـده الدكتور زكى محمد حسن فى كتابه « فنون الاسلام » عن أثر الفنون الاسلامية فى فنون الغرب والمراجع القيمة الكثيرة التى أشـار اليها فى هـذا الكتاب عن هـذا الموضوع (١٨) .

ولعل فى استعراض فنون العمارة والخط والزخرفة والخزف والمنسوجات ما يجلو علينا هذا الأثر بصورة واضحة لا لبس فيها ولا ابهام .

أما العمارة فقد بلغ المسلمون فيها شأوا بعيدا ، وربما كان للدين الاسلامى بعض الفضل فى هذا التقدم فقد وصف القرآن جنات النعيم التى أعدت للمتقين وصفا شيقا لعله كان مبعث الوحى للمسلمين فيما شيدوه من عمائر ، فعلى سبيل المثال لا الحصر نشير الى ما جاء فى سورة العنكبوت « والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفا تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها نعم أجر العاملين » (١٩) . وما جاء فى سورة الزمر « لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف

---

(١٧) Migeon (G.), Manuel d'Art Musulman, Paris, 1927, p. 403-411.

(١٨) راجع ص ٦٥٥ وما بعدها ــ ثم المراجع المختلفة الواردة فى ص ٧٠١ عن هذا الموضوع .

(١٩) سورة العنكبوت آية ٥٨

من فوقها غرف مبنية تجرى من تحتها الأنهار ، وعد الله ، لا يخلف الله الميعاد »(٢٠)
وتشير الكتب العربية القديمة الى المدن الاسلامية التى ازدهرت فى العصور الوسطى ، وتصف لنا ما كان فى هذه المدن من قصور شاهقة . وقد كنا فى فجر هذا القرن تتقبل هذا الوصف بكثير من الحيطة والحذر لما عرف عن كتابنا القدامى من المبالغة والاطناب ، ولكن عندما تقدم علم الآثارالا سلامية وظهرت بعض هذه القصور بفضل الحفائر الأثرية عدلنا عن موقفنا السابق وازددنا ثقة بمؤرخينا السابقين عندما ثبت لنا أنهم فيما وصفوه لم يتخطوا سياج الصدق والاعتدال .و قد أفلت من يد الدهر ذلك القصر العظيم الذى شيده بنو الأحمر فى مدينة غرناطة بالأندلس ، وهو بغرفه الفسيحة ، وقبابه الرشيقة العالية ومياهه المتدفقة الجارية ، وحدائقه اليانعة ، وزخارفه الرائعة خير شاهد على تقدم فن العمارة ونضوجه عند المسلمين . ولقد ابتدعوا كثيرا من العناصر المعمارية ، كما حسنوا فى كثير من العناصر التى ورثوها عمن تقدمهم ثم أثروا بهذه وتلك فى فن العمارة عند الأوربيين ، ويكفى أن نذكر أن بعض أنواع العقود والشرفات والمآذن التى لا تزال قائمة فى بعض المبانى الأوربية فى جنوب فرنسا وفى صقلية وفى بعض نواحى اسبانيا تشهد بهذا التأثير وتنطق به .

أما فن الخط فقد سما به الفنان المسلم الى أعلى درجة من الاجادة ، ولا غرو فهو وثيق الصلة بالدين ، أقسم به الحق فى كتابه الكريم فى سورة القلم « ن والقلم وما يسطرون » وشرفه عندما أضاف تعليمه الى نفسه اذ يقول فى سورة العلق « اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم » . وقد نسب علماء التصوف — على حد قول ابن خلدون فى مقدمته — الى الحروف العربية أسرارا خفية ، فهى تجلب — كما يقولون — الخير والبركة (٢١) وقد دفعت هذه العقيدة بالفنانين من المسلمين الى تزيين ما أخرجته أيديهم من المصنوعات وما شيدوه من العمائر بالآيات القرآنية وبالعبارات الدينية ، وبالصيغ المختلفة للمدح أو الدعاء . وقد ترتب على ذلك أن أصبح الخط العربى مضروبا مشتركا فى جميع فروع الفن الاسلامى : نراه على الخزف ونراه على الخشب ،

(٢٠) سورة الزمر آية ٢٠
(٢١) مقدمة ابن خلدون ص ٤٣٩ — ٤٤٥ ( المطبعة البهية المصرية ) .

ونراه على العاج وعلى الزجاج ، ونراه على المنسوجات ونراه على جدران المساجد والقصور . ولقد استطاع الفنان المسلم بحذقه أن يخلق من الحروف العربية ذات الأشكال النباتية والأوضاع المختلفة طرازا زخرفيا تبدو فيه صور من الجمال شتى : بعضها يفيض بالقوة وبعضها يفيض بالرقة . وعندما شاهد الفنانون الأوربيون هذا الخط فى أوربا وفى الشرق أعجبوا به فقلدوه ، ونقلوا بعض العبارات العربية نقلا صادقا دون أن يعرفوا ما تحمله وراءها من المعانى ولم يمنعهم جهلهم هذا من أن يتخذوا من هذه العبارات أداة لتزيين مصنوعاتهم. ولقد أشار كريستى فى مقاله عن الفنون الاسلامية وتأثيرها فى الفنون الأوربية المنشور فى كتاب تراث الاسلام (٢٢) الى مثال ظريف فى هذا الصدد هو ذلك الدينار الذهبى الموجود فى المتحف البريطانى والذى يحمل على أحد وجهيه كتابة كوفية نصها « لا اله الا الله وحده لا شريك له » ويحمل على الوجه الآخر كتابة لاتينية نصها «Offa Rex» أى الملك أوفا (٢٣) ، وتجرى على حافة هذا الوجه من الدينار كتابة كوفية نقرأ فيها « محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » ، وهى من النصوص (٢٤)

(٢٢) Christie (A. H.), Islamic Minor Arts and their influence upon European Work, (Legacy of Islam, p. 13).

و ص ١٧ من ج ٢ من الترجمة العربية لبعض فصول هذا الكتاب بقلم الدكتور زكى محمد حسن وعبارة Minor Arts الواردة فى عنوان هذا البحث أصبحت اليوم فى الواقع غير مقبولة لأن الفنون الجميلة عند المسلمين ونعنى بها هنا فنون العمارة والزخرفة والنقش والنحت والتصوير — ليس فيها ما هو فرعى major وما هو أصلى minor بل كلها فى الأهمية لدى الفنان سواء وذلك على عكس الحال عند الغربيين — وهم الذين وضعوا أسس دراسة هذا التراث الفنى كما رأينا فى هذا البحث — الذين يفرقون عادة بين مظاهر الفنون الجميلة ، ففنون النحت والتصوير هى عادة من إنتاج فنانين artists لهم فى الهيئة الاجتماعية مكانة ملحوظة أما ما عداهما من فنون زخرفية الأمتعة المنقولة فهو من عمل صناع artisans وهى لذلك فى المحل الثانى من الاهمية ولا تعتبر فى نظر الاوربيين تحفا نفيسة بمعنى الكلمة ولكن المسلمين قد جمعوا بين الفن والصناعة فى كل ما أخرجته ايديهم بستوى عندهم فى ذلك آنية الأمير المتخذة من النحاس المطعم بالذهب والفضة وآنية الفقير المصنوعة من الفخار . ولعل أصدق عبارة تستبدل بها كلمة minor arts هى decorative arts أى الفنون الزخرفية .

(٢٣) كان الملك أوفا يحكم مملكة مرسيا Mercie احدى الممالك الصغيرة التى كانت تنقسم اليها الجزائر البريطانية فى العهد الانجلو سكسونى .

(٢٤) هذا النص مأخوذ من عدة آيات وردت فى القرآن الكريم .

لتى كانت تنقش على الدنانير الاسلامية فى عصر الدولة الأموية وفى عصور أخرى كثيرة (٢٥) • وأغلب الظن أن الصانع الأوربى الذى ضرب هذا الدينار والملك الذى أمر بضربه يجهلان مدلول هذا النص ولو عرفا ذلك ما رضيا بنقشه لتنافره مع عقيدتهما الدينية ، ولكنه الفن الاسلامى كما يتجلى فى الكتابة الكوفية المنقوشة على الدنانير الاسلامية التى كانت معروفة لديهما قد دفع بهما الي التقليد فزينوا العملة الانجليزية بذلك النص • واذا كان من الفنانين الأوربيين من أحسن نقل العبارات العربية نقلا صحيحا فان كثيرا منهم قلدوا الحروف العربية تقليدا يشعرك لأول وهلة بأنها كتابة عربية ، فاذا ما دققت النظر فيها لم تجدها كذلك • كما أن بعض هؤلاء الفنانين قد حاول أن يكتب الحروف اللاتينية بصورة تقرب فى شكلها العام من صورة الحروف الكوفية ونجحت هذه المحاولة وتجلت أروع ما تكون فى الكتابة القوطية التى شاع استعمالها فى أوربا فى العصور الوسطى •

ولقد أخذ رجال الفن فى أوربا عن المسلمين تلك الزخرفة التى تنم باسمها عن أصلها العربى ألا وهى « الأرابسك » أو كما عبر عنها الأستاذ بشر فارس بكلمة « الرقش » (٢٦) ونفضل نحن أن نستعمل كلمة « التوريق » وهى تدل فى تاريخ الفن على نوع معين من الزخرف ابتدعه الفنان المسلم • حقا أنه لم يبتكر وحدات زخرفية جديدة بل استعمل ما وجده بين يديه من مختلف الفنون السابقة على الاسلام الا أنه لا سبيل الى انكار مقدرته فى طريقة رسم هذه الوحدات وتوزيعها ، والتأليف بينها وتنسيقها تنسيقا يجعلها تبدو كأنها اخترعت لأول مرة وما هى كذلك ولكنه صهرها فى بوتقته ، ومزجها بفلسفته ، وسلط عليها أشعة عبقريته فخرجت من بين يديه فنا جديدا لا يخفى عليك أصله ولكنك

---

(٢٥) Lane-Poole (S.), Catalogue of Arabic Coins in Khedivial Library of Cairo, 1897.

(٢٦) أصدر المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة هذا العام (١٩٥٢) بحثا طريفا بالفرنسية والعربية للأستاذ بشر فارس ، عنوانه : « سر الزخرفة الاسلامية » Essai sur l'Esprit de la Decoration Islamique. وهو جدير بعناية المشتغلين بالآثار الاسلامية لما اشتمل عليه من اصطلاحات وآراء قيمة .

لا تستطيع أن تنكر عليه شخصيته القوية الواضحة . انه لم يخترع أشكالا هندسية جديدة لكنه بالغ فى تقسيمها وتحليلها حتى ليصح لنا أن نقول فى اطمئنان أنه بعث فى هذا النوع من الزخرف روحا من لدنه فبدا فى ثوب من الجمال لم يكن له قبل الاسلام ، وهو لم يبتكر وحدات نباتية أو حيوانية بل رسم الأزهار والأشجار والأوراق والسيقان والطيور والحيوان بعد أن حورها تحويرا كادت أن تفقد معه شخصيتها كوحدات نباتية أو حيوانية ولكنها وان بعدت عن الطبيعة فقد دلت على سعة خيال مبدعها وصفاء قريحته . ولقد درس الفنانون الأوربيون فى عصر النهضة قوانين الزخرفة الاسلامية ، وبدأوا يطبقون هذه القوانين على ما تخرجه أيديهم من تحف ، وانتشرت بين الصناع والفنانين الأوربيين فى ذلك الوقت كتب بها نماذج من الزخارف الاسلامية (٢٧) لكى يستعينوا بها على تزيين مصنوعاتهم ، ولقد وصلت الينا كراسة للمصور الايطالى المشهور ليوناردو دافنشى Leonardo De Vinci بها تخطيط لزخرفة اسلامية من رسم هذا المصور مما يدل على مدى عنايته بهذا النوع من الزخرف .

وتعد الطنافس الشرقية التى ساهم فى صناعتها الفنانون والصناع المسلمون معا تحفا فنية بكل ما يحتمله هذا التعبير من معنى : فيها الفكرة الكامنة ، وفيها التوازن والانسجام ، وفيها التنوع بين الألوان وفيها اليد الصناع الماهرة ، فيها كل ما يمتع الحواس ويغذيها : مرآها يسحر العين ، وملمسها ترتاح اليه النفس ، وتصميمها وزخرفها يثيران التفكير ويبعثان على التأمل . ولقد أدرك الأوربيون ما فى هذه الطنافس الاسلامية من جمال وفن ، وقدروا هذا الجمال الفنى حق قدره ، فأقبل الأغنياء منهم على اقتنائها ليزينوا بها قصورهم وكنائسهم ، وقد انعكس هذا التقدير بأجلى صورة فى لوحات فنانيهم فاذا هؤلاء الفنانون يرسمونها فى صورهم فبدت الطنافس الاسلامية مصورة فوق العروش أو مفروشة على الأرض ، أو منشورة من النوافذ والشرفات ، أو مبسوطة فوق الموائد ، واذا صناعهم يقلدون هذه الطنافس ويحاولون اتقان هذا التقليد .

---

(٢٧) Christie (A. H.), Islamic Minor Arts and their influence upon European Work, p. 149, (The Legacy of Islam, Oxford University Press 1947)

والخزف من أقدم المصنوعات التى عرفها الانسان فى جميع درجات تطوره وهو يعد عند علماء الآثار من أهم الوسائل التى تقاس بها حضارة الأمم ودرجة تقدمها ، ولقد حذق المسلمون صناعته ، وتتجلى عبقريتهم أروع ما تتجلى فى نوع معين منه هو المعروف عند المشتغلين بالآثار الاسلامية بالخزف ذى البريق المعدنى Lustre pottery واهتداء المسلمين الى هذا النوع من الخزف انما جاء بتوجيه سلبى من الدين الاسلامى الذى حرم اتخاذ الأوانى من الذهب أو الفضة . والواقع أن القرآن لم ينص صراحة على هذا التحريم ، والآيات التى ورد فيها ذكر الأوانى الذهبية أو الفضية انما تشير الى أنها مما يستمتع به المتقون فى الجنة ، ففى سورة الزخرف مثلا تقرأ « يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون » (٢٨) . وفى سورة الانسان تقرأ « ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا ؛ قوارير من فضة قدروها تقديرا » (٢٩) . ولكن الأحاديث نصت صراحة على هذا التحريم ، ويكفى أن نذكر على سبيل المثال حديثين وردا فى هذا الصدد الأول يقول فيه الرسول الكريم « لا تلبسوا الحرير ولا الديباج ، ولا تشربوا فى آنية الذهب والفضة ، ولا تأكلوا فى صحافها فأنها لهم فى الدنيا ولنا فى الآخرة » (٣٠) . وفى الثانى يقول « الذى يشرب فى اناء الفضة انما يجرجر فى بطنه نار جهنم » (٣١) . وقد انعقد اجتماع فقهاء المسلمين على تحريم الأوانى المصنوعة من الذهب الخالص أو الفضة الخالصة التى تستعمل فى حمل الطعام أو الشراب أو الماء للغسل أو الوضوء ، وقد كان هذا التحريم سببا فى اهتداء الخزاف المسلم الى تلك الطريقة التى استطاع بها أن يوفر للأوانى الخزفية جمال الذهب أو الفضة ، وخرجت من بين يديه تلك الأمثلة الرائعة من المصنوعات الخزفية التى امتزجت فيها مهارة الصانع بعبقرية الفنان والتى يتمتع من يستعملها بجمال الذهب أو الفضة وروتقهما دون أن يخرج على أحكام

---

(٢٨) سورة الزخرف آية ٧١

(٢٩) سورة الانسان آية ١٥و١٦

(٣٠) صحيح البخارى ؛ كتاب الأطعمة ب ٢٧ ص ٣٧ ج ٣ من طبعة بولاق سنة ١٣١٤ هـ .

(٣١) صحيح البخارى كتاب الاشربة ب ٢٧ ص ١١٢ ج ٧

الدين . وقد انتشرت صناعة هذا النوع من الخزف فى العالم الاسلامى ، وبلغت درجة الكمال فى العراق ومصر والأندلس ، ومن هذه الأخيرة تسربت الى أوربا ، وأقبل صناع الغرب على تقليد هذا الخزف ، واتقنوا هذا التقليد حتى لقد زينوا أوانيهم بما يشبه الكتابة الكوفية امعانا فى صبغها بالصبغة الاسلامية ، وظلت الأندلس بعد أن خرج منها العرب تخرج من هذا النوع الشىء الكثير ومن اليسير على الناظر اليه أن يدرك مدى التأثير الاسلامى فيه .

وتحت ضغط تحريم الأوانى المصنوعة من الذهب أو الفضة اهتدى الصناع المسلمون الى طريقة تطعيم أوانى النحاس بالذهب أو بالفضة أو بهما معا ، واستطاعوا بذلك أن يخرجوا قطعا فنية رائعة تنتزع الاعجاب من كل من يراها وتتضاءل بجانبها الأوانى المتخذة من الذهب الخالص أو الفضة الخالصة . وقد أقبل بعض أمراء أوربا على اقتناء هذه التحف ، واتخذوا منها نماذج قلدوها وقد وفقوا فى هذا التقليد الى حد بعيد .

ولقد ازدهرت صناعة الأقمشة على يد المسلمين فى العصور الوسطى ازدهارا منعدم النظير ، ولقد كان فى تقاليد المسلمين وميولهم مثل كسوة الكعبة ، وعادة منح الخلع ، والميل الى التكثير من الثياب ، وتفضيلهم للمنسوجات عند الاهداء ، والتصدق بالأقمشة على الفقراء فى المواسم والأعياد ، كان فى هذه التقاليد والميول مجال واسع لتقدم صناعة الأقمشة الأمر الذى يتجلى فى ظهور أنواع جديدة منها لم تكن معروفة من قبل . ولقد شاع استعمال الحرير قبل الاسلام شيوعا أخاف رجال الكنيسة ودفع بهم الى العمل على منع الناس من استعماله (٣٢) ولكنهم فشلوا فى محاولتهم هذه ، واشتد اقبال الناس على لبس الحرير ، وعندما جاء الاسلام واجهته هذه المشكلة فوقف منها موقفا كان من أثره أن تقدمت صناعة الحرير على أيدى المسلمين ، فهو لم يحرم استعمال

(٣٢) Clement of Alexandria, Paedag. II, 10.

الملابس الحريرية كما يدعى كريستى خطأ (٣٣) ولكنه نظم استعمالها فأباحها للنساء من غير قيد ولا شرط (٣٤) ، ورخص للرجال فى ارتدائها عند الضرورة (٣٥)، كما رخص لهم أيضا فى ارتداء الثوب اذا كان به من الحرير قدر أصبعين أو أربعة أصابع (٣٦) ؛ ولم تكن الرغبة الجامحة فى الاستمتاع بما حرمه الله — كما يقول كريستى — هى التى جعلت المسلمين يعنون بالحرير وانتاجه ويملكون زمام صناعته ، وينشرون هذه الصناعة فى مشارق الأرض ومغاربها ، ويصبحون بحق زعماء تجارته فى العصور الوسطى ، ولكن هذا التنظيم الذى أتى به الاسلام هو الذى جعل للمسلمين هذه المكانة الممتازة فى صناعة الحرير وتجارته.

وقد وجدت المنسوجات الاسلامية طريقها الى أسواق أوربا ، وأثارت فى نفوس القوم هناك دهشة عظيمة عندما تأملوها وقارنوا بينها وبين ما كانت تخرجه مناسجهم ، وخرجوا من هذه المقارنة يتساءلون عن موضع السحر فى هذه الأقمشة ، أهو جمال الزخرفة أم هو التناسق بين الألوان ، أم هو فى دقة النسيج ، أم هو فى هذه جميعا ؟ وأقبلوا عليها اقبالا شديدا ، وسموها فى لغاتهم باسماء البلاد التى نسجت فيها ، ثم أطلقوا هذه الأسماء العربية الأصل على ما أخرجته أيديهم من منسوجات قلدوا بها تلك المنسوجات الاسلامية ، ولا تزال كلمة الموسلين Muslin مثلا المأخوذة من اسم المدينة العراقية «الموصل» ، أو الجراندين Grandine المأخوذة من اسم المدينة الأندلسية غرناطه Grenada ، أو كلمة « ركامو » Ricamo المشتقة من الكلمة العربية

---

(٣٣) يقول كريستى Christie فى مقاله الذى اسلفنا الاشارة اليه ص ١٢٢
"Although silken garments have been specifically prohibited by the Prophet, the Muslims not only encouraged existing silk factories but established new ones whenever they went. So shameless and unrestrained was their interest in the forbidden luxury that they rapidly and surely gained a dominating position as leading silk-mercers in the medieval world.

(٣٤) صحيح البخارى كتاب اللباس ب ٣٠ ص ١٥١ من ج ٧ طبعة بولاق سنة ١٣١٤ هـ .

(٣٥) نفس المرجع السابق ب ٢٩ ص ١٥١ من ج ٧

(٣٦) نفس المرجع السابق ب ٢٥ ص ١٥٠ من ج ٧ وراجع أيضا :

Dozy, Dictionnaire De Vetements Arab, pp. 5, 6, and lamm, Cotton Medieval Textiles of the Near East, p. 105. Paris, 1937

« رقم » • هذه الألفاظ وغـيرها تتردد على ألسنة الأوربيين وترد فى ثنـايا كتبهم (٣٧) ، ولقد تقدمت صناعة النسيج فى جزيرة صقلية على عهـد المسلمين تقدما عظيما ، وخرجت من أنوالها أقمشة قيمة كانت ولا يزال ما بقى منها ــ موضع الاجلال والتكريم من الأوربيين • ولعل أروع مثال لأقمشة صقلية هو عباءة التتويج التى كان يتوارثهـا أباطرة الدولة الرومانية المقدسـة والموجودة الآن فى متحف الكنوز بمدينة فيينا ، وهى تزدان فوق زخارفها الجميلة بنص عربى منسوج على حافتهـا بالخط الكوفى بخيوط من ذهب ، وقد يكون فى اثباته هنا فائدة لمن يعنون بالأدب العربى فى صقلية فى القرن السادس الهجرى « مما عمل بالخزانة الملكية المعمورة بالسعد والاجـلال والكمـال ، والطول والأفضال ، والقبول والمقبال والسماحة والجلال ، والفخر والجمـال ، وبلوغ الأمانى والآمال ، وطيب الأيام والليالى بلا زوال ولا انتقال ، بالعز والرعاية والحفظ والحماية ، السعد والسلامة والنصر والكفاية بمدينة صقلية سنة ثمان وعشرين وخمسمائة » (٣٨) • ومن صقلية سرت تلك النهضـة الصـناعية فى المنسوجات الى المدن الايطالية مثل لوكا وفلورنسا والبندقية فأخرجت مناسجها أقمشة قريبة الشبه مما أنتجـه المسلمون حتى لقد يصعب فى بعض الأحيان التفريق بين الأصل والمقلد •

وهكذا لعب الفن الاسلامى فى فنون أوربا دورا لا سبيل الى انكاره ، ولقد أدرك الأوربيون الذين توفروا على دراسة هذا الفن ، واختصوا أنفسهم به ما له من أثر واضح فى فنونهم فأفسحوا لتحفه المختلفة مكانا بارزا فى متاحفهم ، وقلما نجد اليوم دولة غربية ليس بين متاحفها متحف أو جزء من متحف تنطوى جوانحه على أمثلة رائعة من بدائع الفن الاسلامى •

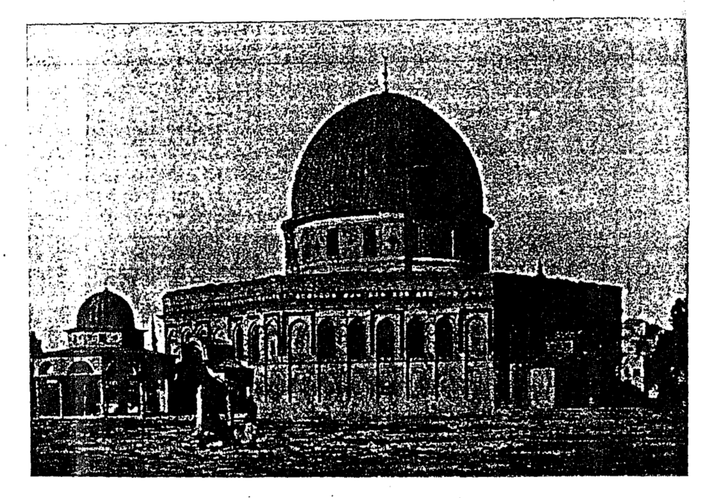
ففى بلاد اليونان نجد متحف بناكى (٤٠) فى مدينة أثينا وهو يأتى فى المحل الثانى من الأهمية بعد متحف الفن الاسلامى فى القاهرة الذى يعد أكبر المتاحف

(٣٧) Kramers (J. H.), Geography and Commerce, op. cit., p. 104

(٣٨) Wiet and others, Repertoire Chronologique d'Epigraphie Arabe, Tome VIII, p. 184

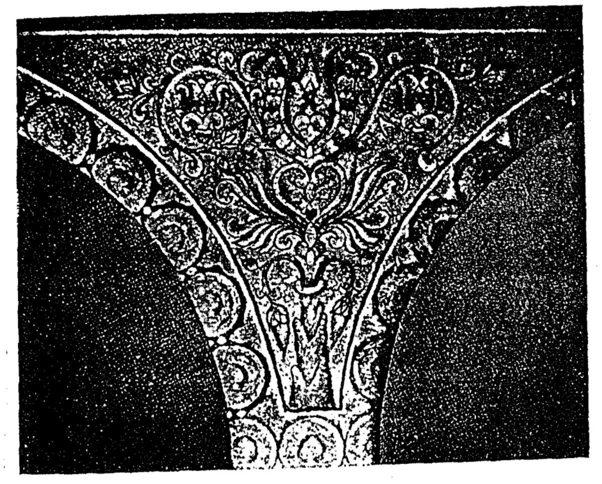
(٣٩) Benachi Museum

اللوحة الأولى



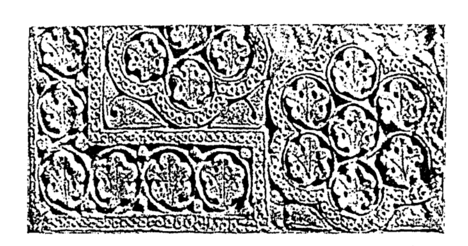
قبة الصخرة بالقدس من الخارج
( وهى من أقدم العمائر الاسلامية القائمة سنة ٧٢ هـ )

اللوحة الثانية



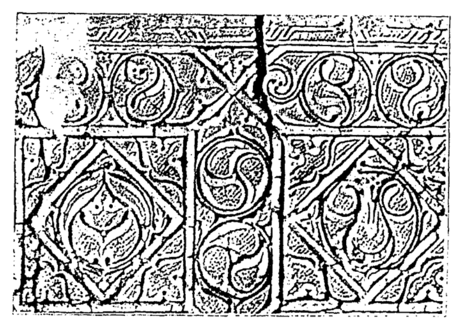
قبة الصخرة بالقدس من الداخل
يتجلى فى زخرفة الفسيفساء ـ مدى اعتماد الفن الاسلامى
فى أول انشائه على الفنين البيزنطى والساسانى

## اللوحة الثالثة



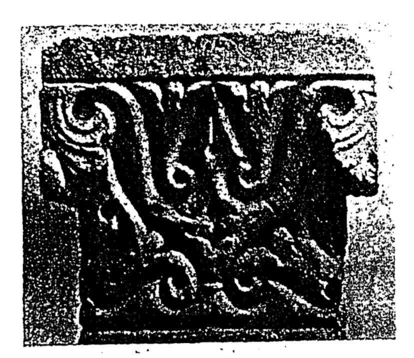
زخارف جصية من مدينة سامراء بالعراق
من القرن الثالث الهجرى ( ٩ م )

## اللوحة الرابعة



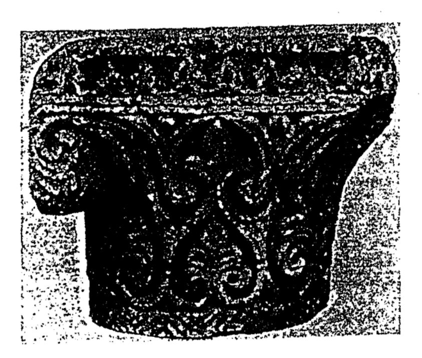
زخارف جصية من مدينة سامراء بالعراق
من القرن الثالث الهجرى ( ٩ م )

## اللوحة الخامسة



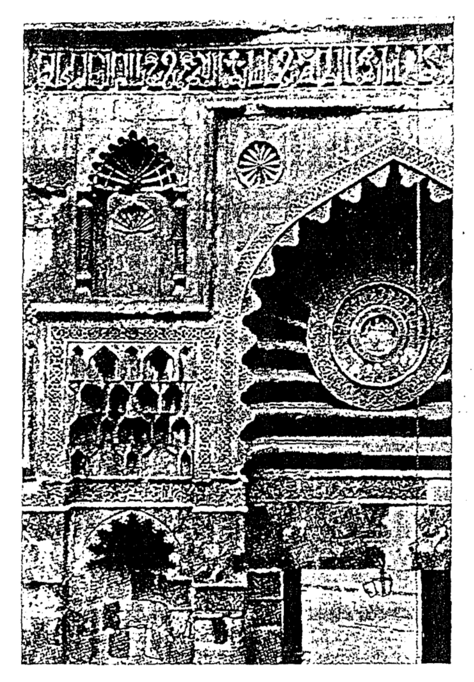
تاج عامود من الرخام عثر عليه فى العراق
يتجلى فيه الفن الاسلامى بعد ان وضحت شخصيته
من القرن الثالث الهجرى ( ۹ م )

## اللوحة السادسة



تاج عامود من الرخام عثر عليه فى العراق
من القرن الثالث الهجرى ( ۹ م )

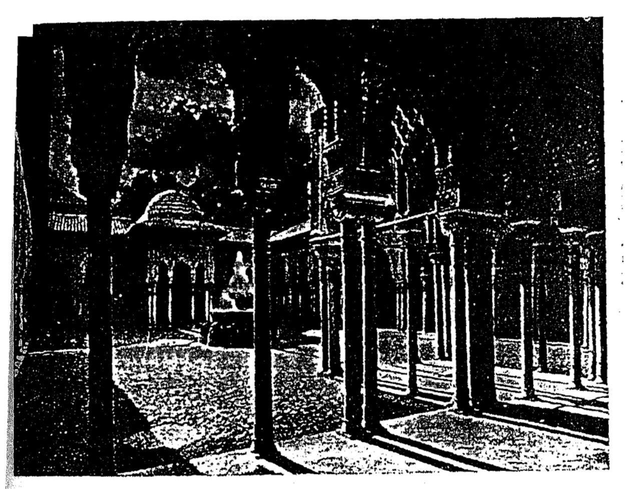
اللوحة السابعة



واجهة الجامع الأقمر بالقاهرة

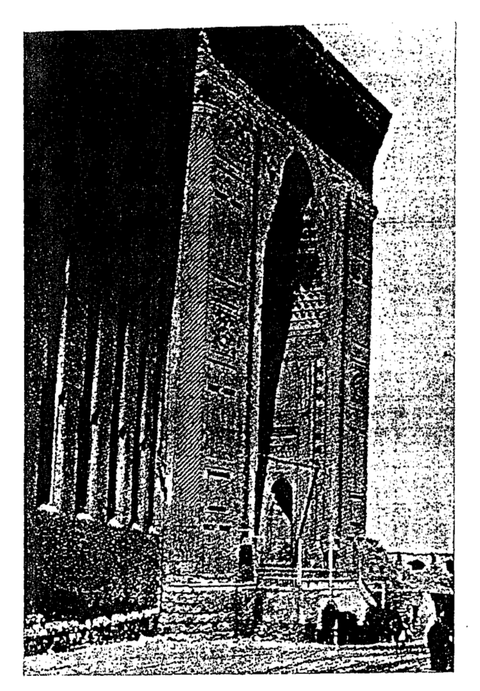
من القرن السادس الهجرى ( ١٢ م )

اللوحة الثامنة



قاعة السباع فى قصر الحمراء بغرناطة بالأندلس
من القرن الثامن الهجرى ( ١٤ م )

اللوحة التاسعة

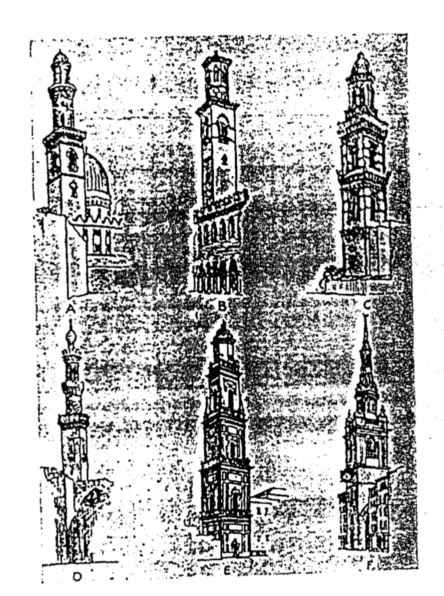


واجهة مدرسة السلطان حسن بالقاهرة

من القرن الثامن الهجرى ( ١٤ م )

يتجلى فيها خصائص الفن الاسلامى بعد أن وصل الى ذروة نضوجه

## اللوحة العاشرة




أثر العمارة الاسلامية فى العمارة الأوربية

A – مدرسة سنجر الجاولى بالقاهرة

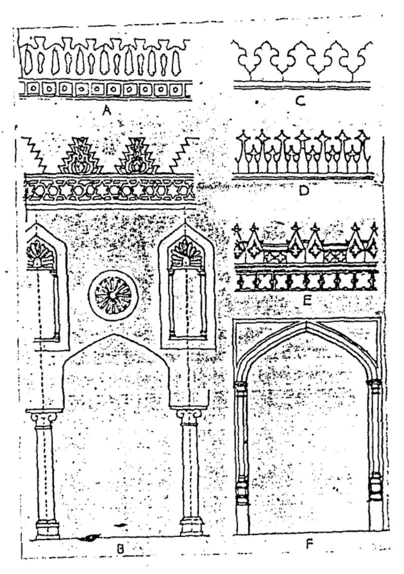
B – برج كميون فى ڤيرونا بايطاليا

C – برج فى قبة سبوليتو بايطاليا

D – مئذنة برقوق بمدافن المماليك

E – برج فى قبة ليكى بايطاليا

F – برج فى كنيسة سانت مارى لوباو فى لندن




أثر العمارة الاسلامية فى العمارة الأوربية

A – فى جامع ابن طولون بالقاهرة

B – فى الجامع الأزهر بالقاهرة

C – فى جامع زين الدين يوسف بالقاهرة

D – فى قصر كادورو بالبندقية

E – فى كنيسة كرومر بنورفلك

F – فى بهو كنيسة المسيح فى اكسفورد

اللوحة الثانية عشرة



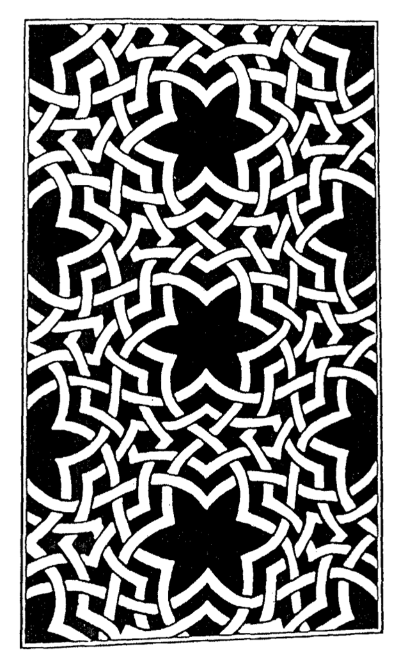
علبة من العاج الأندلسى من القرن الرابع الهجرى ( ١٠ م )
تتجلى فيه زخرفة التوريق ( الأرابسك ) بصورة رائعة

اللوحة الثالثة عشرة



كأس من الزجاج المذهب والمزين بالمينا من القرن السابع الهجرى ( ١٢ م )
تجتمع فيه دقة صناعة الزجاج وجمال الزخرفة الاسلامية

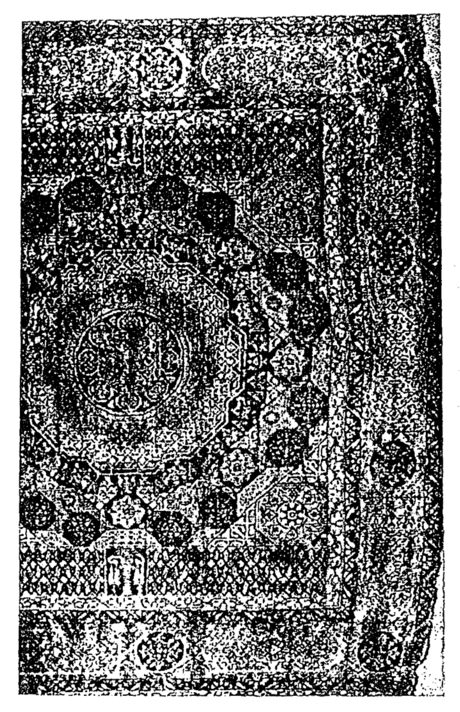
اللوحة الرابعة عشر



زخرفة اسلامية اساسها رسم لليوناردو دافنشي

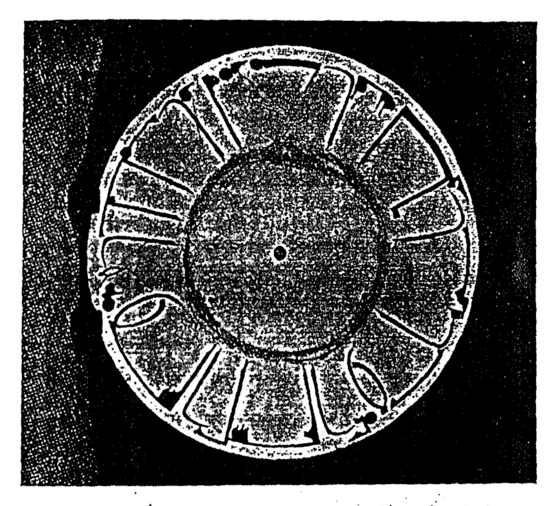
( انظر ص ١٢٤ من البحث )

اللوحة الخامسة عشر



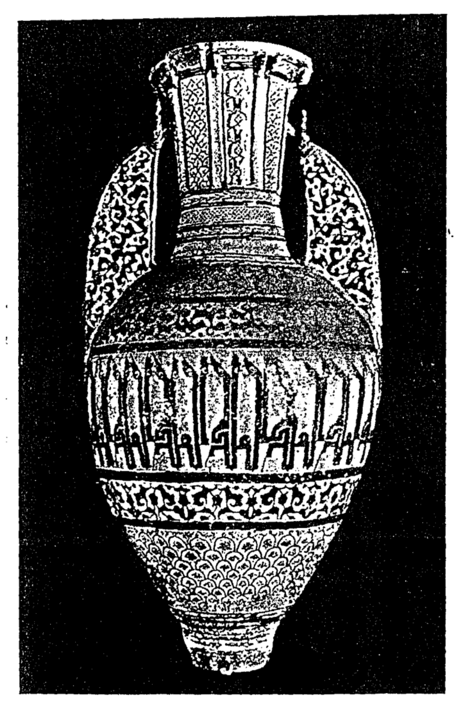
طنفسة من صناعة القاهرة فى عصر المماليك
من القرن العاشر الهجرى ( ١٦ م )

اللوحة السادسة عشر



آنية من الخزف الايرانى من القرن الرابع الهجرى ( ١٠ م )
تزدان بزخرفة كتابية قوامها بيت من الشعر نصه :
العلم أوله مر مذاقته  لكن آخره احلى من العسل
ويلاحظ وجود كلمة السلامة بعد آخر هذا البيت من الشعر .

اللوحة السابعة عشر



قدر من الخزف ذى البريق المعدنى من صناعة الأندلس
فى القرن الثامن الهجرى ( ١٤ م ) تزدان بالكتابة الكوفية وبزخرفة التوريق

اللوحة الثامنة عشر



اناء من النحاس المطعم بالفضة من صناعة ايران
فى القرن السادس الهجرى ( ١٢ م )
تزدان برسوم آدمية وكتابات كوفية ونسخية

اللوحة التاسعة عشر



فن النحت الاسلامى

تمثال من الجص عثر عليه فى قصر هشام بخربة المفجر فى شرق الأردن

( من عصر الدولة الأموية )

اللوحة العشرون



فن التصوير الاسلامى
صورة شخص مرسومة على الجص فى قصير عمره بشرق الاردن
( من عصر الدولة الأموية )

اللوحة الحادية والعشرون



فن التصوير الاسلامى
صورة تمثل صيادا مرسومة على الجص
فى قصر الجوسق الخاقانى فى سامراء بالعراق
( من عصر الدولة العباسية )

## اللوحة الثانية والعشرون



فن التصوير الاسلامى

صورة مرسومة على الورق فى مخطوط لكتاب « منافع الحيوان »

من القرن السادس الهجرى ( ١٢ م )

اللوحة الثالثة والعشرون



فن التصوير الاسلامى

صورة مرسومة على الورق فى مخطوط لكتاب «مقامات الحريرى»

من القرن الثامن الهجرى ( ١٤ م )

فى العالم لهذا الفن لما تنطوى عليه جوانحه من مجموعات كبيرة متنوعة من شتى البلاد الاسلامية ومن شتى العصور (٤٠) .

وفى بلاد المجر نجـد أهم التحف الاسلاميـة فى المتحف الأهلى بمدينـة بودابست حيث نشـاهد بعض الأمثلة الجميلة للطنـافس والخزف الايرانى كذلك (٤١) .

وفى ايطاليا توجد أهم التحف الاسلامية معروضة فى مدينة فلورنسـه فى المتحف الأهلى (٤٢) ، وفى متحف بارجللو (٤٣) ومن أجمل ما نراه فيهما التحف المصنوعة من العاج أو الزجاج .

وفى فرنسا توجد كثير من التحف الاسلامية فى مدينتى ليون وسيفر ، ففى الأولى نرى فى متحف الغرفة التجارية مجموعة قيمة من المنسوجات الاسلامية (٤٤) وفى الثانية نشاهد مجموعة رائعة من الخزف الاسـلامى (٤٥) . أما فى باريس نفسها فهناك خمسة متاحف عظيمة بها مجموعات قيمة من شتى التحف الاسلامية هى متحف جوبلان ومتحف كلونى ومتحف اللوفر، ومتحف الفنون الزخرفية ، والمتحف الحربى (٤٦) . كما أنه يوجد فى المكتبة الأهلية (٤٧) أنفس مجموعة من المخطوطات المصورة الاسلامية لاسيما الفارسية .

وفى أسبانيا نجـد فى مدريد وحدها ثلاثة متاحف فى كل منها مجموعة من الخزف والأسلحة والأحجار والأقمشة الاسلامية هى متحف الآثار ، والمتحف

---

(٤٠) لم اذكر فى هذا الثبت المتاحف الموجودة فى البلاد الاسلامية مثل الباكستان وايران والعراق وتركيا والشام ومصر وتونس والجزائر ومراكش لأن وجود التحف الاسلامية فى هذه البلاد أمر طبيعى ، وانما اقتصرت على ذكر متاحف أوربا التى أتيحت لى فرصة زيارتها ودراسة مجموعاتها ، اما غيرها من المتـاحف الأوربيـة أو متاحف الهند ومتاحف أمريكا الشمالية فقد آثرت عدم الاشارة اليها .

(٤١) The Hungarian National Museum.

(٤٢) Museo Nazionale, Florence.

(٤٣) Museo Bargello.

(٤٤) Musée de la Chambre de Commerce de Lyon.

(٤٥) Musée de Sevres.

(٤٦) Musée des Gobelins, Musée de Cluny, Musée de Louvre, Musée des Arts decoratifs.

(٤٧) Bibliotheque Nationale.

الحربى ومتحف دون جوان أو ڤالنسيا دى أسما كما كان يسمى من قبل [٤٨].
ونجد كذلك فى المتاحف المحلية لبعض مدنهـا الأخرى مثل برشـلونه وفيش وسرقسطة وطيطلة وغرناطه وأشبيليه والمرية قطع هامة من الفن الاسلامى [٤٩].

وفى النمسا نجد فى ثلاثة من متاحف فيينا مجموعات اسلامية عظيمة نخص بالذكر مجموعة الطنافس الاسلامية التى لا نظير لها فى العالم والتى نشاهدها فى المتحف النمساوى للفن والصناعات [٥٠]، ومجموعة الزجاج والبللور الصخرى والأسلحة فى متحف تاريخ الفن، ومتحف التاريخ الطبيعى [٥١]. وفى المكتبة الأهليـة بمدينة فيينـا مجموعة قيمـة من أوراق البردى الاسـلامى وبعض المخطوطات الاسلامية المصورة [٥٢].

وفى ألمانيا يستطيع الانسان أن يجمع بين مشـاهدة أمثلة رائعة للعمـارة الاسلامية وللفنون الزخرفية على السـواء. ففى القسم الاسـلامى بمتاحف الدولة ببرلين [٥٣] أثر لا نظير له فى العـالم أجمع هو واجهة قصر المشتى [٥٤] الذى شيد فى عصر الخليفة الأموية الوليد الثانى (١٢٥ ـ ١٢٦ هـ / ٧٤٣ ـ ٧٤٤ م) فى صحراء البلقاء على بعد عشرين ميلا الى الجنوب من مدينة عمان وقد كشفت أطلاله فى سنة ١٨٤٠ م وتم الكشف عنه سنة ١٨٧٢ م، ووجه أحد علماء الآثار نظر غليوم الثانى امبراطور المانيا الى هذا القصر فاهتم به القيصر شخصيا واستطاع بلباقته أن يغرى السلطان عبد الحميد سلطان تركيـا التى كانت تتبعه هذه البلاد حينئذ ـ أن يهديه واجهـة هذا القصر المتهدم ولم يجد السلطان لهذه الأحجار قيمة فأهـداها اليه وكان ذلك عام ١٩٠٣ فنقلت هذه الواجهة حجرا حجرا الى برلين حيث أعيد بناؤهـا فى القسم الاسـلامى وهى

(٤٨) Museo Arqueologico, Museo des Ejercito, y Museo Valencia de Osma.
(٤٩) Barcelona, Vich, Saragossa, Toledo, Grenade, Cordova, Seveille y Almarya.
(٥٠) Osterreichisches Museum fur Kunst und industrie.
(٥١) Kunsthistorisches Museum, und Neturchistorisches Museum.
(٥٢) Nationalbibliothak, Wien.
(٥٣) Islamische Knn-tabteilung. Staatlichen Museum.
(٥٤) Kuhnel (E.), Machatta' Berlin, 1933.

لا تزال قائمة هناك حتى اليوم تشهد للفن الاسلامى بالنشوء والارتقاء ، ففى الجانب الأيسر من هذه الواجهة تتجلى تقاليد الفنين البيزنطى والساسانى اللذين اعتمد عليهما الفن الاسلامى فى نشأته ، وفى الجانب الأيمن منها نشهد فنا جديدا قوامه زخرفة الفروع النباتية المنسقة فى رسمها تنسيقا يبتعد بها عن الطبيعة بعض الشىء مما يشعر بأننا هنا أمام فن جديد بدأ يشق طريقه ويخرج الى حيز الوجود . وفى القسم الاسلامى من متاحف برلين نشاهد كذلك قطعا كثيرة من الجص المزخرف الذى كشفت عنه الحفائر الأثرية التى قام بها الألمان فى مدينة « سرمن رأى » [٥٥] بالعراق . وهى التى أسسها الخليفة العباسى المعتصم ابن هارون الرشيد سنة ٢٢١ هـ ولم تعمر أكثر من خمسين عاما ثم هجرت سنة ٢٧٩ هـ وبقيت عمائرها رهينة الاهمال واندرست معالمها وظلت مطمورة تحت الرمال حتى انكشفت على أسنة معاول علماء الآثار من الألمان فاذا هى جدران مبعثرة تزينها تلك الزخارف الجصية التى أشرنا اليها . وفن الزخرفة الاسلامية الذى رأيناه وليدا فى الجانب الأيمن من واجهة المشتى قد شب الآن عن الطوق وأفصح عن شخصيته فى هذه الزخارف الجصية التى كانت تزين قصور سامراء . وهكذا يعد القسم الاسلامى بمتاحف برلين من أهم المتاحف التى تساعد على دراسة الفن الاسلامى ، على أن أهميته لا تقف عند حد الأثرين المعماريين سالفى الذكر بل أن به الى جانبهما مجموعة من الطنافس والخزف والأقمشة والأسلحة وغيرها ترجع الى العصور والممالك الاسلامية المختلفة . وقد كان فى برلين متاحف أخرى بها الكثير من التحف الاسلامية القيمة من أقمشة وأسلحة وبللور صخرى وصور مرسومة على الجص أهمها متحف القصر والمتحف الحربى ومتحف علم الشعوب [٥٦] أصابتها الحرب الأخيرة بأضرار كثيرة . وفى متحف الفن والصناعات [٥٧] فى كل من مدينتى هنوفر ودسلدورف، وفى متاحف مدينة ميونيخ [٥٨] نشاهد مجموعة متنوعة من التحف الاسلامية الجميلة .

---

(٥٥) Samarra, Islamische Abteilung, Beriin.

(٥٦) Schloss Museum, Zeughaus und Museum fur Volkerhunde

(٥٧) Museum fur Kunst und Gewerbe

(٥٨) مثل المتحف الحربى ، والمكتبة الأهلية ، ومتحف الشعوب .

وفى بلجيكا نرى فى مدينة بروكسل فى المتحف الخمسينى ، ومتحف بورت دى هال بعض التحف الاسلامية (٥٩) .

وفى الجزائر البريطانية عدة متاحف تضم جوانحها الكثير من التحف الاسلامية الهامة نخص بالذكر منها المتحف البريطانى ومتحف فيكتوريا والبرت فى لندن (٦٠) ، ثم متحف فتزوليم فى كمبردج (٦١) ، وفى متحف أشمولى فى مدينة أكسفورد (٦٢) .

وليست المتاحف الأوروبية وحدها هى التى تشاهد فيها التحف الاسلامية بل أن كثيرا من الكنائس الكبيرة فى أوربا فيها — ضمن كنوزها — تحف اسلامية رائعة فلقد افتتن المسيحيون بجمال هذه التحف فحفظوا فيها ما يعتزون به من مخلفات دينية أو زينوا بها أقدس البقاع عندهم فى الكنائس فوجدت بذلك طريقها الى هذه المؤسسات الدينية حيث استقرت هناك فى حرز أمين بعيدة عن عبث العابثين . وكأنما شاءت الأقدار أن يبقى لنا هذا التراث الفنى محتفظا بروعته لكى نرى فيه شاهدا صادقا على سمو الفن الاسلامى . ومن أشهر هذه الكنائس فى ايطاليا كنيسة سان مارك فى البندقية ، وفى فرنسا كنيسة سنت آن بمدينة آبت ، وفى أسبانيا كنيسة بنبلونه وكنيسة جيرونا .

* * *

وبعد هذا فليس هناك من شك فى أن الفن الاسلامى لم يصل فى فن النحت أو بعبارة أدق فى صناعة التماثيل الى الدرجة التى سمت اليها كثير من الفنون القديمة السابقة عليه كالفن اليونانى مثلا ، وقد يتبادر الى الذهن أن فى هذا القصور ما يعد مأخذا على الفن الاسلامى ودليلا على تأخر المبدعين له ، ولكن الواقع غير ذلك اذ ليس فيه ما يزرى بمكانة هذا الفن بين الفنون الأخرى لأن لكل فن بيئته التى نشأ فيها ، والعوامل التى تحكمت فى نشأته ، والمصادر التى استمد منها عناصره . فاليونان القدماء نشأوا فى بيئة يتوفر فيها الرخام فاتخذوا منه مادة لأعمالهم الفنية ، وقد هداهم تفكيرهم الى أن يتخيلوا آلهتهم على هيئة

(٥٩) Musée du Cinquantaire; Musée Porte de Hal, Brussel.
(٦٠) British Museum; Victoria and Albert Museum.
(٦١) Fitzwilliam Museum.
(٦٢) Ashmolean Museum.

الانسان فنحتوا من الرخام تماثيل لهــذه الآلهة . وأفرغوا جهــدهم فى نحتها فخرجت من بين أيديهم رائعة جميلة متناسقة الأبعاد موزونة الأجزاء حتى لتعتبر اليوم المثل الأعلى فى فن النحت . أما العرب فلم يكن فى بيئتهم الصحراوية التى نشأوا فيها ما يشجع على نحت التماثيل ، ولم يكن فى حياتهم الفكرية ما يحفزهم على نحتها كما كان الحال عند اليونان . وقبيل ظهور الاسلام كان يسود البلاد المحيطة بهم فنان هما الفن البيزنطى والفن الساسانى ولم يكن كلاهمــا يعنى بالتماثيل عناية الفراعنة أو اليونان أو الرومان بها . وعندما جاء الاسلام وخرج المسلمون من جزيرتهم ينشرونه فى ربوع الأرض ، ويتأثرون بحضارة البيزنطيين كما وجدوها فى الشام ومصر وشمال أفريقية ، وبحضارة الفرس كما وجدوها فى العراق وايران ، ويشاهدون الأثار الفنية لهذين الفنين لم يعنوا بدورهم بعمل التماثيل خصوصا وقد أعلن الاسلام الحرب على الوثنية ، واعتبر القرآن الكريم الأنصــاب رجس من عمــل الشيطان على المؤمنين أن يجتنبوه [٦٣] ، وفصلت الأحاديث النبوية القول فى هذا الأمر فبينت اثم من يصنع هذه التماثيل [٦٤] . وقد أدرك أســلافنا أن التحريم منصب على التماثيل التى تعبــد من دون الله وحدها ، أما تلك التى تتخذ لغير هذا الغرض فلم يتحرجوا من استعمالها فزينوا بها قصورهم وصنعوها على هيئة الانسان تارة وعلى هيئة الحيوان أخرى ، ونذكر منها على سبيل المثال ما كشفت عنــه دائرة الآثار الفلسطينية فى قصر هشام أحد خلفاء الدولة الأموية الشرقية القائم فى « خربة المفجر » حيث عثر على تماثيل من الجص لأشخاص آدمية بعضها كامل وبعضها غير كامل كما عثر أيضا على تمثال جواد فقد معظم جسمه ولم يبق الا الرأس وجميع هذه التماثيل مصنوعة من الجص [٦٥] . وفى القسم الاســلامى بمتحف برلين وفى متحف

---

(٦٣) راجع سورة المائدة آية ٩٣ والأنصاب ــ كما نشرها النسفى ــ هى الأصنام اى التماثيل التى تعبد من دون الله .

(٦٤) كتاب اللباس باب ٨٩ ص ١٦٧ جـ ٧ من صحيح البخارى طبعة بولاق سنة ١٣١٤ هـ . وهناك أحاديث كثيرة فى هذا الصدد ــ راجع مفتاح كنوز السنة للدكتور أ . ى . فنسك ترجمة محمد فؤاد عبد الباقى (مطبعة مصر سنة ١٩٣٦ م) ص ٨٣ ، وراجع ايضا البحث القيم للأستاذ أحمد محمــد عيسى فى « الاســلام والتصوير » فى مجلة الأزهر عدد رجب وشعبان وشــوال سنة ١٧٣٠ هـ وصفر وجمادى الأولى سنة ١٣٧١ هـ .

(٦٥) Barmaki, Guide to the Umayyad Palace at Khirbet Al Mafjar, figs 10 — 14.

المتروبوليتان بنيويورك تماثيل آدمية من الجص كذلك ، وفى متحف اسطنبول، وفى قصر الحمراء فى مدينة غرناطة بالأندلس تماثيل حيوانية من الحجر . وجميع هذه التماثيل لا يتوفر فيها الاتقان الفنى الذى نشاهده فى تماثيل الفراعنة أو اليونان أو الرومان .

والتصوير فى الفن الاسلامى كالنحت لم يصل الى المستوى الرفيع الذى اصطلح عليه الباحثون فى الفنون . واذا كان القرآن الكريم قد خلا من نص صريح أو غير صريح بصدد هذا الفن فان الأحاديث النبوية تناولته من زوايا متعددة ليس هنا مجال تفصيلها (٦٦) ، ويكفى أن نقول أن بعضها يترخص فى التصوير على الفرش وما أشبهها ، وبعضها يبيح تصوير ما ليس فيه روح ، والكثير منها يلعن المصور ويمنع بيع الصور ، وقد فسر الفقهاء هذه الأحاديث تفسيرا ألقى شيئا من الشك حول مزاولة هذا الفن أو العناية به ، ولكن على الرغم من ذلك فقد غزا الفنانون المسلمون بالتصوير جميع فروع الفن الاسلامى من مخطوطات وأخشاب وعمارة وزجاج ومعادن وعاج وخزف ومنسوجات ، وقد تجلت عبقريتهم فى الصور الصغيرة التى تزين المخطوطات اذ شغف المصورون المسلمون بتوضيح كتب العلم والدين والأدب والتاريخ بصور تفسر بعض ما تتضمنه من بحوث وأحاديث (٦٧) . ولعل من الحق علينا هنا ونحن نختم هذا البحث أن نبرأ الدين الاسلامى من تهمة تحريم التصوير التى ألصقها به بعض المتزمتين من الفقهاء الذين أخطأهم التوفيق فى فهم حقيقة الاسلام . فالأمر الذى لا شك فيه أن القرآن ترك أمر التصوير لنا لنرجع فيه الى حكم العقل وسنن التطور والرقى ، والدين الذى لم يتعرض لنظام الحكم وشئون السياسة وهى أشد خطرا فى حياة المسلمين من التصوير بل تركها لهم يسيرون فيها على النهج الذى يتلاءم وظروفهم ويستعينون فيها بتجارب من سبقهم من الأمم — هذا الدين أسمى من أن يتعرض بالتحريم لأمر يتصل بسمو الحياة البشرية وتطورها . ويكفى أن تتذكر الدور الخطير الذى يلعبه التصوير فى الحياة العلمية وفى الشئون الاجتماعية للأفراد والجماعات .

---

(٦٦) راجع بحث الاستاذ احمد محمد عيسى سالف الذكر .

(٦٧) راجع مقال « الصور الاسلامية » فى مجلة الهلال عدد ابريل سنة ١٩٤٣ لكاتب هذا البحث .

# كتاب عن الحسبة فى بيزنطة

## فى القرن العاشر الميلادى

### او

## كتاب والى المدينة

### THE BOOK OF THE PREFECT

**بقلم الدكتور السيد الباز العرينى**

---

المقصود بالحسبة عند الفقهاء المسلمين الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهذا واجب على كل مسلم . واذا كان أساس الوجوب هو القدرة ، فان رجال الحكومة أقدر من غيرهم على القيام بهـذا العمل . ولذا ترجـع بداية وظيفة المحتسب الى قيام الدولة الاسلامية ، وتولاها الخلفاء أنفسهم أو أنابوا عنهم من يتولاها كيما يتحققوا من تنفيذ القانون (١) . ثم جرى توزيع الأعباء العامة على عدد من الموظفين . والراجح أن وظيفة المحتسب لم تصبح مستقلة الا فى نهاية القرن الثانى للهجرة ( القرن الثامن الميـلادى ) ، بعد أن ظهرت المذاهب الأربعة (٢) ، وقامت المدن الاسلامية وانتظمت بها الأسواق (٣) ، وما ترتب على ذلك من ازدهـار التجارة ، وتعدد دور الضرب ، ومهارة الذميين فى التبـادل النقدى ، وظهور النقود الزائفة ونظام المصـارف ، فضـلا عن طوائف أرباب الحرف والصـنائع (٤) . وصـار منصب المحتسب فى القرن الرابع ( العاشر الميلادى ) من المناصـب الوطيدة فى الدولة . وكان محتسب بغـداد فى جملة أصحاب المخاطبات المعروفة للكتاب ، وتعددت اختصاصاته حتى أصبحت تشمل الاشراف على سوق الرقيق ودار الضرب ، واثبات اسم الخليفة على ما يضرب ذهبا وفضة ، ونقشه أيضا على ما يعمل من الثياب والفرش والأعلام (٥) .

ومنذ أن استقرت وظيفة المحتسب تضمنت بعض الكتب فصولا تتعلق بالحسبة ووظيفتها (٦) ، ثم جرى تصنيف كتب مستقلة الغرض منها مساعدة المحتسب فى تأدية واجباته (٧) .

وحاول بعض المستشرقين أن يربطوا بين وظيفة المحتسب وكتب الحسبة عند المسلمين بما يقابلها عند البيزنطيين ، واعتمدوا فى ذلك على ما لمسوه من أوجه التشابه بين وظيفة المحتسب وكتب الحسبة عند كل من الدولتين الاسلامية والبيزنطية (٨) .

وحرصت على أن أتعرف الى هذه العلاقة ، واستطعت أن أحصل على صورة شمسية من كتاب والى المدينة (٩) الذى جعلوه أساس دراستهم ؛ وتوافرت على ترجمته الى اللغة العربية ، وجعلت له مقدمة ، وأضفت اليه حواشى كيما يستطيع الدارسون أن يقفوا على مدى العلاقة بين الوظيفتين فى الدولة الاسلامية والدولة البيزنطية .

ذلك أن الدولة البيزنطية نقلت من العصور القديمة الى فجر العصور الحديثة أثرا تجاريا متصلا غير مقطوع . وهذا الأثر يتمثل فيما هو معروف باسم الأصناف أو النقابات . ففى كل المدن الرومانية ، الصغيرة منها والكبيرة ، كان الصناع وأرباب الحرف نوعين ، نوع يعمل لسد حاجات الأسواق المحلية ، وتوفير أسباب الحياة للناس مثل الخبازين والجزارين والخياطين والحدادين وغيرهم . أما النوع الآخر فيعد صناعته للتصدير . وتدخلت الحكومة الرومانية لتنظيم العلاقات بين الجمهور وأرباب الحرف ، وسيطرت على الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى البلاد ، فألزمت الابن بممارسة مهنة أبيه ، وجعلت أرباب الحرف والصناعات ينتظمون فى نقابات خاضعة لسلطان الدولة ، وهى المعروفة باسم collegia (١٠). وكان والى المدينة Prefect of the City من هيئة كبار الموظفين ويلى فى الرتبة والى الاقليم ، وهو مسئول عن الاشراف على الأسواق وتموين السكان بالقمح ومراقبة النقابات (١١) .

ولما سقطت الدولة الرومانية الغربية، ظلت الأنظمة والوظائف قائمة فى الدولة البيزنطية ، واتخذت الألقاب التى كان يحملها الموظفون أسماء يونانية ، فأصبح يطلق على والى المدينة لقب Eparch (١٢) . وكتاب والى المدينة الذى

سبقت الاشارة اليه (١٣) يتضمن القوانين واللوائح التى تتعلق بالنقابات وأرباب الحرف والصنائع فى القسطنطينية فى القرن العاشر الميلادى ، فهو بذلك يساعد على ربط طوائف الامبراطورية الرومانية بنقابات العصور الوسطى ، وييسر لنا دراسة النظام الاقتصادى الذى خضعت له أوجه نشاط الفرد لصالح الدولة. اذ أنه يتألف من مجموعة المرسومات التى تتعلق بالتجارة والتى يصح اعتبارها ملحقا لما احتوته تشريعات ذلك العصر من أحكام ونصوص (١٤) .

ولما كانت الحرف تركز معظمها فى أيدى طوائف أو نقابات ، فان الكتاب اهتم اساساً بتنظيم أوجه نشاطها . على أن نصوص الكتاب لم تمس من حياة الطوائف الا ما يتعلق منها بالحياة الاقتصادية بالعاصمة البيزنطية . يضاف الى ذلك أن هذه المرسومات انما أصدرتها الدولة للنقابات ، ولم تصدر عن النقابات ذاتها أو عن رؤسائها ، فهى تتناول علاقات النقابات بالاحتكارات الحكومية ، وبأهل القسطنطينية وبالغرباء النازلين بالعاصمة ، وبما ترتبط به النقابات بعضها مع بعض من علاقات وصلات . فمن النقابات ما يخضع بطريق مباشر لسلطة الحكومة وسيطرتها ، وهذا النوع يرتبط بالصناعات التى تتعلق بالسياسة الاقتصادية للدولة ، ويتمثل فى النقابات التى تقوم بصناعة الحرير وما يتصل بها من الحرير الخام وتجهيزه وصباغته ونسجه واعداده للبيع أو التصدير فضلا عن المنسوجات الحريرية المستوردة من الخارج (١٥) .

فالمنسوجات الحريرية التى تعتبر من أهم السلع التجارية فى العالم وقتذاك لم تكن مجرد سلعة ، بل كان لها أهمية خاصة ، اذ أن ملابس الامبراطور والطبقة الأرستقراطية تعتبر رمزا للسلطة السياسية ، يضاف الى ذلك ما كان لهذه المنسوجات الحريرية من أهمية فى طقوس الكنيسة والعلاقات مع المتبربرين (١٦). فالسيطرة على هذه المنسوجات القيمة تعتبر من الأسلحة القوية فى يد الأباطرة ، الذين استخدموها حسبما تقتضيه خططهم السياسية ، فأجازوا أو منعوا ، كيفما شاءوا ، تصدير المنسوجات الحريرية أو المصبوغة باللون الارجوانى أو الموشاة بالذهب (١٧) . وأصبح يمارس الصناعات المتعلقة بالحرير طوائف امبراطورية وطوائف خاصة فضلا عن أفراد لا ينتمون لكلا النوعين من الطوائف . وكل من هذه الطوائف تحدد وضعها بقوانين والوائح، تحول دون طغيان طائفة على نشاط

طائفة أخرى ، ومنع تسرب أسرار الصناعة ، فأخذت تعمل جنبا الى جنب تحت اشراف موظفين معينين من قبل الحكومة(١٨)•ويتضح ذلك من تصدير كتاب والى المدينة حيث جاء فيه : ان الله سبحانه وتعالى هو الذى وضع القوانين ، ليهتدى بها الناس فى أعمالهم ، فلا يتعدى أحدهم على الآخر ، ولا يتطاول القوى على الضعيف ، فيجرى بذلك كل شىء فى الحدود المرسومة له (١٩) •

فالنقابات الامبراطورية وهى المعروفة بالنقابات العامة تتولى الحكومة الاشراف عليها ، وتقوم بصناعة وصباغة المنسوجات الحريرية اللازمة للامبراطور ورجال البلاط والأصدقاء ، وهى التى تنتج من المنسوجات العالية الثمن ما كان يوزع بانتظام على كبار والموظفين على أنها جانب من مرتباتهم (٢٠) • على أن هذه النقابات ظلت وراثية حتى القرن السابع الميلادى ، ثم صار الالتحاق بالنقابة امتيازا ، فلا يشغل الوظائف الخالية بالنقابة ، وفقا لقانون هرقل ، الا من يجتاز امتحانا يعقده رؤساء الحرف وموظفون من قبل الامبراطور ، وظل هذا القانون ساريا الى أن اندمج فى تشريعات الأسرة المقدونية فى مجموعة الباسيليكا (٢١) •

وقام الى جانب النقابات الامبراطورية خمس نقابات خاصة تشمل تجار الحرير ، وغزالى الحرير ، وتجار الملابس المصنوعة من الحرير المحلى ، وصناع الأقمشة الحريرية والصباغين ، وتجار المنسوجات الحريرية المستوردة (٢٢) • وتقوم هذه النقابات بصناعة وتجارة المنسوجات القيمة التى تلى فى الرتبة المنسوجات الامبراطورية ، وتتولى بيعها للسكان ، ولها أهميتها فى تجارة بيزنطة الخارجية • ويتحتم عليها أن تؤدى للدور الامبراطورية ضريبة نوعية من هذه المنسوجات • ولم يكن المشتغلون بها مستخدمين حكوميين ، بل كانوا أرباب حرف وتجارا مستقلين ، شأنهم فى ذلك شأن سائر النقابات ، ولذا لم يرد لها ذكر فى مجموعة الباسيليقا ، بل أشار اليها كتاب والى المدينة ، وهذا دليل على أنها بلغت من النشاط ما تحتم جعلها تخضع لاشراف خاص على الرغم من أنها أعمال تجارية خاصة (٢٣) • غير أن فى ذلك دلالة أيضا على انهيار الاحتكار الحكومى لصناعة الحرير ، وأصبح للسكان الحق فى ارتداء ما يشاءون من (٢٤) الملابس • على أن حقوق وواجبات النقابات الخاصة وردت فى كتاب والى المدينة ، فمن القيود المفروضة على صناع الأقمشة الحريرية والصباغين ، ألا

يصبغوا الحرير الخام بالأرجوان ، لأنه يجوز أن يصنع منها ما يشابه الأنواع المحرمة من القماش ، أما اذا لم تستخدم فى صناعة الملابس المنوعة ، من أنواع المنسوجات المخصصة للامبراطور ورجال بلاطه ، جاز لهم أن يفعلوا ذلك . وتضمن كتاب والى المدينة قوائم مفصلة عن هذه المنسوجات من حيث النوع واللون والحجم (٢٥) .

أما الأشخاص الذين يجوز لهم ، وفقا لما ورد فى كتاب والى المدينة من نصوص ، أن يشاركوا فى صناعة الحرير وتجارته ، فلا ينتمون الى نقابة من النقابات ، ومن بين هؤلاء جماعة من طبقة النبلاء ، جاز لهم أن يصنعوا لأنفسهم بعض أصناف من القماش الأرجوانى والملابس الحريرية ؛ وجاز لهم أن يبيعوها لنقابة تجار الملابس المصنوعة من الحرير المحلى، وأن يشاركوا نقابة تجار الملابس السورية من الأجانب ، غير أنه لا يجوز لهم أن يشتروا الحرير الخام من السوق، وترتب على ذلك أنه حرم عليهم صناعة الأقمشة المنوعة (٢٦) . على أن الامبراطور باجازته لهؤلاء النبلاء أو السادة المقطعين أن يقيموا المصانع فى ضياعهم ، لا يستطيع أن يتدخل ليمنعهم من صناعة المنسوجات المنوعة الا اذا أوقف نظام الاقطاع ونمو الضياع الكبيرة (٢٧) . واستطاع هؤلاء النبلاء أن يمارسوا عمليات تجارية ضخمة بفضل ما لجأوا اليه من تربية دودة القز وانتاج الحرير الخام ، وبفضل ما توافر عندهم من أيدى عاملة رخيصة تتمثل فيما يمتلكون من الرقيق (٢٨) .

وأشار كتاب والى المدينة الى حماية فقراء التجار الذين يتسببون فى الحرير الخام، وهم المعروفون باسم metaxarioi ، وفقراء غزالى الحرير katartarioi بأن أجاز لهم أن يشتروا بالتجزئة ما يحتاجون اليه من الحرير الخام من أعضاء النقابات الخاصة بذلك . وربما كان أرباب هاتين الطائفتين من الفقراء المنحدرين من أعضاء النقابات ، أو أنهم تنازلوا عن حقهم فى الشراء الجماعى للمادة الخام (٢٩) .

وعلى الرغم من أن تشريع النقابات اشتمل على مبادىء تؤدى الى الاستقرار التجارى ، والرقابة على السلع التجارية ، وتهيئة الفرص لاتساع التجارة ، والابتكار وتركيز الصناعة والتجارة ، فان تجار الحرير الخام وصناع الأقمشة

الحريرية صارت لهم السيطرة على النقابات الأخرى ، ومثال ذلك أن غزال الحرير لا يستطيع أن يبيع ما يغزله من الحرير مباشرة الى صناع الأقمشة الحريرية ، بل ينبغى أن يسلمه الى تاجر الحرير الخام ، كما أنه لا يستطيع أن يشترى الحرير الخام من المستوردين الا بعد أن يستأذن تجار الحرير الخام . وللحصول على هذا الاذن ينبغى أن يثبت أنه ليس عبدا ، وأنه يستطيع أن يخرج عن قدر كبير من رأس المال كيما يسهم به فى الاشتراك فى عملية الشراء الجماعى ، يضاف الى ذلك أنه لا يستطيع أن يحصل الا على الكمية التى يحتاج اليها فى صناعته (٣٠) .

واذا نجح غزال الحرير فى زيادة رأس ماله ، وأراد أن يثبت اسمه فى نقابة تجار الحرير الخام ، جاز له أن يفعل ذلك بشرط ألا يكون عبدا ، وألا يشتغل بغزل الحرير ، غير أنه من الناحية العملية لم يستطع بعض الغزالين أن يفيدوا من هذه الفرصة لأنهم كانوا أرقاء ، كما أنه لم يستطع جمع المال المطلوب الا فئة قليلة منهم ، وعندئذ كان من اليسير على الغزال أن يتخلى عن استقلاله ، وأن يدخل فى خدمة أحد تجار الحرير الخام (٣١) .

ومن الناحية النظرية لا يجوز لتاجر الحرير الخام أن يشتغل بغير بيع المادة الخام وشرائها ، غير أن هذا القيد الذى تكرر ذكره فى كتاب والى المدينة لم يكن له أهمية ، لأن تاجر الحرير الخام يستطيع أن يستأجر عمالا يدفع لهم الأجر عاجلا ، وأجاز له القانون فى أن يكون له رقيق ، وأن يجعل مكانه منهم من يمارس تجارته ، فلا يخضع بذلك للقيود المفروضة على غزالى الحرير من الرقيق (٣٢) .

ولصناع الأقمشة الحريرية serikerioi ما لتجار الحرير الخام من الامتيازات ، فيستطيعون أن يستأجروا عمالا ، وأن يدفعوا لهم الأجور مقدما ، وأن يقيموا مكانهم ارقاءهم لمباشرة الصناعة ، فجمعوا بذلك بين صناعة القماش وصباغته وبيعه (٣٣) ، على الرغم من أن القانون منعهم من بيع الملابس ، لأنهم بذلك يعتدون على مجال مخصص لطائفة التجار المشتغلين ببيع الثياب الحريرية vestiopratai ، ومنعهم من شراء الحرير الخام الا عن طريق تاجر الحرير الخام ، ومنعهم من دفع جانب من الثمن لتاجر الحرير الخام ليشترى لهم حريرا (٣٤) .

وثمت نقـابة أخـرى ـ الى جانب نقابة صناع الأقمشة الحريرية ، حاولت أن تطغى على أعمال تجار الملابس المصنوعة محليا ، وهذه الطائفة اشتهرت باسم prandiopratai، وتقوم باستيراد وبيع المنسوجات الحريرية المصنوعة فى الشـام والبلاد الأجنبية . والمعروف أن القانون يحرم عليهم القيام بهذا العمل ، غير أن الادارة ، فيما يبدو ، تغاضت عن مخـالفة هذه الطائفة لمـا هو مرسـوم من الحدود ، وليس لذلك من تعليل سوى قوتها وقدرتها على شراء صفقات كبيرة من السلع من الأجانب (٣٥) .

ومن الطوائف التى ورد أيضا ذكرها فى كتاب والى المدينة تجار الجواهر والمشتغلين بالصرف ، وتعتبرها السلطات الحاكمة من أهم النقابات ، فلم يكن مفروضا عليهم فحسب أن يحولوا النوميزمات الى عملات صغيرة أيام الأسواق والأعياد، بل تحتم عليهم أيضا أن يتولوا تحديد الأسعار والأثمان، ولا يجوز لهم أن يبيعوا المعادن الثمينة الى الأجانب لتصديرها (٣٦) . ويجعل كتـاب والى المدينة للمشتغلين فى تجارة الجواهر من الأعمال ما يجوز أن يقوم بها الصيارف ، ولا يحدد لهم أعمالا ووظائف معينة (٣٧) .

أما الطوائف الأخرى فاهتمت بحاجات الحياة اليوميـة ، فتجـار العطور يبيعون العطر والصباغة فضلا عن التوابل التى تعتبر من ضروريات الحيـاة فى العصور الوسـطى . وما كاد يستهـل القرن العاشر حتى طغى العطارون على الصيادلة ، وتولى المستوردون جلب ما يحتاجون اليه من السلع ، ولا يتم البيع الا فى أوقات معينة حتى يسهل الاشراف عليه (٣٨) .

أما صـناع الشمع والصابون فلهم نقابتان مستقلتان ، ويشترى صناع الشمع ما يحتاجون اليه من المادة الخام من الخارج ، ومن الكنائس والأديرة ، ويجعلون منها شموعا ، ويمارسون أيضا تجارة الزيت الذى برسم الاضاءة ، ويعتبر رسم الالتحاق بنقابة الصابون أعلا الرسوم ، اذ بلغ ٦ نوميزمات تدفع لخزانة الدولة ، وست نوميزمات تدفع للنقابة (٣٩) .

واختص بتجـارة الجلد ثلاث نقابات ، الجـلادون الذين يجهزون الجلود الخـام ، والدباغون ثم السروجية الذين يبيعون الجلد بعد تجهيزه واعداده .

وتؤدى النقابات ما يطلبه الامبراطور من خدمات ، اذا اقتضت الأحوال ذلك ، مقابل دفع تعويض لأربابها (٤٠) .

ونقابة المتسببين فى المواد الغذائيـة تضم البقالين الذين تشمل سلعهم ، الى جانب أصناف البقالة والخضراوات ، الدجـاج والسمك المملح والأوانى الفخارية والقوارير والمسامير . والبقالة من الحرف المربحة . وجاز للبقالين أن يتقاضوا من الربح عن كل نوميزما مليارزين أى نحو ١٦ر٦٦ ٪ (٤١) .

أما الجزارون، وجزارو الخنازير فلهم نقابتان مستقلتان، فالجزارون يبيعون لحم العجول والضأن، وحتمت عليهم الأحوال أن يخرجوا لتلقى قطعان الأغنام القادمة من آسيا الصغرى الى شاطىء نهر Sangarius (سنكاريوس) فيجرى شراؤها بثمن بخس . أما الأغنام التى يجلبها أصحابها الى العاصمة فيتم بيعها فى أماكن وأوقات معينة . وينبغى بيع الأغنام منفصلة عن حملانها ، ويدفع صاحبها ضريبة عن كل نوع منها ، ويبيعها الى قصابين معروفين ، ويشهد عملية ذبح الأغنام موظفون من قبل الحكومة . وللخنازير سوق خاصة بها فى القسطنطينية ، ولباعة السمك أسواق عديدة ، لما للسمك من أهمية غذائية ، فيشتريه التجار من الميناء والسفن ومراسيها ، وينبغى الا يشتغلوا فى بيع السمك المملح (٤٢) .

وللخبازين حقوق وامتيازات خاصة . وبلغ من أهمية نقابة الخبـازين فى رخاء المدينة ، أن أعضاءها لا يلتزمون بتأدية خدمات وواجبـات عامـة ، بل يشترون القمح ويتولون طحنه ، ويتقاضون من الربح قيراطا واحدا ومليارزين عن كل نوميزما . فالقيراط هو الربـح الخالص ، أما المليارزيان فهمـا أجرة العمل . وينبغى تشييد الأفران من الآجر لمنع الحرائق (٤٤) .

ولأرباب الحانات نقابة خاصة ، وليسوا الا تجارا للنبيذ ، وينبغى أن تغلق الحانات أبوابها عند الغروب (٤٥) .

وتضمن كتاب والى المدينة أيضا لوائح تتعلق بمقاولى العمائر والمبـانى وما يتصل بها من أرباب الحرف مثل النجارين والبنائين والحدادين والمبيضين ، على الرغم من أنه لم يفرد لهم نقابة خاصة . ولا يجـوز لمن يمارس البنـاء أن يتحول عن حرفته ، ولا يجوز تغيير عقود البناء الا بعد أن يقـوم ممثل والى

المدينة بفحص البناء وتقدير قيمته ، فاذا تداعت البيوت المشيدة من الآجر قبل مضى عشر سنوات على بنائها ، تحتم على المقاول أن يعيد بناءها على نفقته الخاصة ، الا اذا كان سبب انهيارها يرجع الى القضاء والقدر . أما المنازل المشيدة من الطين فلا يتحمل المقاول مسئوليتها الا لمدة ست سنوات (٤٦) .

وللنقابات أحياء خاصة بالمدينة ، غير أن نقابات عديدة تقع بالشارع الرئيسى الممتد وسط المدينة . وللجزارين وباعة السمك أسواق خاصة . أما البقالون والخبازون فانتشرت حوانيتهم فى سائر أنحاء المدينة حتى لايشق على الناس الوصول اليهم . واتخذت طائفة العطارين أماكنها بالقرب من الباب البرونزى للقصر الأمبراطورى . ولاشك أن تركيز كل حرفة فى مكان خاص يسر لمندوب الوالى أمر الاشراف عليها . واذا لم تتحدد أسعار السلع وأرباحها فى قوانين النقابة ، جاز لوالى المدينة أن يحددها حسبما تقتضى الأحوال (٤٧) .

وكل الأوزان والأكيال ينبغى أن تحمل خاتم والى المدينة ، ولابد من التفتيش عليها من حين الى حين . وكل نزاع أو اختلاف يحدث بين المستخدم والمستخدم أو بين البائع والمستهلك لا يعرض على محاكم النقابات ، بل ينظر فيه مجلس الوالى . ويراعى والى المدينة كل ما تنطوى عليه لوائح النقابات من نواحى دينية ، ينبغى تنفيذها وأداؤها . ومثال ذلك أنه ينبغى اغلاق المحلات التجارية يوم الأحد ، على أن كثرة الاشارات الى مراعاة ذلك تدل على أن القاعدة تعرضت للاهمال فى أحوال كثيرة . وينبغى أيضا أن يتوقف النشاط التجارى أيام الأعياد ، وألا تفتح الحانات أبوابها قبل الساعة الثامنة صباحا فى أيام الآحاد والأعياد ، وألا يستخدم صناع الصابون دهن الحيوان أيام الصيام ، وأن يوضح الصاغة ما باعوه من التحف المقدسة ، حتى لا تتسرب المخلفات المقدسة الى خارج الامبراطورية ، اذ أن تهريب المخلفات الدينية كان تجارة رابحة . فالكنائس والحكومات بغرب أوربا كانت تدفع أثمانا عالية مقابل الحصول على بعض مخلفات القديسين الأوائل (٤٨) .

ويتصل بموضوع النقابات مشكلة الرق . فالمعروف أن استخدام الرقيق فى الدور والبيوت ظل مستمرا فى الدولة البيزنطية . على أن هؤلاء الأرقاء كانوا من أسرى الحروب ، وقل عددهم فى القرن الثانى عشر ، ويعتبرون أعلا

مكانة من الأرقاء الذين تمتلكهم الدولة . والدليل على ذلك أنه اذا ارتكب العبد من الذنوب ما يقتضي عقابه ، تقرر ارساله ليكون من عبيد الدولة . ويجوز استخدام الأرقاء فى التجارة والصناعة ، ويصح بذلك أن يكون عضوا فى النقابة ، وعندئذ يقوم سيده بتمويله مقابل أن يؤدى له نسبة معينة من الأرباح ويستطيع آخر الأمر أن يشترى حريته (٤٩) .

أما الأجانب ، ومن بينهم اليونانيون الذين يسكنون أقاليم الدولة البزنطية، فلم يلقوا معاملة طيبة . فاذا جاء أحدهم الى العاصمة ببلعة من السلع فلا يبقى بالعاصمة أكثر من المدة التى يقررها والى المدينة ، وهى لا تزيد على ثلاثة شهور ، ويخضع أثناءها لمراقبة شديدة من قبل موظفى الدولة . وتحتم عليهم ألا يشتروا الا أنواعا معينة من الملابس والمنسوجات ، حتى لا يقوموا بتهريبها الى البلاد الأجنبية . وما ورد فى كتاب والى المدينة من نصوص عديدة عن الأجانب تدل على حرص الامبراطورية على توفير ما تحتاجه المدينة من السلع ، وحماية النقابات فى العاصمة من منافسة الصناعات الاقليمية (٥٠) .

وتعرض اليهود لما تعرض له الأجانب من قيود ، اذ جرى منعهم من شراء الحرير الخام حتى لا يقوموا بتهريبه . وللتمييز العنصرى أهميته فى هذا القرار فالمعروف أن اليهود فى الدولة البيزنطية وغرب أوربا لم يجز لهم الالتحاق بالنقابات ، بينما جاز لهم ذلك فى الدولة الاسلامية ، وللصانع اليهودى فى القرن العاشر الميلادى شهرته بالمهارة فى الصياغة (٥١) . وأقام اليهود فى أنحاء الامبراطورية البيزنطية على أنهم جاليات أجنبية يقيمون فى أحياء معينة ، بينما استقر سائر الأجانب فى جهات بعيدة عنهم (٥٢) .

وتطلبت مراقبة الأجانب أن تشترى الحكومة أو تستأجر فى العاصمة وكالات (خانات) mitata ، لينزل بها التجار الأجانب ، حيث يودعون سلعهم ، ويدفعون ما هو مقرر عليها من رسوم، ويمارسون بها تجارتهم ، غير أنه لا يجوز للتاجر الأجنبى أن يبقى بها أكثر من المدة التى يحددها مندوب والى المدينة، وهى لا تزيد عادة على ثلاثة شهور . ويمارس التاجر الأجنبى نشاطه على قاعدة المقاصة ، اذ لا يجوز أن يخرج الذهب من البلاد ، فاذا تجاوز التاجر الأجنبى الحدود المرسومة له ، تعرض للعقوبات البيزنطية ، كالجلد وحلق الشعر

ومصادرة السلعة، والطرد من المدينة، ويتعاون والى المدينة مع مندوبيه فى مراقبة التاجر الأجنبى (٥٣) .

وكان لزاما على والى المدينة أن يستخدم عددا من الموظفين ليقوموا بما تتطلبه طبيعة رقابة الحكومة من الاشراف الدقيق على ما تمارسه النقابات من أعمال . وهؤلاء الموظفون يشملون مندوبين أو مراقبين legatarios ومتومين ، ومفتشين على الموازين والمكاييل ، ومفتشين على النسيج ، وموظفين آخرين لم تكن لهم أعمال محدودة . فاختص المراقب بالاشراف المباشر على الأجانب ، ومن واجباته فحص سلعهم ، ومنع تخزين البضائع برسم تجار المدينة . أما القوموون فيتولون التفتيش على النقابات المختلفة ، ويجبون منها ما هو مقرر عليها من الرسوم ، ويراقبون أعمالها بمختلف الوسائل . يضاف الى ذلك أن والى المدينة لجأ الى استخدام رؤساء النقابات ، وهؤلاء يعينهم من بين أفراد الطوائف بمقتضى ما له من سلطان . ويعتبرون وسطاء بين والى المدينة والنقابات ، ويضطلعون بمسئولية مراعاة أن ارشادات والى المدينة قام بتنفيذها أعضاء النقابات (٥٤) .

والواضح من هذا المجمل عن العلاقة بين والى المدينة والنقابات أن عنوان « كتاب والى المدينة » هو عنوان مناسب للقانون الذى اشتمل على كل المرسومات التى تولى تنفيذها والى المدينة فى علاقاته مع هذه الطوائف . غير أن هذا الكتاب لم يشتمل على كل ما فى القسطنطينية من نقابات . والراجح أن هذا التحديد كان متعمدا . فلم يتناول القانون الا أهم الحرف التى تؤدى خدمة كبيرة للدولة والمدينة ، وترتب على ذلك أنه لم يرد بالكتاب من الحرف الا تلك التى تلتزم بتأدية خدمات هامة ، وتلك التى تمارس من الحرف والصناعات ما يتعلق باحتكارات الدولة ، أو تلك التى تعتبر نواحى نشاطها من الأمور الجوهرية لتزويد المدينة بالمواد الغذائية (٥٥) .

والنقابات التى تناولها القانون هى النقابات التى خلفت ما كان بالأمبراطورية الرومانية من طوائف التجار والصناع ، فأسماؤها تطابق فى حالات كثيرة أسماء الطوائف المتقدمة . أما علاقاتها بالدولة فظلت فى جوهرها على ما كانت عليه ، على الرغم من أنه جرت فى هذه الناحية تغييرات هامة . منها أن العضوية فى النقابة لم تكن ، فيما يبدو ، وراثية ، وأن قبول الأعضاء بالنقابة أضحى اختياريا

بعـد أن كان اجباريا ، وأن الدولة صـارت تفرض رقابة بالغة الشـدة على الأشخاص الذين جرى قبولهم بالنقابات ، وعمدت الى طرد أولئك الذين تبين أنه غير مرغوب فيهم . على أن نظام الخدمات الاجبارية ظل باقيا لم يتغير ، على الرغم من أن الغاء النظام الذى يقضى بمنح سـكان القسطنطينية مقـادير من الخبز والنبيذ والزيت أدى الى التخلى عن بعض هذه الخدمات (٥٦) .

وفيما يلى ترجمة عربية « لكتاب والى المدينة » نقلا عن النص الذى أورده الأستاذ بوك الذى سبقت الاشارة اليه (٥٧) .

## كتاب الوالى

### تصـدير

ان الله ، بعد أن خلق ماهو كائن من الأشياء ، وكفل للعالم الأمن والوفاق ، خط بأصبعه على الألواح القانون ، ونشره علنـا حتى لا يتطاول الناس ، وقد اهتدوا به ، بعضهم على بعض ، ولا يطغى القوى على الضعيف . بل ينبغى أن تسير كل الأشياء وفق ما هو مقدر لها من نظام .

ولذا كان من صالح ملامتنا أيضا أن نصدر الأوامر التالية على أساس القوانين كيما يخضع الناس لحكم سليم ، وحتى لا يتعدى شخص على الآخر .

### الفصل الأول

**الموثقون :**

١ — كل من يريد أن يكون موثقا ، ينبغى أن يجرى انتخابه بموافقة وقرار كل من رئيس نقابة الموثقين (٦٠) ، ومن يعمل معه من الموثقـين ، حتى يطمئنوا الى درايته بالقوانين وفهمها ، والى تفوقه فى الكتابة ، والى أنه ليس ثرثارا كثير الكلام ولا وقحا ، ولا يعيش حياة فاسدة ، انما يشتهر فى طباعه بالاتزان والجد ، ولا يشتهر فى أفكاره بالخداع ، معروف بالفصاحـة والطلاقة والذكاء ، وأنه قارىء مطبوع ، دقيق فى الأداء ؛ ويحترزون بأنه لا يسهل انقياده لأن يؤدى معنى كاذبا فى المواضع التى يكتبها ، أو أن يضمن كتابته عبارات خادعة ، واذا ظهر أن موثقا يقوم بما يخالف القانون واللوائح المدونة المقررة ، تحمل مسئولية ذلك ، أولئك الذين شهدوا له .

٢ — ينبغي على المتقدم لهذه الوظيفة أن يكون قد وعى موضوعات مجمل القانون (٦١) ، وأن يكون قد حفظ أيضا الستين كتابا التي تتألف منها « الباسيليكا » (٦٢) ، وأنه تلقى من التعليم ما يجعله لا يخطيء في صياغة وثائقه، ولا يقع في خطأ في قراءته • وينبغي أن يكون قد توافر له من الوقت ما يكفي لاثبات قدرته العقلية والبدنية ، فيطلبون اليه أن يعد وثيقة يحررها بخط يده في اجتماع للنقابة ، حتى لا يرتكب فيما بعد أخطاء لا يتوقعها ، حتى اذا حدث بعدئذ ما أدى الى اكتشاف خطأ ارتكبه ، تقرر طرده من النقابة •

٣ — يجرى انتخاب المرشح على النحو التالي : بعد الاستماع الى الشهود ، وبعد اختباره ، ينبغي عليه أن يتقدم مرتديا عباءة للمثول أمام السيد الأمجد والى المدينة ، ومن بصحبته من طائفة الموثقين ورئيس الطائفة ، فيحلف هؤلاء أمام الله ، وبحياة الأباطرة، أنه تقرر الحاق هذا المرشح بالطائفة، لا عن محسوبية أو تحت تأثير معين ، أو لسبب عائلي أو صداقة ، بل بسبب سلوكه الطيب ومعرفته وكفايته وصلاحيته العامة • وبعد أن يتم أخذ الأيمان ، حسبما تقرر ، يقوم والى المدينة ، باشارة منه ، باعلان انتخابه عضوا في ادارة المدينة ، وبذلك يلتحق بالنقابة ، ويصير من الموثقين • ثم يذهب بعدئذ الى أقرب كنيسة لمسكنه ، مرتديا عباءته يزينها شريط أبيض ، بينما يرتدي جميع الموثقين عباءاتهم ، حيث يكرسه القس بما يتلوه من أدعية • ويصحبه في طريقه كل الموثقين مرتدين عباءاتهم ، بينما يحمل رئيس الطائفة مبخرة ، ويحول ما ينبعث من البخور من أدخنة نحوه ، ذلك الذي جرى انتخابه حديثا ؛ والذي يحمل الانجيل مفتوحا أمامه ، والمقصود من ذلك أن طريقه سوف يكون مستقيما مثلما ارتفع دخان البخور عاليا أمام وجه الله • وفي هذه الهيئة الرائعة يتقدم الى الجلوس على المقعد الذي تخصص له ، ثم يعود الى بيته على هذه الصورة من الأبهة والجلال ، فيشارك زملاءه الطعام والسرور •

٤ — وكل موثق يتعمد أن يتغيب عن الموكب الملكي أو الاحتفال الملكي في ميدان السباق ، أو كل اجتماع يدعو اليه السيد الأجل والى المدينة ، أو عن أي اجتماع من هذا القبيل ، تحتم عليه أن يدفع ٤ قراريط (٦٣) الى موظفي والى المدينة ، وأن يدفع مبلغا مماثلا لأعضاء النقابة • أما اذا أبدى سببا

واضحا مقبولا يبرر غيابه ، الذى لم يحدث ليحقق من ورائه كسبا خاصا ، تقرر اعفاؤه من العقوبة ، اذا وافق رئيس النقابة ٠

٥ — واذا استدعى رئيس النقابة أحد الموثقين لأمر ضرورى ، ولم يستجب ( الموثق ) لدعوته للمرة الأولى والثانية والثالثة ، تحتم عليه أن يدفع عن عدم حضورة للمرة الأولى قيراطين ، وعن الثانية أربعة قراريط ، وعن المرة الثالثة ستة قراريط ، أما اذا فعل ذلك بدافع الغطرسة وروح الازدراء ، تقرر بناء على أمر والى المدينة ، انزال العقوبة به ، بأن يصير جلده ٠

٦ — واذا تم استدعاء الموثق لتحرير عقد ، وتحتم بعدئذ دعوة موثق آخر ، تقرر أن يشترك الاثنان سويا فى العمل ، وأن يتقاسما الأجر بالتساوى ٠ أما اذا جاء أحدهما دون أن توجه اليه دعوة بالحضـــور ، فانه لا يكفى طرده فحسب دون أجر ، بل ينبغى أيضا مجازاته بالجلد ٠ واذا ترك أحدهما العمل باختياره ، بعد أن أوشك على التمام ، فلا يجوز أن يحصل على نصيبه من الأجر ٠

٧ — واذا حدث أن أراد الموثق الذى تم استدعاؤه لكتابة العقد، أن تخلى عن العمل لسبب معقول ، ودعا موثقا آخر ، فان هذا الموثق الذى استدعاه يتقاضى ثلثى الأجر ، على حين يأخذ الثلث الباقى الموثق الذى جرى استدعاؤه أول الأمر ٠

٨ — واذا تم استدعاء موثق وقام بانجـاز العقد ، ثم حدث أن استدعى موثق آخر ، وأنجز الاثنان العقد وأتما العمل ، حصل الموثق الثانى على الأجر كله ، اذا لم يكن يعلم بأن هذا العمل سبق أن قام به الموثق الأول ٠ أما اذا جاء وهو يعلم ذلك ، فلا يحصل الا على ثلث الأجر ، بينما يحصل الأول على الثلثين ٠ واذا جرى استدعاؤهما معا ، فينبغى أن ينصاع الأصغر لمن يكبره فى المكانة ؛ غير أنهما يقتسمان الأجر بالتساوى ٠

٩ — واذا أقبل موثق على مجلس به موثق آخر ، ولم يؤد الثـانى له من التحية ما يليق باحترامه ، أو اذا جلس أحدهما الى مائدة دون مراعاة للمكانة والأسبقية ، أو اذا صار اتهام أحدهما بالاساءة الى الآخر ، تحتم على المذنب أن يدفع عن كل حالة من هذه الحالات ستة قراريط ، واذا تطاول أحدهما بيديه على الآخر ، تولى والى المدينة انزال العقوبة به ٠

١٠ — واذا حدث نزع بين كاتب عقود (٦٤) وموثقين آخرين بسبب وثيقةمن الوثائق أو الحصول على الأجر ، تولى رئيس الطائفة الفصل فى الموضوع اذا كان بسيطا هينا ، أما اذا ارتبط الأجر بمبالغ كبيرة ، صار والى المدينة هو القاضى الذى يفصل فى النزاع : فيرفع اليه رئيس النقابة هذا الموضوع ، واذا لم يستجب الطرف الذى صدر الحكم ضده : لقرار رئيس النقابة ، تقرر تغريمه ثلاث نوميزمات (٦٥) .

١١ — اذا وقع الاعتداء على موثق من موثق آخر ، فعليه أن يتقدم بدعواه أولا الى رئيس النقابة ، ثم الى المحكمة العليا التى يرأسها والى المدينة ، واذا لم يفعل ذلك ، خسر قضيته .

١٢ — ينبغى على الموثق أن يبادر ، فى حضور الشهود والطرفين اللذين استدعياه ، الى تأدية ما يتطلبه القانون من اجراء صياغة خاتمة العقد ، وأن يبلغ فى تحريرها ما يجعل العقد سليما صحيحا . واذا تبين أنه أغفل هذا العمل ، تحتم بناء على أمر الوالى ، جلده وقص شعره (٦٦) .

١٣ — وبناء على أمر السيد الوالى الأمجد ، يصير تعيين مدرسى (٦٧) القانون وسائر المعلمين فى الوظائف الدائمة ، بعد موافقة نقابة الموثقين : ابتداء من رئيس النقابة حتى مدرسى القانون وسائر المعلمين . ويدفع مدرس القانون نوميزمتين لرئيس النقابة ، كما يدفع للنقابة نوميزما واحدة رسما للالتحاق بها ، بينما يدفع المعلم العادى لرئيس النقابة نوميزما واحدة ، وللنقابة نوميزمتين .

١٤ — والموثق الذى تم انتخابه حديثا ، ينبغى عليه أن يدفع لرئيس النقابة ثلاث نوميزمات على أنها رسم الالتحاق ( بالنقابة ) ، بينما يدفع كل من الآخرين ( مدرس القانون والمعلم العادى ) نوميزما واحدة ، ويسهم أيضا فى نفقات المائدة بدفع ست نوميزمات .

١٥ — واذا حرر مدرس القانون عقودا دون أن يحصل على تفويض من الوالى ، وموافقة الموثقين وتصديقهم ، تقرر جلده وطرده من وظيفته .

١٦ — ولا يجوز لمدرسى القانون أو الدراسات الأخرى ، أن يقبلوا صبيا من مدرسة أخرى ، الا اذا أتم ( الصبى ) مقرر الدراسة الذى دفع عنه الأجر .

أما اذا أراد والداه استعادته بسبب الاهمال ، جاز لهما أن يفعلا ذلك ، بعد أن يخطرا رئيس النقابة •

١٧ — ينبغى ألا يعمل مساعدو الموثقين ما هو مخالف لرغبة سادتهم ، واذا جرى ضبطهم يفعلون ذلك ، حل بهم العقــاب ، وتقــرر طردهم ومنع الموثقين الآخرين من استخدامهم •

١٨ — ولا يجوز لمساعدى الموثقين أن يضيفوا للعقود الصيغة الختامية ، لأن هذا يعتبر من حقوق الموثقين •

١٩ — ويدفع الموثق لمساعده عن كل نوميزما من أجره ، قيراطين •

٢٠ — واذا اتخذ موثق مكانه المعتاد فى دار من الدور المقدســة ، أو من الدور العامة ، أو فى دير من الأديرة ، أو فى ملجأ من ملاجىء كبار السن ، وحاول موثق آخر أن يخرجه منه ، تقرر تغريم الثانى عند افتضــاح أمره ، بأن يدفع عشر نوميزمات •

٢١ — اذا عجز رئيس النقابة عن مباشرة واجبــات وظيفته بسبب المرض أو كبر السن ، أو العجز فينبغى أن يعتزل الخدمة ، وأن يحصل على ما هــو مقرر له باعتباره رئيسا ســابقا للنقابة ، ويحــل مكانه فى الوظيفة من يليــه فى الرتبــة •

٢٢ — واذا تقرر تعيين رئيس للنقابة ، قام والى المدينة بترقية أعلا الموثقين مكانة الى هذه الوظيفة ، بشرط أن تشهد الطائفة كلها بأنه جدير بهذا المنصب• أما اذا تبين أنه لا يستحقه ، تقــدم لشغل هذه الوظيفة من يليــه مباشرة فى المكانة ، ثم الذى يتلوه • ويتحتم عليه مقابل هــذا أن يتقــدم بالشكر الى الموثقين الذين يعملون تحت ادارته •

٢٣ — ينبغى ألا يزيد مجموع عدد الموثقين على أربعة وعشرين موثقــا ، وليس لوالى المدينة من السلطة ما يجعله يدرج أكثر من هذا العدد فى النقابة ، متذرعا بحجــة أنه انما يعين مندوبين أو نوابا عنه ، واذا تبين أنه فعل ذلك ، تقرر تجريده من حزامه ومن وظيفته (٦٨) • وينبغى أن يكون عدد الموثقــين مســاويا لعدد وظائفهم •

٢٤ — لا يجوز للموثق أن يتخذ مساعدا له دون أن يقدمه أول الأمر الى النقابة ورئيس النقابة ، ويقرر أنه شخص مستقيم ، ولا يستخدم الموثق الا مساعدا واحدا .

٢٥ — ويتقاضى الموثقون عن تحرير العقود أجورا قدرها اثنى عشر قيراطا اذا لم يتجاوز مقدار العقد ، مهما كانت أهميته وقيمتـه ، مائة نوميزما ، واذا زاد على ذلك ، تقاضى (أجرا اضافيا قدره) نوميزما (٦٩). واذا زاد مرة أخرى ، صار الأجر الاضافى نوميزمتين. ولا يجوز لهم أن يسعوا الى الحصول على أجور مرتفعة . ولا يجوز لهم أن يفرقوا فى المعاملة بين الأفراد عند اعداد وثائقهم : عقود البيع ، وعقود الزواج ، والوصايا ، والعقود . واذا حـدث أن افتضح (أمر) أحـدهم بأن طلب أجرا مرتفعا ، تقرر طرده من وظيفته ، وجرى جلده بناء على أمر والى المدينة . أما اذا تلقى الموثق هدية من شخص دون أن يطلب ذلك (منه) أو يسعى الى (الحصول عليها) ، جاز له أن يقبلها ، ولا يجـوز استدعاءه لمناظرته ، لأنه اذا ازداد عبء الأجور على العملاء ، عمـدوا الى أن يتركوا عقودهم فى أيدى الموثقين ، وكلمـا مضى الوقت ، وجرى نسيان هذه العقود ، حدثت المشاجرات والمناقشات بين الأفراد .

٢٦ — واذا مات الموثق ، اجتمع زملاؤه مرتدين عباءاتهم وشيعوا جثمانه الى القبر ، حتى يتناسب جلال تشييعه مع روعة انتخابه ، وكل من تخلف عن الحضور لمصلحة خاصة ، دون أن يبدى عذرا مقبولا ، تقرر تغريمه (بأن يدفع) ستة قراريط .

## الفصل الثانى

### تجار الجواهر :

١ — بناء على أمرنا ، يجوز لتجار الجواهر أن يشتروا ، اذا دعاهم شخص من الأشخاص ، مايتصل بحرفتهم من الأشياء كالذهب والفضة واللؤلؤ والأحجار الكريمة ، غير أنه لا يجوز لهم أن يشتروا البرونز ، والمنسوجات الكتانيـة ، وسائر السلع التى يختص بشرائها غيرهم . ومع ذلك لا يجـوز منعهم من أن يشتروا ما يريدون لاستعمالهم الخاص .

٢ — ينبغى ألا يخفضوا أو يزيدوا ثمن الأشياء المعروضة للبيع ، بما يضر البائعين ، غير أنه ينبغى عليهم أن يقوموها بقيمتها الصحيحة . واذا عمد أحدهم الى فعل ذلك على سبيل الغش ، تحتم عليه أن يدفع للبائع ما تقرر من القيمة للسلع .

٣ — ووفقا للعرف القديم ، ينبغى على تجار الجواهر أن يتخذوا فى أيام انعقاد الأسواق أماكنهم فى داخل دكاكينهم ، ويكون معهم من المباشرين من يتعاهدون موائد مبيعاتهم . وينبغى أن يكون حساب نقدهم بالمليارزات (٢١) ؛ حتى اذا أراد أحد الأشخاص أن يبيع لتجار الجواهر شيئا من سلعهم ، استطاعوا أن يشتروه .

٤ — اذا اكتشف تاجر الجواهر أن امرأة تعرض للبيع أشياء مصنوعة من الذهب أو الفضة أو اللؤلؤ أو الأحجار الكريمة ، تحتم عليه أن ينهى لوالى المدينة بخبر هذه الأشياء ، فيحول دون تصديرها الى الأجانب .

٥ — اذا عمد أحدهم الى التهجم على معدن غير مسكوك ، وصنع منه أشياء يقصد بيعها ، تقرر قطع يده .

٦ — اذا باع أحد الأجانب ذهبا أو فضة ، مصنوعا أو غيرمصنوع ، جرى التحقيق معه عن أصله ، واخطار رئيس النقابة بخبره ، حتى يتم اكتشاف هذه السلع المسروقة .

٧ — اذا تبين أن أحد تجار الجواهر اشترى قطعة من المخلفات الدينية ، سواء كان بها خدش أو كانت سليمة ، دون أن يعرضها على والى المدينة ، تقرر مصادرته ومصادرة البائع (٢٢) .

٨ — نأمر بأنه ينبغى على الصائغ سواء كان عبدا أو حرا ألا يشترى لعمله أكثر من رطل واحد من الذهب غير المسكوك ، سواء كان مصنوعا أو غير مصنوع .

٩ — اذا حصل ( صائغ ) لعمله من صائغ آخر على أكثر من رطل ذهب غير مسكوك ، ولم يبادر باخطار رئيس الصاغة عنه ، قامت الحكومة بمصادرته اذا كان عبدا ، أما اذا كان حرا ، تحتم جلده ، وتقرر تغريمه رطلا من الذهب .

١٠ — واذا أقام عبد بدكان تاجر جواهر ، ينبغي أن يكون ذلك بموافقة سيده ، اذا كان ( هذا السيد ) موفور الثراء ، أما اذا كان حرا فينبغي أن يشهد بأمانته وصدقه خمسة أشخاص ، يخضعون لمثل ما يخضع له ذلك الذى رشحوه من الثراء .

١١ — ونأمر أنه ليس للصانع الحق فى أن يصنع الذهب والفضة فى بيته ، بل يقوم بذلك فى الدكاكين المنصوبة بشارع الميز (٢٣) . ولا يجوز لأحد أن يكون صائغا الا بعلم والى المدينة .

١٢ — لا يجوز لتجار الجواهر أن يقوموا بتقدير قيمة المعادن الا بعلم والى المدينة ، ولا يجوز أن يقع بينهم ، عند تقويم المعادن ، شىء من النزاع والشجار . فاذا جرى ضبطهم يفعلون شيئا من هذه الأمور ، تقرر جلدهم ، وقص شعرهم ، وحذف اسمهم من سجل النقابة .

## الفصل الثالث

### الصيارف :

١ — ينبغى على كل من يرغب فى أن يمارس الصيرفة ، أن يزكيه رجل مشهود له بالاحترام والأمانة ، يضمن بأنه سوف لا يعمل ما هو مخالف للمرسومات ، ويشهد بأنه لا يقطع أطراف النوميزمات أو الميليارزيات ، أو يجعل عليها نقوشا زائفة ، أو يقيم مكانه عبدا من عبيده ، اذا حدث ما دعا الى انصرافه الى بعض الأعمال الطارئة ، حتى لا يتطرق الى عمل المهنة ما يدعو الى العبث واستخدام الحيل . واذا ضبط أحدهم يفعل هذه الأمور ، تقرر مجازاته بقطع يده .

٢ — ينبغى على الصيارف (٢٤) أن ينهوا الى والى المدينة بخبر المزيفين الذين يتخذون مواضعهم بالميادين والشوارع ، حتى يمنعهم من المضى فى الأعمال المخالفة للقانون ، واذا علموا بأمر هؤلاء ( المزيفين ) ، ولم ينهوا بخبرهم ( لوالى المدينة ) ، تعرضوا للعقوبة التى سبق ذكرها .

٣ — ولا ينبغى للصيارف أن ينقصوا من قيمة ميليارزيا خالصة سليمة تحمل الخاتم الامبراطورى الصحيح ، غير أنه ينبغى عليهم أن يقبلوها على أنها

مساوية لأربعة وعشرين فلسا . ومع ذلك ، اذا اختلفت حالة النقد عن ذلك ، فلابد من تقديره تبعا لهذا الاختلاف . ومن لم يراع ذلك منهم ، تقرر جلدهم وقص شعورهم ومصادرتهم .

٤ — ينبغي على كل صيرفي أن يكون عنده مساعدان يتوليان فرز النقود . وينبغي أن يكون ضامنا لهما . فاذا جرى ضبط أحدهما يرتكب ما يخالف القوانين ؛ تعرض ، هو ومن عينه (لهذا الغرض) ، للعقوبات التي سبق ذكرها .

٥ — وكل صيرفي يتلقى نوميزما أو ملياريزة زائفة ، ولا ينبيء عنها ، وعن حائزها ، والي المدينة ، تحتم جلده وقص شعره ونفيه .

٦ — ينبغي على الصيارف ألا يعطوا مساعديهم دفاتر حسابات أو نقودا ، أو يقيموهم في الميادين أو الشوارع ، ليحصلوا من وراء نشاطهم على أرباح ، وينبغي عليهم أن يلزموا مصارفهم وألا يغادروها حتى في الأحوال التي يجري فيهما توزيع الصدقات ، أو تأدية الصلوات للامبراطور ، واذا ضبط أحدهم يفعل ذلك ، تقرر ضربه ، وقص شعره ، ومصادرته .

## الفصل الرابع

### تجار الملابس الحريرية(٧٥)

١ — يجوز لتجار الملابس الحريرية أن يشتروا أثوابا حريرية ، غير أنهم لايشترون من السلع الا ما يسد حاجتهم الشخصية ، (ولا يجوز) أن يبيعوها الى غيرهم من الناس ، ولا يجوز لهم أن يعطوا للأجانب شيئا من السلع الممنوعة : مثل السلع المصنوعة من الحرير الأحمر أو الأرجواني التي من الحجم الكبير ، حتى لا تنتقل الى الأجانب . وكل من ينتهك هذه اللوائح ، تعرض للجلد ومصادرة السلع .

٢ — واذا اشترى تجار الملابس الحريرية ، سواء كانوا أحرارا أو أرقاء ؛ من الأثواب ما يساوي ثمنها عشر نوميزمات من أشخاص ، أيا كانت صنعتهم ، ولو كانوا أمراء أو من نساجي الحرير ، فينبغي عليهم أن ينهوا لوالي المدينة بخبرها حتى يعرف أين يجري بيعها . ومن يخالف ذلك منهم ، تعرض للعقوبة التي سبق ذكرها .

٣ — وكل من لا يخطر والى المدينة بمــا لديه من العبــاءات أو الأثواب الزرقــاء اللون ، أو التى يختلط فيهــا اللون الأحمر بالأرجــوانى ، تعرض للعقــاب (٢٦) .

٤ — وكل من لا يطلع منهم والى المدينة على ما ينبغى تصديره من السلع للأجانب ، حتى يحصلوا بذلك على موافقته ، حل بهم العقاب .

٥ — وينبغى لمن يجرى ادراجه فى نقابة تجار الملابس الحريرية ، أن يعلن خمسة من أعضاء هذه النقابة ، فى حضرة والى المدينة ، بأنه « أهل لأن يكون فى هذه الحرفة » . وعندئذ يصير ادراج اسمه فى سجل النقابة ، ويفتح له دكانا، ويمارس التجارة ، ويدفع للنقابة ست نوميزمات .

٦ — وكل من يريد أن يكون له حانوت يبيع به الأثواب الحريرية ، ينبغى عليه أن يدفع ست نوميزمات ، وينبغى أيضــا أن يحصــل على موافقة والى المدينــة .

٧ — ومن كان تاجرا لأثواب حريرية ، وكان ناسجا للحرير فى آن واحد ، ينبغى أن يختار احــدى هاتين الحرفتين ويتخلى عن الأخــرى . واذا تبين أنه يمارس الحرفتين معا ، دخل تحت طائلة العقوبة الموضحة بعاليه (٢٧) .

٨ — ومن يقيم من الأجانب بخانات المدينة ، ينبغى الاهتمام بمنعهم من أن يشتروا ما هو ممنوع من قطع الملابس ، أو الملابس المنسوجة من قطعة واحدة ، الا ما كان منها لاستخدامه خاصــة ، أو تلك التى جرت صــناعتها بمدينــة الأمبراطور . وينبغى عليهم عند مغادرة المدينة أن يعلنوا والى المدينة بخبر تلك السلع ، حتى يعلم ما اشتروه من السلع . وكل من يساعدهم على اخفاء هذه الأشياء ، تعرض للجلد ومصادرة السلع .

٩ — وكل تاجر من تجار الأثواب الحريرية يسعى سرا أو علنا لرفع الايجار الذى يدفعه غيره من التجار ، تعرض للجلد وقص الشعر ومصادرة السلع .

**تجار المنسوجات الحريرية السورية :**

١ — ينبغى على تجار المنسوجات الحريرية السورية أن يخضعوا لاشراف رئيس يعينه والى المدينة . وينبغى ألا يمارسوا حرفة تجار الملابس الحريرية ، وألا يشتروا من السلع سوى أصناف الملابس المستوردة من سوريا ، وما ورد من السلع الحريرية من سلوقية . وكل من يخالف هذه الأوامر تعرض للجلد وقص الشعر والطرد من النقابة .

٢ — وما استورده تجار المنسوجات الحريرية السورية من السلع ، ينبغى ايداعها فى خان من الخانات ، فتظل به حتى يجتمع ( التجار ) سويا لاقتسامها ، ويسرى هذا على ما يرد من سوريا من السلع الاسلامية ، سواء كانت ملابس داخلية وعباءات مخططة ، أو سلعا مختلفة الألوان ، أو من حرير بألوان الطيف ، أو أثوابا بأكمام ، أو أثوابا بغدادية ، وكلاها من أوزان خفيفة وثقيلة . وينبغى على جميع التجار أن يجتمعوا بهذا الموضع ، وأن يتقاسموا السلع مع التجار السوريين الذين بلغت اقامتهم بالعاصمة عشر سنوات متصلة ، وينبغى أن يقيموا جميعا فى قطاع واحد بالخان ( الفندق ) ، وألا يتفرقوا فى أنحاء المدينة ليبيعوا سلعهم . ومن يرفض منهم القيام بذلك ، تعرض للعقوبة السالفة الذكر .

٣ — وعند انعقاد السوق ، ينبغى على كل أعضاء النقابة أن يدفعوا تأمينا ( عربونا ) ، بحسب موارد كل منهم ، ويتولى والى المدينة تقسيم السلع بينهم حسبما أسهم به كل منهم .

٤ — وينبغى على تجار المنسوجات الحريرية السورية أن يشتركوا معا فى شراء كل ما ورد من سوريا من السلع التجارية ، أيا كانت صفتها وكميتها ، طالما اشتملت على ملابس ، سواء كانت كبيرة أو صغيرة . أما اذا اشتملت السلع على عطور أو مواد صباغة ، فينبغى على تجار العطور أن يشتروها . واذا أراد أحد النبلاء ، أو شخص من سائر الناس ، أن يشترى شيئا من السلع المستوردة، فلا يجوز لأحد منهم أن يشترى من هذه السلع الا ما كان للاستهلاك فى الدار .

٥ — وينبغى على التجار السوريين الذين يجلبون المتاجر ألا يقيموا فى الخانات أكثر من ثلاثة شهور . وفى أثناء هذه الفترة ينبغى عليهم أن ينجزوا بيع سلعهم ، وشراء متاجر أخرى . وما بقى من السلع المستوردة ولم يبعها أولئك الذين يتاجرون فيها ، ينبغى على هؤلاء ( التجار ) أن ينهوا بخبرها الى والى المدينة ، حتى يقوم باجراء ما يلزم للتخلص من هذا الفائض . وكل من يجرؤ على تجاوز هذه الأوامر ، تعرض للجلد وقص الشعر ومصادرة سلعه .

### الفصل السادس

**تجار الحرير الخام :**

١ — لا يجوز لتجار الحرير الخام أن يمارسوا حرفة أخرى ، بل ينبغى عليهم أن يمارسوا حرفتهم علنا بالموضع الذى تحدد لهم ، ومن يخالف ذلك منهم تعرض للجلد وقص الشعر والنفى .

٢ — وكل من يستخدم من تجار الحرير الخام عاملا بأجر ، ينبغى ألا يتعاقد معه لمدة تزيد على شهر ، وألا يعطيه من الأجر الا ما يقابل عمل ثلاثين يوما ، وهو الأجر االذى يناله المستخدم اذا عمل شهرا كاملا . فاذا أعطى أحدهم أجرا يزيد على المدة المقررة ، تعرض لضياع هذا الأجر بسبب ما ارتكبه من مخالفة .

٣ — لا يجوز لتاجر الحرير الخام أن يستأجر عاملا كان بخدمة تاجر آخر ، حتى يؤدى هذا العامل جميع الخدمة التى تقاضى عنها أجرا . ومن يفعل هذا ، جرى تغريمه بأن يدفع ما أخذه العامل من أجر لم يؤد عنه عملا .

٤ — ينبغى على تجار الحرير الخام أن يدفعوا لرؤسائهم قيراطا عن كل مازنته مائة رطل ( قنطارا ) من الحرير الخام . وكل من يحرز منهم موازين وأثقالا غير موسومة بخاتم والى المدينة ، تقرر جلدهم وقص شعرهم .

٥ — ومن يقدم منهم الى الفنادق بحرير خام حصلوا عليه من أقوام أجانب ، فلا يدفعون عنه ضريبة الوارد ، انما يدفعون فقط أجور سكنهم واقامتهم ؛ ويعفى أيضا من ضريبة البيوع ، أولئك الذين يشترون منهم هذا الحرير الخام .

٦ — وينبغى على المتقدم للالتحاق بنقابة الحرير الخام أن يكون لديه توصية من رجال اشتهروا بالأمانة والمكانة ، يشهدون بحسن سيرته وسلوكه . وبعدئذ يجرى ( قبوله ) بالنقابة بعد أن يدفع نوميزمتين .

٧ — واذا أراد تاجر من تجار الحرير الخام أن يقيم مكانه عبده لممارسة هذه الحرفة ، فينبغى أن يجعل من نفسه ضامنا له ، وأن يخضع لكل ما يتعرض له العبد من جزاء ، اذا ارتكب خطأ من الأخطاء .

٨ — وعند انعقاد السوق ، ينبغى على كل أفراد النقابة أن يدفعوا تأمينات بحسب موارد كل منهم ، ويصير توزيع السلع بينهم حسبما دفع كل منهم .

٩ — واذا حدث أن اشترى تاجر غنى من تجار الحرير الخام كمية من الحرير من الأجانب ، وجب عليه أن يبيعها الى زملائه الفقراء بربح لا يتجاوز أوقية (٧٨) عن النوميزما .

١٠ — واذا استورد تاجر باسمه حريرا خاما ، لحساب صاحب نفوذ وسلطان ، أو برسم رجل ثرى ، أو ناسج حرير (٧٩) تقرر جلده وقص شعره وطرده من النقابة .

١١ — وكل من يقبل تأمينا عن بيع حرير خام ، ثم عمد ، تمويها وغشا ، الى رفع السعر ، تقرر تغريمه بأن يدفع مقدار التأمين .

١٢ — اذا جرى ضبط تاجر يسافر الى الخارج ، ليبيع حريرا خاما ، تحتم طرده من النقابة .

١٣ — ينبغى على التجار ألا يبيعوا فى دورهم من الحرير الخام ما كان غير مشغول ، وينبغى أن يبيعوا الحرير الخام بالسوق حتى لا يجرى شحنه خفية الى أولئك الذين تقرر منعهم من شرائه . وكل من يبيعه فى داره ، تحتم عليه أن يدفع للنقابة خمس عشرة نوميزما .

١٤ — ليس للتجار الحق فى أن يغزلوا الحرير الخام ، انما يجوز لهم أن يشتروه أو يبيعوه . وكل من يجرى اكتشافه منهم يتجاوز هذا القيد ، تعرض للجلد وقص الشعر (٨٠) .

١٥ — ينبغى على أولئك المعروفين باسم تجار مخلفات الحرير الخام Melatbrarioi (١٨) ، ألا يشتروا حريرا خاما خفية أو علانية ، واذا خالفوا ذلك ، تعرضوا للعقوبة السالفة الذكر .

١٦ — ينبغى على تجار الحرير الخام ألا يبيعوا منه شيئا لليهود أو للتجار الذين يبيعونه من جديد خارج المدينة ، ومن يفعل منهم ذلك ، تعرض للجلد وقص الشعر .

## الفصل السابع

### عن غزالى الحرير :

١ — يجوز لأولئك الذين يغزلون الحرير الخام أن يشتروا من الكميات المستوردة منه ، كل ما أرادوا شراءها لاستخدامها فى عملهم . فاذا جرى ضبطهم يبيعون ( حريرا ) غير مغزول ، أو اذا اشتروه برسم شخص غنى وقاموا بتسليمه اليه ، تحتم جلدهم وقص شعرهم وطردهم من مهنتهم .

٢ — وينبغى على الفقراء من غزالى الحرير ، والمشتغلين بتجارة الحرير الخام الذين لم يجر اثباتهم فى سجل النقابة ، سواء كانوا رجالا أو نساء ، اذا لم يستطيعوا أن يشتروا مباشرة شيئا من الحرير الخام ، فاشتروه من التجار المقيدين بسجل النقابة ، أن يدفعوا عمولة قدرها مليارزيون واحد عن كل نوميزما من ثمن الشراء ، الذى يدفعه غيرهم من المشترين (٨٢) .

٣ — واذا أراد أحد الغزالين أن يثبت اسمه فى نقابة تجار الحرير الخام ، بشرط ألا يكون عبدا ، تقرر عرض حالته على والى المدينة ، وينبغى أن يقدم من الشهود والأدلة من يثبت أنه كف عن الاشتغال بالحرير الخام . وعندئذ يجرى اثباته فى سجل النقابة ويدفع الرسم المقرر ، وهو نوميزمتان .

٤ — لا يجوز للغزالين أن يشتروا ما شاءوا من كميات الحرير الخام ، انما يجوز لهم ، بناء على دعوة تجار الحرير الخام ، أن ينضموا الى ( تجار الحرير الخام ) ويشتروه وفقا للشروط التى تم الاتفاق عليها ، دون زيادة أو نقص .

٥ — والغزالون الذين يرغبون فى أن يشتروا من كميات الحرير الخام ما يلزمهم للغزل ، ينبغى عليهم أولا أن يعلنوا بحضرة والى المدينة أنهم ليسوا

عبيدا أو فقراء محتاجين ، أو ذوى سمعة سيئة ، بل انهم أمناء • والمقصود بهذا ألا يجرى تقسيم الحرير الخام الى كميات صغيرة الحجم ، وألا ينتقل الى ملكية من لا يستحقه من الأجانب •

٦ — وكل من يضبط من الغزالين يمارس بيع الحرير الخام بالتجزئة ، فانتهك بذلك حرمة ( القانون ) ، أو يفتضح أمره بكثرة ثرثرته ، أو يعمد الى التعالى والتفاخر ، أو يثير القلق والاضطراب ، تقرر طرده من النقابة مشيعا بالضرب واللعنات حتى يمتنع عن بيع الحرير ( الخام ) •

## الفصل الثامن

### عن نساجى الحرير :

١ — لا يجوز لنساجى الحرير أن يصنعوا ما تقرر منع نسجه من العباءات ، وهى الأثواب الفوقانية ، كبيرة الحجم ، ذات اللون الواحد ، والأثواب الداخلية ، كبيرة الحجم ، ذات اللون الأرجوانى المشوب بلون أصفر خفيف ، أو ذات لون أرجوانى مشوب بلون أخضر غامق • على أنه يجوز لهم أن يصنعوا أثوابا ذات لون أزرق غامق بمختلف درجاته ، وأن يصنعوا العمائم الصقلية المعروفة مع شاشاتها الحمراء • غير أنه ينبغى أن يعلنوا لوالى المدينة بخبر ما لديهم من الثياب ذات اللون الأزرق الغامق والعباءات القصيرة التى لاتتجاوز شبرين ، وكذا كل الأثواب التى تزيد قيمتها على عشرة نوميزمات ، ولو كانت متعددة الألوان (٨٣) •

٢ — نحن نمنع أى أمير أو أى شخص من أن يصنع من الأثواب الأرجوانية ما يبلغ الواحد منها ستة أو سبعة عروض ، غير أنه يجوز لهم أن يصنعوا منها ما يبلغ الواحد منها عشرة عروض أو اثنى عشر عرضا ، بشرط أن يكون لونها أرجوانيا خالصا ، وأن تكون خفيفة الوزن ، وأنها ليست من النوع الذى قصر والى المدينة استخدمه على البيت الامبراطورى • ويحرم عليهم أيضا أن يصنعوا من الثياب المستديرة فى أسفلها التى اختص بها الأمبراطور ، سوى تلك التى من حجم متوسط ، والتى تتألف منها ثنيات السترة ، والتى تشتهر بألوان عديدة ، وتبلغ على الأقل عشرة عروض (٨٤) • واذا تبين أن فردا من الأفراد

يقوم بصناعة هذه الأثواب الممنوعة ، تحتم مصادرة سلعه ، وارغامه على التخلى عن حرفته .

٣ — وكل من يمنع الموظف الموكل بملاحظة الأختام والأنوال من دخول حانوته ، وكل من يبيع للأجانب ثوبا تزيد قيمتـــه على عشر نوميزمات ، تقرر ضربه وقص شعره .

٤ — وكل من يصبغ الحرير الخام بالأرجوانى ، أو يجعـل منه عبـاءات بلونين أو ثلاثة ألوان ، أو كان ثلثاها أحمر اللون ، تقرر قطع يده .

٥ — كل من يبيع للأجانب سلعة دون علم والى المدينة ، تعرض لمصادرة سـلعه .

٦ — اذا حدث أن ناسج الحرير يعمل أيضا تاجرا للملابس الحريرية ، صار له الحق فى أن يختار احـدى الحرفتين ، على أنه ينبغى أن يتخلى عن الحرفة الأخرى .

٧ — وكل من يبيع عبدا ، أو أجيرا ، أو مباشرا ، الى أشخاص خـارج المدينة أو الى الأجانب ، تقرر قطع يده .

٨ — ينبغى على نساجى الحرير أن يشتروا حريرهم الخام من التجار ، فاذا جرى ضبطهم يشترون الحرير من الأجانب ، تقرر ضربهم وقص شعرهم وطردهم من الحرفة .

٩ — ينبغى مصادرة ما تكدس بالمخازن من الثياب التى لا تحمل خاتم والى المدينة ، وتقرر مجازاة أمناء المخازن بالعقوبة السالفة الذكر .

١٠ — اذا تعمد نساج حرير أن يلحق بخدمته مستخدما عند نساج آخر ، قبل أن ينجز المستخدم جميع العمل الذى تقاضى عنه الأجر ، تقرر تغريمه بأن يدفع قيمة ما تبقى من الأجر الذى لم يؤد عنه خدمة .

١١ — كل من يودع بمخزن السلع الامبراطورية سلعا مصنوعة بالخارج ، تقرر ضربه وقص شعره .

١٢ — واذا جاء نساج بعامل أجير الى مصنعه ، ينبغى ألا يجرى معه عقدا يزيد على شهر ، وألا يعطيه من الأجر ما يزيد على ثلاثين يوما ، بل يعطيه من

الأجر ما يقابل ما يتقاضاه من أجر عمل شهر كامل ، وكل من يدفع مقدما من الأجر ما يزيد على المدة المقررة ، فقد كل ما دفعه .

١٣ — واذا أراد أحدهم أن يقيم مصنعا ، ينبغى أن يزكيه خمسة أشخاص اذا كان حرا ، أما اذا كان عبدا ، فان سيده هو الذى يضمنه ، بشرط أن يكون هذا السيد معروفا بوفرة موارده ( وثروته ) . ويكون للضامنين مثلما للطالب من الثروة . وينبغى على الشخص الذى التحق حديثا بالنقابة ، أن يدفع الرسم المقرر ، وهو ثلاث نوميزات .

## الفصل التاسع

### تجار المنسوجات الكتانية :

١ — يجوز لتجار المنسوجات الكتانية أن يشتروا من الكتان المنسوج ما يشاءون أيا كان المصدر الذى يرد منه ، سواء جاء من ستريمون أو بونطس أو كيراسون أو أية جهة أخرى ، كيما يؤدوه الى تجار الملابس الحريرية ليعملوا منه بطائن للسترات ، والى جميع الذين يرغبون فى شرائه منهم ، الا اذا قصدوا بيعه بالتجزئة لأناس آخرين . واذا أراد أحدهم أن يشترى هذه المنسوجات الكتانية من المستوردين لاستخدامه الخاص ، فلا يمنعه من ذلك هذا القانون .

٢ — واذا خدع تاجر منسوجات كتانية بالسوق رجلا ، جعل عنده تأمينا على بيع سلعة ، وعقد معه اتفاقا على أن يسترد ( هـذا التأمين ) ، تقرر جلده وقص شعره ومصادرة سلعه .

٣ — وعند شراء الكتان ، يدفع كل أفراد النقابة من التأمين ما يتفق مع موارد كل منهم ، ويصير تقسيم السلع حسبما يدفعه كل منهم من التأمين .

٤ — واذا عمد تاجر منسوجات كتانية الى الغش ، بأن دفع ايجار دكان تاجر آخر ، تقرر ضربه ، وقص شعره ، ومنعه من ممارسة حرفته .

٥ — لا يجوز لتجار المنسوجات الكتانية أن يختزنوا النقد كيما يستخدموه عند ندرته ، بل ينبغى أن يجعلوه عند الصيارف . ولا يجوز أن يمنعوا من التداول من قطع النقد ما كان من فئة ١/٤ نوميزما أو ١/٢ نوميزما ، وتحمل خاتما امبراطوريا صحيحا (٨٦) ، ومن ضبط منهم يفعل ذلك ، تعرض للعقاب الذى سبق ذكره .

٦ — واذا حدث أن جاء البلغار وغيرهم من الأجانب بمنسوجات كتانيـة أو عسل ، لمبادلتها بسلع من أصناف أخرى ، فان تجار المنسوجات الكتانيـة والمشتغلين بالمواد الغذائية ، ينبغى عليهم أن يختاروا مندوبين عن أرباب الحرف الأخرى الذين يشتغلون فى السلع المطلوبة ، سواء كانت عباءات أرجوانية تبلغ ستة عروض أو أقل (٣٧) ، أو أثوابا سورية أو سلعا حريرية أخرى : فيذهبون معا للاجتماع بالأجانب ، بناء على تعليمات والى المدينة ، فيعقدون سويا الصفقة معهم ؛ ويأخذ الذين ينتمون الى الحرف الأخرى من هذه السلع المستوردة كل ما يحتاجون اليه ، وما تبقى يتركونه لتجار المنسوجات الكتانية ، ويأخذون مقابل خدماتهم قيراطا عن كل ما ثمنه نوميزما • واذا ضبط أحدهم يخالف هذه اللوائح، تقرر ضربه وقص شعره وطرده من النقابة •

٧ — ولا يجوز للذين يصنعون أثوابا فى المدينة أن يعرضوها من تلقـاء أنفسهم فى حوانيتهم ، أو على موائد البيع ، بل ينبغى أن يحملوها على أكتافهم ، وأن يبيعوها فى اليوم الذى ينعقد فيه السوق• وهذه القواعد يصير تطبيقها أيضا على صناع الأقمشة الكتانية ، وعلى أولئـك الذين يشترونهـا من الفنـادق أو يجلبونها من الخارج • واذا عثر بمن يعمل منهم ما يخالف هذه القوانين ، تعرض للعقوبة السالفة الذكر •

## الفصل العـاشر

### تجار العطور والروائح :

١ — ينبغى على كل تاجر من تجار العطور أن يلتزم مكانه ، ولا يتجاوز الحد المرسـوم له ، وينبغى أن يراقب كل منهم الآخر حتى يمنعه من تخفيض الأسعار أو الاسراف فى بيع كميات بالغة القلة ، أو اختزان مواد المؤونة والغذاء أو سائر السلع المعروفة ، لأن الرائحة الكريهة لا تجتمع مع الرائحة الطيبـة • ويبيعون الفلفل والسنبل الرومى ، والدارصينى ، والند ، والعنبر ، والمسك ، والبخور ، والمر ، والبلسم ، والبنجر البرى ، والبلسان ، والحلتيت ، والأدرياس والأشنان ، وسائر السلع المشهورة عند العطارين والصباغين • وينبغى عليهم أن ينصبوا الموائد التى يعرضون عليها سلعهم ، بما عليها من السلع ، وأن يجعلوها متراصة ، على الطريق الممتد من صورة سيدنا المسيح المقدسة ، والمرفوعة على

الباب البرونزى ( للقصر الامبراطورى ) ، الى العلامة التى ينتهى اليها الطرق الامبراطورية ، فينبعث منها من الروائح الطيبة ما يناسب الصورة المقدسة ، ويؤرج أبواب القصر • وكل من يخالف هذه القوانين ، تقرر جلده ، وقص شعره ، ونفيه •

٢ — وما يرد من السلع التى تهم تجار العطور ، سواء عن طريق خالديا أو اطرابزون ، أو من جهات أخرى ، يحصل عليها العطارون من المستوردين بالسعر الجارى لكل نوع من السلع • غير أنه ينبغى ألا يختزنوها لأوقات الشدة حتى يجنوا من وراء ذلك ربحا فاحشا ، ( وينبغى أيضا ) ألا يرفعوا السعر حتى يتجاوز الحد الضرورى • وينبغى على المستوردين ألا يمكثوا فى المدينة مدة تزيد على ثلاثة شهور ، بل يجب أن يبادروا ببيع ما لديهم ( من السلع ) فى سرعة ، وأن يرتحلوا الى بلادهم • وكل من يخالف هذه اللوائح تعرض للعقوبة السالفة الذكر •

٣ — اذا جرى ضبط تاجر عطور يرفع ايجار دكان تاجر آخر خفية أو علنا تقرر مجازاته بالضرب وقص الشعر والطرد من النقابة •

٤ — واذا حدث أن اكتشف تاجر عطور يمحو نقوش النوميزمات ، أو يقص أطرافها ، أو يمنع من التداول أرباع النوميزمات أو أنصافها التى تحمل خاتم الامبراطور ، أو يستبدل القطع الكبيرة من العملة بما اختزنه من العملات الصغيرة ، ولم يحول هذه العملات الصغيرة الى الصيارف ، فأدعى بذلك لنفسه ما يعتبر من عمل الصيارف ، تعرض للعقوبة التى سبق ذكرها •

٥ — واذا ضبط تاجر عطور ، أو أى تاجر يمارس حرفة أخرى ، يغش مشتريا أودعه تأمينا عن ثمن ما يبيعه له ، بأن عمد الى رفع سعر السلعة ، التزم بأن يدفع للمشترى من أمواله التأمين الذى دفعه المشترى • وليس لأحد منهم الحق فى أن يشترى من السلع التى يجرى وزنها بالقبان أو يشترى من المواد الغذائية ، الا ما يصير وزنه منها بالميزان ، وكل من يخالف هذه اللوائح تعرض للعقوبة التى سبق ذكرها •

٦ — واذا حدث أن تاجر عطر اشتغل أيضا فى تجارة المواد الغذائية ، جاز له أن يختار احدى هاتين الحرفتين • على أنه ينبغى أن يتخلى عن المهنة الأخرى •

## الفصل الحادى عشر

### صناع الشمع :

١ — ينبغى على أولئك الذين يمارسون صناعة الشموع أن يؤدوا عملهم فى داخل حوانيتهم . وينبغى ألا يقيموا موائد البيع على امتداد الشوارع فى مواضع غير ملائمة ، يقوم عليها اما أرقاء أو تلاميذ الصناع . وينبغى ألا يستوردوا خلسة الشمع سواء كان خاما أو مشغولا . وينبغى عليهم عند اقامة حوانيتهم أن يراعوا أن يفصل بينها مسافة قدرها ثلاثون ذراعا ، مع استثناء الحوانيت المشيدة فى كنيسة القديسة صوفيا . أما أولئك الذين ليس لهم دكاكين ، انما يمارسون هذا النوع من الباعة بالتجزئة ، بأن يتخذوا مواضعهم فى السوق أو زوايا الشوارع ، فينبغى الزامهم بالمثول أمام والى المدينة ليتلقوا جزاء ما ارتكبوه من مخالفة .

٢ — ينبغى ألا يدخل صناع الشمع فى حرفة أخرى أو يمارسوها ، فلا يشتغلون الا فى حرفتهم فقط . ومن يخالف منهم ذلك ، تقرر ضربه وقص شعره ومصادرته .

٣ — يجوز لصناع الشمع أن يشتروا ما يشاءون من الشمع دون قيد ولا شرط ، ويجوز لهم أيضا أن يشتروا ما يشاءون من الشمع الذى تقوم الكنائس بالمتاجرة فيه . ويجوز لهم كذلك أن يشتروا من الزيت كل ما يحتاجون لعملهم ، غير أنه ينبغى ألا يختزنوه الى الوقت الذى يشح فيه من الأسواق ، ومن يفعل ذلك منهم ، تقرر ضربهم وقص شعرهم ومصادرتهم .

٤ — وكل صانع شمع يغش من أودعه من المشترين تأمينا لشراء شمع أو زيت ، بأن عمد الى رفع السعر ، تقرر أن يدفع غرامة قدرها اثنتا عشرة نوميزما .

٥ — وكل صانع شمع يعرض نفسه للعقاب اذا لم يخطر والى المدينة بخبر أولئك الذين يتعمدون الغش ، بأن يلجأوا الى تغيير حجمها بأن يقوموا بتسخينها ، فيتحتم جلدهم وطردهم من المهنة .

٦ — واذا ضبط صانع شمع يرفع خفية أو صراحة ايجار حانوت صانع آخر ، تقرر جلده ، والزامه بدفع نوميزمتين •

٧ — اذا حدث أن افتضح أمر تاجر مواد غذائية ، بأنه يشترى شمعا غير مشغول ( سواء كان من المستوردين (٩١) ) ، أو من الكنيسة ليبيعه بالتجزئة ، يصير رفع أمره الى المدينة ، ويتعرض للمصادرة •

٨ — وكل من حاز من صناع الشمع موازين مغشوشة غير مختومة بخاتم والى المدينة ، أو منع من التداول قطع النوميزما فئة الربع أو النصف التى تحمل خاتم الامبراطور صحيحا ، تعرض للعقوبة التى سبق ذكرها •

## الفصل الثانى عشر

### صناع الصابون :

١ — كل من يلقن ، دون علم والى المدينة ورئيس النقابة ، شخصا لا ينتمى لنقابته أصول حرفتها ، تقرر أن يدفع غرامة قدرها أربع وعشرون نوميزما •

٢ — واذا أراد شخص أن يندرج اسمه فى سجل صناع الصابون ، تحتم عليه أن يقدم اسمه الى والى المدينة ، ثم يلى ذلك قبوله بالنقابة • على أنه لا يجوز له أن يفتح حانوتا الا بعد أن يقدم من الشهود ، ويعرض من الضامنين من يؤكدون بأنه سوف لا يعمل ما يخالف القوانين • ويتحتم عليه أن يدفع للخزانة العامة ست نوميزمات ، وأن يؤدى الى الخزانة الخاصة ست نوميزمات• وكل من يتجاسر على أن يلتحق بالنقابة بطريق مخالف لهذه اللوائح ، تحتم طرده •

٣ — وكل من يريد أن يفتح حانوتا لصناعة الصابون ، جاز له أن يفعل ذلك ، على أن يراعى أن يفصل بينه وبين من يشغل حانوتا قديما ، مسافة طولها سبع أذرع واثنتا عشرة قدما • فاذا حاول أن يفتح حانوتا فى نطاق هذه المسافة ، تحتم عليه أن يدفع غرامة قدرها أربعة وعشرون نوميزما ، وتقرر طرده من النقابة (٩٢) •

٤ — ينبغى على صانع الصابون ألا يبيع الصابون الغالى Gallic (٩٣)، ولا يجوز أن يبيع صابونا لتجار التجزئة الذين لا ينتمون الى نفس الحرفة، وكل من يخالف هذه اللائحة تعرض للعقوبة التى سبق ذكرها .

٥ — واذا جرى ضبط أحدهم يغش شخصا فى شراء فتات ؛ التزم بدفع غرامة قدرها اثنتا عشرة نوميزما .

٦ — اذا اشترى شخص لا ينتمى لنقابة صناع الصابون . صابونا من أولئك الذين يستوردونه ليبيعوه من جديد ، تعرض لمصادرة كل ما اشتراه .

٧ — اذا ضبط شخص يقدم سائل ماء التلى ( محلول قلوى ) لشخص آخر ، أيا كان هذا الشخص ، على سبيل المجاملة ، أو الاحترام ، أو رغبة فى الكسب والربح ، أو لأى سبب من الأسباب التى تؤذى وتضر شخصا آخر ، تعرض لنفس العقوبة التى يتعرض لها، من يقتل شخصا من الأشخاص .

٨ — اذا جرى ضبط شخص يصنع الصابون من دهن الحيوان أثناء الصيام الكبير ، أو فى أيام الصيام الصغير ، فيؤدى بذلك الى انزال الضرر برجاله ، تقرر جلده وقص شعره وارغامه على التخلى عن حرفته .

٩ — كل من يبيع صابونا بميزان غير مختوم بخاتم والى المدينة ، اذا كان عبدا ، تقرر الحاقه بعبيد الأمبراطور ، واذا كان حرا تقررت مصادرته .

## الفصل الثالث عشر

### باعة المواد الغذائية (٩٤):

١ — ينبغى عليهم أن يفتحوا دكاكينهم فى الميادين والشوارع فى سائر أنحاء المدينة حتى يتيسر ( للناس ) الحصول على ضروريات المعيشة . ويتحتم عليهم أن يبيعوا اللحوم ، والسمك المملح ، والحليب والجبن ، والعسل وزيت الزيتون ، وجميع أنواع الخضراوات ، والزبد ، والقار ( الزفت ) ، والراتينج ، والكتان ، والضمادات ، والأوعية الفخارية والقوارير ، والمسامير وكل ما يجرى بيعه بالقبان لا بالميزان . ويحرم عليهم أن يدخلوا فى حرف العطارين وصناع الصابون أوتجار الكتان، أو أرباب الحانات، أو الجزارين ، مهما تضاءلت درجة

اشتغالهم بها . واذا حدث أن عثر بمن يفعل منهم ما يخالف هذه اللوائح ، تقرر جلده وقص شعره ونفيه .

٢ — واذا حاز تاجر من تجار المواد الغذائية من الأوزان والمكاييل ما ليس مختوما بخاتم والى المدينة ، أو اذا عمد الى قص أطراف النقود الذهبية ، أو اذا منع من التداول ما كان من فئة الربع أو الربعين من النوميزمات التى تحمل خاتم الامبراطور الصحيح ، تقرر ضربه وقص شعره ونفيه .

٣ — واذا ضبط تاجر المواد الغذائية يغش تاجرا آخر فيما يشترى ، بأن عمد الى رفع السعر المتعارف عليه ، تقرر أن يدفع غرامة قدرها عشرة نوميزمات ويتعرض لهذا العقاب أيضا كل من يعرض سلعة خارج دكانه فى يوم عيد المسيح أو فى أى يوم من الأيام المقدسة .

٤ — وينبغى على تجار المواد الغذائيــة أن يهتموا بمــا يختص بهم من الواردات ، حتى اذا عمد شخص ، لا ينتمى الى نقابتهم ، الى تخزينها ، منتظرا الوقت الذى تشح فيه ، رفعوا أمره الى والى المدينة ليتولى النظر فى أمره .

٥ — ينبغى على تجار المواد الغذائية أن يبيعوا سلعهم فى كميات صغيرة ويربح قدره ملياريزيان عن كل ما يبلغ ثمن بيعه نوميزما واحدة ، واذا تبين عند تقدير أرباحهم القانونية ، أنهم حصلوا على ربح فاحش ، تقرر جلدهم وقص شعرهم وارغامهم على التخلى عن مهنتهم .

٦ — اذا لجأ أحدهم سرا أو علنا الى دفع ايجار حانوت تاجر آخر ، تعرض للعقوبة التى سبق ذكرها .

## الفصل الرابع عشر

### عن صناع الجلود (٩٥) :

١ — ينبغى على المشتغلين بصناعة الجلود أن يلتزموا أوامر والى المدينة وأن يخضعوا له فى تأدية ما هو مطلوب منهم من الخدمات العامة . غــير أنهم لا يعتــبرون من الطوائف الخاضــعة له ، على الرغم من أنه هو الذى يعين رئيسهم . ولما كانوا يؤدون للامبراطور ما هو مفروض عليهم من التزامات ،

فانهم يخضعون لرئيس الاسطبلات ، على أن يحيط والى المدينة علما بذلك ، ويتقاضون من الأرباح ما يبذله لهم الامبراطور وفق مشيئته ، ولا يجوز لهم أن يستوردوا من الجلود ما يزيد على الحد المقرر ، أى لا يجوز لهم أن يحصلوا الا على كل ما يحتاجون اليه من صناعة السيور الجلدية .

٢ — لا يجتمع المشتغلون بالمصنوعات الجلدية مع المشتغلين بتجهيزها فى نقابة واحدة ، وانما يكون لهم رئيسهم الذى يعينه مجلس والى المدينة ، وكذلك يكون شأن المجهزين . ويجوز لهؤلاء المجهزين أن يعملوا مع المشتغلين بالمصنوعات الجلدية ، غير أنهم لا يصنعون الا ما يقدمه الدباغون من السلع ، فيعدون الجلود اللازمة لصناعة الأحذية ، لا لصناعة سروج الدواب التى تجر العربات . وينبغى أن يكون للدباغين هيئة منتظمة مستقلة ، لأنهم يشتغلون فى الجلود الخضراء ، على الرغم من أنهم يخضعون لنفس الرئيس ونفس الثمن ، ذلك لأنه ثمت اختلاف بين الفئتين ، فالطائفة الأولى معروفة باسم المجهزين ، والطائفة الثانية معروفة باسم الدباغين . ومن يتجاوز منهم هذه القوانين ، لا يتعرض فحسب للعقوبة البدنية ، بل يصير أيضا طرده من الحرفة التى ينتمى اليها .

## الفصل الخامس عشر .

### عن الجزارين :

١ — لا يجوز للجزارين أن يشتروا الخنازير ، بل ينبغى عليهم أن يتوجهوا الى Strategion بعد أن يحيطوا والى المدينة علما بذلك ، فيشترون بالنوميزمات [٩٦] كل ما حدده لهم ( والى المدينة ) من الماشية .

٢ — فاذا انتهى الجزارون من شراء ما أرادوا وفقا لحالة الحيوانات ، فعليهم أن يمضوا فى بيعها . وينبغى عليهم أن يذبحوا ماشية من هذه المواشى ، ويقصبوها فى حضرة والى المدينة . وينبغى عليهم أن يراعوا بألا يتجاوز ربحهم أكارع الماشية ورأسها وأحشائها ، وينبغى أن يبيعوا ما تبقى من الماشية بسعر يتوقف على الثمن الذى اشتريت به الماشية .

٣ — ينبغى ألا يخرج الجزارون لتلقى تجار الماشية الذين يجلبون قطعانهم ليعرضوها للبيع اما فى نيقوميديا أو سائر المدن الواقعة وراء نهر صغارى

Sangarius (٩٧) ( بل ينبغى أن يبقـوا ( بالقسطنطينية ) ، حتى يبيعوا اللحم بأسعار أكثر اعتدالا ، ويكون الربح من نصيب أولئـك الذين يذبحون الغنم لا من نصيب أولئك التجار (٩٨) •

٤ — ينبغى على تجار الغنم أن يستخـدموا أشخاصـا يتولون لهم شراء الحيوانات ، فيقوم هؤلاء بشراء ما يطلبون ، غير أنه ينبغى ألا يمنعوا من يرغب من الفلاحين من القدوم الى العاصمة ليبيعوا ما يريدون بيعه •

٥ — ويجوز لتجار الأغنام أن يبيعوا أغنامهم حتى اليوم الأول من الصوم الـكبير فى ستراتيجون ، وأن يبيعـوا الحملان ابتـداء من عيـد الشـكر حتى يوم عيد العنصره ، فى طاوروس (٩٩) • ووالى المدينة هو Passover الذى يأمر بما ينبغى تحديده وتقديره للبيع من عدد الماشية ، ويجرى بيع الأغنام بالنوميزما ، بينما يصير بيع الحملان بفئة المائينية من النوميزما •

٦ — وليس للجزارين الحق فى أن يشتروا الخنازير ، وأن يختزنوا لحومها ، وكل من يجـرى ضبطه منهم يخـالف هذه القوانـين ، تقـرر ضربه وقص شعره ونفيه •

## الفصل السادس عشر

### باعة لحوم الخنازير :

١ — ينبغى على الذين يبيعون لحم الخنزير ، قبل السماح لهم بممارسـة حرفتهم ، أن يقدموا من الأدلة والشواهد ما يثبت حسن نيتهم ، فيجوز لهم بعد ذلك أن يباشروا مهنتهم •

٢ — ومن يشترى منهم الخنازير ويذبحها ويبيعها ، ينبغى أن يشتريها فى ( سوق طاوروس ) • وكل من يجرى ضبطه منهم يتلقى تجار الخنازير خارج المدينة ويشتريها منهم ، أو يفعل هذا خفية فى أى مكان بالمدينة (القسطنطينية) ، فيتسبب بذلك فى رفع سعر الخنزير ، تعرض للجلد وقص الشعر والطرد من المهنـة •

٣ — واذا عمـد أناس الى جلب قطعان الخنـازير من خارج المدينـة ، فينبغى على رؤساء تجار لحوم الخنزير أن ينهوا الى والى المدينة بخبرهم ، وأن

يقدموا من الضمانات ما يكفل عدم بيعها لأرباب الحوانيت ، بل أنهم سوف يبيعونها فى طاوروس للجمهور ، ومن يخالف ذلك منهم يتعرض للضرب وقص الشعر •

٤ — واذا ضبط تاجر لحم خنزير ، يخفى خنازير فى دار نبيل من النبلاء ، ويبيعه سرا ، تعرض للعقوبة التى سبق ذكرها •

٥ — وأولئك الذين يذبحون الخنازير بقصد بيعها ، ينبغى ألا يخزنوا ما عندهم من اللحوم الى الوقت الذى يعز فيه وجودها • واذا جرى اكتشافهم يفعلون ذلك ، تعرضوا لنفس العقوبة •

٦ — واذا ضبط تاجر خنزير ، يحوز من الموازين ما ليس مختوما بخاتم والى المدينة ، أو يغش فى الميزان ، تعرض للعقوبة التى سبق ذكرها •

## الفصل السابع عشر

### باعة السمك :

١ — ينبغى على باعة السمك أن يتخذوا أماكنهم فيما هو معروف بالطاقات الكبرى بالمدينة ليبيعوا بها أسماكهم • وينبغى أن يكون لكل طاقة من هذه الطاقات مشرف يلتزم بمراعاة ثمن السمك بعد صيده ، وملاحظة ثمنه عند بيعه بالتجزئة ، ويتقاضى رسما قدره مليارزيون عن نوميزما من ثمن البيع •

٢ — ولا ينبغى للذين يبيعون السمك أن يملحوه أو يبيعوه للأجانب لتصديره ، الا اذا كانت ثمت فائض منه ، فيفعلون ذلك حتى لا يفسد •

٣ — ويعقد باعة السمك صفقات الشراء على الشواطىء أو عند مرامى القوارب حيث تفرغ شحناتها • وينبغى ألا يذهبوا وحدهم الى أحواض الصيد ، أو الى غيرها من مواطن الصيد ، مع أولئك الذين يسيرون الى البحر ، بل ينبغى أن ينتظروا ما يقدمه لهم أولئك الذين يذهبون الى البحر • والمقصود من هذا هو منع بيع السمك فى كميات بالغة القلة • ويتقاضى بائع السمك من الربح فلسين عن كل نوميزما من ثمن البيع • ويتقاضى رؤساؤهم نفس المقدار (١٠٠) •

٤ — ينبغى على رؤساء باعة السمك أن يتوجهوا كل يوم الى والى المدينة ، وأن ينهوا اليه بخبر مقدار ما جرى صيده ليلا من سمك التونة ، حتى يتم البيع للسكان فى المدينة وفقا لأوامره وتعاليمه . وكل من يجرؤ على مخالفة هذا المرسوم ، وجب جلده وقص شعره ، وطرده من النقابة .

## الفصل الثامن عشر

عن الخبازين :

١ — لا يجنى الخبازون من الأرباح الا بحسب ما يشترونه بأمر والى المدينة من القمح . ويشترون من الثمن ما هو مقدر لهم من الحبوب بالنوميزما ، حتى اذا فرغوا من طحن ( القمح ) وعجنه ، ينبغى أن يحسبوا بأن يتقاضوا من الربح قيراطا ومليارزيان عن كل نوميزما ، فالقيراط هو الربح الخالص لهم ، أما المليارزيان فيرصدان لمساعدة صناعهم ولغذاء دواب الطاحون ، ووقود الأفران والاضاءة .

٢ — ويصير اعفاء الخبازين من سائر الكلف ، ذلك أنهم مع دوابهم لا يتحملون منها شيئا كيما يتم اعداد الخبز دون أن يحدث أى اضطراب .

٣ — ينبغى أن تقع المخابز فى مناطق مأمونة ، فلا يشيدونها فى أسفل البيوت لما يرتبط بها من الوقود والنار ، وينبغى على سكان المدينة أيضا أن يجعلوا ما لديهم من التبن والخلق من الملابس والورق فى مواضع غير مسقوفة ، ومبطنة من الداخل بالحجارة ، حتى لا تشتعل الحرائق بالمدينة بسبب هذه المواد القابلة للاشتعال .

٤ — واذا زادت كمية القمح أو نقصت ، يتقدم الخبازون الى والى المدينة ( ويطلبون ) أن يتولى الثمن تحديد أوزان الأرغفة على أساس ثمن شراء القمح .

٥ — وينبغى أن يسود النظام فى كل الأمور (١٠١) ، حتى اذا جرى بعدئذ أن افتضح أمر شخص ، يدفع ايجار مخبز شخص آخر ، أو يحوز سلعة ، بأن عمد

الى خفض أثمانها عن السعر المقرر ثم اشتراها ، أو يدخل فى مهنة شخص آخر ، وصار يمارس المهنتين ، دون أن يتخلى عن المهنة التى يمارسها بعلم والى المدينة ، تقرر انزال العقوبة به ، بأن يجرى جلده وقص شعره وتجريسه ونفيه من البلد .

## الفصل التاسع عشر

### ارباب الحانات :

١ — ينبغى على رؤساء أرباب الحانات أن ينهوا الى والى المدينة بخبر موعد ورود النبيذ ، حتى يقرر كيف يجرى بيعه . ومن واجب المثمن أن يلزم أرباب الحانات بأن يجعلوا الأوعية والقدور التى يبيعون فيها النبيذ تتفق مع قواعد الشراء ، فينبغى أن يحتوى الاناء على ثلاثين لترا ، وأن يحتوى المن على ثلاثة ألتار (١٠٢) .

٢ — ومن يجرى ضبطه من أرباب الحانات يعمل على دفع ايجار دكان غيره كيما يمتلكه ، تقرر جلده وقص شعره .

٣ — ينبغى منع أرباب الحانات من أن يفتحوا حاناتهم لبيع النبيذ أو الطعام ، قبل الساعة الثانية من ساعات (١٠٣) النهار فى أيام المواسم الكبيرة أو أيام الآحاد . وينبغى أن يغلقوا حوانيتهم ليلا ، وأن يطفئوا الأنوار متى حانت الساعة الثانية ( ليلا ) ، كيما يمنعوا رواداها ، الذين تحتم عليهم أن يعودوا الى دورهم ليلا ، من الافراط فى الشراب ، ومن الاشتباك ، دون وجل أو حياء ، فى مشاجرات وفى أعمال العنف والمضاربات .

٤ — ومن يضبط من أرباب الحانات ، يحوز من الأوعية ما لا يوافق الرسم الذى سبق ذكره ، أو أوعية لا تحمل خاتم والى المدينة ، تقرر جلده وقص شعره وطرده من النقابة .

## الفصل العشرون

### مندوبو الوالى (١٠٤):

١ — يعين والى المدينـة مندوبا عنـه وهو المعروف باسم ليجاتاريوس ، legatarios يتولى تقديمه للامبراطور • ومن واجبات هـذا الموظف ، أن ينهى الى والى المدينة بخبر أولئك الذين يدخلون المدينة ، المحروسة بعناية الله ، بالمتاجر أيا كان نوعها ، والجهات والبلاد التى جاءوا منها ، ويفحص ما جلبوه الى المدينة من السلع ، وأن يعلمهم بشروط البيع ، وأن يجعل لهم أجلا معينـا يبيعون فيه سلعهم ، فاذا انقضى هذا الأجل ، قدم بهم الى والى المدينة ، ومعه سجل يحوى كل ما اشتروه من السلع ، فيمتنع بذلك تصـدير السلع الممنوعة من المدينة الأمبراطورية ( القسطنطينية ) •

٢ — لا يسمح والى المدينة للأجانب الذين دخلوا المدينـة بسلع أيا كان نوعها ، بأن يمكثوا بالمدينة أكثر من ثلاثة شـهور ، بل ينبغى أن يخطرهم بأن يبيعوا كل ما اشتروه ، وأن يبتاعوا ما يحتاجون اليه ، وأن يغادروا ( المدينة ) فى أثناء هذه الفترة • ومن يتجاوز منهم الزمن المحـدد ، تقرر جلدهم وقص شعورهم ، ومصادرة بضائعهم وطردهم من المدينة •

٣ — ومن واجبات المندوب أن ينهى الى والى المدينة بخبر من يعثر عليهم يختزنون السلع المسـتوردة انتظارا للوقت الذى تشح فيه ( من السـوق ) ، ويمارسون تجارتهم على حساب ( مصلحة ) الجمهور ، فيجرى جلدهم ، وقص شعورهم ، ومصادرة ما اختزنوه من السلع •

## الفصل الحادى والعشرون

### عن مفتشى سوق الماشية :

١ — تتجلى مهمة مفتشى سوق الماشية من الاسم الذى يحملونه (bothroi) لأنهم يتخلصون من الفائض من الماشية (١٠٥) ومن وسخ السوق • لا يجوز لهم مطلقا أن يعقدوا صفقة شراء الا فى حالة وجود بقية من المواشى ، انصرف عنها المشترون • وينبغى أن يتحققوا من حالة كل نوع من أنواع الماشية ، لأن مهنتهم

تتطلب منهم ذلك . واذا تم شراءما شية ، أراد الشخص شراءها ، وفقا لما أوصى به ( المفتشون ) ، فان المفتش الذى قام بالوساطة يتقاضى عن كل ماشية قيراطا من الأجانب وأهل المدينة على السواء .

٢ — واذا حدث أن قام المفتش نفسه بأخذ الماشية ، دون أن يعلم الشخص الذى يريد آن يشتريها من البائع ، ثم سلمها المفتش له ( للمشترى ) ، تقاضى المفتش ست فلسات عن كل نوميزما من ثمن البيع .

٣ — لا يجوز أن يتم الشراء فى خارج سوق اماستريون Amastrion وفى زوايا الحارات بالمدينة ، سواء قام بالشراء المفتشون أو غيرهم ( من الأشخاص ) الذين يمارسون نفس المهنة . ينبغى أن يجتمعوا سويا لمباشرة هذا النوع من التجارة ، فيمتنع بذلك ما يجرى بيعه خفية من المواشى المسروقة أو المنهوبة .

٤ — ويؤمر المفتشون أن يكونوا بسوق الماشية للسبب التالى : وهو أن يكشفوا للقادمين للشراء عن عيوب الماشية ، وأن ينبهوهم اليها . فاذا أنهى أحدهم للمشترى بخبر كاذب ، وعمد الى غشه ، تقرر أن يدفع غرامة قدرها ثمن الماشية .

٥ — وينبغى على الباعة أن يعلنوا ما ظهر من عيوب ماشيتهم وما خفى منها ، فاذا حدث أن امتنع أولئك الذين يرغبون فى الشراء عن دفع الثمن الذى تم الاتفاق عليه ، صار من حقهم أن يعيدوا الماشية يوم انعقاد السوق التالى ، بعد أن يظهروا العيب الذى بمقتضاه أعادوا الماشية . أما اذا دفعوا الثمن الذى تم الاتفاق عليه ، صار العقد صحيحا .

٦ — اذا ثبت أن بالحيوان عيبا خفيا بعد تمام البيع ، جاز اعادة هذا الحيوان فى مدة ستة شهور . فاذا انقضت الشهور الستة ، ينبغى تخفيض الثمن ، ما لم يكن المشترى من الأجناد .

٧ — ينبغى أن يثبت فى سجل والى المدينة عدد المفتشين ، فاذا أراد أشخاص آخرون ينتمون الى الحرف الأخرى ، أن يمارسوا هذه الحرفة ، منعهم والى المدينة من ذلك .

٨ — واذا أراد أفراد من حرف أخرى أن يشتروا حيوانات لمصلحتهم وخدمتهم ، جاز لهم ذلك ، وليس ثمت ما يمنعهم من ( الشراء ) •

٩ — لا يجوز للمفتشين أن يتلقوا وحدهم أولئك الذين يجلبون الماشية من خارج المدينة ، فيحتكرون لأنفسهم تجارتها ، حتى يشتروا بسعر رخيص ، ويبيعوا بسعر مرتفع • وليس لهم الحق فى أن يخرجوا من المدينة لتلقى الماشية وشرائها ، بل ينبغى أن يجعلوا كل المشتروات فى سوق اماستريون •

١٠ — ويتقاضى رئيس المفتشين فى السنة اثنى عشر فلسا فقط من كل مفتش ، لصيانة الحاجز والمجرى ( المستخدم ) • ويتقاضى أربع ملياريزات عن كل ماشية من المواشى المسروقة التى استطاع أن يستردها • وفى قضايا المتخاصمين الذين يلجأون اليه ليحكم بينهم ، لايتقاضى أكثر من ست ملياريزات أيا كان المبلغ الذى سوف يستخلصه للدائن من المدين • وكل من يجرؤ على مخالفة هذه القوانين تعرض للجلد وقص الشعر والمصادرة •

## الفصل الثانى والعشرون

### فى امور تتعلق بالمتعهدين امثال السباكين والمزخرفين والمرخمين وصناع الاقفال والطلائين ومن اليهم :

١ — جميع أرباب الحرف أمثال السباكين والرخامين والطلائين وغيرهم الذين يعقدون اتفاقا ، ويتقاضون تأمينا (عربونا) مقابل القيام بأى جزء من أجزاء العمل ، ينبغى عليهم ألا يتخلوا عن هذا الجزء من العمل ، لتأدية عمل آخر قبل أن ينجزوا العمل الأول • أما اذا حدث التأجيل بسبب قلة المواد ( اللازمة للعمل ) ، أو خطأ من الشخص الذى أجرى العقد ، ولم يستطع الصانع أن يحصل على الأشياء اللازمة لاستكمال العمل ، تحتم على هذا الصانع ، أيا كانت الحرفة التى ينتمى اليها، أن ينهى الى صاحب العمل بخبر هذا شفويا أو عن طريق شاهد• فاذا تأخر صاحب العمل عن اصلاح النقص ، جاز للمتعهد أن يرجع الى والى المدينة ، وفى هذه الحالة يجوز له ، بناء على قرار والى المدينة ، أن يقوم بعمل آخر •

٢ — واذا عمد المتعهدون ، الذى سبق ذكرهم ، بسبب مادرجوا عليه من الميل الى الشر والطمع ، الى التخلى عن العمل الذى تعهدوا أن يقوموا به : فينبغى على صاحب العمل، أن يقيم البينة عليهم فى حضرة المجتمعين. بأن يذكرهم بما تم من عقد مكتوب أو غير مكتوب ، واذا رفضوا أن ينجزوا العقد على ما هو محرر ، جاز له أن يتهمهم أمام والى المدينة ، ثم يستدعى متعهدا آخر . على أن المتعهدين الذين لا أمانة عندهم ، ينبغى انزال العقوبة بهم ، بأن يجرى جلدهم وقص شعرهم ونفيهم . وينبغى أن يردوا أيضا ما أخذوا من تعويض من المستخدم بعد طردهم من العمل دون أن ينالوا أجرا . أما اذا كانت المواد قليلة عند المستخدم ( صاحب العمل ) ، جاز للصناع ، بعد أن يخطروه ، أن يشرعوا فى القيام بعمل آخر حتى لا يعانوا العوز والحاجة بسبب تعطلهم عن العمل .

٣ — ومن يسعى من الصناع للحصول على عقود عديدة كيما تصبح حاجة اليه شديدة ، اذا لجأ تارة الى غش رجل ، وتارة الى التدليس على رجل آخر ، واستطاع بفضل لباقته واستخدامه سيلا من الألفاظ الجوفاء ، أن يحصل فى أحوال كثيرة على زيادة فى أجره ، بما قام به مثلا من مساومة غير شريفة ، تحتم على والى المدينة أن يجرى الفحص والتحرى ، حتى اذا تبين له أن العملية كانت فى الواقع بالغة الضخامة، وتنطوى على خسارة للصانع، أو أن (صاحب العمل) لجأ بعد أن تم الاتفاق الى تغييرها الى أحسن أو الى اسوأ ، أو أن قيمة العملية لم تكن محددة ، فعندئذ يقوم بتقدير العملية صناع متمرسون ، ينتدبهم والى المدينة حسبما يتراءى له ، ليقرروا ما حدث من تغييرات أو تطورات لم تكن متوقعة. وفى حالة العقود ينبغى ألا يختلف قانونها عن قانون البيوع والمشتروات. فاذا تبين أن العقد تم تنفيذه حسبما جرى الاتفاق ، غير أن التعويض لا يبلغ نصف التكاليف ، صار الاتفاق باطلا ، وتحتم اعادة تقدير العملية . أما اذا زاد التعويض على النصف ، تحتم دفع الأجر حسبما تم الاتفاق عليه . واذا حدث فى العمل زيادة جديدة أو ( طرأ ) شىء من التغيير ، فينبغى تقدير ذلك ومراعاته.

٤ — وأولئك الذين يشيدون الأسوار والقباب أو الطاقات الضخمة ، ينبغى عليهم أن يراعوا فى عملهم العناية والمهارة حتى لا يصبح الأساس ضعيفا ،

فيتعرج البناء ولايصير مستقيما • لأنه اذا تداعى (البناء) فى أثناء عشر سنوات؛
ما لم يحدث ذلك من قبل القضاءوالقدر ، تحتم على البناء أن يشـيد بديلا منا
على نفقته الخاصة • واذا كانت العملية ضخمة ، تتكلف مبالغ كبيرة ، فينبغى على
المتعهد الذى قام بها أن يعيد بناءها بالاشـتراك مع زملائه من العمـال ، دون
أن يتقاضوا أجرا ، غير أنه ينبغى على المستخدم ( صـاحب العمل ) أن يقدم لهم
ما يحتاجون من المواد • وينبغى أن تبقى المبانى المشيدة من الطين ست سنوات
تحت الملاحظة ، حتى اذا تداعى البناء فى خلال هذه المدة بسبب اهمال البناء
تحتم عليه أن يعيد بنـاءه ، دون أن يتقاضى أجرا • وهـذه القاعدة ينبغى أن
تسرى على كل المتعهدين • واذا جرى ضبط جمـاعة منهم يعملون ما يخالف
هذه المرسومات ، تقرر ضربهم وقص شعرهم ومصادرتهم •

## التعليقات والمراجع

(١) انظر الماوردى : الأحكام السلطانية ــ طبعة الحلبى ــ ص ٢٤٩ . السقطى : آداب الحسبة . نشر ليفى بروفنسال ــ باريس ١٩٣١ ص ٢ القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ٤٥٢

(٢) انظر ، ابن الأخوة : معالم القربة فى أحكام الحسبة ــ نشر روبن ليوى ــ كمبردج ١٩٣٨ مقدمة الناشر ص ٥ .Gibb Memorial Series. New Series XII

(٣) الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ــ مطبعة السعادة ــ القاهرة ١٩٣١ جـ ١ ، ص ٨٠ ــ ٨١ . ابن عذارى المراكشى : البيان المغرب فى حلى المغرب. ليدن سنة ١٨٤٨ . جـ ١ ، ص ٦٨

(٤) برنارد لويس النقابات الاسلامية ــ ترجمة عبد العزيز الدورى ــ مجلة الرسالة سنة ١٩٤٠ ، العددان ٣٣٥ ، ٣٥٦

(٥) متز ، آدم : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ــ ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة . القاهرة ١٩٤١ ــ جـ ٢ ، ص ٢٣٤

(٦) ومن أشهرها كتاب الأحكام السلطانية للماوردى .

(٧) من هذه الكتب : نهاية الرتبة فى طلب الحسبة لعبد الرحمن بن نصر الشيزرى ــ نشره السيد الباز العرينى ــ القاهرة ١٩٤٤ ، ونهاية الرغبة فى طلب الحسبة لمحمد بن احمد بن بسام ــ مخطوط بالخزانة التيمورية بدار الكتب المصرية رقم ٢٥ اجتماع . ومعالم القربة فى أحكام الحسبة لابن الأخوة ــ نشره روبن ليوى ــ انظر حاشية رقم ٢ ، وكتاب فى آداب الحسبة للسقطى . نشره ليڤى برڤنسال ــ باريس ١٩٣١ وثلاث وسائل أندلسية فى آداب الحسبة والمحتسب نشرها ليفى برڤنسال . مطبعة المعهد العلمى الفرنسى بالقاهرة ١٩٥٥

(٨) انظر : Gustav von Grunebaum : Medieval Islam Chicago, 1947 p. 218 note 122.

(٩) كتاب والى المدينة وهو المعروف فى اليونانية باسم Eparchikon Biblion صنفه الامبراطور البيزنطى ليو السادس بين سنتى ٩١١ ، ٩١٢ ، واستند فى تصنيفه على ما كان معروفا قبله من قوانين وعرف وتقاليد ، غير ان الكتاب فى صورته الحالية تضمن نصوصا ترجع الى عهد الامبراطور نقفور فوكاس . والنص اليونانى لهذا الكتاب عثر عليه سنة ١٨٩٢ J. Nicol مخطوطا فى جنيف فنشره سنة ١٨٩٣ مع ترجمة لاتينية ومقدمة ، ثم نشره من جديد ، عن طبعة نيقول ، Zepos فى ( المجموعة المعروفة باسم Jus Graeco-Romanum ، ثم ترجمه نيقول الى

الفرنسية واضاف اليه تعليقات ونشره فى جنيف سنة ١٨٩٤ بعنوان :

Le Livre du Préfet ou l'Edit de l'Empereur Leon le Sage sur les corporations de Constantinaple.

وجرى نشر الكتاب مرتين فى ترجمة انجليزية الأولى قام بها الأستاذ A. E. R. Bonk فى المجلة المعروفة باسم Journal of the Economic Histary and Buriness I. 1929.

وهذه الترجمة هى التى نقلتها هنا الى اللغة العربية بعد أن حصلت عليها بمساعدة صديقى الدكتور محمد احمد الغنام ( بجامعة كولومبيا ـ كلية التربية ـ نيويورك والمدرس بكلية التربية بجامعة عين شمس .

اما الترجمة الانجليزية الثانية فقام بها E. Freshfield ونشرها بعنوان :

Roman Law in the Later Roman Empire (Cambridge 1938).

(١٠) انظر : Rostovtzeff : The Social and Economic History of the Roman Empire p. 168.

(١١) Bury : History of the Later Roman Empire Vol. I. p. 28.

(١٢) Cambirdge Medieval History Vol. IV pp. 780-781

(١٣) انظر ما سبق حاشية ٩

(١٤) يعتبر الامبراطور ليو السادس اكبر مشرع بعد جستنيان بفضل ما تم فى عهده من جمع وتصنيف القوانين . فمنها المجموعة المعروفة باسم الباسيليكا Basilika التى اشتملت على ستين كتابا وتقع فى ستة مجلدات ، وتتضمن القانون الكنسى والقانون المدنى والقانون العام . والى جانب الباسيليكا مجموعة اشتملت على ١١٣ مرسوما ، والمعروفة بالمجددات ، وهى التى جعلت كل السلطة فى أيدى الامبراطور وفى يد الامبراطورية انظر : Vasiliev: History of the Byzantime Empire. Madison 1952 pp. 842-848.

Ostrogorowsky : History of the Byzantine State. Oxford 1956 p. 218.

(١٥) انظر Ostrogorowsky : *op. cit.* p. 224.

(١٦) انظر : Lopez : Silk Industry in the Byzantine Empire. Speculum Vol. XX. 1945 p. 1.

(١٧) Ibid p. 1.

(١٨) Cambirdge Economic Histary. Cambridge II. 1952 p. 106.

(١٩) انظر تصدير الكتاب فى ترجمته الآتية بعد

(٢٠) انظر Lopez : *op. cit.* p. 4.

(٢١) انظر Lopez : *op. cit.* p. 5.

(٢٢) هذه النقابات ورد ذكرها فى كتاب والى المدينة فى الفصول من ٩ الى ١٣

(٢٣) انظر الحاشية السابقة ، وكذا Lopez : *op. cit.* p. 9.

(٢٤) انظر : Cambridge Economic History. II p. 108. Lopez : *op. cit.* p. 14.

(٢٥) إنظر الفصول من ٩ الى ١٣ فى كتاب والى المدينة. Lopez: *op. cit.* p. 15.

(٢٦) انظر Cambridge Economic History II p. 106.

Lopez: *op. cit.* p. 15

وما ورد فى كتاب والى المدينة فى الفصل الرابع فقرة ٢ ؛ والفصل الخامس فقرة ١ والفصل السادس فقرة ١٠

(٢٧) انظر Lopez: *op. cit.* p. 16.

(٢٨) انظر : Lopez: *op. cit.* p. 20.

(٢٩) انظر : Lopez: *op. cit.* p. 16.

كتاب والى المدينة الفصل السادس فقرة ٩ ، الفصل السابع فقرة ٢

(٣٠) انظر كتاب والى المدينة الفصل السابع ، الفقرات ١ ، ٤ ، ٥

(٣١) انظر : Lopez: *op. cit.* p. 19.

(٣٢) انظر : كتاب والى المدينة الفصل السابع الفقرة الثامنة ، الفصل السادس الفقرات ١ ــ ٢ ، ٦ ، ٧ ، ١٤ Lopez: *op. cit.* p. 19.

(٣٣) كتاب والى المدينة الفصل الثامن الفقرات ١٠ ، ١٢ ، ١٣ ، ١ ــ ٤

(٣٤) كتاب والى المدينة الفصل الثامن الفقرات ٦ ، ٨ الفصل السادس . الفقرة ١٠ والفصل الرابع الفقرة ٧

(٣٥) كتاب والى المدينة الفصل الثامن ١ ــ ٣ ، ٤

انظر : Lopez: *op. cit.* p. 20.

(٣٦) انظر : Cambridge Economic Nistary II pp. 108-109

كتاب والى المدينة الفصل الثانى فقرات ٢ ، ٢ ، ٦

(٣٧) Cambridge Economic History II. p. 109.

(٣٨) كتاب والى المدينة الفصل العاشر .

انظر : Cambridge Economic History II. p. 109.

(٣٩) كتاب والى المدينة الفصلان الحادى عشر والثانى عشر .

Cambridge Economic History II p. 109.

(٤٠) كتاب والى المدينة الفصل الرابع عشر : فقرة ٢

(٤١) Cambridge Economic History II. p. 110

كتاب والى المدينة الفصل الثالث عشر فقرة ١ ، ٥

(٤٢) كتاب والى المدينة الفصول ١٥ ، ١٦ ، ١٧

(٤٣) عن مقادير العملة انظر ما يلى حاشية ٦٣

(٤٤) كتاب والى المدينة الفصل الثامن عشر ، الفقرات ١ ، ٢ ، ٣

(٤٥) كتاب والى المدينة الفصل التاسع عشر .

(٤٦) Cambridge Economic History II p. 110.

كتاب والى المدينة الفصل الثانى والعشرون .

(٤٧) Cambridge Economic History II. p. 110

(٤٨) Ibid. d 110.

(٤٩) Ibid. p. 111.

(٥٠) Lopez : *op. cit.*, p. 23.

كتاب والى المدينة ـ الفصل العشرون فقرة ١ ، ٢ الفصل الرابع الفقرة الثامنة الفصل الثامن . الفقرة الثامنة .

(٥١) انظر Lopez : *op. cit.*, p. 24.

كتاب والى المدينة . الفصل السادس فقرة ١٦

(٥٢) Lopez : *op. cit.*, p. 25.

(٥٣) كتاب والى المدينة ـ الفصل الخامس ، فقرة ٢ ، ٥ ، والفصل الرابع فقرة ٤ ، ٢ والفصل السادس فقرات ١ ، ٢ ، ٩ والفصل الثامن فقرات ٣،٢، والفصل التاسع الفقرة السادسة : والفصل العاشر فقرة ٢ : والفصل العشرون فقرات : ١ ، ٢ ، ٣.

(٥٤) انظر Boak, A.E.R : The Book of the Prefect. Journal of Economic and Busimess History pp. 597-619.

(٥٥) انظر Boak : *op. cit.*, p. 599.

(٥٦) انظر Ibid p. 600.

(٥٧) انظر ما سبق فى الحاشية ٩

(٥٨) يضاف الى ما ورد فى حاشية ٩ عن المصادر والمراجع المتعلقة بكتاب والى المدينة ما يأتى :

A. Stöckle : Spatromische und byzantinische Zünfte ( Klio. Beiheft IX Leipzig, 1911).

C. M. Macri : L' Organisation de l'economie urbaine dans Byzance sous la dynastie macedoine. (Paris 1925).

G. Ostrogorowsky : C. Zaras's "Le corporozione bizantine" Byzantinishe Zeitschrift XXXIII (1933). pp. 389-395

G. I. Bratianu : "Les Etudes byzantines d'histoire economique et sociale", Byzantion XIV, 2 (1939), pp. 497-511.

R. S. Lopez : "La Crise du besant au X• siècle et la date du Livre du Préfet," in Mélanges Henri Gregoire II. pp. 403-418.

André M. Andréades : The Economic Life of the Byzantine Empire. (Moss : Byzantium. Oxford 1948). Id: Etudes Byzantines d'histoire economique et sociale. (Paris 1938).

Louis Brehier : Revne Historique CL XXXIV (1938) pp. 355-358.

(٥٩) فى النص اليونانى Tabularioi — وهؤلاء ينبغى تمييزهم عن الموثقين ( الكتاب ) notaries الملحقين بمكاتب سائر الموظفين العامين .

(٦٠) primicerius رئيس نقابة الموثقين .

(٦١) Manual of Law. المجمل الذى اصدره الامبراطور باسيل الأول بين سنتى ٨٧٠ ، ٨٧٨ ، ويشمل اربعين موضوعا ؛ وهو المعروف باسم Procherion
(Ostrogorowski : History of the Byzantine State. p. 216.

(٦٢) انظر ما سبق فى حاشية ١٤

(٦٣) النقود البيزنطية الواردة فى هذا المرسوم تشمل ما يأتى :

ا ـ النوميزما nomisma ـ نقد ذهبى ، يقابل فى القيمة الصولد (Solidus) الذى كان معروفا فى العهد المتأخر للامبراطورية الرومانية ، ويساوى نحو ٣٫٠٥ من الدولارات اى نحو ١٢٥ قرشا مصريا .

ب ـ الميليارزيون Miliarision ـ نقد فضى يساوى ١/١٢ من النوميزما ويقابل ٢٥٫٤٤ سنتا اى نحو ١/٢ ١٠ من القروش .

ج ـ القيراط keration نقد فضى ايضا يساوى ١/٢٤ من النوميزما ؛ ويقابل ١٢٫٧٢ سنتا أى نحو خمسة قروش .

د ـ الفلس obol, follis نقد نحاسى ومقداره لا يزيد الا قليلا عن سنت واحد ..أى نحو نصف قرش .

انظر Carlo M. Cipolle : Money, Prices and civilisation in the Mediterranean World. Princeton University Press 1956. p. 20, 21, 41.
Robert Lopez and Irving Raymond : Medieval Trade in the Mediterranean World. New York 1955, P. 20 note 6.

(٦٤) هذا مجرد اسم آخر للموثق ، وليس اسم عضو جديد بالنقابة .
انظر Stockle : *op. cit.* pp. 18-19.

(٦٥) انظر ما سبق فى الحاشية ٦٣

(٦٦) هذه العقوبة التى تقضى بقص شعر الراس واللحية تعتبر من الأمور المهينة المذلة ، لأن المعروف ان من دلائل شهرة الرجل الاحتفاظ بشعر رأسه ولحيته .
انظر Boak : *op. cit.* p. 602 note 9.

(٦٧) صار تعيين هؤلاء المدرسين لتعليم الطلاب واجبات واعمال الموثقين .
انظر Boak : *op. cit.*, p. 602 not.

(٦٨) الراجح ان هذه اشارة الى انزال العقاب بوالى المدينة ، وهذه العبارة تنطوى على أمور ترجع الى ما بعد عصر ليو السادس ، ولذا تعتبر من العبارات الدخيلة فى كتاب والى المدينة ، فالمعروف انه لم يكن من تقاليد هذه الوظيفة ان يكون لصاحبها حزام او منطقة .
انظر Stöckle : *op. cit.*, pp 76-77.

(٦٩) لم يرد فى النص الحد الأعلى للمقدار الوارد فى العقود التى يتقاضى الموثق عنها نوميزما .

(٧٠) تجار الجواهر هم المعروفون باسم Arginopratai ، والمعنى الحرفى

لهذا اللفظ « تجار الفضة » . على ان هذا الاسم يطلق ايضا فى هـذه الفقره على الصاغة ، وعلى الذين يمارسون تجارة الحجارة الثمينة واللؤلؤ فضلا عن الذهب والفضة . انظر .Boak : op. cit. p. 603, note 5

(٧١) عن الميارزيون انظر ما سبق فى حاشية ٦٣

(٧٢) لم يرد تحديد لمقدار المصادرة فى هذه الحالة وسائر الحالات . انظر Boak : *op. cit.*, p. 604 note 3

(٧٣) الميز ، Mese ، هو الشارع الذى يمتد وسط القسطنطينية ، وهو الشارع الرئيسى للمتاجر والصناعات بالمدينة . Stockle : *op. cit.*, pp. 71-72.

(٧٤) اللفظ اليونانى Katallakioi مصطلح آخر للصيارف trepezetai وما ترجمه Boak بلفظ المزيفين ورد فى اليونانية باسم Sakkoulerioi وجعلها تقول Nical فى الترجمة الفرنسية بما يقصد به الصيارف المتجولون انظر : Boak *op. cit.*, 604 Note 8.

(٧٥) تجار الملابس الحريرية وهم المعروفون باسم Vestiapratai وهم الذين يمارسون تجارة الملابس الجاهزة . فيخالفون بذلك اولئك الذين يتاجرون فى الحرير الخام او غير المغزول . على أن ما ورد فى الفصول الخمسة ( ٤ — ٨ ) من صناعة الحرير لا يتبع فى النظام ترتيب العمليات الصناعية . انظر : Boak *op. cit.*, p. 605 note. g.

(٧٦) هذه هى ترجمة النص الوارد فى كتاب نيقول ، على ان الاستاذ Boak يرى أن العبارة ينبغى أن تكون العباءات والأثواب الارجوانية ، والعباءات ذات اللون الارزق ، اى ان يكون ثلثاها احمر اللون » .

(٧٧) اى الواردة فى الفقرة الاولى من هذا الفصل وهى تنص على « الجلد ومصادرة السلع » .

(٧٨) الأوقية هنا تساوى ١/١٢ اى مليارزيون واحد ، فيصير بذلك الربح المقرر مساويا ٨ ١/٢ ٪

(٧٩) « الأقوياء » هم طبقة كبار الملاك الذين حاولوا ان يجعلوا صغار الفلاحين يعتمدون عليهم . لم يكن هؤلاء « الاقوياء » من طبقة النبلاء التى استمدت نبلها عن طريق النسب ، انما استمدوا نفوذهم وسلطانهم بما حصلوا عليه من امتيازات مالية وقانونية . اما نساجو الأقمشة الحريرية (Serikoorioi) ، فينتمون الى نقابة اخرى . وحاول كثير منهم ان يخضعوا كل صناعة الحرير لاشرافهم . .
انظر Lopez : *op. cit.*, p. 19 : Lopez : Medievel Trade in the Mediterranean World p. 21 note 16.)

(٨٠) قارن هذا بما فى الفقرتين ١ ، ١٣ . تدل لائحة نقابة غزالى الحرير على أن النقابة كلها اصبحت تحت اشراف تجار الحرير الخام ، اذ تحتم على غزالى الحرير أن يبيعوا لهم كل الحرير المشغول . انظر
Lopez : *op. cit*, pp. 18-19. Lobez. Medievel Trade. p. 22 note 20.

(٨١) والفرق بين هؤلاء التجار وبين التجار المشتغلين بالحرير الخام والمعروفين باسم metaopratai ، هو أن هؤلاء التجـار المشتغلين بالحرير الخام لا يشترون من الحرير الا ما كان نقيا نظيفا ، اما الآخـرون فالتزموا بألا يشتروا من الحرير الا ما كان وسخا وبه عيوب ، أو مختلطا بخيوط من القطن والكتان .
Lopez: Medieval Trade p. 22 note 21.

(٨٢) وتجار الحرير الخـام الذين لم يدرجوا فى النقـابة اشتهروا باسم metaxorioi وهو اسم عام للمشتغلين بهذه المهنـة . أما أولئك الذين اندرجوا فى النقابة فلهم اسم خاص هو metaxopratai الذى جرى ذكره فى الفصـل السادس . انظر (Boak: *op. cit.*, p. 08 note 5)

(٨٣) هذه القيود المفروضة على نساجى الحرير يرجع سرها الى وجود احتكار امبراطورى لاستخدام الأرجوان والثيـاب ذات اللون الارجوانى ، اذ يقوم عمـال الامبراطور بصباغتها فى مصانع الصباغة . وهؤلاء العمال يتسلمون من الغزالين الحرير الطبيعى بعد غزله ، وبعد صبغه يتولى نساجو الامبراطور اعـداد الملابس اللازمة لحاشية الامبراطور ورجال القصر . غير أن اعضاء نقابة النساجين يتسلمون ايضا من المصانع الامبراطورية الحرير المغزول بعد صبغه ، فيصنعون منه المنسوجات الملونة التى يجوز لهم ان يبيعوها لتجار الاقمشة الحريرية ، التى يبيعونها بدورهم للجمهور . انظر (Stockle: *op. cit.*, pp. 28-31 وانظر أيضا ما ورد فى ص ٦

(٨٤) المعروف ان « العروض » هى قطع من المنسوج جرت حياكتها سـويا حتى يتكون منها ثوب . وكلما قل عدد القطع ، كلما ازدادت قيمة الثوب .
انظر (Boak: *op. cit.*, p. 609 note 7.

(٨٥) ويعرفون باسم othoniopratai أو mitabaneis ويمارسون تجارة المنسوجات الكتانية التى يستوردونها ويبيعونها ، اما اقمشة او ملابس او اشياء اخرى .
انظر . Baok: *op. cit.*. p. 10 note 8

(٨٦) الواضح ان هذه نقود منخفضة القيمة ، سكتها الحكومة الامبراطورية لأغراض خاصة . انظر Stöckle: *op. cit.*, p. 146

(٨٧) انظر ما سبق فى حاشية ٨٤

(٨٨) تجار العطور murepsoi والواقع ان هؤلاء لم يكونوا الا تجارا لا صناعا ، وربما كان احسن اسم يطلق عليهم هو تجار العقاقير .
Stöckle *op. cit.*, p. 26.

(٨٩) الباب البرونزى أو الطاقة التى تعتبر جزءا من القصر الامبراطورى . اما علامة الطريق فهى سقيفة او طاقة تعتبر النقطة التى تنتهى عنـدها الطرق الامبراطورية . انظر Boak: *op. cit.*, p. 611 note 8

(٩٠) الاشارة يقصد بها الاقليم البيزنطى المعروف باسم خالديا على الساحل الجنوبى للبحر الاسـود ـ اما ترابيزوس الواردة فى الأصـل فهى المعـروفة الآن

باطرابزون ، كانت عاصمة خالديا ، وتعتبر محطة على حدود الدولة البيزنطية تنتهى اليها القوافل القادمة بالسلع من الصين والهند وفارس . انظر
Lopez : *op cit.*, p. 26

(٩١) الاضافة عن نيقول ــ المتن ص ٤٥ .

(٩٢) الواضح أن المقاييس مضطربة فى هذا الموضع ؛ وتعرض النص للاضطراب . فاذا كان الذراع ١٨ بوصة ، صار مقدار ١١ ذراعا عشرة اقدام ونصف قدم . واذا قدرنا الذراع بعشرين بوصة ، كان مقدار ٧ اذرع احد عشر قدما وثمانى بوصات أى نحو ١٢ قدما . وهذا التقدير اقرب الى الصواب . وهذا الحظر انما الغرض منه منع الحريق ، ولم يكن المقصود منه منع التنافس بين الجيران ( انظر
(Boak : *op. cit.* p. 613 note 6.

(٩٣) هذا النوع من الصابون اقتصر استخدامه على الدور الامبراطورية انظر
Stockle : *op. cit.* p. 39

(٩٤) هذا العنوان وارد فى النص اليونانى باسم Salgamarioi Saldamarioi والمعنى الحرفى للفظ الأول « الذين يصنعون المخلل » ، أما اللفظ الثانى فيقصد به المتسببون فى بيع الطعام ، والواقع انهم يمارسون التجارة فى سلع مختلفة . واذا جاز لهم أن يبيعوا اللحم ، فالمعروف أن هذا اللحم مكسود انظر
Boak : *op. cit.* p. 613 note 1.

(٩٥) ورد فى النص باسم Lorotomoi والمعنى الحرفى « الذين يقطعون السيور الجلدية ، ويجوز ترجمتها بصناع السروج » .
انظر
Boak : *op. cit.* p. 614 note 1.

(٩٦) المقصود انهم يحصلون عن كل نوميزما يدفعونها ، على كمية معينة من اللحم ، وتختلف هذه الكمية باختلاف أحوال السوق . وستراتيجون موضع سوق كبير يقع على القرن الذهبى
(Boak : *op. cit.* p. 615 note 2)

(٩٧) هذا النهر معروف فى المصادر العربية المعاصرة باسم نهر صغارى او نهر عمورية ( انظر ابن خرداذبه : كتاب المسالك والممالك ــ طبعة دى غوية ص ١٠١ ) .

(٩٨) قصد نيقول انه لا يجوز للجزارين أن يشتروا الماشية فى نيقوميديا او غيرها من المدن ، بل يجوز ان يشتروا ما يحتاجون من الماشية فيما وراء نهر صغارى . وهو فى هذا يناقض نفسه ، ويتعارض مع الفقرات الاخرى التى تقصر نشاط الجزارين على القسطنطينية وحدها
Stockle : *op. cit.*, pp. 42-43.

(٩٩) وطاوروس من اسواق القسطنطينية ، انشاها الامبراطور تيودوسيوس الكبير ( ٣٧٨ ــ ٣٩٥ م ) .
انظر
Boak : *op. cit.* p. 615 note. 4.

(١٠٠) المقصود هو ما يتقاضاه الرؤساء من الربح عن النوميزما ، اذ جرى تقديره بأربعة فلوس عن كل نوميزما ــ انظر حاشية (٦٣) .

(١٠١) المعروف ان هذا الامر يسرى على جميع الحرف ولا يقتصر على حرفة الخبازين .

(١٠٢) اللتر Litra ، رطل ، والأصل اللاتينى libra ، ويشمل ١٢ أوقية والمعنى المقصود ، هو ان الأوعية لابد أن تكون ذات حجم واحد ، غير ان الحد الذى يصل اليه النبيذ يختلف بحسب ما هو موجود من كمية النبيذ بالمدينة اى بحسب قيمته ( انظر Stöckle: *op.cit.*, p. 100 ) .

(١٠٣) تقابل بالتوقيت المصرى الساعة العاشرة صباحا .

(١٠٤) مندوب الوالى ــ انظر Stöckle: *op. cit.*, p. 80.

(١٠٥) الاشارة هنا ترجع الى ما يقوم به هؤلاء المفتشون من التخلص من الحيوانات التى بقيت بالسوق دون أن يشتريها احد . وكذا العمل على ازالة وسخ السوق ( انظر Boak: *op. cit.*, p. 618 note 9. )

(١٠٦) لعل المقصود بالحاجز هو السور الذى يحيط بسوق الماشية ، اما المستخدم والمجرى فهو القناة التى تجرى بها الأوساخ والأقذار .

# المستقبل الاقتصادى لقناة السويس

## ( ١ )

للدكتور ابراهيم صقر حسن

**مقدمة :**

كان لعصر الكشوف البحرية آثار بعيدة المدى فى العالم ، وما تقوم به من صلات وعلاقات . وكان اختراع البوصلة البحرية وانتشار استعمالها ، وما حدث من تقدم فى صناعة السفن ورسم الخرائط ، وفى فن الملاحة البحرية — كانت كل هذه العوامل قد أخذت تعين بالتدريج على تقليل مخاطر الملاحة البحرية ، ومن ثم على تشجيع هذه الملاحة مما دفع إلى محاولة الافادة بنقل التجارة عن طريق البحر لرخص النقل البحرى ، إذا قيس بغيره من طرق النقل الأخرى .

ولما كانت الملاحة البحرية السائدة إذ ذاك هى الملاحة الشراعية ، فقد كان الملاحون يحاولون الافادة من نظم الرياح السائدة التى شاركت من ناحيتها كعامل طبيعى فى رسم اتجاهات الطرق البحرية السائدة نشدانا من الملاحين للطرق الأسهل والأقل تكلفة ، وانتهى الأمر بزيادة النشاط البحرى فى المحيط الاطلنطى وكشف العالم الجديد وتحول مركز النقل فى النشاط التجارى إلى المحيط المذكور والدول التى تحف به بعد أن كان البحر المتوسط والشرق الأدنى يتمتع بهذه الميزة وبذلك أخذ الستار يسدل على فصل فى قصة الانسانية والتاريخ ، وينبثق رويدا رويدا عن فصل جديد .

وإذ ننتقل من هذا الكلام العام إلى شىء من التفصيل ، فاننا نجد أن الملاحة الشراعية فى البحر الأحمر وخاصة فى الأجزاء الشمالية منه على درجة من الخطورة لعوامل منها عدم انتظام الرياح وكثرة الصخور . وكان لا بد فى استعمال الطريق بين الشرق والغرب عبر مصر [١] من تقطع وتغير فى طرق النقل ووسائله إذ كانت التجارة تستعمل البر والنقل

(١) خص الكاتب الطريق عبر مصر بالذكر لأنه هو الذى يهمنا فى الموضوع قيد البحث .

النهرى فى انتقالها بين البحر المتوسط والبحر الأحمر ، الأمر الذى كان يؤدى إلى ارتفاع تكلفة النقل بسبب استعمال طرق ووسائل أكثر تكلفة ، وبسبب الاضطرار إلى تكرار عمليات الشحن والتفريغ ومصاريف التخزين وفى كثير من الأحوال تحدد المبادلات. هذا بالاضافة إلى ما كان يجبى من مكوس على التجارة المارة ، فضلا عما كان يلاقيه التجار من متاعب ومصاعب .

ولقد كان السعى إلى كشف طرق جديدة بين الشرق والغرب أكثر موأتاة من طرق الشرق الأدنى دافعاً هاماً أدى إلى قيام عصر الكشوف وما صاحبه ، وانبنى عليه من تطورات ونتائج .

وكان الطريق البحرى حول رأس الرجاء الصالح من الطرق البحرية الهامة التى اكتشفت إبان ذلك وأحدث اكتشافه واستعماله انقلابا خطيراً فى طرق التجارة بين الشرق والغرب والوسائل التى تحملها وبالتالى فى تكلفة النقل للسلع المتبادلة وفى طبيعة التجارة المنقولة كما وكيفا .

فبالرغم من أن طريق مصر إلى الشرق كان أقصر من طريق الرأس إلى حد كبير جداً إلا أن الطريق الأخير كان يفضله كثيراً . فالى جانب ما ذكرنا سابقا من نقائص الطريق عبر مصر ومصاعبه كان طريق الرأس يتمتع بعدة ميزات رغم طول المسافة المقطوعة فيه من معاونة نظام الرياح السائد فيه إلى تعدد جزره ونقطه الساحلية التى تخدم كمحطات وقواعد للتموين إلى استعمال النقل البحرى الرخيص على طول الرحلة . ومن العوامل بارزة الأهمية فى تفوق هذا الطريق على طريق مصر استمرار الرحلة وعدم تقطعها ومن ثم لم تعد هناك حاجة لتكرار عمليات الشحن والتفريغ وغير ذلك من الأمور التى تضيف عبئا له أثره على تكلفة نقل السلع .

كل هذه العوامل اتجت فى تفاعلها إلى تفضيل طريق الرأس على طريق مصر لتفوقه البارز من ناحية قلة تكلفة نقل السلع [٢] مما أدى إلى اتساع التجارة فى المحيط الاطلنطى

(٢) قام الأتراك فى الأجزاء الأولى من القرن السادس عشر محاولين استعادة التجارة بين الشرق والغرب بعدة أعمال ، منها تخفيض الرسوم من ١٠ ٪ إلى ٥ ٪ ثم بعد ذلك إلى ٣ ٪ ولكن دون جدوى .

وعلى هذا الطريق وكان أن قامت الدول البحرية بمحاولة تقوية دعائم الأمن وتثبيتها فى مياه المحيطات ، مما دعا بدوره مرة أخرى إلى اتساع التجارة المحيطية وأضاف إلى قيمة طرقها البحرية . ولم يؤد تخفيف عبء تكاليف النقل على السلع المنقولة إلى اتساع التجارة بين الشرق والغرب من ناحية الكمية فقط ، بل أنه أثر كذلك فى ماهية هذه التجارة من ناحية طبيعة السلع المنقولة . إذ أمكن أن تقوم التجارة أيضا فى السلع الأقل وزنا والأكبر حجما والأرخص ثمنا التى يشجع على تبادلها انخفاض تكاليف نقلها وبالتالى نسبة ما تضيفه هذه التكاليف إلى ثمنها الأصلى . هذا بدوره أدى إلى أن ينشأ بالتدريج تخصص أدق فى الانتاج بين أجزاء العالم المختلفة ، مما يؤدى مرة أخرى إلى مضاعفة التجارة المتبادلة .

هذا التوسع الظاهر فى الاتجار ، والتبادل وما حققه من أرباح طائلة أدى إلى تكديس ثروات كبيرة أعانت على تحقيق ما دفع اليه من زيادة فى التخصص الأفقى والرأسى وزيادة الكفاية الانتاجية . فقد ساعد هذا الوضع على تمهيد الطريق للثورة الصناعية والانتقال من عصر التجاريين إلى عصر الرأسمالية ، الأمر الذى أدى إلى قيام اختلافات أخرى فى اقتصاديات الشرق والغرب مما خلق دوافع أقوى للاتجار والتبادل بين كلا الجانبين .

---

("The Ottoman Turks and the Routes of Oriental Trade" by A.H = Lybyer ir *The English Historical Peview*, Vol. 30, No CXX, October 1915, 577-88, 586.)

إذ كان الفارق فى تكلفة النقل فارقاً ماثلاً إلى حد كبير ويذكر سيجفريد أن ثمن البهارات فى لشبونه كان يبلغ فقط خمس ما يبلغه ثمنها فى البندقية .

(*Suez and Panama*, by André Siegfried, translated by H.H. and Doris Hemming, 50.)

وفى الجزء الأخير من القرن السابع عشر ، بدأ الانجليز يحملون سلع الشرق إلى البحر المتوسط عن طريق الرأس وينافسون بها حتى فى أسواق موانىء الليفانت . وقد قدر حوالى عام ١٨٠٠ أنه بينما كانت السلع المنقولة من الهند إلى فرنسا عبر البحر الأحمر تحقق ربحاً يقدر فقط بـ ٤ ٪ فان السلع المنقولة عبر طريق الرأس كانت تحقق ربحاً يقدر بـ ٣٦ إلى ٤٨ ٪ .

ويقول A.H. Lybyer « يظهر ان طريق الرأس كان أرخص من كل الطرق الأخرى فى حمل السلع المنقولة لمسافات طويلة واستمر هذا الطريق يفوز بمعظم التجارة مع الشرق زهاء ثلاث قرون ونصف إذ ظل يحتفظ بنفوذه هذا حتى اخترعت السفينة البخارية التى أمكنها أن تمخر عباب البحر الأحمر دون اعتماد على الرياح أو تقيد بها وحتى حفرت قناة السويس التى ألغت الحاجة إلى استعمال البر بين البحرين (Lybyer, *op. cit* 587-88) .

كمرجع عام أنظر :

(The Geography of the Suez Canal " by Ibrahim Sakr (Has an), 49-53.)

ويلاحظ أن تزايد سرعة عجلة الحياة فى أوربا وحاجتها الأكثر إلحاحا إلى الاسراع بحركة التجارة العالمية ومدى نشاطها أدى إلى تشجيع و نتاج المخترعات التى أشبعت هذه الحاجة كما ساعدت بدورها على تغيير الوضع فى العالم مرة أخرى . فقد أحدث إختراع الآلة البخارية والسفينة البخارية والقاطرة إنتقالا خطيراً فى حياة البشر بدأت به صفحة جديدة فى التاريخ . وليس بالمرء من حاجة إلى تأكيد أهمية إختراع السفينة البخارية واستعمالها فى تغيير الوضع العالمى والتدليل على هذه الأهمية . لقد بدأ فجر عهد جديد وأخذت شعاعاته تنبثق رويداً رويدا فى ثنايا ليل يسدل ستائره على عهد يولى ويدبر بعد إذ أقبل على الدنيا مع البوصلة وعصر الكشوف فى أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر .

**من راس الرجاء الى السويس :**

تحدثنا من قبل عن تزايد سرعة عجلة النشاط الاقتصادى والحياة على وجه العموم فى أوربا ، ولقد أدى هذا وما صحبه من تخصص مربح بما أدى إليه من حاجة متبادلة للاتجار والتداول أدى كل هذا إلى الاسراع بعجلة النشاط التجارى فى كل أنحاء العالم . وقد أمدت السفينة البخارية العالم بوسيلة أكبر وأسرع كثيرا لنقل التجارة العالمية وعن طريق البحر أرخص طرق النقل . ليس هذا فقط ، بل أن السفينة البخارية أمكنها أن تمخر البحر فى أى اتجاه دون أن تعتمد على الرياح أو تتقيد بها . مما أعان الانسان وهو يسعى لزيادة سرعة حركة التجارة على اتباع الطرق الاقصر للتجارة البحرية دون اعطاء وزن كبير للمصاعب التى كانت تواجه الملاحة الشراعية سواء من ناحية الرياح أو غيرها . وقد ساعد ما حدث من تحسن فى السفن البخارية على زيادة قدرتها فى هذه النواحى(٣) .

---

(٣) Re nner, George T., *Human Geography in the Air Age*, 13-14

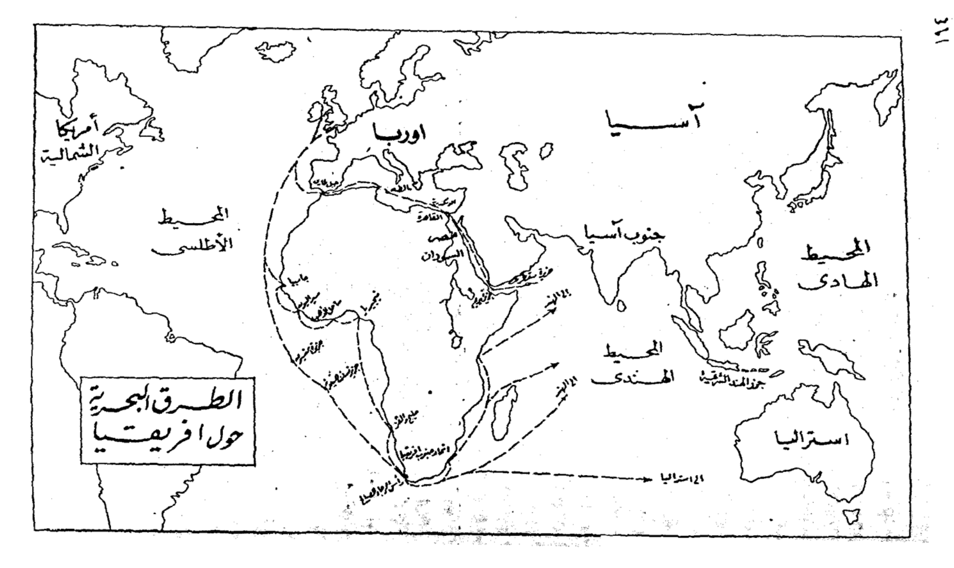
وفى هذا المرجع يقول المؤلف لقد جعلت السفينة البخارية المحيطية السريعة عصر الشراع فى عداد التاريخ . وفى عام ١٨٦١ تم اختراع بالغ الأهمية إذ أمكن وضع السفن فى هياكل من الحديد أو الصلب ولم يمض وقت طويل حتى دخل الصلب فى صناعة السفن كلية — وقبل ذلك ببعض الوقت استعملت الآلة البخارية فى السفينة وبهذا أصبح لدى العالم سفن محيطية من الصلب تتحرك بقوة ميكانيكية وكان هذا عاملا له أثره الخطير فى العلاقات الجغرافية فى العالم وباستعمال هذه السفينة أصبحت السرعة عاملا أساسياً فى الأمور الجغرافية . فقد بدأت أهمية طرق السفن الشراعية على البحار السبعة تضعف بالتدريج . ولم يعد الانسان يفكر فى العالم وفى ذهنه سفينة بطيئة متتبعة لسلسلة من الجزر على خريطة تبدو فيها الأرض بشكل اسطوانى وتزايدت ندوة الرحلات الطويلة حول رأس هورن أو رأس الرجاء الصالح . وأنشئت القنوات عند السويس =

ولقد أدى هذا التطور إلى تحول بعض النشاط التجارى عن طريق الرأس إلى طريق مصر (٤)، إلا أن وجود تقطع فى الطريق كان عقبة فى سبيل تحول التجارة فى السلع ثقيلة الوزن كبيرة الحجم رخيصة الثمن التى تكون القدر الأعظم فى التجارة بين الشرق والغرب وقد دعا هذا إلى محاولة اخراج فكرة وصل البحرين المتوسط والأحمر بقناة وهى الفكرة التى راودت كثيرا من العقول منذ أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر إلى حيز التنفيذ . هذه القناة التى تخلق بإتمامها طريقا مائيا مستمرا أقصر كثيرا من طريق الرأس يصل الشرق والغرب وعليه يمكن نقل السلع التى تدخل فى هذه التجارة بعد التمكن من تجنب تقطع

= وبنما ، ووضعت الخطط لإنشاء قنوات أخرى عند نيكاراجوا وفنوريدا وبرزخ كرا وفقدت نطاقات الرياح المنتظمة فى العالم أهميتها ولم تعد هناك أهمية للجزر الصخرية النائية فى صور التجارة العالمية الحديثة ... إذ أمكن للسفن الجديدة أن تسير دون تقيد بنطاقات الرياح والجزر التى تعمل كمحطات ونقط للتموين . وبدأت تنشأ رحلات منتظمة تتبع طرقاً محددة . لقد أصبحت اعتبارات السرعة ذات درجة بالغة من الأهمية .

(٤) Hoskins, H. L., *British Routs to India*, 236, 264-265, 404, 469.

ويذكر Hoskins ان السفن البخارية فى المياه الأوربية والآسيوية نجحت نجاحاً بارزاً فى توفير المسافة والوقت وفى التقريب بدرجة أكبر بين الغرب والشرق . وما أن جاء منتصف القرن التاسع عشر حتى أصبح من غير الممكن حتى على أشد المتشككين أن ينكر الضرورة القصوى للطريق البرى عبر مصر . غير أننا نجد أنه بينما أصبحت السفن البخارية التى تصل إلى المياه المصرية كل عام أكبر وأقوى وأصبحت مواعيدها أكثر مناسبة وزاد استغلالها من العوامل التى تؤثر عليها إلا ان مشكلة خطيرة بقيت تنتظر الحل قبل أن يتمكن هذا الطريق من أن ينافس طريق الرأس من الناحية التجارية أو أن يكتمل تطوره كشريان رئيسى للمواصلات هذه المشكلة هى مشكلة المرور عبر مصر (p. 236) ثم يضيف الكاتب فى مكان آخر من نفس المؤلف قوله « ومع أن (المرور عبر مصر) قد تحسن بدرجة كبيرة منذ إفتتاح الطريق البرى إلا أن تطوره كان أقل مما حدث من تحول ميكانيكي فى النواحي الأخرى . غير أنه كانت هناك مشروعات يفكر فيها جدياً للتغلب على المظاهر المعطلة لهذه الحلقة البرية من الطريق وذلك بإكمال خط حديدى بين الاسكندرية والسويس أو بحفر قناة ملاحية عبر الحاجز الأرضى وبهذا أمل أن يكون الطريق عبر مصر وافياً سواء بحاجات التجارة أو بأغراض الاتصال الأخرى (p.264-65.) وقد كان لمشروع الخط الحديدى الأسبقية وتم انشاؤه قبل نهاية عام ١٨٥٨ وبدأ الطريق عبر مصر ينال بعض الأهمية البارزة كطريق تجارى وقبل أن تفتتح قناة السويس كان يمر عبر مصر ما قيمته ألوف كثيرة من الجنيهات من السلع الثمينة (p. 407) غير أننا نجد أنه مع ما كان للطريق البرى من مزايا فلم يكن فى استطاعته منافسة طريق الرأس كشريان رئيس للتجارة وإن كان استعمال الطريق البرى فى ارسال الأوراق التجارية وكميات من السلع القيمة قد أضاف الكثير إلى ما له من قيمة كطريق للبريد والمسافرين (p. 469) .


الطرق البحرية
حول افريقيا
أمريكا
الشمالية
المحيط
الأطلسى
اوربا
آسيا
جنوب آسيا
المحيط
الهادى
المحيط
الهندى
استراليا
القاهرة
مصر
السودان
جزر الهند الشرقية
الى استراليا

الطريق غير مصر وضمان وفر كبير فى المسافة والتكلفة [٥] والوقت [٦].

فنحن نلاحظ أن طريق السويس يؤدى استعماله بدلا من طريق الرأس إلى تحقيق وفر كبير فى المسافة والوقت مما يجعل الطريق الأول إذا تساوت الأشياء الأخرى أفضل من الثانى فى خدمة التجارة البحرية فى جزء كبير من العالم ويتبين ذلك من الجدول الآتى [٧] :

نقط البداية ( المسافة محتسبة بالأميال البحرية )

| الانتهاء | الطريق المستعمل | ليفربول | نسبة الوفر | هامبورج | نسبة الوفر | مارسيليا | نسبة الوفر |
|---|---|---|---|---|---|---|---|
| بومباى | الرأس | ١٠٦٨٠ | ٪٤٢ | ١١٢٠٨ | ٪٤٠ | ١٠٤٢٤ | ٪٥٦ |
| | السويس | ٦٢٢٣ | — | ٦٥٦٧ | — | ٤٥٦٣ | — |
| كلكتا | الرأس | ١١٥٥٦ | ٪٣٢ | ١١٩٠٤ | ٪٣١ | ١١٣٠٠ | ٪٤٥ |
| | السويس | ٧٨٦٥ | — | ٨٢٠٩ | — | ٦١٩٥ | — |
| سنغافورة | الرأس | ١١٧٠٧ | ٪٢١ | ١٢٠٥٥ | ٪٢٩ | ١١٤٥١ | ٪٤٣ |
| | السويس | ٨٢١١ | — | ٨٥٥٥ | — | ٦٥٤١ | — |
| سيجون | الرأس | ١٢٤٢٢ | ٪٢٩ | ١٢٧٧٠ | ٪٢٨ | ١٢١٦٦ | ٪٤١ |
| | السويس | ٨٨٤١ | — | ٩١٨٥ | — | ٧١٧١ | — |
| يوكوهاما | الرأس | ١٤٤٣٦ | ٪٢٣ | ١٤٧٨٤ | ٪٢٣ | ١٤١٨٠ | ٪٣٣ |
| | السويس | ١١١١٣ | — | ١١٥٥٧ | — | ٩٤٤٣ | — |
| تاماتاف | الرأس | ٨١٦٣ | ٪١٦ | ٨٥١١ | ٪١٦ | ٧٩٠٧ | ٪٣٥ |
| | السويس | ٦٨١٤ | — | ٧١٥٨ | — | ٥١٤٤ | — |
| ملبورن | الرأس | ١١٨٩٠ | ٪٧ | ١٢٢٣٨ | ٪٧ | ١١٦٣٤ | ٪١٩ |
| | السويس | ١١٠١٨ | — | ١١٣٦٢ | — | ٩٣٤٨ | — |

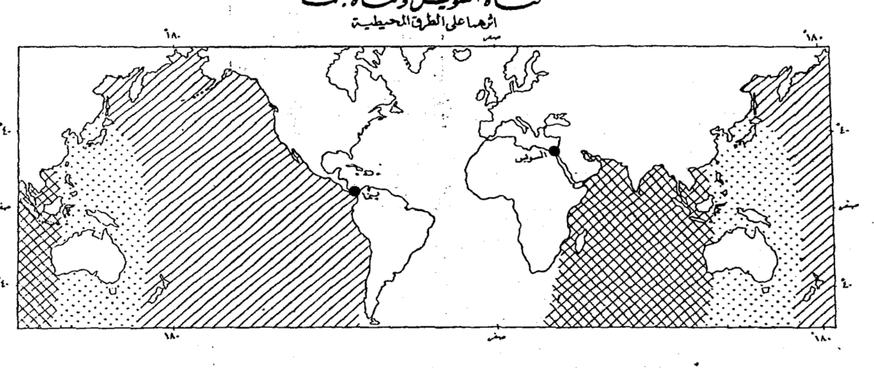
(٥) (*Ibid.* 419, depending on the *P. & O, Pocket Book*, 3rd. issne.
حيث يذكر أنه ما إن جاء عام ١٩٠٠ حتى كانت معدلات أجور نقل البضاعة إلى الشرق تبلغ فقط خمس ما كانت تبلغه قبل افتتاح قناة السويس .

(٦) Reuner, *op. cit.* especially chap. II, particularly 10-14 ; 1.Sakr Hassau, *op. cit.*, chap II. and pp. 114-118.

(٧) Nousbaum, R. et J. et Huntchings G. *Companie Universelle du Canal de Suez*; Collecion Economie du Monde, sous la direction de Cristian Funck Brentano, 154.

## قناة السويس وقناة بنما

### أثرهما على الطرق المحيطية




مصدر (The Mercantile Marine Atlas)

كذلك كان طريق السويس أفضل لتجارة بين موانىء الاطلنطى فى أمريكا الشمالية وبين أجزاء كثيرة من الشرق (٨).

وقد يكون من المهم أن نضيف أن طريق السويس يمتاز بنوع من المناخ أوفق نسبيا فضلا عن وجود ميزة برزت أهميتها على الخصوص فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، وهى أن محطات الفحم والامداد بالوقود لم تكن فقط عديدة بل انها ايضا لا تبعد كثيرا احداها عن الاخرى (٩) مما كان يفتقر اليه طريق رأس الرجاء . ومن الحقائق المثيرة ذات المغزى أنه حدث فى عام ١٨٢٩ أن السفينة هيولندساى التابعة لشركة P. & O. لم يمكنها أن تأخذ غير مسافر واحد ذلك لان كل الفراغ الموجود بالسفينة كان لابد أن يملأ بالفحم (١٠) ، ومع أن ما حدث من تحسينات فى الآلة البخارية قد قلل بعض الشىء من حدة هذا العامل ، وأن استعمال البترول كمادة للوقود قد زاد من تخفيف هذه الحدة ، الا أن هذه الميزة لا تزال واضحة إذ يتوفر البترول على طول طريق السويس فمن ناحية نجد الخليج الفارسى

---

(٨) المراجع فى ذلك كثيرة . . . وخاصة المراجع العامة . . . أنظر الخريطة فى الصفحة السابقة من التقرير وما سوف يأتى من مناقشات خاصة بهذا الموضوع فى التقرير .

(٩) Hallberg, Charles W., *The Suez Canal; Its History and Diplomatic importance*, Appendix A, 377-399, 377; Issa, Hassan Hussein,, *les courants économomiques camparés du Canal de Suez et du Canal de Penama*, 61-62, 109-11; Smith J. Russell, and Phillips, M. Ogden, *Industrial and Commercial Geography*, 854, 856; They state, No long route in the world equals this one the Suez Route for coaling opportunities.

(١٠) A vessel can sail over it from the remotest port in the Gulf of Mexico to Vladivostok in east Siberia without ever being compolled to carry coal for a voyage longer than that betweeu aden and Colombo a distance of less than 2200 miles. The vessel from the Gulf of Mexico if it so desired Could get coal at Norfolk or Bermuda; the vessel from New-York occasionsally in times or great stress of freight and high rates call at Fayal or st. Michaels in the Azores about 2000 miles out from New-York, and thence onward the succession of cealing stations is continuous. The leading ones actually used by the various lines are Gibraltar, Algiers, Port Said, Aden, Colombo, Singapore, Horgkoung, Shanghai, and Yokohama or Mojr," 856.

3. Siegfried, *op. cit.*, 114.

والمصادر الأخرى للبترول شرق السويس ومن ناحية أخرى نجد أنابيب البترول تحمله إلى شاطئ الليفانت كما نجد له مصادر مختلفة فى الجانب الآخر للقناة [١١] .

هذه الميزات ، وخاصة قصر المسافة باستعمال طريق السويس ، لفتت الأنظار إلى الطريق وإلى استعماله فى نقل جميع أنواع السلع بجانب المسافرين والبريد والطرود الخفيفة وكان لا بد لقيام الطريق بهذه الخدمة من وصل البحرين وتجنب تقطع الطريق وقد راودت فكرة وصل البحرين كثيراً من العقول حتى انتهى الأمر بالحصول على الامتياز وإنشاء قناة السويس ولأهمية إتمام القناة للتجارة ونلاحظ أنه رغم أن الحكومة البريطانية حاولت ما وسعها الجهد عرقلة المشروع ، فان الدوائر التجارية والدوائر المهتمة بشئون الهند وتجارتها خاصة كانت تميل ميلا واضحاً نحو المشروع فحين قرر دلس أن يذهب إلى لندن محاولا التخفيف من حدة مقاومة الحكومة البريطانية وعرض الأمر على الشعب والدوائر التجارية مباشرة أعلنت شركة الهند الشرقية أن مجلس إدارتها يشعر دائما باهتمام كبير ورغبة أكيدة فى نجاح أى مشروع يمكن أن يسهل وسائل الاتصال بين بريطانيا العظمى وبين الهند وذكرت شركة P. & O. التى حبذت المشروع منذ البداية أن أهمية النتائج التى سوف تنجم عن ربط البحرين — الأحمر والمتوسط — بواسطة قناة ملاحية من البروز بحيث لا يحتمل الوضع قيام فكرة أخرى فيما يختص بالموضوع ، وإذا ما قدر لهذا المشروع أن يتم بنجاح فان على هذه الشركة بالضرورة أن تأخذ بنصيب فيما سوف يحدثه المشروع من آثار ليس فقط على تجارة بريطانيا العظمى بل على تجارة العالم أجمع . وكان الرأى فى الهند فى عمومه يحبذ إنشاء القناة [١٢] .

ونلاحظ أن وصل البحرين يخلق طريقا بحريا مستمراً يمتاز إلى جانب قلة تكلفة النقل البحرى المستمر بكثرة الموانى التى يخدمها وأهمية ظهورها وتعدد الطرق البحرية الفرعية

---

(١١) Issa, *op. cit.*, 109-111; Smith and Phillips, *op. cit.*, 857, where it is stated: With the exception of its extermities in northwestern Eurpe and eastern Asia, the Mediterrane.n Asiatic route is well supplied with petroleum."

(١٢) Lesseps. F. de. *Inquiry into the O inions of the Commercial Classes of Great Britain...*, 2, 3.; and Ho kins, *op. cit.*, 314-15.

التى تصب فيه [١٣] ، وبالتالى يمكن مناطق كثيرة من الافادة من قصر المسافة وقلة التكلفة التى تظهر فى السعر المنخفض وتحقيق السرعة المطلوبة للاسراع بعجلة النشاط الاقتصادى ويشجع السفن على إعطاء الأفضلية لهذا الطريق الممتاز على غيره حتى لو تساوت الظروف الأخرى لكبر إمكانية الحصول على بضاعة على طول الطريق ، كل هذا مما يدفع إلى الاهتمام لدرجة كبيرة بتحقيق مشروع وصل البحرين .

ولم يكن وصل البحرين مباشرة عبر البرزخ هو الوسيلة الوحيدة لإقامة طريق مائى مستمر قصير يصل الشرق والغرب ، وإنما كانت هناك إمكانيات أخرى إما خارج حدود مصر أو فى نطاقها . أما الأولى فنؤجل الحديث عنها إلى مرحلة أخرى من مراحل هذا البحث حيث نتناولها بالتفصيل . وأما الامكانيات التى تقع داخل الحدود المصرية فسوف نتناولها هنا بالدرس المقارن .

فمن ناحية المسافة نلاحظ أن القناة عبر البرزخ تكون أقصر كثيراً من القناة غير المباشرة التى تبلغ فى طولها على الأقل مرتين ونصف قدر ما تبلغه القناة المباشرة من طول . فاذا حدث أن تساوت الظروف الأخرى ، فلا شك أن القناة المباشرة تفضل غير المباشرة . وواضح من الناحية الطبوغرافية أن منطقة القناة غير المباشرة لا تفضل منطقة القناة المباشرة . فالبحوث الجيولوجية تدلنا على أن البحرين المتوسط والأحمر كانا متصلين فى قديم الزمان ، ولقد ساعد على تكوين برزخ السويس بمرور الوقت ما كان يحمله النيل من رواسب إلى جانب حدوث إنكسار فى القشرة الأرضية وارتفاع فى سطح الأرض . ومعروف أن البحر الأحمر كان يمتد عن طريق خليج السويس فى أيام الفراعنة حتى البحيرات المرة وفى النهاية تكون حاجز رملى فصل البحيرات المرة ثم أخذ البحر الأحمر ينحسر بالتدريج حتى وصل إلى وضعه الحالى فى خليج السويس [١٤] .

---

(١٣) Issa, *op. cit.*, 68-97: Smith and Phillips, *op. cit.*, 857; Halberg, *op. cit.*. 377.

كذلك يمكن تتبع ذلك فيما سوف يتلو من مناقشة فى هذا التقرير .

(١٤) Sakr (Hassan), *op. cit.*, 36-37.

ويمكن للقارىء أن يرجع فى ذلك إلى الكتب المتعددة التى تناولت الموضوع بشكل عام كذلك يرجع إلى كتاب نهر النيل تأليف الدكتور محمد عوض محمد صفحة ١٩٠ . وكتاب منطقة قناة السويس تأليف فؤاد فرج صفحة ٩ و ١٠ و ٢٦

ويصف فتزجرالد البرزخ فيذكر بادئا من البحر المتوسط بحيرة المنزلة ، وهي بحيرة ضحلة تبلغ في عمقها من أربع إلى خمس أقدام وكان مقدرا أن تحفر فيها القناة لمسافة تسع وعشرين ميلا حيث تصل إلى القنطرة وهنا يمتد لسان أرضي صغير لمسافة تبلغ حوالي الثلاثة أميال وتفصل بحيرة المنزلة عن بحيرة أصغر هي بحيرة البلاح . وبعد أن تمتد القناة لمسافة تبلغ حوالي ٥ ميل في بحيرة البلاح تصل إلى امتداد من التلال مستمر لمسافة تبلغ حوالي ١٠ ميل ويتكون هذا الامتداد من سلسلة من التلال ترتفع تدريجيا حتى تنتهي إلى هضبة الجسر التي يبلغ طولها حوالي عشر أميال وارتفاعها حوالي ٥٠ قدما عن مستوى سطح البحر وتأتي بحيرة التمساح بعد ذلك ثم تتلوها هضبة سيرابيوم التي تمتد حوالي ٧ أميال وتبلغ في أقصى ارتفاعها حوالي ٢٥ قدما . ومن الواضح أن هاتين الهضبتين هما في الحقيقة هضبة واحدة قطعتها البحيرة ولو أن القناة امتدت هنا على طول خط مستقيم لكان لا بد لها أن تواجه هضبة أخرى في منطقة جنيفة ولكنها تجنبتها بتتبع البحيرة والاتجاه إلى اليمين وكانت المسافة خلال البحيرات المرة تبلغ قرابة عشرين ميلا وبعد هذه الانحناءة عادت القناة إلى تتبع الخط المستقيم حتى قرب السويس حيث تقوم هضبة أخرى وهي الشلوف .

وبخصوص التربة يذكر فتزجرالد أنه يمكن على وجه العموم القول بأن النصف الشمالي كان يتكون من رمل بحرى يسهل الحفر فيه والجزء الجنوبي كان يتكون على العموم من[15] الطفل والحصى .

فواضح إذن أننا لا نجد على طول البرزخ عقبة طبيعية ما ذات أهمية ، إذ أن الرمال أو الرواسب النهرية هي السائدة وقد أفاد المشروع إلى جانب قلة المصاعب من كثرة المنخفضات والمستنقعات والبحيرات واستغلها[16] ولهذا فاننا نجد أن المشاكل الهندسية التي واجهها المشروع كانت بسيطة وأن انشاء قناة في مستوى سطح البحر لا تحتاج إلى أهوسة

---

(١٥) واضح أن ظروف البرزخ وتطوره قد تركت آثارها في هذه الظاهرة الخ
Nousbaum and Hutchings, *op. cit.*; 10; Fitzgerald, Percy. *The Great Canal at Suez: Its Political, Engineering and Financial History.* Vol. 1, 157
أنظر كذلك كتاب منطقة قناة السويس تأليف فؤاد فرج صفحة ١٣٨ قناة السويس ، مذكرات واحصاءات إعداد شركة القناة عام ١٩٥٠ صفحة ٦ ، ٧

(١٦) من المزايا التي يضفيها وجود البحيرات على القناة امكانية سير السفن في الاتجاهين في وقت واحد في هذه البحيرات دون حاجة إلى حذر كثير .

ما كان أمراً [١٧] ممكناً مما حدا بمهندس انجليزى كبير هو سير جون هوكشو إلى أن يصرح بأن المشروع فى الحقيقة لا تواجهه مصاعب أو يمكن على الاقل القول بأن ما قد يواجهه من مصاعب هو من النوع الذى يمكن لمهارة فنية متوسطة أن تتغلب عليها [١٨] .

أما مشكلة المياه العذبة فقد ساعد فى حلها وجود وادى طميلات وهو عبارة عن فرع قديم للنيل كان يصب فى بحيرة التمساح عملت الرواسب النهرية بمرور الزمن على ردمه ولهذا كان من الممكن باتباع هذا المجرى توصيل المياه العذبة من النيل إلى منطقة البرزخ [١٩] .

أما عن العقبات التى تقف فى وجه المشروع المباشر ، فكان من بينها ما أثاره لبير من وجود خلاف بين مستوى المياه فى البحر الاحمر ومستواها فى البحر المتوسط ولم يقبل كل العلماء هذه الفكرة بل أن لابلاس وفورلى ناقضاها [٢٠] ولكنها لم يقض عليها بصورة قاطعة الابعد ما قام به جماعة السان سيمونيا من دراسات انتهت إلى أنه لا يوجد فارق واضح بين منسوبى المياه فى البحرين .

وكان لبير قد رأى أن من المستحيل إقامة ميناء فى خليج بلوزيوم وقد ظلت هذه الاستحالة فى نظر السان سيمونيا عقبة فى وجه المشروع المباشر ولهذا نجد أنه رغم أن فكرة المشروع المباشر راودتهم بعض الوقت ، إلا أنهم لهذا السبب لم يسيروا فيه شوطاً بعيداً واقترحوا بدلا من ذلك قناة غير [٥] مباشرة .

ولكن اللجنة الدولية التى كونها دلسبس من مشاهير المهندسين قررت إمكان إنشاء هذا الميناء ، ورأت أن ينشأ الميناء عند نقطة تقع إلى الغرب من خليج بلوزيوم الذى يمتد من الشمال الغربى إلى الجنوب الشرقى وبهذا يكون الميناء أقل تعرضاً للرياح الشديدة التى تسود المنطقة وكانت هذه المنطقة أيضاً تقع حيث المياه أعمق منها فى النقط الأخرى وحيث الأرض أصلب فى تكوينها . وإذا كان قد ترتب على هذا الاختيار زيادة فى طول القناة قدرها

(١٧) Snith and Phillips, *op. cit.*, 942; Hoskins, *op.cit.*, 315-16, 364-65.

(١٨) Fitzgerald, *op. cit.*, 152.

(١٩) أنظر أيضاً منطقة قنال السويس تأليف فؤاد فرج صفحة ١٣٨ . ويلاحظ كذلك ان انشاء القناة العذبة ساعدت على قيام بعض الزروعات فى هذه المنطقة على جانبى القناة مما يعين ولو إلى حد فى تعمير المنطقة .

(٢٠) Fitzgerald, *op. cit.*, 148; Nousbaum and Hutchings, *op. cit.*, 21.

(٢١) Nousbaum and Hutchings, *op. cit.*, 23.

سبعة كيلو مترات تقريبا إلا أنه تحقق فى مقابل ذلك تخفيض كبير فى مصاريف إنشاء الأرصفة والميناء الجديدة .

أما الخوف من أن تردم الرمال الهابة من الصحراء مجرى القناة فلم يكن يقوم على أساس سليم . كذلك اتخذت الاحتياطات اللازمة لحجز الرواسب النيلية خلف أرصفة الميناء (٢٢) .

وإلى جانب ما يتمتع به المشروع المباشر من ميزات وقلة ما يواجهه من مصاعب فاننا نجد أن المشروع غير المباشر إلى جانب طول مسافته تواجهه المصاعب بسبب وجود النيل وضيقه وضحالته فى بعض الأماكن وقلة المياه به فى بعض أوقات السنة . هذا فضلا عن الحاجة الى التطهير والتعميق المستمر بسبب ما تحملة مياه الفيضان من رواسب بانتظام كل عام وكان التزايد المستمر فى أحجام السفن نذيراً واضحا بأن النيل لا يمكن أن يصلح لمواجهة هذا التطور (٢٣) ، وكذلك كانت هناك مصاعب أخرى فيما يختص بشبكة الرى والصرف وطرق المواصلات المختلفة التى تمر فى الدلتا (٢٤) وهى مصاعب لا وجود لها فى منطقة البرزخ (٢٥) . هذا فضلا عن أنه كان لا بد من إحداث تغييرات كبرى فى ميناء الاسكندرية (٢٦) .

وقد انتهت اللجنة الدولية فى دراستها لمشروع القناة الى تفضيل المشروع المباشر بصفة حاسمة وجاء فى تقريرها الذى قدمته لخديو مصر ما يأتى :

---

(٢٢) منطقة قنال السويس تأليف فؤاد فرج صفحة ١٧

(٢٣) Hoskins, *op. cit.*, 195-96 He states: "To the other objections to a canal joining the Nile and Red sea was after 1840 the rapidly growing size of the steamship, which would scacely be able to navigate any channel which could be constructed on the basic of the Nile waterway."

(٢٤) هذا إذا سار المشروع من الإسكندرية إلى السويس مباشرة دون أن يتبع نهر النيل

(٢٥) تتجه المواصلات فى البرزخ بشكل عام فى اتجاه القناة وتقل المواصلات التى لا بد أن تقطعها مما لا يقيم عقبة كأداة فى سبيل حرية استمرار الملاحة فى القناة ولا يجعل تكاليف بناء أنفاق تحت القناة لحركة النقل هذه تكاليف باهظة وقد وضع الزميل الدكتور على صبرى المدرس بكلية الهندسة بجامعة القاهرة مشروعاً بهذا الخصوص .

(٢٦) أنظر منطقة قنال السويس تأليف فؤاد فرج صفحة ٢٠٤ — ٢٠٧

"Elle nous a fait connaître des obstacles sans nombre, ou plutôt des impossibilités, pour diriger le canal sur Alexandrie, et des facilités inattendues pour établir un port dans le golfe de péluse.

"Le cannal direct de Suez vers le golfe de Péluse est Done l'unique solution du problème de la jonction de la mer rouge et de la Méditerranée ; l'exécution en est facile ; et le succésassuré. Les résultats en seront immenses pour le commerce de monde. Notre conviction à cet égard est unanime"(٢٧).

ويلاحظ أن من حسن الحظ أن افتتاح القناة جاء فى وقت تزادد فيه استعمال البخار فى السفن وتحسن فيه الآلات البخارية المستعملة فيا وفى الوقت الذى أنشئت فيه القناة كانت نسبة السفن الشراعية تبلغ ٩٦ ٪ من مجموع الأساطيل التجارية البحرية فى العالم (٢٨). وبسبب مصاعب الرياح الضعيفة وغير المنتظمة فى البحر المتوسط والرياح غير المنتظمة بدرجة أكبر فى البحر الأحمر الضيق الملىء بالصخور ، والخطر — لذلك كله — على الملاحة البحرية كان من النادر أن تطرق السفن الشراعية هذا البحر أو طرق السويس عامة عبر القناة . وقد ذكر بعض الاخصائيين فى الملاحة البحرية أن سفينتين من كل خمس من السفن الشراعية كانت لا تصل الى حيث تقصد ،وكان ربابنة هذا النوع من السفن الذين ينجحون مرة فى القيام بالرحلة عبر البحر الأحمر لا يريدون البتة بعدها أن يقوموا بها مرة أخرى رغم

---

(٢٧) Lesseps, Ferdinand de: *lettres, journal et documents*, lère série, Rapport sommaire de la Commision Internationale à S. A. Mohammed-Saïd-Pacha, Vice-Roi d'Egypte, 320-21, 320.

1. Le tracé par Alexandrie est inadmissible au point de vue technique et économique ;

2. Le tracé direct offre toute facilité pour l'exécution du canal proprement dit. avec embranchement sur le Nile, et ne présente que des difficultés ordinaires pour la création de deux ponts.

3. Le port de suez s'ouvria sur une rade sûre et vaste, accessible en tout temps et ou l'on trouve mèttres d'eau à 1.600 mètres du rivage.

4. Les port de Bèluse. que l'avant-projet plaçait dans le fond du golfe, sera établi a 28 kilomètres environ plus à l'ouest, dans la région où l'on trouve 8 mètres d'eau à 2.300 mètres du rivage, où la tenue est bonne et l'appareillage facile,...", 321.

For a General work on the engineering problems see Fitzgerald, *op. cit.* and Voisin, Françcis Philipe, Bey, *le Canal de Suez.*

(٢٨) Nousbaum and Hutchings *op. cit.*. 154.

المعدلات العالية لأجور النقل التى كانت تعرض عليهم لاستعمال هذا الطريق (٢٩) . ويذكر سيجفريد أن قناة السويس أصابت حظاً كبيراً إذ جاء إنشاؤها مع هذا التطور حتى أصبحت نسبة السفن الشراعية لا تكاد تذكر الى مجموع الأساطيل التجارية العالمية (٣٠) .

ولم يؤد افتتاح القناة فى نوفمبر عام ١٨٦٩ إلى القضاء نهائيا على الطريق البرى أو طريق الرأس ، فالقناة كانت ضيقة وضحلة فى بعض أجزائها كما أن استعمالها كان يكلف كثيرا ، فضلا عن أن استعمالها كان يهدد كلية صلاحية بعض السفن التى تمتلكها بعض الشركات الملاحة فى طريق السويس (٣١) . هذا فضلا عن أن بعض الشركات كانت مرتبطة بعقود بريد سابقة (٣٢) . ولقد ظهر فيما بعد أن ماحدث من زيادة فى سهولة الاتصال لم يكن فى عمومه مفيدا لأصحاب شركات الملاحة فى المملكة المتحدة ولا لبعض المصالح الرأسمالية فيما ذلك لأن تقصير الرحلات بين أوربا والشرق يعنى نقصا فى الطلب على خدمة النقل البحرى وبالتالى فى الطلب على رأس المال اللازم لتحقيق هذه الخدمة (٣٣) .

ولقد تأثرت بعض الشركات مثل P. & O. وشركة الهند البريطانية للملاحة البخارية وأصابتها بعض الضربات (٣٤) .

ولكن كون القناة أوجدت طريقا بحرياً مستمرا ، يمكن القيام به برحلة لاتقطع فيما بين الغرب والشرق ، هذا وحده كان يمكن أن يحدث تغيرات كثيرة فى طريق النقل وسياساته فى بحر سنوات قليلة (٣٥) . وزاد من حدة هذه التغييرات أن القناة جاء افتتاحها مع التوسع

---

(٢٩) Siegfriad, *op. cit.*, 121.

(٣٠) Ibid., 122.

ويذكر سيجفريد أن السفن الشراعية أصبحت ٣٫٠١ ٪ فقط من الأساطيل التجارية العالمية ، وقد طبع الكتاب منذ حوالى خمسة عشر عاما .

(٣١) Hoskins, *op. cit.*, 418.

(٣٢) Wilson, Sir Arnold T., *The Suez Canal: Its Present, and future*, 41-42

(٣٣) Commercial N°. 8 (1883), Suez Canal: Returns of shipping and Tonnage, Memorandum and Tables Relative to the Trade between the United Kingdom and the East, 8.

(٣٤) I. Wilson, *op. cit.*, 42

ويرجع بخصوص المصاعب التى أوجدتها الظروف الجديدة إلى المرجع المذكور صفحة ٤١ — ٤٢ وكذلك Hoskins, *op. cit.*, 418-20

(٣٥) Hoskins, *op. cit.*, 418.

فى استعمال بعض التحسينات فى آلات السفن البخارية . وقد كان من نتيجة العاملون معا حدوث ثورة حقيقية فى دوائر بناء السفن [٣٦] .

وقد ظهر أثر فتح القناة فى هذه الدوائر بوضوح . وفى خطاب فى عام ١٨٧١ يذكر سيرجيمس الفنستون ، مشيرا إلى قناة السويس، أننا يجب أن نأخذ فى الاعتبار أن افتتاح القناة قد أحدث انقلابا فى كل تجارتنا مع الهند ، فالسفن التى كنا نفخر جدا بها ونعتز لا بد أن يتلاشى أثرها من على وجه الأرض ولا بد للتجارة مع الهند . . . أن تتحول إلى السفن البخارية [٣٧] .

وتبع ذلك تحول فى السفن البخارية إذ زعم أنها كان قد مضى عليها فى الاستعمال حوالى نصف قرن إلا أن تطورها كان ظاهرا فى زيادة حجمها وليس فى تغيير فى قواعد بنائها ونوع آلاتها وكان أغلب السفن لا زال معدا بالأشرعة للاستعانة بها مع قوة السفن البخارية وقد رؤى الاستفادة من القناة بأقصى ما يمكن أن يبنى نوع من السفن البخارية يخالف ماسبق ويناسب الملاحة فى المياه الأوروبية والشرقية على السواء[٣٨] . كما يناسب ظروف القناة[٣٩] .

وقد سارعت شركات الملاحة المختلفة إلى التحول فى بناء السفن لمواجهة الظروف الجديدة ونتج عن محاولاتها توفير فى استهلاك الوقود وحصول على معدلات أكبر وأكثر انتظاما للسرعة دون حاجة إلى استعمال الشراع [٤٠] . وقد شجع بنائى السفن على استثمار أموالهم فى مواجهة الوضع الجديد ما أدى إليه تقصير المسافة ثم زيادة السرعة من زيادة تعدد الرحلات التى يمكن أى تقوم بها السفينة الواحدة كل عام مما يعوض إلى حد كبير المصاريف اللازمة لذلك وبهذا يتضح أساس الاسراع بحدوث الانقلاب [٤١] .

(٣٦) *Ibid.*, 418.

(٣٧) *Ibid.*, 71-72.

(٣٨) Wilson, *op. cit.*, 42.

(٣٩) Hoskins, *op. cit.*, 472.

(٤٠) *Ibid.*, 472.

(٤١) Nousbaum and Hutchings, *op. cit.*, 155: *Commercial N. 8 (1883)*.... 3, where it is stated that the new circumstances favoured the growth of new concerns who could ships scocially designed to meet the new conditions and in particular to navigate the canal"

وحتى الشركات القديمة أصابها الخير بعد مدة قصيرة .

By 1875 the crisis had been succesfully surmounted. The P. and O. and B. I. (the British India Steam Navigation Company) regained and eveu increased their predominance". Wilson, *op cit.*, 42.

وقد أدى استعمال البخار فى السفن وما حدث من تقدم فى الآلات البخارية إلى التوسع فى زيادة حجم السفينة مما يوفر فى تكلفة الانشاء وتكلفة التشغيل ولكن الزيادة فى عدد السفن العابرة والتطور فى حجم السفينة أى فى أبعادها وفى غاطسها كان يشير بدوره إلى وجوب انفاذ تحسينات فى القناة تجعلها مستعدة لمواجهة ما يحدث من تطور فى وسائل النقل البحرى كما وكيفا . وكما يقول هالفورد هوسكنز :

" In this fashion the improvements consequent upon the canal reacted to compel further changes in the canal itself...This process once begun, has been several times repeated as steamships have grown in size and number[42].

وقد انفذت شركة القناة برنامجها الأول بعد افتتاح القناة بقليل ، ولكن ما لبث المجرى أن أصبح من الازدحام بدرجة أظهرت الحاجة الملحة إلى برنامج ضخم للتحسين وكان ذلك ولما يمض على استعمال القناة خمسة عشر عاما [43] . وتكرر الوضع حتى يومنا حيث صدقت الجمعية العمومية للشركة على البرنامج الثامن للصيانة والتحسين ، أى أن العملية هى عملية خلق متصل مستمر نتيجة ما يحدث من تفاعل بين التطورات فى الملاحة البحرية وبين القناة ، وما ينبغى فى هذا التفاعل من حدوث تكيف متبادل وتساعد التطورات الجديدة على استمرار هذه العملية [44] .

ومن الحقائق المعروفة فى بناء السفن أنه يكون أوفر من الناحية الاقتصادية أن تبنى سفينة حمولتها ٣٠٠٠٠ طنا مثلا من أن تبنى ثلاث سفن حمولة كل منها ١٠٠٠٠ طنا ولا يقتصر الوفر على تكلفة البناء فقط ، بل يتعداه أيضا إلى تكلفة التشغيل وهذا واضح

---

(٤٢) Hoskins, *op. cit.*, 472.

(٤٣) *Ibid.*, 470:

(٤٤) يرجع إلى قناة السويس : مذكرات واحصاءات أعدتها شركة قناة السويس عام ١٩٥٠ صفحة ٣٨ — ٤١ و٤٤ — ٤٧ وبخصوص البرنامج الثامن يرجع إلى مطبوعى شركة القناة : *Note sur le 8 ème programe des travanx d'amalioration du canal de Suez : Compannie Universelle du Canal Manitime de Suez : 8 ème programe l'amélioration.*

ويرجع أيضاً إلى : Saker (Hassan), Ibrahim, *op. cit.*, 126-27

فيما يحدث من تطور فى ناقلات البترول وهى تكون الغالبية البارزة فى مجموع الحمولة التى تعبر القناة [٤٥] .

هذه الحقيقة إلى جانب زيادة عدد السفن المارة بالقناة زيادة كبيرة وخاصة ناقلات البترول وهو سلعة خطرة تحتاج إلى احتياط فى العبور . كل ذلك دعا بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية إلى تبنى البرنامج السابع [٤٦] ثم البرنامج الثامن .

وكما ذكرنا من قبل نجد الظروف الطبيعية فى منطقة القناة التى جعلت حفرها سهلا نجعل من السهل كذلك القيام بأن عمليات تحسين يتطلبها الوضع .

وسوف نتناول فى موضع آخر من هذا البحث مدى كفاية البرامج التى تنفذها الشركة فى أخذ المدى الطويل فى الاعتبار تحسينا وصيانة .

لقد تحالفت الظروف الطبيعية والتطورات الفنية وخاصة فى وسائل المواصلات البحرية على انشاء قناة بحرية صناعية عبر برزخ السويس وأدت هذه القناة رسالتها بتقصير المسافة وتوفير الوقت وانقاص تكلفة نقل السلع وبالتالى بالتأثير على أسعارها فى نفس الاتجاه وكان لهذا أثره البارز على تجارة العالم وأساطيلها وعلى الموقع الجغرافى والاهمية النسبية للطرق البحرية بين الشرق والغرب [٤٧] وتحرك طريق السويس بسرعة نحو مكان الصدارة بينما تراجع طريق الرأس إلى مكانة ثانوية جدا [٤٨] وزاد من حدة هذا الاتجاه

(٤٥) وعلى سبيل التمثيل فقط يرجع إلى أحد مطبوعات القناة :

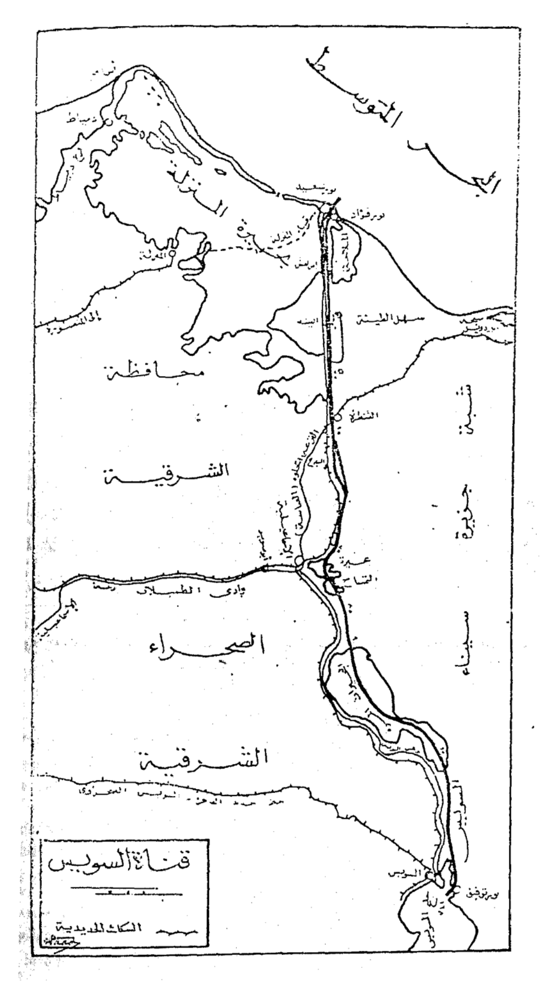
*Les navires-citrenes au Canal de Suez*, a, où il dit "Actuellement la construction des navires-citernes est orientée de plus économiques à la construction et a l'exploitation que plusieurs tamkers plus potit d'un port en lound global equivalent."

(٤٦) ويذكر المطبوع السابق :

"En raison de l'accroissement du nombre et du tonnage des nouveaux tanlers, la compagnie du Canal Martitme de Suez se devait d'étndier et de réaliser les travaux d'approfondissement qui s'im posaient... [Les travaux du septième progวame] doivent permettre le transit en plaine charge des grosses unités à flot et celui des navires-citernes de fort tonnage actuellement en cossrruction."

(٤٧) Sakr (Hassan), Ibrahim, *op. cit.*, 125-26.

(٤٨) Smith and Phillips, *op. cit.*, 310. where it is stated " The completion of canals at Suez (1869) and at Panam (1914) brought about the greatest shifts in ocean routes since Columbus discovery of the New World and da Gama's discovery of a sea route to the Orient."



البحر المتوسط
بحيرة المنزلة
بورسعيد
بورفؤاد
سهل الطينة
القنطرة
محافظة
الشرقية
شبه جزيرة سيناء
بحيرة التمساح
وادي الطميلات
الصحراء
الشرقية
السويس
بورتوفيق
قناة السويس
السكك الحديدية

سهولة عمليات التحسين فى هذا المجرى العالمى وبالتالى امكانية مواجهته أما يحدث من تطور فى الملاحة البحرية .

وبهذا نجد أن القناة ولو أنها مجرى مائى صناعى ، الا أنها اصبحت وقد تم انشاؤها جزءا فى الكرة الارضية يتفاعل فى قوة مع تجارة العالم وظروفه وسرعان ما وطدت اقدامها كمشروع ناجح من وجهة نظر الجغرافية الاقتصادية والعلاقات المكانية وأصبحت ممرا رئيسيا للتجارة العالمية (٤٩) مما جعل المشروع من الناحية الاقتصادية مشروعا مربحا للغاية تتزايد أرباحه مع الزمن وعلى سبيل المثال بلغ ما حصلته الشركة من رسوم على السفن العابرة ٦٠٠ر٩٠٠ر٢٨ جنيها مصريا عام ١٩٥٣ وزادت إلى ٠٠٠ر٣٣٨ر٣٠ (٥٠) جنيها مصريا عام ١٩٥٤ . وفى الثلثين الأولين من عام ١٩٥٥ بلغت المتحصلات ٣ر٢١ مليونا من الجنيهات المصرية (٥١) فى مقابل ٤ر٢٠ مليونا من الجنيهات فى الثلثين الأولين من عام ١٩٥٤ (٥٢) ، وهذه المبالغ تبلغ عدة اضعاف ما تكلفه انشاء القناة نفسها (٥٣) . ويمكن أن يتضح نجاح القناة البارز كمشروع تجارى فى مقدار الحمولة التى تعبرها واضطراد الزيادة فيها وحدة الارتفاع البارزة بعد الحرب العالمية الثانية على وجه الخصوص ليبرز ذلك الجدول الآتى (٥٤) :

---

(٤٩) سوف نتناول ذلك تفصيلا فيما بعد .

(٥٠) محتسبة من :

*Le Canal de Suez: Bulletin de la Compagnie Universelle du Canal Maritime de Suez, N° 2294-2305.*

(٥١) جريدة الاهرام عدد يوم ١٩٥٥/٩/٤ والنشرة المذكورة فى الهامش السابق الأعداد : 2301-2234 والأعداد : 2313-2306

(٥٢) يلاحظ أن هذه الزيادة تحققت رغم انقاص الرسوم .

(٥٣) بل أكثر من هذا تزيد هذه المبالغ السنوية من القيمة الكلية للمشروع الآن وذلك حسب تقدير رجال الشركة المسئولين وهو تقدير يجب التحفظ إزاءه .

(٥٤) *Le Canal de Sue3: Documents statistiques,* 1950 8, 9.

حيث توجد الاحصائيات إلى عام ١٩٤٩ وإضافتها الشركة بمعرفتها فيما يختص بعامى ١٩٥٠ ، ١٩٥١ وأضافها الكاتب بمعرفته فيما يختص بأعوام ٥٢ و٥٣ و١٩٥٤ معتمداً على المطبوعات المختلفة للشركة .

ويلاحظ ان احتساب الحمولة التى تحصل عليها الرسوم يجرى منذ ١٨٧٤/٤/٢٩ طبقاً للقواعد التى وضعتها اللجنة الدولية بالقسطنطينية عام ١٨٧٣ وأن السفن التى احتسبت هى التى تزيد جملة حمولتها عن ٥٠٠ طناً بين أول يناير ١٩٢٦ وأول أبريل ١٩٤٩ أو عن ٣٠٠ طن لما عدا ذلك من فترات .

| العام | عدد السفن ( مرات العبور ) | الحمولة التي حصلت عنها الرسوم | العام | عدد السفن ( مرات العبور ) | الحمولة التي حصلت عنها الرسوم |
|---|---|---|---|---|---|
| | | بالأطنان | | | بالأطنان |
| ١٨٧٠ | ٩٨٦ | ٢٣٦ر٦٠٩ | ١٩١٧ | ٢ر٣٥٣ | ٣٦٨ر٩١٨ |
| ١٨٨٠ | ٢ر٠٢٦ | ٣ر٠٥٧ر٤٢٢ | ١٩١٨ | ٢ر٥٢٢ | ٧٥١ر٦٠١ |
| ١٨٩٠ | ٣ر٣٨٩ | ٦ر٨٩٠ر٠٩٤ | ١٩١٩ | ٣ر٩٨٦ | ٠٣١ر٨٠٢ |
| ١٩٠٠ | ٣ر٤٤١ | ٩ر٧٣٨ر١٥٢ | ١٩٢٠ | ٤ر٠٠٩ | ٢٧٤ر٦٥٧ |
| ١٩١٠ | ٤ر٥٣٣ | ٦ر٥٨١ر٨٩٨ | ١٩٢١ | ٣ر٩٧٥ | ١٨ر٩٩٩ |
| ١٩١٣ | ٥ر٠٨٥ | ٢٠ر٠٣٣ر٨٨٤ | ١٩٢٢ | ٤ر٣٤٥ | ٧٤٣ر٢٤٥ |
| ١٩١٤ | ٤ر٨٠٢ | ١٩ر٤٠٩ر٤٩٥ | ١٩٢٣ | ٤ر٦٢١ | ٧٣٠ر١٦٢ |
| ١٩١٥ | ٣ر٧٠٨ | ١٥ر٢٦٦ر١٥٥ | ١٩٢٤ | ٥ر١٢٢ | ١٠٩ر٨٨٢ |
| ١٩١٦ | ٣ر١١٠ | ١٧ر٣٢٥ر٣٤٧ | ١٩٢٥ | ٥ر٣٣٧ | ٧٦١ر٩٣٥ |
| ١٩٢٦ | ٤ر٩٨٠ | ٢٦ر٠٦٠ر٣٧٧ | ١٩٤١ | ١ر٨٠٤ | [illegible]ر٨٤١ |
| ١٩٢٧ | ٥ر٥٤٥ | ٢٨ر٩٦٢ر٠٤٨ | ١٩٤٢ | ١ر٦٤٦ | ٥٣٧ر٧٦٣ |
| ١٩٢٨ | ٦ر٠٨٤ | ٣١ر٩٠٥ر٩٠٢ | ١٩٤٣ | ٢ر٢٦٢ | ٢٧٣ر٨٠٢ |
| ١٩٢٩ | ٦ر٢٧٤ | ٣٣ر٤٦٦ر٠١٤ | ١٩٤٤ | ٣ر٣٢٠ | ١٢٤ر٩٥٢ |
| ١٩٣٠ | ٥ر٧٦١ | ٣١ر٦٦٨ر٧٥٩ | ١٩٤٥ | ٤ر٢٠٦ | ٦٤ر٩٦٦ |
| ١٩٣١ | ٥ر٣٦٦ | ٣٠ر٠٢٧ر٩٦٦ | ١٩٤٦ | ٥ر٠٥٧ | ٧٣١ر٦٣١ |
| ١٩٣٢ | ٥ر٠٣٢ | ٢٨ر٣٤٠ر٢٩٠ | ١٩٤٧ | ٥ر٩٧٢ | ٥٧٦ر٥٨١ |
| ١٩٣٣ | ٥ر٤٢٣ | ٣٠ر٦٧٦ر٦٧٢ | ١٩٤٨ | ٦ر٦٨٦ | ٨١ر٠٥٦ |
| ١٩٣٤ | ٥ر٦٦٣ | ٣٢ر٧٥٠ر٨٠٢ | ١٩٤٩ | ١٠ر٤٢٠ | ٨٦١ر٥٤٨ |
| ١٩٣٥ | ٥ر٩٩٢ | ٣٢ر٨١٠ر٩٦٨ | ١٩٥٠ | ١١ر٧٥١ | ٧٩٥ر٥٢٣ |
| ١٩٣٦ | ٥ر٨٧٧ | ٣٢ر٣٧٨ر٨٨٣ | ١٩٥١ | ١١ر٦٩٤ | ٣٥٦ر٣٣٨ |
| ١٩٣٧ | ٦ر٦٣٥ | ٣٦ر٤٩١ر٣٣٢ | ١٩٥٢ | ١٢ر١٦٨ | ١٣٧ر٠٣٧ |
| ١٩٣٨ | ٦ر١٧١ | ٣٤ر٤١٨ر١٨٧ | ١٩٥٣ | ١٢ر٧٣١ | ٩٠٥ر٠٠٠ |
| ١٩٣٩ | ٥ر٢٧٧ | ٢٩ر٥٧٣ر٣٩٤ | ١٩٥٤ | ١٣ر٢١٥ | ٤٩٤ر٠٠٠ |
| ١٩٤٠ | ٢ر٥٨٩ | ١٣ر٥٣٥ر٧١٢ | — | — | |

وفى النصف الأول من عام ١٩٥٥ بلغ عدد مرات العبور ٧٣٦٦ مقابل ٦٥٦٢ فى النصف الأول من عام ١٩٥٤ ، وبلغت الحمولة التى حصلت عنها الرسوم ٥٧٫٥١٧٫٠٠٠ طنا مقابل ٥٠٫٠٢٦٫٠٠٠ طنا بزيادة قدرها ١٥٪ وكان متوسط عدد مرات العبور اليومى ٤٠٫٧ فى مقابل ٣٦٫٣ [٥٥] . وبلغ المتحصل من الرسوم على الحمولة المارة ١٥٫٩٩٣٫٠٠٠ جنيها مصريا فى مقابل ١٥٫٤٣٦٫٢٠٠ جنيها مصريا [٥٦] .

هذا النجاح الفائق للمشروع يقوم على عدد أسس وعوامل ولا بد لمن يتناول المستقبل الاقتصادى للقناة من أن يتناولها بالدرس ويبحث عن مدى قوة هذه الاسس ودرجة استقرارها وثباتها وتأثير ما يحدث من تطورات مختلفة فى المقدرة الفنية للانسان وطرق مواصلاته وفى غير ذلك من أمور على هذا الوضع تقوية أو اضعافا . وبهذا نكون فى مركز يجعلنا أقدر على تجميع خيوط المشكلة التى ندرسها تجميعا يلقى أكبر قدر ممكن من الضوء على طريق المستقبل . ولما كانت الأسس والعوامل التى تؤثر فى المشاكل التى ندرسها تبلغ درجة كبيرة من التعدد ، فإنه يستحسن فى دراستنا أن نأخذ كلا منها على حدة وندرس اتجاه تأثيره ومداه مما قد يعين على الوصول إلى نتيجة نهائية بتقدير المحصلة الجامعة لهذه الآثار كلها .

وإذ كان التعدد كبيرا وكان من الاسهل أن نجمع العوامل والأسس المختلفة فى مجموعات تحددها طبيعة هذه العوامل وما لديها من مراجع وما لدينا من وقت يمكن التوفر فيه على هذه الدراسة آخذين فى الحسبان موضوع البحث وأهدافه بحيث لا يكون اختصار مخادع أو مضلل . فقد لجأنا إلى دراسة فيها شىء من التجميع يبرز فيها أكثر عدد ممكن من الخطوط الرئيسية العامة .

غير أنه ينبغى أن نتذكر دائما أن المسالة فى واقعها ليست صورة بسيطة فهذه الأسس والعوامل إلى جانب تعددها نجدها من الترابط والتشابك بحيث يعطى تفاعلها صورة معقدة للحقيقة التى نواجهها . وإذا كان يستحسن فى هذه الدراسة ، كم يستحسن فى أى دراسة تتشابك فيها العوامل وتتعقد أن نلجأ إلى دراسة العوامل المختلفة على حدة ، فما ذلك إلا بقصد ايضاح الصورة وابراز الأثر وعزاؤنا فى هذه الحالة أنه ليس من طريقة أنوى أثرا

---

(٥٥) *Revue du trafic, premier semestre, 1 55, supplément au bulletin le Canal de Suez* N° 2312 du 15 Août 1955.

(٥٦) محتسبة من النشرة السابقة بالأعداد : 2254-2299, 2306-2311 .

أو أكثر وضوحا فضلا عن أننا نرجو أن يتمكن القارىء بتتبعه للدراسة إذ نضيف إلى الصورة الخطوط الأخرى الواحد منها بعد الآخر من الاحاطة أكثر وأدق ما يمكن الاحاطة بالصورة فى شكلها الواقعى المتشابك المعقد .

ونبدأ بدراسة الهيكل العام لمجال الدراسة التى تتناولها ، أى بدراسة المجال العام للنشاط الذى يعتمد على القناة فى نقل التجارة بين أجزائه وتعتمد عليه القناة كأساس من الأسس الذى يقوم عليه كيانها ويتوقف عليه مركزها كمشروع اقتصادى ينشر تحقيق الربح فى مقابل القيام بهذه الخدمة .

- ونظرة إلى خريطة العالم ترينا فى وضوح كيف أن المجال العام للقناة يمتد من السواحل الشرقية لأمريكا الشمالية ويدخل فى نطاقه بشكل عام القارة الثلاثية Triple Continent أو الثالوث القارى Continental Triad أى أوربا وأفريقيا (٥٧) وآسيا . وكذلك الهند الشرقية واستراليا . فنحن إذن نجد رغم ضخامة مجال القناة أن هناك مساحات شاسعة ومجالات تجارية ضخمة تقع خارج هذا النطاق مثل المحيط الأطلنطى وما يسير عليه من تجارة بين العالم القديم والعالم الجديد (٥٨) ، والمحيط الهادى بالقدر الذى يخدم فيه كطريق للاتجار بين أمريكا وآسيا والأقيانوسية (٥٩) . أضف إلى ذلك أن القناة قد تواجه فى أجزاء صغيرة من مجالها امكانية منافسة طرق عالمية أخرى لها مثل طريق بنما وطريق رأس الرجاء الصالح ، مما سوف نتناوله فى تفصيل فيما بعد .

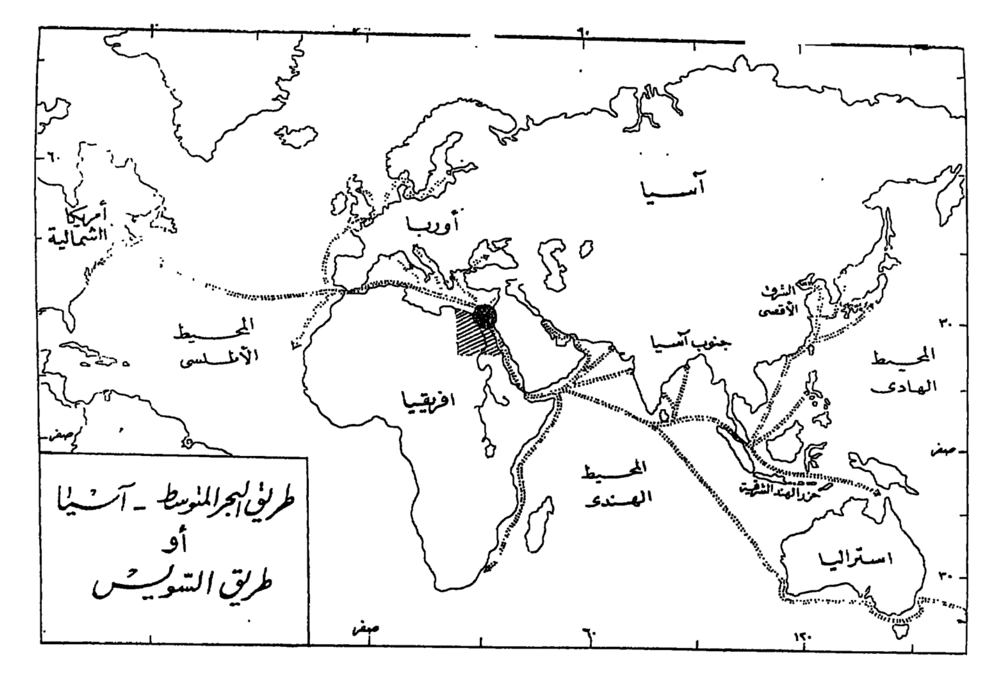
وواضح من هذا أن مجال القناة مجال ضخم من ناحية امتداده ومساحته وهو كذلك ضخم من ناحية موارده الطبيعية وعدد سكانه . وهما أمران ينتج من تفاعلهما معاً ما أوتى الانسان من مقدرة فنية واتجاه نحو التخصص وتقسيم العمل الاقليمى فوائض ضخمة متنوعة من السلع تزيد عن حاجة السكان ونقص كبير فى عدد من السلع الأخرى يؤدى إلى اللجوء إلى الغير للحصول على هذه السلع اللازمة لاشباع حاجة السكان ويقدمون مقابلها ما لديهم من فوائض مما تحتاج إليه المجموعات البشرية التى فاض إنتاجها فى هذه السلع قباعتها .

---

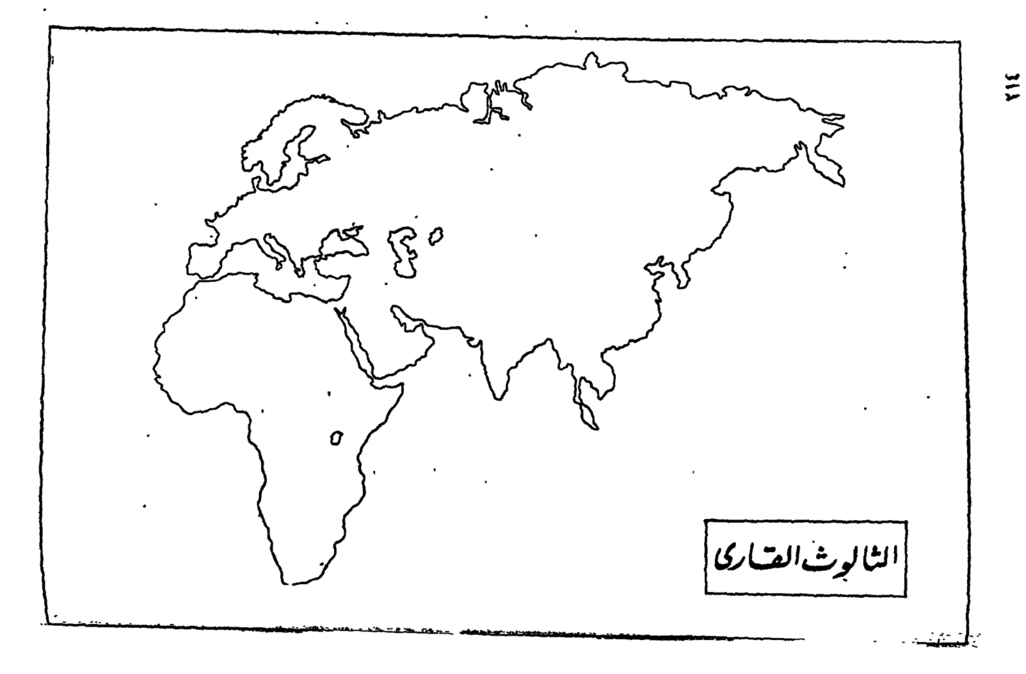
(٥٧) لا تدخل معظم الأجزاء الغربية من افريقيا فى نطاق مجال القناة .

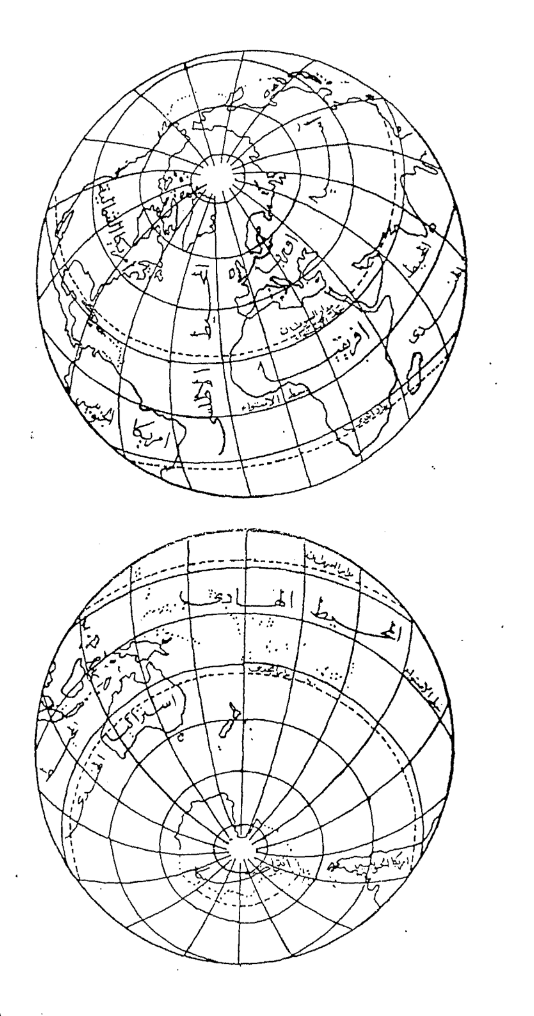
(٥٨) وذلك طبعاً باستثناء التجارة من المناطق الواقعة جنوبى وشرق القناة .

(٥٩) وذلك طبعاً باستثناء الأجزاء من هذه المناطق التى تدخل فى نطاق مجال القناة .



طريق البحر المتوسط – آسيا
أو
طريق السويس
أمريكا الشمالية
أوربا
آسيا
افريقيا
جنوب آسيا
الشرق الأقصى
المحيط الأطلسى
المحيط الهندى
المحيط الهادى
جزر الهند الشرقية
استراليا
٦٠
٣٠
صفر
٦٠
١٢٠
٩٠


الثالوث القاري



ومعروف أنه ، كقاعدة عامة ، كلما زادت المساحة التى تتناولها كلما زادت إمكانية زيادة الفوائض (٦٠) وزادت بالتالى كمية التجارة المتبادلة بين المناطق المختلفة .

وينص أحد قوانين التبادل التجارى فى الجغرافيا الاقتصادية على أن :

" The volume of commerce moving over any route varies directly with the size of the surpluses of goods...in the tributary area " (٦١)

ونتقل بعد ذلك إلى شىء من التخصيص فنذكر أن افتتاح قناة السويس للملاحة البحرية العالمية قد خلق طريقاً بحرياً مستمراً لا تقطع فيه بين الشرق والغرب ويمتاز بالتوفير الضخم فى المسافة والزمن والتكلفة إذا قيس بغيره من الطرق البحرية التى تربط الشرق والغرب بحيث يمكننا أن تقول وبدرجة كبيرة من الدقة أن طريق السويس أو البحر المتوسط آسيا قد خلق بهذا الحدث خلقا جديدا ويذكر أحد القناة أن :

" The importance of the Mediterranean-Asiatic route dates from 1869, when the Suez Canal was open " (٦٢)

لقد أكملت القناة الحلقة المائية الناقصة فى الطريق ، وبذلك أضافت بضخامة إلى مايحمله الطريق من بضائع وشجعت على التطور فى هذا الاتجاه . كما ساعدت على زيادة امتداد الطريق ولهذا يرى سيجفريد Seigfried أن :

" Cutting through the Isthmus of Suez in 1869 was a world event of the greatest significance greater even than the opening of the Panama Canal in 1914 (٦٣).

وطريق البحر المتوسط ـ آسيا ، أو طريق السويس ، إذ يربط بين أمريكا وأوربا وبين آسيا بواسطة البحر المتوسط والبحر الأحمر ، وهو الطريق الرئيسى الذى يشق قلب الأرض . فهو يخدم كتلة ضخمة من اليابس وكثيرا ما ترسم الخرائط مقسمة الكرة الأرضية إلى قسمين أحدهما بين نصف الكرة اليابس ويقع مركزه فى غرب أوربا ويتضمن كل نصف الكرة الشرقى ماعدا استراليا وكل نصف الكرة الغربى تقريبا وترتبط الأجزاء

---

(٦٠) وذلك فى تعدد أنواعها وفى كمياتها وإن كنا نهتم عند هذه النقطة بالكميات .

(٦١) Renner and Associates, *World Economic Geography*; 667.

(٦٢) *Ibid.*, 710.

(٦٣) Siegfried, André, *op. cit.*, 137.

الرئيسية لنصف الكرة الأرضية هذا بواسطة هذا الطريق عظيم الأهمية الذى يشقه فى وسطه وبواسطة تفرعاته . ونظرة إلى الكرة الأرضية ترينا مدى ضخامة أجزاء العالم التى يصل إليها هذا الطريق الهام . ويذكر Bryan أن :

" The Suez Canal route, sometimes known as the Mediterranean - Asiatic route, almost circumnavigates the world and carries a traffic as varied as the nations and the lands which it connects "(٦٤).

فآسيا وحدها عبارة عن ثلث مساحة اليابس على سطح الكرة الأرضية . وإذا احتسبنا الثالوث القارى أى افريقيا وأوربا مع آسيا ، وهى جميعاً تكون أجزاء من كتلة يابسة واحدة نجد أنه يكون أكثر كثيراً من نصف اليابس مما حدا بماكندر أن يسميها « جزيرة العالم " The World Island " ويمر طريق السويس فى وسط هذه الجزيرة العالمية ، أو نصف الكرة اليابس ويكاد يحيط بالقارة الشاسعة ذات الشواطىء المتعرجة التى نسميها أحيانا أوراسيا ، وهى أعظم كتلة من اليابس فى العالم ويغذى هذا الطريق فروع تأتى من الانثناءات المتعددة (٦٥) وخاصة فى شاطئها الجنوبى (٦٦) .

ويجب أن نأخذ فى الاعتبار أن مما يزيد فى أهمية هذه الشواطىء التى يخدمها طريق السويس طول هذه الشواطىء إلى جانب عدم بعض الأجزاء الداخلية كثيراً عنها ، فضلا عن أن المناطق القريبة من السواحل أو التى يسهل اتصالها بالسواحل واتصال السواحل بها هى المناطق ذات الأهمية الأعظم من ناحية الانتاج والنشاط البشرى .

كذلك يجب أن نضيف أيضا حقيقة أخرى ، وهى أنه يمكننا أن نعتبر طريق السويس يخترق قلب الأرض من ناحية عدد السكان ، إذ يصل بين أجزاء مختلفة من اليابس يعيش عليها معظم سكان العالم . فأوراسيا تحتوى على أكثر من ١٨٠٠ مليون ساكن ومناطق الأطلنطى فى أمريكا الشمالية يزيد سكانها عن ١٢٠ مليون أضف إلى ذلك أجزاء افريقية التى يخدمها هذا الطريق واستراليا معاً يجعلنا نقدر فى طمأنينة أن عدد السكان الذين يخدمهم

---

(٦٤) Bryan, Leslie A. *Principles of Water Transportation*, 197.

(٦٥) يضاف إلى ذلك الطرق الفرعية الأخرى فى الجوانب الشرقية والغربية لأوراسيا .

(٦٦) Smith and Phillips, *op. cit.*, 852.

هذا الطريق يزيد على ثلاثة أرباع سكان العالم أجمع وعلى سبيل المثال يذكر أحد المصادر أن :

"The Mediterranean-Asiatic Route, connecting America and Europe with Asia and Australia (٦٧) by way of the Mediterranean and the Red Sea, is in reabity a seaway through the heart of the world. It passes through a water passage lying in about the Middle of the huge land mass that constitutes over half of the world's land. In addition, the route practically circumnavigates the vast contiment. often times referred to as Eurasia. A substantial part of all the earth's population is served in one way another by this important seaway".

وبذلك تكون النتيجة أن :

The Mediterranean-Asiatic route is one of the most important trunk trade routes in the world. It is the longest single trade route in the world. It has many branches and feeder routes, which serve as traffic collecting and distributing seaways for the main trunk line" (٦٨).

وواضح أن طول الطريق وموقعه بين القارتين الشماليتين والقارتين الجنوبيتين في نصف الكرة الشرقي ، الذي يخدم الطريق بعدد كبير من الفروع الجانبية ، ثم يمتد إلى الغرب حيث يصل في النهاية إلى الولايات المتحدة التي ينتهي فيها إلى الساحل في موانئ منطقة تمتد من بوستن إلى هيوستن وأن طول البحرين المتوسط والأحمر ، وضيقهما وخاصة الأول ، وبالتالي ضخامة الكتل الارضية التي تحيط بالطريق وأهمية المناطق الساحلية أو القريبة من السواحل ، مع سهولة اتصال كثير من الأجزاء الداخلية الهامة بهذه السواحل ، هذا إلى جانب كثرة البحار الداخلية وتعرجات السواحل كل هذه العوامل أدت ليس فقط إلى كثرة الطرق الفرعية (٦٩) والموانى ، المرتبطة بهذا الطريق

(٦٧) وأجزاء من أفريقيا .

(٦٨) Renner and Associates, *World Economic Geography...*, 710-711.

(٦٩) Bryan. *op. cit.*, 197, where it is stated" Another feature of this (The Suez Canal) route is the unusually large number of feeder or branch lines connecting with the main route, both east and west of the Canal."

الرئيس ، بل أيضا إلى أهميتها كنقط للشحن والتفريغ والتجميع والتوزيع نظرا لأهمية ظهورها Hinterland هذا إلى جانب قربها بعضها من بعض ونظرة واحدة إلى الخريطة تكفي لابراز هذه النقطة (٧٠) .

هذه حقائق ذات أهمية بالغة في أثرها البارز على قناة السويس والتجارة التي تعبرها ذلك لأن هذه التجارة تعبر القناة تكون الجانب الأعم من التجارة التي تستعمل طريق البحر المتوسط آسيا (٧١) .

ليس هذا فقط ، بل أننا نلاحظ أن طريق السويس تتوفر فيه وسائل التموين بالحاجيات المختلفة ومحطات التموين بالوقود بأنواعه المختلفة ، ولاشك أنه كلما تعددت محطات التموين بالوقود على طول الطريق كلما كان ذلك أفيد للباخرة التي تتحرك عليه وتتحقق الفائدة بتوفير فراغ أكبر للبضائع ، مما يحقق ربحا أكبر لشركات النقل التي تستعمل هذا الطريق ذلك أنه :

"If the ship can make its owner more money carrying much freight and little coal, it will do so and stop at frequent intervals for more coal" (٧٢) .

---

(٧٠) See for example Smith and Phillips, *op.* cit., 857, where it is stated, "Of all the world's ocean routes, the Mediterranean-Asiatic is the trunk line par excellence. This comes about from its length and its location between the two northern and the two southern continents of the eastern hemishere, which it serves by numerous lateral branches, finally reaching in the west the United States, where its termini include the widely separated points of Houston and Boston. The indented coasts of Europe and Asia furnish from every great gulf and sea a pranch to the main trunk route... In this respect it is quite the peer of any rail-rond system and in its structure bears considerabled resemblance to the Pennsylvania Railroad-Probably the best located railroad with regard to freight traffic in the whole world."

(٧١) *Ibid.*, 857-60 where it is stated, " The traffic upon this great route, which almost circumnavigates the world, is asvaried as the peoples and lands which it reaches. For convenience the traffic may be considered in six different groups... traffic of the Mediterranean waters,... traffio between western Europe and the Mediterranean.... traffic between the sast Indies and the Orient,. traffic between North America and the Mediterranean, traffic between North Vmerica and the Mediterrauean.... traffio between Europe and and the Orient,... and traffic between North America and Sast Asia." The traffic included in the two last divisions go through the Suez Canal.".

(٧٢) Smith and Phillips, *op. cit*, *Ibid*., 856.

فاذا كان ذلك كذلك فان طريق السويس ممتاز من هذه الناحية :

"If such stopping is desired no long route in the world equals this one for coaling opportunities. A vessel can sail over it from the remotest port in the Gulf of Mexico to Vladivostok in east Siberira without over being compelled to carry coal for a voyage longer than that between Aden and Colombo, a distance of less than 2.200 miles. The vessel from the Gulf of Mexico, if it so desired, could get coal at Norfolk or Bermuda; the vessels from New York occasfonally in times of great stress of freight and high rates call at Fayal or St. Michaels in the Azores about 2000 miles out from New York; and thenc onward the succession of coaling stations is continious. The leading ones actually used by the various lines are Gibraltar, Algiers, Port Said, Aden, Colombo, Singapore, Hongking, Shanghai and Yokohama or Moji. (٧٣)

هذه هى الحال فى الفحم ولا تختلف الحال فى البترول عن ذلك :

"With the exception of its extremities in north-western Europe and eastern Asia, the Moditerranean-siatic route is well supplied with petroleum. Eastern America and the Caribbean area produce [a lot] The Oil fields of Russia. Rumania, Iraq, Saudi Arabia, [kuait], Bahrein island. Iran, Burma, the Dutch East Indies, and British Borneo are adjacent to the route" (٧٤).

ليس هذا فقط بل أن هذه المناطق تغذى الأجزاء الأخرى على طول الطريق بالبترول، وإذ أن نسبة السفن التى تستعمل البترول كوقود(٧٥) تتزايد فان هذا يؤيد من أهمية الحقيقة الثانية وهى أن :

"Le Canal de Suez est spécialement favorisé au point de vue de l'approvisionnement en combustible, surtout au point de vue mezont grâce à la proximité des pays producteurs (٧٦).

---

(٧٣) *Ibid.*, 856; see also 854 where it is stated that "The Mediterranean-Asiatic route is admirably supplied with coaling stations for the vessels that follow it and is well supplied with coal".

(٧٤) *Ibid.*, 857.

(٧٥) *Ibid.*, 857.

(٧٦) Issa, *op. cit.*, 100.

غير أننا ينبغى أن نتحفظ فيما نعطى من وزن لأهمية هذه الميزة ذلك لأن تزايد استعمال البترول فى تسيير السفن قد قلل من أهمية هذا العامل ، ذلك لأن السفن التى تسير بالبترول :

" Have a longer operating radius and do not have to stop so frequently for bunker fuel " (٧٧)

كل هذه إذن مزايا تفيد منها قناة السويس إذ أنها تمكن من امتداد المجال التجارى للقناة إلى ما وراء المجال الذى يحدده عنصر المسافة المجردة . إذ كثيرا ما تفضل السفن تتبع طريق البحر المتوسط — آسيا على تتبع الطرق الأخرى التى قد تقصره طولا بسبب تعدد وجود الموانى وإمكانيات توفر البضائع بكميات كثيرة وفى أماكن متعددة على الطريق وتوفر الرغبة فى هذه البضائع وكذلك بسبب تعدد محطات التموين سواء بالوقود أو بغيره من الحاجيات مما يزيد فى امكانية وجود فراغ أكبر فى السفينة تستطيع استعماله فى نقل بضاعة أكثر .

وإذا كان مجال القناة المسافى مجالا يغطى الجزء الأغلب من الصورة كما سبق أن رأينا ، فان المجال التجارى بتأثير هذه العوامل المواتية يكون أضخم مما يجعله عالميا بحق ومهما فى العلاقات الدولية التجارية لمعظم بلدان العالم ، وكما يقول أحد الكتاب :

" Cette grandeur est considérable est d'un intérêt vital pour les relations entre presque tous les grands pays du monde " (٧٨) .

قناة السويس اذن :

" est au premier chef un canal d'intérêt mondial " (٧٩).

ويمكننا أن نضيف إلى كل هذه العوامل ذات الأهمية نقطة أخرى دائمة أيضا ، وهى أن قناة السويس تقع فى منتصف الطريق تقريبا ، وهذا أمر يختلف عما لو كانت القناة تقع بعيدا عن المنتصف وقريبا من أحد الطرفين ، ذلك أن العلاقات التجارية المتبادلة التى لا بد أن تمر بضاعتها خلال القناة حتى تصل إلى أحد الطرفين المتبادلين من الطرف الآخر يكثر عددها كلما قربت القناة المعبورة من منتصف الطريق ولتوضيح هذه النقطة يمكننا أن نفترض

(٧٧) Smith and Phillips, *op. cit.*, 557.
(٧٨) Issa, *op. cit.*, 182.
(٧٩) *Ibid.*, 55.

حالة نظرية بحتة : نفرض أن هناك طريقا ا ب تقع عليه الدول التى نحدد كلا منها بنقطة ما وهى : ا ، جـ ، د ، هـ ، و ، ز ، ح ، ط ، ى ، ب ، كذلك نفرض :

ص جـ س د م هـ ل و ك ز ح ط ى ب

للتبسيط ولابراز أهمية العنصر الذى نتحدث عنه الآن أن كمية التجارة بين كل من هذه الدول ولدى دولة أخرى منها متساوية ، فاذا وقعت منطقة العبور فى منتصف الطريق تقريبا ، أى فى النقطة ك مثلا ، فان مجموع البضاعة التى سوف تمر بالنقطة ك تمثل التجارة بين ا وكل من ز ، ح ، ط ، ى ، ب ، مضافا إليها التجارة بين جـ ، وكل من ز ، ح ، ط ، ى ، ب ، مضافا إليها التجارة بين كل من د ، هـ ، و ، والدول الخمس على الجانب الآخر ، أى أن مجموع البضاعة التى سوف تمر بالنقطة ك تبلغ ٢٥ مثلا للتجارة بين أى دولتين من الدول العشر . وطبعا لا تمر بالنقطة ك التجارة بين ا ، جـ أو ا ، د أو ا ، جـ أو ا ، و ، وكذلك الحال فى التجارة بين جـ ، د أو جـ ، هـ أو جـ ، و ، وبالمثل فى حالة التجارة بين د ، هـ أو د ، و ، وأيضا التجارة بين هـ ، و ويتكرر نفس الوضع بالنسبة للحالات العشر المقابلة فى الجانب الآخر من النقطة ك . أى أننا فى المثل المعطى نجد أن خمسا وعشرين حالة من مجموع حالات الاتجار المتبادل وهى خمس وأربعون تمر بالنقطة ك .

فاذا مالت نقطة العبور عن الوسط ، وأصبحت أقرب إلى أحد الطرفين ، فان الحالات التى سوف تمر بنقطة العبور ل مثلا ، سوف تكون ٤ × ٦ = ٢٤ أى أربعا وعشرين حالة من مجموع الحالات الخمس والأربعين .

فاذا تطرفت نقطة العبور فى ميلها عن الوسط ، وزاد قربها بدرجة أكبر عن ذى قبل من أحد الطرفين فان الحالات التى سوف تمر بنقطة العبور م مثلا يكون مجموعها ٣ × ٧ = ٢١ أى ٢١ حالة من مجموع الحالات الخمس والأربعين .

وكلما زدنا تطرفا فى انحرافنا عن الوسط وقربنا بدرجة أكبر من أحد الطرفين كلما قلت حالات العبور . فإذا كانت نقطة العبور هى النقطة س فإن حالات العبور تكون ٢ × ٨ أى ١٦ حالة ، وإذا كانت نقطة العبور هى النقطة ص فان حالات العبور تكون ١ × ٩ أى ٩ حالات .

وهكذا الحال لو كانت نقطة العبور أقرب إلى الطرف الآخر ب من ك التى تقع فى المنتصف .

ويمكن أن نستعمل أى مثل آخر غير الذى سبق ذكره بأى عدد من النقط وسوف تكون النتيجة واحدة .

واضح إذن أنه كلما توسطت نقطة العبور على الطريق كلما كان عدد حالات الاتجار المتبادلة التى تعبرها أكبر ، وكلما مالت نقطة العبور عن الوسط وقربت من أحد الطرفين ، كلما كان عدد حالات الاتجار المتبادل التى تعبرها أقل . وواضح فى المثل السابق أن الحالات يمكن أن تختلف بين بلوغها خمسا وعشرين حالة فى أعلاها ، أى أحسن درجات التوسط حين تكون نقطة العبور ك وتسع حالات فى أدناها ، أى أقل درجات التوسط حين تكون نقطة العبور ص .

ويمكن أن يفسر هذا المبدأ على الأقل تفسيراً جزئيا ضخامة حجم التجارة التى تعبر القناة بالنسبة لمجموع التجارة التى تستخدم السفن الناقلة لها طريق البحر المتوسط ــ آسيا .

ولكن قد يكون المجال التجارى ضخما ويمتد إلى مسافات طويلة دون أن يستدعى ذلك بالضرورة قيام تجارة ضخمة بين أجزائه تعبر ــ فى الحالة التى تتناولها فى هذا التقرير ــ قناة السويس . هذا ممكن من الوجهة النظرية [٨٠] . هذه الامكانية تودى بنا فى البحث إلى نقطة ذات خطر كبير فى الموضوع وهى وجود أسس قوية ووطيدة تستند إليها التجارة التى تعبر القناة ويقتضينا هذا أن نتحدث عن العوامل التى تودى إلى قيام التجارة ونناقش مدى توافرها فى المناطق التى تدخل فى نطاق المجال التجارى للقناة .

فلنتساءل أولا عن السبب الذى من أجله يتجر الناس بعضهم مع البعض الآخر . يتجر الناس أو يتبادلون السلع حين يحقق هذا التبادل اشباعا أكبر لكل منهم ، عما لو أنتج السلعة التى يحصل عليها من غيره بدلا من السلعة التى يعطيها لغيره فى مقابلها . والا لما كان هناك داع لعملية المبادلة هذه . ولا بد لقيام عملية المبادلة من معرفة كل طرف من أطراف المبادلة بالوضع الذى يؤدى اليها على ألا تكون وسائل الاتصال والمعرفة واجراءات

(٨٠) فقد يكون الانتاج قليلا مما يؤثر على حجم التجارة المتبادلة وقد يكون كبيراً ولكنه متشابه فى الجانبين مما لا يوجد معه داع للتبادل الذى يحقق مصلحة الطرفين .

المبادلة ونقل السلعة إلى الطرف الذى يحصل عليها من التكاليف الاضافى بحيث تلغى المصلحة فى قيام عملية المبادلة .

لا بد إذن من وجود وسائل الاتصال بما فيها وسائل النقل — التى تمكن من الاتصال وتحقيق عملية المبادلة بصورة اقتصادية . وكلما كانت طرق الاتصال أكثر اقتصادية كلما كان ذلك أدعى إلى تفضيلها لانها تحقق اشباعا أكبر من تبادل السلع إلى جانب أنها تمكن من تبادل سلع يكون تبادلها بواسطة طرق الاتصال ذات الكفاية الاقتصادية الأقل أمرا غير اقتصادى .

وواضح مما سبق أنه لا بد من وجود رغبة لدى كل من الطرفين المتبادلين فى السلع التى يحصل عليها كل منهما مقابل ما يعطيه . ولا شك أن الرغبة فى الشىء وحدها لا تكفى وانما لا بد من أن تسندها قوة شرائية حتى تتحقق الرغبة بوجود الطلب الفعال . وكلما زادت القدرة الشرائية كلما زاد عدد الحاجات التى يمكن تحقيقها ولا بد حتى يكون ذلك أن تكون القدرة الانتاجية للفرد أو الجماعة الراغبة فى سلع الطرف الآخر من الكفاية بحيث يفيض انتاجه أو انتاجها عن حاجتها ويمكن بواسطة الفائض من الانتاج مبادلته بسلع الطرف الآخر التى تحقق الاشباع المطلوب . ولا شك أن ضخامة المجال التجارى للقناة وضخامة الانتاج وتنوع هذا الانتاج حتى فى كل من جانبى القناة وضخامة عدد السكان وبالتالى ضخامة حاجاتهم كمية ونوعا ، كل هذا إلى جانب امتيازات النقل المائى المستمر عوامل تعين على ضخامة المبادلات وكذلك على تنوعها حتى من الجانب الواحد للقناة . وهذا العامل الأخير له أثره فى التعويض إذ كلما تعددت السلع كلما أمكن أن تعوض الزيادة فى بعض الأنواع النقص فى الانواع الأخرى .

وإلى جانب القدرة الشرائية ، توجد عوامل أخرى قد تؤثر على الرغبة فى السلع المختلفة : كالدين والتقاليد والمناخ . . . الخ . إلا أن أثر ما يحدث من تطور فى وسائل الاتصال من معرفة ورغبة فى التقليد وخلق حاجات جديدة يسند ذلك قابلية الحاجات الانسانية للتزايد . هذا فضلا عما يؤدى إليه تحسن وسائل الاتصال والنقل من نشر القدرة الفنية ومعاونة للتطور الاقتصادى والتصنيع الذى يقوم عادة على مبدأ التخصص الذى يستند إلى دعائم ثابتة من العوامل الطبيعية ، مما يؤدى إلى زيادة الانتاجية وزيادة القدرة الشرائية التى يمكنها أن تحقق أشباعا أكبر . إذ تستند هذه الحاجات الانسانية المتزايدة . ومن المبادىء المعروفة أنه كلما ارتفعت الانتاجية والقدرة الشرائية ومستوى المعيشة بين الطرفين كلما أدى ذلك عادة إلى ضخامة التجارة بينهما وتنوعها .

وبالرجوع إلى كتاب « جغرافية العالم الاقتصادية » World Economic Geography تأليف الأستاذ جورج رينر George T. Renner وآخرين نجده يذكر الآتى :

Three basic conditions are necessary in order that people may trade with one another. First, two human groups who would carry on commerce must be aceessible to one another; second, each must possess a surplus of goods; and third, their commodities must be different" (٨١).

أما عن العامل الأول ، فسوف يتناول التقرير إمكانيات النقل الأخرى مقارنة بطريق السويس فى شىء من التفصيل فيما بعد . وأما عن العامل الثانى ، فقد تضامل فيما سبق وسوف يمسه التقرير من وقت لآخر فيما بعد .

ولنتساءل بعد ذلك عن العوامل التى تكمن وراء اختلاف الفوائض بين الطرفين المتبادلين مما يؤدى إلى وجود مصلحة إقتصادية من تحقيق عملية المبادلة بين الطرفين .

ولنبدأ فنذكر أن المقصود بالاختلاف بين الفوائض المتبادلة هو الاختلاف الاقتصادى الذى يقدره طرفا المبادلة ، أى أن تكون السلع مختلفة بالمعنى الاقتصادى وكفى ، فلا يلزم أن تكون السلع المتبادلة آلات فى مقابل حبوب أو قطن مثلا ، وإنما قد يكون التبادل بين أرز من نوع معين وأرز من نوع معين آخر ، أو قطن له صفات معينة وقطن له صفات معينة أخرى . وقد يكون اختلاف السلع مجرد اختلاف فى نظر أحد طرفى المبادلة وتصوره . وهذا واضح فى الحالات التى ينشأ فيها الطلب بسبب شهرة المعارض وفى حالات الاستهلاك الملفت للنظر Conspicuous consumption بل قد تكون السلع متجانسة ولكن الاتجار فيها سوف يحقق منفعة وأشباعا اقتصاديا يبرر عملية التبادل وهذا واضح فى الحالات التى تتحكم فيها المواسم أو الفصول فى وقت الحصول على سلعة ما . وهنا يمكن أن يتم تبادل مفيد بين المناطق المنتجة للسلعة فى نصف الكرة الشمالى والمناطق المنتجة لنفس السلعة فى نصف الكرة الجنوبى .

---

(٨١) Renner and Associates, *World Economic Geograph...*, 653.

بعد هذا ننتقل إلى العوامل التي تؤدي إلى اختلاف السلع التي ينتجها البشر . وبالرجوع إلى المؤلف المذكور سابقا نجده يقول :

"In general, differences or dissimilarities in the commodities which human beings produce spring from three principal causes. The first of these is the difference in the culture and technology of peoples. The second is the difference in natural resources available to the several peoples of the earth. The third is the difference in the stage of economic-geographic development attained by various peoples" (٨٢).

ولقد كانت هذه الأسباب الرئيسية التي اقتبسناها فيما سبق متوفرة بين الشرق والغرب ومنذ أمد بعيد في التاريخ . ولقد قامت المحاولات منذ العصور القديمة لاستعمال وسائل اتصال وطرق أحسن سواء كان ذلك من ناحية الأمن أو السهولة أو التكلفة أو أكثر من عامل منها . وتحقق الاتصال بواسطة طرق عديدة كان عدد له اعتباره منها يمر خلال الشرق الأدنى الذي يعتبر إلى حد كبير ومن نواح متعددة منطقة انتقال بين الشرق والغرب . وكان من بين طرق الشرق الأدنى هذه طرق تمر خلال مصر ومن بينها طريق السويس الذي يعتبر الآن أهم الطرق بين الشرق والغرب . ويذكر الدكتور عيسى :

"Qualitativement... le canal de Suez... [est un] trait d'union entre des civilisations différentes, et des contrees aux productions fort diverses... Cette terre est donc... un passage international que, depuis l'antiquité déjà, les hommes ont voulu utiliser" (٨٣).

والاتصال يؤدي إلى التبادل فيما يحقق تبادله مصلحة الطرفين المتبادلين ويتبع ذلك نوع من التخصص تتحقق به مصلحة أكبر . وقد يؤدي ذلك أو يدفع إلى تحسين وسائل الاتصال القائمة أو الكشف عن أنواع جديدة أكفأ من الناحية الاقتصادية مما يساعد على توسيع رقعة المبادلة . ثم يؤدي بالتدريج إلى قيام التخصص والتبادل على أسس وطيدة ثابتة لا يسهل نقلها أو تقليدها . وكلما زادت درجة التخصص كلما أدى ذلك إلى زيادة

---

(٨٢) Ibid., 656 see also Smith and Phillips *op. cit.*, Chapter 23, "Why Do Trade", 784-50 784. Also campare with, Jones, Clarence Fielden and Darkenwald, Gorden Gerald, *Economic Geography*, Chapter 37, "The Bases of International Trade", 572-80.

(٨٣) Issa., *op. cit.*, 182.

ضخامة الفوائض فى الجانبين المتبادلين وزيادة حاجة كل طرف إلى الآخر . هذا إلى جانب زيادة انتاجية كل من الطرفين مما يؤدى إلى زيادة قدرته على الشراء وامكانية حصوله على اشباع أكبر عن طريق المبادلة . وتستمر هذه السلسلة من التطورات المترابطة رغم ما يعوق تتابعها بين الحين من عقبات ومعطلات .

ومن النقط البارزة أن كمية التجارة المتبادلة قد تزايدت باطراد مع تحسن وسائل الاتصال التى تحسنت بشكل بارز فى الفترة منذ القرن الماضى إلى الآن . ولكن ينبغى أن نلاحظ نقطة أخرى هامة يؤدى إليها تحسن وسائل الاتصال وطرقه وزيادة الاتصال وامتداد العلاقات التجارية . فمن المبادىء المعروفة التى يذكرها مؤلف « جغرافية العالم الاقتصادية » المذكور سابقا أنه :

" As commercial relations are extended, trade based upon cultural and economic-geographic differences tends to decline, whereas trade resting upon resource differences tends to become occentuated " (٨٤).

ولننتقل الآن إلى دراسة تفصيلية لهذا الوضوع . فنبدأ بالعامل الأول وهو اختلاف الناس فى الثقافة والمقدرة الفنية فى هذه الحالة نجد أن اختلاف الانتاج ينبنى على الاختلاف فى القدرات أو الدين أو التراث الفنى أو التقاليد أو طرق التفكير المقبولة اجتماعيا .... الخ ..

فكثير من جهات العالم أو كلها تقريبا تصدر سلعا معينة تحمل طابعها الخاص للدول الأخرى وتستمد قيمتها من أنها تعكس قدرات أو ظروفا ثقافية ينفرد بها القوم الذين يصنعونها كبعض سلع الصين أو الهند أو بعض الأمم البدائية كالهنود الحمر أو حتى الأمم المتقدمة . فدولة فرنسا تشتهر بتصدير السلع التى تستمد قيمتها بسبب المهارة أو الذوق الفرنسى الذى يخلع عليها طابعا فنيا رفيعا واذ تشتهر دولة كفرنسا بصناعة هذه الكماليات المعينة تكتسب بمرور الوقت شهرة تعطيها ميزة على غيرها وتطيل بقاء امتيازها مدة حتى ولو تلاشت الأسباب الأصلية التى قامت عليها . ويمكن أن ينسحب نفس القول على أثر ما عرف عن الالمان من دقة علمية ومثابرة على البحث فى تجارة المانيا ومن الأمثلة البارزة على ذلك تفوقهم فى الصناعات الكيميائية .

---

(٨٤) Renner and Associates, *op. cit.*, 666.

وينبغى هنا أن نتناول نقطتين : النقطة الأولى هى أن كمية التجارة المتبادلة بسبب هذا العامل لا تذكر سواء إذا اخذت على اطلاقها أو على أساس نسبتها من التجارة المتبادلة بين أجزاء العالم المختلفة ، رغم أنها تبدو فى أثرها على عكس ذلك بسبب حدة أو بروز الاختلاف الذى يقوم على أساسه الاختلاف فى الانتاج . وهو اختلاف يلفت النظر بدرجة أكثر بسبب تفرده . وكما يقول الأستاذان رسل سمث واوجدن فيلبس :

At first thought it may seem that the difference in the skill, genius or culture of races is the greatest cause of trade, but this is not the case. Racial difference is the least important of the three main causes " (٨٥).

والنقطة الثانية هى أن الاختلافات الثقافية والنتائج التجارية المختلفة التى تنشأ عنها "are conspicuos for their tendency to be evened up and to disappear " (٨٦)

وتعين على هذا وسائل الاتصال والنقل المختلفة . وانتقال الأسس العلمية من أجزاء العالم إلى أجزائه الأخرى وعدم وجود فرق بين القدرات الانسانية بسبب اختلاف الأجناس وإمكان الانسان أن يحاكى ويقلد الآخرين وقد ساعد التحول إلى الانتاج الآلى النمطى الكبير على الاختفاء التدريجى للتجارة التى تقوم على أساس وجود هذا الاختلاف وعلى تضاؤل نسبتها فى مجموع تجارة العالم تضاؤلا شديدا جدا .

ولسنا بحاجة فى هذا الصدد إلى أن نذكر فى تفصيل ما انتهى إليه العلم من أن الخلافات اللونية أو الجنسية بين البشر لا دخل لها بذكاء الانسان ومقدرته على التعلم ما أعطى الفرصة وأن ماينبغى على الذكاء العقلى والمقدرة من مهارة بالتالى ليس احتكارا لدولة دون أخرى أو جنس دون آخر (٨٧). ولهذا تميل اختلافات الانتاج التى تقوم على أساس الاختلاف الجنسى والثقافى إلى الاختفاء حينما تمكن وسائل الاتصال بدرجة كافية من القضاء على الظروف الاجتماعية الخاصة التى تخلقها .

ننتقل بعد ذلك إلى العامل الثالث الذى يؤدى إلى اختلاف الانتاج ، وهو عامل الاختلاف فى مرحلة التطور الجغرافى — الاقتصادى ، ونلاحظ أن هذا الاختلاف يرتبط

---

(٨٥) Smith and Phillips, *op. cit.*, 786: Renner and Associates, *op. cit.*, 637.
(٨٦) Smith and Phillips, *op, cit.*, 786; Renner and Associates, *op. cit.*, 665.
(٨٧) Renner and Associates, *op cit.*, 656.

إلى حد كبير بعامل كثافة السكان[٨٨] فحيث يكون السكان قليلين فإنهم يلجأون فى استغلال بيئتهم إلى وسائل تختلف كثيرا عما لو كان السكان كثيرين فى نفس الظروف البيئية . فالعدد القليل من السكان يقوم انتاجه . وبالتالى صادراته على أساس من منتجات الطبيعة الخام أو المواد الخام التى لا تحتاج إلا لأقل كمية من العمل . أما إذا عظمت كثافة السكان فإن على هؤلاء إذ يقل نصيب الفرد من المواد الخام أن يجروا على هذه المواد بعض العمليات التحويلية التى تزيد من قيمتها . وإذا أخذنا مثلا بيئة غابية فان وجود مساحات شاسعة بالنسبة للسكان سوف يجعل فى امكان الانسان أن يسد حاجته بالصيد والجمع والالتقاط فاذا زادت كثافة السكان فقد يؤدى ذلك إلى التحول إلى قطع الأخشاب . وإذا كان هؤلاء السكان فى منطقة سهلية فيغلب أن تقوم صناعة الرعى وتصدر الأصواف والجلود والحيوانات . فاذا زاد السكان وكانت الظروف مناسبة تحول القوم إلى الزراعة البدائية ثم الزراعة الخفيفة ثم الزراعة الكثيفة التى تصل إلى حد الزراعة البستانية بما تحتاج إليه من عناية فائقة وكمية عمل أكبر وما تنشده من استغلال كل شبر من الأرض أقصى استغلال ممكن .

ويلاحظ كما يقول أحد المراجع الهامة :

"We ses that as a nation's population continues to grow, there by increasing the domestic market and labor supply,[٨٩] as[٩٠] capital accumulates, and as transportation facilities are

(٨٨) *Ibid.*, 665; Smith and Phillips, *op cit.*. 787.

(٨٩) من العوامل الهامة التى تأتى مع تزايد السكان أيضاً تزايد الحاجة إلى زيادة الانتاج لاعالة العدد المتزايد كما ان الاتجاه نحو رفع مستوى معيشة الجميع يزداد قوة . وهذا يخلق الدافع النفسى للانتقال إلى مرحلة أعلى من التطور الاقتصادى .

(٩٠) هذا الفراغ مكان كلمة Local وفى رأينا أن تزايد السكان مع وجود ظروف طبيعية مواتية يعطى العمل والمادة الخام بتكلفة أقل كما يوفر السوق لكثير من الصناعات الأساسية ، وهو بذلك يخلق الجو المواتى لرأس المال أيا كان محلياً أو أجنبياً . ولقد كان رأس المال الأجنبى فى كثير من الحالات هاماً هاماً — خاصة فى مراحل التصنيع الأولى — فى الدول المتخلفة . وإذا كانت بعض المصاعب والمتاعب تنجم بسبب رؤوس الأموال الأجنبية فذلك يأتى من تنافس بعض المصالح الرأسمالية فى البلدان المختلفة الذى يجعل الدول التى يتركز فيها رأس المال تغالى فى شروط الاستغلال وتحاول تعطيل الاتجاه نحو الصناعة فى مراحلها الأعلى مما يجعل الدول النامية اقتصادياً تضطر إلى الاعتماد على داخلها بدرجة أكبر دون الغض من أهمية الاستفادة من منافسات الدول فى الخارج للحصول على رؤوس أموال أو قروض بأحسن الشروط الممكنة وبشرط ألا تشل حركة الدولة النامية فى الاتجاه الصاعد .

expanded are improved the the inevitable result is a more intensive use of human and natural resoureces. This normal economic evolution is accompanied by a growth of manufacturing if the fuel, market, raw material, and other factors are favorable (٩١) ".

ومن أمثلة التجارة التى قامت بسبب الاختلاف فى مرحلة التطور الاقتصادى التجارة التى كانت تقوم بين أوربا والعالم الجديد ، ولا زال جزء كبير من الاتجار يقوم على هذا الأساس ، بل كثيرا مايصدر العالم الجديد مادة خام أو مادة نصف مصنوعة ليستوردها من أوربا بعد أن تمت عليها عمليات تحويلية ذات مستوى أعلى أخرجت منها ناتجا دقيق الصنع . وكذلك كان الحال بين أوربا الغربية وأوربا الشرقية ، أستراليا ، ونيوزيلند .

ولكننا نلاحظ وجود اختلاف فى مرحلة التطور الاقتصادى أيضا بين كثير من المناطق التى يزدحم فيها السكان على الموارد بسبب ظروف مصطنعة فرضها المستعمر المستغل على المناطق التى تحكم فيها مما أدى إلى تعطيل التطور الذى يحقق مصلحتها . كما كان الحال بين بلد كالهند ودولة كبريطانيا العظمى أو الصين والدول الغربية مثلا (١) . غير أننا نلاحظ بصفة عامة تحقق المبدأ الآتى وهو أن :

"Trade based upon differences in the stage of industrial development, like that depending on racial differences, from which it cannot completely be distinguished, has a strong tendeney to disappear through the equalizing of industrial conditions throughout the world" (٩٣).

وإذا كان عامل السكان خاصة يؤدى إلى دفع عجلة التطور بمعدل أكبر إلى الحد الذى يجعل البعض يعتبرونه العامل الأعظم فى هذا التطور . كما جاء فى أحد المؤلفات :

"Population growth is the prime force that helps to level differences in the stage of industrial development among nation.s (٩٤)

(٩١) *Ibid.* 739

(٩٢) See for example Sakr, Ibrahim, "Comer Circa 1890 : A Study in British Imperialism in Egypt" *Review of Economic and Businese Studies*, No. 1. Thira year, February 1956, 25-61 especially 36-42.

(٩٣) Smith and Phillips, *op. cit.*, 780 ; Renner and Associates, *op. cit.*, 666.

(٩٤) Smith and Phillips, *op. cit.*. 740 and 787 where they say :" "The difference in the stage or intenaity of industrial development is largely a matter of the density of population.

إذا كان عامل السكان ذا أهمية خاصة فينبغى ألا ننسى أن وسائل الاتصال وما يحدث فيها من تطور يمكن من اتصال أجزاء العالم بعضها بالبعض بسرعة وسهولة أكبر مما يؤدى إلى المعرفة والنقل والتقليد والخلق ومما يؤدى بالمناطق المستغلة إلى أن تحس بأن مصلحتها أن تزول الظروف المصطنعة المفروضة وأن تطور نفسها بما يحقق صالحا أكبر لها . يحدث هذا فى الدولة الواحدة كما هو الحال فى انتقال صناعة المنسوجات من نيوانجلند فى الولايات المتحدة ، متجهة إلى الجنوب . وفى الدول المختلفة ، سواء منها المزدحمة بالسكان والتى فى حاجة أشد إلى الارتفاع باقتصادها إلى مراحل تطور أعلى أو غير المزدحمة بالسكان ، إذ ترى فى صالحها التحول إلى درجة أعلى فى الانتاج مما يزيد قيمة هذا الانتاج وبالتالى يرفع مستوى معيشة أهلها . ولهذا نرى الاتجاه نحو التصنيع ينتشر فى أجزاء العالم جميعا وإن كان يختلف فى درجة حدته ويشجع الدول جميعاً على محاولة القضاء على الظروف المصطنعة نجاح كثير من الدول التى قضت عليها فى تطوير إنتاجها ورفع إنتاجية أبنائها ومستوى معيشتهم .

واضح إذن أن عامل الاختلاف فى مرحلة التطور الجغرافى الاقتصادى الذى يؤدى إلى إختلاف الانتاج مما قد يؤدى إلى قيام تجارة على أساسه يضعف فيضعف بالتالى أثره كلما تحسنت وسائل الاتصال وأمكن التغلب على الظروف المصطنعة التى يكون تغييرها وبالتالى القضاء على أثرها ممكنا .

ونعود مرة ثانية إلى المبدأ الذى إقتبسناه سابقا وهو أنه :

" As commercial relations are extended, trade based upon cultural and economic-gegraphic differences tends to decline, whereas trade resting upon resource differences tends to become accentuated " (٩٥).

ننتقل اذن إلى عامل الاختلاف فى الموارد الطبيعية . هذا العامل هام جدا فى قيام التجارة بين مناطق العالم المختلفة . هذه الموارد كثيرة الأنواع وكل نوع منها يمكن تصنيفه إلى أصناف متعددة ، وهى موزعة على بلاد العالم فى مجموعات تختلف فى تنوعها وفى كمياتها . هذا الاختلاف يؤدى إلى اختلاف فى الانتاج بين أجزاء العالم المختلفة مما يؤدى — إذا وجد فائض — إلى قيام التجارة بين هذه الاجزاء المختلفة .

---

(٩٥) . Renner and Associates, *World Economic Geograph...* 666.

ومن النقط الهامة التى يجب أن تؤخذ فى الاعتبار فى مناقشتنا لهذا العامل أنه مع أن كلا من البيئة الطبيعية والبيئة الاجتماعية عرضة للتغير ، الا أن الطبيعة أكثر جدا من ناحية ثباتها .

ومن الواضح فى أى دراسة يبحث فيها مستقبل التجارة العالمية أن الاختلافات فى الموارد والبيئة الطبيعية بين الدول المختلفة والاقاليم المتباينة أكثر إلى حد كبير من ناحية استمرارها ودوامها عن الخلافات الاجتماعية كأساس الاتجار . صحيح أنه حتى مظاهر الكتلة اليابسة أو المائية أو المناخ عرضة للتغير . الا أن معادل التغير عادة بطيء جدا . وقد يقضى على التربة أو الغابات أو المصايد أو الحياة الحيوانية كمصدر للثروة بسبب سوء استغلال الانسان الا أن العلم وامكان استغلاله فى رسم خطوط البيئة الاجتماعية التى تعاون مع البيئة الطبيعية لتحقيق أحسن ناتج ممكن للانسان ، يؤدى إلى أن تخدم هذه الثروات الطبيعية الانسان لأمد طويل جدا . وصحيح كذلك أن الثروات المعدنية توجد بكميات محدودة قد تنتهى يوما ما ، الا أنه من الصعب معرفة المدة التى تنتهى بعدها ، فضلا عن أن التطورات العلمية قد تكشف احتياطيات أخرى وكذلك قد تمكن من الحصول على المعدن من خامات تكون غير اقتصادية فى الظروف السابقة .

كل هذه عوامل تؤدى إلى ثبات كثير من الاختلافات القائمة مدة طويلة . وقد تكون أطول مما هو مقدر الآن [٩٦] .

أضف إلى هذا نقطة هامة أخرى وهى أن ضخامة المجال الاقتصادى لقناة السويس وهى المسألة التى يدور حولها هذا البحث هذه الضخامة تؤدى إلى وجود إختلاف بين جانبى القناة حتى ولو إكتشفت أحيانا موارد فى جانب تتوفر فى الجانب الآخر . أو إنتهت موارد فى جانب كان يعتمد عليها فى اتجاره مع الجانب الآخر ، فان ضخامة المجال إلى الحد الذى يجعله يغطى معظم أجزاء العالم يجعل الاحتمال كبيراً أن يكتشف كذلك فى جانب ما لا يوجد فى الجانب الآخر أو لا يوجد بدرجة كافية . كما أن تعدد الأصناف فى النوع الواحد وتعدد الاستعمالات وخلق استعمالات جديدة كل هذا يقيم عامل الاختلاف فى الثروة المعدنية أساسا للاتجار . ولئن كانت هذه الثروة ليست خالدة ، وإنما هى قابلة

---

(٩٦) : Smith and Phillips, *op. cit.*, 747.

للنفاذ فانها أيضاً قابلة للخلق الاقتصادى والزيادة تبعا لتطور العلم وتفاعل هذا التطور مع حاجات الانسان .

ويلاحظ أن الاختلاف فى المناخ من الاختلافات الطبيعية ذات الأثر الهام جدا والثابت ولم يستطع الانسان ، رغم محاولات هنا أو هناك ، أن يقضى على أثره أو حتى أن يتحكمَ فيه بدرجة كبيرة أو على نطاق واسع . وكما يقول أحد الثقاة :

"Le climat est peut-être le seul adversaire qui ne soit pas de notre taille, le seul qui dépasse notre mesure hamaine"(٩٧)

ويفيض الأستاذان سمث وفيليبس فى هذه النقطة فيؤكدان مثلا أن :

"Temperature as a basis of trade is perhaps the most fundamental, the most widespread, and for the most promising of great and yet greater performance.

"No exchange of culture, no equality in educatiou or. skill, no emigration of peoples evening up density of population can change the temperature and make tropic fruit grow in the land of arctic fur or cotton grow in the land of spring wheat...

"[The] north-south trade [which is based upon differences in climat] has grown rapidly in recent decades and will continue to increase in the future. It gives the things we cannot ourselves produce, and is needed to round out the economic life of northern and southern lands alike"(٩٨).

ويلاحظ أن للمناخ أثراً كبيراً فى كثير من العوامل الطبيعية الأخرى ، كالتربة والنبات والحيوان الخ . . مما يؤثر فى إمكانياته ومقدراته الانتاجية . وهذا ملحوظ بشكل بارز فى الانتاج الزراعى مثلا ، وبالتالى فيما يمكن أن يقوم على أساسه من الصناعات المختلفة .

---

(٩٧) Capot-Rey, *Geographie de la circulation sur les continents*, 278, quoted in Moodie, A.E., *Geography Politics* 109.
ويلاحظ أن المناخ له أثره فى كثير من العوامل الطبيعية الأخرى وبالتالى فى حدود نشاط الإنسان . كما أنه يؤثر فى نشاط الانسان ذاته بل وينبغى أن نلاحظ أيضاً أنه يؤثر تأثيراً فعالا فى حاجات الانسان ولوازمه لاشباع هذه الحاجات .

(٩٨) Smith and Phillips, *op. cit.*, 742 ; Renner and Associates, *op., cit.* 666.

وينبغى أن نثير هنا بعض النقاط التى تهم موضوع البحث الذى نتناوله . والنقطة الأولى هى أنه فى الحالات التى يتمكن فيها الانسان من مواجهة آثار العوامل الطبيعية والتغلب على ما تضعه أمامه من عقبات نجد أن التكلفة تكون أكثر مما قد يجعلها غير إقتصادية فى كثير من الحالات . ويغلب ألا تلجأ الدولة إلى مثل هذا التصرف إلا مواجهة لظروف مصطنعة يفرضها الخارج عليها أو فرضا لظروف مصطنعة فى الداخل لا تقوم فى أغلب الأحوال على أساس إقتصادى سليم ويغلب إذا أخذنا فى الاعتبار المدى الطويل أن تمحى الظروف المصطنعة ويعود الانسان فردا أو جماعة إلى تقبل عون الطبيعة وتحقيق الاشباع بأقل جهد ممكن . والنقطة الثانية التى تمس هذا الموضوع وقد ألمحنا إليها سابقا ، هى أن ضخامة المجال التجارى للقناة وتنوع الانتاج فى كل من الجانبين ، وتنوع وتعدد الأسس التى يقوم عليها هذا التنوع يجعل فى الامكان تحقق عملية التعويض نقصاً أو زيادة طبقاً لنظرية الأعداد الكبيرة وتوازن الاحتمالات . بل أكثر من ذلك أنه كلما تلاشت الظروف المصطنعة واتجه هذا المجال التجارى ، وهو يشمل معظم أجزاء العالم نحو التخصص على أساس من الاختلاف فى الموارد الطبيعية الأكثر ثباتاً كلما زادت الانتاجية وارتفع مستوى المعيشة وتزايدت الحاجات التى يمكن إشباعها ، مما يؤدى إلى زيادة التبادل ، وكلما كانت هذه الزيادة أكثر إستقراراً واستمراراً وقابلية للتزايد عن طريق التخصص الأدق الذى يصل إلى أقصى المراحل .

والنقطة الثالثة التى لها دخل بهذا الموضوع هى أن توسط القناة على طريق السويس له أثره الأكبر فى إمكانية حدوث التعويضات فضلا عن محاولات التطوير الاقتصادى على كلا الجانبين بحيث لا تزداد حدة التأثر فى إتجاه معين فى جانب وحدته فى اتجاه مضاد فى الجانب الآخر ، أو يكون تأثر فى غير الصالح على كلا الجانبين . وبهذا لا تضعف امكانيات التبادل بين الجانبين ، بل إنها تزيد .

أضف إلى ذلك نقطة أخرى ، وهى أن كون قناة السويس حلقة فى طريق مائى مستمر يعتبر أرخص كثيراً من غيره من طرق النقل الأخرى . ومن ثم أقدر على الاستمرار فى النشاط الاقتصادى من غيره من الطرق إذا كانت الظروف غير مواتية . هذا يجعل امكانيات تأثره النسبى بأى نقص عام فى التجارة لسبب أو لآخر أقل من غيره من الطرق الأخرى .

يمكن أن ننتهى إذن إلى تأييد القول بأن :

"Environmental (٩٩) contrasts give rise to trade that is far more enduring than trade based upon differences in race, culture, technical skill, political and social conditions and other differences among peoples. Experience has shown that human differences frequently diminish and disappear" (١٠٠).

بل أنه كلما زادت وسهلت وسائل الاتصال وامتدت العلاقات الانسانية والتجارية كلما أدى ذلك كما سبق أن ذكرنا إلى أن :

"Trade resting upon resource differences tends to become accentuated" (١٠١).

فالاتصال بواسطة طرق الاتصال المتزايدة المتحسنة يعطى للشعوب المختلفة الفرصة لمعرفة نواحى اختلافهم وتقويمها تقويماً مقارناً ، وتؤدى قدرة الانسان على التقليد إلى عملية تلاقح ثقافى حيث يعمل الأخذ فيها والعطاء بمرور الوقت على تسوية الفوارق الثقافية . وفى العادة نجد الجماعات الانسانية لا تقوم بمجرد التقليد ، وإنما تحاول النقل الذكى الذى يتفق مع ظروفها ويحقق بتفاعله مع هذه الظروف أحسن ناتج ممكن لهذه الجماعات . وتأخذ العملية على وجه العموم شكلا مركباً من عدة عوامل تتغير وعوامل تنبذ سواء كانت مما هو موجود بالجماعة أو ما هو موجود بالجماعات الأخرى التى تنقل الجماعة عنها . وتسترشد الجماعة فى تصرفها بما تعتبره إذ ذاك خير ما يحقق صالحها . ومن الناحية الاقتصادية يلاحظ أن القيم الاجتماعية المختارة تكون القيم التى يبدو للجماعة أنها سوف توفر الجو الاجتماعى الموائى لتحقيق أحسن مصالحها كما قدرتها . ويبدو أن القاعدة الأساسية التى تستند عليها الجماعة هى أن تتخصص فى الاتجاه الذى ينتج أكبر عوائد ممكنة عن طريق فعل ما نسميه بقوانين التكاليف النسبية والميزات النسبية .

وكلما اعتمد هذا التخصص على أكثر العوامل ثباتاً وأقلها قابلية للتقليد كلما رسا هذا التخصص على دعائم وطيدة ، لأن الميزة النسبية سوف تعمل أثرها فى المدى الطويل كما تعمله فى المدى القصير . أضف إلى ذلك أن المنتجين إذ يقدرون ويحسون بالفائدة التى تعود

(٩٩) Meaning natural environment.

(١٠٠) *Ibid.*, 747.

(١٠١) Ranner and Associates, *op. cit.*, 666.

من التخصص حيث توجد ميزات نسبية قد يغرون بالاتجاه نحو تخصص أحد وفى مستوى أعلى ، أى بالتحول أيضاً إلى « التخصص الرأسى » وليس فقط « التخصص الأفقى » عن طريق القيام بعمليات الانتاج الثانوية والعمليات من الدرجة الثالثة . . . الخ . ويمكن أن يتحقق فى كل هذا أحسن الميزات الممكنة باستعمال طرق إنتاج أكثر كفاية ترتفع بها الانتاجية الاقتصادية وتساعد الآلات والكفاية الفنية والتطورات العلمية على دفع الجماعة الانسانية فى هذا الاتجاه وتعمل التطورات التى تحدث فى وسائل الاتصال والنقل خاصة على الاسراع بهذا التطور وزيادة حدته [١٠٢] .

كل هذه التطورات وأمثالها تعمل على زيادة سرعة التحول فى المراحل الجغرافية الاقتصادية . وبمرور الوقت تميل الاختلافات فى مراحل التطور الجغرافى الاقتصادى . كما ذكرنا من قبل ، إلى النقصان والزوال . ويميل التخصص بذلك إلى أن يتحرك أكثر وأكثر نحو أعلى المستويات تركزنا وحدة ، وأن يقوم على أكثر الأسس توطدا واستقرارا ، ونعنى بذلك الاختلافات فى الموارد الطبيعية .

وينبغى ألا ننسى فى هذه المناسبة أن المسألة ليست عسلا كلها وأن التطور لا يسير سيرا هادئا رتيبا . فهناك عقبات فى سبيل التبادل الحر الذى يعين على أن يحدث هذا التطور فى سهولة وسرعة ، بل أن هناك من الحواجز ما يفرض فرضا لتعويق هذا التطور فهناك بعض الظروف الاجتماعية كالاختلاف فى الثقافة عامة أو اللغة أو الدين أو التقاليد . . الخ . التى قد تثير بعض المشاكل فى وجه حرية الاتجار . ولكن هذه الاختلافات يمكن التغلب عليها كعقبة ونادرا ما كانت مشكلة ذات خطر فى إعاقة حرية الاتجار بين الشعوب المختلفة [١٠٣] .

---

(١٠٢) إلى جانب ما ذكر من ان هذا التحسن يساعد على التناقل والتلاقح فيما يمكن أن يحدث ذلك فيه فان تحسن وسائل النقل يوفر الوسائل الأحسن التى تمكن من جعل عملية المبادلة مفيدة ويقلل من تكلفة النقل فيعطى الفرصة لأن يزداد استغلال الميزات النسبية مهما قلت فى إقامة تخصص ومعه تبادل يحقق منفعة مشتركة للطرفين المتبادلين ذلك لأن تكلفة النقل تقلل من أثر الميزة النسبية فى الانتاج على التكلفة النهائية للسلعة فى سوق الاستهلاك فكلما قلت تكلفة النقل كلما قل أثرها النسبى على هذه التكلفة النهائية وزاد ذلك من التوسع فى التخصص الاقليمى على أساس الميزات النسبية لتحقيق خير الجميع .

(١٠٣) Smith anq Phillips, *op. cit.*, 736.

هذه الاختلافات يحاول أصحاب المصالح المتميزة استغلالها لتثبيت مصالحهم وتدعيمها وإطالة أمدها إلا أن هذه المحاولات تمطل ولا تقتل ولا يمكنها أن توقف التيار الصاعد إلى الأبد .

كذلك قد ترى بعض الجماعات من صالحها أن تعوق انتقال المقدرة الفنية لديها إلى غيرها من الجماعات ، رغبة فى اطالة المدة التى تتمتع فيها بهذه الميزة ولكن تطور وسائل الاتصال وامكانية انتقال هذه المقدرة بمرور الزمن عن طريق الاتصال والتقليد والمحاكاة وتوفر المقدرة العقلية فى الانسان أيا كان ، وحيثما يعيش كل هذا يساعد على التغلب على هذه العقبة . كما يعين على التغلب على العقبات النفسية المرتبطة بكل ما سبق ينشر الحقائق العلمية عن الانسان والشعوب . وكذلك برؤية الأمثلة العملية لنهوض الشعوب التى كانت من قبل متأخرة مما يشجع على قيام هذا التطور والاسراع به .

وهناك حواجز اصطناعية تفرضها الجماعة . كالتعريفة الجمركية والكوتا وحظر الاستيراد والقيود على تبادل النقد ، وتثبيت الأسعار والمنح والاعانات ومساندة الحكومة للكارتلات المختلفة . . . الخ . من الامتيازات التى تحابى المنتج المحلى ضد المنتج الأجنبى ، أو منتجاً أجنبيا ضد منتج أجنبى آخر ، أو فى بعض الحالات منتجاً أجنبيا ضد إمكانيات الانتاج المحلى . إلا أننا نلاحظ أن هذه الحواجز المفروضة إصطناعيا لوقف أو لتعطيل التطور فى ناحية أو لابقاء الوضع الذى لا يقوم على أساس إقتصادى سليم راسخ فى ناحية أخرى . هذه الحواجز وإن طال بها الزمن فى بعض الأحيان ، إلا أن مآلها إلى الانهيار لأنها تمنع صالحاً أو تسبب ضرراً للجماعة فى عمومها فى المدى الطويل (١٠٤) .

ويستحسن أن نشير هنا إلى أن تعديل الأوضاع والهيئات الاجتماعية بما يتوافق مع التغيرات المادية والفنية ويحقق أحسن ناتج ممكن للجماعة من تفاعل نظمها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية مع ظروفها وإمكانياتها الطبيعية والفنية هذا التعديل يكون بينه وبين الظروف والتحسينات الفنية والجغرافية التى تقتضيه هوة أو فترة زمنية . ويرى و . ف . أوجبرن (١٠٥) أن هذا التلكوء فى التغير الاجتماعى Gultdral lag يرجع إلى نوعين من القوى . الأول : ما تبدى الفئات صاحبة المصلحة من مقاومة ضد تغيير الوضع القائم

---

(١٠٤) يمكن الرجوع فى ذلك إلى المراجع العامة المختلفة فى العلاقات الاقتصادية الدولية والجغرافية الاقتصادية . وعلى سبيل المثال أنظر :

Smith and Phillips op. cit., 734-36. Renner and Associates op. cit., Chabter 39, "Man-Made Factors and Controls iu Trade", 735-44.

(١٠٥) Ogborn, W.F., *Social Change with Respect to Culture and Original Nature*, 166-86, 200-13, 256-65.

الذى يميزها كثيراً عن غيرها من الفئات . والثانى : تردد الجماعات البشرية فى تغيير ما تعودوا عليه . وواضح أن أصحاب المصالح يحاولون فى مقاومتهم استخدام العامل الثانى لتعطيل ، فضلا عن أنهم بما أوتوا من قوة اقتصادية ضخمة يمكنهم فى كثير من الحالات أن يتحكموا إقتصاديا وسياسيا واجتماعياً بما يعوق التطور حتى ولو كان فى هذا التطور مصلحة الجماعة ككل .

ولا بد لنا من أن نعترف بأن هذه القوات الرجعية من أصحاب المصالح الخاصة التى قد تتعارض مع اتجاه التطور الذى يحقق مصلحة الجماعة ككل ، هذه القوات سوف تكون ذات أثر فعال جداً فى تعويق هذا التطور إلا أن التاريخ يحدثنا بأن هذه المحاولات لتعويق التطور تبوء عادة بالفشل وبرغم الذبذبات والانتكاسات ، فإن الاتجاه العام General Trend إذا أخذنا المدى الطويل فى الاعتبار يمتد حيث يحقق صالحاً أكبر للجماعة . وأقصى ما يمكن أن تحققه هذه القوات الرجعية هو أن تكون عوامل تعطيل لا أكثر . فالهوة الزمنية هوة حقيقية ، ولكنها هوة بين قوتين مترابطتين ومتحركتين وتسير حركتهما فى اتجاه واحد . ولا شك أن الاتجاه العام فى العالم يسير نحو زيادة رقعة القاعدة الشعبية للحكومات فى الدول المختلفة والتدخل فى القطاع الحر فى الاقتصاديات القومية المختلفة ، بل والاتجاه فى كثير من الحالات نحو التشريك ونحو التأميم ونحو التخطيط الاقتصادى الذى يضيق من هذه الهوة الزمنية ويسرع بالتخصص الأدق والأحد والقائم على أساس إقتصادى سليم تتحقق به مصلحة الجماعة عامة ومصلحة البشرية بوجه أعم (١٠٦) .

ويلاحظ أن عمليات التخصص التى تحدثنا عنها من قبل ليست فقط تزيد من إنتاجية الأفراد والجماعات ، وبالتالى تزيد من متوسط نصيب الفرد من الناتج الجماعى ، بل أن التخصص يخلق إختلافات فى المنتجات التى تنتجها الجماعات المختلفة . هذا فضلا عن أنه فى الصناعة الحديثة والمعقدة يدخل فى صنع المنتجات المختلفة عدد كبير من المواد المختلفة . هذه الاختلافات فى السلع المنتجة مع وجود فوائض أكبر منها وحاجة أكبر لفوائض الجماعات البشرية الأخرى ، سواء بالتخصص فى سلع أخرى أو بسبب الحاجات إلى العدد الكبير من المواد التى تدخل فى منتجات جماعة بشرية ما . كل هذا يؤدى إلى زيادة التجارة

---

(١٠٦) See for example the league of Nations *Industrialization and Forign Trade*, and Staley, Eufene, *World Economic Development*.

العالمية زيادة كبيرة . وقد أدى التخصص الاقليمي والانتاج الكبير فعلا إلى هذه الزيادة (١٠٧)

"Regional specialization and mass production have already comelled an enormous extension of commerce" (١٠٨)

ولا شك أن التنمية الاقتصادية فى الدول المتخلفة إقتصاديا لن يكون من نتائجها أن تقل التجارة بين هذه الدول والدول الأخرى ، بل إنها فى عمومها تستند فضلا عن قيامها على أساس وطيد بزيادة التخصص الاقليمي إلى أقصاه (١٠٩) .

"Anything like acomplete geographical division of labor world... additional commerce on a scale at present undreament of" (١١٠)

ويزيد من أهمية هذا العامل ، وهو عامل اختلاف الفوائض على جانبي القناة وقيام هذا الاختلاف على أسس متينة ثابتة أن القناة تقع عند النقطة التى يكون فيها الاختلاف فى الظروف الطبيعية بارزا . فالقناة تقع عند منطقة الانتقال بين المناطق المعتدلة والباردة من ناحية وبين المناطق الحارة من ناحية أخرى ورغم أن اتجاه البحر الاحمر من الشمال إلى الجنوب يميل قليلا نحو الشرق ، الا أن هذا الميل قليل وامتداده طويل ، وهذا يجعل الاختلافات المناخية وما يترتب عليها من آثار وما ينجم عن كل ذلك من اختلافات بارزة فى الانتاج ، اختلافات أبرز وذات أهمية أكبر لتنوع الانتاج وضخامته مع اختلافه مما يؤدى إلى تبادل أنواع كثيرة من المنتجات وبكميات ضخمة . ولو أن القناة فى موقع غير موقعها على الطريق البحرى لكانت درجة امتيازها أقل (١١١) .

---

(١٠٧) Renner and Associates, *op. cit.*, 667.

وهذا رغم العقبات المصطنعة التي تعوق زيادة كمية التجارة بين الدول وقيامها على أساس اقتصادى متين من التخصص ينبنى على التميز فى الموارد الطبيعية وهو منحة طبيعية فضلا عن أنه اختلاف ثابت . Smith and Phillips, *op. cit.*, 735.

(١٠٨) Renner and Alesciates, *op. cit.*, 667.

(١٠٩) League of Mations., *op. it.*, : Staley, *op. cit.*

(١١٠) Renner and Associates, *op. cit.*, 667.

(١١١) يبرز الاختلاف أيضاً وبدرجة كبيرة بين أوربا الغربية ثانى سوق للبترول فى العالم والمستوردة الكبرى لهذه المادة والتى تعتمد فيما تحصل عليه منها بصفة أساسية على منطقة الخليج الفارسى ويتزايد اعتمادها . وبين المنطقة الأخيرة التى تنتج البترول وتصدره بكميات وفيرة وتعتبر أكبر مصدر له فى العالم وتتزايد أهميتها كمنطقة مصدرة وكمصدرة تعتمد عليها أوربا الغربية بصورة متزايدة . ويزيد من أهمية هذه النقطة قرب المنطقتين المتجاورتين من القناة بحيث تكون درجة الوفر فى المسافة باستعمال طريق السويس كبيرة مما يجعل مركز القناة المنافس بالنسبة لطريق الرأس مثلا بخصوص نقل هذه المادة مركزاً قوياً .

ولا شك أن توسط القناة على طريق السويس وتنوع المنتجات وتنوع الأسس التى يقوم عليها اختلاف الانتاج على جانبى القناة وفى كل من جانبيها فضلا عن كون القناة حلقة من طريق مائى مستمر يشمل بمجاله التجارى معظم أجزاء العالم ، وهى حلقة تقع فى نقطة تبرز حواليها الاختلافات فى الظروف الطبيعية وفى الانتاج .

كل هذه عوامل مضافة إلى ما يستخلص من المناقشات السابقة ، تؤدى إلى الاتجاه إلى أن التجارة التى تمر بقناة السويس تقوم على أسس وطيدة وأن ما يحدث من تطور فى العالم يغلب أن يزيد أهميتها التجارية ولا ينقصها .

# BIBLIOGRAPHY — المراجع


1. Bryan, Leslie Aults, *Principles of Water Transportation*, New York: The Ronald Press Company, 1939.

2. Capot-Rey, *Géographie de la circulation sur les continents*, Paris, 1946.

3. Compagnie Universelle du Canal Maritime de Suez, *Le canal de Suez*; bulletin mensuel.

4. ........., *Revue du trafic*, supplément au bulletin *Le Canal de Suez*.

5. ........., *Les navires-citernes au Canal de Suez*, supplément au bulletin *Le Canal de Suez*.

6. ........., *Note sur le 8ème programme des travaux d'amélioration du Canal*, supplément au bulletin *Le Canal de Suez*.

7. ........., *Le Canal de Suez: documents statistiques 1950*.

8. ........., *8 ème programme d'amélioration*.

9. *Commercial No. 8 (1883), Suez Canal: Returns of Shipping* and Tonnage, (a British Parliamentary Paper).

10. Fitzgerald, Percy. *The great Canal at Suez: It political, Enginnering, and Financial History, with an Account of the Struggless of its projector Ferdinand de Lesseps*, 2 Volumes, London: Tinsky Bros., 1876.

11. Hallberg. Charles W., *The Suez Canal: Its History and Diplomatic Importance*, (Doctoral Disseration, Columbia University, New York) Published by Columbia University Press, New York, 1931, in Studies in History, Economics and Public Law, edited by the Faculty of Political Science Columbia University.

12. Hoskins, Halford Loncaster, *British Roates to India*, Doctoral Dissertation. University of Pennsylvania, 1928.

13. Issa, Hassan Hussein, *Les corrents économiques comparés du Canal de Suez et du Canal de Panama*, (Thése No. 55), Génève, Imprimérie du Journal de Génève, 1938.

14. Jones, Clarence Fielden, and Darkenwald, Gordon Gerald, *Economic Geography*, (Revised edition), New York: The Macmillan Company, 1954.


---

* مراجع مأخوذة من مراجع أخرى .

15. League of Nations, *Industrialization and Foreign Trade* Princeton, N. J. (U.S.A.), 1945

16. Lesseps Ferdinand de, *Inquiry into the Opinions of the Commercial Classes of Great Britain on the Suez Ship Canal* London: John Weale, 1857.

17. ........., *Lettres. journal et documents pour servir à l'histoire du Canal de Suez*, Paris: Librairie Académique, Didier et Cie, Libraires-Editeurs 1875-1881.

18. Lyper, A.H. "The Ottoman Turks and the Routes of Oriental Trade", *The English Historical Review*, volume 30, No CXX, October 1915, 577-88.

19. Moodie. A.E, *Geography behind Politics*, London Hutchinson's University Library: Geography (Editors: S.w. wooldridge and W.G. Ealt), 1947.

20. Housbaum, Ret J., et Hutchings, G., *Compagnie Universelle du Canal de Suez*, Collection Economie du Monde, sous la direction de Christian Funck-Brentane, Editions de Clermont, Paris, 1947.

21. Ogburn, Willian Fielding, *Social Change with Respect to Culture and Original Nature*, New York: Vikng Press, 1950, New edition with supplementary chapter.

22*. *P. & O. Pocket Book (3rd issue).*

23. Renner, George T., *Human Geographу in the Air Age*, (Air Age Education Series, prepared with the cooperatio of the Civil Aeronautics Administration, sponscied by the Institute of Aeronrutical Sciences), New York: The Macmillan Company, 1942.

24. Renn, George T. and Associates, *World Economic Geography; an Introduction to Geonomico*, New York: Thomas Y. Growell Company, 1951.

25. Sakr, Iprahim, Comer Circa 1890: A Study in British Imperialism in Egypt," *Review of Economics and Business Studies*, No. 1, Third year, February 1955, 25-61, Cairo University Press, 1955.

26. ........., "The Geography of the Suez Canal", a Doctoral Dissrtation presented to Columbia University, New-York City. 1954.

27. Siegfried, André, *Suez and Panama*, Translated from the French by H. H. and Doris Hemming, New-York: Harcourt Brace and Company, 1940.

28. Smith, J. Russell and Phillips, M. Ogden, *Industoial and Commercial Geography*, New York; Henry Holt and Company, 1946 (3rd edition).

29. Staley, Eugene, *World Economic Developments Effects on Advanced Industrial Countries*, International Labour Office, No. 36, Studies and Reports, Series B (Economic Conditions), Montreal, 1744.

30. Voisin, Français Philippe, bey, *Le Canal de Suez*, 6 volumes, Paris : H. Dunod et E. Pinat et H. Dound, 1901-1906.

31. Wilson, Lieut.—Col Sir Arnold T., *The Suez Canal. Its Past, Present and Future*, London, New York, Toronto : Oxford University Press, 1939, (2nd edition).

٣٢ — شركة قناة السويس : قناة السويس ، مذكرات واحصاءات ١٩٥٠

٣٣ — فؤاد فرج : منطقة قنال السويس ومدن القنال ، بورسعيد ، السويس ، الاسماعيلية وسواها ، المجلد الثانى من سلسلة المدن المصرية ، القاهرة ( دار المعارف المصرية ) .

٣٤ — محمد عوض محمد : نهر النيل ( القاهرة — لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٨ الطبعة الثانية ) .

# تطوّر صناعة الورق فى مصر

للدكتور خليل صابات

بينما كانت شعوب أوروبا البدائية تحفر كتاباتها على عظام حيوان الرنة أو الماموث ، كان المصريون يكتبون صلواتهم وتعاليمهم على أوراق يأخذونها من البردى .. ذلك النبات المقدس الذى كان ينمو على ضفاف النيـل . وكانوا ينزعون اللحاء ويضعونها الواحـدة بجانب الأخرى ثم يلصقون أطرافها بعضها ببعض بواسطة الدعك أو الضغط .

ظل المصريون الأقدمون يحتكرون هذه الصناعة مدة طويلة الى أن اكتشف الانسان طرقا أخرى قضت على هذا الاحتكار . فقد استعمل أهل برجاموس بآسيا الصغرى فى القرن الثانى قبل الميلاد ، جلود الأغنام والماعز والعجول لصنع « البارشمان » Charta pergamina . وقد حل هذا الاختراع الجديد محل البردى المصرى الذى منع البطالسـة تصـديره حين بدأوا يكونون مكتبتهم بالاسكندرية . ثم علم أهل الصين الناس صناعة الورق بواسطة الطبخ . وجاء العرب فى القرن التاسع للميلاد فاستعملوا القطن فى هذه الصناعة (١) . وهكذا نرى أن المصريين كانوا أول شعب صنع الورق واستعمله فى الكتابة .

وأول مصـنع حديث أسس لانتـاج الورق فى مصر كان فى عهـد الحملة الفرنسية ، فقد أمر بونابرت بانشـائه لتزويد مطابع الحملة بما كانت فى حاجة اليه من ورق . وقد طبع الكورييه اجيبسيان ولاديكاد وغيرهما من مطبوعات الحملة على ورق صنع بمصر من مواد أولية محلية (٢) .

---

(١) J. H. Cattani pacha; Note sur la fabrication du papier en Egypte, L'Egypte Contemporaine, VIII° année, 1917, p. 261

(٢) Brehier; L'Egypte de 1798—1900, p. 65.

جورجى زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية ، الجزء الرابع ، ص ١١

ولما خرجت الحملة الفرنسية من مصر أخذت معها كل شيء ، فظل وادى النيل بدون مصنع للورق حوالى الثلاثين سنة . وكانت مصر تستورد ورق البروبار Brouillard من فرنسا (٣) ، وكانت تستورد الورق أيضا من البندقية . أما الورق ذو الأقمار الثلاثة فكان يصدر من توسكانيا وجنوه (٤) .
ولم نعثر فى وثائق عابدين ودار المحفوظات المصرية على ما يدل على وجود مصنع للورق الى سنة ١٨٣٠ ولو أن السائحين الفرنسيين كادلفين وبروفرى يذكران فى الجزء الأول من كتابهما عن مصر والنوبة ما يفيد أنه كانت هناك محاولة لصنع الورق فى مصر أخفقت وصرف عنها النظر مؤقتا . وقد زار هذان السائحان أرض الفراعنة خلال سنة ١٨٣٠ وطافا بكل أرجائها ولم يتركا لا صغيرة ولا كبيرة دون أن يذكراها فى كتابهما (٥) . ولا يذكر منجان فى كتابه شيئا عن صناعة الورق فى الفصل الذى يتحدث فيه عن تلك الصناعة فى مصر سنة ١٨٢٩ (٦) . كذلك لا يقول كلمة عن تلك الصناعة فى الجزء الثانى من كتابه عن تاريخ مصر فى عهد محمد على الى سنة ١٨٢٣ فقد خصص بابا للصناعة وتأثيث المصانع (٧) .

ويذكر لنا الأمير عمر طوسون أن محمدا عليا أمر بارسال يوسف العيادى الى فرنسا لتعلم العلوم الكيميائية والتدرب على صناعة الورق فى أحد مصانعه بفرنسا . وقد عاد الى مصر فى أوائل سنة ١٨٣٢ (٨) . ولكن يبدو أن الوالى لم يكن راضيا عن انتاج الورق فى مصر ، ويذكر لنا هامون الذى كان مديرا لمدرسة الطب البيطرى أنه عندما عاد أعضاء البعثة الطبية من فرنسا ذهبوا لتقديم فروض الطاعة والخضوع للباشا وتقبيل الأرض بين يديه كما كان متبعا فى ذلك العهد . وأخذ الباشا يسألهم عما تعلموه فى فرنسا الى أن وصل الى العضو الذى

---

(٣) F. Mengin: Histoire de l'Egypte, T. II, p. 406, Paris 1823.
(٤) F. Mengin; *op. cit.*, p. 414.
(٥) Ed. de Cadalvène et J. de Breuvery; L'Egypte et la Nubie T. I, Paris 1841. p. 131.
(٦) F. Mengin: Histoire Sommaire de L'Egypte. p. 21 et 22, Paris 1838.
(٧) F. Mengin: Hist. de l'Egypte sous le gouvernement de Mohammed-Ali T. II, p. 375-383, Paris 1823.
(٨) الأمير عمر طوسون ، البعثات العلمية فى عهد محمد على . . . ص ٤٣

تعلم صناعة الورق ، فقال له « وما فائدة ذلك ونحن نستورده ( أى نستورد الورق ) جاهزا » .(٩) الا أن عدم ثقة محمد على فى انتاج الورق بمصر لم يمنعه من التصريح لاحدى الشركات بتشييد مصنع لهذا الغرض . ففى يوم الأحد ١٠ ذى الحجة سنة ١٢٤٦ هـ الموافق ٢٢ مايو سنة ١٨٣١ أصدر محمد على الأمر التالى : « صرحنا الى حامله ومن معه من الشركاء بحرق الطوب والجير اللازمة لفابريقة الورق المزمع انشاؤها وايجادها بمعرفتهم وبعدم التعرض اليهم فى ذلك » (١٠) . ولكن يبدو أن أعمال البناء لم تسر على ما يرام ، فقد استغرقت حوالى الأربع سنوات بدىء بعدها التفكير فى جلب الآلات وتركيبها ، فقد صدر أمر من محمد على الى خورشيد باشا وكيل الجهادية بتاريخ ٦ صفر سنة ١٢٥٠ هـ ( يونية سنة ١٨٣٤ م ) « بأنه علم مما تقرر من حكاكيان مهندس فابريقة الورق التى صار انشاؤها حديثا أنه يلزم لعمل المهمات والآلات التى تلزم للفابريقة هنا مدة مستطيلة نحو السنة ، وعليه يشير بأنه ان أمكن عمل ذلك فى عهد قريب فيها والا يتحرر كشف ببيان ما يلزم بمعرفة المهندس المذكور وتقديمه لطرفه لمداركتها من ايطاليا كما سبق استحضارها منها » (١١) . ويستفاد من هذا الأمر أن يوسف حكاكيان أفندى عضو بعثة محمد على الى فرنسا هو الذى قام بالاشراف على انشاء هذا المصنع وأنه اقترح على الوالى أن تصنع آلاته فى مصر ويفيده بأن صنعها سوف يستغرق حوالى السنة . غير أن محمدا عليا يستكثر هذه المدة ويطلب الى المهندس اختصارها أو تحرير بيان بمعدات ذلك المصنع لشرائها من ايطاليا . وسواء جلبت الآلات من الخارج أو صنعت فى مصر فقد بدأ المصنع انتاجه فى حوالى ١٤ جمادى الأولى سنة ١٢٥٠ هـ الموافق ١٨ سبتمبر سنة ١٨٣٤ . وكان يستخدم فى صناعة الورق الملابس البالية . وقد صدر أمر من محمد على الى ناظر الجهادية فى ١٤ جمادى الأولى سنة ١٢٥٠ هـ يفيد بأن مصنع الورق ( الكاغدخانة ) بدأ انتاجه « وأن هذا الصنف يشتغلونه من الملبوسات الكهنة وما يشابهها فيشير بالتحرير من الجهادية

(٩) P. N. Hamont; L'Egypte sous Méhémèt Ali, T. II, p. 193, Paris 1843

(١٠) بيور لدى من محمد على باشا فى ١٠ ذى الحجة سنة ١٢٤٦ ، كراسات ملخصات الأوامر ، كراس ١٤ ، صفحة ٢٧٢ ، حجرة المدير ، دار المحفوظات المصرية .

(١١) امين سامى باشا ، تقويم النيل ، الجزء الثانى ، ص ٤٢٢ ، مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٢٨

الى سائر الآلايات والأورط بارسال الملبوسات المرتجعة الى ديوان الجهادية أولا بأول وبورودها ترسل الى فابريقة الورق أولى من بيعها أو اتلافها بالبقاء فضلا عما فى ذلك من الفائدة فى كثرة تشغيل الورق » (١٢) .

وكان المصنع فى أول عهده بجهة مصر القديمة تشير الى ذلك الوثيقة التى ترجمها ونشرها لنا أمين سامى باشا . فقد صدر أمر من الوالى فى غرة شعبان سنة ١٢٥٠ هـ الى خير الله أفندى ناظر الفابريقات « بتحرير كشف ببيان محال البصمخانة والورق ومعمل الكيميا بمصر القديمة التى تحت ادارته مع ايضاح العملة والاجزاجية ورجال المعمل الكيماوى وماهياتهم وكيفية تشغيلها وارساله لدرجه فى ( تاريخ روضة العمران ) » (١٣) .

ولم يكن يوسف حكاكيان أفندى متفرغا لمصنع الورق كل التفرغ بل كان يقوم بكل الأعمال الهندسية التى كان يكلفه بها الباشا يشهد على ذلك الخطاب الذى أرسله ارتين باشكرى الى عباس باشا فى ١٣ ربيع الثانى سنة ١٢٥١ هـ والذى جاء فيه « أحطت علما بالأمر العالى الذى تفضلتم به ، وقبل يومين جاء الرسم الذى أرسله لينان أفندى وما يلزم ترجمتــه وأرسلته لسليمان أفندى ليتولى ارساله الى دولتكم واليوم جاء رسم أيضا من حكاكيان أفندى فبادرت لتقديمه ولم يكن التأخير منى وانما نشأ من وجود لينان أفندى فى القناطر الخيرية وحكاكيان أفندى فى معمل الورق ، فأرجو العفو » (١٤) .

والظاهر أن الباشا لم يكن راضيا كل الرضى عن نوع الورق وكميته بدليل رغبته الملحة فى اصلاحه والنهوض به حتى يأتى انتاجه نظيفا وفيرا . ففى ٥ شوال سنة ١٢٥١ هـ الموافق ٣ فبراير سنة ١٨٣٦ م التأم عقد مجلس الملكية بناء على أمر الباشا ليبحث حالة ذلك المصنع ويقرر فى شأنه ما يحسن حاله . وقد جاء فى خلاصة تلك الجلسة ما يلى : « عليما اقتضته الادارة الخديوية فى اعطاء رابطة لتشغيل الورق وأنه صايره المداولة بالمجلس فى تحصيل الأسباب الواجبة لتحسين تشغيله وحصل التعهد من الخواجه چاكى كمياجى البصمخانة بالتشغيل

---

(١٢) أمين سامى باشا ، المصدر السابق ، ص ٤٢٦

(١٣) أمين سامى باشا المصدر السابق ، ص ٤٢٩

(١٤) الأمير محمد على : مجموعة خطابات وأوامر خاصة بالمغفور له عباس باشا الأول ، ص ٣١

وطلب قزانات وبراميل ومكبس مياه لأجل تطبيخ قطع الخرق الكهنة وتعهد معه يوسف العيادى المصرى الذى تعلم تلك الصناعة ببلاد أوروبا بأن يكون معاون معه . وقد أعطى صورة الى توريد قطع الخرق الكهنة الى الكاغدخانة ...»(١٥)
ويرسل الديوان الخديوى الى مفتش الأقاليم البحرية خطابا فى ٢٣ شوال سنة ١٢٥١ يطلب اليه فيه « تنفيذ قرار مجلس الملكية رقم ٢٨١ الصادر يوم ١٥ شوال سنة ١٢٥١ القاضى باتباع التعليمات ( المدونة فى الأصل ) لانتاج ورق أبيض ناضج فى مصنع الورق . واحالة المصنع على الخواجه جاكى كيماوى مصنع الشيت بمناسبة رفت الخواجه مارتينى الخبير فى صنع الورق والعمل على جمع الأوراق المهملة من الدواوين والمصالح وبقايا الخيط والخرق من المصانع وصنعها أوراقا جيدا وعلى العموم العمل على مافيه ترقية هذه الصناعة » (١٦) .

لقد اتضح للمجلس اذن أن مدير المصنع السابق الخواجه مارتينى لم يقم بالمهمة التى كلف بها على الوجه المرضى فيأمر برفته وتعيين الخواجه چاكى الكيماوى فى مصنع الشيت مكانه على أن يعاونه فى وظيفته الجديدة يوسف العيادى الذى أرسل فى بعثة للتخصص فى صناعة الورق فى فرنسا . ولكن يبدو لنا أن الاصلاح الذى قرره المجلس لم يكن شاملا . فقد وافق على صنع « القزانات والبراميل ومكبس المياه » فى مصانع المهمات الحربية . ويمضى عام ونصف العام دون أن تنجز تلك المصانع ما طلب اليها صنعه للكاغدخانة مما يدعو محمدا عليا الى اصدار أمره الى وكيل الجهادية فى ١٤ ربيع الثانى سنة ١٢٥٣ الموافق ١٨ يوليه سنة ١٨٣٧ بالاسراع فى انجاز « آلات الكاغدخانة الجارى تشغيلها ... حيث جارى الاهتمام فى مسألة الكاغدخانة هذه من مدة ولا كان يتيسر اتمام لوازمها حسب الغرض فينبغى المبادرة فى اتمامها » (١٧) . وعلى أى حال فان ذلك المصنع لم يستطع أن يجعل مصر تستغنى عن استيراد الورق من

(١٥) خلاصة من مجلس ملكية تاريخها ١٥ شوال ١٢٥١ هـ (٣ فبراير ١٨٣٦ م) نمرة ٨٦ تركى من دفتر مجموع أوامر ولوائح خاصة بمصالح متعددة ، ص ٧ ، مصلحة الكاغدخانة ، دار المحفوظات المصرية .

(١٦) الأمير محمد على ، المصدر السابق ، ص ٥٣

(١٧) أمر من محمد على باشا الى وكيل الجهادية فى ١٤ ربيع آخر سنة ١٢٥٣ دفتر نمرة ٢٩٤ من دفاتر الأوامر التركية . محفوظات عابدين .

الخــارج ، فقد بلغ ثمن ما اشترته من ذلك الصنف مليون فرنك خــلال عام ١٨٣٦ (١٨) ، وكان تجار الورق فى ذلك العهد فى سوق الأشرفية (١٩) • ولا يهمل بورنج فى تقريره الذى رفعه الى الحكومة البريطانية فى مارس سنة ١٨٣٩ عن مصر وكريت ، صناعة الورق وصب الحروف والطباعة ، ولكنه لايقف عندها طويلا ؛ وكان أحد الصناع الانجليز قد كتب عنها فى تقريره الذى وضـعه فى ٢٥ ديسمبر سنة ١٨٣٧ (٢٠) • وعلى الرغم من اهتمام محمد على بهذه الصناعة فقد ظلت فى مؤخرة الصناعات المصرية ذلك لأنها لم تكن شـديدة الارتبـاط بالصناعات الحربية • ومما يؤيد رأينا أن الأمير عمر طوســون لم يذكر كلمة واحدة عن صناعة الورق فى مصر فى كتابه « الصنائع والمدارس الحربية فى عهد محمد على باشا » •

ظل مصنع الورق أو الكاغدخانة على ما هو عليــه الى أن أمر محمد على وزير تجارته وشؤونه الخارجيــة أرتين بك أن يتصــل باخوان « لاسترى » Lastré ليقوموا بتدريب أحد المصريين واســمه حسن محمد ، على طريقة صنع الورق الجديدة فى مصانع ڤرنى وأولاده Verny et fils بفرنسا • وقد جاز حسن محمد هذا مدة التدريب على أحسن وجه ، وعاد الى مصر مزودا من رؤسائه بخطابات تشهد له بالبراعة فى صنع الورق (٢١) •

وكان من رأى حسن محمد أن يعاد انشاء مصنع الورق على الطريقة الحديثة المتبعة فى فرنسا والتى تقضى بشراء آلات تقوم بإنتاج الورق فتحل محل المراحل القديمة التى تنتج ورقا من نوع ردىء جــدا (٢٢) • ولو أننــا لم نعثر ضمن الوثائق على مايفيد تاريخ ارسال هذا المبعوث المصرى الى فرنسا ، الا أننا نرجح

---

(١٨) كلوت بك ، لمحة عامة الى مصر ، ترجمة محمد مسعود ، الجزء الثانى ، ص ٤٩٨ بدون تاريخ •

(١٩) كلوت بك ، المصدر السابق ، الجزء الأول ، ص ٤٣٧

(٢٠) محمد فؤاد شكرى وعبد المقصود العنانى وسيد محمد خليل ، بناء دولة مصر محمد على ص ٧٤٦

(٢١) محفوظات عابدين ، أوراق مصنع الورق ؛ بدون تاريخ ، خطاب من اخوان لاسترى الى أرتين بك L. 393 مترجم عن الفرنسية •

(٢٢) محفوظات عابدين ، المصدر السابق ، بدون تاريخ •

أنه ترك مصر فى سنة ١٨٤٣ وظل فى مارسيليا الى أغسطس سنة ١٨٤٥ (٢٣) • ويتمكن حسن محمد جال وصوله الى الوطن من اقناع أولى الأمر بوجهة نظره فيسرع أرتين بك بالكتابة الى أسطفان أفندى بباريس ليطلب اليه البحث عن آلات لصنع الورق (٢٤) • وفى العشرين من شهر نوفمبر سنة ١٨٤٥ يرسل أسطفان أفندى الى أرتين بك عطائين من شركتين مختلفتين لتوريد آلات مصنع الورق • فتطلب الشركة الأولى ٥٧٥٨٠ فرنكا بينما تطلب الثانية ٧٤٧٥٠ فرنكا. وقد رسا العطاءعلى شركة ورال ميدلتون والول Warral, Middleton and Elwell وقد تم ارسال الآلات اللازمة لصنع الورق من باريس فى ١١ أغسطس سنة ١٨٤٧ وقام بتركيبها مهندس انجليزى أرسلته الشركة خصيصا لهذا الغرض(٢٥). والظاهر أن هذه الآلات لم تشحن الى مصر دفعة واحدة ، بدليل أن الوقائع المصرية فى عددها الصادر فى ٢٥ يولية سنة ١٨٤٧ نشرت الخبر التالى : « لما كانت مصر المحروسة لا تزال تزداد فى الازدهار والجمالة والحسن والبهاء فى أيام ولى النعم ذات الخير الأعم بما أنشىء فيها من الفابريقات العديدة والأماكن المزخرفة المشيدة وكانت آخذة فى اللطافة والمحاسن والظرافة بما هو متزايد فيها من الكمالات المرعية والمحسنات البديعية ، حصل أن فبريقة الورق الكائنة خارج باب الحسينية فى مصر المحروسة السنية التى تركت أشغالها منذ مدة ، بسبب ادارتها بالدواب والمواشى المعدة وعدم اجتناء ثمرات شغلها المأمول ، جلب لها من بلاد أوروبا ما لزم من الآلات التى توافق ما استجد من الأصول ، بحيث يمكن أن يصنع فيها الورق المرغوب على حسب القياس المطلوب وأحضر سائر الأدوات اللازمة لذلك مع الأستاذ الماهر فيما هنالك ، وقد صنعت آلات الوابور اللازم لادارة العمل المذكور فى الورشة الكائنة ببولاق المخصصة للعمليات ، وقد حصل تركيب تلك الآلات والأدوات (٢٦) •يستفاد مما نشرته

---

(٢٣) محفوظات عابدين ، خطاب من اخوان لاسترى الى أرتين بك فى ٢ اغسطس سنة ١٨٤٥

(٢٤) المصدر السابق ، خطاب من اسطفان افندى الى ارتين بك فى ٧ نوفمبر سنة ١٨٤٥

(٢٥) محفوظات عابدين ، المصدر السابق ، خطاب من اسطفان افندى الى ارتين بك فى ٢٠ اغسطس سنة ١٨٤٧

(٢٦) الوقائع المصرية ، نمرة ٧٥ ، فى يوم الاثنين ثالث عشر شعبان سنة ١٢٦٣

صحيفة الوقائع أن مصنع الورق الكائن بمصر القديمة قد بطل العمل فيه وشيد بدلا منه مصنع آخر خارج باب الحسينية . وقد استبدلت الدواب والمواشى التى كانت تقوم بادارة الآلات بمحرك يدور بالبخار . وطبيعى أن يبطل العمل فترة من الزمن فى مصنع الورق وأن تمتد تلك الفترة الى سنة ١٨٤٧ كما هو واضح من الخبر الذى أوردته الوقائع المصرية .

ولكن يبدو أن اعداد المصنع لم يتم فى تلك السنة . فقد نشرت الوقائع فى عددها الصادر فى ٢٤ رجب سنة ١٢٦٤ ما يلى « قد ضوعف مقدار العملة الموجودين فى الكاغدخانة الجارى انشاؤها خارج الحسينية بمصر المحروسة وحصلت التوصية بجلب الآلات اللازمة لها من أوروبا بقصد اتمامها فى نصف شعبان الآتى »(٢٧) . وهكذا نرى أن العمل لم يبدأ فى ذلك المصنع الا فى شعبان سنة ١٢٦٤ أى أواخر عهد محمد على .

ومما لا شك فيه أن ذلك المصنع لم يعطل فى أوائل حكم عباس الأول بل ظل ينتج وقتا من الزمن الى أن قدر له التوقف مثله فى ذلك مثل غيره من المؤسسات التى حكم عليها بالاغلاق فى ذلك العهد المظلم من تاريخ مصر . الا أنه لم نعثر على وثيقة رسمية واحدة أو غير رسمية تؤيد ما نقول أو تحدد التاريخ الذى بطل فيه انتاج الورق فى ذلك المصنع .

ولما تولى سعيد الحكم قرر اعطاء المصنع تعهدا لعبد الرحيم القناوى وصناعته خباز بالقاهرة . ففى ١٢ شعبان سنة ١٢٧٢ هـ الموافق ١٧ ابريل سنة ١٨٥٦ م ، صدر أمر من الوالى الى محافظة مصر باعطاء الخباز المذكور مصلحة الكاغدخانة « التى دارت مدة على ذمة الميرى ثم بطلت » عهدة له ، على أن يدفع سنويا ثلاثمائة فرنكا و ١٠٪ من مجموع ماينتجه المصنع . وقد حددت مدة المتعهد بسبع سنين(٢٨) .

---

(٢٧) الوقائع المصرية ، نمرة ١٢٠ فى يوم الاثنين المبارك ٢٤ رجب الفرد سنة ١٢٦٤

(٢٨) امر من سعيد باشا الى محافظة مصر فى ١٢ شعبان سنة ١٢٧٢ نمرة ١٠٩ . دفتر مجموعة اوامر ولوائح خاصة بمصالح متعددة ، ص ٧ و ٨ بعنوان مصلحة الكاغدخانة . دار المحفوظات المصرية .

غير أن الشروط التى وضعها سعيد فى أمره المذكور قامت المحافظة بتعديلها وصدر بها أمر آخر فى ٢٤ يوليه سنة ١٨٥٦ . فقد صارت مدة التعهد ثلاث عشرة سنة . وكانت آلات المصنع قد فكت ووضعت فى مخازن الميرى فأخذ المتعهد على عاتقه مهمة نقلها واعادة تركيبها . ويخول البند السادس من العقد الذى أبرم مع المتعهد ، للحكومة حق الخيار « من بعد سنتين تمضى بين ابقاء الورشة بعهدته اذا حصلت الثمرة أو نزعها من يده اذا لم تحصل ثمرة — ويدفع الايجار عنده استولاه عليها وهو أيضا مخير فى تركها اذا لم يحصل له نجاح فى ادارتها » (٢٩) .

واستمر العمل بالكاغدخانة مدة السنتين اللتين نص عليهما العقد . فقد صدر أمر من سعيد باشا الى الداخلية فى ٢٣ ذى القعدة سنة ١٢٧٤ هـ الموافق ٤ يولية سنة ١٨٥٨ بشراء ما يلزم الحكومة من مصنع الورق الذى يديره القناوى (٣٠) .

ولم نعثر بعد ذلك على أية وثيقة تتصل بالكاغدخانة فى عهد سعيد ولو أننا نرجح أن المتعهد ترك المصنع قبل نهاية مدة العقد بفترة طويلة ، فالعقد ينتهى قانونا فى سنة ١٨٦٩ وشارل أدمون يذكر لنا فى كتابه الذى نشره بباريس سنة ١٨٦٧ أن المنافسة الأوروبية أضرت ببعض الصناعات التى أنشئت ارتجالا فى مصر . فقد هبط عدد المغازل فى القاهرة وأغلق مصنع للورق وآخر للزجاج . أما عن مصنع الورق فهناك أمل كبير فى اعادة انشائه ذلك أن فى مصر كميات كبيرة جدا من الخرق البالية تصدرها الآن الى الخارج فى حين أنه بالامكان استغلالها محليا فى صناعة الورق (٣١) .

والى حسين حسنى بك ناظر مطبعة بولاق يعود الفضل فى التفكير بانشاء مصنع جديد للورق فى عهد اسماعيل . فقد عثرنا بين محفوظات عابدين على

---

(٢٩) أمر من سعيد باشا الى محافظة مصر فى ٢٢ ذى القعدة سنة ١٢٧٢ نمرة ١٤٩ ، دفتر مجموعة أوامر ولوائح خاصة بمصالح متعددة . دار المحفوظات بالقلعة .

(٣٠) أمر من سعيد باشا الى الداخلية فى ٢٣ ذى القعدة سنة ١٢٧٤ نمرة ١٣٧ دفتر مجموعة اوامر ولوائح خاصة بمصالح متعددة ، ص ٧ . دار المحفوظات بالقلعة .

(٣١) Ch. Edmond; L'Egypte à L'éxposition universelle, p. 250; Paris 1867

أمر صادر من الجناب العالى الى المفتش العام للاقليم فى ٢ ربيع آخر سنة ١٢٨٤ (١٨٦٧ م) هذا نصه : « عندما جاءنى صاحب العزة حسين بك ناظر المطبعة عرض على أنه عندما كان فى انجلترا فضلا عن كونه لم يكن يتأخر عن تدبير واشتراء بعض الأشياء التى رأى أنها لازمة وضرورية للمطبعة وعن ارسالها لمصر أولا فأول ، فانه قد شاهد كذلك هناك مصنعا لانتاج الورق . ونظرا لاحتياج مصر بالبداهة الى مصنع للورق كهذا المصنع فانه قد أخذ من مدير هذا المصنع صوره وصورة للعقد وأتى بهما الى مصر وعرضهما على دون أن يرتبط بالمدير بشىء ارتباطا قطعيا فى هذا الخصوص ، وعليه فى الواقع فان المصالح الأميرية ودائرتنا ومصانع السكر تستهلك مقدارا كبيرا من الورق فى السنة ، وعلاوة على ذلك فانه سيكون له رواج كذلك بداخل البلد ؛ ومن ثم فانه من المسلم به أن لهذا المصنع فوائد كثيرة وحسنات عظيمة ولذلك فاننى قد أمرت البك الموصى اليه أن يأخذ معه حين عودته الى مصر الصورتين المذكورتين وما يتعلق بهما من تعريفات وأن يقدمها لكم ويطلعكم عليها . فبعد اطلاعكم عليها ومراجعتكم اياها بامعان ودقة ، عليكم أن توقعوا على العقد وتعملوا اللازم » (٣٢) .

ففكرة انشاء مصنع للورق فكرة نبتت فى ذهن حسين حسنى بك ناظر مطبعة بولاق أثناء وجوده فى انجلترا ، فلما عاد الى مصر عرضها على اسماعيل فوافق عليها وأمر بتنفيذها لتستفيد منها المصالح الأميرية والدائرة السنية ومصانع السكر . ويحدثنا على باشا مبارك عن ذلك المصنع خلال ترجمته لحياة حسين حسنى قائلا : وفى سنة ١٢٨٤ توجه الى لندرة ثانية فأحضر منها فابريقة الورق التى لم يوجد لها مثيل وأحكم بناءها ببولاق على شاطىء النيل بجوار المطبعة وأتقن آلاتها اتقانا زائدا وتعب فى تحسين أوضاعها تحسينا تاما ... حتى جاء منها ورق عجيب الشكل كاد يعطل ورق أوروبا . وكانت جميع مصاريفها وتكاليفها من ثمن آلاتها وخلافها من ربح المطبعة » (٣٣) .

وقد اهتم اسماعيل بهذا اهتماما كبيرا ، فأصدر أمره فى غرة جمادى الأولى الى الجهادية يطلب اليها فيه أن تخلى أرضا مساحتها ثلاثة آلاف ياردة من

---

(٣٢) محفوظات عابدين ، دفتر ٥٥٧ معية تركى ، ترجمة الأمر رقم ٣ مسلسل بتاريخ ٢ ربيع آخر سنة ١٢٨٤

(٣٣) على باشا مبارك ، الخطط التوفيقية ، الجزء الثانى ، ص ١٢١ .

ممتلكات الدائرة السنية الكائنة ببولاق الى جوار « فابريقة الورق » لكى تبنى عليها أحواض الترشيح الخاصة بالمصنع المذكور (٣٤) . ويحدد لنا الدكتور أبو الفتوح أحمد رضوان موضع ذلك المصنع فيقول انه كان على ضفة النيل بجوار المطبعة . « وكان بينه وبينها عمارة مدرسة الفنون قديما التى هى مخازن البوليس المصرى فى الوقت الحاضر . وكانت قطعة الأرض التى بنى عليها المصنع تشغلها فابريقة الجوخ منذ أيام محمد على ثم بنى مصنع الورق فى ديسمبر سنة ١٨٦٨ مكان هذه الفابريقة بعد أن أهملت ضمن ما أهمل من المصانع . وفى هذا المكان الآن ما يعرف باسم ورش كوك التى قامت مكان مصنع الورق» (٣٥) .

ويقول توفيق اسكاروس ان اسماعيل باشا أرسل عينات من النباتات المصرية الى أوروبا لتحليلها ومعرفة ما ان كانت تصلح ليصنع منها الورق . وقد أثبت الفحص صلاحية بعضها . أما أدوات المصنع وآلاته فقد اشتريت من محلات أندرسن بلندن . ولما علم تجار الورق فى مصر بعزم الخديو على انشاء مصنع للورق خفوا اليه يرجونه أن يعدل عن عزمه فأجابهم الى طلبهم وأرسل برقية الى حسين حسنى يطلب اليه فيها أن يصرف نظرا عن شراء الآلات ، غير أن الأخير أسرع بابرام عقد الشراء مع المحل الانجليزى المذكور بعد أن اتفق معه على تقديم تاريخ العقد الى ما قبل ورود برقية الخديو (٣٦) . وهكذا كتب لمصر أن ترى مرة ثانية مصنعا كاملا للورق ظل يعمل الى أوائل عهد توفيق .

وبدأ المصنع انتاجه فى سنة ١٨٧٠ وكان تابعا للدائرة السنية . أما عدد عماله فقد وصل الى مائتين وعشرين وكان انتاجه سبعين ألف رزمة من ورق الطبع وثمانية عشر طنا من ورق اللف الذى كانت تستعمله مصانع السكر (٣٧) . ويقول لنا ليمونجللى ان ذلك المصنع أنشىء من الأرباح التى جنتها الدائرة السنية من أشغال مطبعة بولاق (٣٨) .

---

(٣٤) امين سامى باشا ، تقويم النيل ، الجزء الثالث ، المجلد الثانى ، ص ٧٨٦
(٣٥) ابو الفتوح احمد رضوان ، تاريخ مطبعة بولاق ، ص ٢٠٣
(٣٦) توفيق اسكاروس ، تاريخ الطباعة فى وادى النيل ، مجلة الهلال ، السنة الثانية والعشرون ، مارس ١٩١٤
(٣٧) جورج جندى وجاك تاجر ، اسماعيل كما تصوره الوثائق الرسمية ، ص ١٧٨
(٣٨) S. Limongelli ; L'arte italiana...p. 21

وبمناسبة افتتاح ذلك المصنع كتب الشيخ ابراهيم عبد الغفار الدسوقى مقالة بعنوان : « مقالة شكرية للحضرة الاسماعيلية على انشاء دار الوراقة ذات البهجة والطلاقة » طبعت فى مطبعة بولاق على ورق وردى اللون . وليس فى المقالة على طولها كلمة واحدة فى وصف مصنع الورق هذا يمكن أن يستفيد منها المؤرخ (٣٩) .

وكتب حسين حسنى بك عن ذلك المصنع يقول : « ... فهذه المصلحة مستعدة ... لعمل جميع المشارطات فى كل نوع من أنواع الورق ما غلظ منها وما توسط وما دق .. وأما مطلوب الغرب واليمن والحجاز فلم تزل مواعيدها فى غاية الانجاز ... وهذه الأنواع المختلفة ( من الورق ) وان سهل صنعها ببلاد أوروبا بلا كلفة الا أن الكاغدخانة المصرية لما ساوت الكاغدخانات الأجنبية.. كانت مواد مصنوعاتها مما يفتخر بمدعاتها » (٤٠) . ويستطرد حسين بك حسنى قائلا : « ولما كان وجود الورق فى هذه الأوطان أمرا ضروريا فى كل زمان اهتم من سلف من ولاة الحكومة وبعض التجار ... بأن ينشئوا بها كاغدخانة ليصنع بها أنواع من الورق ... فلم يتيسر لهم حسن ادارتها ولا اتقان مشغولاتها ، فكانت مصنوعاتها مبتذلة وبقيت أدواتها معطلة فحمل بعض الناس عدم النجاح على أن هواء مصر وماءها خاليان عن الصلاح ومنهم من حمله على قلة معرفة الصناع وعدم أهليتهم ... ولم تنكشف لكل من الفريقين حقيقة الحال وخابت منهم الآمال فبقيت الحكومة ... من هذه الصناعة محرومة ... وكل من الحملين فاسد ... وذلك أن هواء وطننا ومياهه يساعدان على كل شىء مع الالتفات والنباهة ، وأهاليه مستعدون غاية الاستعداد لتعلم أى مادة من المواد موصوفون بأنهم أذكياء ألبا كما شهد لهم بذلك علماء أوروبا فاستخراج جميع الصنائع فى هذا الاقليم من الأمور المسلمة غاية التسليم (٤١) .

---

(٣٩) الشيخ ابراهيم عبد الغفار الدسوقى ، مقالة شكرية للحضرة الاسماعيلية على انشاء دار الوراقة ذات البهجة والطلاقة ، بولاق ١٢٨٨

(٤٠) حسين حسنى بك ، انموذج مصنوعات المطبعة الاميرية ، بولاق ، بدون تاريخ ، ص ٢٧ وما بعدها .

(٤١) حسين حسنى بك ، المصدر السابق ، ص ٣٠ وما بعدها .

وكان محمد أفندى حسنى وكيلا للمطبعة والكاغدخانة فى الوقت نفسه . وقد استطاع أن يتقن الأعمال الكيماوية فتمكنت الكاغدخانة بفضله من الاستغناء عن أحد المهندسين الأجنبيين اللذين أحضرا خصيصا للاشراف على المصنع . ثم لم يلبث أولو الأمر ان استغنوا عن المهندس الثانى . ولم يمض طويل وقت الا وأصبح العمال المصريون يتقنون تلك الصناعة كل الاتقان (٤٢) .

وقد عملت الكاغدخانة منذ اللحظة الأولى على جعل أسعار ورقها تنقص من خمسة عشر فى المائة الى عشرين فى المائة عن أسعار الورق المستورد من الخارج . وقد أقبل الناس اقبالا شديدا على شراء منتجات ذلك المصنع . وصدر الورق المصرى الى الحجاز والهند واليمن والى بعض جهات أوروبا (٤٣) .

وزاد انتاج الكاغدخانة زيادة كبيرة مما دعا أصحاب الشأن الى تقسيم العمال الى مجموعتين أو فرقتين تشتغل نهارا والأخرى ليلا (٤٤) ، وكان ذلك فى سنة ١٥٨٨ قبطية أى ١٨٧١ ـ ١٨٧٢ م . ولانجد أثرا لتلك المؤسسة بعد ذلك التاريخ لا فى دار المحفوظات بالقلعة حيث فقدت دفاتر استحقاقات مطبعة بولاق والكاغدخانة ولا فى محفوظات قصر عابدين . ونرجح أنها ظلت تعمل الى أوائل عهد توفيق . فقد جاء فى مقدمة الجزء الأول من كتاب « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » للشيخ عبد الرحمن الجبرتى والمطبوع ببولاق سنة ١٢٩٧ هـ ، ما يفيد أنه طبع فى عهد الخديو توفيق حيث كان حسين حسنى بك مديرا للمطبعة والكاغدخانة وكان محمد حسنى بك وكيلا لهما . وأكبر الظن أن تكون الدائرة السنية قد تنازلت عنها للحكومة كما تنازلت عن المطبعة وانتهى أمرها بالاهمال حتى بليت آلاتها ولم تعد تصلح للعمل .

---

(٤٢) حسين حسنى بك ، المصدر السابق ، ص ٣٠ وما بعدها .
(٤٣) حسين حسنى بك ، المصدر السابق ، ص ٣٠ وما بعدها .
(٤٤) دفتر استحقاقات المطبعة الكاغدخانة لسنة ١٥٨٨ قبطية ، دفتر نمرة ٤٢١ عين ١٠ مخزن ١١ محفوظات الدائرة السنية بالقلعة .

**معمل الورق المصرى :**

ظلت مصر بعد تصفية كاغدخانة اسماعيل بدون مصنع للورق الى سنة ١٨٩٧ ؛ فقد رخصت الحكومة المصرية فى ١٩ فبراير من تلك السنة « للخواجات ب . تيلكى وأولاده و م . قطاوى بك وهليفا ساكس وام . ستروس وأد . تيلكى وعزيز دبوس و ا . يعبيس وموريس د . اجيون وا . برنشيبى بأن ينشئوا فى الاسكندرية تحت مسئوليتهم شركة مساهمة تحت عنوان ( معمل الورق المصرى ) بحيث لا يترتب على هذه الرخصة أدنى مسئولية تعود فى حال من الأحوال على الحكومة وبشرط أن يتبع المذكورون فى ذلك قوانين القطر وعوائده ونصوص النظامنامة المرفقة صورة منها بأمرنا هذا وعليها امضاآتهم » . وقد نص فى الترخيص على أن الشركة المذكورة ليس لها أدنى حق امتياز أو احتكار بأية صفة كانت (٤٥) .

وفى سنة ١٩١٧ نشر يوسف قطاوى باشا مذكرة عن صناعة الورق فى مصر قال فيها ان مشاريع كثيرة لصناعة الورق درست فى عهود مختلفة وقدمت الى لجنة التجارة والصناعة التى يرأسها اسماعيل صدقى . ويقسم صاحب المذكرة تلك المشاريع الى أقسام ثلاثة وهى : صناعة اللب أو اللبـاب وصناعة ورق التغليف ، وصناعة الورق بأنواعه المختلفة .

وقد درس مشروع صناعة الورق فى مصر دراسة وافية قبل الحرب العالمية الأولى ، غير أن قيام تلك الحرب حال دون تحقيقه . وكان يوسف قطاوى باشا قد قام بدراسة هذا المشروع دراسة مستفيضة سنة ١٩١٧ توطئة لتنفيذه حالما تضع الحرب أوزارها . وينتهى قطاوى باشا من دراسته هذه بالشكوى المرة من أصحاب رؤوس الأموال الذين امتنعوا الى ذلك العهد من تمويل مثل هذا المشروع الحيوى الذى ثبت بالأرقام انتظار نجاحه من جميع نواحيه (٤٦) .

والى سنة ١٩٢٨ لم يكن فى مصر الا مصنع ورق واحد يحدثنا عنه تقويم المطبعة الأميرية . وكان هذا المصنع يقوم بانتاج ورق اللف والورق المقوى

---

(٤٥) الوقائع المصرية ، نمرة ٢٤ ، يوم الاربعاء ٢٢ رمضان المكرم سنة ١٣١٤هـ الموافق ٢٤ فبراير سنة ١٨٩٧ م .

(٤٦) J. A. Cattaui Pacha; Note sur la fabrication du papier en Egypte, p. 261 et sq., L'Egypte Contemporaine.

( الكرتون ) بمقدار ثلاثة آلاف طن فى السنة . ويشتغل فيه ٥٠٠ عامل جلهم من المصريين (٤٧) . وأكبر الظن أن هـذا المصنع هو مصـنع لاجـوداكيس بالاسكندرية الذى أسسه أحد اليونانيين ويدعى چون لاجـوداكيس وكانت تلك المؤسسة الأولى من نوعها فى صناعة الورق الحـديثة . ولمـا توفى چون لاجوداكيس خلفه ولده قسطنطين وفى عهده نما المصنع وزاد انتاجه زيادة كبيرة.

وكان المصنع فى نشأته الأولى لا ينتج أكثر من ستة أطنان فى اليوم من ورق عرض ١٥٠ سم . وفى سنة ١٩٢٢ ارتفع الانتاج الى عشرة أطنان وأصبح عرض الورق ١٦٠ سم . وفى سنة ١٩٣٥ أقام مصنع لاجوداكيس مصنعا جديدا ينتج يوميا ٢٥ طنا من ورق يبلغ عرضه مترين وبالاضافة الى المصنع القديم أصبحت تلك المؤسسة تنتج ٤٠ طنا من الورق فى اليوم الواحد . وتستخدم فى هـذه الصناعة فضلات الورق والمنسوجات ولب السليلوز . وكان المصنع فى أول أمره لا ينتج الا ورق التعبئـة الخشن الذى يزن المتر المربع منـه من ٢٠٠ جم الى ٣٠٠ جم . أما اليوم ففى استطاعة المصنع أن ينتج أنواعا مختلفة من ورق التعبئة يتراوح وزن المتر منها بين ٥٠ و ٣٥٠ جراما . كما ينتج أنواعا من ورق الكرتون تصل زنة أثقلها الى ٦٠٠ جم للمتر المربع . ويعمل فى ذلك المصنع حوالى ٥٠٠ عامل (٤٨) . ولا يقوم بانتاج ورق للطباعة .

### شركة الورق الأهليـة

هى الشركة المصرية الوحيدة التى تقوم بصنع ورق الطباعة . والى حسن نشأت ( باشا ) يعود فضل تأسيس تلك الشركة . فقد فكر فى هـذا المشروع الضخم سنة ١٩٢٩ حين كان عضوا من أعضاء السلك السياسى المصرى ، ودرسه دراسة وافية مع خبراء فى تلك الصناعة . وفى سنة ١٩٣٢ قام بتكوين لجنة من كبار رجال المال والصناعة لتقوم ببحث المشروع على ضوء ما انتهت اليه دراسة حسن نشأت بالاشتراك مع الخبراء الأجانب . وفى السادس والعشرين من شهر مايو سنة ١٩٣٤ صدر مرسوم بتأسيس هذه الشركة . غير أن الأبحـاث الفنية الخاصة بتلك الصناعة فى مصر لم تستكمل الا فى سنة ١٩٣٧ ، فبدىء عندئذ

---

(٤٧) تقويم سنة ١٩٢٨ ، المطبعة الأميرية ، ص ٣٣٢

(٤٨) الكتاب الذهبى لاتحاد الصناعات المصرية ، ص ٢٢٧ ، سنة ١٩٤٨

باستيراد المهمات والآلات والمعـدات اللازمة وقد تم ورودها فى شهر سبتمبر من سنة ١٩٣٩، بعد اعلان الحرب ، عدا توربين المحطة الرئيسية • غير أن ظروف الحرب حالت دون ادارة المصنع الذى بدأ انتـاجه سنة ١٩٤٢ • وكان يقدم صنفين من الورق والكرتون • ويستخدم مصنع شركة الورق الأهلية قش الأرز كمادة أولية •

وفى سنة ١٩٤٧ اشترت الشركة مصنعا جديدا وهو ينتج ٢٥ طنا فى اليوم من الورق الأبيض وورق الجرائد منذ عام ١٩٤٨ (٤٩) •

ويعتبر مصنع تلك الشركة أكبر مصنع من نوعه فى مصر • وقد استوردت آلاته جميعا من ألمانيـا • ويبلغ رأس مـال الشركة ٥٤٠٠٠٠ جنيه مصرى والمصنع فى الطابية بين الاسكندرية ورشيد (٥٠) •

والى جانب شركة الورق الأهلية ومصنع لاجوداكيس ، قامت خلال الحرب الأخيرة مصانع يدوية صغيرة لانتاج ورق التعبئة والكرتون العادى (٥١) نذكر منها شركة الصناعات المتحدة والمصنع المصرى للورق •

وما زالت المطـابع المصرية تعتمـد على الورق المصنوع فى الخـارج كل الأعتماد ، فقد استـورد فى المدة الواقعـة بين ينـاير ويونيـه سنة ١٩٥٠ ١٣٨٧٨٩٨١ كيلو جراما فى مقابل ١٣٦٥٢٩٥٧ كيلو جراما من ينـاير الى ديسمبر سنة ١٩٤٩ (٥٢) •

وقد حدت شدة حاجة مصر الى الورق ببعض أصحاب رؤوس الأموال أن يفكروا فى انشاء مصنع ينتج ورق الطباعة محليـا • وقد اتفق المهندس أحمد عبود مع احدى الشركات الأمريكية الكبرى على انشاء مصنع للورق فى مصر لحسابه • والمنتظر أن يعتمد ذلك المصنع على « مصاصة القصب » فى صنع الورق • وستبلغ تكاليف المصنع ستة ملايين دولار (٥٣) •

---

(٤٩) المصدر السابق ، ص ٢٣٧ وما بعدها .

(٥٠) الكتاب السنوى لاتحاد الصـناعات المصرية ، عام ١٩٥٠ – ١٩٥١ ، ص ١٢

(٥١) الكتاب الذهبى لاتحاد الصناعات المصرية ، ص ٢٣٨

(٥٢) الكتاب السنوى لاتحاد الصناعات المصرية ، ص ١٣٦ ، ١٣٧

(٥٣) الأهرام فى ١٧ مايو سنة ١٩٥١

وتقدم بعد ذلك أحد الخبراء الفرنسيين بتقرير عن انشاء مصنع للورق فى مصر يستطيع أن يمد البلاد بما هى فى حاجة اليه من هذه السلعة وأن يصدر الفائض الى الخارج • وقدرت نفقات هذا المشروع بمليون ومائتى ألف جنيه • واقترح أن تديره شركة مساهمة من أصحاب الصحف ورجال الأعمال • وعرض أن تختار له أرضا على بعد ستة كيلو مترات شمالى مدينة المنصورة (٥٤) •

وفى شهر مايو سنة ١٩٥٢ أرسل الملحق التجارى لمصر فى بروكسل الى الجهات المختصة يخبرها أن بعض الهيئات فى بلچيكا ترغب فى تأسيس مصنع للورق فى مصر برأس مال مصرى بلچيكى (٥٥) •

لقد أصبح عدد المؤسسات المنتجة للورق فى الاقليم الجنوبى ست من سنة ١٩٥٤ الى سنة ١٩٥٨ ، هذا بالاضافة الى شركة راكتا التى لم تبدأ انتاجها بعد •

وقد أنتجت هذه المؤسسات من ورق اللف ٢٠٢٠٤ أطنان فى سنة ١٩٥٨ أنتجت من ورق الكرتون ١٥٨٧٨ طنا فى السنة نفسها • ولم يزد انتاج ورق الباستيل على ٧٦٣ طنا • أما ورق الطباعة فلم ينتج منه سوى ٣٤٣١ طنا

---

(٥٤) الاهرام فى ٣ يونية سنة ١٩٥١

(٥٥) الاهرام فى ٩ مايو سنة ١٩٥٢

# الفرسان والفروسية فى إتيوبيا

## فى العصور الوسطى

للدكتور زاهر رياض

مدرس التاريخ بمعهد الدراسات الافريقية

---

**قيام الدويلات والممالك الأتيوبية :**

كان قيام الدويلات الصغيرة التى تتصارع فيما بينها من أجل السلطة والنفوذ وعدم وجود الحكومة المركزية التى تستطيع فرض سلطتها على أجزاء البلاد الا فى النادر أمرا طبيعيا فى أتيوبيا . طالما هى بلاد جبلية قاسية تمتد فيها سلاسل الجبال لتقف دون اتصال الوديان والهضاب القليلة الارتفاع نسبيا . كما قامت بها الجبال التى هيأها تكوينها لأن تكون مراكز حصينة يتخذها الزعماء مراقب يبنون عليها قلاعهم وعبرت كلمة أمبا አምባ عن كل من هذا النوع من الموائد ذات الجوانب شديدة الانحدار وكذلك عن القلعة التى تبنى عليها . فحملتها بعض البلاد ذات الأهمية الاستراتيجية مثل مدينة أمبا فى اقليم أمهرا شرقى بحيرة تسانا وأمبا ألاجى فى جنوبى تجرى . كما حملت بعض البلاد أسماء أضيفت اليها كلمة دبرا ደብረ وهو الجبل المسطح القمة مثل دبرا ماركوس فى جودجام . ودبرا برهان فى سلالى . ودبرا تابور فى بجه مدر .

ولذا نشأ الأتيوبى حربى النزعة يجيد فن القتال فهو يقضى حياته كلها أما غازيا أو مغزوا .

وقد قرن قيام الفروسية فى أوروبا بعهد الاقطاع ولذا وقع كثير من الكتاب الذين كتبوا عن أتيوبيا فى كثير من الخطأ حين ظنوا قيام عهد اقطاعى فى أتيوبيا يماثل هذا الذى قام فى أوروبا فأكثروا فى كتاباتهم من استعمال كلمة Feudal

وأطلقوها على بعض مظاهر الحياة الاجتماعية والسياسية التى قامت فى أتيوبيا فى عصرها الوسيط •

وقد قامت فى أتيوبيا ــ نتيجة لبيئتها الجبلية ــ بعض الدويلات التى تنازعت فيما بينها • ونتج عن هذا التنازع خضوع بعضها للبعض الآخر • أو خضوع عدد من هذه الدويلات لزعيم واحد لمدة معينة فكان ذلك مدعاة لهذا الخطأ • وظنوا أن هذا الخضوع انما هو مظهر من مظاهر التبعية التى جرت فى أوروبا فى العصور الوسطى •

ومن المعروف أن النظام الاقطاعى فى أوروبا قام نتيجة لضعف الملكية وعجزها عن أن تضفى حمايتها على أطراف الدولة فلجأ الناس الى الاشراف الذين رتبوا على حمايتهم لهؤلاء الناس حقوقا عليهم • ثم التزامات على الملك الذى أعطاهم الأرض• ومن ثم أصبح النظام الاقطاعى هو تقسيم الملك لدولته الى اقطاعات يعين لكل منها أميرا يتولى حماية أهلهـا نيـابة عن الملك على أن يرتب له على هؤلاء الأهالى حقوقا خاصة نظير هذه الحماية • وحقوقا أخرى تجاه الملك نظير هذا الاقطاع • ولما كانت الزراعة هى أساس الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى أوروبا فى هذا العصر أرتبط الاقطاع بالأرض (٢) وبذلك أصـبح الشعب فى جميع الاقطاعات طبقة محمية والنبلاء فى جميع الاقطاعات طبقة خاصة حامية (٣) فانقسم المجتمع الأوروبى الى طبقتين طبقة متبوعة من الأشراف تقوم مهمتها على حماية الأهالى وهى فى نفس الوقت تابعة للملك الذى يملك حق ســلب النبيل اقطاعه اذا أهمل أو قصر فى القيام بالتزاماته (٤) وطبقة تابعة لا تملك الا حق التبعيــة •

وكانت هبة الملك الأرض للنبيل التابع له لا يترتب عليها أية حقوق قضائية كحق البيع أو التصرف فى الأرض على أى وجه كان (٥) •

---

(١) Thorndike p. 222.
(٢) Ibid. p. 227.
(٣) Ibid. p. 229.
(٤) Ibid. p 230.
(٥) Ibid. p. 229.

وكان هذا ( المالك ) الجديد ( يملك ) الأرض ومن عليها من الناس • كلهم يعمل لمصلحته (٦) وكان جميع الذين يعيشون على الأرض عبيدا له يعملون فى أرضه لمدة معينة كل عام بل يستطيع النبيل التصرف فيهم بالبيع • وان كان لا يملك حق بيع المرأة دون زوجها أو الابنة دون والديها (٧) •

**العلاقة بين الامبراطور والملوك فى أثيوبيا**

ولكن الحال لم يكن كذلك فى أثيوبيا فقد ترتب على قوة أحد الملوك وضعف الولايات الأخرى خضوعها لهذا الملك القوى الذى استطاع فرض سلطته بحد السيف طالما تمكنه قوته من هذا التسلط وطالما كان ضعف التابع يحول دون تحرره • وترتب على هذا الخضوع توقيع شروط أو التعارف على شروط تبيح لكل من التابع والمتبوع بعض الحقوق على الآخر (٨) وقد رأينا مثلا من هذا النظام فى الاتفاق الذى عقده الامبراطور يكونو أملاك ( ١٢٧٠ - ١٢٨٥ ) مع ملوك لاستا عن طريق الانبا تكلا هيمانوت (٩) وقد نص هذا الاتفاق على أن يكون التاج ولقب ملك الملوك من حق الامبراطور يكونو املاك • وان يحتفظ ملك لاستا بولاية ( مملكته ) وأن يحمل لقب نجوس ، وأن يجلس على عرش ذهبى مماثل لعرش الامبراطور وأن تكون له شارات ملكية مصنوعة من الفضة وكذلك سنان رمحه وطبوله محلاة بالفضة أيضا (١٠) •

وكان جميع من يعيشون فى مملكة الملك الأثيوبى من الأحرار • كل يعمل لمصلحته الخاصة وهو وان كان لا يملك الأرض فملكية الملك لها من الوجهة النظرية فقط فهو لا يبيعها ولا يتنازل عنها •

وليس معنى ذلك أن الرق لم يكن سائدا فى أثيوبيا فى العصور الوسطى بل كان موجودا ولكنه كان رقا قبليا، أى يستطيع الفرد أن يسترق فردا آخر من قبيلة غير سامية فقد كان الرق حتى القرن السادس عشر محصورا فى القبائل

---

(٦) Ibid. p. 222.
(٧) Ibid. p. 223.
(٨) Morié T. II. p. 183.
(٩) Conti Rossini, Revue Semetique October 1902
(١٠) Budge V. I. p. 26.

الافريقية التى فرضت القبائل السامية التى أتت من جزيرة العرب عليها سيادتها وسيطرتها . حتى اذا جاء الجلا فى بداية العصور الحديثة مكنتهم قوتهم من أن يستعبدوا القبائل السامية الضعيفة مثل الجوراجى (١١) .

واذا كان للملك الأتيوبى حق نظر قضايا الرعية الا أنه لم يكن يحصل على رسوم تدخل الى خزينته كما أنه لم يحصل على الغرامات بل يحصل عليها المدعى كما يحصل على الفدية بينما كانت كل هذه تذهب الى خزينة النبيل فى أوروبا(١٢).

ولعل أعظم الشبه بين النظامين أن كلا من النبيل فى أوروبا . والملك فى أثيوبيا يملك أن يهب قطعا من الأرض لمن أدى له خدمة خاصة . وكان هذا التابع الجديد فى أثيوبيا يملك حق التصرف فى أرضه على أى صورة يشاء (١٣) بينما لم يكن زميله الأوروبى يملك هذا الحق . كما أن أعظم الفروق بين النظامين أن الملك فى أوروبا كان يملك حق سلب تابعه ما منحه اياه اذا أخل بحق الولاء . أو يهبها لغير وارثها . بينما لم يكن لملك الملوك فى أثيوبيا ( نجوس نجست ) هذا الحق ، فوارث الولاية أو ملكها يستطيع وراثة والده دون تدخل من أحد . واذا ثار ملك الولاية على ملك الملوك فان هذا الأخير يملك حق قتل الأول أثناء حربه معه ولكنه لا يملك حق عزله أو منع ولده من وراثته .

وعلى ذلك أصبح النظام الذى حدد العلاقة بين الولايات ( الممالك ) الأثيوبية وملك الملوك أبعد ما يكون عن النظام الاقطاعى ما دام ليس هناك اقطاع يقطع ويسلب . هذا الى أن ملك الولاية ومعه محاربوها وشعبها يكونون كلا متحدا متجانسا . ولا يقوم بين الملوك اتحاد يشبه ذلك الذى قام بين النبلاء وجعل منهم طبقة خاصة مميزة . كما أن المحاربين لم يكونوا طبقة خاصة تلقت تدريبا خاصا . وتتمتع بحقوق خاصة لقاء ما تقوم به من واجبات خاصة كما هو الحال فى أوروبا . بل ان جميع شعب الولاية هو الذى يخرج للحرب مع ملكه يحارب اذا أمره ، وان لم يعرف من يحارب ولماذا يحارب . وبذلك أصبحت الحرب مهنة لكل أثيوبى . يخرج اليها اذا أمره سيده بذلك .

---

(١١) سيرة الحبشة ص ١٦ من النص .

(١٢) Thorndike p. 224.

(١٣) Thorndike p. 224.

ولعل شعب الولاية فى أتيوبيا كان أشبه ما يكون فى أوروبا بطبقة الاتباع Comomandors الذين ربطوا أنفسهم بحماية سيدهم لهم . وهم الذين كونوا طبقة المحاربين وان اختلفوا عنهم فى أن أولادهم يظلون أحرارا كأبائهم بينما كان أولاد الأوروبيين يصبحون وينشأون فى حالة عبودية (١٤) .

**نظام الفرسان فى اتيوبيا**

ولما كان الناس فى أتيوبيا هم الذين يدبرون أمر أنفسهم فى الحرب ويتكلفون بتدبير سلاحهم . اختلفت مراتب هـذا الاعـداد . وهم وان اختلفوا فى ذلك اتحدوا فى أن يكون الحصان هو العدة الأولى لخوض المعركة وهو كثير العدد قليل الكلفة فى بلاد أعدتها الطبيعة لتكون بيئة رعوية حيث لا يكلفهم صيانة هذا الحيوان شيئا مطلقا سواء فى وقت المطر أو الجفاف . ولكن وجدت الى جانبهم الطبقة القادرة التى استطاعت تدبير أمر نفسها بصورة لائقة . وأغلب الظن أن هؤلاء اقتصروا على من يمتون بصلة ما الى الملك والذين مكنتهم ثروتهم من أن يرتفعوا الى مستوى خاص وهؤلاء هم الذين نعنيهم بطبقة الفرسان .

ولعل أقدم الوثائق التى لدينا والتى تعطى فكرة عن قيام هـذا النظام فى أتيوبيا ترجع الى القرن الرابع الميلادى . وهى أربعة نقوش للملك عيزانا عثرت عليها البعثة الألمانية فى اكسوم سنة ١٩٠٥ وهى مكتوبة بثلاث لغات ، الاغريقية والسبأية والحبشية وهى تذكر حملات هذا الملك التى قام بها لاخضاع البلاد المجاورة ولذا يصف لنا هذا الملك نفسه بأنه ( ملك اكسـوم وحمـير وريدان وأتيوبيا وسبأ وصالحين وسيامو وبيجا وكاسو ) .

وكانت أنجح حملات هذا الملك حملته الرابعة التى وجهها الى مملكتى علوة ومرو اللتين كانتا تقعان عند نقطتى التقاء النيل الأزرق بالنيـل ونهر العطبرة بالنيل وهما اللتان عناهما الملك بكلمة كاسو وكانت هاتان المملكتان على درجة من التقدم وعرفتا الكثير من الحضارة المصرية وخاصة جيوشها ونظامها الحربى كما عرفتا النحاس والبرونز والحديد (١٥) وكانت جيوشهما تتكون من المشاة والفرسان لأن النص يذكر فى سطره التاسع عشر وما يليه .

---

(١٤) Thorndike p. 227

(١٥) Budge. V. T. p. 250.

١٩ — وأسرنا من معسكرهم من الرجال •

٢٠ — أربعين ومن النساء والأولاد ١٦٥ ومجموعهم •

٢١ — مائتان وخمسة وحملنا معنا من الغنم ٣١٫٩٠٠

٢٢ — و٥٧ من الماشية و٨٢٧ من الدواب •

٢٣ — ورجع الملك الى شعبه بسلام (١٦) •

ولا يستطيع الجيش أن يقهر فرسان الأعداء الا اذا كان فرسانه أكثر عددا وأوفر عدة وأشد مرانا على الحرب • ولذا كان هذا النص دليلا على وجـود سلاح الفرسان ضمن أسلحة الجيش الأتيوبى فى هذا العصر •

كما نعرف أيضا أن الحصان كان مستعملا فى شبه الجزيرة العربية فى زمن سابق للقرن الرابع الميلادى وكان يستعمل فى تكوين فرق محاربة فلن يتـاح للملك عيزانا أن يبسط سيطرته على ( حمير وريدان وسبأ ) الا اذا كان له من الفرسان من يستطيعون فرض سلتطهم •

وفى سطر آخر من النقش الثانى الذى يذكر حملته على قبيلة سارينا التى تسكن اقليم آفان يذكر الملك أنه سـار الى أتاجاو Atagau وجمـع المـال والدواب (١٧) •

فهو يقصد بكلمة الدواب هنا شيئا من الجمال والماشية التى ذكرها فى النص السابق فليست غير الفرس والبغال •

وليس لدينا من الوثائق والنصوص أو النقوش ما نعتمد عليه بعد ذلك فى التاريخ الأتيوبى حتى سنة ١٢٦٨ م حين قامت الأسرة السليمانية فى تاجيلاط فى اقليم شوا • وبدأ منذ ذلك الوقت عهد التدوين فى التاريخ الأثيوبى • اذ أصبح من بين موظفى القصر الملكى موظف خاص عهد اليه أمر تدوين الحوادث الهامة التى تقـع فى عصر الملك وكذلك أمر حفظ الوثائق الهـامة فى الدولة وبذلك أصبحت هناك ادارة خاصة تستطيع أن تطلق عليها بألفاظنا الحديثـة « ادارة السجلات » وحملت هذه الادارة اسم تزاز ትዛዝ وحمل صاحبها اسم تصهاف

(١٦) Budge V. I. p. 249.

(١٧) Ibid p. 246.

تزاز ومن ثم استطعنا أن نعرف الكثير من أخبار الفرسان والدور الذى قاموا به فى تاريخ أتيوبيا .

### اسباب انتعاش الفروسية فى اتيوبيا

وشهدت هذه الفترة من تاريخ أتيوبيا (١٢٦٨ — ١٦٣٢) كثيرا من الحروب التى قاست منها أتيوبيا كثيرا . فقد شن عمر ولسمع وأولاده وكان آخرهم صبر الدين [١٨] سلسلة من الحروب على مملكة شوا الاسلامية خلال المدة من ١٢٣٩ الى ١٢٨٠ [١٩] حتى تمكنوا من اخضاعها واشترك فى هذه الحروب كثير من الفرسان [٢٠] كما شن تجار الرقيق ومن والاهم من سلاطين الولايات الاسلامية وسلطان اليمن سلسلة أخرى من الحروب استمرت من ١٢٧٣ حتى ١٥١٧ [٢١] .

وفى سنة ١٥٢٦ قام الامام أحمد بن ابراهيم الملقب بالأشول بغزوته الكبرى تؤيده تركيا من أجل اقامة مملكة اسلامية فى أتيوبيا . فكانت سلسلة أخرى من الحروب اضطر الأباطرة ( ملك الملوك ) الى خوضها متتابعين حتى قضى على حركته سنة ١٥٤٢ بمعونة البرتغاليين . وأخيرا قام الكاثوليك يحاولون فرض مذهبهم على البلاد لقاء الخدمات التى أدوها للاباطرة حين تغلبوا على الامام أحمد . فكانت سلسلة رابعة من الحروب لم تنته الا فى سنة ١٦٤٢ فكانت هذه السلسلة المتوالية من الحروب التى خاضتها أثيوبيا فى عصرها الوسيط سببا فى انتعاش الفروسية .

وقد انتهز كثير من الملوك فرصة هذه الحروب التى انغمس فيها الأباطرة المتوالون ليثوروا عليهم ويتحرروا من سلطتهم فقامت حروب أخرى بين الأباطرة وهؤلاء الملوك الثائرين [٢٢] أضافت الى الأسباب السالفة سببا آخر فى انتعاش الفرسان والفروسية سواء بين صفوف الجيوش الامبراطورية أو بين صفوف الثائرين .

---

(١٨) Cerrulli p. 7.

(١٩) المقريزى ص ١٠

(٢٠) من خطاب يكونوا ملاك الى الظاهر بيبرس صبح الأعشى ج ٨ ص ٣٩

(٢١) المقريزى . الالمام ص ١٢ وما يليها .

(٢٢) Budge V. II. p. 352.

وفى خلال هذه الأزمات دأب قطاع الطريق من عصابات الشفتا على الاخلال بالأمن فكانوا يكثرون من الهجوم على القرى لسلب سكانها الآمنين ما يملكون أو الهجوم على قوافل التجارة خلال سيرها من مراكز الانتاج الى الموانى الساحلية (٢٣) وحدث فى كثير من الأحيان أن استعان الأمراء بهذه العصابات لايقاع الاضطراب فى أنحاء البلاد ضد السلطة المركزية فكانت كل هذه الأسباب مجتمعة سببا فى انتعاش الفروسية وارتفاع شأن الفرسان الى مكان مرموق فى المجتمع الأتيوبى .

## حب الأتيوبيين للخيل والفروسية

وقد عنى المجتمع الأتيوبى بتدريب أفراده على ركوب الخيل حتى أصبح الحصان جزءا من حياته . كما عنى الملوك دائما بتربية أولادهم تربية عسكرية رفيعة كان عمادها ركوب الخيل واللعب بالسيف واستعمال مختلف الأسلحة الحربية فنجد كاتب تاريخ حياة الملك جلاوديوس ( ١٥٤٠ — ١٥٥٨ ) يعطى هذا التعليم أهمية خاصة فيقول عنه « أن أباه فضله على جميع اخوته . فعلمه فضائل الرجال . وكبر جلاوديوس بنعمة الروح القدس . وتعلم جميع مبادئ الكنيسة فى أيام شبابه كما تعلم ركوب الخيل والرمى بالقوس . وصيد الحيوانات . كما تعلم كل ما يختص بفن الحرب كما هى عادة أولاد الملوك وقد عضدته قوة الله فى هذا السبيل » (٢٤) كما تذكر المصادر أن داود ( ١٣٨٠ — ١٤١١ ) كان — كجميع الأتيوبيين — محبا للخيل ذا نظرة خبيرة بها وبينما هو يفحص احداها ذات يوم رفسه بقدمه فكسر جمجمته فمات (٢٥) وأحب بعضهم خيولهم الى حد اطلاق أسماء معينة عليها (٢٦) بل بلغ من حب عمدا صيون ( ١٣١٢ — ١٣٤٢ ) لفرسه أن عمده بالماء المقدس الذى حملته زوجته اليه من نهر الأردن (٢٧) ومن الطبيعى أن يكون فرس الملك معززا لا يركبه أحد غيره الا اذا كان هذا الشخص مساويا للملك فى المكانة فقد سمح الامبراطور

---

(٢٣) Bruce Vol. III p. 46.
(٢٤) Histoire de Galawdewos p. 126.
(٢٥) Budge Vol. I. p.
(٢٦) Bruce Vol. III p. 96.
(٢٧) Budge Vol. I p. 214.

جلاوديوس للأتشجى ــ وهو رئيس الرهبان الوطنيين ــ بركوب فرسه الخاص فعــد ذلك شرفا كبــيرا (٢٨) وكان نظامهم الحربى يقضى بأن يخرج الملك أو الامبراطور على رأس جيشه يقود المعارك بل ويشترك فيها الى جــانب جنوده وكانت قوة الفرســـان أكثر عــددا من قوة المشـــاة بل كان الجيش كله من الفرســان (٢٩) •

وتقول القصة التى نشأت بين الحجاج المسحيين الذين كانوا يزورون بيت المقدس خلال القرون الوسطى عن وجود ملك اســود يحكم بلادا مسيحية فى جنوب مصر أطلقوا عليه اسم القس حنا ويرددون أنه أرسل الى الملك ايمانويل الأول (١١٤٣ ــ ١١٨٠) فى سنة ١١٦٥ رسالة يذكر فيها أنه يحكم اثنين وسبعين ملكا وعنده عشرون مطرانا واثنى عشر أسقفا ، وأنه يذهب الى الحرب ومعــه ثلاثة عشر صليبا من الذهب كل واحد منها على رأس عشرة آلاف فارس ومعه مائة ألف من المشاه (٢٩) م•

ونحن وان كنا لا نعرف منشأ هذه الأسطورة ولا من هو الملك الذى كتب الى الملك ايمانويل الا أنها تدل على شديد اهتمام الأثيوبيين بسلاح الفرســان فى الجيش الأثيوبى وكثرة عدد أفراده الذين بلغوا فى هذا العصر المتقدم على ما تقول القصــة مائة وثلاثين ألفا بينما لم يزد عدد المشــاة عن المائة ألف مع تسليمنا بالمبالغة فى كل من الرقمين • وأغلب الظن أن يكون أصل هذه القصة أن الحجاج الأوروبيين كانوا يرون الحجاج الأثيوبيين يترددون على بيت المقدس لزيارتها فى موسم الحج وربما يقدمون برا ومعهم خيولهم • فكانوا يسألون عن بلادهم فيجيبونهم اجابات لا يستطيع الحجاج أن يفهموا منها أكثر من أن بلادهم تقع الى الجنوب من مصر وأن لهم ملك أسود وأن لهم جيش قوى أغلب أفراده من الفرسان فألفوا من مجموعة هذا كله قصة هذا الملك الأسود الذى يقــود هذا الجيش الذى يتكون أغلبه من الفرسان •

ولما كان القرن الثانى عشر الميلادى يصادف الوقت الذى انتكست فيه قوة المسيحين فى الشرق بعد حملتهم الصليبية الرابعة طافت بخيال هؤلاء المسيحيين

(٢٨) Life of Gelawdewos p. 152.
(٢٩) Ibid. p. 135.
(٢٩)م Jones, History of Abyssinia pp. 59-60.

أحلام مجيء هذا الملك المسيحى الذى سيأتى من خلف أملاك المسلمين ليعيد الى المسيحية قوتها فى بيت المقدس ويعيد هذا المكان الى حوزة المسيحيين .

### القاب الفرسان

وتدل الرتب العسكرية التى يمنحها الأباطرة لفرسانهم على أنهم كانوا يقسمون قوة الفرسان الى ثلاثة أقسام رئيسية يرأس كلا منها قائد عام . ذو رتبة كبيرة . وينقسم الجيش الى قلب وجناحين . وكان Kanya Zmatch هو قائد الجناح الأيمن و Gera Zmatch قائد الجناح الأيسر بينما كان Dadja Zmatch هو قائد القلب . ويتقدم جميع هذه الأقسام قائد أكبر يسمى Fiturari ومعناها الذى يسير فى الأمام . أما القائد العام فهو الرأس Ras وقد يحتوى الجيش على عدد من الرءوس اذ أن الجيش الامبراطورى كان مكونا من جملة جيوش قدم كل واحد منها من مملكة تحت سلطته ويتولى جيش المملكة راسها فيقال ( جودجام راس . أو تجرى راس ) أو قائد جيشها ولقب الرأس هو الذى يمنحه الامبراطور لقواد الجيوش التابعة أما غير ذلك من الرتب فيمنحه الملك المحلى فى حدود مملكته ويمنحها الامبراطور فى مملكته الخاصة . وهؤلاء الروس هم الذين يحيطون بالامبراطور ويكونون مجلسه الحربى الذى يعقد قبل خوض المعركة كى يعطى الرأى النهائى (٣٠) ويستشيرهم الملك فى كل الأمور الحربية وغالبا ما ينزل عند رأيهم . ولكل من هؤلاء الروس هيئة أركان حرب خاصة تحيط به تحمل الألقاب الصغرى .

ومن الطبيعى أن لا يكون هؤلاء الروس على درجة واحدة من القوة والمكانة فمكانتهم من مكانة الملوك الذين يتبعونهم أو الجيوش التى يرأسونها وبذا كان أكبر الروس مقاما هو أكبرهم قوة وأقربهم الى الامبراطور ويبدو أن الجناح الذى يتكون منه الجيش كان يضم بضعة ألوف يقود كل ألف منها قائد يحمل لقب Shilaka أى قائد الألف (٣١) .

وبلغ من اهتمام الملوك بسلاح الفرسان أنه كان هناك موظف ذو رتبة كبيرة يعنى بالخيل وكسوتها واطعامها فى وقت السلم كما يشرف على كل ما يختص

(٣٠) Bruce V. III p. 26.
(٣١) Bruce III p. 276.

بتجهيزها واعدادها للحرب ولابد أنه كان يشرف أيضا على عدد كبير من الصناع الذين يصنعون كل ما يحتاجه سلاح الفرسان الامبراطورى من مهمات حربية . وحمل هذا الموظف لقبا يدل على أهمية منصبه وهو بلامبا راس Bal amba ras أى صاحب قلعة الراس . ولابد أن القلعة كانت المركز الذى يتمثل فيها النشاط الخاص بسلاح الفرسان وكان هذا الموظف يلى الراس فى الرتبة (٣٢) .

وفى أوقات السلم اذا خرج ملك الملوك لتفقد شؤون دولته أحاط به قواد الفرسان وصحبوه فى جولته فتكون من ذلك موكب ضخم يعتبر الفيتورارى والبالامباراس مسؤولين عن كل ما يتعلق به . فالأول هو الذى يتقدم الموكب للبحث عن مكان كثير العشب والخشب والماء ليعسكر فيه الموكب والثانى هو الذى يدبر أمر الخيل وما يتعلق بها (٣٣) .

وكان يتقدم هذا الموكب فى العادة فرسان يعلنون عن قدومه بأن ينفخوا فى بوقات من خشب رؤوسها قرون مجوفة، وآخرون يدقون طبولا مقلقة، ويتقدم الجميع فارس كبير ينفخ فى بوق كبير مقوس مصنوع من قرن حيوان من نوع بقر الوحش . ويبلغ طول القرن ثلاثة أذرع مجوف يسمع على مسيرة نصف يوم (٣٤) .

ولما كان معظم فرسان الجيش يجهزون أنفسهم على نفقتهم ، تفاوتت درجات هذا التجهيز . بل بلغ بعضهم من الفقر درجة أن ركب فرسه بدون سرج واكتفى بجلود الماشية . وربما يشبهون فى هذه الناحية بعض فرسان أوروبا حين كان كل نبيل يجهز نفسه وفرسه بنفسه تبعا لثروته وقوته . ولكنه يختلف عن فرسان المماليك الذين كان أمر تجهيزهم بيد صاحبهم . فكان يغالى فى تجهيزهم بالقماش الثمين والبزة الحسنة والقوالب المحلاة بالفضة وربما غشى جميعهم بالفضة بل بالذهب كما كانت لجمهم تحلى وتسقط بالفضة أيضا وفقا لاختيار صاحبهم (٣٥) .

(٣٢) Bruce III p. 18.

(٣٣) صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٣٤

(٣٤) Bruce III p. 150.

(٣٥) صبح الأعشى ج ٤ ص ٤٠

أما اذا كف ملك الملوك عن تجواله وعاد الى قصره لزم فرسان الملك قصره ليقوموا بمختلف الشؤون التى يكلفهم بهـا مولاهم • بينمـا يتفرق الرؤس وفرسانهم الى ممالكهم يدبرون أمرها وبمعاونة الملوك فى أعمالهم • واذا انصرف الجيش • انصرف أفراده الى أعمالهم يمارسونها كما كانوا يفعلون قبل الحرب وكان منزل الراس فى العادة يبنى الى جانب قصر الملك وهى دائمة عنـد قمة الجبل (٣٦) وهذا القصر فى العادة هو سجن أعداء الملك • كى يتوفر الراس على حراستهم فهو المسؤول عنهم أمامه • وتجيز له رتبتـه أن يكون له طبل يقرع على بابه ويصاحبه عند خروجه (٣٧) ويسمى نجاريت •

وليس معنى ذلك أنه لم يكن هناك جيش قائم من الفرسان بل كان كل الملك وملك الملوك يحتفظ دائما فى أوقات السلم بعدد كبير من الفرسان يقوم بحراسته وحراسة الطرق • فالقاضى حسن بن أحمد الحيمى يذكر لنا أنه وصل الى سلطان بيلول وطلب منه جيشـا لصحبته فى الطريق فأحضر له ألفى رجل بالحراب والخيل (٣٨) •

### سمعة الفرسان الأثيوبيين

ولقد تمتع الفرسان الأثيوبيون خلال العصر الوسـيط بسمعة حسنة الأقطار المجاورة لشجاعتهم فاقبلوا عليهم يستأجرونهم• وقد استأجر تجار العرب قبيل الاسلام كثيرين منهم• واستخدموهم لحراسة قوافلهم وكانوا يكونون فرقا كاملة يقودها فى العادة قائد عربى • كما أقبل العرب أيضا على شراء أعداد وفيرة من رقيق أثيوبيا لاستخدامهم أيضا • وتزوج فريق من هؤلاء الفرسان الأثيوبيين بنساء عربيات فأنجبوا نسلا عرف بسواد بشرته وشجاعته • واشتهر من هؤلاء قبيل الاسـلام عنتره العبسى • وكانت العزة وهى الحربة القصيرة سلاحهم المفضل (٣٩) وقد أطلق العرب على هذا الفريق من المحاربين اسم غربان العرب •

---

(٣٦) Ibid. p. 509.

(٣٧) Rossini, Storia d'Abyssinia I p. 215.

(٣٨) سيرة الحبشة ص ٢٦ من النص

(٣٩) صبح الأعشى جـ ٢ ص ٤٨٢

واذا ما قامت الدول الاسلامية المستقلة استخدمت كثيرين من الفرسان الأتيوبيين ضمن جيوشها كما فعلت الدولتان الطولونية والفاطمية (٤٠) .

وكانت عدة الفرسان وأدواتهم شيئا هاما من هدايا الملوك فقد أرسل النجاشي الى النبي هدية ثمينة هي بغل حبشي وثلاث عنزات (٤١) . وكان بلال بن رباح مؤذن الرسول يحمل احداها ويسير بها أمام النبي حتى اذا حان وقت الصلاة واصطف المسلمون وأمامهم النبي ركزها بلال أمامه .

كما أرسل الامبراطور ( ملك الملوك ) داود ( ١٣٨٢ ـ ١٤١١ ) الى السلطان برقوق الأب أندراوس الأنطونى ومعه هدية ثمينة حملها عشرون جملا كان بينها مائة وثلاثون سكينا وثلاثمائة وعشرون لجاما . كما أرسل الامبراطور زرء يعقوب ( ١٤٣١ ـ ١٤٦٥ ) الى السلطان الظاهر جقمق ( ١٤٣٨ ـ ١٤٥٣ ) هدية أخرى كان بينها سيف مسقط بذهب ومهماز (٤٢) ( من أجل تجديد ما سبق من العهود من الملوك المتقدمين ) كما تضمنت هدية السلطان المتوكل على الله الى الامبراطور فاسيلادوس بن سوسنيوس ( ١٦٣٢ ـ ١٦٦٥ ) هدية ثمينة كان بينها ( السيوف القاضية القاطعة والدروع الفائقة السابغة . مع شيء من آلات الخيل النفيسة والأتراس المناسبة لكل وحدة رئيسة ) (٤٣) حملها اليه القاضى اليمنى الحيمى حسن بن أحمد . كما كانت الخيول ولوازمها ضمن الهدايا والانعامات التى ينعم بها الأباطرة والملوك على أتباعهم (٤٤) وظلت هذه العادة حية حتى رآها المستكشف الاسكتلندى بروس Bruce فى نهاية القرن الثامن عشر . وغالبا ما تكون عدة الخيول المهداة من الذهب أو الفضة المذهبة تبعا لقيمة صاحبها .

### استعداد الفرسان للحرب

واذا أعلنت الحرب عبأ الامبراطور جيشه وأرسل الى الملوك التابعين له أن يمدوه بجيوشهم وعلى رأسهم قوادهم وفرسانهم . ولما كان الجندى هو الذى

---

(٤٠) الجواهر الحسان ص ٩٦

(٤١) التبر المسبوك فى ذيل السلوك ص ٦٧ ـ ٧٣

(٤٢) سيرة الحبشة ص ١٠ من النص

(٤٣) Bruce III p. 516.

(٤٤) Budge Vol. I p. 295.

يدبر أمر نفسه حمل كل منهم مؤونته وكانت تتمثل فى كيس كبير يتـدلى الى جانبه مملوء بالشنبرة ( الحمص الجاف ) وأعواد كثيرة من قصب السكر مقسمة الى أجزاء صغيرة فى كيس أخرى . وأبيح لمن استطاع من الفرسان أن يصحب أتباعا له يخدمونه . بل أبيح لهم أن يصطحبوا نسائهم معهم (٤٥) وقيل فى تعليل ذلك أنهم كانوا يخافون على نسائهم اذا تركوهم فى بلادهم . أن يهاجمهم العدو ويسبيهم . وفضل بعض منهم أن يبقى نساءه حيث كن ويصطحب بعض خليلاته لخدمته . وكان هذا سر اقبالهم على التسرى . وكان هذا العدد من الخدم يحمل لأسياده الفرسان ما يستطيع حمله من السلاح وأدوات الحرب والملابس بل وأدوات الطبخ وكل ما يسمح له بخدمة سيده خدمة حقيقية كما لو كان فى منزله . وكان هذا امتيازا للفرسان لا يتمتع به المشـاة وأغلب الظن أن ذلك يعود الى فقر الآخرين عن الأولين .

واذا ما انتهت المعركة أبيح للفرسـان أن يستولوا على ما تركه العدو من أسلاب . ولكن كان أهم ما كان يهتم به الفرسان الأتيوبون هو حصولهم على الرقيق من أجل استخدامهم فى رعى أغنامهم وزراعة أراضيهم . وكان هؤلاء يوسمون بعلامة خاصة تمييزا لهم عن الأحرار (٤٦) .

وامتازت الحروب التى دارت بين الثوار المسلمين والأباطرة فى خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر باستيلاء الأولين على أعداد وفيرة من الرقيق الأتيوبى المسيحى فكان يوزع على فرسان الجيش المنتصر أربعة أخماسهم وفقا للشريعة وكان كل واحد من الفرسان يبادر بارسال من حصل عليه من الرقيق الى تجارة وقد بلغ هذا الرقيق مبلغا هائلا حتى لقد انخفض سعر العبد الى ربطة قات (٤٧) فكان من جراء ذلك أن امتلأت أسـواق بلاد اليمن وهرمز وفارس والهند والحجاز ومصر والشام وبلاد الروم والعراق من رقيق أتيوبيـا الذين أسرهم جمال الدين بن سعد الدين أبو البركات (٤٨) .

وفى أوقات السلم كان بعض الفرسان يقفون بباب الملك يخدمونه (٤٩) بل

---

(٤٥) Ibid p. 312

(٤٦) الالمام ص ٣٢

(٤٧) المقريزى ص ٣٢

(٤٨) Kamerer T. II p. 317.

(٤٩) سيرة الحبشة ص ١٧ من النص

كانوا يشتركون فى بعض الأعياد الدينيــة أو الاجتماعيــة فقد كانوا فى عيــد الغطاس ـ وهو من الأعياد الكبرى فى أتيوبيا ـ يرتدون ملابسهم الحربيــة ويتقلدون بعض أسلحتهم ويخرجون الى استقبال الملك حين خروجه الى هذا الاحتفال ويشتركون فيه .

وفى عيد الصليب ـ وهو يقع فى نهاية فصل المطر ـ وهو وان كان احتفالا دينيا فى اسمه الا أنه كان فى الواقع عيدا موسميا اجتماعيا يعين ابتداء الفصل الزراعى . يخرج الفرسان للاحتفال بهذا العيد فى مكان خارج المدينــة حيث يستقبلهم الملك حين يتقدمون اليه فئة اثر فئة راكبين خيولهم مرتدين ملابسهم الحربية فى أكمل عدة ليلعبوا بالخيل فيمثلون الكر والفر والهجوم والانتقاص . وكل منهم يبدى مقدرته فى هذا النوع من اللعب . فكانت هذه المناسبات الاجتماعية فرصة للتدريب من ناحية واظهار براعتهم من ناحية أخرى . وكانت هذه الاستعراضات تتكرر فى المناسبات العظيمة كاستقبال الضيوف وتوديعهم (٥٠) أو الاحتفــال بالزواج أو ميلاد ابن لأحد زعمائهم . ولعل هذه المناسبات تشبه الى حد بعيد الاستعراضات Tournements التى كان فرســان العصور الوســطى فى أوروبا يقيمونها من أجل هذه المناسبات أيضا . كما كان الفرسان يخرجون فى بعض الأحيان لصحبة ملوكهم فى الصيد وكان هذا يعتبر تدريبا لهم على الرماية . كما كان من واجبهم أن يلبوا دعوة الامبراطور اذا أرسلهم سفارة الى دولة أجنبية لغرض من الأغراض . وكثــيرا ما قدموا الى مصر يحملون الهــدايا والكتب المتبادلة بين الأباطرة وبطريرك الأقباط . وخلفاء الفاطميين أو سلاطين المماليك وغيرهم من ولاة مصر .

### ملابس الفرسان

لم يعرف الأثيوبيون خلال العصور الوسطى الملابس الحربية المصنوعة من الحــديد أو الصلب أو الزرد لوقاية أجســامهم بل كانوا يخرجون الى المعركة بملابسهم العادية وهى البنطلون ( السروال ) الطويل الأبيض وعليه رداء طويل يشبه القميص يصل الى ما بعد الركبة بقليل . وفوق هذا قميص واســع من القماش القطنى المخطط وقد يلبس أغنياؤهم الحرير والأبراد اليمنية (٥١) وفى

(٥٠) صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٧

(٥١) Kamerer T. II p. 317.

وسطهم حزام عريض من الجلد لأجل أن يعلقوا به سلاحهم • وفوق هـذا كله رداء من الجوخ ينسدل على ظهورهم وصدورهم ويصل الى ما فوق القدم بقليل ولكنه يقصر عند الذراعين فلا يصل الى ما فوق الكوع • والنصف الأمامى منه مقسوم الى قسمين متشابكين بمشابك من الفضة أو الذهب عندالصدر • وأطراف



شكل رقم ( ١ )

هذا الرداء مطرزة بخيوط من الذهب والفضة • وكان كبـار القواد يحرصون على أن يضعوا حول أعناقهم وعلى أكتـافهم أجزاء من لبد الأسـد (٥٢) أنظر شكل (١) •

---

(٥٢) Kamerer T. II 128.

وعنوا بأن يعصبوا رءوسهم أيضا بأجزاء من لبد الأسد تلتف حول رءوسهم تاركة أعلاها مكشوفة . ولم يبد منهم اهتمام بوضع جلود لحيوانات أخرى غير الأسد مثل النمور أو الفهود . أو الضباع أو غيرها . وقد شاهد هذه الملابس كوفلهام البرتغالى حين قدم الى أثيوبيا فى القرن الخامس عشر الميلادى وعنى بوصفها (٥٣) وقد ظل الأثيوبيون يحرصون على هذه الملابس طوال العصور الوسطى والحديثة حتى اذا ولى العرش الامبراطور هيلا سلاسى فى سنة ١٩٣١ وحرص على أن يدخل النظام الحديث الى جيشه . ترك كل هذه الملابس ولكنه حرص على أن يزين أفراد حرسه قبعاتهم وأكتاف ملابسهم الحديثة بأجزاء من لبد الأسد (٥٤) .

واذا كان هناك من الفرسان الأثيوبيين من عرف الملابس المصنوعة من الصلب لوقاية الأبدان فان جيوش الامام أحمد بن ابراهيم كانت أول من عرفها واستعملوها فى حروبهم بعد أن عرفوها من الأتراك (٥٥) وأمدوهم بها ضمن ما أعطوهم من أسلحة الحرب .

واذا ما انتهت هذه الحرب بهزيمة الامام أحمد فان الأثيوبيين لم يحاولوا استعمال هذه الملابس بعد ذلك قط .

وقد يستبدلون بعصابة الرأس رباطا عريضا من القماش المحلى بخيوط الذهب فى أشكال جميلة وينتهى من الخلف بمشبك تتدلى منه خصلة طويلة من ذنب الحصان طولها قدمان . تنسدل على ظهر الفارس وتتدلى من حواف عصابة الرأس كرات صغيرة من القماش المذهب معلقة فى خيوط ذهبية رفيعة أنظر الشكل (٢) .

أما من الأمام فيزين هذه العصابة قطعة ذهبية مستديرة الشكل أو مربعة يرتفع منها الى ارتفاع قدم تقريبا ما يشبه القرن من المعدن المذهب . وقد يحمل الفارس مظلة صغيرة لا تزيد كثيرا عن حجم الرأس مصنوعة من الخوص المجدول . وهى لا تغلق . يمسكها بنفسه ويعطيها لتابعه اذا ترجل .

---

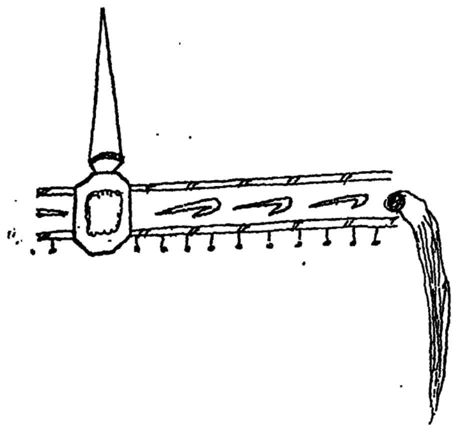
(٥٣) Histoire de Galewdewos p. 132

(٥٤) Farago. picture p. 148

(٥٥) Bruce III p. 120.

ولكن الفرسان المسلمين فلم يكونوا يلبسون هذا النوع من ملابس الرأس بل كانوا دائما يفضلون العمامة الكبيرة وغالبا ما يكون شالها من الحرير الأبيض (٥٦) مطرزة ببعض سلوك الذهب الرفيع .

كما كان الفرسان يتحلون فى العادة بأقراط كبيرة من الذهب أو الفضة . ولا يلبس غطاء الرأس وكذلك لبد الأسد الا فى أوقات الحرب . أما فى أوقات السلم فان كوفلهام يذكر لنا أنهم كانوا يلبسون حول أعناقهم عقودا من الذهب وغيره من الجواهر كما يتمنطقون بأحزمة عريضة من الجلد أو الحرير ذى



شكل رقم ( ٢ )

الألوان الزاهية تزينه فصوص الجواهر الكريمة كما يذكر لنا الحيمى أنه شاهدهم وقد ( جعلوا فى أوساطهم مناطق الذهب المحلاة بالفصوص الفاخرة ونفيس الجواهر . وقد أخذوا فى أيديهم السيوف السنارية المحلاة بالذهب . كما وضعوا فى أيديهم أساور الذهب ) .

---

(٥٦) Kamerer T. II p.

وكانوا يستوردون ما يلزمهم من هذه الأقمشة الرفيعة الغالية من الهند واليمن وكانت السفن الكبيرة تنقلها الى جدة ثم تنقلها سفنهم الصغيرة الى مصوع أما فقراءهم فكانوا يلبسون الملابس القطنية المصنوعة محليا فقد كانوا يستوردون خيوط القطن من اليمن ومصر وتنسج فى بعض المصانع الوطنية وكانت كثيرة فى عدوة وسيرة (٥٧) •

كما كان الفرسان يحرصون على تجميل أنفسهم فكانوا يكثرون من استعمال الكحل الذى يستوردونه بكميات كبيرة من مصر وكانت الجواهر تحمل اليهم من سيلان • ويقوم على صياغتها فى العاصمة وبعض البلاد الأخرى عمال مهرة من الهنود (٥٨) وكانوا يسدلون على أكتافهم برانس من الحرير أو القطيفة ويفضلون دائما اللون الأزرق المبطن بالأحمر أو الأحمر المبطن بالأزرق (٥٩) وكانت له حافة مطرزة بالذهب أو الفضة ويسير وراءه أحد أتباعه حاملا عصاه التى يبلغ طولها خمسة أقدام مزينة بخيوط رفيعة من الذهب أو الفضة أيضا • كما يعصبون رءوسهم بعصائب كبيرة من الحرير المطرزة تدور حول رءوسهم ويبقى وسط الرأس مكشوفا • على أن هذا كان قاصرا على كبار الفرسان أما غيرهم فرأسه مكشوفة (٦٠) •

أما الأقدام فغالبا ما كان الفارس الأثيوبى حافى القدمين اذ لم يعرفوا النعال الا فى أوقات متأخرة ولأجل ذلك كانت ركاب خيولهم دائما حلقات من الحديد الرفيع يدسونها بين أبهام قدمهم وسبابته (٦١) لكنهم عرفوا الخفاف البسيطة المصنوعة من جلد الماعز فى بداية العصر الحديث ويبدو أن اتصالهم بالبرتغاليين هو الذى علمهم ذلك • ولكن يبدو أنهم كانوا ينبذونها فى وقت الحرب ويلبسونها فى أوقات السلم على أن يخلعوها اذا حظوا بمقابلة الملك •

ولم يكن اهتمام الفرسان بملابس الخيول أقل من اهتمامهم بملابس الفرسان فكان الفرس يغطى من رأسه الى نهاية كفله بقماش مسبل غالبا ما يكون من

---

(٥٧) Bruce III p. 55.
(٥٨) صبح الأعشى ج ٨ ص ١٣٥
(٥٩) سيرة الحبشة ص ٣١ من النص
(٦٠) صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٠٧
(٦١) Bruce III p. 198.

القطن • وأكثر ما يكون بنى اللون كى يتـلائم مع جلد الأسـد الذين يزين الفارس (٦٢) ويلتف حول الحيوان حزام عريض من الجلد كى يحافظ على بقاء هذا الغطاء • وينتهى هذا الغطاء بخيوط رفيعة تسدل على جانبيه وتصل الى ما يقرب من سطح الأرض • أما رأس الحصان فتغطى من الجانبين بغطاء يزين من جانبى الفم بريش طويل من ريش النعام يرتفع الى ما يوازى الأذنين (٦٣) •

أما السرج فكان دائما كبير الحجم له مسندان أحدهما من الأمام والآخر من الخلف تغطيه الأغطية الجميلة الثمينة الغالية الثمن •

**سلاح الفرسان**

١ – أسلحة الهجوم : لم يعرف الفرسان الأثيوبيون السيف المعتدل الطويل بل كان سيفهم دائما مقوسا ولا يزيد طوله قليـلا عن المتر الواحـد وهو من الصلب الثقيـل ولا يزيد عرض النصـل قرب المقبض عن ثمانية سنتيمترات



شكل رقم ( ٢ )

ويوضع فى جراب من المعدن المكسو بالجلد • وهو مسنون من الناحية الخارجية وكان السيف أول أدوات القتال استعمالا يعلق فى الحزام الجلدى فى النـاحية اليسرى كى يتمكن الفارس من تناوله بسهولة بيده اليمنى بينما يتقى الضربات بالدرع أو الترس وهو معلق باليد اليسرى • ولا يلجـأ الفارس الى العنزة أو السكين الا اذا سقط السيف من يده أو كسر (٦٤) واشتهر اقليم سمهر فى تيجرى بصناعة السيوف السمهرية وذكروها كثيرا فى أشعارهم • أنظر شكل (٣) •

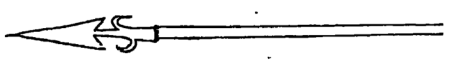
---

(٦٢) Bruce III. p. 120.

(٦٣) Ya Puhtugalutch p. 85.

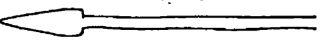
(٦٤) Bruce III. p. 219.

(ب) الحربة : وهى سن يبلغ طولها ثلاثين سنتيمترا من الحديد مدببة من أعلاها وتتسع كلما اتجهنا نحو القاعدة • وتركب فى أعلى عصا رفيعة اسطوانية يصل طولها الى مترين أو أكثر قليلا • وقد يكون فى الجزء الأدنى منهـا خطاطيف ملتوية بعضها الى أعلى وبعضها الى أسـفل لتعلق بها قطع من القماش دلالة على استعمالها لقتل الأعداء (٦٥) وقد تتخذ سنان بعض الحراب من الذهب ولكنها لم تكن تستعمل الا فى الاحتفالات وهى تستعمل للطعن ، أنظر شكل رقم (٤) •



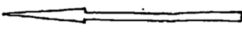
شكل رقم ( ٤ )

(ج) الرمح : وهو يشبه الحربة فى شكلها ولكنها قصيرة العصا فهى لا تزيد عن المتر الواحد وليس له خطاطيف• وهو يرميها من بعيد وقد أشهرت الرماح العدولية فذكرها الشعراء فى كثير من أشعارهم . أنظر شكل رقم (٥) •



شكل رقم ( ٥ )

(د) العنزة : وهى كالرمح ولكن عصاها رفيعة قصيرة ويطعن بها ولا ترمى كالرمح ويفضلها الذين يقاتلون قتالا غير نظامى • ولها جراب كجراب السيف ولكنه يتصل بالحزام مباشرة •



شكل رقم ( ٦ )

(هـ) السكين : وهى نصل رفيع مستقيم لا يتعدى طولها العشرين سنتيمترا وتعلق كل من الحربة والرمح الى يمين سرج الفارس أما السكين فتوضع داخل جرابها وتوضع فيما بين الحزام الجلدى والصدر الى اليسار ، أنظر شكل رقم (٦) •

(٦٥) Budge V. I p 302.

وقد قدم الى أتيوبيا فى أيام الامبراطور اسحق ( ١٤١٤ — ١٤٢٧ ) فارسان من المماليك هربا من مصر وكان أحدهما يسمى طنب أغا . استخدمهما الامبراطور فى تدريب فرسانه ومن ذلك ندرك أن النظام الحربى للفرسان الأتيوبيين لم يكن قد بلغ مبلغ النظام الحربى المملوكى من التدريب الحسن المنتظم . وتقول الرواية أن أحدهما علم الأتيوبيين استعمال سلاح جديد هو النار الاغريقية . وهى كرات كبيرة من القماش مشتعلة يقذف بها بواسطة جهاز خاص . بعد غمسها فى البترول . ولذا أطلق عليها الأتيوبيون اسم النفط وظلت هذه الأسلحة هى الوحيدة المستعملة فى أتيوبيا حتى قام الامام أحمد بن ابراهيم بثورته ففاجأهم بالبنادق فانهار تفوقهم السابق .

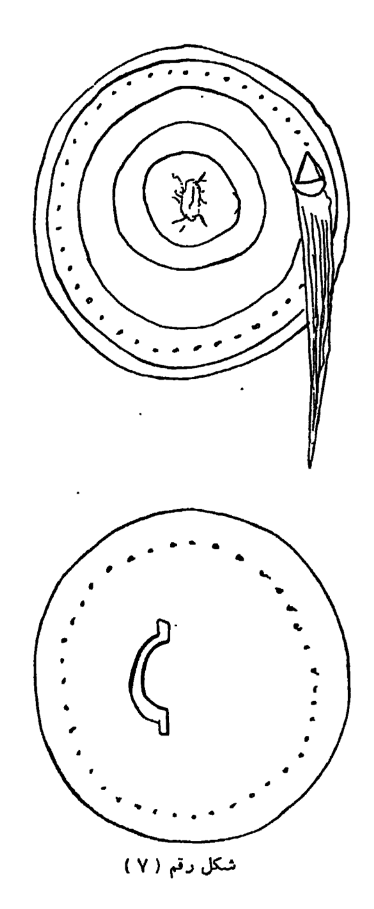
٢ — أدوات الدفاع : يتمثء الدفاع أو الترس . ويسميه الأتيوبيون ط[illegible] mc وهو مستدير دائما محدب الى أعلى . ولم يعرف الأتيوبيون الدرع الأوروبى المثلث الصغير أو الذى كان يغطى جسم الفارس . وبينما كان درع الفارس الأوروبى مصنوعا من الصلب كان الدرع الأتيوبى مصنوعا من أربع طبقات من جلد الجاموس السميك (٦٦) أو طبقتين من جلود الفيلة . وتضم هذه الطبقات الى بعضها بمسامير صغيرة تدور حول حافته الخارجية . وقد يكون للدرع حافة من المعدن تساعد على تثبيت الطبقات مع بعضها ثم تدور حول مركز الدرع حلقات من الشرائط المعدنية مثبتة بمسامير أيضا . وفى باطن الدرع فى الوسط مقبض من الجلد السميك يمسك به الفارس أنظر شكل (٧) فتكون وقاية ليده اليسرى التى تتحرك بسهولة لحماية صدره وتتوقف حياة الفارس على خفته وسرعة تحرك يده اليسرى وفيها الدرع . ولبعض الدروع مقبضان بدلا من واحد . يدخل الذراع الأيسر فى الأول الى ما قبل الكوع ثم تقبض اليد على الآخر .

وبعض الدروع مخروطية الشكل يرتفع مركزها عن بقية سطح الدرع وتغطى هذه القمة بطبقة من المعدن . ثم تدور الأشرطة المعدنية المثبتة بالمسامير حول

---

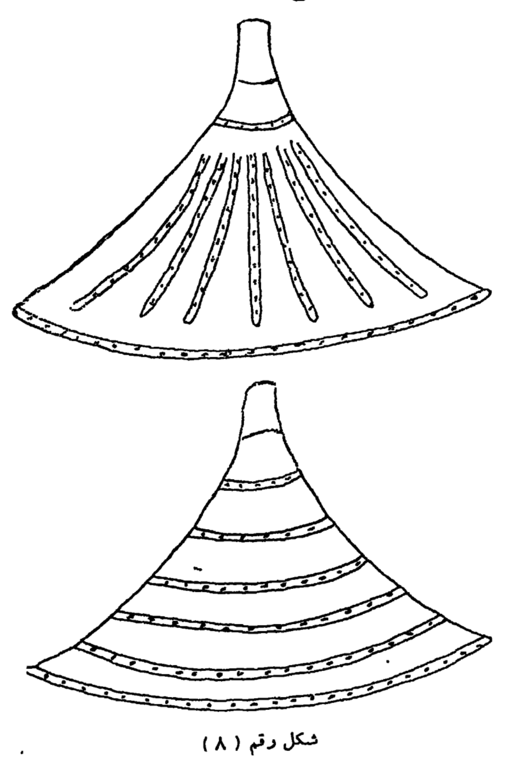
(٦٦) Bruce III p. 244.

هذه القمة ، حتى تنتهى بالحافة الخارجية ، ولكن قد تبدأ هذه الأشرطة المعدنية من المركز متجهة نحو المحيط الخارجى ، وكلما تقاربت هذه الأشرطة من بعضها



شكل رقم ( ٧ )

كان الدرع أكثر صـــلابة وأشـــد مقاومة للطعنات شكل (٨) وقد تكون هذه الشرائط التى تضم طبقات الدرع من الذهب أو الفضة .



شكل رقم ( ٨ )

وقد عرف الفرسان المسلمون أيام ثورة الامام أحمد الصـــدارى والملابس المصنوعة من الصلب (٦٧) ويبدو أن البرتغاليين قد لبسوها أيضـــا ولكنهم لم

(٦٧)
Histoire de Glawdewos p. 135.

يتركوا شيئا منها بعد انسحابهم فلم نجد لها ذكرا فيما دار بعد ذلك من المعارك كما يبدو أنهم لم يتعلموا منهم استعمال البنادق . فقد ظلوا يفزعون من سماع أصواتها (٦٨) فكانوا يهربون عند سماع أصواتها . فقد وصل الحسن بن أحمد الحيمى الى الأبواب السلطانية فأمر من معه باطلاق البنادق على نحو ما كان يفعل اليمنيون فلما سمع السلطان صوتها هرب من ايوانه كما هرب الوزراء وسائر أصحابه (٦٩) .

ويبدو أن نزول المسلمين فى النواحى الشرقيـة من أثيوبيـا قد قطع عنهم الموارد التى كانوا يستمدون منها ثقافتهم فأخذت البلاد تدخل فى دور من التقهقر رأينا أثره واضحا فى سقوط الأسرة القديمة وقيـام الأسرة الزجوية فى القرن العاشر كما رأينا أثره أيضا فى انحدار صناعة الأسلحة فصاروا يستوردونها من الخارج فرأينا حسن بن أحمد الحيمى يقول أنه شـاهدهم يمسكون بالسيوف السنارية (٧٠) ولكن ظلت صناعة الدروع مع ذلك وطنية ويبدو أنها بلغت حدا كبيرا من الجودة أغنتهم عن استيراد أنواع أجنبية .

ومن أجل الفرسان وما يريدونه من ملابس وأدوات حربية قامت صناعات كثيرة اشتغل بها كثير من السكان . مثل صناعة السيوف والحراب والعنزات والدروع وتطريز الملابس بخيوط الذهب وتزيينها بلبد الأسد وكذلك صناعة السروج والأعنة . وكذلك اشتغل كثير من الهنود بصناعة الحلى . فعملوا فى طلاء القطع بالذهب أو الفضة .

ويبدو أن عدد الصناع كان قليلا مما أدى الى ارتفاع أثمان هذه الأشـياء فلم يكن يستعملها الا القـادرون . وكانت قلة عـدد الصناع نتيجة لاحتقار الأثيوبيين للصناعة ومن يعمل بها (٧١) .

---

(٦٨) سيرة الحبشـة ص ١٨ من المقدمة
(٦٩) نفس المصدر والصفحة
(٧٠) نفس المصدر ص ٢١ من النص
(٧١) Coulbeaux T. I. p. 130.

## طريقة الحرب :

كانت المواجهة هى طريقة الحرب الوحيدة اذ يظل الجيش متقدما وهو يرسل طلائعه من الفرسان بحثا عن العدو حتى يجده . فاذا ما حمل الخبر الى الملك أسرع فعقد مجلس الحرب لمناقشة ما حملته اليه الطلائع من معلومات . واذا ما قرر المهاجمة ومكانها ، أخذت طليعة أخرى من الفرسان فى التدخل حتى تستدرج العدو الى المكان الذى يفضل أن تدور المعركة فيه . واذا تم هذا كله عمل الجيش على محاصرة العدو من جميع الجهات لقطع المدد عنه ثم الهجوم عليه بالقلب مع اصدار صرخات خاصة لغرض ايقاع الاضطراب بين الصفوف . وفى نفس الوقت يدخل المشاة بين صفوف الفرسان يستعملون أسلحتهم الخاصة وهى غالبا ما تكون الحراب .

وكان اضطراب العدو أثر الهجوم الأول هو أكبر ما يعتمد عليه الجيش المهاجم (٧٢) ولذا كان الهجوم يتركز أكثر ما يكون على قائد الجيش الأكبر أو الملك (٧٣) لأن قتل القائد الأكبر أو الملك كان غالبا ما يسبب الارتباك بين صفوف الجند ويؤدى الى هزيمته ولكن ذلك لم يكن يمنع من وجود الملك دائما على رأس الجيش فى وسط القلب وكان وجوده بينهم من أكبر بواعث الحماس فى نفوس الفرسان (٧٤) ولابد أن يصحبه حامل العلم وهو يكون فى العادة وراء الملك مباشرة . وقد حرص الملوك دائما على أن يطرزوا أعلامهم بالأسد ( الخارج من سبط يهوذا ) . على أنهم لم يكونوا يحافظون على لون معين لهذا الأسد فكان أبيضا أو أحمرا أو أصفرا ولم يكن هناك علم واحد بل لابد أن يكون لكل ملك علم بجواره وهو صورة من العلم الأثيوبى ولكنه يحمل علامة خاصة تدل على صاحبه كما تعلو عصا العلم فى الغالب كرة كبيرة مفرغة من الذهب أو المعدن المذهب يعلوها صليب من الذهب أيضا( أنظر شكل ٩ ) .

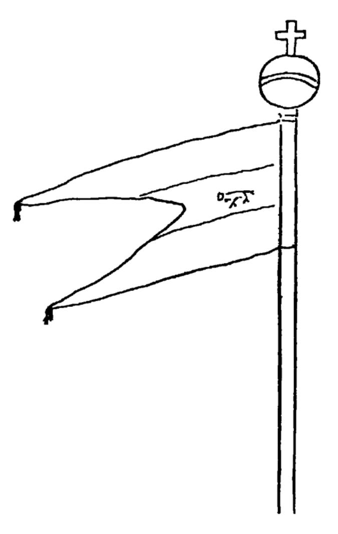
---

(٧٢) Ya Purtugalteh p. 86.

(٧٣) Ibid p. 31.

(٧٤) Ya Etiopia Tarik p. 92.

وكان السيف أول أدوات القتال استعمالا يمسكه الفارس بيمينه بينما يتلقى ما يوجه اليه من ضربات بالدرع وهو معلق باليد اليسرى . ولا يلجـأ الفارس الى العنزة أو السكين الا اذا وقع السيف من يده أو كسر (٧٥) واذا ما انتهى من هذه الأسلحة أمسك بالحربة ــ وهى معلقة بسرجه من ناحية اليمين ــ وأخـذ يطعن بها يمينا ويساراه ولم يكن القتال يدور الا نهارا وغالبا ما تنتهى المعركة فى يوم واحد ونادرا ما كانت تستمر أكثر من ذلك .



شكل رقم ( ٩ )

وكانت الضحايا بين الجرحى بسبب عدم العناية بانقاذهم تفوق كثيرا من يموتون خلالها .

(٧٥) Ya Portugalutch p. 85.

واذا ما انتهت المعركة بالانتصار كافأ الملك فرسانه باباحة معسكر العدو لجنوده أو اباحة المدينة فينهبها الجنود . ويلى ذلك وليمة كبيرة تسمى ( جبر ) يشارك فيها الجنود قوادهم الأكل والشراب الذى يقوم الجند بعمله غداة المعركة .

### قلاع الفرسان

اهتم الأثيوبيون ببناء القلاع على رأس الأمبا من أجل مراقبة الطرق التى تقود اليهم وأقام بها عدد من الفرسان لحمايتها يرأسهم رئيس القلعة وهو البالامباراس وهو المكلف باستدعاء الفرسان اذا ظهر الخطر . ونحن لا نعرف تماما الوقت الذى ظهرت فيه القلعة الى عالم الوجود ولابد أنه قديم جدا ما دامت طبيعة البلاد توحى بالحرب أكثر ما توحى بالسلام . ولم يكن بناء القلاع يختلف عن بناء البيوت العادية سواء من حيث مادة البناء أو التصميم ولكن مجىء البرتغاليين فى القرن السادس عشر لنجدة الأثيوبيين فى جهادهم كانت نقطة التحول فى بناء القلعة اذ أدخلوا نوعا جديدا منها هو القلاع المبنية من الحجر التى تحوى أبراجا مستديرة عالية عند الزوايا . والذى لا توجد له الا قليل من الفتحات الصغيرة التى تطلق منها السهام أو البنادق . وما زالت بقايا قلعة فاسيلاداس تشهد ابتداء هذا الطور من البناء فى جوندار ويبدو أن هذا النوع من القلاع الحجرية لم يتيسر كثيرا اذا أن صناعته أو طريقته لم تتقدم كثيرا بسبب سياسة العزلة التى انتهجتها الأباطرة بعد فاسيلاداس .

# بيان المصادر


Budge, Sir. W. History of Ethiopia; London 1928.
Cerulli; Rassegna di Studi Etiopici V. 1. Anno I.
Conzelham. W. Histoire de Gelawdewos Paris 1875.
Coulbeaux; Histoire Politique et Religieuse de l'Ethiopie Paris 1928.
Farago. L. Abyssinia on the eve. Lon 1935.
Heroui, Blaten Geeta; Ya Etiopia Tarik. Addis Abeba 1930.
James Bruce; Travels to Discover the Sources of the Nile Edinburgh 1890.
Jones; History of Ethiopia.
Kamerer. A.; La Mer Rouge, L'Abyssinie, et l'Arabic Le Caire 1935.
Lyn Thorndike; Medieval Europe. London.
Morié; Histoire d'Ethiopie.
Murad Kamel; Ya portugalutch Djagennanat. Addis Abeba 1944.
Rossini. Conti. Revue Semetique 1902.

الحيمى الحسن بن احمد : سيرة الحبشة القاهرة ١٩٥٨
التلقشندى أبو العباسى بن احمد : صبح الأعشى .
الشيخ القنائى الأزهرى : الجواهر الحسان فى تاريخ الحبشان مصر ١٣٢١ هـ
المقريزى : الالمام باخبار من بارض الحبشة من ملوك الاسلام مصر ١٨٦٥
التبر المسبوك فى ذيل السلوك .

# التوثيقات الشرعية والاشهادات

## فى ظهر وثيقة الغورى*

بقلم الدكتور عبد اللطيف ابراهيم

---

**مقدمة :**

هذه هى الاشهادات الشرعية أو الاسجالات الحكمية والتنفيذية — على حد التعبير المصطلح عليه فى العصر المملوكى — الواردة فى ظهر وثيقة وقف السلطان الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغورى المحفوظة بأرشيف وزارة الأوقاف بالقاهرة تحت رقم ٨٨٣ تظهر اليوم لاول مرة كنموذج للتوثيقات الشرعية والاشهادات فى ذلك العصر — أعنى فى بداية القرن ١٠ هـ / ١٦ م أو فى أواخر عصر المماليك عامة .

ولم يكن لهذا البحث مكان فى دراساتى لدرجة الدكتوراه لاسباب أهمها رغبة أستاذى الجليل الدكتور أودلف جروهمان فى ارجاءه للمستقبل باعتباره عملا علميا مستقلا قائما بذاته . ولقد كان سيادته بعيد النظر محقاً فى رأيه ، لان طبيعة هذا البحث تحتاج إلى دراسة فى القانون عامة وفى الفقه والشريعة الاسلامية خاصة قبل الاقدام على كتابته .

حقاً إن دراسة الوثائق الدبلوماتية تعتمد لحد كبير على القانون ، وحبذا لو أسهم بعض رجال القانون فى هذا الميدان بجهودهم لكى نخرج بنتائج — أرجو أن تكون جديدة — فى تاريخ القانون عامة والشريعة الاسلامية وخاصة المعاملات الشرعية .

---

(*) أهدى هذا البحث إلى روح المرحوم الأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام صاحب « مجالس السلطان الغورى » .

والواقع إن نشر ودراسة هذه الاشهادات وأمثالها تقدم لنا لونا جديداً من ألوان الدراسة الوثائقية الناشئة فى مصر والعالم العربى كله ، هذا بالاضافة إلى ما تقدمه لنا من معلومات فريدة فى مختلف ميادين الدراسة التاريخية والقانونية على السواء .

وهذه الاشهادات تمدنا بعدد كبير من الألقاب الرسمية والفخرية المفردة والمركبة الخاصة بسلاطين المماليك والقضاة [١] فى ذلك العصر مما لم يرد لبعضه ذكر فى المصادر الأدبية أو المادية ، كما أنها تقدم لنا عدداً من أسماء القضاة الشهود العدول ممن كان لبعضهم مقام معلوم فى تاريخ القضاء والعدالة . وهى تدلنا كذلك على الطريقة التى اتبعت فى توثيق الأوقاف بالذات — من الاشهاد عليها وتسجيلها — وهى لون متميز من التصرفات القانونية التى كان يجب إحاطتها بالقوة التنفيذية على أيدى قضاة القضاة الأربعة أو نوابهم ، كما نجد فيها دراسة طيبة لصيغ الاسجالات الحكمية والتنفيذية وخاصة الافتتاحيات ( البسملة والتصلية والحمدلة ) والتواريخ والحسبلة [٢] .

## أولا : الدراسة الشكلية .

### ١ — الملامح الخارجية لظهر الوثيقة :

لا تبدأ كتابة الاشهادات فى أول ظهر الوثيقة مباشرة بل نجد بياضا طوله ١٣٠ سم ، والجزء الأول منه ورق سميك خشن الملمس يميل إلى اللون البنى يبلغ طوله ١١٢٫٦ سم ، والباقى قدره ١٧٫٤ سم من الورق الأبيض الضارب إلى الاصفرار ، المصقول مع ليونة ولعله من الورق المعروف بالحموى [٣] .

---

(١) أنظر ألقاب السلطان النورى وقضاة القضاة الأربعة الواردة فى نص الاشهادات وخاصة ألقاب أبو العباس أحمد بن الفرفور الشافعى سطر ٢٠١ — ٢١٣

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٦ ص ٢١٧ — ٢٢٩ ، ٢٣٤ — ٢٦٢ ، ٢٦٧ — ٢٧٠

(٣) صورة وثيقة النورى أوقاف رقم ٨٨٢ ص ٩٠ . هذا والورق الحموى من صناعة الشام فى العصور الوسطى ، وهو دون قطع البغدادى ، وكان كثير التداول فى مصر إبان العصر المملوكى كله . القلقشندى : صبح الأعشى ج ٢ ص ٤٨٧

جدول رقم ١

« بيان بطول كل درج من الدروج وعرضه بالسنتيمتر وعدد سطوره »

| رقم الدرج | طول الدرج | متوسط عرض الدرج | عرض الهامش الأيمن | عدد سطور الدرج |
|---|---|---|---|---|
| ١ | ٤٨ر٥ | ٣٥ر٦ | ١٠ | ٩ |
| ٢ | ٥٣ر٥ | ٣٦ر٣ | ١٠ | ١٤ |
| ٣ | ٥٣ر٣ | ٣٦ر٥ | ١٠ر٦ | ١٢ |
| ٤ | ٥٤ | ٣٦ر٤ | ٩ر٥ — ١٠ر٥ | ١٢ |
| ٥ | ٥٣ر٩ | ٣٦ر٢ | ٨ر٥ — ١٠ر٢ | ١٢ |
| ٦ | ٥٣ر٥ | ٣٦ر٤ | ٧ر٨ — ١٢ر٣ | ١٤ |
| ٧ | ٥٤ | ٣٦ر٨ | ٦ر٥ — ١١ر٣ | ١٠ |
| ٨ | ٥٣ر٤ | ٣٦ر٥ | ١٠ر٣ — ١١ر٨ | ١٠ |
| ٩ | ٥٣ر٤ | ٣٦ر٤ | ١٢ر١ | ١١ |
| ١٠ | ٥٣ر٥ | ٣٦ر٧ | ١٢ر٢ — ١٢ر٦ | ١٣ |
| ١١ | ٥٢ر٩ | ٣٦ر٨ | ٩ر٨ — ١٠ر٣ | ١٦ |
| ١٢ | ٥٣ر٩ | ٣٦ر٥ | ٤ر٥ — ٩ر٩ | ١٢ |
| ١٣ | ٥٣ر٣ | ٣٦ر٤ | ١٠ر٥ | ١١ |
| ١٤ | ٥٣ر٤ | ٣٦ر٦ | ١٠ | ١١ |
| ١٥ | ٥٤ر٥ | ٣٦ر٣ | ١٠ر٢ | ١٥ |
| ١٦ | ٥٣ر٧ | ٣٦ر٥ | ١٠ر٣ | ١٥ |
| ١٧ | ٥٤ | ٣٦ر٥ | ٩ر٥ — ١٠ | ٧ |
| ١٨ | ٥٢ر٥ | ٣٦ر٥ | ١٠ر٣ | ١٠ |
| ١٩ | ٥٢ر٦ | ٣٦ر٣ | ٩ر٥ — ١٠ر٣ | ١١ |
| ٢٠ | ٥٤ | ٣٦ر٥ | ٩ — ١٠ | ١١ |
| ٢١ | ٥٣ر٢ | ٣٦ر٥ | ٩ر٨ — ١٠ر٣ | ١٢ |
| ٢٢ | ٥٤ر٣ | ٣٦ر٧ | ٩ر٥ — ١٠ر٣ | ١٢ |
| ٢٣ | * ٥٣ر٥ | ٣٦ر٧ | ٨ر٥ — ٩ر٩ | ٦ |

(*) الجزء المكتوب من هذا الدرج يشغل مساحة قدرها ٢١ سم فقط .

والحبر الذى كتبت به الاشهادات الأربعة أسود اللون ، فهو حبر الدخان الذى يناسب الورق[٤] . وبعض الألفاظ انمحى لون الحبر من عليها أو كاد ، ولم يبق منها إلا آثار باهتة تدل على الكلمات أو الحروف وخاصة فى نهاية السطور .

ويبلغ طول الجزء الذى تشغله هذه الاشهادات الأربعة التى نقوم على نشرها ١١ م ، ٩٤٫٣ سم - وعدد الدروج ٢٣ درجاً ، يتراوح طول الدرج الواحد منها بين٥ر٤٨- ٥٤٫٣ سم ، وعرضه بين ٥ر٣٥ - ٨ر٣٦ سم ، أما عدد سطور الاشهادات كلها فهو ٢٦٦ سطراً ، ويتفاوت عددها فى كل درج بين ٩ - ١٦ سطراً [٥] .

وقد جرى كاتب الاشهادات والشهود جميعاً عند شهادتهم على ترك الجزء الأيمن - حوالى ٩ سم - وهو الربع من مساحة عرض الدرج بياضاً دون كتابة كهاهش أيمن إلا ما دونه قضاة القضاة بخطهم فيه عند بداية الاشهادات الثلاثة الأولى من عبارات خاصة بالتسجيل [٦] .

هذا ويوجد بين كل اشهاد والذى يليه بياض يتفاوت طوله بين ٥ر٦ - ٢٧ سم ، والفراغ بين توقيع كل شاهد والشهادة التالية يتراوح بين ٢ر١ - ٤ر١٥ سم . ففى الاشهاد الأول نجد بياضاً بين السطر٥٢ و ٥٤ طوله ٤ر١٥سم ، وبين السطر٦٢و٦٣ طوله ٨ر٥ سم وبين السطر ٦٥و٦٦ طوله ٧ سم . كما نجد فراغاً بين شهادة الشهود فى الاشهاد الأول وبداية الاشهاد الثانى أى بين السطر ٧٣و٧٤ طوله ٥ر٦ سم وبين السطر ٨٦و٨٧ طوله ٥ر٤ سم وبين السطر ١١٧و١١٨ طوله ٥ر٦ سم ثم نجد بياضاً بين شهادة الشهود فى الاشهاد الثانى وبداية الاشهاد الثالث أى بين السطر ١٤١ و١٤٢ طوله ٨ر١٤ سم ، وبين السطر ١٩٥و١٩٦ طوله ٥ر٥ سم . وأخيراً نجد فراغاً بين شهادة الشهود فى الاشهاد الثالث وبداية

---

(٤) القلقشندى : نفس المرجع السابق جـ ٢ ص ٤٧٦

(٥) انظر الجدول رقم ١ حيث تجد بياناً مفصلا بذلك .

(٦) انظر بحثنا هذا « عبارات التسجيل » ص ٣٠٦ والتحقيق رقم ٣ ؛ وكذلك بحثنا وثيقة الأمير آخور كبير قرانجا الحسنى ( مجلة كلية الآداب م ١٨ جـ ٢ ) ص ١٩٠

الاشهاد الرابع أى بين السطر ١٩٧ و١٩٨ طوله ٢٧ سم ، وبين السطر ٢٠٢و٢٠٣ طوله ٦ر٣ سم وبين السطر ٢٣٩و٢٤٠ طوله ٢ر١ سم [٧]

هذا ونجد بين السطرين رقم ٢٥٤و٢٥٥ كتابة بخط دقيق جداً يشبه خط الغبار [٨] ، وهو قلم يخالف تماما لخط الاشهادات الاربعة ، وفى تاريخ متأخر هو ٢٧ رجب سنة س[....]ن وتسعماية ، ويبدأ بما نصه :

« الحمد لله وحده

وقف من سيضع خطه . . . .

وينتهى بما يلى : « وحسبنا الله ونعم الوكيل »

وأمام السطر ٢٦٠ نجد نصا على الهامش الأيمن يرجع إلى العصر العثمانى ويبدأ بما يلى :

« الحمد لله وحده

الامر كما نسب إلى فيه زبره العبد الفقير

محمد بن يحيى القرافى المالكى

عفى عنهما

بالباب العالى اعلاه الله تعالى . . . . »

هذا ويشغل الجزء الأخير من الاشهاد الرابع ـ أعنى شهادة بعض الشهود ـ مساحة قدرها ٢١ سم فقط من طول الدرج رقم ٢٣ . ثم نجد بعد ذلك بياضا طوله ٥ر٩ سم ثم إشهادات متأخرة من العصر العثمانى ، ترجع تواريخها إلى ٨ ذى الحجة سنة ٩٢٣ هـ ، وإلى سنة ٩٧٩ هـ ، ٩٩٢ هـ وهى تواريخ لاعلاقة لها بالاشهادات أو الاسجالات التى تقوم بنشرها ودراستها والتى تخص التصرف القانونى الوارد فى وجه الوثيقة والذى يرجع إلى سنة ٩١١ هـ أى فى العصر المملوكى ، ومن ثم فهى لا تدخل فى نطاق بحثنا هذا .

* * *

---

(٧) القلقشندى : نفس المصدر جـ ٦ ص ١٩٥ — ١٩٦

(٨) سمى خط الغبار بذلك لأن السطر يضعف عند رؤيته لدقته ، كما يضعف عند رؤية الشيء عند ثوران الغبار وتغطيته له . القلقشندى : نفس المصدر جـ ٣ ص ١٢٨

**٢ ـ الخط :**

أما خط الاشهادات الأربعة ـ فيما عدا عبارات التسجيل والتحميدات والتواريخ والحسبلة التي كتبت بقلم جليل لعله الثلث [٩] ـ فهو من النوع المعروف بالديوانى وهو من سلالة خط التوقيع المطلق الذى كان يستعمل فى تحرير الوثائق العربية الشرعية فى العصر المملوكى عامة [١٠].

وقد سار كاتب الاشهادات على القواعد المرعية فى كتابة وثائق ذلك العصر من عدم الاهتمام بقواعد الاملاء مثل مدا سطر ١٥ ، ابن سطر ٢٣ ، ٨١ ، ٩٥ ، ٢١١ ـ كما أهمل النقط كثيرا [١١] بل لقد أهمله الكاتب فى سطور بأكملها مثل السطر رقم ٤٦ ، ٥٠ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ٢١٨ .

هذا ويلاحظ أن الهمزة اللينة تقلب ياء فى وسط اللفظ مثل قضايه سطر ٣٠، ٨٤، ١٥١، ٢١٦ وتسعمايه سطر ٢٣، ٨٧، ١٥٢، ٢١٩ ومسيولا وشرايطه سطر ٣٩ ، ١٠٦ ، ١٦٩ ، ٢٣٧ . وتهمل الهمزة تماما إذا وردت فى نهاية الكلمة مثل الارا سطر ٧ ، الاربعا سطر ٨٦ شكل ١٩ والعلما سطر ٢٠٤ والغربا سطر ٢٠٨ ورجا سطر ٢٠٩ . ولم يضع الكاتب الشكل إلا على البسملة [١٢] فى السطر الأول من كل اشهاد من الاشهادات الأربعة، كما نلاحظ اتصال حروف بعض الكلمات بالتى تليها أحيانا ، أو كتابة اللفظ نفسه بطريقة غير عادية فيها تحوير واضح واختصار أو إغفال لبعض الحروف تبعاً لطريقة الكاتب أو لسرعته فى الكتابة ، وهذا وذاك يجعل من الصعب — على البادئين — قراءته مثل كلمة خيرى

---

(٩) القلقشندى : نفس المصدر ج ٣ ص ٥٨ ، ١٠٠ — وقد كتبت ألفاظ هذه العبارات المختلفة بحروف كبيرة إذ يبلغ طول الألف فى كلمة « الحمد » ٤ سم ، ٩و٤ سم فى سطر ٢ ، ١٩٩ على التوالى شكل ١٤ ، ١٧ ، وطول الألف فى كلمة « الثانى » ٩و٣ سم و « الأول » ٤ سم سطر ٣٢ شكل ١٨ ، وفى كلمة « الخميس » ٢و٤ سم و « المبارك » ٨و٣ سم و « الرابع » ٩و٣ سم سطر ١٥٣ شكل ٢٠ ، وفى كلمة « السابع » ٤ سم سطر ٢١٨ شكل ٢١

(١٠) بحثنا وثيقة الأمير آخور كبير قرانجا الحسنى ( مجلة كلية الآداب م ١٨ ج ٢ ) ص ١٩٠ — ١٩١ وما بها من حواشى .

(١١) نفس المرجع السابق ص ١٩٢ حاشية ١

(١٢) بحثنا هذا « البسملة » ص ٣٠٥ ، تحقيق رقم ١

سطر ٢٦و٨٣ وتعالى سطر ١٠٧ وشهاب الدين ، قامع سطر ١١٣ وفى مثله سطر ١٥٦ مسيولا سطر ١٦٩

وهناك ما هو أكثر صعوبة من قراءة بعض الكلمات أو الألفاظ الواردة فى صلب متن الاشهادات وأعنى بذلك توقيعات بعض الشهود مثل تلك الواردة فى سطر ٦٢و١٢٣ و٢٦٠ .

والحقيقة أن كل اشهاد من الاشهادات الأربعة قد ورد فى ظهر الوثيقة مستقلا قائما بذاته ، فهو يبدأ بالبسملة والتصلية والحمدلة وينتهى بالحسبلة ثم يتبع بشهادة الشهود العدول .

* * *

### ٣ ـ طريقة النشر :

اعتمدت فى نشر هذه الاشهادات أو الاسجالات على الوثيقة الأصلية رقم ٨٨٣ المحفوظة فى أرشيف وزارة الأوقاف اعتماداً كليا ، وكل سطر فيها جعلته سطراً تماما عند النشر . ورجعت إلى النسخة أو الصورة رقم ٨٨٢ فى نفس الأرشيف لمقابلة ما نقلته من الأصل عليها مراراً ، وراجعت ذلك كله فى بطء وأناة ودقة ، لاكمال بعض الكلمات أو الحروف الناقصة التى انمحت محوا كليا أو جزئيا ، أو تلك المحجوبة بورق سميك ملصق فوقها [١٣] .

والحقيقة أننى أفدت من الصورة رقم ٨٨٢ فائدة كبيرة لا تنكر ، غير اننى لن أثبت نتيجة المقابلة والمراجعة دائما فى حواشى النص ، ذلك أن أهمية الأصل طغت على كل الاعتبارات ، ومن ثم آثرت أن أترك متن الأصل والابقاء على النص كما هو بحذافيره فى عباراته وألفاظه وحروفه دون تصحيح أو تعديل ، وذلك ليتعرف القارىء الأسلوب الذى كتبت به صيغ الاسجال الحكمى والاسجالات التنفيذية أو الاشهادات الشرعية عامة فى جل وثائق الوقف فى تلك الحقبة من العصر المملوكى الكبير .

ولقد حرصت كل الحرص على الاهتمام بنشر المتن كما هو فى صورة صحيحة مستقيمة المعنى مع القصد — دون إخلال — فى التصحيح والتفسير والشرح ، فقد يستفيد المختصون من رجال القانون وخاصة المشتغلون بتاريخ القانون والشريعة الاسلامية من ذلك مستقبلا ،

---

(١٣) انظر الحواشى الواردة فى نص الاشهادات .

وهذه الطريقة على ما اعتقد هى أفضل الطرق اليوم لنشر هذه النصوص من الاشهادات الشرعية وغيرها .

* * *

## ثانيا — الدراسة الموضوعية

**١ ـ أنواع الاشهادات :**

الاشهادات أو الاسجالات الأربعة الواردة فى الوثيقة على نوعين :

( ا ) الاسجال الحكمى : ورد فيه الحكم بصحة الوقف ولزومه وانبرامه ونفوذه. سطر ٣٨ ، ٨٨ — ٩٠

(ب) الاسجالات التنفيذية :

١ — الاسجال التنفيذى الأول بتنفيذ الحكم السابق سطر ١٠٠ — ١٠٣ ، ١٥٦

٢ — الاسجال التنفيذى الثانى بتنفيذ التنفيذ الأول سطر ١٦٥ — ١٦٦ ، ٢٢٢

٣ — الاسجال التنفيذى الثالث بتنفيذ التنفيذ الثانى سطر ٢٣٢ — ٢٣٤

هذا والاشهاد على أمر معناه فى الأصل طلب الشهادة عليه ممن شهد وقوعه أو يراد إيقاعه بحضر منه ، وأطلق أيضا على تحرى إيقاع الأمر بحضرة الشهود وإن لم يطلب منهم صراحة أن يشهدوا عليه .

والاسجال أو الاشهاد فى عرف المحاكم الشرعية ، هو إنشاء التصرف أو ما يشبهه كالاقرار لدى كل من له الحق فى سماعه من قضاتها أو موظفيها ، وكثيراً ما يطلق على الوثيقة التى يحرر فيها ذلك ، فهو مرادف لما يسمى فى الجهات الأخرى بالعقد الرسمى ، فالاشهاد عمل من أعمال التوثيق acte de notoriéte ، كما أنه لا يكتمل للاشهاد كيانه القانونى إلا إذا صدر طبقاً للأوضاع المقررة شرعا فى المحاكم ، ولا يتوقف وجوده القانونى على الشهود إذا لم تكن الشهادة شرطاً لصحة التصرف شرعا ، هذا والشهادة فى حالة الوقف شرط لصحته [١٤] .

---

(١٤) فرج السنهورى : مجموعة القوانين المصرية المختارة من الفقه الإسلامى ج ٣ ( شرح قانون الوقف ١ ) ص ٤٨ — ٤٩

وتؤخذ الاشهادات على أصل الوقف فى المحاكم لدى قاضى القضاة أو من يحيلها عليه من نوابه [١٥] ، هذا ويجوز للمقر بالوقف الرجوع عن إقراره بموجب الفقه الحنفى ، ومن ثم لا يعتبر الوقف صحيحا لازما إلا إذا صدر به إشهاد شرعى [١٦] .

وتتضح لنا أهمية ذلك جليه فى عصر المماليك من تهافت الناس على إثبات تصرفاتهم المختلفة من بيع ووصية ووقف أمام القضاة ، هذا ويسمى ما يصدر من ذلك أمامهم بالاشهادات الشرعية ، ومعنى هذا فيما يتعلق بالوقف من حيث الاشهاد عليه إشهاداً شرعيا ممن يملكه على يد الحاكم الشرعى وتسجيله فى سجلات المحكمة — أن وثيقة الوقف قد أصبحت محرراً رسمياً موثقاً له قوة تنفيذية وأنها صارت سنداً شرعياً مقبولا فى كل ظرف وحال ، وبهذا يكون الغرض من الاشهادات زيادة تأكيد وتأييد وإجازة العقد [١٧] pour confirmer le contrat .

وقد جرت العادة على أن تكون افتتاحية الاشهادات سواء الاسجال الحكمى أو الاسجالات التنفيذية بالبسملة والتصلية ثم الحمدلة فى سطر مستقل [١٨] .

ويبدأ متن الاشهاد الأول ( الاسجال الحكمى ) غالباً بعبارة « ثبت اشهاد .... » أما الاشهادات الثلاثة الأخرى ( الاسجالات التنفيذية ) فتبدأ بعبارة « هذا ما اشهد به .. » كما هو الحال فى هذه الاشهادات التى تقوم بدراستها ونشرها فى بحثنا هذا [١٩] .

* * *

---

(١٥) ابن عابدين : رد المحتار على الدر المختار جـ ٤ ص ٢٩٦ ، أحمد ابراهيم : طرق الاثبات الشرعية ص ٧٨ ، قراعه : مذكرة التوثيقات الشرعية ص ٣٢

(١٦) حسين المؤمن : نظرية الاثبات جـ ١ ، القواعد العامة والاقرار واليمين ص ١٣٤ ، أحمد ابراهيم : أحكام الوقف ص ١٢ ، تادرس ميخائيل : شهادة الشهود ص ٤

(١٧) قراعة : مذكرة التوثيقات الشرعية ص ٨ — ١٠

(١٨) بحثنا هذا ، التحقيقات والتعليقات العلمية رقم ١ ، ٢

(١٩) بحثنا وثيقة الأمير آخور كبير قرانجا الحسنى ( مجلة كلية الآداب م ١٨ جـ ٢ ) لوحة ٧ ، ٨ ، ١٠ وكذلك أنظر الاشهادات الواردة فى وثيقة قايتباى محكمة بدون رقم ، أوقاف ٨٨٧ ، ٨٨٨ ، وثيقة قانى باى الرماح أوقاف ١٠١٩ ، وثيقة المؤيد شيخ أوقاف ٩٣٨ ، وثيقة السيفى طقطباى أوقاف ١٠٢٠ ، محكمة ٢٧٢ ، وثيقة جوهر اللالا محكمة ٨٥ ، ٨٦ ، وثيقة جانى بك محكمة ١٥٦ ، وثيقة أزبك من ططخ محكمة ١٩٨ ، وثيقة سيل المؤمنين أوقاف ٨٨٤ ، وثيقة طومان باى أوقاف ٨٨٢ وغيرها .

ويظهر أن قاضى القضاة عبد البر بن الشحنة لحنفى قد بحث وثيقة الوقف بحثاً وافياً من جميع النواحى فى مجلس حكمه ، وتأكد من أن صياغتها تؤدى المعانى التى يريدها المتصرف من غير لبس أو غموض ، أعنى أنه قد تحقق من الشروط الواجب توافرها فى صياغة الوثيقة ، وفى الواقف وفى الموقوف والموقوف عليه وطريقة توزيع الريع ، وبعد بحثه تلك الشروط تعرف أنها جائزة شرعاً [٢٠] . ويتضح لنا كذلك أن قاضى القضاة الحنفى كان هو القاضى الذى ثبت لديه اشهاد الواقف ( السلطان الغورى ) واقراره بجميع ما نسب اليه فى كتاب وقفه من الوقف والشروط المشروحة فيه ، وقد حدث ذلك بلا شك بعد أن قرأت الوثيقة على الغورى وعلم بما تحويه من الوقف والشروط علماً نافياً للجهالة شرعاً على حد تعبير فقهاء المسلمين ، فوافق الواقف على ما جاء فيها وأشهد على نفسه بذلك [٢١] ، فشهد عليه شهود التصرف فى ٢٠ صفر سنة ٩١١ هـ وتبع ذلك حدوث الاشهادات الأربعة وتسجيلها فى الشهر التالى أى فى ربيع الأول سنة ٩١١ هـ .

ويبدأ هذا الاشهاد الحكمى بالنص على ثبوت اشهاد الفاعل القانونى الواقف وهو السلطان قانصوه الغورى — ثم ترد ألقابه المختلفة والدعاء له (سطر ٣—١٢) — بما نسب اليه فى كتاب وقفه لدى قاضى القضاة عبد البر بن الشحنة الحنفى — ثم ذكر ألقابه المختلفة والدعاء له ( سطر ١٧ — ٢٧ ) — وذلك بعد أن صح عنده وثبت لديه ذلك ثبوتاً صحيحاً شرعياً :

(أولا) بشهادة الشهود prêuve par témoins على تحرير الوثيقة المقدمة إليه وعلى العمل أو التصرف القانونى acte juridique الوارد بهـا فى نهاية البرتوكول الختامى لوجه الوثيقة فى ٢٠ صفر ٩١١ هـ [٢٢] .

( ثانيا ) بشهادة الشهود على ملكية الغورى وحيازته لمـا تصرف فيه بالوقف [٢٣] .

---

(٢٠) فرج السنهورى : نفس المرجع السابق ص ٧٦

(٢١) وجه وثيقة الغورى أوقاف رقم ٨٨٣ سطر ١٧٧٦ — ١٧٧٩ ( دراسة ونشر وتحقيق عبد اللطيف ابراهيم — تحت الطبع ) .

(٢٢) وجه وثيقة الغورى أوقاف ٨٨٣ سطر ١٧٨١ — ١٧٨٧

(٢٣) الهامش الأيمن لوجه الوثيقة السابقة بين السطر ١٨٣ — ١٩٣ ، لوحة ١٣

ومن ثم حكم قاضى القضاة الحنفى بموجب ذلك وبصحة الوقف ولزومه وانبرامه ونفوذه حكما صحيحا شرعيا تاما معتبرا مرضيا مستوفيا شرائطه الشرعية ، ثم أمر بتسجيل ذلك ليكون مشهرا وحجة على الغير فيما أعتقد وكتب بخطه « ليسجل » على الهامش الأيمن فى بداية وجه الوثيقة بين السطر ٢ ، ٣ (شكل رقم ١) . وهو يرمى بذلك إلى حفظ الوقف من أن تمتد إليه يد الغير أو يرجع عنه الواقف ، ثم أشهد القاضى ابن الشحنة على نفسه بذلك إشهادا علنيا صريحا وإعلانا عاما أمام جميع من حضر مجلس حكمه فى ١٢ ربيع أول سنة ٩١١ هـ بما نسب إليه فى إسجاله من الحكم بصحة الوقف ، فشهد عليه جمع من الحاضرين من الشهود العدول بذلك فى التاريخ السابق ذكره ، هذا وشهادة الشهود هنا هى شهادة على صدور الحكم من القاضى الحنفى بصحة الوقف ولزومه .

ثم وردت بعد ذلك الاشهادات أو الاسجالات التنفيذية الثلاثة لقضاة القضاة للمذهب الحنبلى والمالكى والشافعى فى الأيام التالية من نفس الشهر — ربيع الأول سنة ٩١١ هـ .

وتبدأ صيغة إشهاد كل قاض منهم بأنه قد أشهد على نفسه من حضر مجلس حكمه فى التاريخ المذكور فى إشهاده بعد أن ثبت عنده على الأوضاع الشرعية إشهاد القاضى السابق عليه بما نسب إليه فى إسجاله من الثبوت والحكم أو من الثبوت والتنفيذ المشروحين فيه فى التاريخ المذكور فيه ثبوتا صحيحاً شرعياً . أى أن كل قاض منهم يعلن ويقر بمعرفته ووقوفه على إشهاد القاضى السابق عليه من الحكم بلزوم الوقف أو تنفيذه ، ثم يقوم هو بعد ذلك بالنص صراحة على تنفيذ وتأييد ما ورد فى إشهاد القاضى السابق عليه ، فالحنبلى نفذ حكم الحنفى ، أما المالكى والشافعى فقد نفذ كل منهما تنفيذ القاضى السابق عليه تنفيذاً صحيحاً شرعيا تاماً معتبرا مرضيا مستوفيا جميع الشروط الشرعية ، وعندما ثبت لكل قاض منهم ذلك كتب بخطه العبارة الخاصة بالتسجيل على الهامش الأيمن للوثيقة عند بداية الاشهاد السابق على إشهاده — أى أن عبارة التسجيل عند بداية الاشهاد الأول هى بخط القاضى الحنبلى ، والتى عند بداية الاشهاد الثانى هى بخط القاضى المالكى ، والتى عند بداية الاشهاد الثالث هى بخط القاضى الشافعى . (انظر عبارات التسجيل ص ٣٠٦) .

ثم أشهد كل قاض منهم على نفسه جمعاً من الشهود العدول الحاضرين مجلس حكمه بما نسب اليه فى إسجاله فى التاريخ المكتوب فيه ، فشهدوا عليه بذلك .

وشهادة الشهود فى الاسجالات الثلاثة الأخيرة هى شهادة على تنفيذ الحكم الحنفى الأول عند قاضى القضاة الحنبلى ، ثم على تنفيذ التنفيذ عند كل من قاضى القضاة المالكى والشافعى. هذا وقد لاحظت أن صيغة الاشهاد على الوقف تشبه لحد كبير صيغة الاشهاد الصادر من القاضى بعدالة شخص وهو المعروف فى مصطلح القلقشندى باسجال العدالة [٢٤].

هذا وقد روعى فى صيغ الاشهادات الأربعة الشروط التى نص عليها الفقهاء فجاءت كاملة من الناحية الفقهية مستوفاة لشروط الصحة الشرعية وهى تعتبر نموذجاً طيباً لصيغ الاشهادات أو الاسجالات فى أواخر العصر الوسيط [٢٥].

* **

والملاحظ أن هذه الاسجالات الحكمية والتنفيذية تمت على يد قضاة القضاة الأربعة دون نواب مذاهبهم ، لأن وثيقة الوقف تخص الأشرف الغورى المتربع فى كرسى السلطنة المملوكية.

ويظهر أن حرص المتصرفين من السلاطين وكبار أمراء المماليك وغيرهم فى ذلك الوقت كان يدعوهم دائماً إلى اثبات الاشهادات على أوقافهم أمام قضاة القضاة الأربعة [٢٦]. ومعنى هذا تحصين الأوقاف عن طريق الحكم بصحتها وتسجيلها ، لأن الحكم الوارد فى الاسجال الأول يصبح نافذاً على جميع المذاهب ، ويدعم هذا الحكم ويؤكده ويقويه بقية الاسجالات التنفيذية التى هى بمثابة شهادة وإقرار وتزكية بصحة الحكم ، بدليل تنفيذه على أيدى القضاة الثلاثة الآخرين ، فكأن الاشهادات الأربعة قد حدثت فى حضور قضاة القضاة كلهم — وصدر الحكم بصحة الوقف على أيديهم مجتمعين فى مجلس واحد.

هذا ويرجع السبب فى نظر الوقف أمام القضاة الأربعة إلى كونه من التصرفات الخطيرة وذلك لصدوره من جانب واحد بغير عوض unilatéral et à titre gratuit وكذلك بسبب الظروف السياسية والاجتماعية التى عاشتها مصر المملوكية وخاصة فى أواخر أيامها ،

---

(٢٤) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٤٨ — ٣٤٩

(٢٥) بحثنا هذا ، التحقيقات العلمية رقم ٧٤

(٢٦) وثيقة السيفى ازدمر من على باى محكمة ٢٤١

ومن ثم فالوقف يعتبر من القضايا والتصرفات الهامة التى كان يجب نظرها أمام القضاة الأربعة للحكم بصحته وتنفيذه وتسجيله وألا ينفرد به قاض واحد [٢٧].

والواقع أن المذاهب الأربعة تستقى من معين واحد هو كتاب الله وسنة نبيه الكريم ، ولا غضاضة فى مشاركة الحنابلة للأحناف أو غيرهم من الفقهاء فى القضاء ، لأن الغرض الأول من الحكم بصحة أى تصرف وتنفيذه إنما هو تحقيق العدالة ورعاية المصالح بما يوافق الحق وخاصة فى حالة الوقف حتى لا يكون هناك مجال إلى إنكاره أو الرجوع فيه أو الاعتداء عليه بأى صورة كانت بعد الاشهاد عليه وتسجيله .

* * *

**٢ ـ اهم عناصر الاشهادات الأربعة :**

( ا ) البسملة والتصلية : هى افتتاحية [٢٨] الاشهادات الأربعة ونصها :

بسم الله الرحمن الرحيم اللهم صلى على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .
سطر ١ لوحة ١ ، سطر ٧٤ شكل ١٥ ، سطر ١٤٢ ، سطر١٩٨ لوحة ١٠ شكل ١٧

(ب) التحميدات : هى من توابع البسملة وجزء أساسى من الافتتاحية فى الاشهادات الأربعة ، وقد وردت بصيغ مختلفة ، وقام كل من قضاة القضاة بكتابتها بخطه فى اسجاله فهى علامته [٢٩] على حد قول القلشقندى ـ وهذا هو نصها على التوالى :

| | |
|---|---|
| ١ ـ الحمد لله عليه توكلت | سطر ٢ لوحة ١ شكل ١٤ |
| ٢ ـ الحمد لله اللطيف الخبير | سطر ٧٥ شكل ١٥ |
| ٣ ـ أحمد الله شاكرا لانعمه | سطر ١٤٣ شكل ١٦ |
| ٤ ـ الحمد لله أحكم الحاكمين | سطر ١٩٩ لوحة ١٠ شكل ١٧ |

---

(٢٧) عرنوس : تاريخ القضاء فى الإسلام ص ٩٢

(٢٨) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٦ ص ٢١٩ — ٢٠٤ ، ٢٢٧ — ٢٢٩ ، جـ ١٤ ص ٣٤٩ ؛ بحثنا هذا تحقيق رقم ١

(٢٩) القلقشندى : نفس المصدر جـ ٦ ص ٢٤ ـ ٢٠٦ ، جـ ١٤ ص ٣٤٢ ، ٣٤٩ ؛ ويظهر ان الحمدله كانت تحل محل توقيع القاضى فى العصر المملوكى كما أنها كانت بمثابة ختم القاضى فى وثائق العصر العثمانى . بحثنا هذا تحقيق رقم ٢

(ج) عبارات التسجيل: نجد أربع عبارات خاصة بتسجيل الوثيقة والاشهادات على الهامش الأيمن بخط قضاة القضاة الأربعة، والعبارة الأولى منها فى بداية وجه الوثيقة بخط القاضى الحنفى الذى حكم بصحة الوقف والثلاث الأخرى فى الظهر عند بداية لاشهادات الثلاثة الأولى بخط كل من قاضى القضاة الحنبلى والمالكى والشافعى على التوالى ونصها:

١ — ليسجل بين السطر ٢ – ٣ شكل ١

٢ — الحمد لله وحده

ليسجل بثبوته وتنفيذه بين السطر ٢ – ٤ لوحة ١ شكل ٢

٣ — ليسجل ليسجل بين السطر ٧٥ – ٧٧ شكل ٣

٤ — الحمد لله

ليسجل بين السطر ١٤٣ – ١٤٤ شكل ٤

(د) التواريخ: كان كل قاضى من قضاة القضاة الأربعة يقوم بكتابة التاريخ بخطه فى وسط أسجاله [٣٠] وهذا هو نص التواريخ على التوالى:

١ — الثانى عشر من ربيع الاول المشرف سطر ٣٢ لوحة ٢، ١٤ شكل ١٨

٢ — يوم الأربعاء الثالث عشر من شهر ربيع الأول سطر ٨٦ لوحة ٥ شكل ١٩

٣ — يوم الخميس المبارك الرابع عشر من ربيع الأول سطر ١٥٣ لوحة ٨ شكل ٢٠

٤ — السابع عشر من شهر ربيع الأول المبارك سطر ٢١٨ لوحة ١٢، ١٥ شكل ٢١

(هـ) الحسبلة: وهى بمثابة الدعاء الختامى فى كل إشهاد من الاشهادات الاربعة وغالباً ما تتبعها أو تسبقها التصلية، وكان كل قاض من قضاة القضاة الأربعة يقوم بكتابتها بخطه فى ختام أسجاله [٣١] ونصها على التوالى:

١ — حسبنا الله ونعم الوكيل

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم سطر ٤٣ – ٤٤ لوحة ٣

---

(٣٠) القلقشندى: نفس المصدر السابق جـ ٦ ص ٢٢٤ — ٢٢٥، ٢٥٢، ٢٦١، جـ ١٤ ص ٣٤٢، ٣٤٩ انظر التحقيق رقم ٥٢

(٣١) القلقشندى: نفس المصدر جـ ٦ ص ٢٦٧ — ٢٧٠، جـ ١٤ ص ٣٤٢، ٣٤٩. انظر التحقيق رقم ٦٣

٢ — وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم وحسبنا الله ونعم الوكيل سطر ١٠٩ لوحة ٦ شكل ٢٢

٣ — وصلواته على أشرف الخلق سيدنا محمد .
وآله وصحبه وسلامه وحسبنا الله ونعم الوكيل سطر ١٧١ - ١٧٢ لوحة ٩

٤ — وحسبنا الله ونعم الوكيل سطر ٢٤٠ شكل ٢٣

( و ) هيئة التوثيق : هم قضاة القضاة الأربعة الذين قاموا بالاشراف الفعلى على عملية التوثيق ، فتمت على أيديهم الاشهادات الأربعة ثم أمر كل منهم الكتاب من الشهود العدول فى مجلس حكمه بتسجيلها وهم على التوالى :

١ — قاضى القضاة سرى الدين عبد البر بن الشحنة الحنفى سطر ٢٣
٢ — « أبو حامد أحمد الشيشينى الحنبلى سطر ٨١
٣ — « أبو المراق ابراهيم الدميرى المالكى سطر ١٤٩
٤ — « أبو العباس أحمد بن القرفور الشافعى سطر ٢١١

***

٣ ـ صيغ الشهادة فى الاشهادات الاربعة :

تقتضى طبيعة البحث أن نعالج موضوعين أساسين عند دراستنا لصيغ الشهادات المختلفة والواردة فى الاشهادات الأربعة وهما :

( ١ ) لفظ الشهادة : أن صيغ الشهادات جميعاً تبدأ بلفظ الشهادة بالصيغة الموضوعية « أشهدنى » وتنتهى بالصيغة الذاتية « فشهدت » واللفظان وردا بصيغة الفعل الماضى .

والمعروف أن ركن الشهادة هو اللفظ الخاص الذى يصدر من الشاهد مخبراً به عما يشهد وهو قوله « أشهد » بصيغة المضارع ، وقيل يشترط أن يؤدى الشاهد شهادته بهذا اللفظ ، لأنه شرط فى كل ما يشهد به أمام القاضى ، وبه قال الفقهاء وهو الراجح ، ولو قال الشاهد « شهدت » لا يجوز لأن الماضى موضوع للاخبار عما وقع فيكون غير مخبر فى الحال[٣٢] .

---

(٣٢) ابن عابدين : رد المحتار على الدر المختار جـ ٤ ص ٣٨٥ ؛ أحمد ابراهيم : طرق الاثبات ص ١٣٦ ؛ قراعة : الأصول القضائية ص ١٠٠ — ١٠١ ؛ حسين المؤمن : نظرية الاثبات جـ ٢ الشهادة ص ٢٢ — ٢٥ وما بها من مراجع .

وأما سبب تأدية الشهادة بلفظ « أشهد » أو اعتباره ركن الشهادة فلا تقبل الشهادة بدونه ، فهو قول صاحب البدائع : « أما الشرائط التي ترجع إلى نفس الشهادة فأنواع ، منها لفظ الشهادة فلا تقبل بغيرها من الألفاظ كلفظ الاخبار والاعلام ونحوهما ، وإن كان يؤدي معنى الشهادة [٣٣] » . وقال في الهداية والفتح : إن النصوص نطقت باشتراط هذه اللفظة لقوله تعالى « وأشهدوا ذوي عدل منكم » ، « أشهدوا إذا تبايعتم » و « واستشهدوا شهيدين من رجالكم » و « فاستشهدوا عليهن أربعة منكم [٣٤] » .

ومهما يكن من أمر فان النصوص وردت بلفظ الشهادة ، وهذه اللفظة أقوى في إفادة تأكيد متعلقها من غيرها من الألفاظ كاعلم واتيقن لما فيها من اقتضاء معنى المشاهدة والمعاينة التي مرجعها الحس ، ولأنها من ألفاظ الحلف أيضا ، وقد جاء الأمر بلفظ الشهادة في قوله عز وجل : « وأقيموا الشهادة لله » ولقول الرسول (ص) : « إذا علمت مثل الشمس فاشهد » .

والواقع أنه في قول الشاهد « أشهد » معنى اليمين والأصل أن لا يشهد الشاهد إلا على ما يعرف [٣٥] . وبالرغم من ذلك فانه لا يوجد دليل من الكتاب ولا من السنة ولا من القياس على اشتراط أن يكون الأداء بلفظ الشهادة فضلا عن لفظ « أشهد » بالذات ، وقد صرح ابن قيم الجوزية بأنه ليس في كتاب الله ولا سنة رسوله موضع واحد يدل على اشتراط لفظ الشهادة ، ولا عن رجل واحد من الصحابة ولا قياس ولا استنباط يقتضيه ، بل متى قال الشاهد رأيت أو سمعت أو نحو ذلك كانت شهادة منه [٣٦] .

والواقع أن اشتراط لفظ أشهد بالمضارع في اداء الشهادة ليس متفقا عليه بين الفقهاء إذ يعتمد مذهب المالكية عدم اشتراطه [٣٧] . كما أن محل اشتراط الفقهاء لفظ « أشهد »

---

(٣٣) الكاساني : بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع ج ٦ ص ٢٧٣ ، قراعه : المصدر السابق ص ١٥٧

(٣٤) المرغيناني : الهداية ، السيواسي ، فتح القدير ج ٦ ص ١٠

(٣٥) الزيلعي : تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق ج ٤ ص ٢٠٩ — ٢١٠ ، ابن قدامه : المغني ، المقدسي : الشرح الكبير ج ١٢ ص ١٣٤ ، الفتاوى العالمكيرية ج ٣ ص ٤٥٠ ، جميط : الطريقة المرضية في الاجراءات الشرعية ص ١٤٩ ، أحمد ابراهيم : طرق الاثبات ص ١٣٦ — ١٣٨

(٣٦) ابن قيم الجوزية : أعلام الموقعين عن رب العالمين ج ١ ص ١٠٤

(٣٧) ابن عابدين : رد المحتار على الدر المختار ج ٤ ص ٣٨٥ ، أحمد ابراهيم : طرق الاثبات ص ٢١٧

إنما هو فى الشهادة الملزمة التى يترتب عليها وجوب الحكم على القاضى وهى المعنية بالشهادة عند الاطلاق ، وأما الشهادة التى هى من قبيل الاخبار المحض كأقوال أهل الخبرة والمزكين سرا وعلنا ، فلا يشترط فيها لفظ أشهد إذ كل ذلك من قبيل الاعلام وإظهار الحال وإعانة القاضى ، وتسمى هذه الشهادة شهادة استفسار أو استكشاف [٣٨] . وأخيرا قضى القانون الصادر فى ٢٠ مايو سنة ١٩٢٦ على لفظ أشهد وأدخله فى خبر كان [٣٩] .

(ب) موافقة الشهادة للشهادة : يتضح لنا من دراسة ألفاظ الشهادة نفسها أن بعضها شهادات متطابقة Témoignages uniformes لفظا ومعنى مستقيمة منتظمة والبعض الآخر متفقة فى المعنى فقط .

وقد اكتفى فى قبول الشهادة أن تطابق شهادة أحد الشاهدين شهادة الآخر فى المعنى وإن اختلفت الألفاظ ، لأنه قل أن يتفق شاهدان على ما شهدا به لفظا ومعنى [٤٠] . وقد لاحظنا فى هذه الاشهادات تطابق بعض الشهادات لفظا ومعنى مثل تلك الواردة فى سطر ١٢٢ ، ١٢٤ - ١٣٠ ، ١٣٢ - ١٨٨ ، ١٩٠ - ٢٥٥ ، ٢٥٧ ، ٢٥٩ ، ٢٦١ ، ٢٦٣ ، ٢٦٥ .

هذا وقد ذهب الامام الأعظم أبو حنيفة النعمان إلى أنه لابد فى توافق الشهادات concordance des témoignages من الموافقة المطابقية بين شهادتى الشاهدين بأن يكون ما تفيده شهادة أحد الشاهدين من المعنى عين ما تفيده شهادة الآخر ولو اختلفت الألفاظ ، لأن العبرة فى الشهادة للمعانى لا للألفاظ .

أما الصاحبان محمد وأبو يوسف فقد اشترطا الموافقة فى المعنى فقط ولو بطريق التضمين [٤١] . وقد وجدنا فعلا أن كثيرا من الشهادات متفقة فى المعنى فقط مثل تلك الواردة فى سطر ٥٤ ، ٥٨ - ٦٠ ، ٦٣ - ٦٨ ، ٧١ - ١٣٤ : ١٣٩ - ١٨٣ ، ١٨٥ - ١٩٢ ، ١٩٤ ، ١٩٦ .

---

(٣٨) أحمد ابراهيم : طرق القضاء فى الشريعة الإسلامية ص ٣١٢ — ٣١٣ ، طرق الاثبات ص ١٣٩

(٣٩) أحمد ابراهيم : طرق الاثبات ص ٢١٦

(٤٠) قدرى : قانون العدل والانصاف ص ٢٢٣ مادة ٥٨٠ — ٥٨١ ، أحمد ابراهيم : طرق القضاء ص ٢٦٤ — ٢٦٥ ، طرق الاثبات ص ١٩٠ — ١٩١ ، حسب المؤمن : نظرية الاثبات ج ٢ الشهادة ص ١٢٧ ومابعدها . ابن قاضى سماوه : جامع الفصولين ج ٢ ص ٣٢٦

(٤١) قراعه : الأصول القضائية ص ١٨٢ — ١٨٣ ، أحمد ابراهيم : طرق الاثبات ص ١٩٢

وقد ظن البعض أنه لابد أن تكون ألفاظ الشاهد الثانى عين ألفاظ الشاهد الأول أخذا من ظاهر عبارة ابن عابدين وهى قوله : « ومنها موافقة الشهادتين لفظا ومعنى وموافقة الشهادة الدعوى معنى فقط »[42] هذا مع العلم بأن اختلاف لفظ الشهادتين الذى لا يوجب اختلاف المعنى لا يضر[43] .

* * *

**٤ ـ الشهود فى الاشهادات الأربعة :**

(١) العدد : يلاحظ القارىء لهذه الاشهادات كثرة عدد الشهود ، ومن المعروف أنه يشترط العدد فى الشهادات ، لأن فى العدد معنى التوكيد ، صيانة للحقوق من الضياع ، وقد أشار إلى ذلك كل من الامام الاوزاعى والامام السرخسى[44] خشية السهو والنسيان .

ومهما يكن من أمر فإن تعدد الشهود وتوافقهم فيه ضمان للقاضى وراحة لضميره ومن المستقر عليه أن التواتر هو خبر جماعة لا يتصور اتفاقهم على الكذب ، وليس للتواتر عدد معين على الصحيح وإنما الشرط أن يكون المخبرون جمعا لا يجوز العقل اتفاقهم على الكذب[45] .

ومن أسباب كثرة الشهود فى العصر المملوكي أنه كان لكل قاض من قضاة القضاة الأربعة عدد من نواب الحكم ، ولكل منهم جمهرة من الشهود العدول ، وتتضح لنا تلك الحقيقة من أنه قد تقرر بعد الفتح العثمانى لمصر بأن يقتصر على أربعة من النواب من كل مذهب نائب ، وكل نائب يقتصر على اثنين من الشهود فقط وهو أقل عدد يمكن قبوله فى الشهادة شرعاً ، وأن يكون هؤلاء النواب والشهود بالمدرسة أو المحكمة الصالحية النجمية[46] .

(٤٢) ابن عابدين : رد المحتار ج ٤ ص ٤٠٥ — ٤٠٦

(٤٣) أحمد ابراهيم : طرق الاثبات ص ٢٠٣ حاشية ١ ، أنظر كذلك المصادر التالية : السيواسى : فتح القدير ج ٦ ص ٥٥ ، الفتاوى الهندية ج ٣ ص ٥٠٣ ، السرخسى : المبسوط ج ١٦ ص ١٧٢ وما بعدها ، الزيلعى : تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق ج ٤ ص ٢٢٩ وما بعدها ، الفتاوى المهدية ج ٣ ص ٣١٣ ، عشوب : كتاب الوقف ص ٢٧٣ — ٢٧٤ .

(٤٤) السرخسى : المبسوط ج ١٦ ص ١١٣ — ١١٤

(٤٥) أحمد ابراهيم : طرق الاثبات ص ٢٧ — ٣٠ ، تادرس : شهادة الشهود ص ٥٠ .

(٤٦) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٥ ص ٣٠٠ ، ٤١١ — ٤١٣ ، ٤٤٧ ، ٤٤٩ ، ٤٥٣ — ٤٥٥ ، عرنوس : تاريخ القضاء فى الإسلام ص ١٠٧ — ١٠٨ ، أنظر بحثنا هذا حاشية رقم ١١٨ — ١٢٠ وما بها من مراجع .

## جدول رقم ٢

« بيان بأسماء الشهود ومذاهبهم الواردة فى الاشهادات الأربعة »

| الرقم | الاشهاد الأول | الاشهاد الثانى | الاشهاد الثالث | الاشهاد الرابع |
|---|---|---|---|---|
| ١ | موسى بن عبد الغفار المالكى | موسى بن عبد الغفار المالكى | موسى بن عبد الغفار المالكى | عبد الكريم بن على الجولى الشافعى |
| ٢ | عبد الكريم بن على الجولى الشافعى | سعد بن ابراهيم الطيبى | يحيى بن ابراهيم الدميرى المالكى | موسى بن عبد الغفار المالكى |
| ٣ | أبو الفضل محمد الأعرج | احمد بن محمد الاسحاقى | محمد بن حسن اللقانى | سعد بن ابراهيم الطيبى |
| ٤ | صالح بن على [....] الشافعى | [ عبد الرحمن بن عبد الغنى الحريرى ] | عبد الكريم بن على الجولى الشافعى | احمد بن محمد بن الحمصى الانصارى الـ[شافعى] |
| ٥ | محمد بن محمد الخطيب | محمد بن على المخزومى | أبو الفضل محمد الأعرج | محمد عرفات الشافعى |
| ٦ | يحيى بن محمد البرديني الشافعى | محمد بن عبد القادر الهواشى الشافعى | سعد بن ابراهيم الطيبى | محمد [جمال الدين بن سليم الحنفى] |
| ٧ | محمد بن على السعودى الحنفى | احمد بن عبد الرحمن الطنبدى | احمد بن محمد الاسحاقى | عبد الرحمن بن عمر الانباسى |
| ٨ | سعد بن ابراهيم الطيبى | اسماعيل بن ابراهيم الانباسى | محمد بن عبد القادر الهواشى الشافعى | أبو الفضل محمد الأعرج |
| ٩ |  | محمد بن على السعودى الحنفى | ابراهيم بن عبد القادر الدميرى | محمد بن عثمان الدمياطى |
| ١٠ |  | أبو الفضل محمد الأعرج |  |  |
| ١١ |  | عبد الكريم بن على الجولى الشافعى |  |  |

هذا وقد شهد على الاسجال الأول ثمانية شهود عدول وعلى الثانى أحد عشر شاهداً وعلى كل من الثالث والرابع تسعة شهود (٤٧).

وأغلب هؤلاء العدول شهد مرة واحدة فقط أمام أحد قضاة القضاة ، واثنان منهم شهدا مرتين وهما :

١ — محمد بن على السعودى الحنفى الذى شهد على الاسجال الحكمى لقاضى القضاة الحنفى سطر ٧٠ ، ثم شهد على الاسجال التنفيذى لقاضى القضاة الحنبلى سطر ١٣٥

٢ — محمد بن عبد القادر الهواشى الشافعى الذى شهد على الاسجال التنفيذى لكل من قاضى القضاة الحنبلى والمالكى سطر ١٢٩ ، ١٩٥

وهناك أربعة من الشهود الراسخين فى العدالة شهدوا على الاسجالات الأربعة وهم :

١ — موسى بن عبد الغفار المالكى سطر ٥٣ ، ١١٦ ، ١٧٩ ، ٢٥٢ — لوحة ٦ ، ٩ شكل ٦ ، ٨ ، ٢٦

٢ — عبد الكريم بن على المجولى الشافعى سطر ٥٥ ، ١٤٠ ، ١٨٦ ، ٢٥٠ — لوحة ٤ ، ٧ شكل ١٠ ، ٢٤

٣ — أبو الفضل محمد الأعرج سطر ٥٩ ، ١٣٧ ، ١٨٩ ، ٢٦٤ — لوحة ٤ ، ٧ شكل ٧ ، ٢٥

٤ — سعد بن ابراهيم الطيبى سطر ٧٢ ، ١١٩ ، ١٩١ ، ٢٥٤ — شكل ٩

(ب) المذاهب : كثير من الشهود ذكر المذهب الذى ينتمى اليه ( حنفى — شافعى — مالكى ) وبعضهم لم يذكره بتاتاً عقب توقيعه مثل سعد بن ابراهيم الطيبى ، وأبو الفضل محمد الأعرج وهو شافعى المذهب (٤٨).

---

(٤٧) أنظر الجدول رقم ٢ حيث تجد بياناً بأسماء الشهود ومذاهبهم المختلفة فى الاشهادات الأربعة .

(٤٨) أنظر ترجمته ، تحقيق رقم ٦٨

وأغلب الظن أنه لم يكن بين هؤلاء الشهود حنابلة، إذ يقول السيوطي للمؤرخ المعاصر: «فقهاء الحنابلة بالديار المصرية قليل جداً» ويظهر أن مرتبة قاضي القضاة الحنبلي كانت تأتي في آخر ترتيب القضاة لذلك السبب [49].

(ج) التوقيعات: يتضح لنا من دراسة شهادة الشهود الواردة بعد الاسجالات الأربعة أنهم جميعاً يعرفون الكتابة، فقد وقع كل منهم باسمه عقب شهادته، كما لم نجد ختما واحداً لأي شاهد بعد شهادته — على عكس الحال في كثير من وثائق العصر العثماني — لأن هؤلاء الشهود العدول هم في الواقع من رجال الدين المتعلمين — في آخر عصر المماليك — الذين وصل بعضهم إلى منصب نيابة القضاء مثل موسى بن عبد الغفار المالكي وعبد الكريم بن علي الجولي الشافعي [50] أو إلى منصب قاضي القضاة مثل يحيى بن إبراهيم الدميري المالكي [51].

ومن المسلم به أنه لا تعد الشهادة تامة إلا بالتوقيع، لأن معناه الاشتراك في الفعل التوثيقي بالشهادة، وخلع صفة الصحة على هذه الاشهادات. كما أن حالة الختم على الوثيقة تخالف تماماً حالة التوقيع كتابة، لأن الاعتراف بصحة الختم لا يفيد الاعتراف بالتوقيع، ولكن الاعتراف بالتوقيع يفيد حتما صحة التوقيع ذاته، ذلك أن الختم شيء مادي منفصل عن الانسان وقد تصل اليه يد غيره فيستطيع استعماله، ولا سيما إذا لوحظ جهل حامل الختم في الغالب، وقد يكون فوق ذلك من البساطة بحيث يتيسر إدخال الغش عليه [52].

***

(٤٩) السيوطي: حسن المحاضرة (ط. الوطن) جـ ١ ص ٢٧٤، عرنوس: تاريخ القضاء ص ١٠٧، انظر تحقيق رقم ٣٠

(٥٠) أنظر ترجمة كل منهما في التحقيقات رقم ٦٥، ٦٦

(٥١) أنظر ترجمته تحقيق رقم ٧٩

(٥٢) أحمد ابراهيم: طرق الاثبات ص ٩٣، ٢٧٥

## ثالثا — الوقف : دراسة فى التوثيق والتسجيل

يجب أن نقدم لهذه الدراسة بعرض موجز من الناحية القانونية (٥٣) باعتبارها عنصراً أساسيا فى هذا البحث الخاص بالتوثيق أو الاشهادات والتسجيل فى العصر المملوكي .

حقاً إن موضوع شهر التصرفات العينية العقارية يحتل أهمية بالغة فى كافة الجماعات ، ومن المسلم به أن الحق العينى ينتقل بمجرد تلاقى إرادتى المتعاقدين ، وانتقال الحق على هذا الوجه يتفق عادة وصالح المتعاقدين الذين يرغبون فى تبسيط العقود وتحاشى الاجراءات الشكلية والنفقات ، على أن العقود والتصرفات القانونية المختلفة لا ينحصر أثرها فى طرفى العقد فحسب إذ يمتد هذا الأثر إلى الغير الذين يهمهم الوقوف على مجرياتها (٥٤) .

ونظام التوثيق من النظم الأساسية فى المعاملات العقارية ، وقد أحس الناس فى كل الشعوب التى حصلت على قدر معين من الحضارة ، بالحاجة إليه بل بضرورته وفائدته فى كل الأزمنة ومنذ عهد بعيد . ولما كان للتوثيق أهمية كبيرة فى تنظيم سير المعاملات وإقامتها على أساس وطيد لاظهار نية المتعاقدين أو المتصرفين واضحة جلية فى معاملاتهم والمحافظة على المحررات التى تثبتها وصيانتها على مر الأيام ، لذلك عنيت جميع التشريعات فى مختلف البلاد فى كل العصور بالتوثيق — وخاصة توثيق إشهادات الوقف وما يتعلق به توثيقاً يتفق مع أهميته فى العصر الوسيط — لأن التوثيق يكفل تحقيق الطمأنينة التامة على الحقوق واستقرار المعاملات وإغلاق أبواب الشر والمنازعات .

والتوثيق من النظم العريقة فى القدم — وقد أجمعت أغلبية الشرائع من قديم الزمن على وجوب شهر التصرفات العقارية ، وذلك لاحاطة المعاملات بسياج من الثقة والطمأنينة حماية لحقوق المتعاملين من العبث .

***

وطريقة التوثيق فى القانون ليست حديثة كما ذكرنا ، فقد عُرف التوثيق فى كل من مصر الفرعونية وعند اليونان والبطالمة والرومان والجرمان القدماء والبيزنطيين ، وكذلك عُرف

(٥٣) اعتمدت فى هذه الدراسة على المصادر القانونية المختلفة وخاصة المصادر الأصلية الشريعة الإسلامية ، كما رجعت إلى بعض كتب القانون الحديثة مضطراً رغم ان بعضها لا يرقى إلى درجة المصادر وذلك لعدم توفر المصادر الأصلية التى كتبت فى هذا الموضوع واهمال تلك الحقبة الهامة من تاريخنا من حيث دراسة ونشر وثائقها التى تعتبر المصدر الرئيسى للباحث فى تاريخ القانون .

(٥٤) محمود شوقى : الشهر العقارى علما وعملا ص ١

فى كل من فرنسا وانجلترا فى العصور الوسطى ، لأن ذلك يكسب العقود قوة وتحفظ الحقوق المدونة فيها من الضياع ، ويجعلها حجة على الغير بعد تسجيلها (٥٥) .

فقد كانت العقود الناقلة للملكية فى مصر القديمة تخضع لاجراءات التوثيق والشهر ، وكانت هناك مكاتب للتوثيق تسمى مكاتب الاختام ، وكان بها موظفون مختصون . وكانت العقود الرسمية تمهر بتوقيع الطرفين المتعاقدين والشهود ثم تعطى صورة منها إلى كل من الطرفين ، وكانت كل عملية قانونية لنقل ملكية شيء محدد يجب تسجيلها فى سجل خاص (٥٦) .

وكذلك عرف العرب تحرير الوثائق والاشهاد عليها فى بداية العصر الاسلامى فى صلح الحديبية ، ففى السنة السادسة من الهجرة كتب الصلح بين النبى محمد (ص) وقريش ، وكان الكاتب سيدنا على بن أبى طالب ، وبعد الفراغ من الكتاب أشهد الطرفان المتعاقدان على الصلح رجالا من المسلمين ورجالا من المشركين (٥٧) ، وكذلك كتب أبو بكر عهداً لأهل نجران كما كتب عمر بن الخطاب كتاب صلح لأهل إيليا ( بيت المقدس ) (٥٨)

وقد أمر الله سبحانه وتعالى بتحرير التصرفات وكتابة العقود والاشهاد عليها (٥٩) فى كتابه العزيز فى آية المداينة : « يأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل . . . . . واستشهدوا شهيدين من رجالكم فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء . . . . . ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا ... واشهدوا إذا تبايعتم ولا يضار كاتب ولا شهيد ... » .

---

(٥٥) أنظر الحاشية رقم ٦٠ فى ص ٣١٦ Schellenberg : *Modern Archives*, U.S.A. 1955, P. 3 f.

(٥٦) شفيق شحاته : تاريخ القانون الخاص فى مصر ج ١ ص ٤٤ — ٤٥ ، ١٠٣ — ١٠٤ ، ١٦٥

(٥٧) محمد حميد الله : مجموعة الوثائق السياسية فى العهد النبوى والخلافة الراشدة ص ١٣ — ١٦ وما بها من مراجع ، الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ( ط . ليدن ) ج ١ قسم ٣ ص ١٥٤٦ — ١٥٤٧ ، ابن هشام : كتاب السيرة ( ط . ليدن ) ج ٣ ص ٧٤٧ — ٧٤٨

(٥٨) محمد حميد الله : نفس المرجع ص ٩٦ — ٩٧ ، ٢٦٨ — ٢٦٩ ، قراءة : مذكرة التوثيقات ص ١٠ — ١٢

(٥٩) أحمد ابراهيم : طرق الاثبات ص ٢٨٥ — ٢٩٢ وما بها من حواشى ، سورة البقرة آية ٢٨٢

ومهما يكن من أمر فقد عرف التوثيق منذ القدم وكانت له أركان قانونية لا بد من توافرها لكى يصبح العقد رسمياً له قوة تنفيذية ، والواقع أن التوثيق قديما لم يكن منظما كما هو الحال اليوم ، ولكن بالرغم من ذلك فان طريقة التوثيق وإن لم تكن أحكم من الطريقة الحالية فهى لا تقل عنها بحال من الأحوال قياساً مع الفارق ، وقد دلت البحوث التاريخية على قلتها — وخاصة فى تاريخ القانون — أنه كان لمصر قديما نظم خاصة لشهر التصرفات العقارية ، ويظهر أن النظام المتبع خلال العصر الوسيط والعثمانى كان متصوراً على إثبات التصرفات فى محررات هى عادة حجج أو مستندات تصدر من الحاكم فى ذلك الوقت ، وكان لمن وقع له التصرف أن يحتج بتلك المحررات ـ بعد تسجيلها ـ على الغير (٦٠) .

* * *

وكذلك عُرفت وظيفة الموثق Notary, Notaire فى العصور الوسطى فى الشرق والغرب على السواء . عرفتها مصر المملوكية فى العصر الأول والثانى (٦١) . وكان يشغل

---

(٦٠) محمود شوقى : الشهر العقارى المقدمة ص ا — ح ، ص ٢ — ٥ ، محمد عبد اللطيف : الشهر العقارى ص ١ — ٣ ، سليم حسن : مصر القديمة ج ٢ ص ٥١ وما بعدها — ابراهيم نصحى : تاريخ مصر فى عهد البطالمة ج ٢ ص ٦١٨ — ٦٢٤ ؛ محمد أحمد حسين : الوثائق التاريخية ص ٥٨ — ٦٣

H. Charrier : *Le notariat Français* (*son organisation, son rôle, réformes proposées*). Pais 1905, p. 6. Enc. Brit. art. *Notary*.

(٦١) نجد بين سطور كثير من الوثائق المملوكية فى العصرين البحرى والبرجى عبارات كثيرة منها « بخط موثقه » وثيقة السلطان حسن محكمة ٤٠ ، وثيقة السيفى ازدمك محكمة ٢٨٨ ، وثيقة المقياس أوقاف ٨٨٢ ص ٥١٨ ، وثيقة السيفى قرقماس محكمة ٢٣٣ ؛ أو « بخط مسجله » وثيقة الناصر محمد بن السيفى جانم محكمة ٢٣٤ ؛ وهذه العبارات وغيرها تؤكد لنا صراحة وجود وظيفة الموثق والمسجل فى العصر المملوكى — ويظهر ان كلا من الوظيفتين كان يقوم بها كتاب مجلس القضاء لمعاونة القاضى فى عمله — هذا إلى جانب ما نجده على الهامش الأيمن فى وجه وظهر عشرات من الوثائق المملوكية من ألفاظ وعبارات خاصة بالتسجيل مثل « ليسجل » أو « ليسجل بثبوته » أو « ليسجل بثبوته وتنفيذه » أو « ليسجل بثبوته والعمل بموجبه » أو « لينقل ويسجل » وثيقة النورى أوقاف ٨٨٣ ؛ بحثنا هذا شكل ١ — ٤ ، وثائق محمد بن قلاوون محكمة ٢٥ ، ٢٧ ، ٣٠ ، ٣١ ، وثائق حسن بن قلاوون محكمة ٣٧ ، ٤٠ ، ٤١ ؛ ٤٢ ، وثيقة فرج بن برقوق محكمة ٦٦ ، وثيقة السلطان إينال دار الكتب ٦٢ تاريخ ، ( المرحوم محمود حمدى وكيل وزارة الزراعة الأسبق ) ، وثيقة بدار الكتب ١٦٥٢ تاريخ ، وثيقة قايتباى أوقاف ٨٨٧ ، ٨٨٨ ، محكمة بدون رقم ، ٢١٠ ، وثيقة الطواشى شجاع الدين عنبر محكمة ٢٢٩ وغير ذلك من الوثائق عدد كبير لا حاجة لذكره .

هذه الوظيفة آنذاك شيخ من الشهود العدول من الكتاب بالمحكمة — وهم كتاب الحكم على حد قول القلقشندى — من المرشحين لوظيفة نيابة القضاء أو غيره من الشهود الملازمين للقاضى فى مجلس حكمه ، ممن يُشهد لهم بالعدالة والأمانة ، والعلم بشروط صحة العقود ، والخبرة التامة بكتابة المحررات المختلفة الأنواع لكى تكون صحيحة مستوفية لشروطها الشرعية ، لأنه يشترط فى تحرير العقود أن يقوم بكتابتها من لهم دراية قانونية بحيث تتضح بدقة تامة شخصية الفاعل القانونى ( المتصرف ) ووصف العقار وتحديده ( المتصرف فيه ) وغير ذلك مما يجب النص عليه بوضوح فى العقود [٦٢] . وإذا كان ذلك لازماً بالنسبة للكاتب والمحرر فان وجوبه ألزم بالنسبة للموثق — وهو موظف عمومى — الذى يقوم بمراجعة العقود التى تعرض على المحكمة للتأكد من صحتها وسلامتها ومطابقتها للحقيقة والشرع من حيث الصياغة القانونية rédaction technique .

ومن ثم يمكن القول بأن الموثق كان من جملة العدول فى مجالس القضاء ، الذين كانوا يقومون بهذا العمل التوثيقى عادة أو بالمساعدة فى إتمامه . وكان يشترط فى الواحد من هؤلاء العدول أن يكون مسلماً بالغاً عاقلا سالما من أسباب الفسق وخوارم المروءة ، صحيح الرواية عدلا ، صاحب خبرة بالناس غير طماع ، كما ينبغى أن يكون فقيها حافظا ضابطا يقظا ، يعرف أسباب الجرح والتعديل ، وأن يكون غنياً ، وألا يكون مغفلا أو منزوياً لا يخالط الناس [٦٣] .

ويظهر أن كل من كان يريد أن يحترف حرفة العدالة يذهب إلى القاضى ويُعلمه بذلك وبعد التحقق من عدالته الشرعية ، يصدر القاضى اسجالا بعدالته ، ويقيد فى ديوان

---

= وهذه العبارات وأمثالها كان يكتبها القاضى بخطه بحروف كبيرة بعد صدور حكمه بصحة التصرف أو تنفيذه لكى يقوم أحد كتاب الحكم باتمام عملية التسجيل ، أنظر بحثنا هذا ص ٣٠٦

(٦٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١٤ ص ٣٤٩ ، ابن قاضى سماوه : جامع الفصولين جـ ٢ ص ٣٢٦ ، محمود شوق : الشهر العقارى ص ٣٢

(٦٣) المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٦ حاشية ٤ وما بها من مراجع ، عرنوس : تاريخ القضاء ص ١٣١ — ١٣٥ ، قراعة : مذكرة التوثيقات الشرعية ص ٢ — ٣ ، حسين المؤمن : نظرية الاثبات جـ ٢ ، الشهادة ص ٧٧ — ٨١ ، بحثنا وثيقة الأمير آخور كبير قراقجا الحسنى ( مجلة كلية الآداب م ١٨ جـ ٢ ) ص ١٩٧ حاشية ١

العدول [٦٤]. وكان هؤلاء العدول يقومون بمعاونة القضاة فى عملية التوثيق وإجراءاتها — باعتبارهم مساعدين لهم — من كتابة الاشهادات وتزكية الشهود والتصديق على شهاداتهم أحياناً ، لأن هذا كله من صميم عملهم فى مجلس القضاء .

ويقول ابن خلدون إن العدالة وظيفة دينية تابعة للقضاء — وقد شغل ابن خلدون نفسه وظيفة القضاء فى مصر المملوكية مدة — ومن مواد تصريفه ، وحقيقة هذه الوظيفة القيام عن إذن القاضى بالشهادة بين الناس فيما لهم وعليهم ، تحملا عند الاشهاد ، وأداء عند التنازع ، وكتباً فى السجلات تحفظ به حقوق الناس وأملاكهم وديونهم وسائر معاملاتهم ، وشرط هذه الوظيفة الاتصاف بالعدالة الشرعية ، والبراءة من الجرح ، ثم القيام بكتب السجلات والعقود من جهة عباراتها وانتظام فصولها ، ومن جهة احكام شروطها الشرعية وعقودها ، فيحتاج حينئذ إلى ما يتعلق بذلك من الفقه ، ولأجل هذه الشروط وما يحتاج إليه من المران على ذلك والممارسة له ، اختص بذلك بعض العدول . هذا والعدالة من شروط اختصاصهم بالوظيفة ، ويجب على القاضى تصفح أحوالهم ، والكشف عن سيرهم ، رعاية لشرط العدالة فيهم وأن لا يهمل ذلك ، لما يتعين عليه من حفظ حقوق الناس ، فالعهدة عليه فى ذلك كله [٦٥] . وكان القضاة يعولون غالباً فى الوثوق بصحة البيانات على العدول ، ويظهر أن وظيفة العدالة شيئان :

١ — كتابة العقود وتحرير الوثائق ، ومراجعتها بين الناس فى معاملاتهم مستوفاة شروطها الشرعية .

٢ — أن يستعين بهم القاضى على تزكية الشهود الذين يشهدون عنده لأن القاضى إنما يحكم بالبينة المزكاة .

ويظهر أن بعض العدول — رغم اشتراط هذه الأوصاف الخلقية فيهم — كان على قدر

---

(٦٤) مرنوص : تاريخ القضاء ص ١٣١ — ١٣٢ ، القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١٤ ص ٣٤٦ — ٣٤٩ ، أنظر تحقيق رقم ٦٧ .

(٦٥) ابن خلدون : المقدمة ص ٢١٢ — ٢١٣ ، ابن قاضى سماوه : جامع الفصولين جـ ٢ ص ٣٢٦

خلق واجتماعى متواضع مما جعل سفيان الثورى يقول : « الناس عدول إلا العدول » وما قاله عبد الله بن مبارك : « هم السفلة » [٦٦] .

وقد كان لعدد من كتاب الوثائق والشهود دكاكين ومصاطب [٦٧] يجلسون عليها بجوار المحاكم فى العصر المملوكى ، يستقبلون فيها أصحاب الحاجات من المتقاضين أو المتصرفين لقضاء حوائجهم من تحرير وكتابة وشهادة على عرائض الدعوى والعقود الناقلة للملكية وغيرها ومنها وثائق الوقف ، ومن هؤلاء الشيخ أبو الفضل محمد الأعرج السنباطى [٦٨] الكاتب المجيد ووالده من قبله .

ويظهر أن القضاة والعدول من الكتاب والشهود كانوا يتقاضون أجراً على كتابة الوثائق ومراجعتها وغير ذلك من الشئون القضائية فى العصر الوسيط وبعده فقد جاء فى جامع الفصولين « وللقاضى أخذ الأجرة على كتبه السجلات والمحاضر وغيرها من الوثائق إذ يجب عليه القضاء وإيصال الحق إلى أهله لا الكتبه ، ولكن إنما يطيب له لو أخذ ما يجوز أخذه لغيره . . . . وأما أجرة السجل على من تجب ، قيل على المدعى إذ به إحياء حقة فنفعه له ، وقيل على المدعى عليه إذ هو يأخذ السجل ، وقيل على من استأجر الكاتب وإن لم يأمره أحد وأمره القاضى فعلى من يأخذ السجل » [٦٩] .

والواقع أن التسجيل لم يكن مطلوبا إلا لاعلام الكافة وامتناعة بسبب عدم نفاذ العقد فى مواجهة أصحاب المصلحة ، على أن هذا لا يغير من موقف المتعاقدين كل حيال الآخر بمعنى أنه إذا لم يكن ثمة ضرر يصيب الغير من جراء عدم التسجيل فإن العقد يظل صحيحا ، ولكن لكى يكون العقد أو التصرف صحيحا نافذا يجب ألا يكون مشوبا بعيوب تجعله مثار نزاع فى المستقبل أومحل شك ولهذا وجب تسجيله . وإنشاء الوقف فى العصر الوسيط عامة ـ والمملوكي خاصة ـ كان يخضع للتسجيل وكانت المحاكم تقوم بهذه المهمة [٧٠] .

---

(٦٦) السبكى : معيد النعم ومبيد النقم ص ٦٣ ، عرنوس : المرجع السابق ص ١٣٤

(٦٧) ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٤ ص ٣٤٧ ، جـ ٥ ص ٤٦٤ ، ابن خلدون : المقدمة ص ١١٣ ، عرنوس : المرجع السابق ص ١٣٢

(٦٨) أنظر تحقيق رقم ٦٨

(٦٩) ابن قاضى سماوه : جامع الفصولين جـ ٢ ص ٢١١ — ٢١٢ ، ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٥ ص ٤١٢ — ٤١٣ ، ٤٤٧ ، ٤٥٥

(٧٠) محمود شوق : الشهر العقارى ص ٦ — ٧ ، ١٨ — ١٩

ومهما يكن من أمر فإن العقود أيا كانت طبيعتها تكتسب صحتها ومفعولها بين المتعاقدين إثر موافقتهم عليها ـ لأن المسلمين عند شروطهم كما يقول الفقهاء والعقد شريعة المتعاقدين كما يقول رجال القانون المحدثين ـ ودون ما اشتراط لشكل خارجي أو شهر ولكن هذه الفكرة أدت إلى إيقاع الكثير من المتعاملين فى متاعب كثيرة وحملتهم أضراراً جسيمة بسبب إهمالهم تسجيل العقود ، ذلك أن عدم التسجيل يؤدى فى الواقع إلى انعدام اثر العقد غير المسجل بالنسبة لغير المتعاقدين مما يفقده حجيته فى مواجهتهم لعدم استيفائه لشروطه الشكلية من حيث الشهر والتسجيل (٧١) . وإذا كان ذلك كذلك بالنسبة للتصرف القانونى أو العقد الملزم للجانبين acte bilatéral فإنه أولى بلاشك بالنسبة للعمل القانونى الصادر من جانب واحد acte unilatéral كما هو الحال فى الوقف .

والمعروف أن العقد أو السند يطلق على كل مايفيد الالتزام بشىء ، وهو من حيث الأثر إما أن يكون ملزما للجانبين أو ملزما لجانب واحد ، ومتى كان العقد مشروعا فالوفاء به من ألزم الواجبات ، فقد قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعهود » وقال : « واوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا » وقال صلى الله عليه وسلم : « لا أمان لمن لا أمانة له ولادين لم لا عهد له » (٧٢) .

والتصرف القانونى هو التعبير عن إرادة ترمى إلى إحداث أثر قانونى ، وهو بهذا يشمل العقود أى التصرفات التى تتم بتوافق إرادتين ، كما يشمل التصرفات الارادية الاختيارية التى تتم بإرادة منفردة من جانب واحد La volonté unilatérale مثل الوقف (٧٣) .

والارادة المنفردة — إرادة الواقف مثلا — هى عمل أو تصرف قانونى صادر من جانب واحد acte juridique unilatéral يترتب عليه آثار قانونية مختلفة (٧٤) فتارة

---

(٧١) محمود شوق : نفس المرجع السابق ص ١٨ — ١٩ ، ٢٣ — ٢٤

(٧٢) قمحه : التنفيذ علما وعملا ص ٤٦ — ٤٧ ، قدرى : مرشد الحيران ص ٦٥ — ٦٦ ، السنهورى : الوسيط ص ١٥٠

(٧٣) السنهورى : نفس المرجع السابق ص ١٢١ — ١٣٤ ، محمود أبو طاليه : التصرف القانونى المجرد ص ٢

محمد حسنى عباس : نظرية العقد والارادة المنفردة ( ط ١٩٥٤ ) ص ١٦١ وما بعدها .

(٧٤) الالتزام obligation هو حالة قانونية يرتبط بمقتضاها شخص معين بنقل حق عينى أو القيام بعمل أو الامتناع عن عمل . السنهورى : نفس المرجع السابق ص ١١٤ ، صوفى حسن أبو طالب : بين الشريعة الإسلامية والقانون الرومانى ( القاهرة ١٩٥٦ ) ص ١٦٦

تكون سببا لكسب الملكية كالوصية وأخرى تكون إسقاطاً للحقوق العينية كالوقف لأن الوقف ركنه الايجاب فقط دون احتياج إلى قبول أحد . وعلى هذا فالعمل القانونى الصادر من جانب واحد فى حالة الوقف يتم بارادة منفردة واحدة هى إرادة الواقف .

أما العقد الملزم للجانبين فانه ينشىء التزامات متقابلة ، وهذا الترابط و التقابل Interdépendance يؤدى إلى نتائج لا نراها فى العقد الملزم لجانب واحد حيث لا وجود للتقابل (٧٥) .

والواقع أن الوقف تصرف يترتب عليه التزام — فما منشأ هذا الالتزام ؟ هل هو ثمرة لعقد فيه توافق إرادتين أم ثمرة تصرف من جانب واحد وإرادة واحدة ؟

العقد هو كل تصرف يترتب عليه التزام ، ولو كان من جانب واحد ، والوقف تصرف يترتب عليه التزام ، فالوقف على مذهب الامام أحمد بن حنبل تصرف ينعقد من جانب واحد ، ويتم الالتزام به من غير إرادة أخرى ، وعند الامام مالك القبول ليس بركن فى صحة الوقف وانعقاده مطلقاً ، أما عند الشافعى فالقبول الصريح ليس بشرط ، هذا والوقف فى مذهب الحنفية يتم بعبارة واحدة ، فهو ليس بعقد على تعريف العقد بأنه توافق إرادتين (٧٦) ، ولكن المرحوم الشيخ أحمد ابراهيم يرى أنه لامانع من تسمية مايتم بالارادة المنفردة فى وحدها عقداً (٧٧) ، وبهذا تكون الارادة المنفردة فى حالة الوقف مكونة للعقد .

ومن أركان العقد وجوب الرضاء Le consentement وصحته ، وصحة الرضاء بالأهلية capacité ، والواقع أن الأهلية يجب توافرها فى الالتزام القانونى المبنى على الارادة المنفردة كما هو فى حالة الوقف (٧٨) ولا شك أن العقد يعتمد أولا وقبل كل شىء

---

(٧٥) السنهورى : الوسيط ص ١٥٨ ، نظرية العقد ص ٦٣ — ٨١ وما بهامش حواشى ، ص ١٣٠ ، حامد فهمى : نظرية التصرفات الاقرارية والانشائية ( مجلة القانون والاقتصاد السنة الأولى العدد الأول ) ص ١٧ ، زيد الابيانى : مباحث الوقف ص ٢

(٧٦) أبو زهرة : مشكلة الأوقاف ( مجلة القانون والاقتصاد السنة الخامسة عدد ٢ ) ص ٧١١ ، ٧١٥ — ٧١٨

(٧٧) محمد سلام مدكور : الفقه الإسلامى ( ط ٢ سنة ١٩٥٥ ) ص ٣٥٦ — ٣٥٧

(٧٨) السنهورى : نظرية العقد ص ١٤٧ ، ٣١٣ — الوسيط ص ٢٦٥ ، ١٢٩٦ — بحثنا وثيقة الأمير آخور كبير قراقجا الحسنى ( مجلة كلية الآداب - ١٨ جـ ٢ ) ص١٩٢ حاشية ٢

على إرادة المتعاقدين ، ويستمد قوته منها لأن جوهر التصرف القانونى هو الارادة ، والارادة هى العنصر المكون أو المنشىء للعمل القانونى [٧٩] La volonté est l'élément constitutif de l'acte juridique.

ذلك أن كل الالتزامات ترجع فى مصدرها إلى الارادة الحرة ، فالارادة مصدر الالتزامات ، والمقصود بالارادة هنا الارادة التى تصدر من صاحبها بنية إحداث أثر قانونى معين هو إنشاء الالتزام ، والارادة بهذا التحديد هى العمل القانونى L'acte juridique والعمل القانونى فى الواقع أعم من العقد [٨٠] .

هذا والمعروف أنه بتوافق الارادتين يتم العقد ، لأن العقد شريعة المتعاقدين Le contrat fait la loi des parties تقريراً لمبدأ سلطان الارادة L'autonomie de la volonté وهذا اعتمادا على أن العبرة بالارادة الحقيقية الكامنة أخذاً بنظرية الارادة الباطنة volonté interne ومؤداها أن إرادة المتعاقدين هى التى تخلق الالتزام وتعين مداه ، ولكن نظرية الارادة الظاهرة déclaration de la volonté تعول على الارادة فى مظهرها الاجتماعى حيث يستطاع تعرفها ، وهذا التعبير عن الارادة هو الذى يقف عنده القاضى بغير حاجة إلى الغوص فى حنايا النفوس لتعرف حقيقة ما أريد . ويرى أنصار هذه النظرية أن ذلك أضمن لاستقرار المعاملات ، وخاصة فى عصور الاضطرابات وعدم الاستقرار كما كان الحال فى أواخر عصر المماليك .

والعقد يجب أن يكون له من القوة والاستقرار ما يكفل له هذا الغرض ، وعلى قدر ما للعقد من القوة والثبات على قدر ما يكون استقرار المعاملات بين الأفراد ، ومن أجل هذا أحاطت الشرائع العقد بسياج من الضمان .

وفى حالة الوقف يجب أن يكون التعبير عن الارادة المنفردة تعبيرا صريحا ، ولا يكتفى بالارادة المفترضة لأنه فى هذه الحالة يجب تنبيه المتصرف (الواقف) قبل التصرف إلى وجه الخطر فيما هو مقدم عليه من إسقاط لملكيته أو التصرف فيها دون عوض أو مقابل

---

(٧٩) Mircea Durma : *La notification de la volonté* (*Rôle de la notification dans la formation des actes juridiques*) Paris 1930, P. 3.

(٨٠) السنهورى : الوسيط ص ١٤٤ ، ١٧٢ ، ١٧٨ ، صوفى حسن : بين الشريعة الإسلامية والقانون الرومانى ص ١٥٨ — ١٦٢

Disposition à titre gratuit فلا يبرم الأمر إلا بعد أن تصدر منه إرادة صريحة ، ولهذا السبب أقر السلطان الغورى الواقف بتصرفه وبجميع ما نسب إليه فى كتاب وقفه — وعبر عن إرادته تعبيراً حراً صريحاً واضحاً — بعد قراءته عليه وأحاطة علمه الشريف بمعانيه [٨١] .

كما أنه يتعين على القاضى رعاية الاتفاقات والتصرفات وحمايتها كرعايته للنصوص القانونية وحمايته إياها ، والواقع أن مناط تدخل القاضى فى الأصل لنصرة حقيقة ما يشترعه المتصرفون ، وما يهدفون إليه من تصرفهم ، وعلى القاضى أن ينفذ ما انطوى عليه التصرف من التزام ، أى تنفيذ التصرف طبقاً لما اشتمل عليه ما دام مطابقاً للشرع أو القانون [٨٢] .

ولأجل أن يكون القضاء صحيحا منطبقاً على الحق والعدل يشترط أن يحصل للقاضى حين فصل القضاء علمان :

أولهما : علمه بالحادثة ( التصرف ) التى يراد الفصل فيها علماً منطبقاً على الواقع ، وذلك بأن يشاهد الحادثة بنفسه ويحيط بها علماً إحاطة تامة ، أو أن يصل إليه خبرها بطريق التواتر المفيد للعلم ، وقد حصل لقاضى القضاة عبد البر بن الشحنة الحنفى فعلا العلم بالتصرف القانونى الصادر من الواقف والوارد فى وجه الوثيقة ، ولا شك أنه أحاط به إحاطة تامة بعد أن وصل إليه خبره ، فهو صديق السلطان الغورى المقرب إليه والملازم له [٨٣] .

ثانيهما : علمه بحكم الله تعالى فى تلك الحادثة وذلك عن طريق معرفة الشريعة . ولا شك أن قاضى القضاة ابن الشحنة وهو رأس المذهب الحنفى فى مصر المملوكية وقتذاك ، يعلم تمام العلم حكم الشريعة الغراء فى ذلك التصرف ، رغم ما وجه إليه من اتهامات وأقوال لاذعة .

وبغير هذين الطريقين لا يستفيد القاضى علماً وإنما يستفيد ظناً أو ما دون الظن ، ولكن الاقتصار على هذين الطريقين فقط من الأدلة قد يعطل أكثر مصالح الناس ، ولذلك

---

(٨١) وجه وثيقة الغورى أوقاف ٨٨٣ سطر ١٢٧٦ — ١٢٧٩ ( دراسة ونشر وتحقيق الدكتور عبد اللطيف ابراهيم ) .

(٨٢) السنهورى : الوسيط ص ١٤١ — ١٤٩ ، ١٧٤ — ١٨١ ؛ حسين عامر : القوة الملزمة للعقد ص ١٠ — ١٥ ، ٥٥ ؛ محمود أبو عافيه : التصرف القانونى المجرد ص ٢

(٨٣) أنظر ترجمة ابن الشحنة الحنفى — تحقيق رقم ٤٣

قضت الحاجة الشديدة جداً أن تقبل الحجة الظنية ليبنى عليها القضاء ، وذلك بعد أخذ الحيطة بأقصى ما يستطاع ، كما يبنى القضاء أيضا على الحجة القطعية إن وجدت .

وأجازت الشريعة الحكيمة للقاضى بناء حكمه على شهادة الشهود العدول المبنية على المعاينة والمشاهدة ، وكذلك أجازت الشريعة الاسلامية الشهادة بالتسامع والشهادة على الشهادة . فمتى صدرت الشهادة مستوفية شروطها الشرعية يقال إن الشهادة صدرت صحيحة Témoignage véridique بحيث إذا قبلها القاضى وحكم بمقتضاها نفذ حكمه ولزم ، أما بيان حكم الشهادة فهو وجوب القضاء من جانب القاضى ، لأن الشهادة عند استجماع شرائطها الشرعية مظهر للحق ، والقاضى مأمور بالقضاء بالحق ، وثبوت ما يترتب عليها من الأحكام ، ويظهر أن الأصل فى إثبات الحقوق فى المحاكم فى العصر الوسيط هو الشهادة (٨٤) .

وقد قام قاضى القضاة الحنفى بالحكم بصحة الوقف ولزومه وابرامه بناء على شهادة الشهود (٨٥) La déposition des témoins ومن بينهم شاهدى التصرف وكاتب الوثيقة نفسها .

* * *

والآن يجدر بنا أن نعرض لاراء الفقهاء فى الوقف باعتبار أن الاشهادات التى نقوم بنشرها ودراستها فى بحثنا هذا اشهادات على الوقف . فالوقف عند أبى يوسف حبس العين على ملك الله ، فيزول ملك الواقف عنه اليه تعالى بمجرد القول « وقفت » أو بصدور أى لفظ من ألفاظه الخاصة به ، وبمجرد انعقاد الوقف صحيحاً يزول ملك الواقف عن العين الموقوفة ، ويصير الوقف لازما على وجه يعود نفعه إلى العباد فلا يباع ولا يوهب ولا يورث. أما محمد فيقول ـ لا يزول ملك الواقف حتى يجعل للوقف متوليا ويسلمه إليه . وعند ابن حنبل يخرج إلى ملك الموقوف عليهم ، ولا يزول ملكه عن الواقف وهو قول مالك ابن أنس ، أما الشافعى (٨٦) فيرى أنه لازم بمجرد الصيغة الدالة عليه سواء حكم به حاكم

---

(٨٤) أحمد ابراهيم : طرق الاثبات ص ٢٨٠ — ٢٨٤ ، قراعة : الأصول القضائية ص ١٥٩ — ١٦٠

(٨٥) أنظر بحثنا هذا ص ٣٠٣

(٨٦) محمد بن ادريس الشافعى : كتاب الأم ( ط . بولاق ١٣٢١ هـ ) ص ٢٨٠ — ٢٨١

( قاضى ) أم لا . وعند أبى حنيفه الوقف كالعارية جائز ولكنه غير لازم ، فتبقى الملكية للواقف وله أن يرجع فيه إلا فى حالتين يكون فيها لازما وهما : أن يحكم به حاكم أو يعلقه بموته ، ومتى خرج الشىء الموقوف من ملك الواقف ـ إلى ملك الله ـ فلا يمكن الرجوع فيه ، وهكذا يتأكد لزوم الوقف وزوال ملك الواقف عنه إذا حكم به حاكم شرعى مولى من قبل السلطان أو نائبه ، وهذا شرط أساسى فى إنشاء الوقف (٨٧) ، مثله تماما مثل التأبيد فلا يجوز الوقف حتى يجعل آخره لجهة بر لا تنقطع (٨٨) .

ومعنى هذا أنه لابد من صدور حكم من المحكمة بصحة الوقف ولزومه وابرامه ، وقد حدث هذا فعلا على يد قاضى القضاة عبد البر بن الشحنة الحنفى ، كما تم تنفيذ حكمه على يد قاضى القضاة الحنبلى ومن تبعه ـ أعنى قاضى القضاة المالكى والشافعى ، ولم يقتصر الوضع على ذلك ـ أى صدور الحكم وتنفيذه ـ بل لقد أمر قضاة القضاة الأربعة بتسجيله ، لأن آثار الوقف لا تنتقل إلا بالتسجيل ولأن العقود تكتسب حجيتها على الغير بطريق تسجيلها .

---

(٨٧) أبو زهرة : مشكلة الأوقاف ( مجلة القانون والاقتصاد السنة الخامسة عدد ٦ ) ص ٥٧٠ — ٥٧١ ، ٥٨٤ — ٥٨٦ ، السنة الخامسة عدد ٧ ص ٧١٨ ، ٧٢٢ ، ٧٤٠ — ٧٤٣

الكاسانى : بدائع الصنائع جـ ٦ ص ٢١٨ ، المرغينانى : الهداية ، البابرتى : شرح العناية على الهداية ، السيواسى : فتح القدير جـ ٥ ص ٣٩ — ٤٠ ، السرخسى : المبسوط جـ ١٢ ص ٢٧ ، ٣٠ ، المغنى والشرح الكبير جـ ٦ ص ١٨٧ ، الطرابلسى : الاسعاف فى أحكام الأوقاف ص ٩ ، قدرى : قانون العدل والانصاف ص ٣ — ٤ ، زيد الابيانى : مباحث الوقف ص ٣ — ٥ ، ١١ ، مرسى : الملكية والحقوق العينية جـ ١ ص ٤٢٦ — ٤٢٧ ، الملكية العقارية فى مصر وتطورها التاريخى ص ٥٥ .

Clavel: *Le Wakf ou Habous*, le Caire 1896, vol. I, p. 18-22.
Bidair: *L' institution de biens dit "Habous" ou "Wakf" dans le droit de l'Islam*. Paris 1924, p. 20-23.
Mercier: *Le code du Habous*, pp. 29, 35., Enc. Isl. art. *Wakf*.

(٨٨) أبو زهرة : مشكلة الأوقاف ( مجلة القانون والاقتصاد السنة الخامسة عدد ٧ ) ص ٧٣٠ — ٧٣٢

الزيلعى : تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق جـ ٣ ص ٣٢٦ ، المغنى والشرح الكبير جـ ٦ ص ١٩٥ ، الفتاوى الهندية جـ ٢ ص ٣٥٦ مرسى : الملكية والحقوق العينية جـ ١ ص ٤٢٧

Mercier: *op. cit.* p. 35. Enc. Isl. art. *Wakf*.

وفى هذا المقام يجدر بنا أن نشير إلى أن المحاكم تباشر أصلا وظيفة الفصل فى المنازعات والخصومات التى تنشأ بين الأفراد والجماعات، وهذه هى الوظيفة القضائية La juridication contentieuse وإلى جانبها توجد وظيفة أخرى للمحاكم — فى العصر المملوكى بالذات — هى الوظيفة الادارية أو الولائية La juridication gracieuse وهى ليست من القضاء فى شىء ، ومنها إثبات التصرفات والعقود والتصديق عليها ، وبهذا تصبح لها الصفة الرسمية والقوة التنفيذية . والعمل الولائى هو تقرير يصدر من المحكمة — فى غير نزاع — بناء على طلب شخص لا يكون ملزماً بدعوة الطرف الآخر لسماع أقواله كما هو الحال فى الوقف ، وحكم أو قرار المحكمة هنا ليس له حجية الأمر المقضى إلا إذا كانت المحكمة لها ولاية القضاء فى مثل هذا الموضوع — كما كان الحال فى العصر المملوكى — فيكون الحكم قطعياً Jugement décisif ويحوز حجية الأمر المقضى (٨٩) .

ولا جدال فى أن السلطة القضائية والولائية كانتا متداخلتين فى بعضهما فى العصر الوسيط ، والعمل الولائى وإن كان لا يتسم حقا بالطابع القضائى ، إلا أنه يتصل بمصالح الأفراد والجماعات الذين تعهد القضاة برعاية حقوقهم ومصالحهم ، وإذا كانت هذه الاجراءات تخرج بالقضاة عن وظائفهم الرئيسية - بالمعنى المعروف فى الوقت الحاضر - وهو الفصل فى المنازعات القضائية ، إلا أنها تسهل عليهم هذه الوظائف عند مباشرتهم لها . ومرد ذلك يرجع إلى عدم الفصل بين السلطات فى عصر المماليك ، فقد كان بيد قضاة القضاة ونوابهم سلطة تنفيذية إلى جانب سلطتهم القضائية (٩٠) . وكان القاضى فى عصر المماليك ينظر فى الخصومات المدنية والقضايا الجنائية ومسائل الأحوال الشخصية — فى مصطلح العصر الحديث — ويفصل فيها إلى جانب نظره فى صحة العقود والتصرفات القانونية أو بطلانها ، وهو عمل شبه قضائى semi-judicial ، وكان القاضى يجمع أحيانا بين القضاء والتدريس فى إحدى المدارس المملوكية أو مشيخة التصوف فى إحدى الخوانق ، وقد تضاف إلى هذه المناصب السنية أعمال أخرى بعضها إدارى والآخر مالى فوق عمله القضائى والدينى ، ومن

---

(٨٩) عبد المنعم الصده : الاثبات فى المواد المدنية ص ٣٢٣ — ٣٢٩ ؛ ومعنى هذا أنه لم يكن هناك ديوان أو هيئة مستقلة فى العصر المملوكى للقيام بعملية التوثيق كما هو الحال عندنا اليوم بل كانت المحاكم تقوم بهذا العمل بموجب سلطتها الولائية إلى جانب سلطتها القضائية .

(٩٠) المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٤٤٣ حاشية ١ ، ص ٥٠٣ حاشية ٢

ثم كان منصب القضاء من أخطر المناصب وأجلها فى مصر المملوكية ، وهكذا كانت سلطة قاضى القضاة كبيرة واختصاصاته واسعة (٩١) .

ومن الأعمال الولائية التى باشرتها المحاكم فى عهد المماليك إثبات التصرفات والعقود والوثائق عامة ومنها وثائق الوقف ، والتصديق على التصرفات القانونية الواردة فيها والحكم بصحتها ولزومها لتكون لها الصفة الرسمية والقوة التنفيذية ، وتعتبر هذه الاجراءات من قبيل التوثيق الذى هو وسيلة لتثبيت معاملات الناس وتصرفاتهم القانونية على أساس وطيد متين ، كما أنه أساس لتنظيم سيرها والكشف عن نوايا المتعاقدين وصيانة حقوقهم وتصرفاتهم المدونة فى وثائقهم على طول الزمن (٩٢) ، وهكذا يمكن تشبيه إجراءات التوثيق بأنها تأمينات قانونية Sûretés légales .

ووثيقة الوقف يمكن اعتبارها محرراً شكليا acte solennel من حيث تكوينها ، وذلك لأن الوقف تصرف قانونى يصدر من جانب واحد ، والشكلية ركن واضح فيه بمعنى أنه لا يصح إلا إذا صدر به إشهاد شرعى (رسمى) ممن يملكه لدى القاضى ، والواقع أن الوقف يُحدث زوال ملكية الواقف للأعيان الموقوفة كما سبق أن رأينا ، ولذلك يجب توثيقه بواسطة الاشهاد عليه ثم إشهاره بتسجيله لأنه كان يجوز فى عصر المماليك وهو عهد مضطرب الاحتجاج بعدم التوثيق والتسجيل والرجوع عن الوقف (٩٣) أو الاعتداء عليه .

ومهما يكن من أمر فان جميع السندات أو التصرفات الصادرة بين الأحياء بعوض أو بغير عوض ، والتى من شأنها إنشاء حق الملكية أو أى حق من الحقوق العينية العقارية

---

(٩١) عرنوس : تاريخ القضاء ص ١١٢ — ١١٣ ، السبكى : معيد النعم ومبيد النقم ص ٥٥ — ٦٠ ، الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٨ : — ٥٩ ، ابن خلدون : المقدمة ص ٢٠٨ — ٢١٠

على بدوى : تطور المبادىء القانونية عند العرب ( مجلة القانون والاقتصاد السنة الأولى عدد ٣ ) ص ٢٥٠ ، صوفى حسن : مبادىء تاريخ القانون ص ٢٠٧

(٩٢) عبد اللطيف ابراهيم : دراسات تاريخية وأثرية فى وثائق من عصر الغورى ( تحت الطبع )

(٩٣) مرسى : شرح القانون المدنى الجديد — شهر التصرفات القانونية — العقد كسبب لكسب الملكية ص ٧٨ ، ١١٣ — ١١٤

الأخرى أو نقله أو تغييره أو زواله كما هو الحال فى الوقف ، وكذلك الأحكام (٩٤) المثبتة لشيء من ذلك أو المتضمنة لبيان الحقوق أو المؤسسة لها ، لا تكون نافذة الأثر بالنسبة للغير إلا بالتسجيل ، ومعنى ذلك وجوب شهر التصرفات القانونية بعد الاشهاد عليها — وتقييدها بطريق التسجيل فى المحاكم ، ويدخل فى هذه التصرفات الوقف باعتباره من الحقوق العينية العقارية الأصلية ، وقد خصص الوقف بالذات لابراز أهميته وخطره — لأنه تصرف من جانب واحد — ولأنه يترتب على عدم التسجيل أن الحقوق المشار إليها سابقاً — تبقى حرة — لا تنشأ ولا تنتقل ولا تتغير ولا تزول لا بين المتعاقدين أو المتصرفين ولا بالنسبة لغيرهم ، ولا يكون للعقود غير المسجلة من الأثر سوى الالتزامات الشخصية بين المتعاقدين (٩٥) .

والمعروف أن التعاقد الابتدائى يبقى بلا أثر قانونى ملزم ، ثم يأتى دور التعاقد الملزم ، وذلك بحكم القاضى فيصير للعقد قوته وأثره وصحته ، والواقع أن عدم التسجيل لا يرفع عن العقد كيانه القانونى والآثار الملزمة المترتبة عليه ، ولكن لابد من أن تحاط المعاملات بين الأفراد وكافة التصرفات ـ ومنها الوقف ـ بأنواع مختلفة من صنوف الضمانات ووسائل الاحتياط ، ويظهر أن الظروف التى مرت بها مصر إبان عصر المماليك وخاصة فى أيامه الأخيرة ، قد دعت إلى ذلك الأمر وأوجبته .

والواقع أن إشهار التصرفات والاشهادات وتسجيلها هو شكل من أشكال العلانية وإمارة من إمارات الاعلان وإخبار الغير بما يحيط بالشىء المتصرف فيه (٩٦) أو الموقوف فى حالتنا هذه .

---

(٩٤) يقصد بالأحكام هنا الأحكام بمعناها الواسع فتشمل القرارات الصادرة من الجهات القضائية ويشترط فيها أن تكون نهائية Passés en force de chose Jugée
حامد فهمى : نظرية التصرفات الانفرادية من جهتيها الشرعية والقانونية وأثرها فى الفقه وأحكام التسجيل ( مجلة القانون والاقتصاد السنة الأولى ) ص ٤٧ وما بعدها ، مرسى : شهر التصرفات العقارية — التسجيل والقيد ص ١١٥

(٩٥) مرسى : القانون المدنى الأهلى — الملكية والتسجيل ص ١٦٩ ، شرح القانون المدنى الجديد — العقد كسبب لكسب الملكية ص ١١٨ ، التسجيل والقيد ص ٣٢ ، ١١٥ ، أحمد نشأت : رسالة الاثبات جـ ٢ ص ٢٧٩ — ٢٨٠

(٩٦) عبد السلام ذهنى : التسجيل وحماية المتعاقدين والغير ص ٧ — ١٧ ، ٣٢ — ٣٣

ومهما يكن من أمر فان التسجيل دليل خطى أو كتابى لما له من الاعتبار بالنسبة لذوى الشأن وغيرهم ممن تكن له صلة بهم وللقاضى الذى يُحتج بالمحررات أمامه ، وبهذا تصبح الوثيقة حجة على أى شخص ولا يجوز الطعن فيها إلا بدعوى التزوير[٩٧] ، أى أنه تصبح للوثيقة قوة تنفيذية وتصير فى قوة أو حجية الأوراق الرسمية من وقت صدورها ـ أعنى منذ تاريخ الاشهاد عليها وتسجيلها .

* * *

والآن يعترضنا سؤال هام هو :

هل التوثيق نوع من التنفيذ الجبرى ؟ L'exécution forcée

الواقع أن الأحكام بمعناها الصحيح هى أقوى أدوات التنفيذ من حيث تقريرها للحقوق المراد التنفيذ ولاء لها .

والمعروف أن العقود الرسمية هى التى لها قوة تنفيذية ، وهى المحررات الموثقة actes notaires أى التى لها قوة تنفيذية ، والتى يقوم بها موظفون مختصون بالتوثيق .

ومن المستقر عليه كذلك أنه ليس لغير المحررات الموثقة من السندات الرسمية قوة تنفيذية ولهذا كانت المحررات الموثقة من أهم مجموعات المحررات الرسمية .

Les actes notariés sont une des classes les plus importantes des actes authentiques [٩٨].

ولا شك أن للمحررات الموثقة قوة تنفيذية ، ومعنى هذا أن أعمال الموثقين لها صفة الأعمال القضائية In most countries the notarial act is received in evidence as a semi-judicial matter [٩٩].

ومن أهم مظاهر هذه الصفة أن كان للمحررات التى يوثقونها ما لأحكام القضاء من قوة تنفيذية [١٠٠] .

---

(٩٧) أحمد ابراهيم : طرق القضاء ص ٨٠ ، ٨٥ ؛ طرق الاثبات ص ٥٢ ، ٥٧
أحمد نشأت : نفس المرجع السابق جـ ١ ص ١٠٧ ، ١١٤ ، ١٤٠

(٩٨) A. Amiaud : *Traite-Formulaire, général Alphabetique et raisonné du notariat*, Paris 1935 vol. I, p. 57.
عبد الحى حجازى : النظرية العامة للالتزام جـ ٢ ص ٦٨ وما بعدها .

(٩٩) Enc. Brit art. *Notary*

(١٠٠) ومزى سيف : تنفيذ الأحكام والعقود الرسمية ص ٥ ، ١٢ ، ٦١ — ٦٣
أحمد ابراهيم : طرق الاثبات ص ٥٨ ، ٦٤ ، محمد خلف : شرح قانون تنظيم الشهر العقارى ص ١٦٦ مادة ١٨٧

وتنبنى القوة التنفيذية للمحررات الموثقة على اعتبارين :

أولا : أن صلاحية المحررات الموثقة للتنفيذ بموجبها مظهر من مظاهر الثقة فى أعمال الموثقين المستفادة من صفة الموثق ، ومن الاجراءات التى فرضها القانون عليه - أو من العرف والتقاليد والقواعد التى درج عليها الناس جيلا بعد جيل إلى جانب ما دعت الحاجة الملحة إليه فى العصر الوسيط - فى القيام بعمله من ضرورة التثبت من شخصية المتعاقدين أو المتصرفين وصفاتهم وأهليتهم وحريتهم فى التصرف ، ومطابقة التصرف الموثق لارادتهم ، وغير ذلك من الاجراءات التى تكفل صحة التصرف وسلامته ، مما يبلغ معه الحق الثابت فى محرر موثق مبلغاً يجعله صالحاً للتنفيذ به دون حاجة إلى استصدار حكم به من القضاء .

ثانياً : أن الشخص الذى أقر بحق أمام الموثق قد ارتضى منح صاحب الحق سنداً تنفيذيا يغنيه عن رفع دعوى أمام القضاء والحصول على حكم بحقه [١٠١]

وإذا كان الوضع كذلك فى العصر الحاضر فانه مما يشرف نظام القضاء فى العصر المملوكي كون المحرر يصدر صحيحاً محكوما فيه موثقا بالاشهاد عليه ومسجلا بتدوينه وشهره فى آن واحد كما سنرى .

* * *

وبعد ، فهل كان يشترط تسجيل الوقف فى عصر المماليك ؟

يقول المرحوم الأستاذ الدكتور محمد كامل مرسى : « لم يكن نظام شهر الحقوق العقارية معروفا فى الشريعة الاسلامية » [١٠٢] والمعروف أن أحكام هذه الشريعة الغراء كانت نافذة فى كل من مصر والشام فى عصر المماليك ، معمولا بها فى العصر الوسيط عامة ، ولكنها لم تنص على وجوب شهر التصرفات ، [١٠٣] وقد جاء فى المذكرة الايضاحية لقانون الوقف ما نصه :

« الاشهاد على العقود وسائر التصرفات وتوثيقها مما أمر به الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز ، وقد تناول الفقهاء أحكام التوثيق وشرائطه أحسن تناول وفصلوها أتم تفصيل

(١٠١) رمزى سيف : نفس المرجع السابق ص ٦٤ ، قانون التوثيق رقم ٦٨ الصادر فى سنة ١٩٤٧ مادة ٦ ، اللائحة التنفيذية لقانون التوثيق مادة ٤ — ١٢ .

(١٠٢) مرسى : شرح القانون المدنى الجديد — شهر التصرفات العقارية ص ٩ .

(١٠٣) محمد عبد اللطيف : الشهر العقارى ص ١٧ .

وأبينه وأفردوه بالتأليف ، وكانت لهم فيه موسوعات منقطعة النظير غير أنهم لم يوجبوا توثيق شيء من التصرفات ولم يشترطوا التوثيق لصحة الوقف ، ولا لصحة غيره ولم يمنعوا سماع الدعوى به إذا لم يكن مكتوبا واستمر العمل على ذلك قرونا متطاولة » (١٠٤)

وإذا كان الوضع كذلك من الناحية النظرية ، لأن القضاء فى صدر الاسلام كان فى طور التكوين والنشوء ، ولم تكن قد حدثت بعدُ حوادث تستدعى كتابة الاحكام وتوثيقها ، لان المتقاضين كانوا أشبه بالمستفتين ، فاذا أظهر القاضى حكمه اقتنعوا به غالبا ، وقلما كان القضاة يحتاجون إلى تنفيذ الأحكام بأنفسهم ، لان الخصوم كانوا بعد علمهم بالحكم ينقادون إليه ويسارعون إلى تنفيذه ، ولكن جد بعد ذلك من الامور ما لفت نظر القضاة إلى كتابة الأحكام فى الصحف ( السجلات ) ، وفى هذا معنى الاشهاد والاعلان والتسجيل ، فقد قال الكندى إن سليم بن عِتر التجيبى قاضى مصر من قبل معاوية بن أبى سفيان اختصم إليه فى ميراث فقضى بين الورثة ثم تناكروا ، فعادوا إليه فقضى بينهم وكتب كتاباً بقضائه ، وأشهد فيه شيوخ الجند ، فكان أول القضاة بمصر سجل سجلا بقضائه » وهذا هو مبدأ تسجيل الأحكام وتوثيق التصرفات القانونية فى الاسلام . وكان المفضل بن فضالة القاضى ( ١٦٨ — ١٦٩ هـ ) أول القضاة طول السجلات ونسخ فيها كتب السحاه والوصايا والديون ولم يكن ذلك قبله على حد قول الكندى (١٠٥) .

مهما يكن من أمر فإن التوثيق كان حادثا من الناحية العملية طوال العصر الاسلامى كله تقريبا ، فقد دعت الظروف إليه منذ فجر الاسلام كما رأينا ، واستمر الوضع كذلك على مر العهود ، وكانت الاحكام والشهادة فى العصر الفاطمى تسجل فى كتب خاصة تسمى « سجلات الحكم » أو « دواوين الحكم » هى عبارة عن السجلات القضائية أو ارشيف المحكمة ، وكانت تودع عادة عند القاضى فى داره إلى أن نقلها ابن ابى العوام ( ٤٠٥ – ٤١٤ هـ ) إلى الجامع أو المحكمة (١٠٦) .

---

(١٠٤) مرسى : نفس المرجع السابق ص ١١٢

(١٠٥) الكندى : الولاة والقضاة ( ط . بيروت ١٩٠٨ ) ص ٣٠٩ — ٣١٠ ، ٣٧٩ ، السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١١٤ ، ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب جـ ١ ص ٨٣ ، عرنوس : تاريخ القضاء ص ٢٧ — ٢٨ ، عطيه مشرفه : القضاء فى الإسلام ص ١٤٨

(١٠٦) ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر ص ١٥٠ — ١٥١

ومع مرور الزمن نمت الدولة الاسلامية فى مصر ، وصحب ذلك تعقد الحياة فيها ، وكثرة المشاكل كلما أوغلت الدولة فى العصر الوسيط ، وصحب هذا وذاك نمو النظم القضائية تقدم الثقافة القانونية فيها ، وتبعا لهذا كان أصحاب المصالح والتصرفات القانونية المختلفة يحرصون كل الحرص على أن يوثقوا عقودهم وتصرفاتهم وخاصة الأوقاف فى المحاكم ، وذلك باعلانها للكافة بالاشهاد عليها ثم تسجيلها ، وخاصة فى عصر المماليك - حيث لعب الوقف دوراً كبيراً فى الحياة الاجتماعية والاقتصادية - وهو عصر مضطرب سياسيا ولا سيما الفترة الأخيرة من عهد الجراكسة .

والواقع أن التوثيق والتسجيل كان الغرض منهما حماية الأوقاف من المصادرة ، ووقايتها من الاعتداء عليها بسبب العداوة بين بعض زعماء المماليك من أصحاب السلطة والنفوذ أو بسبب الضائقة المالية التى مرت بها الدولة فى أواخر أيامها ودفعت بالسلاطين إلى اغتصاب الأوقاف بطريقة أو بأخرى أو وضع أيديهم على جزء من ريعها الوفير (١٠٧) .

ومن هذا يتضح لنا أن توثيق الوقف كان ضرورياً لصحة انعقاده ولزومه، هذا إلى جانب كونه عملا له أهميته الكبيرة فى اكتساب الوثيقة صفتها الشرعية أو الرسمية ، وكان قضاة القضاة أو نوابهم فى محاكم العصر المملوكى مختصين بسماع إشهاد الوقف والحكم بصحته ولزومه وتنفيذه ثم يأمرون بتسجيله فى المحكمة ، لأن الوقف كغيره من التصرفات القانونية الأخرى الناقلة للملكية كان يجب تسجيله ، وكان يخضع لكافة إجراءات الشهر والتوثيق (١٠٨) . وقد وقع تحت أيدينا عشرات من الوثائق العربية المملوكية الخاصة بالمعاملات الشرعية المختلفة ، وخاصة الوقف فى أراشيف القاهرة وهى تؤكد هذه الحقيقة وتثبتها واضحة جلية للباحثين فى ميدان الوثائق والقانون على السواء .

* * *

وكان لابد لتسجيل وثيقة الوقف من تحريرها فى قالب رسمى (١٠٩) . لأن الوقف تصرف خطير يتم من جانب واحد بدون مقابل أو عوض كما سبق أن ذكرنا ، ولذلك

(١٠٧) عبد اللطيف ابراهيم : دراسات تاريخية وأثرية فى وثائق من عصر الغورى ( تحت الطبع ) .
(١٠٨) محمود شوقى : الشهر العقارى ص ٢٥٣
(١٠٩) لاشك أن هناك فوائد كثيرة من وراء تحرير وثيقة الوقف منها :
ا — صيانة الأوقاف من أن تكون عرضة للانكار وعدم التمكن من اثباتها ما لم تكن هناك وثيقة بها .

وجب أن تكون صياغة وثيقة الوقف تحت رقابة دقيقة من الموثق ، كما أنه لا يترتب على الاشهاد الصادر من الواقف أى أثر إذا لم يكن مسجلا ، فقد أصبح تسجيل الوقف شرطاً أساسياً جوهرياً ، شأنه فى ذلك شأن الشروط التى يلزم توافرها ليكون الوقف صحيحاً ، بحيث إذا لم يسجل لا يكون للوقف وجود فى نظر الشارع [110] .

والمعروف أن المحاكم قديما كانت تقوم بتلقى المحررات وتوثيقها ، بالاشهاد عليها وتسجيلها بوضع الصيغ التنفيذية على صور المحررات الرسمية الواجبة التنفيذ ، وحفظ أصول هذه المحررات التى تم توثيقها ، وإعطاء صور من المحررات الموثقة مثل ما يحدث الآن فى مصلحة الشهر العقارى والتوثيق [111] .

* * *

والآن تعرض لنا عدة أسئلة منها :

١ — هل كانت المحاكم فى العصر المملوكى تقوم بهذا العمل التوثيقى ؟

لا شك أن هذه الخطوات أو ما يشبهها كانت تقوم بها محاكم مصر المملوكية ، وكان ذلك يتمثل فى مرحلتين أساسيتين :

(أ) مرحلة الاشهادات .

(ب) مرحلة التسجيل .

فقد كان التوثيق للمحرر الرسمى - فى ذلك العصر - يتم على يد القضاة وذلك بالاشهاد عليه والحكم بصحة التصرف القانونى الوارد فيه وتنفيذه ، ثم يأمر القضاة بعد ذلك بتسجيل

---

= ب — كما أن الشهود لا تغنى عن الوثيقة المحررة ، لأنه وإن كانت الشهود تثبت بها الحقوق إلا أنهم عرضة للموت ، أو لما يمنعهم من الحضور أمام القضاء ليشهدوا بما علموا .

ج — أنه لا يستطيع الشهود أن يعوا ما يراد اشهادهم عليه لكثرة تفرعه إذا كان الوقف مشتملا على أجزاء موقوفة كثيرة ، وعلى شروط جمة عديدة فى الاستحقاق والنظر .

د — قطع المنازعة بين المتعاملين أو المستحقين فى الوقف لأنه بكتابة الوثيقة فى قالب رسمى يمتنع كل ذلك ، لأن المتصرف أو نائبه أو المستحق يرجع إليها فيعرف الحقيقة وينفذ ما دون بها . قراءة : مذكرة التوثيقات الشرعية ص ٨ — ١٤

(١١٠) محمد عبد اللطيف : الشهر العقارى ص ٤٥ — ٤٦ ، تادرس : شهادة الشهود ص ٤

(١١١) مرسى : شرح القانون المدنى الجديد — شهر التصرفات العقارية ص ١١٢ — ١١٤ ، ٤٥٥

الوثيقة والاشهادات الواردة عليها ، وذلك باثبات أو تدوين ملخصها فى السجلات القضائية ليكون ذلك كله معلوما لجميع الناس ومشهرا للقريب والبعيد وتحت نظر الكافة .

وأما الاشهادات — بمعنى التوثيقات — فقد عثرنا عليها فى ظهور عدد كبير من الوثائق العربية المملوكية ، وكان الاشهاد على الوقف يتم على أيدى قضاة القضاة الأربعة أو نوابهم ، فيحكم الأول منهم بصحة الوقف ولزومه ، ويقوم الثلاثة الآخرون بتأييد حكمه وتنفيذه .

وأما التسجيل — ومعناه فى مصطلح الوثائقيين القيد أو التدوين والشهر فى آن واحد — فكان حقيقة واقعة وأمرا معروفا فى عصر المماليك بدليل وجود عشرات العبارات الخاصة به على الهامش الأيمن للوثائق المختلفة وبخاصة الأصول منها .

وتسجيل السند أو الحكم عبارة عن نسخ صورة ما به حرفيا فيما يتعلق بنقل الملكية[112]

La transcription comprendra la copie textulle de l'acte en la partie qui est relative à la transmission de propriété.

وقد عثرنا فعلا على الكثير من أصول الوثائق الرسمية Actes authentiques كما وقع تحت أيدينا صور مصدق عليها طبق الأصل Copies certifées conformes à l'original أو صور صحيحة لها قيمة الأصل Copies authentiques فى أرشيف كل من وزارة الأوقاف ومحكمة الأحوال الشخصية بالقاهرة[113] ، وعلى جل هذه الأصول أو الصور وجدنا إشهادات وعبارات خاصة بالتسجيل وخاصة فى ظهور هذه الوثائق .

* * *

ويقول الدكتور مرسى : إن الاشهادات كانت تكتب كاملة فى دفتر يسمى المضبطة ويمضيها الشهود والقاضى ، ثم ينقل الملخص من المضبطة فى دفتر يسمى السجل ، كما كانت تثبت فى السجل الملخصات المرسلة من المحاكم الأخرى من الاشهادات المضبوطة فيها والمتعلقة بعقارات واقعة فى دائرة المحكمة[114] .

---

(112) مرسى : شرح القانون المدنى الجديد ؛ العقد كسبب لكسب الملكية ص ١٢ ، ١٢ ؛ شهر التصرفات العقارية — التسجيل والقيد ص ٣٠ والمقصود بذلك تسجيل الحراوث الموثقة واشهاداتها .

(113) عبد اللطيف ابراهيم : وثيقة الأمير آخور كبير قراقجا الحسنى — دراسة ونشر وتحقيق ( مجلة كلية الآداب م ١٨ ج ٢ ) ص ١٨٨ حاشية ١

(114) مرسى : الملكية والحقوق العينية ج ١ ص ٤٣٠ — ٤٣٣ ؛ قراعة : مذكرة التوثيقات الشرعية ص ٣٢

٢ — فهل كانت عبارات التسجيل التى كتبها القضاة على الوثائق تعنى الأمر بكتابتها كاملة فى المضبطة ثم نقل ملخصها فى السجل ؟ وهل وجدت مضابط وسجلات فى المحاكم المملوكية ؟ وهل حدثت مراسلات بين محاكم مصر والشام فيما يخص ضبط ملخص الاشهادات فى السجلات فى حالة وجود عقارات متصرف فيها فى أى من الاقليمين ؟

إن الاجابة على هذه الاسئلة الآن إجابة قاطعة أمر متعذر ، ولن نتمكن من الرد عليها رداً حاسماً لا يدع مجالا للشك إلا بعد دراسة طويلة فاحصة لمجموعات الوثائق العربية الأرشيفية فى كل من مصر والشام واستنبول ، وكذلك بعد نشر عدد كبير من وثائق العصور الوسطى التى تحتفظ بها أراشيف المحاكم فى كل من مصر والشام فى السنوات القادمة إن شاء الله .

ومهما يكن من أمر فان تسجيل الوثائق وإشهاداتها قد تم بطريقة أو بأخرى ، ولكن القول بوجود مضابط ( دفاتر ) فى محاكم العصر المملوكي لون من الحدس والتخمين بل هو أمر بعيد الاحتمال ، والراجح أنه كان يكتفى بنقل عدة صور من الوثيقة وإشهاداتها حرفياً على أن تحفظ إحداها بعد حزمها فى الأرشيف القضائى كمضبطة [١١٥] . ولكن من المحتمل كثيراً وجود سجلات قضائية فى هذه المحاكم لتسجيل ملخص المحررات الموثقة وإشهاداتها فيها ، لأن العبارات الواردة على هامش كثير من الوثائق تؤكد لنا وجوب التسجيل ، وقد أشار إلى ذلك قاضى القضاة عبد الرحمن بن خلدون المالكى أحد قضاة عصر المماليك حين قال إن سائر العقود والتصرفات كانت تكتب فى السجلات لحفظ حقوق الناس ، ومن ثم فمن الراجح وجود هذه السجلات رغم عدم وصولها أو شىء منها إلينا [١١٦] .

أما قيام مراسلات بين محاكم الاقليمين الشمالى والجنوبى فيما يخص ضبط ملخص الاشهادات فى ذلك العصر فهو أمر يحسن السكوت عنه قليلا فى وسط الظلام الحالك الذى يحوط بهذا الموضوع ، فقد خرست المصادر التاريخية الأدبية عن الاشارة إليه من قريب

---

(١١٥) بحثنا وثيقة الأمير آخور كبير قراجا الحسنى ص ١٨٨ ، بحثنا هذا ص ٣٣٤ ، قاموس المحيط مادة « ضبطه » بمعنى حفظه بالحزم . ولسان العرب مادة « ضبط » Lane: *Arabic-English lexcion* .

(١١٦) بحثنا هذا ص٣١٨ ، ابن خلدون : المقدمة ص ٢١٢

أو بعيد ، وكذلك لم تقدم لنا محفوظات القاهرة المختلفة — حتى الآن — أى بصيص من النور أو الأمل بمكن الاعتماد عليه لمناقشة هذا الموضوع ، فى ضوء ما قمنا بدراسته أو الاطلاع عليه من وثائقها الكثيرة .

كما أننا لا يمكن أن نقطع برأى فيما إذا كان إسناد منصب قضاء الشافعية فى كل من مصر والشام لقاضى القضاة أبو العباس أحمد بن الفرفور الشافعى يجعل تنفيذه للحكم الصادر بصحة الوقف من قاضى القضاة عبد البر بن الشحنة الحنفى فى القاهرة أمراً نافذ المفعول ، ساريا على العقارات والأراضى الموقوفة فى الشام .

وإن كان هذا محتملا ، فهل كان السلطان الغورى يرمى إلى ذلك من وراء تعيين ابن الفرفور فى هذا المنصب الذى لم يتفق لأحد قبله (١١٧) ؟ لا شك أن هذا الاحتمال يدلنا على مدى تقدم الثقافة القانونية فى العالم العربى أبان عصر المماليك .

* * *

٣ — أما هذه السجلات — فأين كانت تحفظ بعد الانتهاء منها ؟ وهل وجد أرشيف قضائى فى المحاكم نفسها لحفظ هذه الوثائق والسجلات أم كان يخصص لها جزء من أرشيف الدولة المملوكية فى قلعة الجبل ؟ وأخيراً — فأين هذه السجلات وما مصيرها ؟

يجدر بنا قبل الاجابة على هذه الأسئلة أن نذكر أن المحكمة الصالحية النجمية كانت بمثابة دار القضاء العالى فى دولة المماليك وبعد دوالها ، وأعتقد أنه قد تم الاشهاد على وثيقة وقف الغورى وتسجيلها فى هذه المحكمة ، وهى المدرسة (١١٨) التى أسسها السلطان الصالح نجم الدين أيوب سنة ٦٤٠ هـ/١٢٤٢ م ، ولم يكتمل لها دور النضوج المعمارى بمعنى

(١١٧) بحثنا هذا — تحقيق رقم ٩٨

(١١٨) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٣٧٤ ، السلوك جـ ١ ص ٣٠٥ ، ٣٠٨ ، السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٨٩

Creswell : *The muslim architecture of Egypt*, vol. II, pp. 94-100. 104-106, 123-127.

— *The origin of the cruciform plan of cairene madrasas*, pp. 33-35

— *A brief chronology of the Mahammadan monuments* (*B. I. F. A. O. T. XVI*)

Hautecœur and Wiet : *Les mosquées du Caire*, pp. 254-258.

Van Berchem : *C. I. A. Egypte*, T. I, pp. 102-104.

بحثنا هذا — تحقيق رقم ٥١

أن تخطيطها لم يكن على النظام المتعامد cruciform plan الذى استقرت عليه المدرسة بعد ذلك بقليل .

وأغلب الظن أنه لم يكن فى المحكمة الصالحية من الحواصل والخزائن أو القاعات ما يسمح بوجود أرشيف قضائى كبير مستعد لاستقبال وحفظ مئات العقود والوثائق التى كانت تسجل فى هذه المحكمة باستمرار ، هذا فضلا عن السجلات القضائية التى ينتهى العمل فيها .

حقا أن بعض هذه الوثائق الأرشيفية كانت توضع فى بيت المال بالجامع أيام الفواطم فى مصر ، وفى عصر المماليك وبعده كانت تحفظ فى الخوانق والمدارس والجوامع [119] .

ومن المعروف كذلك إن أقدم السجلات القضائية التى وصلتنا هى سجلات المحكمة الصالحية النجمية ، التى يرجع تاريخ أول سجل منها إلى عام ٩٢٤ ﻫ أى بعد الفتح العثمانى لمصر باحدى عشرة سنة [120] .

ورغم بحثى المتواصل فى أراشيف القاهرة المختلفة لم أعثر حتى الآن على أى سجل من عصر المماليك ، ومن ثم يمكن القول بأن السجلات القضائية لهذا العصر ربما كانت قد أودعت فى أحد أقسام الأرشيف المملوكي الكبير بقلعة الجبل واستمرت به حتى الفترة الهوجاء التى سبقت استيلاء العثمانيين على مصر ، وربما كان مصير هذه السجلات كمصير وثائق ديوان الانشاء وغيره الحريق المهلك على يد جماعة من المماليك الجراكسة عندما أصبح الأمل فى هزيمة العثمانيين وردهم عن القاهرة جد بعيد ، وهذا أمر محتمل جداً سواء أكان

---

(١١٩) الكندى : الولاة والقضاة ص ٦١٢ ، وثيقة الغورى أوقاف ٨٨٣ التى كانت محفوظة بالخانقاه الغورية — أنظر صفحة العنوان فى الصورة رقم ٨٨٢ ، وثيقة السيفى بيبرس محكمة ٣١٢ التى كانت محفوظة فى صندوق مختوم عليه بالقبة الملاصقة لجامع بخط الجودرية بالقاهرة ، وثيقة سليمان باشا أوقاف ١٠٧٤ ص ١ التى كانت محفوظة بمكتبة جامعة بولاق . عبد اللطيف ابراهيم : دراسات تاريخية وأثرية فى وثائق من عصر الغورى ( تحت الطبع ) . Enc. Isl. art. *Wakf.*

(١٢٠) محمد أحمد حسين : الوثائق التاريخية ص ٨٨ — ٨٩ ، سنتقورد شو : الوثائق المصرية فى العهد العثمانى ص ١٢ — ١٤ ، بحثنا — « سجلات المحكمة الصالحية النجمية » ( تحت الطبع ) .

حدوثه عمداً أو عفواً [١٢١] ، ومن المحتمل كذلك أن تكون بعض هذه السجلات والوثائق قد حملها السلطان سليمُ معه ضمن ما حمل عند خروجه من مصر عائداً إلى استنبول بل لعلها كانت أهم بكثير مما أخذه معه من رخام نفيس وكتب قيمة [١٢٢] .

ومهما يكن من أمر فليس أمامنا إلا أن نقول إن هذه السجلات قد فقدت أو اختفت لسبب أو لآخر أثناء الفتح العثمانى أو بعده بقليل [١٢٣] .

* * *

ويقول الدكتور مرسى : « إن التسجيل كان موجوداً فى المحاكم من قديم لإثبات الوقف وما يترتب عليه ، ولكن التسجيل بمعنى أنه يترتب عليه كون العقد أو الإشهاد المسجل حجة على غير المتعاقدين لم يكن معروفا قديما والمحاكم المصرية ما كانت تعرفه بهذا المعنى » [١٢٤] .

---

(١٢١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١ ص ١٣٥ — ١٣٦ ، إذ يذكر القلقشندى من بين وظائف ديوان الانشاء فى العصر المملوكى من غير الكتاب وظيفة الخازن أو الأرشيفى فى مصطلح العصر الحديث ، ويذكر صفاته وأعماله فيقول : « ....... ويجمع متحصلا كل عمل من أعمال المملكة من المكاتبات الواردة وغيرها ، ويجعل لكل شهر إضبارة .. ويجعل عليها بطاقة » وكان يجب على هذا الخازن أن يحتفظ بجميع ما فى هذا الديوان احتفاظاً شديداً .

أنظر كذلك ابن الصيرفى : قانون ديوان الرسائل ص ١٤٣

شفيق غربال : مصر عند مفترق الطرق ( مجلة كلية الآداب م ٤ جـ ١ ) ص ٤١ — ٤٢

(١٢٢) ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٥ ص ١٧٥ — ١٧٨ ، ١٨٤ ، ٢٠٣ — ٢٠٥ قطعة من تاريخ مصر ( مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٤٠٧٦ تاريخ ) ص ٩١ ا ، ب ، ٢٨٠ ب

(١٢٣) يقول الاسحاقى فى كتابه أخبار الأول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول ( ط القاهرة ١٣١٠ هـ ) ص ١٥٠ « تولى سليمان باشا الخادم فى ٩ شعبان سنة ٩٣١ هـ وفى زمنه حررت الدفاتر الموضوعة بديوان مصر المحروسة ، وفى سنة ٩٣٣ هـ عين الأمير كيوان لساحة قرى مصر وضبط أراضيها كل اقليم على حدته من الأطيان السلطانية والرزق والأوقاف والاقطاعات وغير ذلك وكتب بذلك دفاتر محررة وضعت بديوان مصر المحروسة وهى معول عليها الآن ومشار اليها وتسمى دفاتر تاريع سنة ٩٣٣ هـ » .

J. Deny: *Sommaire des Archives Turques du Caire*, p. 22.

(١٢٤) الوقف أصلا حجة على الغير بمجرد صدور الاشهاد به ممن يملكه على يد حاكم شرعى أو مأذون من قبله إذا كان مقيداً بدفتر إحدى المحاكم الشرعية — مادة ١٣٧ من لائحة ترتيب المحاكم الشرعية الصادرة بالقانون رقم ٣١ لسنة ١٩١٠

ومعنى ذلك أن الغرض من التسجيل فى القضاء الاسلامى ليس ما يقصد اليوم من الاحتجاج به على الغير ، أى أنه لم يكن طريقا لاعلام الناس بالتصرفات القانونية وخصوصا ما يتعلق منها بالملكية العقارية بل حفظ التصرفات والاقرارات والاشهادات حتى لا تدخل فى خبر كان [١٢٥] .

* * *

٤ — إلى أى حد ينطبق هذا الرأى على معنى التسجيل وأهدافه فى العصر المملوكى ؟

حقا لقد أوجبت الظروف الاجتماعية والسياسية قيام نظام التوثيق والشهر فى المجتمع الاسلامى وخاصة فى العصور المتأخرة ـ أعنى فى العصر المملوكي الأول والثانى ـ كما سبق أن ذكرنا ، وصار لنظام توثيق الأوقاف قواعد شبه مستقرة ، وأصول مرعية فى الكتابة كما يتضح من صيغ الاسجالات الحكمية والتنفيذية والشهادة عليها ثم تسجيلها فى سجلات المحكمة .

ومما لا شك فيه أن الغرض الأول من التسجيل هو أن تصبح وثيقة الوقف التى تم الاشهاد عليها وتسجيلها مشهرة مباح الاطلاع عليها لكل فرد وحجة على الغير فى ذلك العصر المضطرب [١٢٦] وإلا لما كان هناك داع للتسجيل بتاتا بعد الاشهاد على الوقف لدى القضاة

= والمعروف أنه قبل قانون التسجيل الجديد لم تكن المحاكم تشترط فى الوقف أكثر من القيد فى دفتر المحكمة ، وأنه لا يجوز لأحد الاحتجاج عليه بعدم تسجيله ، ما دام لا شأن لمنشىء الوقف فى نقله من الضبطة إلى السجل ، كما لا شأن له عند قيده فى سجل محكمة غير محكمة العقار فى ارسال ملخصه إلى الحاكم الكائن بدائرتها العقار لتسجيله ما دام هذا أمراً إداريا محضاً مستقلا عن إرادته . مرسى : الملكية والحقوق العينية ج ١ ص ٤٣١

وقد عدلت المادة ٥ من القانون رقم ٣٣ لسنة ١٩٢٠ المادة ١٣٧ السالف ذكرها فقضت بوجوب تسجيل الوقف أو ملخصه بسجل المحكمة التى بدائرتها العقار الموقوف ، فالاشهاد بالوقف لا يعتبر حجة على الغير إلا إذا كان مسجلا بسجل المحكمة ، والتسجيل لازم لا بالنسبة للغير فقط بل أيضاً للواقف والمستحقين .

مرسى : شرح القانون المدنى الجديد — المقدكسب لكسب الملكية ص ١٠٤ — ١٠٥ ، اشهار التصرفات العقارية ( مجلة القانون والاقتصاد السنة الثالثة عدد ٤ ) ص ٦٠٣ وما بعدها ، الملكية والحقوق العينية ج ١ ص ٤٣٣ — ٤٣٥

(١٢٥) عمر لطفى : الأدلة الخطية والمحاكم الشرعية ص ٢٠ — ٢١

(١٢٦) بحثنا هذا ص ٣٠٣ ، لسان العرب مادة « سجل » ، الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية ج ١ ص ٣٧ حاشية ١ ، ابن قاضى سماوه : جامع الفصولين ج ٢ ص ٣٢٤ ، Lane: *Arabic-English lexcion* art « سجل » =

فى المحاكم والحكم بصحته وتنفيذه على أيديهم ، وهذا هو ما يشترطه فقهاء الحنفية فى لزوم الوقف [127] .

والواقع أنه فى تسجيل الحكم Transcription du jugement وهو لب عملية الاشهار والاعلام للكافة ، ما يكسب الوثيقة حجية فى مواجهة الغير [128]

ولعل الخطأ الذى وقع فيه البعض من القول بأن الغرض من التسجيل قديما لم يكن يقصد به الاحتجاج على الغير ، يرجع إلى أنه لم يكن للتسجيل — بمعنى الشهر والقيد — من القدسية والاحترام ما يجب ، بل لم تقبله عقلية كثير من المماليك أحيانا ومنهم السلاطين وكبار الأمراء ، بدليل كثرة المصادرات والاعتداء على الأوقاف ، وعدم رعايتها والاخلال بشروط الواقفين المختلفة بالرغم من ورود كثير من الفقرات الجزائية ذات الصبغة الدينية المناسبة لروح العصر الوسيط فى ختام وثائق الوقف المملوكية .

وقد دفعت هذه الأسباب وغيرها بعض الواقفين إلى محاولة تأكيد فكرة حجية وثيقة الوقف والاشهادات المسجلة على الغير بتعيين شاهد لايصال كتاب الوقف ، يشترط فيه أن يكون عدلا ثقة عارفاً بأمر المكاتيب أو الاسجالات الحكمية والتنفيذية ، وهو المعروف باسم الموقع فى بعض وثائق ذلك العصر ، وكانت مهمته على ما ورد فى هذه الوثائق أن يتعهد اثبات كتاب الوقف وايصاله وتنفيذه على السادة قضاة القضاة والحكام فى كل وقت وزمان ، حفظا واحياء له وصوناً من الانقطاع بحيث لا ينقطع حكمه ولا يندرس رسمه . وقد نصت بعض الوثائق على أن يكون ايصال كتاب الوقف كل عشرة أعوام

---

= وقد جاء فى جامع الفصولين « السجلات جمع سجل وهو لغة كتاب القاضى ..... وفى العرف الآن ( فى العصر العثمانى ) السجل ما كتبه الشاهدان فى الواقعة وبقى عند القاضى وليس عليه خط القاضى والحجة ما نقل من السجل من الواقعة وعليه علامة القاضى أعلاه وخط الشاهدين أسفله وأعطى للخصم » ابن قاضى سماوه : جامع الفصولين ج ٢ ص ٣٢٤

(١٢٧) بحثنا هذا ص ٢٢٥

(١٢٨) بحثنا هذا ص٣١٩ — ٣٢٠ والمقصود بالغير هنا الأشخاص الذين لم تشترك إرادتهم فى تكوين التصرف ولا تربطهم أى علاقة بالواقف المتصرف ويطلق على هؤلاء الأشخاص poennitus extranei . محمد حسنى عباس : نظرية العقد والارادة المنفردة ( ط ١٩٠٤ ) ص ١٢٣ و ص ١٢٧ — ١٢٩ .

وأن يقرأه الموقع فى كل سنة على أرباب الوظائف والمستحقين للاحاطة به علما وبشروطه [129] .

ومن هذا يتضح لنا أن ايصال كتب الأوقاف باثباتها وتنفيذها لدى القضاة من وقت لآخر كان بمثابة تجديد الاشهاد عليها وتنفيذها وتسجيلها حتى تحوز الحجية على الغير مع مرور الزمن ، وهو أمر عنى به كثير من الواقفين وحرصوا على اثباته فى وثائقهم ، وخصصوا له جزءاً من ريع الأوقاف نفسها ، لما فيه من معنى النشر والاعلام للكافة بغرض المحافظة على أوقافهم وبقائها حائزة للحجية على الغير بعيدة عن يد الشر والعدوان [130] .

* * *

(١٢٩) وثيقة السلطان برسباى أوقاف ٨٨٠ ص ٢٠١ ، ٢١٣ — دار الكتب رقم ٣٣٩٠ تاريخ ص ٧ ، وثيقة الشرايشى محكمة ٥٦ ، السبكي : معيد النعم ص ٣١

والمعروف أن قانون التوثيق والشهر العقارى يستلزم تجديد القيد Renouvellement de l'inscription كل عشر سنوات وإلا سقط الحق المقيد على العقار ( الرهن ) ، طبقاً لنص المادة ٤٣ من القانون رقم ١١٤ لسنة ١٩٤٦ ونصها « يسقط القيد إذا لم يجدد فى خلال عشر سنوات من تاريخ إجرائه » ، وهذا النص الذى قرره الشارع فى العصر الحديث إنما يرجع أصله التاريخى إلى زمن بعيد كما يتضح لنا من الحقائق المماثلة والوارد ذكرها فى الوثائق المملوكية .

(١٣٠) وثيقة حسام الدين لاجين محكمة ١٧ ، ١٨ ، وثيقة البسطامى محكمة ٢٢٤ ، وثيقة قايتباى أوقاف ٨٨٦ ، وثيقة طقطباى أوقاف ١٠٢٠ ، وكذلك أنظر الوثائق فى الحاشية السابقة .

# رابعا – نص الاشهادات

الحمد لله وحده

يسجل بدورة وتنفيذه (٣)

بسم الله الرحمن الرحيم اللهم صلى على سيدنا محمد واله وصحبه وسلم ه (١)

الحمد لله عليه توكلت(٢)

٣+ – ثبت اشهاد مولانا المقام الشريف الامام الاعظم (٤) والملك المعظم السـ[لطان]* المالك الملك الاشرف سلطان الاسلام والمسلمين قاتل الكفرة والمشركين مبيد الطغاة [والمارقين] **

حامى حوزة الدين قاهر الخوارج والمتمردين قاصم الجبابرة والمتكبرين قاطع دابر المفسدين [مظهر] **

٦ – العدل فى العالمين(٥) منصف المظلومين من الظالمين ظل الله الوارف ورحمته السابغة للباد[ى والعا]كف .

وناصر دينه الذى قطعت الآرا × بتفضيله فلا تخالف اسكندر الزمان جامع كلمة الايما[ن] مفرق

عبدة الاوثان مهلك اهل البغى والعدوان مملك اصحاب التخوت والاسرة والتيجان صاحـ[ـب]

٩ – السيف والقلم والراية والبند والعلم مالك رقاب الامم سيد ملوك العرب والعجم حامى .

---

+ الأرقام المسلسلة فى بداية السطور هى أرقام سطور الاشهادات الاربعة فى الوثيقة الأصلية المحفوظة بارشيف وزارة الاوقاف برقم ٨٨٣

* ما بين الحاصرتين أكمله الناشر من الصورة رقم ٨٨٣ أوقاف ص ٢٣٨ لأن هناك كثير من الألفاظ أو الحروف متاكله أو باهتة اللون .

** ما بين الحاصرتين بياض بالأصل وأضافه الناشر من الصورة ص ٢٣٨ — ٢٣٩

× كذا فى الأصل وسنحافظ على لغة النص والرسم الاملائى للكلمات كما وردت فى الأصل ، أنظر بحثنا هذا ص ٢٩٩

القبلتين حاوى المنقبتين ملك البرين والبحرين خادم الحرمين الشريفين ابى النصر قانصوه الغورى

خلد الله تعالى ملكه وسلطانه ونصر جيوشه وجنوده واعوانه وجدد له فى كل وقت مسرة [ ونصرا ] **

١٢ — وملكه بساط البسيطة برا وبحرا ولطف به فى الدنيا وغفر له فى الاخرى على نفسه الشريفة المع[ظمة] .

المنيفة حرسها الله تعالى وحماها وصان شرفها وحماها وكنفها ورعاها وشكر فى مصالح ا[لبرية جهدها ]

ومسعاها بجميع ما نسب اليه فى كتاب وقفه الشريف المسطر باطنه [٦] من الوقف والشروط المشر[وحة] [٧]

١٥ — فيه واجرآ صدقته الشريفة مدا × الدهور والايام والشهور والاعوام على ارباب الجوامك [٨] والجرايات

والمعاليم والمرتبات وجهات البر اليومية والقربات الشهرية والسنوية كل ذلك على النص المبين المشروح المعين

جعله الله تعالى عملا متقبلا وسبيلا الى غرف الجنان موصلا لدى سيدنا ومولانا [٩] العبد الفقير إلى الله [١٠] تعالى

١٨ — الشيخ [١١] الامام [١٢] العالم [١٣] العامل [١٤] العلامة [١٥] الحبر [١٦] البحر الفهامة المحقق [١٧] المدقق [١٨] الحجة [١٩] المحدث [٢٠] الحافظ [٢١] الرحالة [٢٢]

الفقيه [٢٣] المجتهد [٢٤] الامة شيخ الاسلام [٢٥] مفتى الانام [٢٦] ملك العلما الاعلام [٢٧] حسنة الليالى والايام [٢٨] ص[در ]

مصر والشام [٢٩] محقق القضايا والاحكام [٣٠] ابى حنيفة الزمان فريد العصر والاوان [٣١] قاضى الق[ضاة ] [٣٢]

---

** ما بين الحاصرتين بياض بالأصل و أضافه الناشر من الصورة ص ٢٣٨ — ٢٣٩

× كذا فى الأصل سنحافظ على لغة النص والرسم الاملائى للكتابة كما وردت فى الأصل . أنظر بحثنا هذا ص ٢٩٩

٢١ — سرى الدين لسان المتكلمين (٣٣) حجة المناظرين (٣٤) رحلة الحفاظ والمحدثين (٣٥)
كنز النحاة والمعر[بين (٣٦) سلطان ] *

الفقها والاصوليين (٣٧) اوحد المجتهدين (٣٨) قامع المبتدعين (٣٩) مفحم المجادلين (٤٠)
محى سنة سيد المرس[لين ] (٤١)

قاضى المسلمين خالصة امير المومنين (٤٢) ابى البركات عبد البر ابن** الشحنة الحنفى (٤٣)
الناظر فى الاح[كام ]

٢٤ — الشرعية (٤٤) بالديار المصرية وساير الممالك الشريفة الاسلامية وشيخ الشيوخ (٤٥)
بالمدرسة الشيخونية (٤٦) وم[ا ]

مع ذلك من الوظايف الدينية والمناصب الشريفة السنية هو ووالده وجده (٤٧) كانا
ادام ا [ لله ]

تعالى ايامه الزاهرة وجمع له بين خيرى+ الدنيا والاخرة وافاض نعمه عليه واجرى
الخيرات د [ ايما ]

٢٧ — على يديه ورحم اسلافه الكرام وافاض عليهم شابيب المغفرة والاكرام بمحمد
واله ثبوتا ش[رعيا ] (٤٨)

بشهادة شهوده (٤٩) باطنه على نصه المبين فيه وهو مورخ بالعشرين من شهر صفر
الخير سنة تاريخه (٥٠) واش[هد] :

على نفسه الكريمة حرسها الله تعالى وحماها وصانها ورعاها وشكر فى مصالح البرية
مسعاها بذ[لك من ]

٣٠ — حضر مجلس حكمه الكريم (٥١) وقضايه وهو نافذ القضايا والاحكام ماضى
النقض والابرا [م]

وذلك فى اليوم السعيد المبارك

الثانى عشر من شهر ربيع الأول المشرف (٥٢)

---

* ما بين الحاصرتين أضافه الناشر من الأصل سطر ٢٠٧ ، الصورة ص ٢٤٠
** كذا فى الأصل .
+ هذا اللفظ كتب بطريقة اصطلاحية تجوز من الصعب قراءته .

٣٣ — سنة احدى عشرة وتسعماية وثبت ايضا عنده ثبت الله مجده وانجح
قصده ورحم اباه وجده على الاوضاع الشرعية (٥٣) والقوانين المحرره المرعية بشهادة
من اعلم له [ تلو ]
رسم شهادته اعلام التادية والقبول على الرسم المالوف لمنه ادنى فصل الملك والحيازة [ة]
٣٦ — المسطر بهامش باطنه (٥٤) مضمون الفصل المذكور على ما نص وشرح فيه ثبوتا [ا]
صحيحا شرعيا فى كل من ذلك وحكم (٥٥) ادام الله تعالى ايامه وانفذ نقضه وابرام[ه]
بموجب (٥٦) ذلك وبصحة الوقف (٥٧) الشريف المذكور فيه ولزومه (٥٨) وانبرامه ونفوذه حكما
٣٩ — صحيحا شرعيا تاما معتبرا مرضيا مسبولا فى ذلك مستوفيا شرايطه الشرعية (٥٩)
وواجباته المعتبرة المرعية
عالما بالخلاف (٦٠) فى ذلك واشهد على نفسه الكريمة حرسها الله تعالى وحماها وصانها
ورعاها وشكر فى
مصالح البرية جهدها ومسعاها بذلك فى التاريخ المكتوب بين اسطره (٦١) اعلاه
المفتتح بخطه الكريم (٦٢)
٤٢ — شرفه الله تعالى واعلاه وزاد فى شرفه وفى علاه بجاه سيدنا محمد واله

حسبنا الله ونعم الوكيل وصلى
الله على سيدنا محمد واله وصحبه وسلم (٦٣)

٤٥ — اشهدنى على نفسه الكريمة حرسها الله تعالى وحماها وصانها ورعاها وشكر
فى مصالح البرية جهدها ومسعاها
سيدنا ومولانا العبد الفقير الى الله تعالى الشيخ الامام العالم العامل العلامة الحبر
البحر الفهامة *
المحقق المدقق الحجة المحدث الحافظ الرحلة الفقيه المجتهد الأمة شيخ الاسلام مفتى
٤٨ — الانام ملك العلما الاعلام حسنة الليالى والايام صدر مصر والشام محقق القضايا
والاحكام اوحد المجتهدين الاعلام قاضى القضاة سرى الدين لسان المتكلمين حجة المناظرين
مفحم المجادلين قامع المبتدعين قاضى المسلمين خالصة امير المومنين المنوه باسمه الكريم اعلاه
ادام الله تعالى *

* هذا السطر بكامله خال من النقط تماماً .

٥١ — ايامه الزاهرة وجمع له بين خيرى الدنيا والاخرة وافاض نعمه عليه واجرى الخيرات على يديه بما نسب اليه فى اسجاله الكريم المسطر اعلاه فشهدت عليه به فى تاريخه وكتب (٦٤)
موسى بن عبد الغفار المالكى (٦٥)

٥٤ — وبذلك اشهدنى ادام الله تعالى ايامه واعز احكامه واسبغ عليه جوده وانعامه فشهدت عليه به فى تاريخه وكتب

عبد الكريم بن على الجولى الشافعى ن (٦٦)

شهد عندى بذلك

٥٧ — اعزه الله تعالى (٦٧)

وبذلك اشهدنى سيدنا ومولانا قاضى القضاة شيخ الاسلام فشهدت عليه به فى تاريخه وكتب
ابو الفضل محمد الاعرج (٦٨)

٦٠ — وبذلك اشهدنى سيدنا ومولانا قاضى القضاة شيخ الاسلام ادام الله تعالى ايامه الزاهرة وجمع له بين خيرى الدنيا والاخرة فشهدت عليه [ به ] فى [ تاريخه ]
وكتب

صالح بن على [ ..... ] (٦٩) الشافعى

٦٣ — وبذلك اشهدنى سيدنا ومولانا قاضى القضاة شيخ مشايخ الاسلام امتع الله تعالى بوجوده الانام واحسن اليه

ووالى نعمه فى الدارين عليه فشهدت عليه به فى تاريخه اعلاه وكتب
محمد بن محمد الخطيب عفا الله عنهما بمنه

٦٦ — وبذلك اشهدنى ادام الله تعالى ايامه واعز احكامه واحسن اليه واسبغ نعمه عليه واجرى الخيرات على يديه فشهدت عليه به فى تاريخه وكتب

يحيى بن محمد البرديني الشا[فعى]

وبذلك اشهدنى ادام الله تعالى ايامه الزاهرة وجمع له بين خيرى الدنيا والاخرة واحسن اليه واسبغ نعمه عليه ورحم اسلافه الكرام فشهدت عليه به فى تاريخه
٦٩ — وكتب
محمد بن على السعودى الحنفى

وبذلك اشهد[نى ادام الله ت] مالى × ايامه الزاهرة وجمع له بين خيرى الدنيا والاخرة واحسن اليه واسبغ نعمه عليه فشهدت عليه به وكتب

٧٢ — سعد بن ابراهيم الطيبى
[شهد عندى بذلك] ×

بسم الله الرحمن الرحيم اللهم صلي على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم ه

٧٥ — **الحمد لله اللطيف الخبير**

هذا ما اشهد به على نفسه الكريمة حرسها الله تعالى وحماها وصانها ورعاها وشكر فى مصالح البرية جهدها ومسعاها سيدنا ومولانا العبد الفقير الى الله تعالى الشيخ الامام

٧٨ — العالم العامل العلامة الحبر البحر الفهامة المحقق المدقق الحجة الفقيه المجتهد الامة شيخ لاسلام مفتى الانام ملك العلما الاعلام حسنة الليالى والايام قاضى القضاة شهاب الدين[٧٠] لسان المتكلمين حجة المناظرين رحلة الطالبين عمدة المحققين[٧١] اوحد المجتهدين قامع المبتدعين

٨١ — محى سنة سيد المرسلين قاضى المسلمين خالصة امير المومنين ابو حامد احمد ابن + الشيشينى الحنبلى[٧٢]

الناظر فى الاحكام الشرعية بالديار المصرية والممالك الشريفة الاسلامية ادام الله تعالى ايامه الزاهرة وجمع له بين خيرى* الدنيا والاخرة وافاض نعمه عليه واجرى الخيرات دايما**

٨٤ — دايما على يديه بمحمد واله من حضر مجلس حكمه الكريم وقضايه وهو [نافذ] القضايا والاحكام ماضى النقض والابرام وذلك فى اليوم المبارك

يوم الاربعا الثالث عشر من شهر ربيع الاول

---

× ما بين الحاصرتين حروف وألفاظ غير ظاهرة فى الأصل لأنها مغطاة بقطعة من الورق — بقصد صيانة الوثيقة والمحافظة عليها وتدعيمها وهى طريقة غير فنية بلا شك — وأكملها الناشر من الصورة ص ٢٤٥

+ كذا فى الأصل .

* هذا اللفظ متصل بالسابق عليه وقد كتب بنفس الطريقة التى كتب بها فى السطر رقم ٢٦

** تكرر هذا اللفظ فى بداية السطر التالى نتيجة لسهو الكاتب .

٨٧ ــ سنه احدى عشرة وتسعمايه انه ثبت عنده ثبت الله تعالى مجده
والنجح قصده على الاوضاع الشرعية والقوانين المحررة المرعية بشهادة من اعلم [٧٣]
له تنو رسم شهادته اعلام التادية والقبول على الرسم المعهود فى مثله ادنى الاسجا[ل]

٩٠ ــ الحكمى المسطر اعلاه اشهاد الحاكم المنوه باسمه الكريم فيه سيدنا ومولانا
العب[د] الفقي[ر]

الى الله تعالى الشيخ الامام العالم العامل العلامة الحبر البحر الفهامة المحقق المدقق
الحجة المحدث الحافظ الرحالة الفقيه المجتهد الامة شيخ الاسلام مفتى الانام مالك

٩٣ ــ العلما الاعلام حسنة الليالى والايام صدر مصر والشام محقق القضايا والاحكام
قاضى القضاة سرى الدين لسان المتكلمين حجة المناظرين رحلة الطالبين قامع المبتدع[ين]
مفحم المجادلين اوحد المجتهدين قاضى المسلمين خالصة امير المومنين ابى البركات عبد البر
ابن + الشحنة

٩٦ ــ الحنفى الناظر فى الاحكام الشرعية بالديار المصرية وساير الممالك الشريفة الاسلامية
وما مع ذلك من الوظايف الدينية وشيخ الشيوخ بالمدرسة الشيخونية ادام ا[له] تعا[لى]
ايامه الزاهرة وجمع له بين خيرى الدنيا والاخرة بما نسب اليه فى اسجاله المذكور
من الثبوت

٩٩ ــ والحكم المشروحين فيه على ما نص وشرح فيه وهو مورخ بالثانى عشر من شهر
ربيع الا[و]ل
المشرف سنة تاريخه ثبوتا صحيحا شرعيا ونفذ [٧٤]

سيدنا ومولانا قاضى القضاة شيخ الاسلام شهاب الدين الحاكم الحنبلى المنوه باسمه الكريم
١٠٢ ــ اعلاه ادام الله تعالى ايامه وانفذ نقضه وابرامه واسبغ عليه فضله وجوده وانع[ا]مه
حكم سيدنا ومولانا قاضى القضاه شيخ الاسلام سرى الدين الحاكم الحنفى
المنوه باسمه الشريف فيه بلغه الله تعالى من كل خير فوق ما يومله ويرتجيه الم[سوب]

١٠٥ ــ اليه فى اسجاله المذكور فيه على ما نص وشرح فيه تنفيذا صحيح[ا]
شرعيا تاما معتبرا مرضيا مسبولا فى ذلك مستوفيا شرايطه الشرعية وواجباته المعتبرة المرعية

---

+ كذا فى الأصل .

واشهد على نفسه الكريمة حرسها الله تعالى * وحمها وصانها ورعاها بذلك في التاريخ المكتوب

١٠٨ — بين اسطره اعلاه المفتتح بخطاء الكريم شرفه الله تعالى واعلاء وزاد في شرفه وعلاه بمحمد [واله]

وصلى الله على سيدنا محمد واله وصحبه وسلم وحسبنا الله ونعم الوكيل

اشهدني على نفسه الكريمة حرسها الله تعالى وحماها وصانها ورعاها وشكر في مصالح البرية جهدها

١١١ — ومسعاها سيدنا ومولانا العبد الفقير الى الله تعالى الشيخ الامام العالم العامل العلامة الحبر البحر الفهامة

المحقق الحجة المجتهد العمدة (٧٥) الفقيه الامة شيخ الاسلام ملك العلما الاعلام مفتى الانام قاضي

القضاة شهاب الدين + لسان المتكلمين حجة المناظرين رحلة الطالبين قامع + المبتدعين محى سنة سيد المرسلين قاضي المسلمين خال[صة]

١١٤ — امير المومنين + ابو حامد احمد الحاكم الحنبلي المنوه باسمه الكريم اعلاه ادام الله تعالى ايامه وزاد علاه بما نسب اليه

اعلاه فشهدت عليه به وكتب

موسى بن عبد الغفار المالكي

١١٧ — شهد عندى بذلك اعزه الله تعالى وشفاه (٧٦)

وبذلك اشهدني ادام الله تعالى ايامه الزاهرة وجمع له بين خيرى الدنيا والآخرة واحسن اليه واسبغ نعمه عليه فشهدت عليه به في تاريخه وكتب

سعد بن ابراهيم الطيبي

---

* هذا اللفظ كتب بطريقة اصطلاحية ، وتختفى الكلمات فيه حروف الألف واللام تماما.

+ هذه الكلمات مكتوبة بطريقة مختصرة جداً فيها تحوير واهمال لبعض الحروف.

١٢٠ — وبذلك اشهدنى ادام الله تعالى ايامه الزاهرة وجمع له بين خيرى الدنيا والاخرة واحسن اليه واسبغ نعمه عليه فشهدت عليه به وكتب

احمد بن محمد الاسحاقى

وبذلك اشهدنى ادام الله تعالى ايامه الزاهرة وجمع له بين خيرى الدنيا والاخرة واحسن اليه واسبغ نعمه فى الدارين عليه فشهدت عليه به وكتب

١٢٣ — [ عبد الرحمن بن عبد الغنى الحريرى ] (٧٧)

وبذلك اشهدنى ادام الله تعالى ايامه الزاهرة وجمع له بين خيرى الدنيا والاخرة واحسن اليه واسبغ نعمه فى الدارين عليه فشهدت عليه به وكتب

محمد بن على المخزومى

١٢٦ — شهد عندى بذلك

اعزه الله تعالى

وبذلك اشهدنى ادام الله تعالى ايامه الزاهرة وجمع له بين خيرى الدنيا والاخرة واحسن اليه واسبغ نعمه عليه فشهدت عليه به وكتب

١٢٩ — محمد بن عبد القادر الهواشى الشافعى

وبذلك اشهدنى ادام الله تعالى ايامه الزاهرة وجمع له بين خيرى الدنيا والاخرة واحسن اليه واسبغ نعمه عليه فشهدت عليه به وكتب.

احمد بن عبد الرحمن الطبندى

١٣٢ — وبذلك اشهدنى ادام الله تعالى ايامه الزاهرة وجمع له بين خيرى الدنيا والاخرة واحسن اليه واسبغ نعمه عليه فشهدت عليه به وكتب

اسماعيل بن ابراهيم الابناسى

وبذلك اشهدنى ادام الله تعالى ايامه واعز احكامه واحسن اليه واسبغ نعمه عليه واجرى الخيرات على يديه فشهدت عليه به فى تاريخه وكتب

١٣٥ — محمد بن على السعودى الحنفى

وبذلك اشهدنى ادام الله تعالى ايامه الزاهرة وجمع له بين خيرى الدنيا والاخرة فشهدت عليه به وكتب

ابو الفضل محمد الاعرج

١٣٨ ــ شهد عندى بذلك

وبذلك اشهدنى ادام الله تعالى ايامه وعز احكامه وانفذ نقضه وابرامه واسبغ عليه جوده وانعامه فشهدت عليه به وكتب

عبد الكريم بن على المجولى الشافعى

١٤١ ــ شهد عندى بذلك اعزه الله تعالى

بسم الله الرحمن الرحيم اللهم صل على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

الحمد لله

احمد الله شاكرا لانعمه ن

١٤٤ ــ هذا ما اشهد به على نفسه الكريمة* حرسها الله تعالى وحماها وصانها ورعاها وشكر فى مصالح البرية جهدها ومسعاها

سيدنا ومولانا العبد الفقير إلى الله تعالى الشيخ الامام العالم العامل العلامة الحبر البحر الفهامة المحقق

المدقق الحجة المحدث الرحلة الفقيه المجتهد الامة شيخ الاسلام مفتى الانام ملك العلما الاعلام

١٤٧ ــ حسنة الليالى والايام صدر مصر والشام محرر القضايا والاحكام قاضى القضاة برهان الدين+

لسان المتكلمين حجة الناظرين اوحد المجتهدين قامع المبتدعين محى سنة سيد المرسلين قاضى المسلمين خالصة امير

---

* نسى الكاتب كتابة اللفظان « نفسه الكريمة » فى صلب السطر فى الوثيقة الاصلية فوضعهما فوق لفظ « حرسها » .

+ هذا السطر بأكمله خال من النقط تماماً .

المومنين ابو المراق ابراهيم الدميرى المالكى (٧٨) الناظر فى الاحكام الشرعية بالديار المصرية والممالك الشريفة

١٥٠ ــ الاسلامية ادام الله تعالى ايامه الزاهرة وجمع له بين خيرى الدنيا والاخرة وافاض نعمه عليه واجرى الخيرات

دايما على يديه بحمد واله من حضر مجلس حكمه الكريم وقضايه وهو نافذ القضايا والأحكام ماضى النقض والابرام وذلك فى اليوم المبارك

١٥٣ ــ يوم الخميس المبارك الرابع عشر من ربيع الاول

سنة احدى عشرة وتسعماية انه ثبت عنده ثبت الله تعالى مجده ونجح قصده

وصح لديه احسن الله تعالى اليه على الاوضاع الشرعية والقوانين المحررة المرعية بشهادة من اعلم

١٥٦ ــ له تلو رسم شهادته اعلام التادية والقبول على الرسم المعهود فى مثله × أدنى اسجال التنفيذ المسطر

اعلاه اشهاد الحاكم المشار اليه بل المنوه باسمه الكريم فيه بلغه الله تعالى من خيرى الدنيا والاخرة ما يومله ويرتجيه هو

سيدنا ومولانا العبد الفقير الى الله تعالى الشيخ الامام العالم العامل العلامة الحبر البحر الفهامة المحقق المدقق

١٥٩ ــ الحجة المحدث الحافظ الرحلة الفقيه المجتهد الامة شيخ الاسلام مفتى الانام ملك العلما الاعلام حسنة الليالى

والايام صدر مصر والشام محقق القضايا والاحكام قاضى القضاة شهاب الدين قامع المبتدعين اوحد المجتهدين

قاضى المسلمين خالصة امير المومنين ابى حامد احمد الشيشينى الحنبلى الناظر فى الأحكام الشرعية بالديار المصرية

---

× هذا اللفظ متصل بالذى قبله وقد كتبا بطريقة غريبة محورة .

١٦٢ — والممالك الشريفة الاسلامية ادام الله تعالى ايامه الزاهرة وجمع له بين خيرى الدنيا والاخرة على نفسه الكريمة حرسها الله

تعالى وحماها وصانها ورعاها وشكر فى مصالح البرية جهدها ومسعاها بجميع مانسب اليه فى اسجاله المذكور من الثبوت والتنفيذ

المشروحين فيه على مانص وشرح فيه وهو مورخ بيوم الاربعا الثالث عشر من شهر ربيع الاول شهر تاريخ[ه]

١٦٥ — ثبوتا صحيحا شرعيا ونفذ سيدنا ومولانا قاضى القضاة شيخ الاسلام [برهان الدين]*

الحاكم المالكى المنوه باسمه الكريم اعلاه ادام الله تعالى ايامه الزاهرة وجمع له بين خيرى الدنيا والاخرة تنفيذ [سيدنا]

ومولانا قاضى القضاة شيخ الاسلام شهاب الدين الحاكم الحنبلى المنوه باسمه الكريم فيه بلغه الله تعالى من خيرى الدنيا والاخرة

١٦٨ — ما يومله ويرتجيه المنسوب اليه فى اسجاله المذكور على ما نص وشرح فيه تنفيذاً صحيحا شرعيا

تاما معتبرا مرضيا مسبولا + فى ذلك مستوفيا شرايطه الشرعية وواجباته المعتبرة المرعية واشهد على نفسه الكريمة حرسها الله تعالى [وحماها]*

بذلك فى التاريخ المكتوب بين اسطره اعلاه المفتتح بخطه الكريم شرفه الله تعالى واعلاه وزاد فى علاه [بمحمد واله]*

١٧١ — وصلوته على اشرف الخلق سيدنا محمد
واله وصحبه وسلامه وحسبنا الله ونعم الوكيل

اشهدنى على نفسه الكريمة سيدنا ومولانا العبد الفقير إلى الله تعالى الشيخ الامام العالم العامل العلامه الحبر البحر

١٧٤ — الفهامة المحقق المدقق الحجة المحدث الرحلة الفقيه المجتهد الامة شيخ الاسلام مفتى الانام ملك العلما

---

* مابين الحاصرتين لا وجود له فى الأصل وأكمله الناشر من الصورة ص ٢٠٥ — ٢٠٦

+ هذا اللفظ كتب بطريقة لا نلاحظ فيها أثراً لحرفى السين والياء .

الاعلام حسنة الليالى والايام صدر مصر والشام قاضى القضاة برهان الدين لسان
المتكا [مين حجة] ×

المناظرين رحلة الطالبين اوحد المجتهدين قامع المبتدعين محى سنة سيد المرسلين خالصة
امير [المومنين] ×

١٧٧ — المنوه باسمه الكريم اعلاه ادام الله تعالى ايامه الزاهرة وجمع له بين خيرى
الدنيا والاخرة وافاض نعم[ه عليه واجرى] *

الخيرات على يديه بما نسب اليه فى إسجاله الكريم المسطر اعلاه فشهدت عليه به
فى تاريخه وكتب

موسى بن عبد الغفار المالكى

١٨٠ — شهد عندى بذلك ايده الله [تعالى]

وبذلك اشهدنى سيدى والدى ادام الله تعالى ايامه الزاهرة وجمع له بين خيرى الدنيا
والاخرة واحسن اليه واسبغ نعمه فى الدارين عليه فشهدت عليه به فى تاريخه وكتب

يحيى بن ابراهيم الدميرى المالكى ٧٩١

١٨٣ — وبذلك اشهدنى ايد الله تعالى احكامه وادام ايامه وختم بالصالحات اعماله
واسبغ نعمه عليه واحسن فى الدارين اليه فشهدت عليه به فى تاريخه وكتب

محمد بن حسن اللقانى

وبذلك اشهدنى ادام الله تعالى ايامه الزاهرة وجمع له بين خيرى الدنيا والاخرة واحسن
اليه واسبغ نعمه عليه فشهدت عليه به فى تاريخه وكتب

١٨٦ — عبد الكريم بن على الجولى الشافعى

شهد عندى [اعزه الله]

× ما بين الحاصرتين أكمله الناشر من الصورة ص ٢٥٧

* ما بين الحاصرتين بياض فى الأصل وأضافه الناشر من الصورة ص ٢٥٧

وبذلك اشهدنى ادام الله تعالى ايامه الزاهرة وجمع له بين خيرى الدنيا والاخرة واحسن اليه واسبغ نعمه عليه فشهدت عليه به فى تاريخه وكتب

١٨٩ — ابو الفضل محمد الأعرج

وبذلك اشهدنى ادام الله تعالى ايامه الزاهرة وجمع له بين خيرى الدنيا والآخرة واحسن اليه واسبغ نعمه عليه فشهدت عليه به فى تاريخه وكتب

سعد بن ابراهيم الطيبى

١٩٢ — وبذلك اشهدنى انفذ الله تعالى احكامه وادام ايامه الزاهرة وجمع له بين خيرى الدنيا والاخرة واحسن اليه واسبغ نعمه عليه فشهدت عليه به وكتب

احمد بن حمد الاسحاقى

وبذلك اشهدنى ادام الله تعالى ايامه الزاهرة وجمع له بين خيرى الدنيا و لاخرة واحسن اليه واسبغ نعمه عليه فشهدت عليه به وكتب

١٩٥ — محمد بن عبد القادر الهواشى الشافعى

وبذلك اشهدنى ادام الله تعالى ايامه وختم بالصالحات اعماله واحسن اليه واسبغ نعمة عليه فشهدت علية به وكتب

ابراهيم بن عبد القادر الدميرى (٨٠)

١٩٨ — بسم الله الرحمن الرحيم اللهم صلى على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم ن

الحمد لله احكم الحاكمين

هذا ما اشهد به على نفسه الكريمة حرسها الله تعالى وحماها وصانها ورعاها

٢٠١ — وشكر فى مصالح البرية جهدها ومسعاها سيدنا ومولانا العبد الفقير إلى الله تعالى الشيخ

الامام والليث الهمام (٨١) العالم العامل العلامة الحبر البحر الفهامة المحقق المدقق الحجة المجتهد الاوحد (٨٢) العمدة الحافظ المحدث الرحلة الخاشع (٨٣) الناسك (٨٤) القدوة (٨٥) الوحيد الفريد الامة

٢٠٤ ـــ شيخ مشايخ الاسلام ملك العلما الاعلام حسنة الليالى والايام صدر مصر ومكة
والعراق والشام مفتى الفرق والانام محرر القضايا والاحكام ماضى النقض
والابرام (٨٦) قاضى القضاة شهاب الدين لسان المتكلمين سيف المناظرين

٢٠٧ ـــ بقية المجتهدين (٨٧) سلطان الفقها والاصوليين امام النقلة المفسرين (٨٨) كنز
النحاة والمعربين
عمدة الحساب والفرضيين ملاذ الغربا والمنقطعين (٨٩) رحلة الطالبين ملجا الائمة
كهف الملة (٩٠) محى السن[ة]
غياث الملهوفين (٩١) قامع المبتدعين محط رجال الوافدين (٩٢) رجا القاصدين (٩٣)
رييس المملكتين (٩٤)

٢١٠ ـــ صاح[ب] الولاي[ين] (٩٥) س[يو] يه زمانه فريد عصره واوانه خطيب
الخطبا (٩٦) امام الفصحا
والبلغا والادبا (٩٧) قاضى المسلمين خالصة مولانا امير المومنين ابو العباس احمد ابن
الفرفور الشافعى (٩٨)
الناظر فى الاحكام الشرعية بالديار المصرية والمملكة الشريفة الشامية وساير الممالك
الاسلامية

٢١٣ ـــ وخادم الحجرة الشريفة النبوية (٩٩) وما مع ذلك من الوظايف الدينية
والمناصب السنية ادام الله تعالى
ايامه الزاهرة وجمع له بين خيرى الدنيا والاخرة وايد احكامه وانفذ نقضه وابرامه
واسبغ عليه جوده وانعامه ووالى عليه نعمه تترى ولطف به فى الدنيا وغفر له فى الاخرة

٢٢٦ ـــ من حضر مجلس حكمه وقضايه وهو نافذ القضايا والاحكام ماضى النقض
والابرام وذلك فى اليوم السعيد المبارك

## السابع عشر من شهر ربيع الأول المبارك +

٢١٩ ـــ سنة احدى عشرة وتسع مابة * إنه ثبت عنده ثبت الله تعالى مجده

--- 

* كذا فى الأصل .
+ هذا السطر بأكمله خال من النقط تماماً .

وانجح قصده وصح لديه ادام الله تعالى نعمه عليه على الاوضاع الشرعية والقوانين المعتبرة المرعية بشهادة من أعلم له تلو رسم شهادته أعلام التادية والقبول على الرسم المالوف

٢٢٢ — فى مثله ادنى اسجال التنفيذ المسطر اعلاه اشهاد الحاكم المنوه باسمه الكريم فيه سـ[دنا] +

ومولانا العبد الفقير الى الله تعالى الشيخ الامام العالم العامل العلامة الحبر البحر الفهامة

المحقق المدقق الحجة المحدث الرحلة المجتهد الامة شيخ الاسلام مفتى الانام مالك العلما

٢٢٥ — الاعلام حسنة الليالى والايام قاضى القضاة برهان الدين لسان المتكلمين حجة المناظرين أوحد المجتهدين قامع المبتدعين محى سنة سيد المرسلين قاضى المسلمين خالصة امير المومنين ابى المراقى ابراهيم الدميرى المالكى الناظر فى الاحكام الشرعية بالديار المصرية والمملكة الشريفة

٢٢٨ — الاسلامية ادام الله تعالى ايامه الزاهرة وجمع له بين خيرى الدنيا والاخرة وافاض نعمه

عليه واجرى الخيرات على يديه على نفسه الكريمة حرسها الله تعالى وحماها وصانها ورعاها وشكر

فى مصالح البرية جهدها ومسعاها بما نسب اليه فى اسجاله المذكور من الثبوت والتنفيذ

٢٣١ — المشروحين فيه على ما نص وشرح فيه وهو مورخ بيوم الخميس المبارك الرابع عشر من شهر تاريخ[ـه]

ثبوتا صحيحا شرعيا معتبرا مرعيا ونفذ سيدنا ومولانا

قاضى القضاة شهاب الدين شيخ مشايخ الاسلام والمسلمين الحاكم الشافعى المنوه باسمه الكريم

٢٣٤ — اعلا[ه] * ادام الله تعالى ايامه وزاد علا[ه] وحرسه وتولاه وعافاه وشفاه (١٠٠) تنفيذ

---

+ ما بين الحاصرتين أكمله الناشر من الصورة ص ٢٦٢

* ما بين الحاصرتين فى هذا السطر أضافه الناشر .

سيدنا ومولانا قاضى القضاة شيخ الاسلام الحاكم المالكى المنوه باسمه الكريم اعلاه ادام الله تعالى شرفه وعلاه

المنسوب اليه فى اسجاله المسطر اعلاه على ما نص وشرح فيه تنفيذا صحيحا شرع[يا]

٢٣٧ ـــ تاما معتبرا مرضيا مسبولا فى ذلك مستوفيا شرايطه الشرعية وواجباته المحرورة المرع[ية]

واشهد على نفسه الكريمة حرسها الله تعالى وحماها وصانها ورعاها بذلك فى التاريخ [المكتوب بين اسطره اعلاه]* المفتتح

بخطه الكريم بين سطوره اعلاه شرفه الله تعالى واعلاه وزاد فى شرفه وعلاه بمحمد واله

٢٤٠ ـــ وحسبنا الله ونعم الوكيل اشهدنى

على نفسه الكريمة حرسها الله تعالى وحماها وصانها ورعاها وشكر فى مصالح البريه جهدها

ومسعاها سيدنا ومولانا العبد الفقير الى الله تعالى الشيخ الامام العالم العامل العلامة الحبر البحر

٢٤٣ ـــ الفهامة المحقق المدقق الحجة المجتهد الاوحد العمدة الحافظ المحدث الرحلة الفقية [المحرر الامة]**

الخاشع الناسك القدوة شيخ مشايخ الاسلام ملك العلما الاعلام حسنة الليالى والايام صدر مصر ومكة والعراق والشام ماضى النقض والابرام محرر القضايا والاحكام مفتى الفرق

٢٤٦ ـــ والانام قاضى القضاة شهاب الدين لسان المتكلمين حجة المناظرين بقية المجتهدين نا[مع]***

---

* ما بين الحاصرتين لم يرد فى كل من الأصل والصورة وأضافه الناشر طبقاً لما ورد فى الاشهادات الثلاثة السابقة سطر ٤١ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ـــ ١٧٠ .

** ما بين الحاصرتين بياض ولا أثر له فى الأصل وأضافه الناشر من الصورة ص ٣٦٤ .

*** ما بين الحاصرتين أضافه الناشر .

المبتدعين محى سنة سيد المرسلين سيبويه زمانه .فريد عصره واوانه خطيب الخطبا امام الفصحا

والبلغا والادبا قاضى المسلمين خالصة .امير المومنين الحاكم الشافعى المنوه باسمه الكريم اعلاه ادام الله تعالى رفعته

٢٤٩ — وشرفه وعلاه وحرسه وتولاه وعافاه وشافاه بما نسب اليه فى اسجاله الكريم المسطر اعلاه على ماض وشرح اعلاه فشهدت عليه به فى تاريخه وكتب

عبد الكريم بن على المجولى الشافعى

وبذلك اشهدنى ادام الله تعالى ايامه الزاهرة وجمع له بين خيرى الدنيا والاخرة وافاض نعمه عليه واجرى الخيرات على يديه فشهدت عليه به فى تاريخه وكتب

٢٥٢ — موسى بن عبد الغفار المالكى

وبذلك اشهدنى ادام الله تعالى ايامه الزاهرة وجمع له بين خيرى الدنيا والاخرة وافاض نعمه عليه واجرى الخيرات على يديه فشهدت به فى تاريخه وكتب

سعد بن ابراهيم الطيبى

٢٥٥ — [ وبذلك اشهدنى ادام الله تعالى ايامه الزاهرة وجمع ]+ ل[ه] بي[ن] خيرى الدنيا والآخرة فشهدت عليه به فى تاريخه وكتب

احمد بن محمد الحمصى الانصارى ا[لشافعى]

وبذلك اشهدنى ادام الله تعالى ايامه الزاهرة وجمع له بين خيرى الدنيا والاخرة فشهدت عليه به فى تاريخه وكتب

٢٥٨ — محمد عرفات الشافعى

وبذلك اشهدنى ادام الله تعالى ايامه الزاهرة وجمع له بين خيرى الدنيا والاخرة فشهدت عليه به فى تاريخه وكتب

محمد [ جمال الدين بن سليم الحنفى ]

+ ما بين الحاصرتين مغطى بورق صيك فى الأصل وأضافه الناشر من الصورة ص ٢٦٦

٢٦١ ــ وبذلك اشهدنى ادام الله تعالى ايامه الزاهرة وجمع له بين خيرى الدنيا والاخرة فشهدت عليه به فى تاريخه وكتب.

عبد الرحمن بن عمر الابناسى

وبذلك اشهدنى ادام الله تعالى ايامه الزاهرة وجمع له بين خيرى الدنيا والاخرة فشهدت عليه به فى تاريخه وكتب

٢٦٤ ــ ابو الفضل محمد الاعرج

وبذلك اشهدنى ادام الله تعالى ايامه الزاهرة وجمع له بين خيرى الدنيا والاخرة فشهدت علية به فى تاريخه وكتب

محمد بن عثمان الدمياطى

## خامسا — التحقيقات والتعليقات العلمية

١ — هذا هو نص البسملة والتصلية فى بداية كل من الاشهادات الأربعة، وهى مكتوبة بقلم التوقيع — القلقشندى : صبح الأعشى ح ٣ ص ١٣٦ — ١٢٧، الصورة الأولى والثانية. وقد اعتنى الكاتب بها فوردت فى سطر مستقل منقوطة ومشكولة. والملاحظ أن كثيراً من كتاب الوثائق العربية فى العصر الوسيط قد درج على إفتتاحية الاشهادات بهذه الصيغة ذاتها أو بالبسملة وحدها.

وكان النبى محمد (ص) يفتتح بها الكتب، وعن سفيان الثورى وغيره أنه كان يكره للرجل أن يكتب شيئاً حتى يكتب « بسم الله الرحمن الرحيم »، وقال بعضهم لا يصلح كتاب إلا أن يكون أوله البسملة. وكثير من الأحاديث والآثار كلها ظاهرة فى استحباب الابتداء بالبسملة فيما يكتب من أصناف المكاتبات وغيرها، وعلى ذلك مصطلح كتاب الانشاء فى القديم والحديث على حد قول القلقشندى، وعن الرسول أنه قال: « كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه بسم الله الرحمن الرحيم فهو أقطع » يعنى ناقص البركة.

وكان ينبغى للكاتب أن يبالغ فى تحسينها فى الكتابة ما استطاع تعظيما لله تعالى، فقد روى أن النبى (ص) قال « من كتب بسم الله الرحمن الرحيم فحسنه أحسن الله اليه »

ومهما يكن من أمر فانه كان يستحب أن تحسن البسملة، وقد روعى فى كتابتها القواعد التى كان يجب الأخذ بها من حيث تحسين شكل الحروف — أنظر شكل ١٥، ١٧

وكانت البسملة تقدم تبركا — بالابتداء بها وتيمنا بذكرها، وكان ينبغى للكاتب أن يفرد البسملة فى سطر وحدها تبجيلا لاسم الله تعالى واعظاما وتوقيرا له. ويروى عن النبى أنه نهى أن يكتب فى سطر البسملة غيرها. ويظهر أن كتاب الانشاء قد جرت مكاتيبهم وسائر ما يصدر عنهم على هذه الطريقة. أما النساخ وكتاب الوثائق الخاصة بالتصرفات القانونية المختلفة فأحيانا يسيرون على هذا النمط، وربما كتبوا بعد البسملة الحمدلة فى نفس السطر، أو الصلاة على رسول الله (ص) ونحو ذلك كما هو الحال فى هذه الاشهادات.

ولا نزاع فى أن الصلاة على النبى (ص) مطلوبة فى الجملة، والأحاديث التى تحث على ذلك أكثر من أن تحصر، فناسب أن تكون فى أوائل الكتب تيمنا وتبركا، وكان

من عادة الكتاب أن يجمع بين الصلاة والتسليم على سيدنا رسول الله ولا يقتصر على احدهما، هذا والصلاة على آل الرسول وصحبه جائزة بالاجماع على غير الأنبياء بطريق التبعية . القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٦ ص ٢١٩ — ٢٢٨ ، بحثنا هذا ص ٣٠٥

دائرة المعارف الاسلامية مادة « البسملة »

ويلاحظ القارىء وجود حرف « هـ » فى نهاية البسملة فى كل من الاشهاد الأول والثانى سطر ١ ، ٧٤ شكل ١٥ — وكذلك حرف « ن » فى نهاية الحمدلة فى الاشهاد الثالث سطر ١٤٣ شكل ١٦ ، وفى نهاية البسملة فى الاشهاد الرابع سطر ١٩٨ شكل ١٧ ، وبعد توقيع الشاهد عبد الكريم بن على المجولى الشافعى سطر ٥٥ شكل ٢٤ وهذه وتلك من علامات الوقف stop signs

Grohmann : *From the world of Arabic papyri* pp. 91—93.

وهذه العلامات اصطلح كتاب الوثائق عليها كنوع من الاختزال فى الكتابة بمعنى « انتهى » .

عبد اللطيف إبراهيم : دراسات تاريخية وأثرية فى وثائق من عصر الغورى (تحت الطبع)

هذا هو نص الحمدلة فى الاشهاد الأول ، والحمدلة جزء أصيل فى افتتاحية الاشهادات أو الاسجالات يرد كثيراً وبصيغ متعددة ، وهى من توابع البسملة فى جل وثائق عصر المماليك ، وقد وردت « الحمد لله » فى القرآن الكريم فى عدة آيات فى فاتحة الكتاب وسورة الأنعام والكهف وسبأ وفاطر والنمل . ويقول ابن الأثير فى كتابه المثل السائر ص ٤٠٩ « أما التحميدات فكانت مقصورة على الكتب السلطانية دون غيرها » ونصح ابن الأثير بأن تجعل فى أوائل الكتب مناسبة لمعانيها » حسن الباشا : الألقاب الاسلامية ص ٣٣ .

ولكن هذه الوثيقة وغيرها من وثائق سلاطين المماليك وأمرائهم وكبار رجال دولتهم من أرباب السيف والقلم تضيف لنا جديداً ، وهو أن التحميدات كانت ترد فى وثائق التصرفات المختلفة ، وبالذات فى افتتاحية الاشهادات أو الاسجالات الحكمية والتنفيذية فى ظهور الوثائق ولم تقتصر على الكتب السلطانية وحدها .

وكان قضاة القضاة أو نوابهم يقومون بكتابة الحمدلة فى علامات الثبوت فى المكاتيب الشرعية ، لأنه لما كان الحمد مطلوباً فى أوائل الأمور للتيمن والتبرك وردت الحمدلة

فى افتتاحيات الكتب . وقيل كذلك « كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه بحمد الله فهو أجذم » وقد اصطلح الكتاب على الابتداء بالحمدلة فى كثير مما يكتبونه .

وقد أتوا بالحمدلة بعد البسملة تأسيا بكتاب الله تعالى إذ كان الابتداء بالحمد إنما يكون فى أمر له بال . وقد يستعمل الحمد بصيغة الفعل « احمد الله » كما ورد فى الاشهاد الثالث سطر ١٤٣ شكل ١٦ . وهناك خلاف فى أى الصيغتين أبلغ - صيغة الحمد لله أو صيغة أحمد الله ، ولكن الصيغة الأولى أبلغ لأن فيها معنى الاستقرار والثبوت والاستمرار . القلقشندى : صبح الأعشى حـ ٦ ص ٢٢٤ - ٢٢٦ .

ويتضح لنا من صيغ الحمدلة فى إشهادات الوقف فى هذه الوثيقة أنها مختلفة - بحثنا هذا ص ٣٠٥ . وكذلك وصلت بنا الدراسة الباليوجرافية لعدد من صيغ الحمدلة المتشابهة فى عدد كبير من وثائق عصر المماليك والتى ترجع إلى فترة واحدة إلى أن القاضى الذى يتم الاشهاد على يديه كان يقوم بكتابة صيغة معينة من الحمدلة باعتبارها علامته فى سطر مستقل عادة وبخط كبير واضح بقلم جليل ، إذ يبلغ طول الألف ٤ سم فى الحمد سطر ١٩٨ ، أنظر بحثنا « التحميدات فى الوثائق المملوكية » ( تحت الطبع )

ويظهر أنه كان لكل قاض صيغة معينة من الحمدلة يفتتح بها الاشهاد فى الوثائق التى تعرض عليه لتوثيقها . وقد أورد لنا القلقشندى فى موسوعته الكبيرة هذه الحقيقة أيضا عند كلامه عن التقاليد الحكمية واسجالات العدالة فقال : « والعادة أن يعلم فيه الحاكم علامة تلو البسملة ، ويكتب التاريخ فى الوسط ، والحسبلة فى الآخر ، كل ذلك بخطه ، ويشهد عليه فيه من يشهد عليه من كتاب الحكم وغيرهم كما فى سائر الاسجالات الحكمية » القلقشندى : صبح الأعشى حـ ١٤ ص ٣٤٢ - ٣٤٩ .

ويظهر أنه كان لكل قاض علامة خاصة مميزة ، ينفرد بها دون سواه من القضاة فى عصره كما يتضح لنا من تحميدات القضاة الأربعة وغيرهم ، والحمدلة بصيغها المختلفة تعبر عن شخصية الفاعل الوثيقى وكانت تغنى عن التوقيع ، فهى بمثابة ختم القاضى فى وثائق العصر العثمانى بعد ذلك . أنظر كذلك - الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية حـ ١ ص ٥٢ حاشية ٢ .

دائرة المعارف الاسلامية مادة « الحمدلة »

٣ — هذه هى إحدى عبارات التسجيل الواردة فى هذه الوثيقة والخاصة بتسجيل الفعل القانونى المدون فى وجه الوثيقة والاشهادات الأربعة فى ظهرها ، وهذه العبارة وأمثالها

من عبارات التسجيل أو الألفاظ الدالة على وجوبه ترد أحيانا على الهامش الأيمن فى بداية وجه بعض الوثائق وخاصة الأصول منها ، ولكنها ترد كثيراً فى بداية الاشهادات فى ظهر معظم الوثائق التى يحدث الاشهاد عليها .

وكان قاضى القضاة أو نائبه يقوم بكتابتها بخطه على الأرجح فى بداية وجه الوثيقة بعد الحكم بصحة التصرف والوارد فيها وكذلك يفعل بقية القضاة فى بداية الاشهاد السابق على اشهاد كل منهم فى ظهر الوثيقة بعد أن يتثبت من صحة التصرف القانونى والحكم به أو بتنفيذه ، أعنى أنه كان يصدر أمره لكتاب الحكم بتسجيله ، فقد ورد هذا اللفظ دائما بلام الأمر « ليسجل » .

وقد إختلفت صيغ العبارات الخاصة بالتسجيل وألفاظه بين الايجاز والأطناب ، فقد يرد اللفظ بمفرده أو مع غيره من الألفاظ الدالة على الثبوت والتنفيذ ، وكثيرا ما يرد اللفظ مسبوقا بالحمدلة . أنظر بحثنا هذا ص ٣٠٦

٤ ــ هذه هى بعض الألقاب الرسمية والفخرية للسلطان الملك الأشرف قانصوه الغورى ، ويتضح للقارىء أنها ألقاب طوال فيها تفخيم وتعظيم يناسب المقام السلطانى ، وتحتل هذه النعوت سبعة سطور بأكملها ( سطر ٣ ــ ١٠ ) . وهذه الألقاب يقصد بها التعريف بالفاعل القانونى أو المتصرف الواقف ، ويقول الزميل الدكتور حسن الباشا فى كتابه الألقاب الاسلامية ص ٣١ « وكان من عادة الكتاب أن يكتبوا النعوت التى فى باطن الكتاب فى ظاهره غالبا إذا كان الكتاب عن السلطان » . ونضيف إلى هذا أيضا أن النعوت والألقاب الخاصة بكثير من الشخصيات العسكرية والمدنية الكبرى والصغرى على السواء فى عصر المماليك كانت ترد فى ظاهر الوثيقة كما ترد فى باطنها كما اتضح لنا من دراسة وثائقهم الكثيرة فى محفوظات وزارة الأوقاف ومحكمة الأحوال الشخصية بالقاهرة ودار الكتب المصرية .

ولما كانت أغلب هذه الألقاب قد وردت فى وجه الوثيقة فعلا ــ مع التقديم أو التأخير أحيانا ــ وقمنا بتحقيقها من قبل فلا نجد داعياً إلى إعادة شرحها هنا منعا للتكرار .

وثيقة الغورى أوقاف ٨٨٣ دراسة ونشر وتحقيق الدكتور عبد اللطيف ابراهيم .

والباحث فى الوثائق العربية عن الألقاب السلطانية فى عصر المماليك يتضح له أن هذه الألقاب اختلفت من عهد لآخر وخاصة فى بداية ذلك العصر ونهايته بسبب الظروف السياسية والحربية التى مرت بها الدولة المملوكية البحرية والبرجية .

وياحبذا لو قام أحد الزملاء بدراسة الألقاب الرسمية والفخرية المختلفة للسلاطين المماليك والعثمانيين من واقع الوثائق نفسها لأنه سيقدم لنا بلا شك عملا علمياً جديداً وجديرا بالتقدير والثناء .

٥ — مظهر العدل فى العالمين — هذ اللقب لم يرد ضمن الألقاب التى قمنا بشرحها فى وجه الوثيقة وكثيراً ما تضاف إلى لفظ « مظهر » بعض الكلمات لتكوين ألقاب مركبة ، ولكن هذا اللقب بالذات لم يرد فى حسن الباشا : الألقاب الاسلامية ص ٤٧٤ — ٤٧٥ .

وهذا اللقب يشير إلى احترام المماليك للعدل أو رغبتهم فى ذلك ، وإلى أن السلطان الغورى نفسه كان عادلا ، فقد ورد فى وجه الوثيقة نعت له يؤدى هذا المعنى وهو « حاكم عادل » سطر ٦٨ و« عدل الله فى الأرض » سطر ٩٤ . ومن الألقاب السلطانية التى تتفق مع هذا اللقب فى المعنى أيضاً « محى العدل فى العالمين » وثيقة السلطان اينال دار الكتب ٦٢ تاريخ ، وثيقة قايتباى أوقاف ٨٨٦ ، حسن الباشا : الالقاب الاسلامية ص ٤٦٤

٦ — يقصد بذلك وجه وثيقة وقف السلطان الغورى المحفوظة بارشيف وزارة الأوقاف تحت رقم ٨٨٣ ، ويبلغ عدد سطورها ١٧٨٨ سطرا ، وقد سبق أن قمت بدراستها ونشرها وتحقيقها ضمن أبحاثى لدرجة الدكتوراه فى سنة ١٩٥٦

٧ — يقصد بذلك الشروط التى نص عليها السلطان الغورى فى كتاب وقفه « ... وشرط مولانا الواقف تقبل — منه عمله وسامحه وغفر له فى وقفه هذا شروطا حث عليها فوجب العمل بها قطعا وتعين المصير — اليها ومنها انه جعل النظر على وقفه هذا . . . . . ويشترط من الشروط المخالفة لما اشترطه فيه ما يرى اشتراطه كلما بدا له فعل شى من ذلك فعله .... يجرى الحال فى ذلك كذلك ابد الابدين ودهر الداهرين . . . . . » وجه الوثيقة سطر ١٦٧٥ — ١٧٥٦

والشروط الواردة فى وجه الوثيقة هى الشروط المعروفة باسم الشروط العشرة فى مادة الوقف فى كتب الفقه الاسلامى وغيرها من الشروط التى شرطها الغورى .

انظر بحثنا وثيقة الامير آخور كبير قراتجا الحسنى ( مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة م ١٨ ج ٢ ) ص ٢٥٠ تحقيق رقم ٩٢ . ونضيف إلى ما ورد فيه من حقائق ومصادر أن شرط الواقف كنص الشارع تجب مراعاته ولا تصح مخالفته بل إن النص فوق الآراء الفقهية .

كامل مرسى : الملكية والحقوق العينية ج ١ ص ٤٦١ ، احمد ابراهيم : احكام الوقف ص ٦٨ - ٦٩ ، سرحان : الوقف فى نظامه الجديد ص ٨١ - ٨٣ ، الابيانى : مباحث الوقف ص ٣٢ - ٤٥ ، ابو زهرة : مشكلة الاوقاف ( مجلة القانون والاقتصاد السنة الخامسة عدد ٦ ) ص ٥٨٨ ، ( السنة الخامسة عدد ٧ ) ص ٧٤٤ - ٧٥٢ وما بعدها .

٨ - الجوامك أو الجامكيات جمع جامكية ، وهى كلمة فارسية دخيلة على العربية ، ورد ذكرها كثيرا فى وثائق العصرين المملوكي والعثمانى وغيرها من المصادر التاريخية الأدبية المعاصرة ، ولفظ جامه معناه الثوب أو القيمة .

والجوامك هى الرواتب عامة ، وكانت تصرف على أواخر أيام المماليك نقدا بالسكة السائدة وهى غالبا من الفلوس النحاسية ، أو عينا من غلال وكسوة ولحوم لأرباب الوظائف من مدنيين وعسكريين ، ويظهر أن الجامكية كانت تعطى لصغار المماليك الأجلاب وغيرهم ممن لا يمنحون خبزا أو اقطاعا .

ادى شير : الالفاظ الفارسية المعربة ص ٤٥ ، المقريزى : السلوك ( نشر زيادة ) ج ١ ص ٥٢ حاشيه ٢ وما بها من مراجع .

٩ - كان لقب السيد والمولى يطلق على الأجلاء من رجال الدين والصالحين ، ويضاف إلى ضمير المتكلم الجمع فيقال « سيدنا ومولانا » ، وكثيراً ما يعطف لقب مولانا على لقب سيدنا ، والراجح أن هذا اللقب قد أطلق إطلاقاً شعبياً على أئمة الدين فى أواخر عصر المماليك . أنظر ما ورد عن هذا اللقب فى حسن الباشا : الالقاب الاسلامية ص ٣٤٥ - ٣٥٠ ، ٥١٦ - ٥٢٢ وما بها من مراجع .

وقد جاء هذا اللقب وغيره من الألقاب التى سنعالجها فى هذه التحقيقات ضمن ألقاب عدد كبير من القضاة فى كثير من الاشهادات فى وثائق عصر المماليك الجراكسة .

وقد ورد أيضا ضمن ألقاب القضاة الاربعة فى هذه الاشهادات سطر ١٧ ، ٧٧ ، ١٤٥ ، ٢٠١ .

ويلاحظ القارىء أن ألقاب القضاة كثيرة جداً وفيها مبالغة وتفخيم زائد ، وقد اشترك قضاة القضاة للمذاهب الأربعة فى كثير من الألقاب الفخرية ، وانفرد بعضهم بنعوت لم يشاركه فيها أحد ، وأصدق مثل على ذلك مجموعة الألقاب الفخرية لقاضى القضاة أبو العباس أحمد ابن القرفوز الشافعى ، فمن الألقاب التى نعت بها دون غيره من القضاة الثلاثة الآخرين :

« الأوحد ، الخاشع ، الناسك ، القدوة ، ماضى النقض والابرام ، بقية المجتهدين ، أمام النقلة والمفسرين ، ملاذ الغرباء والمنقطعين ، ملجأ الأمة ، كهف الله ، غياث الملهوفين ، محط رحال الوافدين ، رجاء القاصدين ، رئيس المملكتين ، صاحب الولايتين ، خطيب الخطباء ، أما الفصحاء والبلغاء والأدباء ، خادم الهجرة الشريفة النبوية » سطر ٢٠٢ — ٢١٣ ، لوحة ١١

ويظهر أن ألقاب رجال القضاء والعلماء فى أواخر العصر المملوكى لم يكن لها ضابط ولا رابط ، ولا أدل على ذلك من أنه قد ورد ضمن ألقاب قاضى القضاة الشافعى لقب فخرى عسكرى سلطانى هو « الليث الهمام » وهو من ألقاب السلطان الغورى فى نفس الوقت — أنظر وجه الوثيقة سطر ٦٨ ، وهذا يقطع فى الدلالة على مبلغ ما وصلت إليه حالة الألقاب من فوضى وعدم استقرار أو تقييم فى أواخر عصر الجراكسة فى مصر والشام ، فلم تعد الألقاب دائما مصونة ، وكانت تمنح أحيانا لمن يبدو غير جدير بها . حسن الباشا ص ١٠٠

١٠ — العبد الفقير إلى الله ـ لقب من ألقاب التواضع والتذلل لله تعالى ، وهو يرد غالبا فى النصوص الجنائزية . حسن الباشا ص ٢٩٣ . وقد ورد اللقب ضمن ألقاب القضاة الأربعة سطر ١٧ ، ٧٧ ، ١٤٥ ، ٢٠١ .

١١ — الشيخ فى اللغة الطاعن فى السن ، ويطلق للتوقير على كبار العلماء والقضاة والمتصوفة فى عصر المماليك ، وهذا اللقب أحد الألقاب الاصول وكان يأتى غالبا فى مقدمة الألقاب . حسن الباشا ص ٣٦٤ — ٣٦٦ وما بها من مراجع . وهو لقب شائع فقد ورد ضمن ألقاب قضاة القضاة للمذاهب الأربعة ، كما ورد كثيراً فى عدد من وثائق عصر المماليك الأول والثانى مما لا نجد داعيا لذكرها بسبب كثرتها .

١٢ — الامام هو القدوة ، وقد ورد اللقب فى القرآن الكريم فى أكثر من آية . وهو يطلق على أهل الصلاح والزهد والعلم ، ومن هو قدوة فى شئون الدين ، وأطلق على الخلفاء ثم على سلاطين المماليك فقيل « الامام الاعظم » كمظهر من مظاهر طموحهم إلى السيادة على العالم الاسلامى . حسن الباشا ص ١٦٦ — ١٧٦ وما به من مراجع .

وقد ورد اللقب فى كثير من الوثائق العربية فى عصر المماليك عند ذكر الالقاب الفخرية للسلاطين والقضاة ومنها وثيقة برسباى محكمه ٩٢ ، وثيقه اينال دار الكتب ٦٢ تاريخ ، وثيقه جقمق محكمه ٩٧ ، وثيقه قايتباى اوقاف ٨٨٦ ، محكمه بدون رقم ، وجه وثيقه الغورى اوقاف ٨٨٣ سطر ٨٨ ، وثيقه طومان باى دار الكتب ٢١٠٠ تاريخ ، المقريزى : السلوك حـ ١ ص ٤٥٤ حاشيه ٢ .

وهذا اللقب بالنسبة للعلماء من أعلى درجات السلم العلمى وكان يلقب به من أظهر منهم نبوغا لا مراء فيه . وقد ورد اللقب ضمن القاب القضاة الأربعة .

١٣ — العالم من القاب سلاطين المماليك والعلماء ، فهو لقب مشترك نعت به أرباب السيف والقلم على السواء فى ذلك العصر . حسن الباشا ص ٣٩٠ . وقد ورد اللفظ فى كثير من وثائق عصر المماليك ومنها وثيقة برسباى اوقاف ٨٨٠ ، وثيقة اينال ( المرحوم الأستاذ محمود حنفى وكيل وزارة الزراعة الاسبق ) ، وثيقه قايتباى اوقاف ٨٨٦ ، وجه وثيقة الغورى اوقاف ٨٨٣ سطر ٦٨ وفى عدد كبير غيرها من الوثائق .

*Van Berchem: C.I.A Egypté, 2, p. 576 No 388, p. 577 No 390.*

وقد ورد هذا اللقب أيضاً ضمن القاب القضاة الاربعة .

١٤ — العامل لقب من القاب أهل الصلاح ، ويلحق بلقب العالم غالبا للدلالة على كون الملقب به يعمل بما يعلم من أمور الدين والشرع ، والمراد هنا العامل بعمله أو العامل عملا صالحا . حسن الباشا ص ٣٩٢ ، وكذلك انظر المصادر التى ذكرناها فى التحقيق السابق رقم ١٣ .

١٥ — العلامة هو العالم للغاية — من القاب العلماء الفحول المختصين بالإفتاء ، وكان يضاف إلى العالم العامل ليكون لقبا مركبا كما هو وارد فى القاب القضاة الاربعة فى هذه الاشهادات . حسن الباشا ص ٤٠٥ — ٤٠٦ . وقد ورد هذا اللقب فى كثير من وثائق عصر المماليك وخاصة فى الاسجالات الحكمية والتنفيذية الواردة فى ظهور الوثائق .

١٦ ـــ الحبر من القاب أكابر العلماء ، القلقشندى : صبح الاعشى حـ ٦ ص ١٢ ، وقد يضاف إليه البحر الفهامة كما ورد فى القاب القضاة الاربعة فى هذه الاشهادات .

١٧ ـــ المحقق هو المتقصى للحقيقة ـــ وهو من القاب العلماء والقضاء كذلك حيث أنه ورد ضمن القاب القضاة الاربعة . ويقول القلقشندى : صبح الاعشى حـ ٦ ص ٢٦ « وربما استعمل للصوفية » ولكن هذه الوثيقة تؤكد لنا وجود هذا اللقب ضمن القاب شيخ الشيوخ وهو المتولى الاشراف على الصوفية . انظر سطر ٢٤ ، التحقيق رقم ٣٠ ، ٤٥ فى بحثنا هذا .

١٨ ـــ المدقق هو الذى ينعم النظر فى المسائل ويناقشها بدقة تامة ، وهو لقب من اشهر القاب العلماء والقضاة فى عصر المماليك . حسن الباشا ص ٤٦٦ . وقد ورد ضمن القاب القضاة الاربعة .

١٩ ـــ الحجة فى اللغة البرهان ، وقد استعمل كلقب فخرى للعلماء والقضاة الكبار فى عصر المماليك . حسن الباشا ص ٢٥٦ . والحجة كذلك هى الصك أو السند أو الوثيقة عامة . انظر بحثنا وثيقة الامير آخور قراقجا الحسنى ( مجلة كلية الآداب م ١٨ جـ ٢ ) ص ١٩٣ ، وكذلك بحثنا هذا تحقيق رقم ٣٤ . وقد ورد هذا اللقب أيضا ضمن القاب القضاة الأربعة فى هذه الاشهادات .

٢٠ ـــ المحدث المراد به من يتعاطى علم الحديث بطريق الرواية والدراية والعلم باسماء الرجال وطرق الأحاديث والمعرفة بالاسانيد ونحو ذلك . القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٥ ص ٤٦٤ . فهو من القاب المحدثين الفحول وكان ينعت به من مهر فى معرفة الحديث ، واستنادا إلى هذه الاشهادات يجوز استعماله كلقب فخرى ، ولم يرد هذا اللقب ضمن القاب كل من قاضى القضاة الحنبلى والشافعى :

٢١ ـــ الحافظ اسم فاعل من الحفظ بمعنى الاستظهار أو الحراسة والمقصود هنا المعنى الأول ، وهو من القاب المحدثين ، وقد اختص بهم لضرورة حفظهم للأحاديث واسماء الرجال وتواريخهم ونحو ذلك . حسن الباشا ص ٢٥٢ . ولم يرد هذا اللقب فى القاب قاضى القضاة الحنبلى والمالكى .

٢٢ ـــ الرحلة فى اللغة من يُرحل إليه ، وهو من القاب أكابر العلماء والمحدثين وذلك لأنه يرتحل إليهم للاستفادة من علمهم ، وهو من الألقاب التى اختص بها المحدثين

بالذات مثل الحافظ والمحدث ، والمراد بالرحلة هنا من انفراد فى زمنه بالرحيل إليه لأخذ العلم والحديث عنه . حسن الباشا ص ٣٠٢ . انظر بحثنا هذا تحقيق رقم ٣٥ . هذا ولم يرد اللقب ضمن القاب قاضى القضاة الحنبلى .

٢٣ — الفقيه من القاب العلماء ، وكان أهل المغرب يعظمونه جداً ، ويقول القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٦ ص ٢٢ « إن الكتاب بالديار المصرية لم يستعملوا هذا اللقب إلا فى القليل النادر بل كثير من جهلة الكتاب وغيرهم يستصغرون التلقيب به ويعدونه نقصا » هذا واللقب له معنى سام ، ويظهر أنه لم يكن شائع الاستعمال فى عهد القلقشندى ولكننا عثرنا عليه فى بعض وثائق العصر المملوكى المتأخر والمحفوظة فى أرشيف كل من وزارة الاوقاف ومحكمة الاحوال الشخصية بالقاهرة مثل وثيقة أبو بكر ابن مزهر الانصارى محكمة ١٧٥ ، وثيقة قايتباى محكمة بدون رقم ، اوقاف ٨٨٧ وقد ورد اللقب بالجمع معطوفا على شيخ « شيخ الفقهاء » فى وثيقة طومان باى أوقاف ٨٨٢ ص ٥٧٦ ، ٥٨٧ ، ظهر وثيقة سبيل المؤمنين أوقاف ٨٨٤ سطر ٥ — انظر كذلك وثيقة السيفى ازدمر من على باى محكمة ٢٤٠ ، ٢٤١ — وثيقة السيفى طقطباى محكمة ٢٧٢ ، وثيقة السيفى طراباى محكمة ٢٦٥

ولم يرد هذا اللقب « الفقيه » ضمن القاب قاضى القضاة الشافعى .

أما اطلاق هذا اللقب على فقهاء المكاتب ومؤدبى الايتام ونحوهم فعلى سبيل المجاز . القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٦ ص ٢٢ . وهناك عدة وثائق تطلق على مؤدب الايتام لقب « فقيه » منها وثيقة جمال الدين الاستادار محكمة ١٠٦ ، وثيقة قايتباى أوقاف ٨٨٦ ، ٨٨٨ ، Mayer: *The buildings of Qaytbay as described in the endowment deed*, P.79.

٢٤ — المجتهد من أشهر القاب العلماء فى عصر المماليك . حسن الباشا ص ٤٥٤ . ويقول القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٦ ص ٢٦ « إن لفظ المجتهد من القاب العلماء والمراد به فى الاصل من يستنبط الاحكام الشرعية من الكتاب والسنة والاجماع والقياس ، وقل ان يستعمله الكتاب » ويظهر أن هذا اللقب كان قليل الاستعمال فى أيام القلقشندى ، ولكنه ورد فى القاب القضاة الأربعة هنا سطر ١٩ ، ٧٨ ، ١٤٦ ، ٢٠٣ ، وفى القاب غيرهم من القضاة فى أواخر عصر المماليك فى كثير من الوثائق .

والحقيقة أن الاجتهاد شرط أساسى فى تولية القاضى منصب القضاء بل إن بعض الفقهاء يعتبرونه شرط الأولوية . انظر تحقيق رقم ٦٠ وما به من مصادر .

٢٥ ــ شيخ الاسلام لقب مركب من ألقاب كبار العلماء والقضاة فى أواخر عصر المماليك ، حسن الباشا ص ٣٦٦ . وقد عثرت على هذا اللقب فى بعض الاشهادات الواردة فى ظهور الوثائق التى ترجع إلى أواخر ق ٩ هـ / ١٥ م أوائل ق ١٠ هـ / ١٦ م .

وربما قيل شيخ شيوخ الاسلام ـ القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٦ ص ٥٧ ، ولكنه ورد فى ألقاب قاضى القضاة الشافعى « شيخ مشايخ الاسلام » سطر ٢٠٤ ، ويتضح أن فيه تعظيم وتفخيم زائد لصاحبه ولعل المقصود بذلك ان صاحبه كان شيخا الشيوخ الخوانق . انظر تحقيق رقم ٤٥

٢٦ ــ مفتى الانام ــ لم يرد هذا اللقب المركب بالذات فى القلقشندى : نفس المرجع السابق جـ ٦ ص ٧٠ ، بل ورد « مفتى المسلمين » وهو يتفق فى معناه مع مفتى الانام بمعنى الافتاء لجميع الناس من المسلمين ، وكذلك لم يرد فى حسن الباشا ص ٤٨١ ـ ٤٨٢ بل ورد فيه مفتى الشرق ، مفتى الفرق ، وفى ألقاب قاضى القضاة الشافعى ورد « مفتى الفرق والانام » وقد عرف هذا اللقب قبل أكثر من أربعة قرون من تاريخ هذه الاشهادات بدليل اطلاقه على الامام محمد الغزالى فى نقش من حوالى سنة ٥٠٥ هـ على مقلمة من النحاس المكفت بالفضة من العراق . حسن الباشا ص ٤٨٢ .

٢٧ ــ الملك لقب يطلق على الرئيس الأعلى للسلطة الزمنية ــ انظر الدراسة القيمة التى جاء بها الزميل الدكتور حسن الباشا فى كتابه الالقاب الاسلامية ص ٤٩٦ ــ ٥٠٢ وما بها من مراجع . وأما هذا اللقب الوارد هنا ــ وهو « ملك العلماء الاعلام » ــ فى ألقاب القضاة الاربعة سطر ١٩ ، ٨٨ ، ١٤٦ ، ٢٠٤ فلم يرد فى الباشا ولا فى القلقشندى . وقد يستشف من هذا اتضاع لقب الملك وسلطته فى تلك الفترة من حياة الدولة المملوكية .

٢٨ ــ حسنة الليالى والايام ــ جاء فى القلقشندى : نفس المصدر جـ ٦ ص ٤٦ « حسنة الأيام » فقط ، وهو من ألقاب أكابر أرباب الاقلام من الوزراء والقضاة ومن فى معناهم ، والمراد أن الأيام أحسنت بالامتنان به . أما هذا اللقب « حسنة الليالى والأيام » الوارد فى ألقاب القضاة الاربعة فهو أوسع فى معناه من حسنة الايام .

٢٩ ــ صدر مصر والشام ــ صدر كل شيء أوله ، وقد استعمل كلقب من القاب الكناية المكانية . ويقصد بذلك تفخيم صاحبه بكونه صدراً للمجلس إشارة الى مهابته ومكانته بين العلماء والقضاة لا فى مصر وحدها بل فى الشام كذلك ، وقد اطلق اللقب على ابن الشحنة الحنفى وهو من أسرة عريقة فى القضاء وأصلها من حلب ، فقد تولى أبوه وجده من قبل منصب القضاء فى حلب والقاهرة . انظر تحقيق ٤٣ ، ٤٧ .

ويقول القلقشندى : نفس المصدر جـ ٦ ص ٥٧ إنه لقب من القاب أكابر العلماء ونحوهم ، وقد خص هذان القطران بالذكر لكثرة علمائهما ، وربما قيل صدر مصر والعراق والشام . وقد ورد اللقب ضمن القاب قاضى القضاة المالكى سطر ١٤٧ دون قاضى القضاة الحنبلى ، أما فى القاب القاضى الشافعى فقد ورد « صدر مصر ومكة والعراق والشام » سطر ٢٠٤ ــ ٢٠٥ للدلالة على اتساع نفوذ صاحبه ، وربما كان ذلك يرجع إلى انتشار المذهب الشافعى فى تلك الاصقاع من العالم الاسلامى .

٣٠ ــ محقق القضايا والأحكام ــ لقب مركب لم يرد فى حسن الباشا ولا فى القلقشندى . والمقصود بهذا اللقب هنا أن صاحبه يتقصى حقيقة القضايا المعروضة عليه للفصل فيها قبل أن يصدر حكمه باعتباره قاضيا للقضاة فى مصر وعميدا للمذهب الحنفى . انظر تحقيق رقم ١٧ . ولم يرد اللقب ضمن القاب قاضى القضاة الحنبلى ، ويظهر أن السبب فى ذلك يرجع إلى قلة الحنابلة فى مصر ، وبالتالى قلة مايعرض على قضاتهم من قضايا وأحكام تبعا لذلك . انظر بحثنا هذا ص ٣١٣ حاشية ٤٩ . أما فى القاب قاضى القضاة المالكى والشافعى فقد ورد « محرر القضايا والاحكام » سطر ١٤٧ ، ٢٠٥ وهذا اللقب ايضا لم يرد فى المصدرين السالفى الذكر .

ولعل المقصود بمحرر القضايا والأحكام القاضى الذى يفصل فى القضايا وينطق بالاحكام ويعرف خير الطرق لتوثيق العقود والمحررات الشرعية بعد وضعها فى صيغتها القانونية .

٣١ ــ فريد معناه فى اللغة المنفرد بما أن يشاركه فيه غيره ، وهو من القاب أكابر العلماء والقضاة فى عصر المماليك . ولفظ فريد يدخل فى تكوين بعض الالقاب المركبة . وهذا اللقب المركب بالذات « فريد العصر والاوان » لم يرد فى القلقشندى : نفس المصدر جـ ٦ ص ٢٢ ولا فى حسن الباشا ص ٤٢١ ، كما أنه لم يرد ضمن القاب قاضى القضاة الحنبلى والمالكى

ولكنه ورد فى القاب القاضى الشافعى « الفريد » سطر ٢٠٣ ، « فريد عصره واوانه » سطر ٢١٠ .

٣٢ — القاضى اسم لوظيفة ، ومن الوظائف التى عنى بالقابها الفخرية القضاء . وقد انتشر استعمال هذا اللقب المركب « قاضى القضاة » فى عهد المماليك وبالذات منذ قيام المذاهب الاربعة فى مصر ، وقد لقب به القضاة الاربعة فى هذه الاشهادات. وأول من خوطب بلقب قاضى القضاة فى مصر القاضى أبو الحسن على بن النعمان ، وكان ابنه الحسين بن على أول من كتب له هذا اللقب فى سجله . حسن الباشا ص ٧٤ — ٧٥ ، ٤٢٤ وما بها من مراجع ، عرنوس : تاريخ القضاء فى الاسلام ص ٩٥ — ٩٩ .

وقاضى القضاة من أجل أرباب الوظائف الدينية واعلاهم شأنا وأرفعهم قدرا ، وأجلهم رتبة ولا يتقدم عليه أحد ، وكان لمتولى هذه الوظيفة النظر فى الاحكام الشرعية ودور الضرب وضبط عيارها . القلقشندى : صبح الاعشى حـ٣ ص ٤٨٢ .

وقاضى القضاة هو الذى كان يتحدث فى الاحكام الشرعية وتنفيذ قضاياها والقيام بالاوامر الشرعية والفصل بين الخصوم وكان يتصرف فى نواب الحكم العزيز تقليدا وعزلا ، وينبغى له أن يتفقد قضاته ونوابه ، فيتصفح اقضيتهم ويراعى امورهم وسيرهم فى الناس ، وكان أول ظهور هذه الولاية فى بغداد فلا يطلق قاضى القضاة إلا على قاضى بغداد . القلقشندى : نفس المصدر حـ ٤ ص ٣٤ — ٣٥ . ويقول السيوطى إن ابا الحسن على بن النعمان ولى قضاء مصر فى صفر سنة ٣٦٦ هـ فى زمن الخليفة العزيز الفاطمى وكان شيعيا متغاليا وهو أول من نعت بقاضى القضاة فى مصر ولم يكن يدعى بذلك إلا ببغداد .

السيوطى : حسن المحاضرة (ط . الوطن) حـ٢ ص ١٢٠ وكذلك انظر الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية حـ ١ ص ٩٠ وما بها من حواشى . وقد أخذ هذا النظام عن الفرس فهم الذين كان لهم قضاة قضاة ، والراجح أن هذا النظام ادخل فى الدولة الاسلامية زمن الرشيد العباسى على يد البرامكة . القلقشندى : نفس المصدر حـ ٥ ص ٤٥١ ، حـ٦ ص ٢٣ ، عرنوس : تاريخ القضاء ص ٩٥ — ٩٩ ، مشرفه : نظم الحكم بمصر فى عصر الفاطميين ص ٢٢٢ — ٢٢٣ ، ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر ص ١٤٠ — ١٤١ .

٣٣ — اللسان اداة الكلام أو جارحة الكلام أو اللغة ، واللقب هنا مركب ، وقد صار فى نهاية العصر المملوكي من الالقاب الشائعة ، ولقب به العلماء والمدرسين . حسن

الباشا ص ٢٥٧ ، ٤٤٢ . ويقول القلقشندى : نفس المصدر حـ ٦ ص ٦٧ « والمتكلمون يجوز أن يراد بهم كل متكلم فى الجملة تعميا للمدح ، ويجوز أن يراد العلماء بعلم الكلام وهو أصول الدين . وقد ورد اللقب ضمن القاب القضاة الاربعة .

٣٤ — حجة المناظرين لقب فخرى يطلق على المدرسين . حسن الباشا ص ٢٥٧ . انظر تحقيق رقم ١٩ .

وقد ورد ضمن القاب قاضى القضاة الحنبلى والمالكى سطر ٨٠ ، ١٤٨ ، ولكنه ورد فى القاب القاضى الشافعى « سيف المناظرين » سطر ٢٠٦ ، هذا وسيف المناظرين من القاب العلماء المركبة ، والمراد بالمناظرين أهل البحث والجدل أخذا من النظر وهو الفكر المؤدى إلى الدليل ، والمراد بذلك هنا الدلالة على قوة صاحبه فى المناظرة والجدل . القلقشندى : نفس المصدر ج ٦ ص ٥٥ .

٣٥ — رحلة الحفاظ والمحدثين لقب مركب من القاب العلماء عامة ومدرس الحديث خاصة ، الباشا ص ٣٠٢ — والمقصود به هنا من يرحل إليه للدراسة عليه والاستفادة منه وأخذ الحديث عنه . انظر تحقيق رقم ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ .

هذا ولم يرد اللقب ضمن القاب قاضى القضاة المالكى ، ولكن ورد فى القاب كل من الحنبلى والشافعى « رحلة الطالبين » سطر ٨٠ ، ٢٠٨ — وهذا اللقب الأخير لم يرد فى الباشا ولا فى القلقشندى ومعناه واضح لا يحتاج إلى شرح أو تفسير .

٣٦ — الكنز فى اللغة المال المدفون ، وكنز النحاة والمعربين لقب مركب ، وهو من القاب أهل العلم ، والراجح أنه من القاب مدرسى النحو بالذات فى المدارس المملوكية ، واللقب يدل على تمكنهم ورفعتهم فى هذا الميدان ، فقد وجدت فى المدارس فى عصر المماليك وظائف لمدرسى العلوم اللسانية واللغوية من نحو وصرف وبيان وبديع وبلاغة . وثيقة المنصور قلاوون محكمة ١٥ ، وثيقة حسام الدين لاجين محكمة ٢٢ ، ٢٣ ، وثيقة السلطان حسن محكمة ٤٠ وغيرها من الوثائق . وهذا اللقب المركب بالذات « كنز النحاة والمعربين » لم يرد فى حسن الباشا ص ٤٢٩ — ٤٤٠ ولا فى القلقشندى : نفس المصدر ج ٦ ص ٦٦ . وكذلك لم يرد فى القاب قاضى القضاة الحنبلى والمالكى وإن كان قد ورد فى القاب القاضى الشافعى سطر ٢٠٧ .

٣٧ — والسلطان فى اللغة من السلاطة بمعنى القهر ، وسلطان لقب ذو معنى سياسى واسع وهو لقب عام للحاكم فى عصر المماليك . أما لفظ سلطان فى كتب الفقه فيو يشير إلى الحاكم أى القاضى ، وقد دخل لفظ سلطان فى تكوين القاب مركبة كثيرة . انظر الـ القيمة التى وردت عنه فى حسن الباشا ص ٣٢٣ — ٣٣٩ وما بها من مراجع . و... « سلطان الفقهاء والأصوليين » بالذات لم يرد فى حسن الباشا فى الصفحات السابق ذكرها ولا فى القلقشندى : نفس المصدر جـ ٦ ص ٥٣ — ٥٤ ، ولا فى القاب القاضى الحنبلى والمالكى ولكنه ورد فى القاب الشافعى سطر ٢٠٧ . والمقصود بهذا اللقب أن صاحبه حجة وبرهان فى الفقه وله السيادة على المشتغلين به ، وهو بهذا من القاب كبار الفقهاء والعلماء .

٣٨ — أوحد المجتهدين — هذا اللقب بالذات لم يرد فى حسن الباشا ص ٢١٨ — ٢١٩ ولا فى القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٦ ص ٣٨ — ٤٠ . انظر تحقيق رقم ٢٤ ، ٨٢ .

وقد ورد اللقب ضمن القاب قاضى القضاة الحنبلى والمالكى سطر ٨٠ ، ١٤٨ — أما فى القاب قاضى القضاة الشافعى فقد ورد « المجتهد الاوحد » سطر ٢٠٣ ، « بقية المجتهدين » سطر ٢٠٧ ، وكل من اللقبين يدل على أن صاحبه قد انفرد بالاجتهاد فى عصره دون بقية العلماء والفقهاء .

٣٩ — قامع المبتدعين — قمعه أى قهره واذله ، وقد اضيف اللفظ إلى بعض كلمات لتكوين القاب مركبة . وقامع المبتدعين يعنى أن الملقب به كان قامعا لمن يحدث بدعة وهى ما خالف السنة النبوية وما عليه الجماعة ، واللقب من القاب اكابر العلماء . حسن الباشا ص ٤٢٤ — ٤٢٦ . وقد ورد ضمن القاب القضاة الأربعة سطر ٢٢ ، ٨٠ ، ١٤٨ ، ٢٠٩ .

٤٠ — مفحم المجادلين ، هذا لقب جديد بل نادر ، وهى من القاب الفقهاء والقضاة فى اواخر عصر المماليك حيث أنه لم يرد فى القاب بقية القضاة ، كما أنه لم يرد فى الباشا ولا فى القلقشندى .

٤١ — هذا لقب مركب من القاب العلماء والصلحاء فى عصر المماليك، وقد ورد كذلك فى القاب قاضى القضاة الحنبلى والمالكى سطر ٨١ ، ١٤٨ ولكنه ورد فى القاب القاضى الشافعى « محى السنة » فقط سطر ٢٠٨ . حسن الباشا ص ٤٦٣ . وهذا اللقب يقصد به أن صاحبه من العاملين على إحياء سنة سيد المرسلين محمد بن عبد الله ( ص ) .

٤٢ ـــ خالصة أمير المؤمنين لقب قديم ، اعتبره ابن شيث فى أواخر العصر الايوبى ضمن الالقاب التى تطلق على كبراء الدولة من الكتاب وأرباب الاقلام ، واورده القلقشندى كما مع الجناب الكريم ضمن القاب الوزراء ومن فى معناهم . حسن الباشا ص ٢٠٠ ، القلقشندى : نفس المصدر جـ ٦ ص ٤٦ ، ١٠٩ ، وقد ورد ضمن القاب القضاة الأربعة فى هذه الاشهادات سطر ٢٣ ، ٨١ ، ١٤٨ ـــ ١٤٩ ، ٢١١

٤٣ ـــ هو الشيخ سرى الدين ابو البركات عبد البر بن محب الدين بن الشحنة الحلبى القاهرى الحنفى ، ولد بحلب فى ٩ ذى القعدة سنة ٨٥١ هـ وجاء الى القاهرة مع أبيه ودرس على مشاهير عصره ، ومهر فى الفقه والحديث والأصول وغيرها ، وقد تولى مشيخة الأشرفية سنة ٩٠٣ هـ ولكنه لم يلبث أن صرف عنها ، وقد تولى عدة وظائف اخرى منها خطابة جامع الحاكم وتدريس الحديث فى المدرسة الحسينية والمزهرية والمؤيدية وناب فى الشيخونية ، وفى رمضان سنة ٩٠٤ هـ غضب عليه السلطان الظاهر ابو سعيد قانصوه وامر بنفيه إلى قوص ، وشفع فيه بعض الامراء فعفى عنه السلطان وامره بان يلزم بيته لا يخرج منه ولا يخالط احداً . ابن اياس : بدائع الزهور ( ط استنبول ) جـ ٣ ص ٤٠١ .

ـ ثم قرره السلطان العادل طومان باى يوم الخميس ٢٢ شوال سنة ٩٠٦ هـ فى قضاء الحنفية قاضيا للقضاة بدلا من ابن الكركى وهذه أول ولايته لقضاء الحنفية ، ولم يلبث إلا مدة قصيرة حتى عزل فى أواخر رجب سنة ٩٠٦ هـ . ابن اياس : نفس المصدر جـ ٣ ص ٤٥٧ ، ٤٦١ وقد عزله الغورى من القضاء أيضا وأمر بنفيه إلى قوص بسبب الوشاية به ، ولكنه عفى عنه فى صفر سنة ٩٠٨ هـ بشفاعة الاتابكى قيت الرجبى ثم أعاده للقضاء . ابن اياس : نفس المصدر السابق جـ ٤ ص ٣٨ ـــ ٣٩ ، وقد رماه بعض الناس بالقول الفاحش واتهموه كذبا بأنه لا يحسن قراءة الفاتحة وأن الصلاة خلفه لا تصح . ابن اياس : نفس المصدر جـ ٤ ص ٩٧ ، وهجاه الشاعر جمال الدين السلموتى بابيات مقذعة ، كما اتهمه السخاوى بتهم خطيرة فى علمه وخلقه ، وبالرغم من ذلك كله خلع عليه الغورى وقرره فى مشيخة المدرسة الصرغتمشية سنة ٩١٤ هـ بعد انفصال القاضى نور الدين الدمياطى عنها وكذلك تولى مشيخة الخانقاة الشيخونية بعد وفاة ابيه .

وقد حكم ابن الشحنة الحنفى بصحة الخطبة الأولى فى المدرسة الغورية فى يوم الجمعة مستهل ربيع آخر ٩٠٩ هـ ، كما خطب فيها فى الجمعة التالية بأمر السلطان بصفته قاضيا لقضاة

المذهب الحنفى فى مصر . وجه وثيقة الغورى اوقاف ٨٨٢ سطر ١٨٣ ، ابن اياس : بدائع الزهور ج ٤ ص ٥٨ — ٥٩ .

وكان ابن الشحنة عالما اماما اديبًا فاضلا رئيسا حشما من أعيان علماء الحنفية ، وأقام فى وظيفة القضاء ثلاثة عشر عاما واشهرا ، وكان من اخصاء السلطان الغورى فهو صديقه وجليسه وسميره ، وكان يخطب ويصلى به ، وكثيرا ما تصرف فى أمور المملكة فى حضرة الغورى نفسه ، وتوفى ابن الشحنة وهو بعيد عن القضاء يوم الجمعة ليلة السبت ٢٨ رجب سنة ٩٢١ ﻫ . ابن اياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ٣٦٧ ، ٣٧٣ ، ج ٤ ص ٧ ، ٨٤ — ٨٥ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١٢٨ ، ١٣٥ ، ٤٧٠ . الحنبلى : در الحبب فى تاريخ أعيان حلب ( مخطوط — تصوير شمسى دار الكتب رقم ٢١٠٥ تاريخ تيمورية ) ص ١١٨ ، الطباخ : أعلام النبلاء ج ٥ ص ٣٨١ ، الغزى : الكواكب السائره باعيان المائة العاشرة ج ١ ص ٢١٩ — ٢٢١ . ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب ج ٨ ص ٩٨ وما بعدها ، السخاوى ، الضوء اللامع ج ٤ ص ٣٣ — ٣٥ رقم ١٠٢ . وقد وردت علامته « الحمد لله عليه توكلت » بنفس الخط فى ظهور بعض الوثائق المملوكية ومنها :

وثيقة باسم قاضى القضاة الشافعى أبو العباس احمد الفرفور محكمة ٢٢٧ ، وثيقة الشيخ عبد الرحمن المغربى محكمة ٢٤٦ ، وثيقة السيفى طراباى محكمة ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، وثيقة السيفى برسباى بن عبد الله المحمدى محكمة ٢٨١ .

٤٤ — الناظر فى الاحكام الشرعية — من القاب قضاة القضاة للمذاهب الأربعة فى هذه الاشهادات ، ولكنه يرد بالذات فى الباشا ولا القلقشندى . والمقصود به أن صاحبه وهو قاضى القضاة له النظر فى الأحكام الشرعية ، واللفظ مأخوذ من النظر الذى هو رأى العين أو النظر بمعنى الفكر المؤدى إلى الدليل لأنه ينظر ويفكر فى القضايا التى تعرض عليه ليفصل أو يحكم فيها بالحق والعدل بما يوافق الشريعة الغراء . القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٦٥ ، ج ٦ ص ٥٥ ، انظر التحقيق رقم ٣٢ وبحثنا هذا ص ٢٢٣ — ٢٢٤

٤٥ — شيخ الشيوخ لقب يطلق على متولى الاشراف على الصوفية وهو يشير إلى وظيفة ، وفى عصر آل يوب والمماليك صار لقبا فخريا يطلق على شيخ الخانقاة الصلاحية سعيد السعداء التى بناها صلاح الدين الأيوبى سنة ٥٦٩ ﻫ . ولما بنى الناصر محمد بن قلاوون الخانقاة الناصرية بسرياقوس دعى شيخها بشيخ الشيوخ ، واستمر ذلك كذلك إلى أن كانت المحن

والحوادث فى سنة ٨٠٦ هـ أيام الناصر فرج بن برقوق واتضحت الأحوال الاقتصادية والمالية وتلاشت الرتب ، وتنقب كل شيخ خانقاة بشيخ الشيوخ . وثيقة محمد بن قلاوون محكمة ٢٥ ، وثيقة المؤيد شيخ اوقاف ٩٣٨ ، وثيقة اينال ( المرحوم محمود حنفى ) ، عبد اللطيف ابراهيم : دراسات تاريخية وأثرية فى وثائق من عصر الغورى ( تحت الطبع ) ، حسن الباشا ص ٢٦٦ ، المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٤١٥ ، السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٨٧ .

وكان ابن الشحنة يشغل وظيفة شيخ الشيوخ بالخانقاة الشيخونية والمدرسة الصرغتمشية ـ وثيقة طومان باى اوقاف ٨٨٢ ص ٥٧٩ ، تحقيق رقم ٤٣

هذا ولم يرد اللقب ضمن القاب قاضى القضاة الحنبلى والمالكى ولكنه ورد فى القاب قاضى القضاة الشافعى « شيخ مشايخ الاسلام » سطر ٢٠٤ ـ انظر تحقيق رقم ٢٥

٤٦ ـــ كذا فى الأصل ـ والمقصود بها الخانقاة الشيخونية ، فكثيرا ما كان يحدث الخلط بين المدرسة والخانقاة والجامع فى وثائق عصر المماليك بل وفى مصادره التاريخية المعاصرة . وثيقة بيبرس الجاشنكير محكمة ٢٢ ، ٢٣ ـ وثيقة مغلطاى الجمالى اوقاف ١٦٦٦ ، وثيقة محمد بن قلاوون محكمة ٢٥ ، وثيقة جوهر المعينى محكمة ٢٠٢ ، وثيقة جمال الدين الاستادار محكمة ١٠٦ ، وثيقة قايتباى اوقاف ٨١٠ ، وثيقة المؤيد شيخ اوقاف ٩٣٨ ، وثيقة قانى باى الرماح اوقاف ١٠١٩ ، وثيقة اينال ( المرحوم محمود حنفى ) ، ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٤ ص ٥٨ ، ٢٣٦ ، ٢٤٩ ، فقد عبر ابن اياس عن المدرسة الغورية بالجامع وعن الخانقاه بالمدرسة ، ومن ثم يتضح لنا أن المقصود بالمدرسة هنا الخانقاه الشيخونية .

والمعروف كذلك أن شيخ الشيوخ وظيفة فى الخانقاه ، هذا بالاضافة إلى أن الشيخ محب الدين والد عبد البر بن الشحنة كان شيخا بالخانقاه من قبله ولم يكن شيخا بمدرسة . ابن اياس : نفس المصدر جـ ٣ ص ١٣٠ ، وقد تولى عبد البر نفسه بعد وفاة أبيه مشيخة الشيخونية فى محرم سنة ٨٩٠ هـ زمن الاشرف قايتباى ـ ابن اياس : نفس المصدر جـ ٣ ص ٢٠٩ ؛ وتؤكد لنا هذه الحقائق الدامغة ما ورد فى وثيقة طوماى باى اوقاف ٨٨٢ ص ٥٧٩ من أن ابن الشحنة كان شيخا للشيوخ بالخانقاة الشيخونية والمدرسة الصرغتمشية . هذا وخانقاة شيخو ( أثر ١٥٢ ) تنسب إلى الامير الكبير رأس نوبة الامراء الجمدارية سيف الدين شيخو العمرى الناصرى ، بناها بين الرميلة والصليبة خارج القاهرة ـــ على حد

التعبير المصطلح عليه فى وثائق ومصادر العصر الوسيط عامة — بعد أن فرغ من بناء جامعه تجاهها بست سنوات، وكان موضعها من جملة قطائع أحمد بن طولون ، ثم صارت مساكن فاشتراها الأمير شيخو وهدمها وبدأ فى عمارتها فى المحرم سنة ٧٥٦ هـ ، وبنى بجوارها حمامين وعدة حوانيت وغير ذلك ، وفرغ البناء منها فى سنة ٧٥٧ هـ ورتب فيها أربعة دروس على المذاهب الأربعة ودرسا للحديث ودرسا للقراءات السبع ، ووقف عليها شيخو أوقافا جليلة للصرف من ريعها على طلبة العلم الشريف الذين يحضرون الدروس والتصوف ، وقد عظم قدرها واشتهر فى الأقطار ذكرها ، وتخرج فيها كثير من أهل العلم ، كما دفن بقبر فيها الأمير شيخو نفسه بعد وفاته سنة ٧٥٨ هـ . ولكن منذ مطلع القرن ٩ هـ / ١٥ م ساءت حالة هذه الخانقاه وبدأت فى التدهور والانهيار . المقريزى : الخطط حـ ٢ ص ٣١٤ ، ٤٢١ ، السيوطى : حسن المحاضرة حـ ٢ ص ١٩١ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة حـ ٧ ص ١٣١ حاشيه ٦ ، ص ٢٦٩ ، ٣٠٣ — ٣٠٤ . حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الأثرية حـ ١ ص ١٥٦ — ١٥٧ .

Van Berchem: *G.I.A. Egypt*, T.I, pp. 232-236.
Hautecœur and Wiet: *Le Mosquées du Caire, p. 270.*
Creswell: *A brief chronology of the Mohammadan monuments (B.I.F.A. O.T. XVI)* p. 106.

٤٧ — والده هو قاضى القضاة محب الدين محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن محمود ابن غازى الثقفى الشهير بابن الشحنة الحنفى — انظر ما ورد عن الشحنة فى لسان العرب ، ومحيط المحيط وقاموس المحيط مادة « شحن » — والشِحْنة فى البلد من فيه الكفاية لضبطها من جهة السلطان .

Lane: Arabic-English lexicon, art. « شحن »

وأصله من حلب ، ولد بها سنة ٨٠٤ هـ ، وكان اماما عالما فاضلا فقيها بارعا فى مذهب ابى حنيفة ، ناظما ناثرا ، جميل الهيئة حسن الشكل ، تولى عدة وظائف سنية منها قضاء حلب وكتابة سرها ونظر جيشها ثم ولى كتابة السر بمصر سنة ٨٥٧ هـ كما تولى قضاء الحنفية عدة مرات وشهد عصر كل من السلطان اينال وخشقدم وبلباى وتمربغا وقايتباى . وقد ولى مشيخة الخانقاه الشيخونية ، والمؤيدية والصرغتمشية ؛ مرض بالفالج وشفى منه ثم ذهل عقله فى أواخر ايامه وتوفى يوم الأربعاء ١٦ محرم سنة ٨٩٠ هـ ، وله عدة مؤلفات جليلة .

للسخاوى : الضوء اللامع ح ٩ ص ٢٩٥ ــ ٣٠٥ رقم ٧٥٥ ، ابن اياس : بدائع الزهور ح ٣ ص ٢٠٩ ، ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب ح ٧ ص ٣٤٩ .

أما جده فهو محب الدين ابو الوليد محمد بن محمد ، وجده الاعلى محمود الشهير بابن الشحنة الحنبلى الحنفى ، وهو تركي الاصل ولد بحلب سنة ٧٤٩ ﻫ ، ودرس واشتغل بالعلم وتفقه فيه ، وتولى عدة مناصب دينية وله تصانيف كثيرة ، وقد أفتى ودرس فى حلب ودمشق والقاهرة ، وكان يقبل على الحديث الشريف .

قبض عليه الظاهر برقوق سنة ٧٩٢ ﻫ وقدم معه إلى القاهرة ثم أفرج عنه فرجع إلى حلب وأقام بها ، ثم قبض عليه الناصر فرج سنة ٨١٣ ﻫ لاتهامه وجماعة بالتآمر على السلطان، ولكن عفى عنه فقدم القاهرة مدة ثم تركها إلى حلب حيث توفى فى يوم الجمعة ١٢ ربيع آخر سنة ٨١٥ ﻫ .

السخاوى : الضوء اللامع ج ١٠ ص ٣ — ٦ رقم ٥ ، ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب ج ٧ ص ١١٣ .

٤٨ — الثبوت لغة حصول أمر وتحققه عن طريق معرفته حق المعرفة أو هو ما ثبت به الحق بنوض الحجة والبينة وقيام الدليل الشرعى السالم من العيب والمطاعن .

واثبات أمر معناه قيام الحجة على ثبوت السبب عند الحاكم ( القاضى ) ، فان قامت الحجة على سبب الحكم وانتفت الريبة وحصلت الشروط ، فهذا هو الثبوت والحكم من لازمه ، واشهاد قاض بثبوت العقد أو التصرف حكم بعدالة البينة عنده ، وهذا يقتضى أن الثبوت جار مجرى الحكم بدليل قولهم عند التوثيق « ولما ثبت عند القاضى حكم » انظر سطر ٣٦ ، ٣٧ .

والواقع أنه ما من حق أو التزام أو ارتباط قانونى إلا ويتعين اثباته ، والأمر الذى يجب أن يكون محلا للاثبات إنما هو الفعل القانونى acte juridique الذى كان مصدرا للالتزام وذلك متى استوفى كل شروطه الشرعية .ــ انظر سطر ٣ ، ٣٣ ، ٣٦ . وقول القاضى عبد البر بن الشحنة الحنفى فى اسجاله الحكمى سطر ٢ ، ٢٧ « ثبت اشهاد مولانا ثبوتا شرعيا بشهادة شهوده » معناه ثبوت قيام البينة والاقرار بها وتزكيتها وقبولها ، فقد ورد فى وجه الوثيقة ما نصه « واشهد على نفسه الشريفة المعظمة المنيفة شرفها الله تعالى وحماها

وصانها ورعاها بجميع ما نسب اليه فيه بعد قرانه عليه واحاطة علمه الشريف بمعانيه . . .
وهو بالصفات الشريفة المشروحة اعلاه » سطر ١٧٧٦ - ١٧٧٩ . والمقصود بذلك أن الواقف أقر بالوقف وبصدور التصرف منه فيما يملك وهو بحال كمال الصحة فى جسده الشريف وجثمانه وتمكنه فى تخت ملكه المنيف وسلطانه على حد التعبير الوارد فى وجه الوثيقة نفسها سطر ٩٨ - ٩٩

هذا والثبوت عند الحنفية حكم بتعديل البينة وقبولها وجريان ذلك المشهود به ، أى أنه صار كالحكم الذى حاز حجية الشيء المقضى به فلا يمكن التعرض لنقضه ، وإذا قلنا إنه حكم بثبوت البينة امتنع على حاكم ( قاض ) آخر إبطاله .

وفائدة الحكم بالثبوت من القاضى العالم العادل عند المالكية عدم احتياج حاكم آخر إلى إعادة النظر فيما ثبت وجواز التنفيذ . احمد ابراهيم : طرق الاثبات الشرعية ص ٢ .

ابن فرحون : تبصرة الحكام ج ١ ص ٨٢ ، حسين المؤمن : نظرية الاثبات ج ١ القواعد العامة والاقرار واليمين ص ٩ - ١٠ ، ١٤ ، ٣٠ - عرنوس : تاريخ القضاء ص ١٤١ - ١٤٢ ، جعيط : الطريقة المرضية ص ٢١٦ - ٢٢٢ ، ابن قاضى سماوه : جامع الفصولين ج ١ ص ١٩ - ٢٠ ، ج ٢ ص ٣٢٦ ؛ انظر ما ورد عن هذا اللفظ فى نص الاشهادات الأربعة سطر ٢٧ ، ٣٦ - ٣٧ ، ١٠٠ ، ١٦٥ ، ٢٣٢ - لوحة ٢

٤٩ - يقصد بذلك شهادة الشاهدين الواردة فى وجه الوثيقة فى نهاية البروتوكول الختامى بتاريخ ٢٠ صفر سنة ٩١١ هـ ونصها :

« شهدت على مولانا المقام الشريف - الامام الاعظم السلطان المالك الملك - الاشرف ابى النصر قانصوه الغورى - الواقف المنوه باسمه الشريف اعلاه نصره الله تعالى - نصراً عزيزاً وفتح له فتحاً مبيناً بجميع - مانسب اليه اعلاه على ما شرح فيه وكتب »
وتقع صيغة هذه الشهادة بين السطر ١٧٨١ - ١٧٨٧

وصيغة الشهادة فى شهادتى الشاهدين متطابقة ومتفقة فى اللفظ والمعنى . انظر بحثنا هذا ص ٣٠٩ - ٣١٠ ، وقد قام الشاهدان بالشهادة على ما يأتى :

أولا : إثبات صحة واقعة مادية هى تدوين وثيقة الوقف التى تم تحريرها ربما بمعرفتهما وفى حضورهما فى تواريخ آخرها ٢٠ صفر سنة ٩١١ هـ وجه وثيقة الغورى أوقاف ٨٨٣ سطر ١٧٧٩ - ١٧٨٠ ووقعا عليها بصفتهما شهود تحرير .

ثانياً : إثبات صحة واقعة إرادية ترتبت عليها آثار قانونية وهى صدور الوقف حسب الإرادة الحرة للواقف المتصرف وهو فى حال صحة جسده وكمال عقله راغباً فى ذلك غير مكره ولا مجبر ، ووقعاً عليها بصفتهما شهود تصرف .

ولا شك أن الشهادة على الواقعة الإرادية سابقة على الشهادة على تحرير الوثيقة وتدوينها. انظر بحثنا وثيقة الأمير آخور كبير قراقجا الحسنى (مجلة كلية الآداب م ١٨ ج ٢) ص ١٩٧ .

والواقع أن الأعيان الموقوفة حكمها فى الشهادة لها أو عليها كحكم الأعيان المملوكة ، فتقبل الشهادة فى كل منها من رجلين أو رجل وامرأتين بعد توفر الشروط الشرعية الواجب تحققها فى الشهود . أحمد ابراهيم : أحكام الوقف والمواريث (ط . ثانية) ص ١٦٨ ، طرق القضاء ص ٣٠١ . وقد أجازت الشريعة الاسلامية الحكيمة للقاضى بناء حكمه على شهادة الشهود العدول المبنية على المعاينة والمشاهدة ، ومن ثم لا جدال فى كون هذه الشهادة صحيحة — انظر بحثنا هذا ص ٢٢٣ — ٢٢٤ وكذلك انظر ما ورد عن الشهادة فى هذه الاشهادات سطر ٢٨ ، ٣٤ — ٣٥ ، ٨٨ ، ١٥٤ ، ٢٢١ — لوحة ٢ ، ٥ ، ٨ ، ١٢ .

٥٠ — هذا هو تاريخ الوثيقة — ٢٠ صفر سنة ٩١١ هـ الوارد فى البروتوكول الختامى، وهو التاريخ الذى تم فيه كتابة الوثيقة والشهادة على ما ورد فيها من تصرف قانونى . انظر وجه الوثيقة سطر ١٧٨٠ — بحثنا هذا لوحة ٢ .

والواقع أن أهمية التاريخ فى الوثيقة الدبلوماتية لا يحتاج إلى إيضاح أو بيان ، فهو يدلنا على الزمن الذى انتهى فيه من تدوين الوثيقة وشهادة الشهود على ما ورد فيها من تصرف ، ويكسبها الصحة القانونية من الناحية الزمنية . وقد اتضح لنا أن كل وثائق العصر الوسيط التى قمنا بدراستها مؤرخة فى نهايتها قبل الشهادة مباشرة باليوم والشهر والسنة بالتقويم الهجرى وهو مدار التاريخ الاسلامى على حد قول القلقشندى ، ذلك أن التفصيل فى ذكر التاريخ ضرورى لصلاحية الوثيقة وسريان مفعولها وتأكيد قيمتها كسند قانونى . ويقول القلقشندى فى موسوعته الكبيرة : « وهناك إجماع على وجوب كتابة التاريخ فى جميع المكتتبات ولا غنية عنه ، لأن التاريخ يستدل به على بعد مسافة الكتاب وقربها ، وتحقيق الأخبار على ما هى عليه ، وقد قال بعض أئمة الحديث « لما استعملوا الكذب استعملنا لهم

التاريخ » ويقول أيضاً إن فائدة التاريخ إنما تتحقق بذكر السنة بعد اليوم والشهر وإلا فلا يعلم من أى السنين . القلقشندى : صبح الأعشى ج ٦ ص ٢٣٥ ، ٢٥٢

وإذا كان ذكر التاريخ الزمانى أمراً واجباً إلا أنه من النادر أن نجد ذكر للمكان الذى دونت فيه الوثيقة أو شهد فيه الشهود .

انظر الفتاوى الهندية ج ٢ ص ٤٣٤ — ٤٣٥ وما بعدها ، ج ٣ ص ٤٨٥ ، الفتاوى البزازية ( على هامش الهندية ) ج ٥ ص ٢٨٤ ، أحمد ابراهيم : طرق القضاء ص ٣١٩

٥١ — يقصد بذلك أن قاضى القضاة عبد البر بن الشحنة الحنفى قد أشهد على نفسه اشهادا علينا صريحا دون خفية أو كتمان وأعلن إعلانا عاما أمام جميع الذين حضروا بمجلس حكمه وقضائه فى ١٢ ربيع الأول سنة ٩١١ هـ بما نسب إليه فى إسجاله من ثبوت البنية لديه وقيام الدليل الشرعى على حدوث التصرف والاقرار بالوقف بشهادة الشهود العدول على التصرف أو الفعل القانونى المعروض عليه للنظر فيه والحكم بصحته ولزومه . بحثنا هذا ص ٣٠٢ — ٣٠٤ ، ابن قاضى سماوه : جامع الفصولين حـ ٢ ص ٣٢٧ ، ٣٢٩

هذا ويشترط أن تكون الشهادة بمجلس القاضى ، لأن الغرض من الشهادة الحكم بموجبها ، فلا بد أن تكون بحضرة القاضى وفى مجلس حكمه الذى نصب ليفصل فيه بين المتنازعين ، ولا كراهة فى أن يكون مجلس القضاء والحكم فى المسجد ، والمسجد الجامع أولى وخاصة إذا كان فى وسط البلد دفعاً للمشقة .

الكاسانى : بدائع الصنائع حـ ٦ ص ٢٧٩ ، الفتاوى الهندية حـ ٣ ص ٣١٩ وما بعدها. ابن عابدين : رد المحتار حـ ٤ ص ٣٨٥ . قراعة : الأصول القضائية ص ١٥٨ ـ ١٥٩ ، ٣٢٥ ، حسين المؤمن : نظرية الاثبات حـ ٢ ( الشهادة ) ص ١٣٩ ـ ١٤٢ . عرنوس : تاريخ القضاء فى الاسلام ص١٢٥ ـ ١٢٦ ، احمد ابراهيم : طرق القضاء ص٣٠٨ ـ ٣٠٩ ، طرق الاثبات ص ١٣٤ ـ ١٣٥ .

ويظهر أن الحاضرين بمجلس القضاء كانوا جماعة من الشهود العدول الثقات وكتاب الحكم الذين كان يختارهم القاضى بعناية كبيرة ممن تتوفر فيهم العدالة والثقة ، ولم يكن يسمح للشهود بالشهادة فى مجلس الحكم إلا بعد أن تثبت للقاضى عدالتهم فيكتب للواحد منهم فى درج عريض اسجالا بعدالته ، وقد أورد لنا القلقشندى نموذجا لذلك فى كتابه صبح الأعشى جاء فيه .

« . . . فلما كانت العدالة هى أس الشريعة وعمادها ، وركنها الأعظم فى الاستناد إلى الصواب وسنادها ، لا تقبل دونها شهادة ولا رواية ، ولا يصح مع عدمها إسناد أمر ولا ولاية ، فقد بنيت الشريعة المطهرة على أركانها ، واعتمد الرواة فى صحة الأخبار على أصولها وتعلقت الحكام فى قبول الشهادة بأحضانها . . . » القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١٤ ص ٣٤٦ - ٣٤٩ .

وكان هؤلاء الشهود يحضرون مجلس حكم القاضى لمعاونته فى وظيفته الأصلية وهى القضاء فى المنازعات والفصل فى الخصومات ، حيث كان القاضى يحتاج إلى خدماتهم فى مجلس حكمه وكذلك فى بعض الشئون المدنية والدينية ، وكان يطلق عليهم الشهود العدول باعتبار العدالة وظيفة دينية تابعة للقضاء ، ومن ثم كان العدول جزءاً لا يتجزأ من مجلس الحكم ، وكانوا يجلسون حول القاضى يمنة ويسرة على ترتيب عدالتهم ، كما كان للقاضى الحق فى تفقد أمورهم واستيفاء العلم والخبرة فيهم بالعدالة والجرح ليحصل له الوثوق بهم .

الماوردى : الاحكام السلطانية ص ٥٩ ، المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٦ حاشية ٤ وما بها من مراجع ، عرنوس : تاريخ القضاء ص ١١٣ ، سرور : الظاهر بيبرس ص ١٣٧ — ١٤٠ ، ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر ص ١٤٥ — انظر تحقيق رقم ٧٧ .

والراجح أن مجلس الحكم لكل مذهب كان فى أحد إيوانات المحكمة الصالحية النجمية بخط بين القصرين وسط القاهرة المعزية حيث دونت الاشهادات الأربعة وسجلت ، فقد كانت هذه المدرسة قلعة العلماء على حد تعبير ابن اياس المؤرخ المعاصر ، ويظهر أن هذه المحكمة كانت قبل الفتح العثمانى لمصر أكبر دار للقضاء فى القاهرة . المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٣٧٤ ، ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٥ ص ٣٠٠ ، ٤١١ — ٤١٣ ، ٤٤٧ ، ٤٤٩ — ٤٥٣ ، ٤٥٥ . انظر كذلك بحثنا هذا ص ٣٢٦ — ٣٢٧ الاشهادات الأربعة ٣٠ ، ٨٤ ، ١٥١ ، ٢١٦ — لوحة ٢ ، ٥ ، ٨ ، ١٢ .

٥٢ — هذا هو تاريخ الاشهاد الأول الذى تم فيه الحكم بصحة الوقف ولزومه على يدى قاضى القضاة عبد البر بن الشحنة الحنفى فى يوم الثلاثاء ١٢ ربيع أول سنة ٩١١ هـ .

والمعروف أن كتاب الحكم فى مجلس القضاء هم الموثقون فى العصور الوسطى وكان الواحد منهم يترك موضع التاريخ بياضا — فى الاشهادات الواردة فى ظهور الوثائق

الأصلية بالذات — ليثبت القاضى التاريخ فيه بخطه وذلك لأهميته الكبيرة فى إكساب الاشهاد الموثق صفة الصحة والرسمية — انظر التحقيق رقم ٥٠ .

وقد لاحظنا هذه الحقيقة دائما فى إشهادات وثائق الوقف المملوكية بالذات وخاصة وثائق الدولة الجركسية . أما التاريخ الوارد فى البروتوكول الختامى فى وجه الوثائق فقد كان يكتب بخط كاتب الوثيقة .

الكاسانى : بدائع الصنائع جـ ٧ ص ١٢ . مرسى : شرح القانون المدنى الجديد — شهر التصرفات العقارية ص ٥٥ ، ٤٥٥ .

ومن الملاحظ كذلك أن كل قاض من القضاة الأربعة كان يكتب بخط يده التاريخ ( اليوم والشهر فقط ) فى سطر مستقل فى وسط أشهاده بخط كبير ، إذ يبلغ طول الألف ٤ سم فى كلمة الثانى والأول سطر ٣٢ شكل ١٨ ، ٤ر٢ سم فى كلمة الخميس ، ٨ر٣ سم فى كلمة المبارك ، ٩ر٣ سم فى كلمة الرابع سطر ١٥٢ شكل ٢٠ ، ٤ سم فى كلمة السابع سطر ٢١٨ شكل ٢١ — القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٦ ص ٢٤٩ .

وأما موضع التاريخ فى الكتاب فالذى استقر عليه حال كتاب الزمان كتابة التاريخ فى آخر الكتاب كما هو الحال فى وجه كل الوثائق المملوكية — أما الاشهادات الواردة فى الظهر فقد اصطلح الكتاب على جعل التاريخ فى سطرين ، اليوم والشهر فى سطر والسنة فى سطر تحته ، ومن دراستنا للتواريخ الواردة فى الاشهادات الأربعة وأمثالها اتضح لنا أن الوضع قد استقر على أن يقوم القضاة بكتابة السطر الأول فقط بقلم جليل كما سبق أن ذكرت القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٦ ص ٢٦١ ، بحثنا هذا ص ٢٠٦

٥٣ — الأوضاع الشرعية هى الضوابط التى تجب مراعاتها فى تحرير العقود والاشهادات من جهة القاضى والكاتب والشهود والمتصرفين واللغة التى تدون بها ، وإلا كان المحرر فى باطنه وظاهره فى حكم العدم ، لأن كثيرا من القضايا والمنازعات المعروضة على القضاء فى المحاكم سببها عدم الدقة فى تحرير العقود والوثائق عامة وما يصاحب ذلك أحيانا من غموض أو إبهام فى نصوصها عند تفسيرها .

Amiaud: *Traité—Formulaire, genéral Alphabāitque et raisonné du Notariat*, Paris 1935, vol. I, introd.

Enc. Brit. art. *Notary*.

بحثنا هذا ص ٣٢٢ — ٣٢٣ ، ٣٣٣ ، وكذلك التحقيق رقم ٥٩ ، ٦٧

وهذه الضوابط المقررة قانونا أو شرعا ترمى كلها إلى شدة الاحتياط ومنتهى الحذر ليكون العقد جديراً بالثقة ، والحاكم فى العصر المملوكى كانت تقوم بتحرير الاشهادات بعد مراجعة صيغ السندات والوثائق والمحررات المقدمة إليها على اختلاف أنواعها مراعية فى ذلك الاحتياطات السالفة . قمحه : التنفيذ علما وعملا (القاهرة ١٩٢٤) ص٤٧ — ٤٨

٥٤ — يقصد بذلك الشهادة الواردة على الهامش الأيمن فى وجه وثيقة الوقف بين السطر ١٨٣ — ١٩٣ (لوحة ١٣) والدالة على ملكية الغورى وحيازته للاعيان التى تصرف فيها بالوقف ونصه :

« الحمد لله رب العالمين — يشهد من يوضع اسمه فيه اخره بمعرفة جميع ما شمله الوقف الشريف المسطر بهذا المكتوب من كامل وحصة وهلالى وخراجى وانشا وعمارة وتجديد المعرفة الشرعية — وان مولانا المقام الشريف السلطان المالك الملك الاشرف الواقف المنوه باسمه الشريف أعلاه نصره الله تعالى انشا وعمر من ماله لنفسه الشريفة بما نسب الى انشاوه وعمارته — من ذلك وانه لم يزل مالكا حايز الملك لجميع الموقوف المعين فيه الى حين صدور الوقف منه فى ذلك والمشروح بهذا المكتوب بعلم شهوده بذلك ويشهدون به مسيولين [ و ] حسبنا الله ونعم الوكيل —

| شهد بمضمونه | شهدا بذلك | شهد بمضمونه |
|---|---|---|
| ابو بكر بن عبد الرحمن بن محمد | | الحاج محمد بن على (؟) بن ابراهيم |
| عرف بالناظر وكتب عنه مادته | | عرف بالتاجى وكتب عنه مادته |

وهذه الشهادة تدل على أن الأعيان الموقوفة والمذكورة بحدودها فى وجه الوثيقة كانت جارية فى ملك الواقف وحيازته إلى حين صدور الوقف منه . ويظهر من صيغة الشهادة « يشهد من يوضع إسمه .... » والتوقيع « وكتب عنه مادته » أن الشاهدين لم يوقعا بخطهما لأنهما لا يعرفان الكتابة ، فقام بالتوقيع نيابة عنهما أحد كتاب الحكم أو الشهود العدول بمجلس القضاء .

هذا ولم أجد للشاهدين ذكرا فى المراجع المختلفة أو كتب التراجم المتداولة فى هذا البحث مما يدل على أنهما كانا على قدر اجتماعى متواضع ، والملاحظ أن الشهود الواردة

أسماؤهم فى وثائق ذلك العصر كان بعضهم من الشخصيات الكبرى المعروفة من أرباب السيف أو القلم ممن كان لهم مقام مرموق، وثيقة خفطبای محکمة ٢٣٦ ، دار الكتب ٩/١٩٤٨ تاريخ والبعض الآخر من مساتير الناس أو من عامتهم ، فقد شهد رجلان أحدهما فوال والآخر طباخ على وثيقة استبدال باسم شهاب الدين الأشمونى محكمة ٢٦٠ . وعن شهادة أصحاب الصنائع ومن فى مقامهم الاجتماعى المتواضع ، أنظر ابن قيم الجوزيه : اعلام الموقعين عن رب العالمين حـ ١ ص ١٢٩ ، ابن عابدين : العقود الدريه فى تنقيح الفتاوى الحامدية جـ ١ ص ٢١٥ ، رد المحتار على الدر المختار جـ ٤ ص ٢٩٤ .

ومهما يكن من أمر فان الاقرار بالكتابة كالاقرار باللسان ، هذا والاقرار باللسان فى مجلس الحكم أو القضاء أقوى دلالة من الاقرار المكتوب ، وهناك مثل رومانى قديم يقول : ألسنة الخلق أقلام الحق Vox populi vox Dei ومن ثم فلا عيب البتة شرعا فى العصور الوسطى فى كون الشاهدان على ملكية الغورى للعقارات الموقوفة لا يعرفان الكتابة ، ولهذا قام بالتوقيع بالنيابة عنهما — ولا بد أن ذلك حدث فى حضورهما — كاتب ثقة أمين عارف بصناعة التوثيق فيما نعتقد . جعيط : الطريقة المرضية ص ١٧٣ ، أحمد ابراهيم : طرق الاثبات ص ٦٤ .

والمعروف أن الأموال الموقوفة Biens Wakfs بعضها عقار وبعضها منقول لأن الوقف يصح فيهما على السواء ، والأراضى والمبانى عقارات بطبيعتها Les fonds de terre et les batiments sont immeubles par leur nature.

مرسى : الملكية والحقوق العينية جـ ١ ص ٢٣ الابيانى : مباحث الوقف ص ١٣ — ٢٠
Enc. Isl. art *Wakf*.

هذا ولعل بعض الأراضى التى وقفها السلطان الغورى كانت من جملة إقطاعه قبل أن يصل إلى كرسى السلطنة المملوكية ، ووقف الاقطاع صحيح كما يقول الخصاف فى كتابه الأوقاف ص ٣٤

والواقع أن تصرف الغورى ووقفه صحيح طبقاً للنصوص السابق ذكرها ، لأنه يشترط لجواز الوقف أن تكون العين المراد وقفها مملوكة ملكا باتا للواقف وقت الوقف ، والملك التام من شأنه أن يتصرف به المالك تصرفاً مطلقاً فيما يملكه عينا ومنفعه واستغلالا ، فينتفع بالعين المملوكة وبغلتها وثمارها ونتاجها ويتصرف فى عينها بجميع التصرفات الجائزة

شرعا ، فله أن يخرجه عن ملكه بأى تصرف وضع للاخراج — مثل الوقف كما هو الوضع فى حالتنا .

قدرى : قانون العدل والانصاف ص ١٠ مادة ٢٠ ، مرشد الحيران ص ٥ ، قراعه : دروس فى المعاملات الشرعية ص ٦ - ٧ ، مرسى : الملكية والحقوق العينية جـ ١ ص ٧٧ ، الملكية والتسجيل ص ٥

ومهما يكن من شىء فإن الملكية والحقوق العينية تكتسب عن طريق :

(ا) العقود (سندات الملكية) Titres de propriété—Title deeds—Titulus

وقد قدمها الغورى كأدلة مادية Preuves matérielles ولعل بعضها كانت عقود بيع Titres de vente لأن البيع أحد أسباب الملك التام ، والبعض الآخر ربما كانت مناشير باقطاعه أرضا قبل أن يتولى السلطنة ووقف الاقطاع صحيح كما ذكرنا .

القلقشندى : صحيح الأعشى جـ ١٣ ص ١٥٧ وما بعدها .

(ب) وضع اليد والاستيلاء ، وأقصد بذلك الاستيلاء على الأشياء أو الأموال المباحة Res nullius التى ليست مملوكة لأحد لأنها تصير ملكا خالصة للمستولى عليها شرعاً .

La propriété et les droits réels s'acquièrent par l'effet des conventions et par occupation.

مرسى : الملكية والحقوق العينية جـ ٢ ص ٢٥٠ ، الحقوق العينية الأصلية جـ ٣ ص ٥ - ٧

قراعة : دروس فى المعاملات الشرعية ص ٣٦ - ٣٧

ويؤكد صحة ما ورد فى هذه الشهادة ما جاء فى صلب وجه الوثيقة سطر ١٠١ - ١٠٤ ونصه :

« . . . . الجارى ذلك فى ملكه الشريف وبيده الشريفه وتصرفه واختصاصه وحيازته ومنه — ما هو معروف بانشايه وعمارته واحضر لشهوده مكاتيب شرعية ثابتة محكوم بها فى الشرع الشريف على العادة بعضها — دال على صحة ملكه الشريف لما ابقاه من ذلك على صفاته القديمة وبعضها دال على صحة ملكه الشريف لما هدمه وانشا على — رحابه الابنية الجديدةلا اتى ذكرها فيه وكتب عليها وعلى اصول احضرت لشهوده فصول خشوم شرعية . . . . . » .

وكذلك ما ورد فى وجه الوثيقة بين السطر ١٢٧٥ ـ ١٢٧٧ ونصه :

« . . . . الجارى ذلك فى ملك مولانا المقام الشريف الواقف . . . . بدلالة المكاتيب والمستندات الشرعية المنبه عليها فيه ويشهد بملكه لذلك حال صدور هذا الوقف — من يكتب اسمه ادنى المتصل الذى سيسطر بمحله عند الحاجة اليه . . . . . » .

ومن هذا وذاك نرى :

أولا : أن السلطان الغورى قد احضر لشهوده أدلة خطية ثابتة بالكتابة وهى مستندات محررة وموثقة Piéces justificatives ( مكاتيب شرعية ثابتة محكوم بها فى الشرع الشريف ) كدليل وبرهان على حقه فى ملكية الأعيان التى تصرف فيها ووقفها وهو فى حال صحة جسده وكمال عقله تصرف المالك فى ملكه لا ينازعه فيه أحد حتى تاريخ صدور الوقف .

فرج السنهورى : مجموعة القوانين المصرية المختارة من الفقه الاسلامى ج ٣ — الوقف ١ ص ٥٢ السيواسى : فتح القدير ج ٥ ص ٣٧ — ٣٨ — قدرى : مرشد الحيران ص ١٨ ـ ١٩ .

هذا ولا حاجة بنا إلى الاشارة للطريقة التى وصلت بها هذه الأعيان إلى ملكية الغورى وخاصة الأرض التى بنى عليها مدرسته وكان قد صادرها من الطواشى مختص رأس نوبة السقاة فى دولة الظاهر قانصوه بعد أن شرع فى بناء مسجد ومدفن له فى تلك المنطقة الحيوية من القاهرة ، مما جعل الناس يطلقون عليها تفكها « المسجد الحرام » بسبب اغتصاب الغورى لأرضها ورخامها وأخشابها ، والشبهات التى دارت حول الأموال التى صبت فيها صبا أو صرفت عليها بتبذير زائد حتى بلغت نفقتها نحواً من مائة الف دينار . ابن اياس : بدائع الزهور ج ٤ ص ٥٣ ، ٢٣٥ ، ج ٥ ص ٨٩ ، تاريخ ابن زنبل الرمال ( مخطوط بدار الكتب المصرية ٤٤ تاريخ ) ج ١ ص ٨٩ — حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الأثرية ج ١ ص ٢٨٧ .

ومهما يكن من أمر فقد تقدم الغورى بمستندات شرعية ومحررات أو عقود موثقة تثبت حقة فى ذلك وملكيته للاعيان التى وقفها ، هذا وليس المقصود من السند الناقل للملكية المحرر أو الكتابة أو الدليل Instrumentum الذى يثبت العمل أو التصرف

القانونى الذى بمقتضاه حاز واضع اليد الشىء بل يقصد منه العمل القانونى نفسه Negotium الذى هو سبب وضع اليد ، ويجب أن يكون السند بطبيعته ناقلا للملكية لو كان صحيحا أى أن يكون صالحا فى ذاته لنقل الملكية بصرف النظر عن صدوره من المالك الحقيقى أو من سواه . مرسى : الملكية والحقوق العينية جـ ١ ص ١٩٤ .

والواقع أن هذه المستندات أدلة خطية لها من الاعتبار مكان كبير ثابت ، وللقاضى أن يأخذ بها ، فالاثبات الكتابى أسمى الطرق لاثبات الاثبات الاتفاقات ، وقد ثبت العمل بالخط بالادلة المتكاثرة من الكتاب والسنة والاجماع ، فالكتابة تفوق الشهادة Lettres passent témoins . وهى بلا شك أضبط لتفاصيل الحوادث وقيد لها ، ولا سيما الالتزامات ذات الشروط الكثيرة التى قد ترد فى بعض المحررات أو العقود ، ولا ريب فى أنها من هذه الناحية أقوى احتفاظا بما تحويه من الذاكرة ، وهناك مثل رومانى قديم يقول :

الكلام ينسى وتبقى الكتابة Verba volant, scripta manent .

وبالموازنة بين دليلى الكتابة والشهادة نرى أن الاحتياط يقضى بأن يكون الدليل كتابياً كلما أمكن ذلك .

أحمد ابراهيم : طرق القضاء ص ٨٠ ، ٨٥ ، طرق الاثبات ص ٣٤ ـــ ٣٥ ، ٤٩ ، ٦٥ ـــ ٦٦ ، ٢٨٠ ، حسين المؤمن : نظرية الاثبات جـ ١ ـــ القواعد العامة والاقرار واليمين ص ٧٧ ، تادرس ميخائيل : شهادة الشهود ص ٢

ثانياً : أن فقهاء المسلمين يجمعون على أن اليد من أقوى ما يستدل به على الملكية ما لم يثبت بوجه شرعى خلاف ذلك ، فوضع اليد دليل الملك ظاهر بلا بينة .

الفتاوى المهدية جـ ٣ ص ٢٤٠ ، المغنى والشرح الكبير جـ ١٢ ص ٢٥ ، ابن عابدين : العقود الدرية فى تنقيح الفتاوى الحامدية جـ ٢ ص ١١٩ ، جعيط : الطريقة المرضية ص ٢٤٧ ، الفتاوى البزازية (على هامش الفتاوى الهندية) جـ ٥ ص ٢٤٢ ، ٢٤٥ ، الخصاف : أحكام الوقف ص ٢٧٨ ـــ ٢٨٣ ، ٣٣٢ ـــ ٣٣٥ ، الطرابلسى : الاسعاف ص ٨١ ـــ ٩٠ ، أحمد ابراهيم : طرق الاثبات ص ٤١ ، Enc. Isl. art. *Wakf* .

والواقع أن معاينة اليد من الأسباب المجوزة للشهادة ، فمن كان فى يده شىء وسعك أن تشهد أنه له ، حتى ولو لم تعاين سبب الملكية من مستندات رسمية أومحررات موثقة ، وذلك لان اليد أقصى ما يستدل به على الملك عند عدم المنازعة ، كما أنه ليس وراء اليد دليل أقوى منها ، إذ هى فى الحقيقة مرجع الدلالة ومبدؤها ، فاليد إذن هى المستند الأخير فى الدلالة على الملك بلا منازع ، وقد قال الامام الشافعى رحمه الله « دليل الملك اليد مع التصرف الدال عليه » وبهذا قال الخصاف ومالك والنسفى من أنه يشترط مع معاينة اليد التصرف ، وأن يقع فى قلب الشاهد أنه للمشهود له ، وذلك لأن الأصل فى الشهادة الاحاطة التامة والتيقن. أحمد ابراهيم : طرق الاثبات ص ١١١ــ١١٢ ، طرق القضاء ص ٢٩٥ ، ابن قاضى سماوه : جامع الفصولين جـ ٢ ص ٣٤٥

٥٥ ــ الحكم بمعنى قضاء القاضى عبارة عن قطع الحاكم المخاصمة أو المنازعة وحسمه إياها والحكم فى حالة الوقف هو إنشاء إلزام ، لأن الحاكم الحنفى يلزم المحكوم عليه (الواقف) بالمحكوم به (الوقف) بقوله حكمت أو قضيت ، ويقال لهذا القضاء قضاء الالزام ، ويكون الحكم الصادر فى هذه الحالة حكما ملزماً أو قطعياً، لأنه حكم يصدر من القاضى لافادة لزوم الحق ، ولاخيرة فيه للمحكوم عليه فيلزم بالحكم ، وينفذ عليه سواء أطاب به نفساً أو وجد حرجاً فيما قضى به عليه ، وحرم على المحكوم عليه المخالفة لما فيه من مفسدة وانخرام النظام .

جميط : الطريقة المرضية ص٢١٤ــ٢١٦ ، عرنوس : تاريخ القضاء ص١٤٠ــ١٤١ ، قراعة : الأصول القضائية ص ٢٨١

والواقع أن الغرض الأساسى الذى شرع من أجله الحكم هو سد باب الخصومات ووقف المنازعات وحسم المشاحنات التى لا تنتهى إلا بالالزام، وتمكين أهل الحقوق من حقوقهم ، كما أن الحكم لا يمكن التعرض لنقضه ويمتنع على أى حاكم آخر إبطاله ما دام موافقا للشرع ، لأن حكم الحاكم برفع الخلاف والقضاء بالوقف قضاء على الناس كافة . جميط : الطريقة المرضية ص ٢١٦ ــ ٢٢٢ ، ٢٣٥ ــ ٢٣٦ . ابن قاضى سماوه : جامع الفصولين جـ ١ ص ٢٧ ، ١٧٤ .

ومهما يكن من شىء فان الأحكام التى كانت تصدر من المحكمة فى العهد المملوكى بموجب ولايتها الادارية Jugements rendus en matière de juridiction gracieuse كانت تحوز قوة الشىء المحكوم فيه لأن هذه الأحكام كانت تصدر من المحكمة

فى العصر الوسيط بموجب سلطتها القضائية أيضاً ، ولم يكن هناك فصل بين الولاية القضائية والادارية للمحكمة آنذاك لأن هاتين السلطتين كانتا متداخلتين ولا يمكن التفريق بينهما ، ومن ثم فحكم القاضى فى المحكمة المملوكية كان حكما قضائيا وإداريا ملزماً وواجب التنفيذ فى آن واحد .

والقول بأن الأحكام كانت تحوز حجية أو قوة الشيء المحكوم فيه en force de chose jugée ou autorité de la chose jugée معناه اعتبار الحكم قرينة قانونية قاطعة فيما قضى به لا تقبل الدليل العكسى ، ذلك أن المصلحة العامة تقتضى بأن تعتبر الأحكام عنوانا للحقيقة Expression de la vérité ، وقد عبر الرومان عن ذلك قديما بقولهم : Res judicata pro veritate habetur.

ومعنى ذلك ألا يثار النزاع من جديد فيما فصل فيه نهائيا ، وأن يكون لهذه الأحكام حرمتها واحترامها ، وسلطانها بالنسبة للجميع ، وحجة على الغير حتى لا يكون هناك نزاع فتستقر الحقوق وتصان ، ويستمر الحكم حائزاً لقوة الشيء المحكوم فيه إلى ما لا نهاية .

نشأت : رسالة الاثبات بند ٥٢٣ ، محمود عبد الرحمن وسدراك لوقا : قوة الشيء المحكوم فيه ص ١ ، ٣٠ ، ١٩٨ ، بحثنا هذا ص ٢٢٦ — ٣٣٠ ، ٣٤٠ — ٣٤١ ، وكذلك تحقيق رقم ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ .

هذا وقد أصدر قاضى القضاة عبد البر بن الشحنة الحنفى حكمه بعد أن صلى بجماعة فى المدرسة الغورية بالقاهرة — ابن اياس : بدائع الزهور ج ٤ ص ٥٨ — ٥٩ . بحثنا وثيقة الأميراخور كبير قراتجا الحسنى ( مجلة كلية الآداب م١٨ ج ٢ ) ص ٢٣٨ رقم ٦٤ .

٥٦ — موجب الشيء ما أوجبه ذلك الشيء واقتضاه ، وهو عبارة عن الأثر المترتب على ذلك الشيء ، فالموجب والمقتضى فى الأصل واحد ، وهو من الأمور الاضافية ، والموجب فى باب الحكم أعم من المقتضى وهو التحقيق والحكم بالصحة .

ابن عابدين : رد المحتار ج ٤ ص ٣١٠ ، ٣٤١ ، البابرتى : شرح العناية على الهداية — المرغينانى : الهداية ج ٥ ص ٤٥٣ وما بعدها .

ومن ثم فالحكم بالموجب معناه أن الحكم صدر صحيحاً ويباق مقتضياته الشرعية التى لا تنفك عنه . عرنوس : تاريخ القضاء ص ١٤٢ — ١٤٥ .

ويقول جعيط إن الحكم بالموجب لم يوجد فى كتب المالكية ، إنما تعرض له الشافعية أولا ثم الحنفية وأول من نقله من المالكية ابن فرحون عن الشيخ البلقينى والسبكى وهما من أئمة المذهب الشافعى . ابن فرحون : تبصرة الحكام جـ ١ ص ٨١ — ٨٥ .

وعلى هذا فالحكم بالموجب عبارة عن قضاء القاضى بالالزام بما يترتب على ذلك الأمر على الوجه المعتبر عنده فى ذلك شرعاً ، ويستدعى ذلك شيئان :

( ا ) أهليه التصرف . ( ب ) صحة الصيغة ، فيحكم القاضى بموجبها .

هذا وقد شرط شيوخ وأئمة المذهب الحنفى لاعتبار الحكم بالموجب أن يكون قد وقع الترافع والتنازع عند الحكم — أى يشترط فيه تقدم الدعوى — إلا ما تسمع فيه الدعوى حسبة ومنه الوقف على الفقراء واثبات الوقفية كما هو الوضع فى حالتنا . جعيط : الطريقة المرضية ص ٢٧١ — ٢٧٢ ، ابن عابدين : رد المحتار حـ ٤ ص ٥٠٦ ، ابن فرحون : تبصرة الحكام حـ ١ ص ٨٢ وما بعدها . أنظر كذلك التحقيق رقم ٥٥ ، ٥٧ ، ٥٨

٥٧ — الحكم بالصحة ( صحة الوقف ) عبارة عن قضاء القاضى ( الحنفى ) بصدور التصرف من أهله فى محله على الوجه المعتبر عنده شرعاً ، ومعنى صحة التصرف ( الوقف ) كونه صدر صحيحاً بحيث تترتب اثاره عليه ، ومعنى حكم القاضى بذلك إلزامه لكل فرد .

هذا والحكم بالصحة يستلزم ثلاثة أشياء هى :

( ا ) أهلية التصرف ( ب ) صحة الصيغة . ( ج ) كون التصرف فى محله . فيصبح الحكم قطعيا أو نهائيا ، ويقال فى بيان ما يجتمع فيه الحكم بالصحة والحكم بالموجب ما نصه : « لا ينقض الحكم بواحد منهما »

وقد قيل إن القضاء المختلف فيه مثل الوقف — لأن معظم أحكام الوقف مختلف فيها وللاجتهاد فيها نصيب كبير ، أحمد ابراهيم : كتاب الوقف ص ٤ — يحتاج فى نفوذه إلى إمضاء قاض آخر ومثال ذلك قول القاضى « ثبت عندى كذا » جعيط : نفس المرجع ص ٢٧٧ ، ابن فرحون : تبصرة الحكام جـ ١ ص ٨٥ ، ابن قاضى سماوه : جامع الفصولين جـ ١ ص ٣٣ . وكذلك أنظر تحقيق رقم ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٨

٥٨ — القضاء فى اللغة معناه الالزام ، قراعة : الأصول القضائية ص ٢٧٦ ، وقد سبق أن وضحنا أن الحكم بالموجب وبالصحة — تحقيق رقم ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ — عبارة عن قضاء القاضى بالالزام بما يترتب على ذلك الأمر على الوجه المعتبر شرعاً .

والمعروف أن الحكم هو إنشاء إلزام فى مسائل الاجتهاد المتقاربة ، والمراد بالالزام التقرير التام بعد أن ثبت عنـد القاضى على حد قول ابن عابدين فى رد المحتار ج ٤ ص ٣٠٩ — ٣١٠ .

فالالزام تابع أو مرتبط بالحكم بل هو فى الحقيقة جوهر الحكم ولبه والغرض منه ، وحكمة ذلك أن الخصام والشقاق لا يندفع إلا بالزام . .

جعيط : نفس المرجع ص ٢١٤ ، ٢٣٦ ، ٢٧١ - ٢٧٢

والوقف عند الامام أبى حنيفة كالعارية جائز ولكنه غير لازم ، فتبقى الملكية للواقف وله أن يرجع فيه فيباع ويوهب ويورث إلا فى حالتين يكون فيهما لازماً وهما : أن يحكم به حاكم أو يعلقه بموته .

ومن ثم يشترط فى انشاء الوقف من وجهة نظر الفقه الحنفى بالذات أن يحصل ممن يملكه على يد حاكم شرعى أو مأذون من قبله .

الكاسانى : بدائع الصنائع ج ٦ ص ٢١٨ ، المرغنيانى : الهداية ج ٥ ص ٣٩ ، أبو زهرة: مشكلة الأوقاف (مجلة القانون والاقتصاد السنة الخامسة عدد ٦) ص٥٧٠-٥٧١ ، ٥٨٤ — ٥٨٦ ، (السنة الخامسة عدد ٧) ص ٧٤٣ ، الابيانى : مباحث الوقف ص ٣ ومعنى ذلك وجوب صدور حكم القاضى الحنفى بصحة الوقف أى انشاء الزام ، والقاضى يلزم بقوله ، لأن القاضى من شأنه الاناة والتثبت ومن تأنى وتثبت تهيأ له الصواب ، وعلى هذا يتميز الحكم بالالزام ، والقضاء بالوقف قضاء والزام على الناس كافة فلا تسمع الدعوى من أحد بعده .

ابن قاضى سماوه : جامع الفصولين ج ١ ص١٧٤ ، عشوب : كتاب الوقف ص٢٧٩ ، أحمد ابراهيم : كتاب الوقف ص ٤ ، عرنوس : تاريخ القضاء ص ٧١

ومن المعروف أن العقد أخذ معنى قوته الملزمة La force obligatoire عن القانون الرومانى الذى كان يعبر عن الارتباط القانونى بما كان يسميه Vinculum Juris ،

وهذا الالزام الذى أرادت التشريعات المختلفة ، بما فيها الشريعة الاسلامية الحكيمة ، أن يترتب للعقد إنما تقتضيه الضرورات الاجتماعية والظروف السياسية وخاصة تلك التى مرت بها مصر إبان العصر المملوكي ، وهذا بداهة من أول مستلزمات الحياة الانسانية المستقرة فى الجماعة أو الدولة الإسلامية وغيرها . حسين عامر : القوة الملزمة للعقد ص ٩ ، انظر كذلك التحقيقات الثلاثة السابقة .

٥٩ — ليس كل محرر يكتب بتصرف L'acte écrit—written deed سواء أكان ذلك من جانبين acte juridique bilatéral مثل البيع والايجارة والاستبدال والرهن ، أو من جانب واحد acte juridique unilatéral مثل الهبة والوقف يسمى وثيقة شرعية أو دبلوماتية acte diplomatique .

أن هناك صلة قوية بين علم الوثائق والقانون عامة ، وبين الوثائق العربية فى العصور الوسطى والشريعة الاسلامية خاصة ، ومن ثم كان لا بد من توفر واستيفاء شروط الصحة الشرعية فى الوثيقة الدبلوماتية بمعناها العلمى الذى اصطلح عليه الوثائقيون .

ولكى تكون الوثيقة شرعية فلا بد أن تكتب بشكل قانونى لا يدع مجالا للنزاع أو الخصام . قراءة : مذكرة التوثيقات الشرعية ص ٣ - ٤ ، بحثنا هذا ص ٣٣٢—٣٣٤

وهذا الشكل هو مايعرف باسم الشكل الدبلوماتى للوثيقة La forme diplomatique وذلك بمراعاة الشروط الشرعية أو القانونية اللازمة التى نص عليها الفقهاء ، والقاضى ونوابه ومساعدوه من كتاب الحكم أو الموثقين أعلم الناس بالشروط الشرعية اللازم توفرها فى كل عقد أو محرر ، وأدراهم بما يجب ذكره بوضوح فى الصياغة القانونية لكل نوع من أنواع التصرفات القانونية المختلفة ، لأنه لا بد عند صدور الوقف أن يكون مستوفياً لكل الشروط الواجب توافرها فيه ، والتى يشترطها الفقهاء على اختلافهم وتباين أفكارهم ، وقد جرت عبارات الفقهاء بأن الوقف لا يعتبر انشائه قانونياً إلا إذا تم على يد حاكم شرعى ( قاضى القضاة ) أو مأذون من قبله ( نائبه ) ، والشريعة الإسلامية على مذهب الأحناف وإن كانت تعترف بجواز الوقف إلا أن لزومه ونفوذه لا يعتبر قائماً إلا إذا صدر باشهاد على يد حاكم شرعى كما سبق أن أوضحنا . أبو زهرة : مشكلة الأوقاف ( بمجلة القانون والاقتصاد السنة الخامسة عدد ٧ ) ص ٧٢٢ - ٧٢٣ بحثنا هذا ص ٣٢٤ — ٣٢٥ ، ٣٣٢

وأهم الشروط الشرعية التى استوفتها الوثيقة فى حالتنا هذه هى : ذكر الفاعل القانونى المتصرف ( الواقف ) والتعريف به بذكر القابه الرسمية والفخرية ، والتعريف بالمتصرف فيه من مبان وأراض بحدها وحدودها وحقوقها ، وقد روعى فى ذلك كله إزالة الوهم أو الغموض الذى قد يترتب عليه نزاع فى المستقبل أو فساد التصرف وعدم شرعيته بأن احتاط الكاتب لذلك باستخدامه لكافة العبارات الفقهية اللازمة .

وكذلك اشتملت الوثيقة المحررة على ذكر كل ما يفيد صحة التصرف الذى كتبت من أجله وخلوه مما يفسده ، ومن ذلك أن الواقف يملك المتصرف فيه وله الحق فى التصرف حيث أنه متمتع بكامل الأهلية ، صحيح البدن ، كامل العقل ، راغب فى ذلك غير مكره ولا مجبر ، وكذلك اشتملت الوثيقة على التاريخ فى ٢٠ صفر سنة ٩١١ هـ باليوم والشهر والسنة ، وأخيراً على شهادة الشهود العدول على صدور التصرف الذى كتبت الوثيقة به فى نهاية البرتوكول الختامى مصحوباً بالتوقيعات ، وذلك كله دفعاً للاشتباه أو الالتباس .
قراءة : مذكرة التوثيقات الشرعية ص ١٥ ــ ٣١ ، سرحان : الوقف فى نظامه الجديد ص ٥٠ ــ ٥٤ ، بحثنا هذا تحقيق رقم ٥٣ ، نص الاشهادات الاربعة سطر ٣٩ ، ١٠٦ ، ١٦٩ ، ٢٣٧ .

٦٠ ــ يشترط فى القاضى شروط متعددة أوردتها كتب الفقه المختلفة ، فالقاضى من جهة الاثبات هو شاهد ، ومن جهة الأمر والنهى هو مُفت ، ومن جهه الحكم بصحة العقود والتصرفات أو الالزام بذلك هو ذو سلطان . وأقل ما يشترط فيه صفات الشاهد لأن أهلية القضاء تدور مع أهلية الشهادة باتفاق العلماء ، لأنه يجب عليه أن يحكم بالعدل وذلك يستلزم أن يكون هو عدلا فى نفسه ، فأبو حنيفة لا يعتبر إلا العدالة ، والشافعى وطائفة من أصحاب أحمد يعتبرون معها الاجتهاد ، وأحمد يوجب تولية الأصلح فالأصلح من الموجودين ، وكل زمان بحسبه ، فيقدم الأدين العدل على الأعلم الفاجر لأنه أنفع للمسلمين ، وبهذا مضت سنة سيدنا رسول الله ( ص ) فانه كان يولى الأنفع للمسلمين على من هو أفضل منه .

ابن قيم الجوزية : اعلام الموقعين عن رب العالمين جـ ١ ص ١٠٥ ــ ١٠٦ (ط. بولاق ١٣٢٣ هـ ) ، قراءة : الأصول القضائية ص ٢٨٠ ، عرنوس : تاريخ القضاء ص ١٦ ــ ١٧ ، ١٢٥ ، . ابن قاضى سماوه : جامع الفصولين جـ ١ ص ١٤ ــ ١٧

ومن المستقر عليه أنه لا تصح ولاية القضاء فى الاسلام إلا لمن يتوفر فيه العقل والورع والبلوغ والحرية والعدالة والبصر والنطق والسمع والذكورة (أن يكون رجلا) والسلامة عن حد القذف، وأن يكون شديداً من غير عنف لينا من غير ضعف، ولما كان القضاء من أهم أمور المسلمين تحتم أن يكون القاضى موثوقاً به فى عفافه وعقله وصلاحه وورعه وفهمه وعلمه بالسنة والآثار (الحديث) ووجوه الفقه وأسرار التشريع، هذا والاجتهاد شرط الأولوية.

وقد ورد فى أحد التقاليد الحُكمية من عصر المماليك ما نصه:

« ..... مرتبة الحكم لا تعطى إلا لأهلها، والأقضية لا ينتصب لها إلا من هو كفء لها، ومن هو متصف بصفات الأمانة والصيانة، والعفة والديانة »

وفى تقليد حُكمى آخر جاء ما يلى: « ..... من حسنت سريرته، وحمدت سيرته، وعرف بورع وشهر بعفاف، وديانة وخير وإنصاف، واضحى نزه النفس عن الأمور الدنية، فقيها دربا بالاحكام الشرعية، عارفاً بالاوضاع المرعية » القلقشندى: صبح الاعشى جـ ١٤ ص ٣٤٠ — ٣٤٥.

هذا ويشترط فى القاضى أن يكون عالماً بالخلاف لأنه لو لم يعلم لم يجز قضاؤه، وهذا شرط نفاذ القضاء أى العلم بالخلاف فيما قصد الحكم به، لأن حكم القاضى يرفع الخلاف ويجعل حكم تلك الجزئية الخاصة الصحة عند الجميع. جعيط: الطريقة المرضية ص ٢٢٤ — ٢٢٥، بحثنا هذا تحقيق رقم ٧٤، الفتاوى العالمكيرية جـ ٣ ص ٣٠٦ — ٣١٤، ٣٢٧ — ٣٢٩، السرخسى: المبسوط جـ ١٦ ص ٥٩ وما بعدها، السيواسى فتح القدير جـ ٥ ص ٤٥٣ ومابعدها. الماوردى: الاحكام السلطانية ص ٥٣ وما بعدها، الكاسانى: بدائع الصنائع جـ ٧ ص ٣، ٩ — ١٠، عرنوس: تاريخ القضاء ص ١٢ — ١٤، ٦٨، ٧٥ — ٧٧. قراعه: الاصول القضائية ص ٢٨٤ — ٢٨٥.

وإذا كانت هذه الشروط والصفات واجبة فى القاضى شرعاً، وقد نصت عليها التقاليد الحكمية الصادرة فى العهد المملوكى، والتى أورد لنا القلقشندى نماذج منها فى موسوعته الكبيرة، إلا أن ابن اياس يذكر لنا ما يناقض ذلك أحيانا إذ يقول إن القضاة كانوا يسعون بالمال من أجل الوصول إلى منصب القضاء، ويقول أيضاً إن من النوادر الغريبة تولية أربعة قضاة دون أن يأخذ الغورى منهم درهما؛ ويضيف إلى ذلك أن القضاة كانوا يشهدون أحيانا

شهادة هى عين الرياء وذلك من أجل المناصب . ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٤ ص١٢ ، ٣٥١ ، جـ ٥ ص ٣٢٤ .

والملاحظ أن هذه العبارة « عالما بالخلاف فى ذلك » قد وردت فى الاسجال الحكمى ( الاشهاد الأول ) دون بقية الاسجالات التنفيذية وهى الاشهادات الثلاثة الأخيرة وذلك لأن الاشهاد الأول هو الذى صدر فيه الحكم بصحة الوقف ولزومه .

٦١ — يقصد الكاتب بذلك تاريخ الاشهاد نفسه ، وهو ١٢ ربيع أول سنة ٩١١هـ الوارد فى السطر ٣٢ ، انظر التحقيق رقم ٥٢ ، وقد وردت هذه العبارة فى الاشهادات الثلاثة الأخيرة فى سطر ١٠٧ — ١٠٨ ، ١٧٠ ، ٢٣٨ .

٦٢ — يقصد بذلك افتتاحية الاشهاد بالحمدلة أو التحميد ونصها « الحمد لله عليه توكلت » سطر ٢ ، وقد جرى العرف على افتتاحية الاشهادات الواردة فى ظهور جل وثائق الوقف فى العصر الوسيط — فى محفوظات القاهرة — بعد البسملة بالحمدلة وخاصة وثائق عصر المماليك الجراكسة . انظر بحثنا هذا تحقيق رقم ٢ ، وقد وردت هذه العبارة أيضاً فى الاسجالات التنفيذية الثلاثة .

٦٣ — هذا هو الدعاء الختامى فى نهاية صيغة الاسجال الحكمى . وقد اختلفت صيغ الدعاء الختامى فى الاسجالات الأربعة وإن اتفقت جميعاً فى ذكر الحسبلة ، وغالباً ما ترد التصلية على النبى محمد وآله وصحبه قبل الحسبلة أو بعدها .

والأصل فى كتابة الحسبلة أن من قال حسبنا الله ونعم الوكيل لم يخب فى قصده وقد اصطلح الكتاب على أن يكتبوا الحسبلة بلفظ الجمع « حسبنا » على اعتبار ان المتكلم يتكلم بلسانه ولسان غيره من الأمة لا أن الجمع للتعظيم لانه ليس بلائق بالمقام . القلقشندى صبح الأعشى جـ ٦ ص ٢٦٩ - ٢٧٠ .

وقد ترد التصلية مع الحسبلة فى آخر الكتاب تبركا ، وقد ترد الصلاة بصيغة المفرد أو بصيغة الجمع فيقال « وصلواته » وهى صيغة مستحسنة ، وقد يرد فيها كذلك ذكر آله وصحبه كما هو الحال فى الاشهادات الثلاثة الأولى .

وهناك أمر يجب ملاحظته وهو أن بعض الكتاب قد يكتب مع الحسبلة « واوا » ولا معنى للواو هنا — انظر سطر ٢٤٠ شكل ٢٣ — إذ لا علاقة بين الحسبلة وما تبـ

حتى يعطف عليه والواجب حذفها ، وأما موضعها فقد اصطلحوا على أن يكتبوها سطراً واحداً : وإن كانت هذه القاعدة غير متحققة فى كل الاشهادات التى بين أيدينا ، فقد كانت الحسبلة والتصلية إذا وردت معها تكتب فى نهاية أو ختام الاسجال الحكمى والتنفيذى بخط القاضى بحروف كبيرة ، وقد تحتل سطراً واحدا أو سطرين. القلقشندى : نفس المصدر جـ ٦ ص ٢٦٧ — ٢٦٩ ، جـ ١٤ ص ٣٤٢ — ٣٤٩ ، بحثنا هذا ص ٣٠٦ — ٣٠٧ .

٦٤ — تبدأ الشهادة عقب الحسبلة بصيغة موضوعة « أشهدنى على نفسه الكريمة .... » أما باقى الشهادات التالية فتبدأ هكذا « وبذلك أشهدنى . . . » .

ولا حاجة بنا إلى القول بأن الصيغة الموضوعية فى هذه الشهادات جميعاً لا تدل على أن الشاهد جاهل بالكتابة ، ذلك أن الصيغة الموضوعية فى الشهادة على الاشهادات فى العصر المملوكى كانت أكثر انتشاراً من الصيغة الذاتية ، وذلك لأن المقصود بها هنا ، أن القاضى صاحب الاشهاد الأول قد طلب الشهادة ضمنيا من الشهود على صدور الحكم منه بصحة الوقف ولزومه ، وفى الاشهاد الثانى على تنفيذ الحكم ، وفى الثالث والرابع على تنفيذ التنفيذ .

ولكن رغم أن هذه الشهادات جميعا تبدأ عادة بالصيغة الموضوعية إلا أنها تنتهى غالباً بالصيغة الذاتية « . . . فشهدت عليه به فى تاريخه وكتب » ثم توقيع الشاهد . انظر صيغ الشهادات فى الاشهادات الأربعة التى ننشرها فى هذا البحث وكذلك وثائق قايتباى أوقاف ٨٨٧ ، ٨٨٨ محكمه بدون رقم ، بحثنا وثيقة الأمير آخور كبير قراقجا الحسنى ( مجلة كلية الآداب م ١٨ جـ ٢ ) ص ١٩٧ — ١٩٨ ، لوحة ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، وثيقة أزبك من ططخ محكمة ١٩٨ ، وثيقة سبيل المؤمنين أوقاف ٨٨٤ ، وثيقة جوهر المعينى محكمة ٢٠٢ ، ٢٢٨ — وثائق جوهر اللالا أوقاف ١٠٢١ ، محكمة ٨٥ ، ٨٦ — وثيقة المؤيد شيخ أوقاف ٩٣٨ ، وثيقة قانى باى الرماح أوقاف ١٠١٩ ، وثيقة السيفى يبرس الخياط محكمة ٣١٣ ، وثيقة السيفى تنرى بردى محكمة ٩٨ .

واللفظ الأخير فى صيغة الشهادة يدل على أن الشاهد قد وقع بخط يده بعد أن قام بنفسه بكتابة عبارة الشهادة بألفاظها التى أداها بها فى مجلس الحكم ، وهذا يقطع فى الدلالة

على أنه ليس جاهلا بالكتابة . فكأن الشاهد يقول : وبذلك شهدت وكتبت فى التاريخ الوارد فى الاشهاد الحكمى أو التنفيذى الذى شهد فيه . القلقشندى : صبح الأعشى ج ٦ ص ٢٦٤ ، ابن عابدين : رد المحتار ج ٤ ص ٣٦٥ ، احمد ابراهيم : طرق الاثبات ص ٢٧٥ ، وكذلك انظر ما ورد فى بحثنا هذا بالتفصيل عن الشهادة ص ٣٠٧ — ٣١٠

٦٥ — هو الشيخ الامام العلامة شرف الدين موسى بن عبد الغفار السديسى الأصل القاهرى الأزهرى ، ولد فى سنة ٨٤٦ هـ تقريبا ، وحفظ القرآن وتفقه وجود الخط وتميز فى الكتابة والتجليد والتذهيب وغير ذلك ، وحج مراراً أولها سنة ٨٧٠ هـ وناب فى القضاء المالكى عن قاضى القضاة حسام الدين بن حريز ، أى أنه صار خليفة الحكم العزيز فى القاهرة على حد قول وثائق العصر المملوكى .

وهو أحد كتاب مستندات السلطان الغورى ، وقد وقع باسمه كشاهد على اشهادات القضاة الأربعة التى ننشرها فى بحثنا هذا — انظر ص ١٥ — وإن كنا لا نعرف الصفة التى كان عليها فى ذلك الوقت ( ربيع أول سنة ٩١١ هـ ) ، هل كان نائباً فى القضاء المالكى أم كان شاهداً عدلا من جملة شهود وكتاب مجلس القضاء ؟

ومهما يكن من أمر ، فقد كان رحمه الله عدلا ثقة مقبول الشهادة حتى وفاته فى يوم الجمعة ٢٥ رجب سنة ٩١٢ هـ .

السخاوى : الضوء اللامع ج ١٠ ص ١٨٣ رقم ٧٧٦ ، الغزى : الكواكب السائرة ج ١ ص ٣٠٩ — ٣١٠ ، ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب ج ٨ ص ٥٩ .

وهناك عدة وثائق من عصر المماليك الجراكسة شهد فيها ووجدنا توقيعه عليها ومنها وثيقة قانى باى الرماح أمير آخور كبير أوقاف ١٠١٩ ، وثيقة السيفى طقطباى أوقاف ١٠٢٠ ، وثيقة الزينى عبد اللطيف من انسباى محكمة ٢٢٢ ، وثيقة سبيل المؤمنين أوقاف ٨٨٤ ، وثيقة أبو العباس احمد بن القرقور الشافعى محكمة ٢٢٧

٦٦ — هو الشيخ عبد الكريم بن على الجولى الشافعى عين الأفاضل المعتمدين لعدالته ، ويظهر أنه قد وصل إلى نيابة القضاء الشافعى فى مصر ، وكان من السادة العدول بالديار المصرية ، توفى إلى رحمة الله وهو عدل ثقة ، واستمر على عدالته وقبول شهادته إلى حين وفاته ، وهو من كتاب مستندات السلطان الغورى أيضا .

وثيقة السيفى طقطباى أوقاف ١٠٢٠ ، وثيقة السيفى قرقماس أوقاف ٩٠١ ص ٩٣ ، وثيقة طومان باى أوقاف ٨٨٢ ص ٥٩١

وقد خرج مع الأشرف الغورى من القاهرة إلى حلب عند توجهه لمقابلة السلطان سليم العثمانى ، وفى الريدانية حدث اشهاد تنفيذى بايصال وثيقة سبيل المؤمنين أوقاف ٨٨٤ ووثيقة المقياس أوقاف ٨٨٢ ص ٥١٤ وشهد على ذلك فى١٧ ، ١٨ ربيع ثانى سنة ٩٢٢ هـ، وكان قد شهد قبل ذلك فى ٨ ربيع أول سنة ٩٢٢ هـ على وقف مصحف للسلطان الغورى - دار الكتب رقم ٧٣

وقد وقع كريم الدين الجولى فى الأسر بعد هزيمة الغورى فى مرج دابق واكتساح العثمانيون للشام ومصر ، وأقام فترة فى استنبول ، ثم حضر إلى الاسكندرية فى شوال سنة ٩٢٦ هـ تحت الحراسة العثمانية المشددة ، وبقى فى القاهرة ولم يعد إلى استنبول وظل مختفيا حتى ظهر فى ٢٨ جماد أول سنة ٩٢٧ هـ ، وقد أمره الأمير خاير بك من مال باى بالسفر صحبة الأمير جانم الحمزاوى إلى استنبول ، ولكنه لم يلبث أن عاد إلى مصر ثانية الأمير جانم بعد أن أفرج السلطان سليمان الأول ( القانونى ) عن الأسرى المصريين .

ابن اياس : بدائع الزهور حـ ٥ ص ٣٤٩ ، ٣٨٦ - ٣٨٧ ، ٣٩٠ ، ٤٢٠

وقد وقع كشاهد على اسجالات القضاة الأربعة هنا كما وجدنا توقيعه على عدد كبير من وثائق عصر الغورى منها وثيقة خاير بك محكمة ٢٥٦ ، وثيقة تغرى برمش محكمة ٢٦١ ، وثيقة الزينى عبد اللطيف محكمة ٢٢٢ ، وثيقة السيفى ازرمك محكمة ٢٨٨ ، وثيقة العادل طومان باى دار الكتب ٢١٠٠ تاريخ ، وثيقة أبو العباس أحمد بن الفرفور الشافعى محكمة ٢٢٧ .

٦٧ — هذه هى تأشيرة أحد القضاة الذين قاموا بتوثيق الوقفية بالاشهاد عليها ، عقب توقيع الشاهد عبد الكريم بن على الجولى الشافعى ، والراجح أنها بخط قاضى القضاة الحنبلى .

ويظهر أن القاضى الحنفى قد كتب بخط يده مثل هذه التأشيرة أسفل توقيع كل من شاهدى التصرف فى وجه الوثيقة ( أنظر شكل ٥ ) وكذلك وثيقة عبد الرحمن المغربى محكمة ٢٤٦ ، وثيقة ابن الفرفور محكمة ٢٢٧ ، وثيقة السيفى طراباى محكمة ٢٥٧ ، ٢٥٨ بعد أن ثبتت لديه البينة الشرعية على صحة التصرف وسلامته بشهادتهما أمامه وقبل أن يصدر حكمه بصحة الوقف ولزومه .

وكذلك فعل كل قاض من قضاة القضاة الثلاثة الآخرين عقب توقيع بعض الشهود العدول فى الاسجال السابق على اسجاله باعتبارهم شهود اثبات لديه ، و الدليل على ذلك عدم وجود مثل هذه التأشيرات أسفل توقيعات بعض الشهود فى الاسجال الرابع والأخير، وهذه الحقيقة تشبه ما سبق ذكره عن عبارات التسجيل الواردة بالهامش الأيمن فى بداية وجه الوثيقة وعند بداية الاشهادات الثلاثة الأولى فقط فى ظاهرها .

أنظر بحثنا هذا ص ٣٠٦ ، تحقيق رقم ٣ .

وهذه العبارة قد تكون بخط الكاتب بمجلس الحكم أو الموثق Registrateur نيابة عن القاضى نفسه باعتباره الفاعل الوثيقى الأصلى ، وهذه العبارة وأمثالها ترد أحياناً بعد توقيعات بعض الشهود بصيغ تختلف بين الايجاز والاطناب . أنظر سطر ٥٦ ـ ٥٧ لوحة ٤ شكل ١١ ، ٢٤ ـ سطر ٦٥ ، ٧٣ ، ١١٧ شكل ٦ ـ سطر ١٢٦ ـ ١٢٧ شكل ١٢ ـ سطر ١٣٨ لوحة ٧ شكل ١٣ ـ سطر ١٤١ ، ١٨٠ ، ١٨٧ . كما أن هذه العبارة تدل على أن الشهود منتصبون للشهادة انتصابا عاما متسمون بالعدالة ، ولا يكتب الموثق ـ القاضى غالبا أو الكاتب ـ ذلك أسفل التوقيع إلا إذا كان قاصدا الاعلام بصحة التوقيع وسلامته من الريب من جميع النواحى ، أو فى حالة ما إذا قصد الاحتجاج به فى محكمة أخرى أو ربما أمام مذهب آخر . جعيط : الطريقة المرضية ص ٢٣١ ، ابن قاضى سماوه : جامع الفصولين حـ ٢ ص ٣٢٦

والتصديق على توقيعات الشهود فى العصر المملوكى أمر ملحوظ فى جل الوثائق التى قمت بدراستها أو الاطلاع عليها فى أراشيف القاهرة ، ويظهر أن التأشيرة بالتصديق على الامضاء Légalisation de signature ou contre signer كانت من الأمور التى اهتم الموثقون باثباتها عند الاشهاد على العقود أو المحررات الرسمية المختلفة فى محاكم ذلك العصر.

ويشترط فى التصديق على التوقيع أن يحصل أمام موظف مختص بذلك ( الموثق ) وأن يكون الشخص المراد التصديق على توقيعه ( الشاهد) معروفا للموثق بشخصه أو بشاهد ( معدل ) ، كما يجب على الموثق أن يتحقق من أهلية الموقع . مرسى : شرح القانون المدنى الجديد ـ شهر التصرفات العقارية ص ٥٥ ـ أنظر بحثنا هذا ص ٣١٧ — ٣١٨ وكذلك التحقيق رقم ٥١

والموثقون فى عصر المماليك هم القضاة أنفسهم غالبا أو الكتاب العدول الممتازون من العلماء الثقات الذين توفرت لهم الخبرة التامة بأمور التوثيق والدراية بالمسائل الشرعية والقضائية ، وكان عليهم عند ما تقدم إليهم العقود أو المحررات أن يقوموا بمراجعة نصوصها وتواريخها للتأكد من سلامتها وصحتها ، ومطابقتها للشروط الشرعية الواجب توافرها فى كل عقد أو تصرف حسب نوعه ، ثم يقومون بعد ذلك بمساعدة القاضى أو نائبه فى مجلس الحكم بالاشهاد عليها .

مرسى : نفس المرجع السابق ص ١١٥ ، فرج السنهورى : مجموعة القوانين المصرية المختارة من الفقه الاسلامى حـ ٢ - فى الوقف ١ - ص ٧٥ وكذلك انظر المراجع التالية :

Amiaud : *Traité-Formulaire, général Alphabetique et Raisonne du Notariat*, Paris 1935.
Charrier : *Le notariat Français* p. 22, 23.
Enc. Brit.art. *Notary*.

والواقع أن الموثقين فى العصر المملوكي لم يكونوا سوى القضاة وكتاب الحكم فى مجلس القضاء الذين يستعين بهم القضاة أو نوابهم فى عملهم القضائى ، كما كانوا يقومون ببعض أعماله الولائية أو الادارية بالنيابة عنهم باعتبارهم موظفون عموميون ومساعدون للقضاة Juges suppléants .

ويظهر أنه كان لكل قاض من القضاة الأربعة مجموعة خاصة من الكتاب من بين الشهود العدول فى مجلس حكمه ، وقد يكون بعضهم من أسرته أنظر سطر ١٨٢ ، ١٩٧ وكذلك التحقيقات رقم ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ - ويقومون بمساعدته فى أثناء التوثيق أو الاشهاد ثم القيام بناء على أمره بعملية التسجيل ، لان القاضى يحتاج إلى محافظة الدعاوى والبينات والاقرارات ، وهذه لا يمكن حفظها فلا بد من الكتابة ، وهو قد يشق عليه أن يكتب جميع ذلك بنفسه فى مجلس قضائه ، ومن ثم كان لا بد من كاتب أو أكثر يستعين به ، وينبغى أن يكون الكاتب الذى يساعد فى عملية التوثيق والقيام بالتسجيل عفيفاً صالحاً من أهل الشهادة — أى يشترط فيه ما يشترط فى العدول ، وأن تكون له معرفة بالفقه وأحكام الكتابة ، وأن يكون الكاتب عالماً بالمحاضر والسجلات ، منطبعا بعلم الدعاوى والقضاء ، قيما على حفظ

الشروط والعهود عارفاً بكتابة القيود ، وأمره أن يتسلم ما يخص أعماله من ديوان القضاء على ما ثبت فيه من الوثائق والسجلات .

ابن قاضى سماوه : جامع الفصولين جـ ٢ ص ٣٢٦

ومتى حضر الكاتب فى المجلس ينبغى أن يقعد بحيث يرى القاضى ما يكتبه وما يصنعه فإن ذلك أقرب إلى الاحتياط ، خوفاً من أن ينخدع بالرشوة فيزيد أو ينقص فى ألفاظ الشهادة أو غيرها ، هذا ولم يكن للقضاة قمطر فيما مضى إنما كان كاتب القاضى يحضر ومعه الكتب فى منديل ، وأول من جعل له القمطر بمصر محمد بن مسروق القاضى ( ١٧٧ — ١٨٤ هـ ) فكان يختمها فتودع فإذا جلس احضرت . الكندى : الولاة والقضاة ص ٣٩١ — ٣٩٢ ،

عرنوس : تاريخ القضاة ص ١٣٧ ، قراعة : الأصول القضائية ص ٢٢٥ ، وكذلك أنظر تحقيق رقم ٥١

٦٨ — هو الكاتب المجيد الشيخ أبو الفضل بن عبد الوهاب بن عبد اللطيف بن على السنباطى القاهرى الشافعى ويعرف بالأعرج ويسمى محمدا ، قرأ القرآن وجود الخط وبرع فيه وتكسب مع التصدى للتكتيب ، وناب فى الاشرفية وغيرها فى ذلك ، ومن المعروف أن وظيفة التكتيب قد وجدت فى بعض المدارس والخوانق المملوكية وكان أصحابها يعلمون الخط المنسوب للطلبة والصوفية على السواء . وثيقة الصفوى جوهر اللالا أوقاف ١٠٢١ ، وثيقة برسباى دار الكتب ٢٣٩٠ تاريخ ص ١٢ ، وجه وثيقة الغورى أوقاف ٨٨٣ سطر ١٥٤٥

وقد جلس أبو الفضل بعد وفاة أبيه فى دكانه بالشرب قليلا ثم تركها ، وهو بلا [illegible] أستاذ الكتاب ورأسهم ومرجعهم فى الربع الأول من القرن ١٠ هـ / ١٦ م ، فقد [illegible] من المصاحف المعتمدة رسما وكتابة وتحريراً ، ومن تحف الأدبيات والنفائس ، ومن آلا[illegible] الكتابة شيئاً كثيراً غالبها من كسبه فى الكتب وكتابة يده .

السخاوى : الضوء اللامع جـ ١١ ص ١٢٩ رقم ٤١٦ ، الغزى : الكواكب السائرة جـ ١ ص ٨٨ . وقد توفى إلى رحمة الله ليلة الاثنين ٢٨ ذى العقدة سنة ٩٢٥ هـ كما يذكر ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٥ ص ٣١٤ . وهو الذى نسخ كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك سنة ٨٨٠ هـ للسيفى يشبك من مهدى الدوادار الكبير . المقريزى : السلوك

جـ ٢ ص ٧١ حاشية ٣ . كما عثرت على مصحف بخط يده فى متحف الفن الاسلامى بالقاهرة تحت رقم ٥٦٧٦ وعليه النص التالى : « مرقوم بخط الفقير إلى الله تعالى ابى الفضل محمد الاعرج بن عبد الوهاب السنباطى فى سنة احدى عشرة وتسعماية وذهبه الفقير محمد بن ظهير الخطيب » وهذا المصحف معار الآن لمتحف الحضارة بالجزيرة .

وقد وقع تحت يدى فى أثناء دراساتى لمجموعات الوثائق المحفوظة فى أراشيف القاهرة بوزارة الأوقاف ومحكمة الأحوال الشخصية عدة وثائق بخطه منها وثيقة الغورى أوقاف ٨٨٣ ، وثيقة المصونة جان سوار محكمة ٢٥٥ ، وثيقة الشيخ عبد الرحمن المغربى محكمة ٢٤٦ ، وثيقة سبيل المؤمنين أوقاف ٨٨٤ ، وثيقة السيفى أزدمر من على باى محكمة ٢٤٠ ، ٢٤١ ، وثيقة السيفى طراباى محكمة ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٦٥ ، وثيقة أم الحسن بنت البلقينى محكمة ٢٧٣ ، وثيقة السيفى برقوق الناصرى محكمة ١٦٩ وثيقة أبو العباس أحمد بن الفوفور الشافعى محكمة ٢٢٧ وغيرها . وعلى الهامش الأيمن لهذه الوثائق عند مناطق التصاق الدروج نجد العلامة التى اتخذها شعاراً لنفسه وهى « اعتصمت بالله سبحانه ».

والحق أن أبا الفضل محمد الأعرج السنباطى كان من كتاب الوثائق المجيدين فى أواخر القرن ٩ هـ / ١٥ م وأوائل القرن ١٠ هـ / ١٦ م ، ويظهر أنه كان فقيها عالما بشروط صحة كتابة العقود والمحررات المختلفة على الوجه الأكمل ، فقد قام بكتابة وثائق وقف السلطان الغورى وغيرها من الوثائق السابق ذكرها ، كاملة الأركان ، مستوفية شروط الصحة الشرعية التى نص عليها الفقهاء . قراءة : مذكرة التوثيقات ص ٢ — ٤ ، ١٥ — ٣١ ، وكما قام بكتابة وجه الوثيقة فقد قام بالشهادة عليها عند التوثيق أمام قضاة القضاة الأربعة ، هذا ولا يمنع من قبول شهادة العدول كتابة الوثيقة ، فتقبل شهادة الكاتب حيث كان عدلا . الفتاوى المهدية جـ ٣ ص ٣٢٢ .

ويلاحظ أنه وقع كشاهد عقب شهادته فى الاسجالات الأربعة باسمه الذى اشتهر به ، كما أنه لم يكتب المذهب الذى ينتمى إليه كغيره من الشهود أحيانا . بحثنا هذا ص ٣١٢ .

٦٩ — لم أتمكن من قراءة بقية توقيع الشاهد ، فهو مكتوب بطريقة معقدة جداً فى الأصل رقم ٨٨٣ ، وطريقة توقيع الشاهد تشبه لحد كبير الطريقة التى اتبعها كثير من الشهود عند التوقيع على جل وثائق العصر العثمانى فى كل من القرن ١٦ ، ١٧ ، ١٨ م .

هذا ولم يتمكن الشيخ محمد افندى بن محى الدين افندى بن الياس الشهير بجوى زاده القاضى العثمانى الذى تولى القضاء فى مصر سنة ٩٨٧ هـ من قراءة هذا التوقيع كذلك، فترك مكانه بياضا فى الصورة رقم ٨٨٢ التى نسخت من الأصل رقم ٨٨٣ بعد كتابته بحوالى ست وسبعين سنة ولم يكن لون الحبر قد امحى أو كاد كما هو الحال اليوم. أنظر لوحة رقم ٤.

٧٠ — الشهاب شعلة نار ساطعة، وكان لفظ شهاب يدخل فى تكوين بعض الألقاب المركبة مثل شهاب الدين، وكان هذا اللقب يطلق فى الزمن الأول من عصر المماليك على بعض القضاة والعلماء خصوصا من كان يتسمى منهم بأحمد، ويظهر أن استعماله قد استمر حتى نهاية عصر المماليك، ويعرف هذا النوع من الألقاب المضافة إلى الدين فى مصطلح القلقشندى «بلقب التعريف الخاص».

والشهابى هى الصيغة المنسوبة لهذا اللقب بحذف لفظ الدين وإضافة «ياء النسبة» إلى اللفظ الأول. حسن الباشا ص ١٠٤، ١٤١ وما بعدها وكذلك ص ١٥٢، ٣٦١.

٧١ — العمدة فى اللغة ما يعتمد عليه، وقد أضيف إلى لفظ «عمدة» بعض كلمات لتكوين ألقاب مركبة مثل عمدة الأحكام، عمدة الأمام، عمدة الانام، عمدة الملوك، عمدة الملوك والسلاطين، عمدة المحققين سطر ٨٠، عمدة الحساب والفرضيين سطر ٢٠٨ — واللقبان الأخيران بالذات لم يردا فى حسن الباشا ص ٤٠٨ — ٤٠٩ ولا فى القلقشندى: صبح الأعشى جـ ٦ ص ٦٠ — ٦١. وعلى هذا فالوثيقة تقدم لنا هذين اللقبين وغيرهما من الألقاب الفخرية التى لم ترد فى مصطلح القلقشندى ولاغيره، وهى بذلك تسهم فى تعريفنا بعدد من الألقاب الجديدة فى أواخر عهد المماليك فى مصر والشام.

والمقصود بعمدة المحققين أن صاحب اللقب وهو قاضى القضاة أبو حامد أحمد الشيشينى الحنبلى يعتمد عليه فى تقصى حقيقة ما يعرض عليه من قضايا للفصل فيها. أنظر تحقيق رقم ١٧.

٧٢ — هو الشيخ شهاب الدين أحمد بن على بن أحمد الشيشينى المصرى الحنبلى، ولد فى سنة ٨٤٤ هـ، وكان حجة فى مذهبه من أهل الفضل والعلم، تولى قضاء الحنابلة بمكة فى شوال سنة ٨٩٩ هـ زمن السلطان قايتباى، وفى عهد ابنه الناصر محمد تولى منصب قاضى قضاة الحنابلة فى مصر فى ربيع آخر سنة ٩٠٣ هـ، وقد حضر المجلس الذى بايع فيه الخليفة

العباسى المستمسك بالله يعقوب الظاهر أبوسعيد قانصوه بالسلطنة فى ربيع أول سنة ٩٠٤هـ ، وقد صرفه السلطان أبو سعيد قانصوه مدة قصيرة عن منصبه ثم أعاد إليه بعد شهر وأربعة أيام ، وقد شهد ابن الشيشينى الحنبلى حكم ستة من سلاطين المماليك الجراكسة فى أسوأ فترة من حياة الدولة المملوكية الثانية ، واسهم فى عزل وتولية بعض سلاطينها فقد اشترك فى خلع الظاهر قانصوة وتولية الأشرف جانبلاط فى ذى الحجة سنة ٩٠٥ هـ ، وكذلك وافق على خلعه وتولية العادل طومان باى فى جمادى الآخرة سنه ٩٠٦ هـ ، وفى يوم الاثنين أول شوال من السنة نفسها كتب صورة محضر خلع العادل طومان باى وعقد البيعة للاشرف الغورى .

وقد حضر قاضى القضاة الحنبلى افتتاح المدرسة الغورية فى مستهل ربيع آخر سنة ٩٠٩ هـ ، وتوفى يوم الأربعاء ٧ صفر سنة ٩١٩ هـ وكان قد شاخ وكبر سنه وناف على السبعين ، وقد مات مطعوناً — أى بالطاعون — وصلى عليه فى الجامع الأزهر ، وكانت له جنازة حافلة ، وتولى من بعده قضاء الحنابلة ولده عز الدين محمد فى يوم السبت أول ربيع أول سنة ٩١٩ هـ بعد أن دفع للغورى فى هذه الوظيفة ألف دينار ، وكان شاباً حسن السيرة لا بأس به على حد قول ابن اياس المؤرخ المعاصر .

ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٣ ص ٢٩٧ ، ٣٥٣ — ٣٥٤ ، ٣٧٤ ، ٣٩٥ ، ٤٠١ ، ٤٢٠ ، ٤٥٦ ، جـ ٤ ص ٤ ، ٥٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٥ ، جـ ٥ ص ٩٠

الغزى : الكواكب السائرة جـ ١ ص ١٥١ ، ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب جـ ٨ ص ٩١

٧٣ — المعروف أنه لا يجوز للقاضى أن يقضى بشهادة أو إقرار صدرا عن قاض آخر ، بل لا بد أن تعاد الشهادة والاقرار أمامه ، ويقضى بما يثبت عنده هو لا بما ثبت عند غيره . قراعة : الأصول القضائية ص ٢١٧ — ٢١٨

والواقع أن هذا هو الذى حدث فعلا فى الاشهادات الثلاثة الأخيرة وهى الاسجالات التنفيذية فى أيام مختلفة أمام كل من قاضى القضاة الحنبلى والمالكى والشافعى على التوالى . فقد ورد فى اسجال كل منهم :

« ...... ثبت عنده ..... بشهادة من اعلم له ...... » أنظر نص الاشهادات سطر ٨٧ — ٨٨ ، ١٥٤ — ١٥٥ ، ٢١٩ — ٢٢١

ومعنى هذا أنه قد حدث الثبوت الشرعى عند كل قاض منهم بشهادة من أعلم أو أنهى إليه من الشهود العدول ، لا بما ثبت عند القاضى الأول الحنفى . ويظهر أن الذين تحملوا مهمة الاعلام أو الانهاء بالشهادة هم كل من الشهود العدول موسى بن عبد الغفار المالكى وعبد الكريم ابن على الجولى الشافعى وأبو الفضل محمد الأعرج ، وربما اشترك معهم فى ذلك أيضاً سعد ابن إبراهيم الطيبى ، لأننا وجدنا شهادة وتوقيع كل منهم فى الاسجالات الأربعة دون غيرهم — أنظر بحثنا هذا ص ٣١٢ ، الجدول رقم ٢

٧٤ — نفذ الأمر قضاه ، والنافذ الماضى فى جميع أموره ـ قاموس المحيط مادة « النفاذ » والتنفيذ هنا معناه الالزام بالحبس وهو غير الثبوت والحكم ، إذ يأتى ثبوت الشىء أولا ثم الحكم به ثانياً ثم تنفيذه ثالثاً . أنظر بحثنا هذا تحقيق رقم ٥٨ ، على بدوى : تطور المبادىء القانونية عند العرب ( مجلة القانون والاقتصاد السنة الأولى عدد ٣ ) ص ٣٥٠ ، صوفى حسن : مبادىء تاريخ القانون ص ٢٥٨

والمعروف أن القوة التنفيذية فى عصر المماليك كانت بيد الحاكم ( القاضى ) عكس ما هو حادث اليوم من فصل القوة الحكمية عن القوة التنفيذية ، وقد حدث ذلك عندما بدأ انفصال السلطة التنفيذية عن السلطه القضائية وأضحى التنفيذ بواسطة السلطة الادارية طبقاً لأحكام لوائح المحاكم الشرعية .

جعيط : الطريقة المرضية ص ٢٤٤ ، عرنوس : تاريخ القضاء ص ١٥٠ ، ٢٠٣ — ٢٠٦ .

هذا وتنفيذ القاضى حكم القاضى السابق والالزام به أمر واجب ، وإلا فان توقفه عن انفاذه كابطاله ، وهو ممنوع من نقض الأحكام المجتهد فيها ، فالقاضى الحنفى إذا حكم بصحة الوقف فان القاضى الحنبلى أو المالكى يحكم بمثل ما حكم به القاضى الحنفى من الصحة ، ويعلل حكمه بأن حكم الحاكم ( القاضى ) يرفع الخلاف ويجعل حكم تلك الجزئية الخاصة الصحة عند الجميع . جعيط : نفس المرجع ص ٢٢٤ — ٢٢٥ .

ومن المستقر عليه كذلك أنه إذا رفع إلى القاضى حكم قاض آخر حتى ولو كان مخالفاً له فى المذهب ، نفذه وأمضاه بشروطه المذكورة فى كتب الفقه ، والزم المحكوم عليه بما تضمنه الحكم الأول ، لأن الحكم واحد وهو الحكم الأول إلا ما خالف كتاب الله أو سنة رسوله أو إجماعا ، وهذا هو التنفيذ الشرعى فى الأصل . عرنوس : نفس المرجع ص ١٤٥ ــ ١٥٠ .

والمعروف أن التنفيذ الشرعى الأصل فيه أن يكون حكما ، إذ أن من صيغ القضاء قوله : « انفذت عليك القضاء » ابن عابدين : رد المحتار جـ ٤ ص ٣١٠ .

والغرض من التنفيذ هو إجراء مقتضى العقد الرسمى ، ولا بد أن يكون السند ( وثيقة الوقف ) واجب التنفيذ بمعنى أن يكون مراعياً فى تحريره الضوابط المقررة شرعا بواسطة كاتب مختص بتحرير العقود أو الوثائق على إختلاف أنواعها ، ذلك أنه لا بد أن تكون هناك ثمرة من القيام بالعمل القانونى وتحرير الوثيقة وما حوته من تصرف والتزامات وشروط ، وهذه الثمرة إنما هى الحكم ، وثمرة الحكم التنفيذ ، فهو إذن غاية الغايات ، ويترتب على التنفيذ تمام الفعل القانونى ولزومه وانبرامه .

والمعروف كذلك أن السلطتين القضائية والتنفيذية كانتا متداخلتين فى بعضهما فى العصر الوسيط ومن ثم كان حكم القاضى نافذا من الناحية القضائية والادارية فى آن واحد . قمحة : التنفيذ علما وعملا ص ١ — ٢ ، ١٨ ، بحثنا هذا ص ٢٢٦ — ٢٢٨ .

والتنفيذ فى الاشهاد الثانى هو تنفيذ حكم القاضى السابق ( سطر ٣٦ — ٣٧ ) ، أى أن القاضى الحنبلى ( الثانى ) نفذ حكم القاضى الحنفى ( الأول ) تنفيذاً صحيحا شرعيا تاما ( سطر ١٠٠ - ١٠٥ ) بعد أن ثبت عنده ذلك بشهادة الشهود المزكين القابلين للشهادة ، وذلك بعد أن أعلموا له أو انهوا إليه ( الانهاء بالشهادة ) بما نسب إلى القاضى الحنفى ( الأول ) فى إشهاده أو إسجاله الحكمى من الثبوت والحكم بصحة الوقف ولزومه وانبرامه ونفوذه ( سطر ٨٧ — ٩٠ ، ٩٨ — ٩٩ ) جعيط : نفس المرجع ص ٢٢٨ .

والتنفيذ هنا معناه شهادة شهود مجلس الحكم عند قاض آخر ( الحنبلى ) بما نسب إلى القاضى الأول ( الحنفى ) الحاكم فى اسجاله الحكمى ، وهذا يسمى فى الحقيقة إثباتا إذ ليس فى التنفيذ حكم البته ، أى إحاطة القاضى الحنبلى ( الثانى ) علماً بحكم القاضى الحنفى ( الأول ) بصحة الوقف ولزومه على وجه التسليم له وأنه غير معترض عنده ، ويسمى هذا اتصالا ، ويجوز بذكر الثبوت والتنفيذ فيه . عرنوس : تاريخ القضاء ص ١٤٧

أما التنفيذ فى الاشهاد الثالث والرابع ، فهو تنفيذ للتنفيذ السابق عليه ، فالقاضى المالكى نفذ تنفيذ القاضى الحنبلى ( سطر ١٦٥ - ١٦٧ ) والقاضى الشافعى نفذ تنفيذ القاضى المالكى ( سطر ٢٣٢ - ٢٣٥ ) .

أى أن القاضى المالكى (الثالث) نفذ تنفيذ القاضى الحنبلى (الثانى) تنفيذاً صحيحاً شرعياً تاماً بعد أن ثبت عنده ذلك بشهادة الشهود المزكين القابلين للشهادة ، وذلك بعد أن اعلموا له أو انهوا إليه بجميع ما نسب إلى القاضى الحنبلى فى اسجاله التنفيذى من الثبوت والتنفيذ .

والتنفيذ هنا معناه شهادة الشهود عند القاضى المالكى بما نسب إلى القاضى الحنبلى المنفذ فى اسجاله التنفيذى من الثبوت والتنفيذ ، أى إحاطة القاضى المالكى علما بتنفيذ القاضى الحنبلى على وجه التسليم له وأنه غير معترض عنده ويسمى هذا أيضا اتصالا . وهكذا الحال فى الاسجال الرابع والأخير . أنظر بحثنا هذا ص ٣٠٢ ـ ٣٠٤

ومن المحتمل أن نقول إن كل اشهاد من الاشهادات الثلاثة الأولى عبارة عن خطاب أو كتاب من القاضى إلى القاضى التالى له ، بمعنى أنه اخبار من القاضى السابق للقاضى اللاحق بما ثبت عنده وحكم به أو نفذه ، ويكون ذلك عن طريق الانهاء بالاشهاد ، ومعناه أن يشهد الشهود بأنه حكم أو نفذ بعد أن ثبت عنده كذا ، ثم ينهى هؤلاء الشهود بذلك إلى قاض آخر . انظر سطر ٨٨ — ٩٠ ، ٩٨ — ١٥٤ — ١٥٦ ، ١٦٣ — ٢١٩ — ٢٢٢ ، ٢٣٠ . أو أن يكتب قاض إلى آخر بما ثبت عنده ويشهد شاهدين أو أكثر على كتابه ، والشهود هنا يشهدون بأن الحكم ثبت عنده وتقرر ، هذا ويعتبر العدد فى الشهود .

كما يقبل كتاب القاضى إلى القاضى فى الأحكام والحقوق بمجرد معرفة خط القاضى ( علامته وهى الحمدلة ) والتاريخ دون الشهادة على ذلك ، وكذلك قيل لا بد من الشهادة .

جعيط : الطريقة المرضية ص ٢٢٦ — ٢٢٩ ، انظر أيضا الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية جـ ١ ص ١٥ حاشية ١ .

وكتاب القاضى إلى القاضى يعتبر حجة شرعا فى المعاملات على خلاف القياس ، لأن الكتاب قد يفتعل أو يزور ، ولكن إنما يقبله القاضى المكتوب إليه عند وجود شرائطه ، ومن جملة الشرائط البينة ( شهادة الشهود ) حتى أن القاضى المكتوب إليه لا يقبل كتاب القاضى ما لم يثبت بالبينة أنه كتاب القاضى .

الكاسانى : بدائع الصنائع ج ٦ ص ٢٨١ ، ج ٧ ص ٨ ، السيواسى : فتح القدير ج ٥ ص ٤٨٣ ، الزيلعى : تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق ج ٤ ص ٢٤١ ، الفتاوى العالمكيرية ج ٣ ص ٣٨١ ، السرخسى : المبسوط ج ٢٦ ص ٩٥ وما بعدها .

احمد ابراهيم : طرق القضاء ص ٣٩١ — ٣٩٣ ، عرنوس : تاريخ القضاء ص ١٧٢ — ١٧٤ .

٧٥ — العمدة ـ أنظر التحقيق رقم ٧١

٧٦ — هذه إشارة لطيفة من الكاتب الموثق عند تصديقه على توقيع الشاهد العدل موسى بن عبد الغفار المالكى ، إذ أنها تشير إلى أن الشاهد كان مريضا فى ذلك الوقت (١٣ ربيع أول سنة ٩١١ هـ) ، وقد توفى فعلا بعد ذلك بمدة قصيرة فى السنة التالية يوم الجمعة ٢٥ رجب سنة ٩١٢ هـ . أنظر ترجمته فى التحقيق رقم ٦٥ . وكذلك أنظر التحقيق رقم ٦٧

٧٧ — لعل هذا هو اسم الشاهد ، وقد وضعته بين حاصرتين لعدم تمكنى من قراءة توقيعه قراءة نهائية قاطعة ، فقد قام الشاهد بكتابة اسمه بطريقة تصعب قراءاتها ، هذا إلى جانب تآكل بعض الحروف فلا أثر لها بتاتاً ، كما أن لون الحبر كاد يذهب من بقية الحروف تماماً .

٧٨ — هو الشيخ برهان الدين ابراهيم الدميرى المالكى ، كان من نواب المالكية فى عهد السلطان قايتباى ، وولاه الغورى فى ٨ جماد أول أو ربيع ثانى سنة ٩٠٧ هـ قضاء المالكية قاضيا للقضاة بعد وفاة أخيه عبد الغنى بن تقى الدميرى المالكى .

وكان برهان الدين عالما فاضلا ، دينا خيرا ، لين الجانب كثير التواضع ، انتهت إليه رئاسة المالكية فى عصره ، ولم يكن فى شيوخ المالكية من هو أعلى منه على الاطلاق ، وشغل منصب القضاء مدة ست سنين وستة أشهر إلا أياما . وكان عليما بأحكام مذهبه متمكنا فيه ، نادرة عصره فى الخط الجيد والعبارة الحسنة ، وكان عارفا بالاحكام الشرعية ، توفى يوم الأربعاء ٢٣ رمضان سنة ٩١٣ هـ ببيته بالقرب من المدرسة الصالحية النجمية بخط بين القصرين بالقاهرة ، وتولى منصبه من بعده ابنه محى الدين يحيى الدميرى .

ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٣ ص ٢٨٩ ، حـ ٤ ص ٢١ ، ٤٩ ، ١٢٦ - الغزى : الكواكب السائرة حـ ١ ص ١٠٩ - ١١٠ ، ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب حـ ٨ ص ٦٠

وقد وردت علامته « أحمد الله شاكرا لانعمه » بنفس الخط فى بعض الوثائق ومنها وثيقة الست تتر زوجة السيفى تغرى بردى محكمة ١٤٨ ، وثيقة السيفى تغرى بردى بن عبدالله الأحمدى محكمة ١٥٢ ، وثيقة السيفى تمر باى بن عبد الله المحمدى أوقاف ١٠١٨ ، وثيقة قراجا بن عبد الله الجمالى محكمة ١٨٤ ، وثيقة الجمالى يوسف ناظر الخواص الشريفة محكمة ١٠٥

٧٩ — هو الشيخ محى الدين يحيى بن ابراهيم الدميرى المالكى ، قرره السلطان الغورى قاضيا للقضاة فى يوم السبت ١٧ شوال سنة ٩١٣ هـ بعد وفاة والده السابق ترجمته فى التحقيق رقم ٧٨ . وكان شابا حسن السيرة له اشتغال بالعلم ، نبغ فى البحث والدرس فى بيئة علمية وأسرة قضائية ، ولم يستكثر عليه أحد ذلك فخضعت له المالكية قاطبة . وفى محرم سنة ٩١٨ هـ قرره الغورى فى وظيفة الخطابة بجامعه ( مدرسته ) بالشرابشيين ، وبعد ذلك بقليل عزله الغورى فى ٨ ذى القعدة سنة ٩١٩ هـ عند ما أعفى القضاة الأربعة من مناصبهم .

ولكنه ما لبث أن أعاده إلى منصب قاضياً لقضاة المالكية فى يوم الخميس ١٤ رمضان سنة ٩٢١ هـ بعد أن سعى فى سبيل ذلك بالفى دينار .

وقد خرج مع الغورى إلى مرج دابق فى ربيع الآخر سنة ٩٢٢ هـ ، وأسره السلطان سليم فى حلب بعد هزيمة المماليك ، ثم عاد إلى القاهرة مع الخليفة المتوكل العباسى يوم الجمعة آخر ذى الحجة سنة ٩٢٢ هـ ، وقد خلع عليه السلطان سليم يوم الأربعاء ١١ صفر سنة ٩٢٣ هـ أعاده إلى منصبه فى قضاء المالكية ، وأرسله إلى الأشرف طومان باى فى صعيد مصر ( البهنسا ) إبان المفاوضات الفاشلة التى دارت بينهما ، ولكنه عاد دون نتيجة فى أوائل ربيع الآخر سنة ٩٢٣ هـ ، وقد حج فى نفس العام وعاد بعد أن قاسى مشقة كبيرة ، وكان بينه وبين قاضى القضاة نور الدين الطرابلسى سوء نفس وخصام .

وكان يحيي الدميرى من المقربين عند ملك الأمراء خاير بك من مال باى ، وكان ملازما له فى أسفاره ، كما كان يحضر مجلس محا كاته فى كل يوم سبت ، ورأى فى أيامه غاية العز والعظمة ، ولم تكن ترد له شفاعة عنده ، وكان يحيي الدميرى صهراً للرئيس شمس الدين محمد بن القوصونى الطبيب المعروف .

وقد بطل عمله كقاض لقضاة المالكية فى مصر عندما قدم قاضى العسكر سيدى چلبى العثمانى وتقرر الغاء نظام المذاهب الأربعة ، وصار له التكلم فى الأحكام الشرعية على المذاهب واتخذ مجلس حكمه فى المدرسة الصالحية النجمية ، وهكذا كان قاضى القضاة محى الدين يحيي الدميرى آخر عميد للمذهب المالكى فى مصر المملوكية .

ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٤ ص ١٢٧ — ١٢٨ ، ٢٥٥ ، ٢٦٨ ، ٣٥٠ ، ٤٧٧ جـ ٥ ص ٣٩ ، ٧٢ ، ١٠٢ ، ١٤٤ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٧٧ ، ٢١٤ ، ٢٣٤ ، ٢٧٧ ، ٣٤٠ ، ٣٥٥ ، ٤٥٤ . الغزى : الكواكب السائرة جـ ١ ص ٣١٣ .

وقد كان قبل ولايته القضاء من بين شهود مجلس والده قاضى القضاة إبراهيم الدميرى المالكى عند الاشهاد على وثيقة وقف الغورى — انظر شهادته وتوقيعه سطر ١٠١ — ١٨٢ ، شكل ١٠ مكرر .

والمعروف أن أبناء العلماء والرؤساء تثبت عدالتهم على الحكام ، ويحكم الحاكم ( القاضى ) بعدالة من تثبت عدالته لديه ، ويسجل له إسجالا بذلك ويشهد عليه . القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١٤ ص ٣٤٦ — ٣٤٩ .

٨٠ — هذا الشاهد أيضا من أسرة الدميرى ، فهو ابن الشيخ العالم الفاضل عبد القادر ابن احمد بن محمد بن احمد بن على بن تقى الدميرى المالكى قاضى قضاة المالكية زمن الأشرف قايتباى والمتوفى فى ذى الحجة ٨٩٥ هـ . وابراهيم بن عبد القادر الدميرى من أسرة كبيرة ، تولى عدد من أبنائها وظيفة القضاء ، فقد كان أبوه قاضيا لقضاة المالكية ومن بعده عمه عبد الغنى ثم عمه ابراهيم ثم ابن عمه يحيي وقد سبق ترجمة كل منهما فى التحقيق رقم ٧٨ ، ٧٩ . ابن اياس : نفس المصدر السابق جـ ٣ ص ٢٧٠ — ٢٧١ ، جـ ٤ ص ٢١ .

ولا غرابة فى أن يقوم صاحبنا بالشهادة هنا فقد سبق أن أوضحنا أن يحيي بن ابراهيم الدميرى كان من بين الشهود على إشهاد والده — انظر التحقيق السابق .

وهذه الشهادة وتلك — أعنى شهادة يحيى بن ابراهيم الدميرى وابراهيم الدميرى وابراهيم بن عبد القادر الدميرى — توضح لنا أن مجلس القضاء فى عصر المماليك كان يجمع أحيانا عدداً من الشهود العدول أو من كتاب الحكم الموثقين من أصحاب الثقافة الشرعية من أسرة القاضى نفسه ، وقد ثبت أن بعضهم كان يصل عن هذا الطريق إلى منصب نيابة القضاء أو منصب قاضى القضاة ، ولعل هذا كان هو الطريق الطبيعى للتدرج فى سلم الوظائف القضائية فى العصر المملوكي .

٨١ — الهمام من ألقاب أرباب السيوف فى عصر المماليك ، والمراد به الشجاع . حسن الباشا ص ٥٣٧ ، القلقشندى : نفس المصدر جـ٦ ص ٣٤ . ومما يلفت النظر ، إطلاق هذا اللقب العسكرى « الليث الهمام » على قاضى القضاة ابن الفرفور الشافعى ، وهو من أرباب العمائم — انظر تحقيق رقم ٩ . وربما رجع ذلك إلى التقاليد المتبعة فى التلقيب فى عصر المماليك . حسن الباشا ص ٢٧٠ — مادة « الخاشع » .

٨٢ — الأوحد : هذا اللقب حدث تفاوت كبير فى استعماله فى عصر المماليك ، فقد كان يرد ضمن الألقاب السلطانية وكذلك كان يطلق على صغار الكتاب الذين تثبت الياء فى ألقابهم . وقد دخل فى تكوين ألقاب مركبة كثيرة مثل أوحد الكتاب ، أوحد المجاهدين ، أوحد العلماء ، أوحد الأمناء المقربين ، أوحد الفضلاء وغيرها ، والمضاف إليه فى اللقب المركب يشير عادة إلى وظيفة الملقب التى قد تكون من وظائف العسكريين أو المدنيين أو رجال العلم وأهل الصلاح .

واللقب يشير إلى أن صاحبه فى درجة رفيعة بالنسبة لأفراد الطائفة التى ينتمى إليها وذلك يرجع إلى معنى الانفراد به ، فقد ورد بصيغة أفعل التفضيل — حسن الباشا ص٢١٧ — ٢١٩ .

٨٣ — الخاشع فى اللغة الخاضع المتذلل إلى الله تعالى ، وكان اللقب يطلق فى عصر المماليك على كل من اتصف بالصلاح من المدنيين والعسكريين ، وإن كان بالصوفية أخص .

وكان هذا اللقب يطلق على نائب الشام عموما على ما فى ذلك من غرابة إلا أن ذلك جاء نتيجة للتقاليد المتبعة فى التلقيب فى العصر المملوكي ، وفضلا عن ذلك كان هذا اللقب يستعمل كذلك لرؤساء النصارى كالباب والبطاركة وذلك لمناسبته لهم . حسن الباشا ص٢٧٠ . وما به من مراجع .

٨٤ — الناسك من ألقاب الصوفية وأهل الصلاح ، ومعناه العابد أخذاً من النسك بمعنى العبادة ، وربما لقب به أرباب السيوف والأقلام الصالحين .

القلقشندى : صبح الأعشى ج ٦ ص ٣٢ .

٨٥ — القدوة بمعنى الأسوة ، وهو من ألقاب العلماء والصلحاء ، وكان يضاف للفظ أحيانا بعض الكلمات لتكوين ألقاب مركبة مثل قدوة العلماء ، قدوة الأولياء ، قدوة البارعين ، قدوة العباد ، قدوة البلغاء وغيرها .

وفى هذه الألقاب وأمثالها يشير اللقب إلى أن الملقب ببروزه يعتبر أسوة لأهل الطائفة المبنية فى المضاف إليه . حسن الباشا ص ٤٣٠ .

٨٦ — الماضى من المضى الذهاب أو المضاء والنفاذ . حسن الباشا ص ٤٤٣ ، والمقصود باللقب المركب « ماضى النقض والابرام » هنا أن صاحبه كان نافذ الأحكام باعتباره قاضيا للقضاة . ولم يرد هذا اللقب المركب فى ألقاب بقية القضاة كما لم يرد فى الباشا ولا القلقشندى .

٨٧ — بقية المجتهدين : هذا اللقب المركب لم يرد فى حسن الباشا ولا فى القلقشندى ، ولعله من الألقاب التى ظهرت فى أواخر العصر المملوكى ، والتى كان ينعت بها العلماء والقضاة خاصة . واللقب يشير إلى أن صاحبه هو بقية المشتغلين بالاجتهاد ، لأن وظيفة الملقب به كانت القضاء ، وهو كقاض للقضاة يشترط فيه الاجتهاد فى تفسير الأحكام والمقارنة بين النصوص والآراء والحوادث ، ومما لا شك فيه أن الاجتهاد شرط الأولوية فى التعيين فى منصب القضاء شرعا . انظر التحقيق رقم ٢٤ ، ٦٠ وما بهما من مصادر .

وهكذا تقدم لنا هذه الاشهادات لقباً جديداً من الألقاب الفخرية المركبة لأحد قضاة القضاة فى أواخر عصر المماليك .

٨٨ — لقب إمام من الألقاب المعروفة — انظر تحقيق رقم ١٢ ، أما هذا اللقب المركب بالذات « إمام النقلة والمفسرين » فلم يرد فى حسن الباشا ص ١٦٦ — ١٧٩ ولا فى القلقشندى ج ٦ ص ٣٨ ، ولعل المقصود به أن صاحبه كان إماماً للمشتغلين بالعلوم النقلية عامة والتفسير خاصة ، وأصل هذه العلوم النقلية الوضعية كلها — على حد قول ابن خلدون — هى الشرعيات من الكتاب والسنة التى هى مشروعة لنا من الله ورسوله

وأصناف العلوم النقلية كثيرة أهمها علم التفسير . ابن خلدون : المقدمة ص ٤١٢ . ويظهر أن قاضى القضاة ابن الفرفور الشافعى قد برع فى هذه العلوم النقلية والتفسير خاصة . السخاوى : الضوء اللامع جـ ٢ص ٢٢٢ ، انظر ترجمته تحقيق رقم ٩٨ . وهذا لقب جديد أيضا تقدمه لنا الوثيقة .

٨٩ — لم يرد هذا اللقب المركب بالذات فى حسن الباشا ولا فى القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٦ ص ٧١ ولكن ورد فى القلقشندى : نفس المصدر جـ ٦ ص ٣٢ « اللاذى » وهو منسوب إلى اللاذ بمعنى الملجأ . ولعل من المقصود بالغرباء والمنقطعين هنا الصوفية الغرباء الفقراء الواردين من الآفاق ومختلف أنحاء العالم الاسلامى كما تذكر لنا كثير من وثائق عصر المماليك — انظر وثيقة بيبرس الجاشنكير محكمة ٢٣ ، وثيقة برسباى أوقاف ٨٨٠ ص ٣٣ ، وثيقة خشقدم محكمة ٩٠ ، بحثنا دراسات تاريخية وأثرية فى وثائق من عصر الغورى ( تحت الطبع ) .

٩٠ — كهف الملة من ألقاب أكابر الرجال العسكريين من أرباب السيوف كنواب السلطنة وغيرهم . حسن الباشا ص ٤٤٠ ، والغريب أن ينعت به شيخ معمم هو قاضى القضاة ابن الفرفور الشافعى . انظر الفقرة الأخيرة من التحقيق رقم ٩ .

٩١ — الغياث فى اللغة اسم من استغاثنى فأغثته ، وأصله الغواث ثم قلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها ، وتستعمل النسبة إليه « الغياثى » كلقب فخرى للعسكريين خصوصا الملوك . وكان اللفظ يضاف إلى بعض كلمات لتكوين ألقاب مركبة مثل غياث الأنام ، غياث الملهوفين ، حسن الباشا ص ٤١٣ — ٤١٥ . وهذا اللقب الأخير الذى تقدمه لنا الوثيقة لم يرد فى القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٦ ص ٦٢ ولا الباشا ص ٤١٣ — ٤١٥ .

٩٢ — محط رحال الوافدين : هذا اللقب المركب بالذات لم يرد فى القلقشندى ولا فى حسن الباشا ، انظر تحقيق رقم ٢٢ ، ٣٥ .

٩٣ — رجاء القاصدين : هذا اللقب المركب بالذات لم يرد فى القلقشندى ولا فى حسن الباشا ، والألقاب الجديدة السالف ذكرها فى التحقيقات رقم ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ نعت بها قاضى القضاة ابن الفرفور الشافعى دون بقية القضاة وذلك لما اتصف به من الكرم وحسن العشرة كما تذكر المصادر المعاصرة — انظر ترجمته فى التحقيق رقم ٩٨ .

٩٤ — رئيس المملكتين : هذا اللقب بالذات لم يرد فى القلقشندى ولا فى حسن الباشا . أما الرئيس فهو من الرياسة وهى رفعة القدر وعلو الرتبة ، وقد أطلق اللقب فى عصر المماليك على أرباب الأقلام من العلماء والكتاب ، كما كان لقباً عاماً على الرئيس الدينى لطائفة اليهود . وقد دخل لفظ الرئيس فى تكوين بعض الألقاب المركبة مثل رئيس الرؤساء ، رئيس الكبراء . حسن الباشا ص ٣٠٨ — ٣٠٩ .

ولعل المقصود برئيس المملكتين أن صاحبه وهو قاضى القضاة ابن الفرفور كانت له رئاسة المذهب الشافعى فى كل من المملكة المصرية والمملكة الشامية ، فقد جمع ابن الفرفور فعلا فى عهد الغورى بين قضاء مصر والشام فى وقت واحد فى يوم الخميس ٤ ربيع أول سنة ٩١٠ هـ ، واستمر فى هذا المنصب الكبير حتى وفاته . انظر ترجمته فى التحقيق رقم ٩٨

٩٥ — صاحب الولايتين : هذا اللقب لم يرد أيضاً فى حسن الباشا ولا فى القلقشندى . والصاحب من الألقاب الدالة على الوظيفة دلالة خاصة ، وكان كتاب الانشاء بالشام يلقبون العلماء وقضاة القضاة بالصاحب ، وقد أضيف إلى لفظ « صاحب » كثير من أسماء الممالك والبلاد والقلاع للدلالة على الملكية بمعنى السيادة . حسن الباشا ص ٣٦٧ — ٣٧٦

والمقصود بذلك أن صاحبه قد صارت له السيادة فى قضاء الشافعية فى كل من مصر والشام ، ويوضح لنا هذه الحقيقة ما ورد فى السطر ٢١٢ ونصه :

« . . . الناظر فى الاحكام الشرعية بالديار المصرية والمملكة الشريفة الشامية وساير الممالك الاسلامية . . . . . . » على العكس من ألقاب قضاة القضاة الثلاثة السابقين ونصها : « . . . الناظر فى الاحكام الشرعية بالديار المصرية وساير الممالك الشريفة الاسلامية . . . » سطر ٢٣ - ٢٤ ، ٨٢ ، ١٤٩ - ١٥٠

٩٦ — خطيب الخطباء من ألقاب أكابر الخطباء ، وربما كتب به لقاضى القضاة إذا أضيفت له خطابة جليلة كخطابة جامع القلعة بالديار المصرية وخطابة الجامع الأموى بدمشق.

القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٦ ص ٤٧

والوثيقة توضح لنا حقيقة جديدة — بورود هذا اللقب ضمن ألقاب قاضى القضاة الشافعى — وهى أن الذى يتولى الخطابة فى جامع السلطان فى أواخر عصر المماليك كان ينعت بهذا اللقب أيضاً .

وكان ابن الفرفور الشافعى قاضى قضاة دمشق أول من خطب فى المدرسة الغورية وذلك عند افتتاحها يوم الجمعة مستهل ربيع آخر سنة ٩٠٩ هـ ، وكان المرقى أمامه القاضى عبد القادر القصروى ، وحضر فى ذلك اليوم الخليفة المستمسك بالله يعقوب والقضاة الأربعة برهان الدين بن أبى شريف الشافعى وابن الشحنة الحنفى والدميرى المالكى والشيشينى الحنبلى وكبار الأمراء والأعيان وابن السلطان . ورغم أن خطبة ابن الشحنة الحنفى فى الجمعة التالية كانت أبلغ وأميز من خطبة ابن الفرفور الشافعى على حد قول ابن اياس المؤرخ المعاصر إلا ان اللقب أطلق على ابن الفرفور فقط ولم يرد فى القاب ابن الشحنة ، ولكن يلاحظ أن ابن اياس كان حنفى المذهب . ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٤ ص ٥٨ ـ ٥٩

٩٧ ـ أمام الفصحاء والبلغاء والأدباء ـ هذا اللقب المركب لم يرد فى القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٦ ص ٣٨ ، ولا فى حسن الباشا ص ١٧٦ ـ ١٧٩ . أما عن لقب امام فانظر التحقيق رقم ١٢ وما به من مراجع .

٩٨ ـ هو الشيخ شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمود بن عبد الله بن عبد الكريم ابن العماد اسماعيل بن ابراهيم المعروف بابن الفرفور الدمشقى الشافعى الحلبى الأصل ، ولد سنة ٨٥٢ هـ وتولى نظر الجيش ثم قضاء الشافعية بدمشق سنة ٨٨٦ هـ ، وفى رجب سنة ٨٨٩ هـ عزله السلطان قايتباى عن القضاء وولى بدلا منه ابن المزلق الدمشقى ، ثم أعاده إلى منصبه مضافاً اليه نظر الجيش فى جمادى الأولى سنة ٨٩٠ هـ . وقد حضر ابن الفرفور إلى القاهرة فى صفر سنة ٨٩٦ هـ ساعياً وراء وظيفة السر ولكنه عاد إلى دمشق دون طائل . وفى شعبان سنة ٩٠٠ هـ قدم إلى القاهرة ودفع للسلطان قايتباى مالا كثيراً حتى يستمر فى وظيفة قاضى قضاة الشافعية فى دمشق ، ويظهر أن هذه الوظيفة كانت أعلى مرتبة من بقية المذاهب الثلاثة الأخرى . عرنوس : تاريخ القضاء فى الاسلام ص ١٠٧

وقد شهد ابن الفرفور الشافعى عصر قايتباى ومن بعده حتى الغورى ، وكان أول من خطب فى المدرسة الغورية عند افتتاحها يوم الجمعة أول ربيع آخر سنة ٩٠٩ هـ

وقد قرره السلطان قانصوه الغورى فى قضاء الشافعية بمصر بعد عزل القاضى برهان الدين بن ابى شريف المقدسى فى يوم الخميس ٤ ربيع أول سنة ٩١٠ هـ ، أى قبل أن يقوم بتوثيق وثيقة الغورى فى ١٧ ربيع أول سنة ٩١١ هـ والاشهاد عليها تنفيذيا بسنة تقريباً .

وهكذا جمع ابن الفرفور بين قضاء الشافعية فى مصر والشام فى وقت واحد حتى عد ذلك من النوادر لأن هذا لم يتفق لأحد قبله من القضاة على حد قول ابن اياس .

وقد استمرت بيده الوظيفتان إلى أن توفى يوم الخميس ٢ جماد آخر سنة ٩١١ هـ ، ودفن بالقرافة قرب الامام الشافعى ، فتولى وظيفته من بعده فى دمشق ابنه ولى الدين محمد وكان شابا لم يلتح بعد ، وتولاها فى القاهرة الشيخ جمال الدين القلقشندى .

وكان ابن الفرفور عالما فاضلا غزير المادة ، ذا شهامة فى سعة من المال ، كريما حسن العشرة ظريفا ذكيا ، وكان على صلة بالسلاطين المماليك ، صديقاً للاشرف الغورى تبادل وأياه قصائد فى المدح .

ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٣ ص ١٧٤ ، ٢٠٣ ، ٢١٣ ، ٢٧١ ، ٣٠٢ — جـ ٤ ص ٥٨ ، ٦٦ ، ٨٤ — ٨٥ ، الغزى : الكواكب السائرة جـ ١ ص ١٤١ — ١٤٥ ، السخاوى : الضوء اللامع جـ ٢ ص ٢٢٢ ، ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب جـ ٨ ص ٤٩ ، البقاعى : كتاب فى التاريخ ( مخطوط بدار الكتب رقم ٥٦٣١ تاريخ ) ص ١٨٧ ب ، ١٨٨ أ ، وثيقة ابن الفرفور محكمه ٢٢٧ — لوحه ١٠ ، ١١ .

٩٩ — خادم الحجرة الشريفة النبوية — أنظر لفظ خادم فى حسن الباشا ص ٢٦٦ — ٢٦٧ ، ولكن هذا اللقب بالذات لم يرد فى القلقشندى . نفس المصدر جـ ٦ ص ٤٦ ولا فى الباشا ، وهذا اللقب اسم لوظيفة .

١٠٠ — هذه الاشارة مثل سابقتها — تحقيق رقم ٧٦ — جديرة بالوقوف عندها قليلا ، إذ هى توضح لنا أن قاضى القضاة ابن الفرفور الشافعى كان مريضاً عند الاشهاد على وثيقة وقف الغورى فى ١٧ ربيع أول سنة ٩١١ هـ ،

ويلاحظ القارىء أن تواريخ الاشهادات الثلاثة الأولى متتابعة وهى على التوالى ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ربيع أول سنة ٩١١ هـ ثم حدث الاشهاد الرابع أو الاسجال التنفيذى الأخير فى يوم الأحد ١٧ ربيع أول سنة ٩١١ هـ ويمكن تعليل ذلك — أى عدم حدوث الاشهاد فى يوم السبت ١٦ ربيع أول — بسبب مرض قاضى القضاة ابن الفرفور الشافعى ، فقد وردت إشارتان إلى ذلك إحداهما فى متن الاشهاد الرابع سطر ٢٣٤ ، والثانية فى شهادة

عبد الكريم بن على المجولى الشافعى — ولعله كان من اقرب الشهود إلى قاضى للقضاة الشافعى ملازما له دائما فى مجلس حكمه وخارجه — سطر ٢٤٩ .

وقد وفى ابن الفرفور فعلا بعد ذلك بمدة قصيرة فى ٢ جماد آخر سنة ٩١١ هـ أى بعد نيف وسبعين يوما من قيامه بتوثيق وقفية الغورى .

ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٤ ص ٨٤ .



( شكل رقم ١ )

«ليسجل» ــ بخط قاضى القضاة أبو البركات عبد البر بن الشحنة الحنفى . وردت على الهامش الأيمن فى بداية وجه الوثيقة بين السطر ٢ ــ ٣

( شكل رقم ٢ )

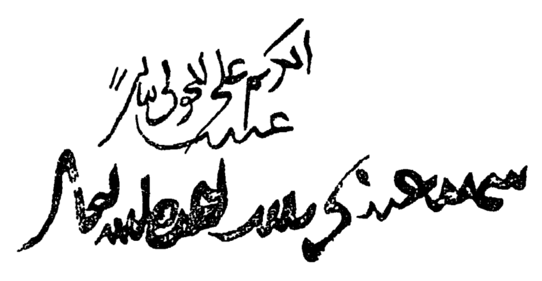
« الحمد لله وحده ــ ليسجل بثبوته وتنفيذه » بخط قاضى القضاة أبو حامد أحمد الشيشينى الحنبلى . ورد على الهامش الأيمن فى بداية الاشهاد الاول فى ظهر الوثيقة بين السطر ٣–٤

( شكل رقم ٣ )

« ليسجل ليسجل » بخط قاضى القضاة أبو المراقى ابراهيم الدميرى المالكى . وردت على الهامش الايمن وفى بداية الاشهاد الثانى فى ظهر الوثيقة بين السطر ٧٥–٧٧ لاحظ أن كلمة « هذا » هى بداية السطر ٧٦ ، و « فى مصالح » بداية السطر ٧٧

( شكل رقم ٤ )

« الحمد لله ــ ليسجل » بخط قاضى القضاة أبو العباس أحمد بن القرقور الشافعى . وردت على الهامش الأيمن فى بداية الاشهاد الثالث فى ظهر الوثيقة بين السطر ١٤٣ ــ ١٤٤



( شكل رقم ٥ )

امضاء الشاهد العدل « عبد الكريم بن على المجولى الشافعى » بعد شهادته فى نهاية وجـه الوثيقة سطر ١٧٨٧ ثم تاشيرة الموثق « شهد عند بذلك اعزه الله تعالى » سطر ١٧٨٨ بوقوع الشهادة امامه

( شكل رقم ٦ )

امضاء الشاهد العدل « عبد الغفار بن موسى المالكى » بعد شهادة فى ظهر الوثيقة ( الاشهاد الثانى ) سطر ١١٦ ثم تاشيرة الموثق « شهد عندى بذلك أعزه الله تعالى وشفاه » سطر ١١٧ بوقوع الشهادة امامه

( شكل رقم ٧ )

امضاء الشاهد العدل « أبو الفضل محمد الأعرج » كاتب الوثيقة بعد شهادته فى ظهر الوثيقة ( الاشهاد الأول ) سطر ٥٩



( شكل رقم ٨ )

امضاء « موسى بن عبـــد الغفار المالكى » بعد شهادته سطر ٥٢

( شكل رقم ٩ )

امضاء « سعد بن ابراهيم الطيبى » بعـــد شهادته سطر ١١٩

( شكل رقم ١٠ )

امضاء «عبد الكريم بن على المجولى الشافعى» بعد شهادته سطر ٥٥



( شكل ١٠ مكرر )

امضاء « يحيى بن ابراهيم الدميرى المالكى » بعد شهادته سطر ١٨٢

( شكل رقم ١١ )

تاشيرة الموثق « شهد عندى بذلك ـ اعزه الله تعالى » الاشهاد الاول سطر ٥٦ ـ ٥٧

( شكل رقم ١٢ )

تاشيرة الموثق « شـهد عندى بذلك ـ اعزه الله تعالى » الاشـهاد الثانى سطر ١٢٦-١٢٧

( شكل رقم ١٣ )

تاشيرة الموثق « شهد عندى بذلك » الاشهاد الثانى سطر ١٢٨




( شكل رقم ١٤ )

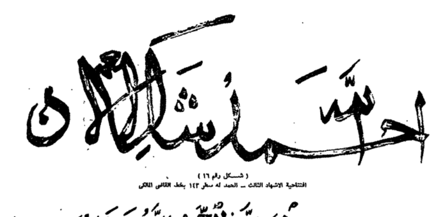
افتتاحية الاشهاد الأول ـ الحمد له سطر ٢ بخط القاضي الحنفي

بسم الله الرحمن الرحيم — اللهم صل على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

الحمد لله اللطيف الخبير

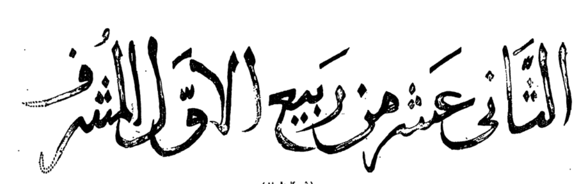
( شكل رقم ١٥ )

افتتاحية الاشهاد الثاني ـ البسملة والتصلية والحمد له سطر ٧٤ـ٧٥ (الحمد له بخط القاضي الحنبلي)



( شــكل رقم ١٦ )
افتتاحية الاشهاد الثالث ـ الحمد لله سطر ١٤٣ بخط القاضى المالكى

( شــكل رقم ١٧ )
افتتاحية الاشهاد الرابع ـ البسملة والتصلية والحمد لله سطر ١٩٨ـ١٩٩
( الحمد لله بخط القاضى الشافعى )



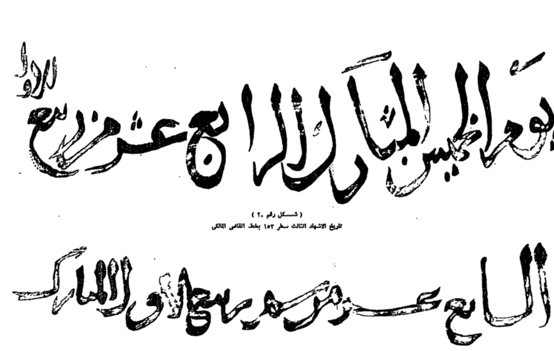

( شكل رقم ١٨ )

تاريخ الاشهاد الاول سطر ٢٢ بخط القاضى الحنبلى

يوم الاربعا الثالث عشر من شهر ربيع الاول

( شكل رقم ١٩ )

تاريخ الاشهاد الثانى سطر ٨٦ بخط القاضى الحنبلى

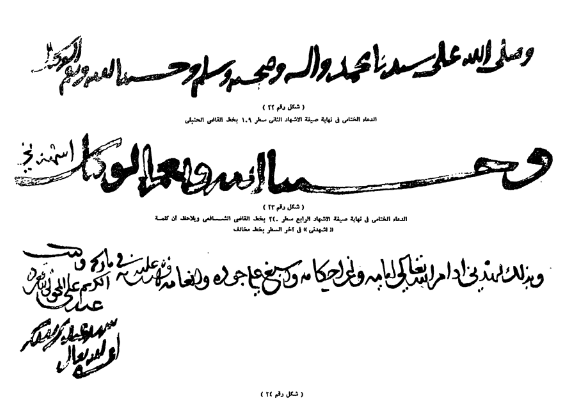


( شـــكل رقم ٢٠ )

تاريخ الاشهاد الثالث سطر ١٥٣ بخط القاضى المالكى

( شـــكل رقم ٢١ )

تاريخ الاشهاد الرابع سطر ٢١٨ بخط القاضى الشافعى



( شكل رقم ٢٢ )

الدعاء الختامى فى نهاية صيغة الاشهاد الثانى سطر ١٠٩ بخط القاضى الحنبلى

( شكل رقم ٢٣ )

الدعاء الختامى فى نهاية صيغة الاشهاد الرابع سطر ٢٠٢ بخط القاضى الشـــافعى ويلاحظ أن كلمة « اشهدنى » فى آخر السطر بخط مخالف

( شكل رقم ٢٤ )

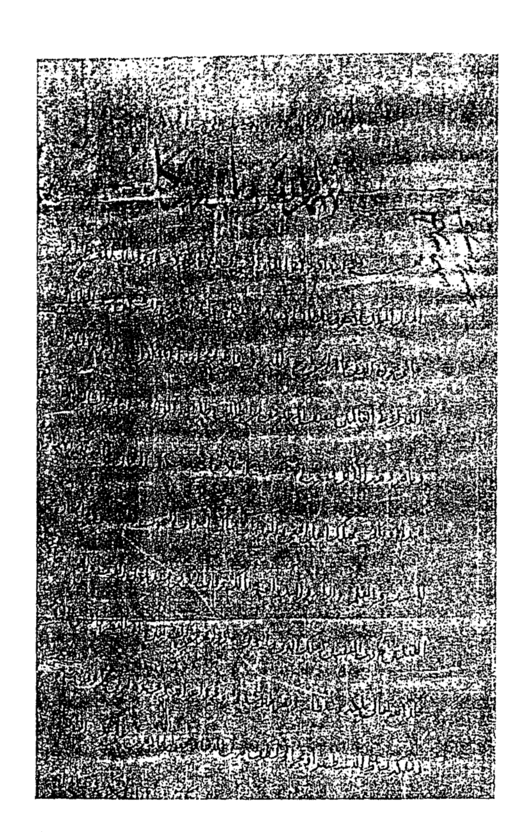
نص شهادة وتوقيع « عبد الكريم بن على المجولى الشافعى » وتاشيرة الموثق فى الاشهاد الاول سطر ٥-٧

( شكل رقم ٢٥ )

نص شهادة وتوقيع « ابو الفضل محمد الاعرج » فى الاشهاد الاول سطر ٥٨ ـ ٥٩

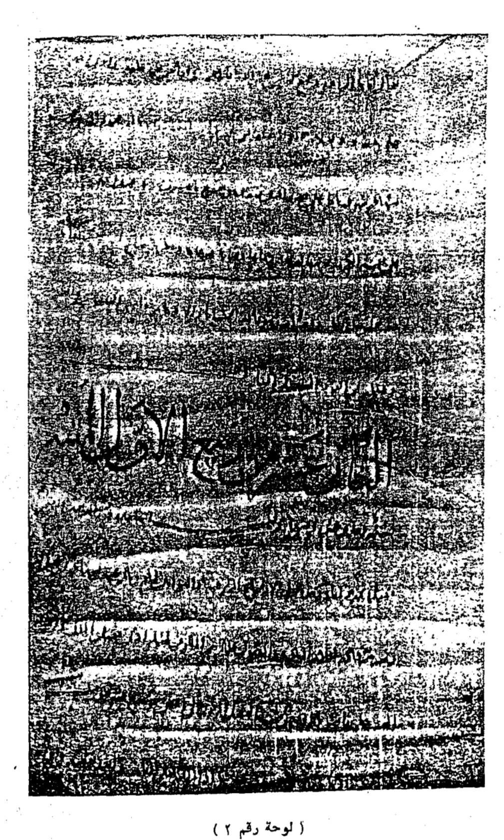
( شكل رقم ٢٦ )

نص شهادة وتوقيع « موسى بن عبد الغفار المالكى » فى الاشهاد الرابع سطر ٢٥١ ـ ٢٥٢



( لوحة رقم ١ )

الدرج الاول من ظهر الوثيقة الاصلية ـ أوقاف ٨٨٣ ـ افتتاحية الاشهاد الاول بالبسملة والتصلية والحمد له ونظهر الحمد له بخط كبير فى سطر مستقل وفى الهامش الأيمن عبارة القاضى بوجوب تسجيل الاشهاد بعد ثبوته وتنفيذه



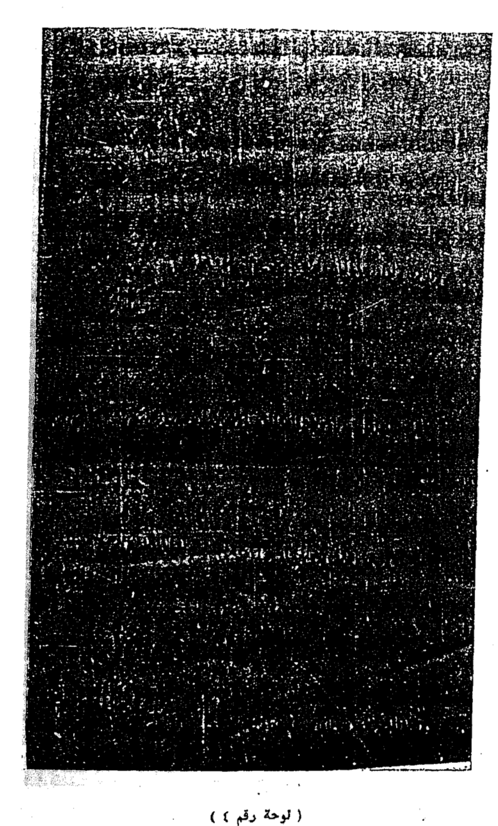
( لوحة رقم ٢ )

تاريخ الاشهاد الاول أمام قاضى القضاة الحنفى ( الثلاثاء ١٢ ربيع الأول ٩١١ هـ )


حسبنا الله ونعم الوكيل و
الله على سيدنا محمد وآله وصحبه و

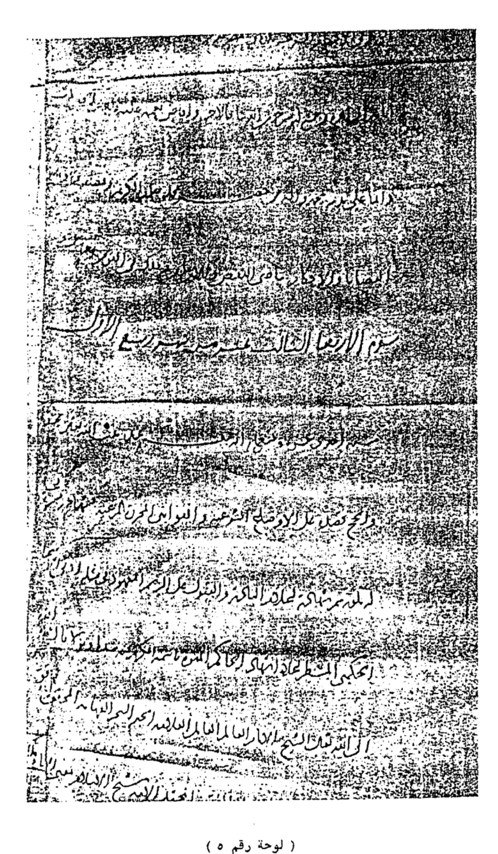
( لوحة رقم ٣ )

الانشاء الختامى ـ بخط كبير ـ فى نهاية صيغة الاشهاد الأول



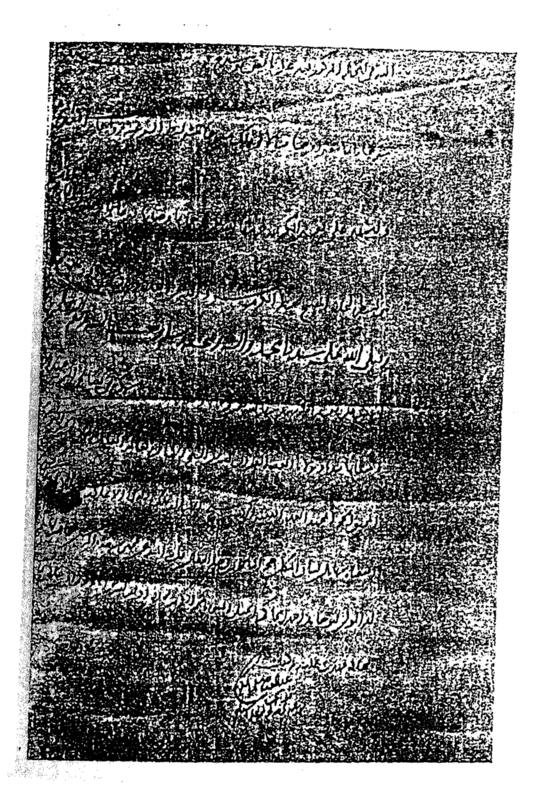
( لوحة رقم ٤ )

نماذج من الشهادة وتوقيعات الشهود ومن بينهم كاتب الوثيقة ابو الفضل الاعرج



( لوحة رقم ٥ )

تاريخ الاشهاد الثاني أمام قاضي القضاة الحنبلي ( الاربعاء ١٣ ربيع أول ٩١١ هـ )



( لوحة رقم ٦ )

الدعاء الختامى فى نهاية صيغة الاشهاد الثانى وشهادة احد العدول وهو « موسى بن عبد الغفار المالكى »

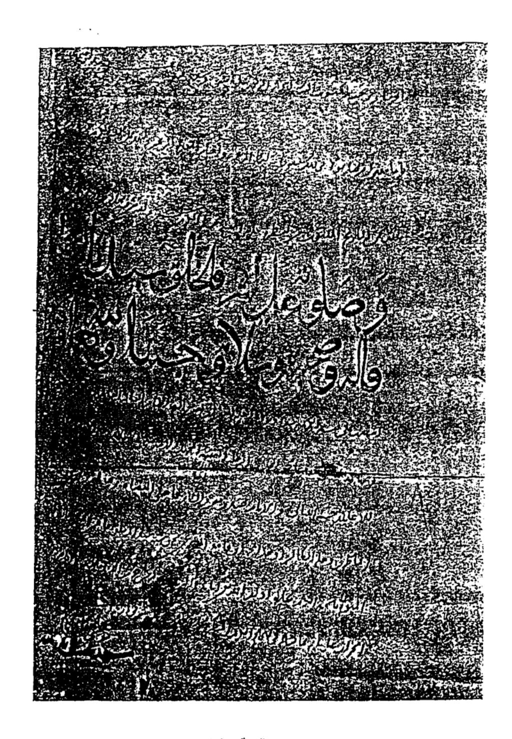
( لوحة رقم ٧ )

نماذج من الشهادة وتوقيعات بعض العدول على الاشهاد الثانى



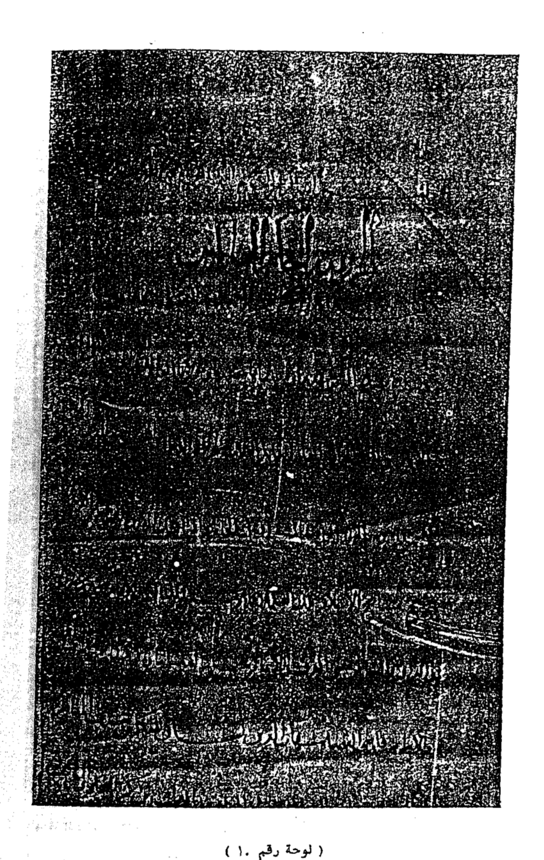
( لوحة رقم ٨ )

تاريخ الاشهاد الثالث امام قاضى القضاة المالكى ( الخميس ١٤ ربيع الأول ٩١١ هـ )



( لوحة رقم ٩ )

الدعاء الختامى – بخط كبير – فى نهاية صيغة الاشهاد الثالث وشهادة أحد العدول وهو « موسى بن عبد الغفار المالكى »



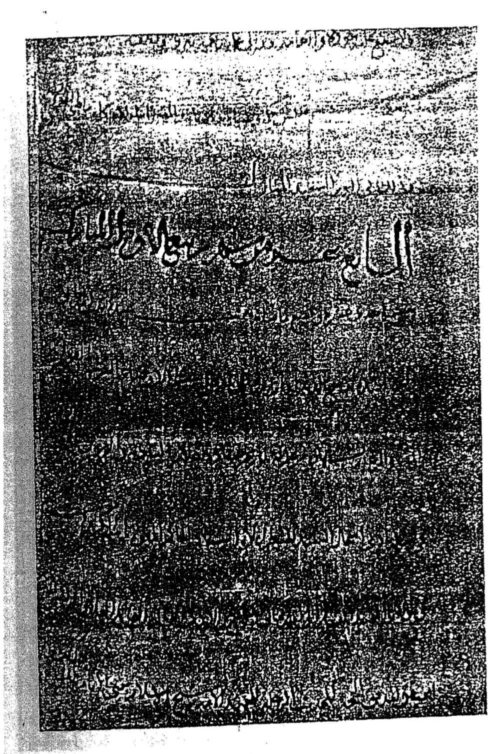
( لوحة رقم ١٠ )

افتتاحية الاشهاد الرابع بالبسملة والتصلية والحمد له وتظهر الحمد له بخط كبير فى سطر مستقل



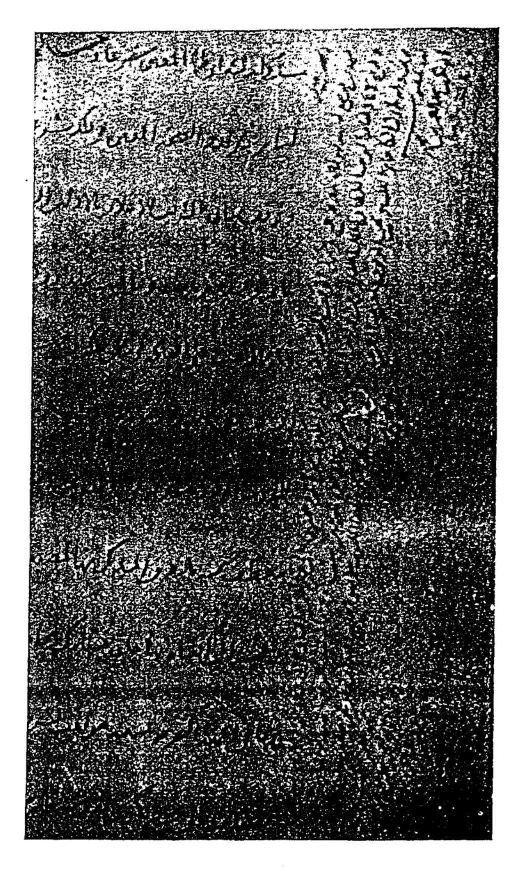
( لوحة رقم ١١ )

جزء من صيغة الاشهاد الرابع وقد وردت فيه بعض الألقاب الفخرية لقاضى القضاة أبو العباس احمد بن الغرفور الشافعى



( لوحة رقم ١٢ )

تاريخ الاشهاد الرابع امام قاضى القضاة الشافعى (الأحد ١٧ ربيع الأول ٩١١ هـ )

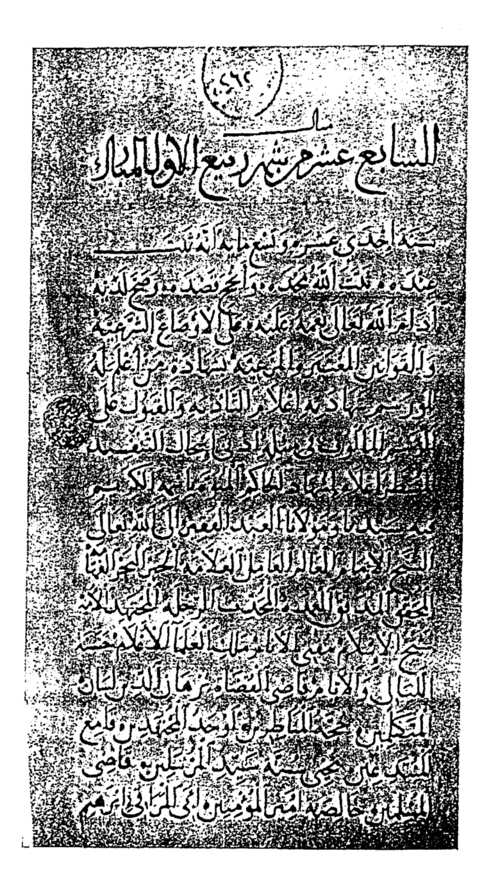


( لوحة رقم ١٣ )

شهادة الشهود التى تؤكد ملكية السلطان الغورى وحيازته للأعيان والعقارات المختلفة التى تصرف فيها بالوقف ـ وقد وردت فى الهامش الأيمن من وجه الوثيقة الأصلية بين الأسطر ١٨٣ ـ ١٩٣

( لوحة رقم ١٢ )

الصفحة رقم ٢٤١ من صورة الوثيقة ـ أوقاف رقم ٨٨٢ ويظهر فيها تاريخ الاشهاد الاول ـ لاحظ وجود لفظ « مثال » فوق التاريخ ومعناه « طبق الأصل »



٢٦٢

مثال

السابع عشر من شهر ربيع الأول المبارك

سنة إحدى عشر وتسع مائة أنه ثبت

عنده ثبت الله مجده وأنجح قصده من رضي الدين

أدام الله تعالى نعمه عليه على الأوضاع الشرعية

والقوانين المعتبرة المرعية بشهادة من أعلم له

أداء شهادته أعلام [illegible] والقبول على

الرسم المألوف في مثله أدى في [illegible]

المتصل [illegible] الشهادة الحاكم المشار إليه الكريم

عن سيدنا ومولانا العبد الفقير إلى الله تعالى

الشيخ الإمام العالم العامل العلامة الحبر البحر الفهامة

المحقق المدقق [illegible] المحدث الرحلة المجتهد [illegible]

شيخ الإسلام مفتي الأنام ملك العلماء الأعلام حسنة

الليالي والأيام قاضي القضاة ترجمان الدين لسان

المتكلمين حجة المناظرين أوحد المجتهدين قامع

المشككين محيي سنة سيد المرسلين قاضي

المسلمين خالصة أمير المؤمنين [illegible]

( لوحة رقم ١٥ )

الصفحة رقم ٢٦٢ من صورة الوثيقة ـ أوقاف رقم ٨٨٢ ويظهر فيها تاريخ الاشهاد الرابع ـ لاحظ وجود لفظ (( مثال )) فوق التاريخ ومعناه (( طبق الأصل ))

Cairo University Press, 1424-58-560 ex.

governed by an Arab who was a representative of the Persian king and who professed the Zoroastrian faith. But soon afterwards he was converted to Islam.

Yaman was during some centuries A.D. partly under Ethiopian, partly under Persian rule. 'Ezānā, the king of Ethiopia in the fourth century A.D. called himself the king of Saba', D̲ū-Raydān and Salḥēn i.e. regions of South Arabia. In the sixth century there was the Ethiopian governor Abrahā in Yaman, and he even tried to conquer Mekka. The Ethiopians were driven out of the country by the Persians, and their governors were replaced by Persian governors. The last of them, called Bād̲ān باذان, adopted Islām when the country was conquered by the Moslems.

Persian words must have been known to the Arabs, and used by them, in Southern and Eastern Arabia, but it is hard to say which words they were. We know now that Persian words came to the Arabs from the North, the East and the South. The Arabs repayed the Persians fully by all the Arabic words used in modern Persian.

It remains to be said on what ways Persian words came to the Arabs before Islam. Most of the Persian words that occur in ancient Arabic literature passed through Syriac before they came to Arabia. A great many of these words may have been received at al—Ḥīra in Mesopotamia. We know that the principality of the Banū Laḥm اللخميون existed there, that christianity was prevailing at al—Ḥīra and that the official language of the christian church was Syriac. But al-Ḥīra was to a certain extent under Persian supremacy, and this town, where many Arabs settled coming from the West, was the main mediator between Persia and Northern Arabia before the time of Islam. We know that some Arabian poets went to al-Ḥīra snd stayed there. Some of then learned even the Persian language, among them 'Adī b. Zaid عدى بن زيد العبادى and al-'A'šā أعشى قيس. The grand father of 'Adī was the secretary of an—Nu'mān, the Arabic ruler, and he was the friend of a Persian governor, who took Zaid into his house. Thus Zaid learned Persian; his son 'Adī was educated together with the son of the governor; he was recommended by the governor to the Persian king and became a secretary at the king's court. The poet al-'A'šā was for a time a representative at the Persian court, and this was the reason why he used many Persian words in his poems. Other Arabian poets who lived at al-Ḥīra were Ṭarafa طرفه بن العبد Mutalammis المتلمس جرير ابن عبد المسيح من بنى ضبيعة, 'Abīd b. al-Abras عبيد بن الابرص الأسدى, Laqīt لقيط بن زرارة بن عدس من تميم and al-Mnraqqiš al-akbar المرقش الاكبر ربيعه ابن سعد بن مالك من قيس .Some Arabs learned the stories and legends of Persian kings and told them later on when they had returned home. One of them was an-Naḍr b. al-Ḥāriṯ النضر بن الحارث who told the stories of Persian kings and of the heroes Rustam and Isfandiyār in Mekka at the time of the Prophet.

Beside al-Ḥīra the Eastern and the Southern coasts of Arabia were for a long time under Persian influence. The regions of Baḥrain and 'Omān were under Persian supremacy. In 'Omān even nowadays a corrupt Persian dialect is spoken. The discoverer of this dialect thought at first that it was a survival of ancient South Arabian, but he soon learned that it is Persian. When Baḥrain was conquered by the Arabs a few years after the Higra the country was being

Persian *t* ت is sometimes rendered in Arabic by ṭ ط, just as Persian *k* ك has become *q* ق in some cases. The reason was that *t* and *k* were not aspirated in Persian, as I mentioned above.

Persian *ch* چ is rendered either by *ṣ* ص or by *š* ش. The phonetic relation between ص and ج is not quite clear.

Persian خ remains خ in Arabic when the words were taken over directly. But ḫusrau خسرو became كسرى because it passed through the Syriac language.

Persian س remains س in Arabic in most cases; a very few times it has become ص, as in صرد, which corresponds to Persian sard سرد, cold; damp; tasteless; disagreable, unpleasant; where the influence of *r*, is to be recognized.

Persian š ش becomes generally s س in Arabic. But in some cases it remains š ش, as in شيناء; these seem to have been words that did not pass through the Aramaic langnage.

Persian k ك is mostly rendered by q ق in Arabic. We may mention rizq رزق which is the Persian rōzīk روزيك the name qābūs قابوس, a man with a handsome face and a fine complexion, which is kāwūs in Persian, name of an ancient king of Persia. Also in Arabic words taken from other languages than Persian unaspirated k ك is rendered by q ق : e.g. qaiṣar قيصر from Caesar.

Persian g گ is mostly rendered by g ج in Arabic. The Arabs who received such words may have still pronourced gīm ج as nowadays this sound is pronounced in Egypt and in some dialects of the Arabian peninsula. But gīm became ǧīm in the dialect of Mekka which was اللغة الفصحى. There are also af ew examples of Persian g گ having become k ك or q ق in Arabic. These may be due to Arabic dialects where q ق was pronounced gāf or where the pronunciation ǧīm for gāf was intended to be avoided. Here I wish to repeat that the ending—ak or—ag of Pehlevi words became—ah in modern Persian. When these words were taken over by the Arabs before the rise of modern Persian we find this ending as—aǧ, but in words taken over in later times we find this ending as—ah in Arabic.

occurred the word must be of foreign origin. Moreover those scholars gave examples of noun formations that betrayed a foreign origin. But some of them do occur in genuine Arabic words ; e.g. fa''ala, fu''ail, fa'lūl and fa'līl. For fa''ala فعّل we may compare the name of the Arabic tribe شمّر šammar ; in the inscription of an-Namārah the town of the شمر is mentioned, and it must be vocalized šammar like the name of a famous horse in ancient times and like the name of the present شمّر. Of the form fu''ail ; a number of Arabic examples have been collected. It is a double diminutive : the form fu'ail has here received a double consonant in the midst like fa''ūl which is a well known diminutive of personal names. The forms fa'lūl فعلول and fa'līl فعليل were rejected by the grammarians : they said that these forms should be fu'lūl فعلول and fi'līl فعليل. But we know that they are used now in Arabic dialects, e.g. ṣandūq صندوق, and even if they are not considered to be فصيح they are nevertheless good Arabic and must have been known also in ancient times.

About the rendering of Persian consonants in Arabic, the following may be said. Persian Alif remains generally. But it seems that in a few cases it has become ع, as in قلعة, if it is to be derived from kalā, and in كعك which corresponds to Persian kāk كاك, biscuit, dry bread; bread indifferently baked. But the latter word is somewhat uncertain as to its original form ; it appears in many languages (in English cake and in German Kuchen), and it is not clear why Alif should have become ع near sounds that are not emphatics. The word is known in Ancient Egypt 'kk, in Coptic kake, in Greek kakeis, in Syriac ka'kā.

The name of عراق has been connected by Orientalists with Īrān (al-'Aṣma'ii connected it with a Persian word ايران شهر which means البلد الخراب) ; but this etymology was not accepted by Professor Noeldeke who believed that عراق is the Arabic word meaning "a low country".

Persian p پ is rendered either by f ف or by b ب. Arabic فارس is the Persian pārs پارس Persia ; فيروز turquoise is derived from pīroz پيروز. Persian parand پرند the glittering surface of a polished sword ; a sword, painted silk, plain silk ; a saddle—cloth ; has become in Arabic birind برند and also firind فرند (plural faranid فرائد).

In most of the Syriac dialects there was no خ, but خ and ح were equally pronounced ح. However, when a ك followed immediately after a consonant it became خ (as in Hebrew and in modern Ethiopian Semitic dialects). Therefore it was natural that the Syrians rendered Persian خ by ك; when there was a vowel before this ك, it was pronounced like خ, but when it was at the beginning of a word without a preceding vowel it remained ك. The Arabs heard Kusrau and changed it to kisrā كسرى because this form looked more Arabic; for fiʿlā فعلى is an Arabic noun formation. Of course fuʿlā فعلى is a well known formation too, but it seems that kusrau was first changed to kisrau by dissimilation of the vowels an then became kisrā. The Persian kings themselves had the title šāhānšāh, and this was known to the Arabs too, they wrote it شاهنشاه. Its meaning is "king of kings" like negūša nagašt in Ethiopia.

Marzubān مرزبان was known to ancient Arabian poets, and they used also the plural مرازبة. Its Pevlevi original is marzpān, in Persian marzbān, marzabān : a general of the confines, governor on the borders of a hostile country, lord-marcher, margrave, landgrave (in Persian marz means a limit, border, boundry of a country and bān means a prine, lord, chief, governor ; affixed to a noun, it signifies a keeper or a guardian). This word means literally "keeper or protector of the frontier".

Misk مسك is originally an Indian word muška, and some ancient Arabian authors knew that the musk came from India. But the word seems to have come to the Arabs by way of Persian where it is mušk. Here again ش was changed to س and *u* to *i*. The latter change may here be due to some Arabic dialect in which *u* and *i* interchanged. The perfume musk and its name came also to European countries (in Spanish mušco, musca ; in Italian musco, muschio, moscato ; in French musc; in English musk, muskate ; and in German Musk, Muskat).

The Arabian philologians who treated of the foreign words in Arabic established quite a number of phonetic rules by which such words should be recognized. They declared that certain combinations of consonants in the same word were not Arabic, and when they

. Firdaws فردوس is a famous word that has gone over into very many languages from Persia. And the ancient Arabian scholars have treated of it several times. In Greek it became paradeisos, and among the European chistians it received the signification of "Paradise"; the Arabic word الجنة is a literal translation of the Persian original.

Of fairūz فيروز the Persian original is pērōz. or pīrōza, a turquoise, a kind of blue gem. Persian *p* is rendered by *f* as in many cases where a foreign *p* had to be Arabicized; *ai* has become *ē*, and *ō* has become *ū*

The word qal'ah قلعة was formerly considered to be a genuine Arabic word. But Professor Andreas, pointed to a Persian origin of this word. The plural form قلاع is found in a verse composed by Laqīt *b.* Ya'mar who lived in al-Ḥīra, near the Persian frontier.

أحرار فارس أبناء الملوك لهم      من الجموع جموع تزدهي القلعا

In Persion kalāt كلات means "a castle on the top of a mountain, or other high ground (either inhabited or deserted and in ruins), and this word occurs in many names of places. If the Persian كلات, whose ت is a later addition to a form kalā, was the original of قلعة the latter must be explained in the following way. The Persian ك is not quite the same as the Arabic *kāf*. In Arabic as in the Northern European languages the sounds *k* and *t* are a little aspirated; in French, Italian, Greek and Persian they have no aspiraton at all like the Arabic ق and ط. Therefore Persian ك is sometimes represented by ق in loanwords. And the Alif of the second syllable may have been changed to ع on account of the emphatic ق.

Kisrā كسرى was the Arabic word for ancient Persian kings, but it was, of course, originally a proper name, just as قيصر was the name of Caesar and later meant "emperor". Thus the قياصرة were the Roman and Byzantine emperors, and the أكاسرة were the kings of ancient Persia. The form كسرى is an Arabic transformation of the Persian original khusrau, khusrav خسرو a great king, a celebrated Persian king, a royal surname in Persia. The Arabs received this word from Syriac, where it was spelled kusrau كسرو for Persian خ became ك in Syriac

mostly in the form *g* (we have examples such as fālūdag or palūdag, sādag, ṭāzag), and if we find a terminating *h* in words that originally had a *k* or a *g* we know that they were taken over from later Persian (fālūdah or bālūzah, sādah, ṭāzah).

Sirāg سراج is found as chirāg چراغ in modern Persian and means, a lamp; light; the wich of a candle; a guide, director. Since the classical Semitic languages do not know the sound *ch* چ it was rendered by š ش. The Arabs received their sirāg from Persian through Aramaic šĕrāgā.

Sarāwīl سراويل is an Arabic plural of sirwāl, but it is generally used as if it were a singular, just as "trousers" and "breeches" in English, "Hosen" in German etc. In Persian we have shalwār, shulwār شلوار, inner breeches, drawers reaching to the feet; sailors' or travelleres' trousers; shal, the "thigh" of a man and vār "protection", thus sarāwīl are the "protection of the thigh".

The word 'askar عسكر has been derived in different ways by the Orientalists. It was thought that the Persian word lashkar لشكر which also signifies "army" had received the Arabic article, that al-laskar had been thought to be al-'askar and that this had become al-'askar. This is not impossible, since Hamza is sometimes changed into ع where there is a *r* in the word; so the Turkish word urdu has become عُرضى in Arabic. Similarly in Tigrē language in Ethiopia, an alif becomes ع in the neighbourhood of an emphatic letter, e.g. 'aqtala for 'aqtala, 'aṣōma for 'aṣōma (أصام) etc. I think with Professor Noeldeke, that the similarity between Persian lashker لشكر and Arabic 'askar عسكر is only accidental. Professor Noeldeke suggested that عسكر might be connected with the Arabic root عسكر (cf. عكر), and that its original meaning might have been "troublesome crowd".

However, I believe that it was originally one of the military expressions which were brought by the Romans to Syria when they ruled over that country by their military occupation. The common Latin word for "army" is exercitus (ex-erceo means to put in motion), and it seems to me that 'askar عسكر is an Arabic transformation of it perhaps the Arabs thought at the same time of a "troublesome crowd".

'āgurr آجر is in Persian 'āgūr which means brick. This word was originally Babylonian agurru which means baked clay or kiln-brick; it was adopted by the Persians and by the Arabs, either through Persian or through Aramaic.

'isbahbad اسبهبذ or 'iṣbahbad إصبهبذ was a high military title; it is composed of two Persian words, *sipāh* which means "army" and *bēd*, which means "lord, master"; thus *'sbahbad* signifies "master of the army". We see here that contrary to usual Semitic syntax the muḍāf stands after the muḍāf 'ilaih. This construction is known again from modern Semitic languages of Ethiopia and also from Turkish and from Germanic languages, e.g. in English "my father's house" beside "the house of my father".

Bustān بستان is a Persian word: bustān (for bōstān, bō or bū means odour, smell, flavour, scent, perfume; and stān means place where any-thing abounds). The "gardens" of Persia were well known to the ancients.

Tāg تاج "crown" was known to the Arabs long before the time of Islam; it occurs in ancient Arabic poetry quite frequently and is found also in the inscription of an-Namārah of the year 325 A.D. In Persian tāj (from old Persian taka) means a crown, diadem. The Aramaens learned it from the Persians and used it in the form tāgā.

Dihqān دهقان in the meaning شيخ القرية (*dih* means a town or village in Persian and khān or gān means chief man or prince or head). In Persian dihqān or duhqān means chief man or magistrate of a village, prince or head of the farmers; a husbandman, cultivator of the ground; a historian; a minstrel. This word is used in the books of classical Arabic historians and geographers.

Dībāg ديباج corresponds to Pehlevi dēpāh or dēbā and modern Persian dēbah or dēbā which means gold tissue or brocade. Dībāg means, a vest of brocade, or cloth of gold, with a rich edging; frontispiece of a book; and dībāga and dībācha means, the preface, exordium, or preamble to a book (as being generally written in an ornamental style, and adorned with gilding and other decorations). The sounds *k* and *g* at the end of words in Pehlevi became *h* in modern Persian; in words that were borrowed by the Arabs before Islam they appear

Of all the other scholars who treated this subject only al-Gawālīqī may be mentioned here, who in his famous book *al-Mu'arrab* collected the material that other scholars before him had gathered and published them with a critical review of his own. We are very much indebted to his work; in some cases his opinions may be corrected by the results of modern researches.

I am not giving here a full list of all Persian words in ancient Arabic; but a selection of them. And this selection I shall arrange according to the Arabic alphabet.

'ibraisam إبريسم or 'ibrīsam إبريسم is in Persian 'abrīšum or 'abrēšem. Here we see that the *a* at the beginning has been changed into *i* because it sounded more Arabic, since the Arabs knew the names 'ibrahīm and 'ismā'īl. The *ē* in the middle was rendered by *ai* or *ī*. The *š* in Persian and Aramaic words became often a *s* in Arabic.

The reasons for this change do not seem quite clear. But we know that in later Nabataean *š* was very probably pronounced *s*, and the original sign for *š* was used for *s* so that the Arabs in their own words had to invent a new *š* by adding the three dots (س *s* and ش *š*).

A similar development is known from Ethiopic and the modern Semitic languages of Ethiopia (ሰ *s* and ሠ *š* in Ethiopic are both pronounced *s*, the Amharic has developt a ሸ *š* from the Ethiopic ሰ *s*).

=وقال بعضهم كوسق وقالوا كربق وقالوا قربق وقال الراجز :

يا ابن رقيع هل لها من مغبق ما شربت بعد طوى القربق

من قطرة غير النجاء الأوفق

وقالوا كيلقة ، ويبدلون من الحرف الذى بين الباء والفاء ، الفاء نحو الفرند والفندق . وربما أبدلوا الباء لأنهما قريبتان جميعاً ، قال بعضهم البرند فالبدل مطرد فى كل حرف ليس من حروفهم ، يبدل منه ما قرب منه من حروف الأعجمية ، ومثل ذلك تغييرهم الحركة التى فى زوْر وآشوب ، فيقولون زور وآشوب وهو التخليط ، لأن هذا ليس من كلامهم . وأما ما لا يطرد فيه البدل ، فالحرف الذى هو من حروف العرب نحو سين سراويل وعين اسماعيل ، أبدلوا التغيير الذى قد لزم ، فغيروه لما ذكرت من التشبيه بالإضافة ، فأبدلوا من السين نحو فى الهمس والانسلال من بين الثنايا ، وأبدلوا من الهمزة العين ، لأنها أشبه الحروف بالهمزة . وقالوا قفشليل ، فأتبعوا الآخر بالأول لقربه فى العدد لا فى المخرج .

some very important observations of his own about the treatment of foreign words and about the changements which these words underwent in Arabic [1].

(1) Sibawaih, kitāb, II, Cairo 1316 H. pp. 342, 343.

باب ما أعرب من الأعجمية :

أعلم أنهم مما يغيرون من الحروف الأعجمية ما ليس من حروفهم البتة ، فربما ألحقوه ببناء كلامهم ، وربما لم يلحقوه . فأما ما ألحقوه ببناء كلامهم : فدرهم ألحقوه ببناء هجرع ، وبهرج ألحقوه بسلهب ، ودينار ألحقوه بديماس وديباج ألحقوه كذلك . وقالوا اسحق فالحقوه بإعصار ، ويعقوب فالحقوه بيربوع ؛ وجورب فالحقوه بفوعل ، وقالوا اجور فالحقوه بعاقول ، وقالوا شبارق فالحقوه بعذافر ، ورستاق فألحقوه بقرطاس ، لما أرادوا أن يعربوه ألحقوه ببناء كلامهم كما يلحقون الحروف بالحروف العربية ، وربما غيروا حاله عن حاله في الاعجمية مع الحاقهم بالعربية غير الحروف العربية ، فأبدلوا مكان الحرف الذى هو للعرب عربيا غيره ، وغيروا الحركة وأبدلوا مكان الزيادة ، ولا يبلغون به بناء كلامهم لأنه أعجمى الأصل ، فلا تبلغ قوته عندهم إلى أن يبلغ بناءهم ، وإنما دعاهم إلى ذلك أن الأعجمية يغيرها دخولها العربية بإبدال حروفها ، فحملهم هذا التغيير على أن أبدلوا وغيروا الحركة كما يغيرون فى الإضافة إذا قالوا هنئ نحو زبانى وثقفى . وربما حذفوا كما يحذفون فى الإضافة ، ويزيدون كما يزيدون فيما يبلغون به البناء وما لا يبلغون به بناءهم ، وذلك نحو آجر وابريسم واسماعيل وسراويل وفيروز والقهرمان . وقد فعلوا ذلك بما ألحق ببنائهم وما لم يلحق من التغيير والابدال والزيادة والحذف لما يلزمه من التغيير . وربما تركوا الاسم على حاله إذا كانت حروفه من حروفهم كان على بنائهم أو لم يكن نحو خراسان وخرم والكركم . وربما غيروا الحرف الذى ليس من حروفهم ولم يغيروه عن بنائه فى الفارسية نحو فرند وبقم وآجر وجربز .

باب اطراد الابدال فى الفارسية :

يبدلون من الحرف الذى بين الكاف والجيم الجيم ، لقربها منها ولم يكن من ابدالها بد لأنها ليست من حروفهم وذلك نحو الجربز والآجر والجورب . وربما أبدلوا القاف لأنها قريبة أيضا ، قال بعضهم قربز وقالوا كربق وقربق . ويبدلون مكان آخر الحرف الذى لا يثبت فى كلامهم إذا وصلوا الجيم ، وذلك نحو كوسة وموزة ، لأن هذه الحروف تبدل وتحذف فى كلام الفرس همزة مرة وياء مرة أخرى ، فلما كان هذا الآخر لا يشبه أواخر كلامهم صار بمنزلة حرف ليس من حروفهم ، وأبدلوا الجيم لأن الجيم قريبة من الياء ، وهى من حروف البدل ، والهاء قد تشبه الياء ، ولأن الياء أيضاً قد تقع آخره ، فلما كان كذلك أبدلوها منها كما أبدلوها من الكاف وجعلوا الجيم أولى لأنها قد أبدلت من الحرف الأعجمى الذى بين الكاف والجيم فكانوا عليها أمضى . وربما أدخلت القاف عليها كما أدخلت عليها فى الأول ، فأشرك بينهما ، ...

Many of the Persian words in Aramaic were in pre-Islamic times transmitted to the Arabs. A conspicuous one of them is the word *rizq* رزق , which was entirely Arabicized and from which a verb *razaqa* was formed. The Persian original of *rizq* is *rōzīq*, which means "daily", and it may mean "the daily food" or "the daily payment"; it came to the Arabs from Aramaic. The Arabic form *rizq* was taken over by the Europeans; the word *risico* in Italian (also the forms: rischio, risicare, rischiare), the word *arrisco* in Spanish (other forms: risco and arriscar), the word *risque* in French (another form: risquer), the word *risk* in English, the word *risiko* in German (another form: riskieren) were derived from it. But its meaning has been changed a little; for *risk* means something uncertain, and when this word was adopted by the Europeans they thought of the uncertainty of the daily fortune of mankind.

There are three facts that may enable us to recognize the foreign origin of a word in a special language, and here we have to do with Persian words in Arabic.

1. If a word has no etymology in classical Arabic it is suspect of foreign origin.

2. If such a word occurs with a similar meaning in Persian we are allowed to assume that the Arabic word was derived from the Persian;

3. The vowels of such words are in Arabic often not stable but vary to some extent.

Some Orientalists thought that foreign words in Arabic could not have a broken plural, but that is not the case. For the plural of "qaṣr" is "quṣūr", the plural of "qonṣul" is "qanāṣil".

Ancient Arabic scholars, philologians and grammarians, were well acquainted with the fact that their language contained foreign words. Even al-Ḫalīl ibn Aḥmad knew this fact, and some of his statements were reported by his pupil Sibawaih. But Sībawaih himself gave

same word. But such etymologies can only be certain whenever all the different stages of the development of a special word are known to us.

The nearest country to Arabia is Syria, and there and in Palestine Aramaic was spoken in different dialects from about the fifth century B.C. until the rise of Islam. Arabs came to Syria even before the general conquest of the country. There were Arabic rulers in Urfa (Edessa), in Tadmor (Palmyra), in Ḥimṣ, and the Nabatean Arabs ruled over parts of Syria and of Palestine. And the Prophet as a young man went to Boṣra. Words of foreign origin reached the Arabs mostly through the medium of Aramaic, also the Persian words in the first times; later on, in the time when Baghdad was the capital of the Abbasid caliphs, Persian words were taken over directly by Moslem Arabs.

Foreign words were often thoroughly arabicized. Let us take a few significant examples balad, ṣirāṭ, qaṣr and sign (بلد ـ صراط ـ قصر ـ سجن). These words were originally Latin, but they sound so genuinely Arabic that they are scarce by suspected to be of foreign origin. But we have the Latin words *castra*, *strata*, *palatium* and *signum*. *Castra* means originally an encampment of soldiers; *strata* means a built road; *palatium* a palace or a large building. Now the Romans were ruling a long time in Syria, and it is most natural that words connected with their military government were known to the inhabitants of the countries of their empire. *Castra* and *strata* were also adopted by the people of England before the Anglo-Saxon invasion, in the form *chester* and *street*. Another Latin word come through Greek and Coptic, the word for prison: *sign*.

Persians and Aramaens were living near each other in Mesopotamia for centuries, and they exchanged words of their languages in a great many cases. Persian words were accepted in Aramaic, and Aramaic words in Persian. When the Persians conquered a large part of the Near East, they adopted Aramaic as their official language, and there must have been interpreters all over the Persian empire who interpreted the Aramaic texts. Later on the Persians adopted the Aramaic script for their own language, Pehlevi = Middle Persian.

## PERSIAN WORDS IN ANCIENT ARABIC

BY

MURAD KAMIL

---

It is well known that the ancient North Arabians were not only a nation of tribes that wandered about only in arid peninsula, but that they had connection with the civilization of the ancient world in many respects.

Of course, they knew the highly developed civilization of Southern Arabia. On the other hand they came into contact with Egypt, Syria and Persia. A good example of this fact is the famous inscription from Taima in Northern Arabia. It dates from the fifth or the fourth century B.C. The inscription is in the Aramaic language, and it reports the introduction of an Aramaic god. But a sculpture on the stone of this inscription is in Egyptian style, and a name mentioned in it is of Babylionian origin.

An old Persian word that went all over the world is the name of the rose. The rose came from Persia; think of the roses of Shiraz praised by the later Persian poets! The history of the word for rose is very interesting. Its old Persian form is *wurdo*; we can easily see that it became *ward* in Arabic. The greeks adopted it in the form *wrodon*; but the *w* was then dropped, and the word became *rodon* ῥόδον. Its plural form is *roda*, and this form, pronounced *rodha*, became *rosa* in Latin; and from *rosa* all the European words for this flower originated. In Middle Persian, the language which is called Pehlevi, the *w* at the beginning became *g* and *rd* became *l* (لام· مفخمة), and the ending was dropped; so the ancient *wurdo* was then *gul* (لام مفخمة), and later in modern Persian *gul*. The Turks pronounced the *u* as *ü* in German and the *u* in French; therefore the Turkish word for *rose* is *gül*. Now we see that *ward*, *gül* and *rose* are all the

In 1900 the Benadir colony was placed again under the rule of another Company, namely the "Società Anônima Commerciale Italiane del Benadir". But with no better results. Thus, for the second time, the Italian government was obliged in 1905 to take over the administration of Benadir The Italians were again determined to open up and to invade the interior of the country, thereby making of these regions an integral part of their zone of influence in Eastern Africa.

Expeditions were thereupon sent to the Juba and to the Webbi Shebeli basins (1); with the result that Menelik II was persuaded on 16 May 1908 to conclude with the Italians a treaty, the first of its kind in the early years of the present century to define the frontiers of Italian Somaliland (2). By this treaty, the length of the Italian Somaliland frontier from northeast to southwest is calculated at some 1800 kilometres, whereas the length of this line from southeast to northwest is reckoned to vary from only 160 to some 400 Kilometres (3).

Thus ends the story of the settlement of the Italians in Eritrea and Somaliland. The creation of these two colonies was the net result of Italian enterprise and effort devoted to empire building in these regions, in the latter part of the 19th and the early part of the 20th centuries.

(1) Villari : Idem, p. 54

(2) Rossetti : op cit. pp. 399-401 ; Hertslet : Ibid. Vol 3, pp. 1223-24.

(3) United Nations : The trust territory of Somaliland, p. 151.

a most crushing defeat first at the battle of Amba Alagi (7 December 1895), and two months later, at that of Adowa (1 March 1896) (¹).

In this manner therefore were ended the imperialistic ambitions of Italy in Ethiopia, never to be revived again with any fair prospect of realization until the following century. At Amba Alagi and Adowa, the defeat that was inflicted upon the Italian forces, was of a kind never before experienced by any European Army in Africa. Indeed, this defeat was a severe blow delivered not only at Italy's credit, but at that of Europeans in general in Africa (²).

Yet these very defeats seem to have had a salutary effect on the fortunes of the Italians and their possessions in Eritrea and the Somaliland. Henceforward they appeared determined not to sustain further sacrifices in men and money; and the cry of both people and govenment was for the rescue and preservation of the proper Italian colonies in Eastern Africa, namely those of Eritrea and the somaliland.

Judging too expensive the defence against the Mahdiists of the widely extended western frontier of Eritrea, the Italian government decided to evacuate Kassala and to restore it to the Egyptians. Thus in December 1897, Kassala was ceded to Egypt. From the 25th of this month, "the fort of Kassala, with all its buildings, fortifications, and dependencies, had become the full and effective property of the Khedive's government" (³).

In Benadir, in the meantime, the contract of the Filonardi Company had expired on 15 July 1896, and the administration of the "Colonia del Benadir" was taken over by the government. Until the end of 1896, Benadir continued under the rule of the government. Since both administrations-those of the government and the Filonardi Company-were characterised with corruption and fanaticism, the inhabitants of Benadir could derive no benefit therefrom.

---

(¹) Ximens, E.: Sul campo di Adua (Milano 1897), pp. 250, 270-271: Mathew, D: Ethiopia, the study of a polity (London 1947,) p. 233; Berkeley; Idem, pp 272-344.

(²) Sanderson: Idem, p. 228.

(³) Hertslet: Loc. cit. Vol 3. Doc. N. 339, pp 1109-1110.

since 1889. The local sultans of Obbia and Mijertin, continued therefore to administer their territories, although a new convention was signed by the Sultan of Mijertin (Osman Mahmud) on 18 August 1901. In this treaty, Osman Mahmud had placed himself, his sultanate, and the whole of the territory of the Mijertin under the protection of Italy. But no penetration was possible. Indeed it was only after the lapse of so many years that it became possible that this northern part of the Somali coast (containing Obbia and Mijertin) could be placed effectually under Italian control and influence. In 1925-1927, Italy had to undertake military action in the northern Somaliland in order to bring directly under Italian sovereignty the protectorates of Obbia and the Mijertin (1).

Yet it so happened that whilst the Italians seemed to be so greatly preoccupied with the task of building up their empire, all their plans r dominance in Africa appeared suddenly to crash to the ground d so to speak at one stroke crumble to dust. For the Italians were iously defeated in battle in the middle nineties, at the hands of e Abyssinians.

Not content with their territorial gains in Eritrea and the Eastern dan (Kassala), the Italians had entertained plans for the conquest Ethiopia. Their immediate aim was the annexation of the kingdom Tigré. And in 1894-1895 they began against the Tigreans what came known as the Italo-Tigrean War; a war which ended in e incorporation of Tigré into their Colony of Eritrea (2).

This success, however, was shortlived. For under the leadership Menelik II, the Ethiopians were induced to sink their differences. hey gathered their forces; and in a united effort to oust the alians, they waged against the latter what become known as e Italo-Ethiopian War of 1895-1896. They inflicted on the Italians

(1) United Nations: The trust territory of Somaliland under Italian dministration (1952), p. 46.

(2) Cesari, C.: Manuale di Storia Coloniale (Bologne 1937), p. 32.

The Italians, therefore, were able to occupy the Benadir coast by the help of the British. Always anxious to wreck French colonial plans in these regions, the British had considered it advisable to encourage the Italians to annex the Somaliland coast adjacent to the Indian Ocean (1). They were afraid of the activities of the French on the African coast, which threatened their colony at Aden, and menaced the supremacy of the British fleet in the Arabian Sea and the Indian Ocean. More than anything else, the British were determined to prevent the French from penetrating through the eastern coast into the heart of both of Ethiopia and the Sudan, and from by this means reaching, the River Nile. The British and the Italians had therefore signed the protocol of 24 March 1891, already referred to above, delimiting their respective spheres of influence in East Africa.

As a result of all of these Agreements, the control of Italy was extended in 1892 from the Juba river northward to the sixth parallel; and the Italian flag was to fly at most of the landing stages, from Cape Gardafui along the Somaliland and the Benadir coast, to the Juba river.

In 1893 the administration of the Benadir country, was entrusted to the Filonardi Company (2), since Italy was still suffering from the effects of her financial crisis. In the meantime, however, penetration inland from the Somali coast was continued. A number of successive small expeditions under Vittorio Bottego and Ugo Ferrandi were organised by the Authorites at Rome for expansion in the interior (3).

Yet in contrast with this progress achieved in Benadir, Italy was unable to make any headway in the northern part of the Somaliland coast (facing the Indian Ocean). And this in spite of the fact that this part of the coast had been placed under the protection of Italy

---

(1) Harrnz, E.R.: Loc. cit., pp. 425-426.

(2) Documenti Diplomatici N. XIII. Roma 1895 (il ministro degli affari esteri al Capitano V. Filonardi. Roma, 11 Maggio 1893. Doc. N. 66, pp 111-112.

(3) Corni, G.: Somalia Italiana. Vol. 1, (Milano 1937), p. 63; Chiesi, G.: La Colonizzazione Europea nell'est Africa (Napoli 1909), p. 566.

Umberto I". They also agreed that the Italian flag be hoisted in their respective countries; and they pledged themselves not to "make treaties or enter into contracts with any other governments or persons". These two agreements with the local sultans were immediately notified by Rome to the Powers (1), and they laid the basis of the future Italian Somaliland colony, placed between British Somaliland and British East Africa (Kenya), facing the Indian Ocean, and touching in the hinterland upon the ill-defined frontiers of Ethiopia.

Shortly after these events, and with the conclusion of the Uccialli treaty (May 1889), fresh efforts were started to consolidate Italian dominions in the Somaliland. With a view to securing their permanent settlement in these parts, and to ensuring the prosperity of their coveted African Empire, steps were taken to annex Benadir, the southern part of the Somali coast. Benadir was the natural trading outlet for southern Abyssinia. Benadir, however, formed part of Zanzibar's dominions in East Africa; and thanks to the good offices of Britain, the Sultan of Zanzibar, being under British protection since 1890 (2), was persuaded to grant Italy full rights and privileges of possession in the Benadir Coast. By the terms of the agreement concluded at Zanzibar on 12 August 1892, between the Italian consul, Signor Cottoni, and the British Consul general Gerald Portal, the Sultan of Zanzibar made over to the Italian government "all the powers which he had possessed over the towns and the ports of the Benadir coast, namley, Brava, Merka, Mogadishu, each with a radius landwards of 10 sea miles, and Warsheikh, with a radius landwards of 5 sea miles, and the islands in their vicinity". Furthermore, the Italian government was authorised to concede the administration of the towns and the ports in the Benadir coast, to some Italian company, which would be charged with the Administration of these places (3).

---

(1) Pankhurst, S.: Ex.-Italian Somaliland, p. 51.

(2) Lyne: Zanzibar in contemporary times (London 1905), p. 195.

(3) Hertslet: Op. cit., Vol. 3, Doc. N. 334, pp. 1094-1100.

on the part of the Italian forces does not prejudice any territoral question (namley Egypt's sovereignty over Kassala and the adjacent country)... It places Italy in a postion co-occupant with England of Egyptian territory in virtue of interests which are common to both countries" [1]. Italy's influence, accordingly, reached the Atbara River in the Eastern Sudan, and the western frontier of the Italian colony was therefore extended to a distance of 250 miles inland from Massaua [2].

Italy's next move was to expand and consolidate her possessions in what has become subsequently known as Italian Somaliland. As early as 1885, she had cast her eyes on the territories lying on the Somaliland coast of the Indian Ocean. In the previous year, the Italian government had dispatched His Majesty's ship "Barbarigo" of the Royal Italian navy, round the corner of cape Gardafui, to vist the Sultan of Zanzibar and to explore the mouth of the Juba River. On 28 April 1885, Captain Antonio Ceechi, the head of this expedition, and Signor Fecarotta captain of the "Barbarigo", concluded with the sultan, Burghash bin Said, a commercial treaty, which gave Italy "important commercial privileges" [3]. In 1888, another expedition under the command of Vicenzo Filonardi landed at Obbia, and Filonardi with the approval of the local sultan, succeeded on February 1889 in bringing under Italian control the sultanate of Obbia [4]. Two months later (April 1889) Filonardi concluded with Osman Mahmud the sultan of Mijertin, another agreement, by virtue of which the sultanate of Mijertin was placed under Italian suzerainty [5]. For by the terms of these two treaties, both sultans, of Obbia and of Mijertin, agreed "to place their country and all their possessions under the protection and government of the king of Italy,

---

[1] Shibeika: op cit, p. 331.

[2] Sanderson: Idem, p. 223.

[3] Documenti Diplomatici presentati al Parlamento Italiano dal ministro degli affari esteri (Blanc). N. XIII, Roma 1895, Doc. N. 1, p. 3.

[4] Il R. Console in Zanzibar al ministro ad interim degli affari esteri, Aden, 18 Febbraio 1889. Doc. N. 10, pp. 74-75.

[5] Ibid.; Aden, 9 Aprile 1889. Doc. N. 11, pp. 38-40; Hertslet: op. cit. Vol. 3, Doc. N. 346, p. 1119.

should the necessities of the military situation render such occupation unavoidable. Yet this occupation of Kassala and adjacent territory by the Italian forces, was by no means to become permanent. For, it was further stipulated in the same Article, that notwithstanding occupation, all rights of sovereignty over Kassala and surrounding country would be reserved for Egypt, and that these places should be restored to Egypt when the time came for the Egyptian government to be in a position to re-occupy these districts (1).

Evidently, the British government was no longer of the opinion that these parts of the Sudan were "lands without owner": (Res Nullius); and that, on the contrary, a temporary suspension or abeyance of Egypt's rights of sovereignty over the whole Sudan was all the injury that could be caused in this respect by the establishment of the Mahdiist rule in the Sudan.

These Protocols however, were left unratified. And no action at the time was taken by the Italians, to enforce Article II of the 15th April 1891 Agreement. Once Signor Crispi was returned to power, nearly two years and a half later, (in December 1893), measures were then taken to make good the stipulations especially of the "Kassala Protocol". Thus on 11 July 1894, Crispi, by telegraph, instructed Baratieri, the military governor of Eritrea to act as he might fit see against the Mahdiists who were menacing his colony (Eritrea) from their advance post at Kassala. (2) And Baratieri was given a (carte blanche) to carry out his instructions the way he considered most effective.

With a force of 2500 strong, Baratieri began his march upon Kassala; and on 17 July 1894, this stronghold of the Mahdiists fell in less than three hours and was captured by the Italians (3).

To allay the suspicions of England, the Italian government announced soon after the fall of Kassala that "this military operation

---

(1) Hertslet: Op. cit., vol. 3, Doc. N. 289, pp. 949-950.

(2) Berkeley: op. cit, p. 380.

(3) Frisina, F: L'Italia in Africa, pp. 61-62; Mantegazza, V.: Idem, pp. 208-218.

and in order to open up and to establish under their authority a regular trade route to one of the Red Sea ports. The Italians were therefore compelled to wage war against the Mahdüsts. They had to maintain the security of their colony of Eritrea on the one hand, and on the other to watch over the saftey of their prospective Ethiopian Empire.

The first clash between the Italians and the Dervishes took place in the battle of Agordat on 27 June 1890, in the northern part of Eritrea, where the Mahdiists were defeated (1). Two years later, the Mahdiists resumed operations in June 1892; and this with a view to raiding into Eritrea. But again they failed in their efforts.

These initial successes though militarily of little importance were to encourage the Italians at Rome to attempt new annexations; and this time in the Sudan.

The rule of the Khalifa Abdullahi at Omdurman was harsh and despotic (2). Internal conditions were chaotic. Discontent was rife against the Khalifa's rule (3). And the Italians therefore believed that they would have every chance of success if they tried penetration into the Eastern Sudan.

The fall of Crispi on 31 January 1891, had led to the formation of the Di Rudini Cabinet. It was known of Di Rudini that he was a politician not interested in colonisation in Africa. A fact which was conducive to persuading the British government to conclude two agreements or protocols with the Italians. The first was signed on 24 March 1891; and the second on the 15 th of April of the same year. The purpose of these protocols was to define the Italian and the British spheres of influence in East Africa. Article II of the Protocol of April the 15 th calls for special attention, since Italy was given by virtue of this Article her first opportunity to penetrate into the Eastern Sudan. It was stipulated in this Article that the Italian troops could occupy Kassala and the adjoining country as far as the Atbara River

(1) Mantegazza, V: La Guerra in Africa (Firenze 1896), pp. 153-154.

(2) Shukry, M. F: Egypt and the Sudan (in Arabic), pp 416-417.

(3) Shibeika, M: Idem, p. 330 (quotes from memorandum by Kitchener to Cromer on 19 June 1894. P.R.O., F.O. 78/4575).

Moreover, the Italian government by virtue of Article 18 has also maintained her commercial and economic prestige in Abyssinia. For this Article provided that "whenever His Majesty the king of Ethiopia at any time should have the intention of granting special privileges to subjects of a third state in regard to the establishment of houses of commerce or manufactures in Ethiopia, he shall always give preference, when all other conditions are equal, to Italians".

Thanks to Article II of the additional convention of 1 October 1889, the Italians were given the chance to strengthen their position, politically in the territories of the Red Sea coast. Since this Article reads that "King Menelik recognizes the sovereignty of the king of Italy in the colonies which go under the name of Italian possessions in the Red Sea". And all these advantages were gained by the Italians despite the difficulties which were soon to make their appearance and to render dangerously strained the relations between Ethiopia and Italy.

In the meantime, the Italians strained every effort to consolidate and to unite in one colony their possessions along the Red Sea coast. They considered this consolidation necessary as a preparatory step to creeping up into the heart of Ethiopia [1], in order to bring this country—and this in fulfilment of the Uccialli treaty—under their power [2]. In this way, Eritrea came into existence. On 1 January 1890, the establishment of "Colonia Eritrea" was formally proclaimed by Humbert 1, King of Italy [3].

In consequence of the formation of this colony of Eritrea, and at the same time as a result of the Uccialli treaty, the Italians began to turn their eyes towards the Eastern Sudan. Here the Mahdiists had been advancing in the direction of the Red Sea littoral, in the hope of expelling the Italians from their newly proclaimed Eritrean colony,

(1) Sabry, M: The Sudanese Empire in the Nineteenth century (in Arabic), p. 244.

صبرى : الامبراطورية السودانية فى القرن التاسع عشر ، ص ٢٤٤ ( القاهرة ١٩٤٨ ) .

(2) Harraz, E.R.: Op. cit., p. 237.

(3) Crispi, F.: Loc. cit., pp. 198-201; Longrigg: Ibid., p. 120.

Italian" — as Berkeley says — "had been at Menelik's court for many years and had entirely won (or flattered himself that he had won) the confidence of the Shoan Monarch. He had forseen, from the moment he arrived as resident at Shoa, the future possibilities for that little kingdom". He had made himself the friend of the queen Taitu, "A woman of great character, niece of John an wife of Menelik (1)". It was after the name of this diplomat that this new departure of approach to the Ethiopian "problem" was termed the "Antonellian policy (2)". It consisted mainly in helping and backing up the southern kingdom of Shoa and its negus, Menelik II, as a counter balance to the leadership and pretensions of Tigré in the north east, the country of the late emperor John IV and his natural son, Ras Mangasha.

A speedy outcome of this new policy, was the conclusion of the famous, or rather notorious treaty of Uccialli between Italy and the Negus Menelik on 2 May 1889 (3) (with an additional convention in October of the same year) (4).

The treaty of Uccialli marks the zenith of Italian supremacy in Abyssinian politics. In Article 17, it was stipulated, according to the Italian text, that "His Majesty the king of kings (Menelik) consents to avail himself of the Italian government for any negotiations which he may enter into with the other powers or governments". In other words, Menelik was to treat with the foreign powers only through the medium of Italy. A fact which would mean that the whole of Ethiopia was virually placed under the "protection" of Italy; and that the country was simply constituted a zone of Italian political influence.

---

(1) Berkeley: Idem, p. 7.

(2) Harraz, E.R.: The spread of Italian political influence in East Africa in the Nineteenth century (in Arabic), pp. 211-216. Thesis submitted to Cairo University for the degree of M.A. (1958).

حراز : انتشار نفوذ ايطاليا السياسى فى شرق افريقية فى القرن التاسع عشر .

(3) Rossetti, C.: Op. cit., pp. 41-44; Crispi, F.: Idem, pp. 155-159; Hertslet: Loc. cit., vol. 2, pp. 454-455.

(4) Rossetti, C.: Idem., pp. 45-47; Crispi, F.: Ibid, pp. 160-161, Hertslet: op cit., vol. 2, pp. 456-457.

Tigré (in the north east). Because of this disagreement between Menelik and Mangasha, the Italians by taking an active part in local politics, were able to realize, almost with complete success, their ambitious colonial plans.

No doubt there were other factors which were equally effective in the furtherance of Italian designs, and which bore even more lasting results. We refer to the colonial rivalry between England and France in these parts of Africa. Since in order to hamper and check French influence, the British were prepared to encourage the Italians to persist in their colonial efforts. An attitude which resulted in enabling the Italians to extend their territories along the Red Sea coast, from Ras Casar in the north to the boundaries of Obock, the Colony the French had possessed, in the south. Shortly afterwards, the Italians had succeeded since 1889 also, and as we have already pointed out, in securing the three northern provinces of Seraé, Oculé Kusai and Hamacen.

A great incentive for the accomplishment of this feat, was indeed provided by the timely death of Negus John IV, and this because of the state of anarchy which prevailed at hat time in Abyssinia [1]. Menelik, Negus of Shoa was the claimant to the imperial throne. Around him were centred the hopes and the intrigues of the Italian government, whose purpose was to place the whole Ethiopian Empire under the sole sovereignty of Italy.

A new policy of peace and friendship with Menelik of Shoa was therefore hurriedly inaugurated. Promises to help him ascend the imperial throne were reiterated. And in return for their assistance, the Italians required of the Negus to acknowledge them as the protectors of his Ethiopian Empire.

The man responsible for the initiation and development of this policy was Pietro Antonelli, the Italian diplomat who had negotiated in 1883 the first treaty between Italy and Shoa. "This ambitious

---

(1) Documenti Diplomatici N. XIV. Roma. (il comandante superiore in Massoua al ministro della guerra; Massoua, 3 Aprile 1889. Doc. N. 46, p. 39-40.

no time occupied the three northern provinces of Abyssinia, namely, Serae, Ocule Kusai and Hamacen (1889). there, Baldissera established his boundary along the line of the rivers Mareb, Belesa and Muna (1).

But how the Italians were successful in penetrating into Abyssinia and occupying easily these northern provinces, can be explained by the fact that internal conditions were at that time almost anarchic, and that the country was too weak and divided to oppose aggression.

For it is a fact, that as much as the weakness of the Khedive's Egypt and the spread of the Mahdiist rebellion in the Sudan were conducive to a large extent to the success of Italian plans in the Red Sea littoral, there is no denying the truth that factional rivalies and quarrels among the Abyssinian chiefs or Rases, and the absence of a strong central government were likewise responsible for the success of early Italian designs on Ethiopia. We must rember that Abyssinia in the 19th century, as an eminent writer has put recently it, " was a congeries of feudal principalities loosely held together by the king of kings, when he was strong enough to impose his authority on the local chieftains (2) ". But when Ethiopia lacked such a powerful king of kings (or Negus Negasti), intrigues and quarrels between the Rases or feudal lords became rife, each chief coveting the possession of the Imperial throne of Abyssinia. And this was what actually happened after death of John IV at the battle of Gallabat (or Metemmeh) in March 1889, at the hands of the Mahdiists. The victors were able to cut off the head of the fallen Negus Negasti and to send it to Omdurman, where it was paraded in the market-place, as a proof of the Dervishes' victory (3). Two powerful claimnants quarrelled over the Imperial throne of Abyssinia: Menelik II Negus of Shoa (in the south), and Ras Mangasha the natural son of the dead emperor, and who belonged to

(1) Berkeley: The Campaign of Adowa and the rise of Menelik (London 1935), p. 5.

(2) Langer, W: Idem, p. 109.

(3) Shoucair, N: The history and geography of the Sudan (in Arabic), Vol 3, (Cairo-1903) p. 487.

نعوم شقير: تاريخ السودان الحديث وجغرافيته. ج ٣ ص ٤٨٧ ؛

Sanderson, E: Africa in the Nineteenth century (London), pp. 220-221.

On 25 July 1888, Crispi declared Massaua to be under the sovereignty of Italy (1). He built his declaration on the ground that the evacuation of the Sudan by Egypt in 1884 had rendered Massaua a "land without owner" (Res Nullius). In Crispi's opinion therefore Italy had the right to bring Massaua—if she could do so—under her own sovereignty ; a step which Crispi was taking now after three years of Italy landing her troops in Massaua.

Needless to say Crispi's pretensions were based on wrong argumentation; for the simple fact that in 1885 when Italy landed her troops in the island of Massaua, the Egyptians were in actual occupation there. More important still, the Egyptian garrison stayed on in the island for nearly twelve months after the occupation. They remained side by side with the Italian forces in Massaua. It was only when general Saletta the commander of the Italian troops in Massaua, became determined to put an end to Egyptian influence, that the Egyptian troops were evacuatad and despatched by the Italian authorites to Suez (in Egypt). Furthermore, for 10 months (5 February—5 December 1885), the Egyptian flag continued to be hoisted beside the Italian one over the governmental buildings at Massaua. All these facts should dispute Crispi's pretension that Massaua, after the evacuation of the Sudan, was "Res Nullius". They should prove on the contrary that Italy—in Sanguinetti's words—"s'était établie à Massouah par un pur coup de force et ne pouvait produire aucun titre juridique de possession valable". Indeed Sanguinetti continues to say that "Le caractère de cette occupation était nettement illégitime" (2).

At any rate, soon after declaring Massaua under their sovereignty, the Italians were able to push inland and to establish a number of small forts and outposts bordering on Abyssinian northern territory. Skirmishes with Tigreans began. And a short time afterwards the Italians under general Baldissera, swept down from the north, and in

(1) Sarhank, J: Authentic history of World States (in Arabic), Vol. 2, p 501-3.

سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، ج ٢ ص ٥٠١ — ٥٠٣ .

(2) Sanguinetti, J; Pénétration Européenne en Ethiopie (Montpellier 1907) pp 64-65.

expedition to Massaua, since the British had looked favourably upon the establishment of Italy's sway in this region, hoping thereby first to gain the help of the Italians, in preventing the spread of Dervish influence to the Red Sea littoral; and secondly to hinder the French who were active in East Africa, from capturing Massaua and becoming near neighbours of Occupied Egypt.

However, this unjustifiable annexation of Massaua, had enabled Italy in the middle eighties to extend her possessions all along the Red Sea littoral between Assab in the south and Massaua in the north. By the end of 1885 all the important centres in this area, namely Monkullo, Ottumlo, Arkiko, Arafali, Zula, Meder and Edd were annexed by the Italians.

After this initial success, the Italians were determined henceforward to spare no effort to erect a large colonial empire in East Africa. Serious attempts were made to bring under their rule and protection the Somaliland Coast (of the Indian Ocean) (1). They endeavoured to obliterate every vestige of former Egyptian influence, and to substitute for Egyptian hegemony in the western coast of Red Sea, their own supremacy.

A new era of this forward colonial policy in Africa may be considered to have begun by the accession to power in 1887 of Francesco Crispi, and this after the death of Depretis on the 29th July of the same year. The new Premier was a firm believer in modern imperialism; and he is said "to have been the first among Italian statesmen to have held the large conception of a substantial empire (2)". After one year in office, he was able to declare in the Chamber in May 1888: "Colonies are a necessity of modern life. We cannot remain inactive and allow other, powers to occupy all the unexplored parts of the world (3). Indeed, Crispi's dream—as Ravier says—was to "constituer en Afrique Orientale un immense empire colonial Italien" (4).

(1) Villari, L: op. cit, p. 53.

(2) Albrecht-Carrié: Loc. cit. p. 220.

(3) Langer, W: Diplomacy of imperialism (New York 1951), p. 272.

(4) Ravier, T: L'Ethiopie et l'expansion Européenne en Afrique Orientale (Lyon 1910), pp 42-43.

the Negus (or ruler) of Shoa, Menelik II, on the 21st May of the same year (1). These two agreements enabled the Italians on the one hand to strengthen their influence in Aussa and the Danakil coast, and on the other to obtain Menelik's help in improving their centre at Assab by persuading him to develop his commercial relations with this colony. Article IX of the agreement with the negus Menelik stipulated that "the two contracting parties shall do all in their power to establish frequent and safe commercial intercourse between the states of his Majesty the king of Shoa and the colony of Assab".

However, this first phase of settlement by peaceful means soon came to an end. A new phase of settlement by this time warlike action was started; and this in conformity with the teachings of the aggressive policy of Mancini and Crispi adopted by the new school of colonial expansion. Therefore, on 5 February 1885 an armed attack was launched against Massaua (2), and this despite the fact that since 1865 Massaua had been an Egyptian property (3). Turkey, by virtue of her suzerain rights over Egypt, hastened to lodge her protest against Italy's encroachment, and threatened the Italians with armed action. But the situation was eased thanks to the good offices of Britain. For acting upon the advice of the English government, the Sublim Porte agreed to accept an Italian declaration to the effect that the rights of territorial sovereignty over Massua should remain unprejudiced.

No doubt, this forcible landing of the Italian forces in Massaua was made possible—and as Sir Evelyn Baring himself observed afterwards—by the friendly attitude of the English government (4). For this government had certainly encouraged the despatch of the Italian

(1) Crispi, F: La prima Guerra d'Africa (Milano 1914), pp. 65-69. Rossetti: Idem., pp. 7-11; Hertslet: Ibid., Vol. 2, p. 450.

(2) Documenti Diplomatici presentati al parlamento Italiano. N. XVIII (il comandante delle forze novali nel Mer Rosso al ministro della Marina, Massaua 6 febbrajo 1885. Doc. N. 15.

(3) Shukry, M. F: Egypt and the Question of Sovereignty over the Sudan The Historical Background (in Arabic). p. 41 Cairo 1946.

شكرى : مصر والسيادة على السودان ، الوضع التاريخى للمسألة . ص ٤١ القاهرة ١٩٤٦

(4) Shibeika, Mekki: British Policy in the Sudan (Oxford 1952), p. 322.

of Eastern Africa between the littoral and the River Nile, and in the Somaliland ([1]). Under the Khedivate, comprising Egypt and the Sudan and which was legally constituted first in 1867, Egypt a few years later had found herself deeply involved mainly in financial difficulties. These were dangerously increased through foreign greedy speculation and political interference. They were ended by foisting on Egypt a kind of an "international Mandate ([2])", to be followed by the occupation of Egypt by Britain in 1882.

Almost contemporaneous with the British occupation of Egypt was the outbreak of the Mahdiist rebellion in the Sudan. And it was in such circumstances that Mancini was able to pursue his colonial policy. Evidently, this policy was to be out carried at the cost of Egypt's interests. For it was Mancini himself who described this colonial policy as being the desire "to pick up the keys of the Mediterranean in the Red Sea ([3])".

At first, this new colonial policy took the form of simple commercial enterprise. A trading centre or colony was set up in 1882 at Assab on the Danakil (or Afar) coast, north of the straits of Bab-el-Mandeb. Some twelve years previously (about 1869-1870), this post had been acquired as a coaling (or trading) station by an Italian steamship company, the "Società di Navigazióne Rubattino". With a view to maintaining the security of this trading colony, commercial and political relations were started and then developed between this colony and the adjacent states and tribes, especially the sultanate of Aussa, and the kingdom of Shoa. Thanks to the efforts of count Pietro Antonelli, an Italian diplomat, his government concluded two agreements, the first with Mohamed Hanfari (or Anfari) Sultan of Aussa and chief of the Danakils, on 15 March 1883 ([4]), and the second with

---

([1]) Shukry, M. F: The Khedive Ismail and Slavery in the Sudan (Cairo 1939), pp 242-44, 248, 253-56 ; 269-271.

([2]) Shukry, M. F: Egypt and the Sudan (in Arabic), pp 156-57.

([3]) Macartney and Cremona : Italy's foreign and colonial policy (Oxford 1938), p. 277, Albrecht-Carrié : Idem, p. 218.

([4]) Rossetti, C: Storia Diplomatica dell'Etiopia durante il regnio di Menelik II (Torino 1919), pp. 54-55: Hertslet: Map of Africa by treaty (London 1896) Vol. 2, Doc. N. 112, pp. 447-8.

unfavourably at London [1], Italy began to consider plans for expansion in these regions. And this despite the fact that Egypt had for a long time exercised sovereign rights under Ottoman suzerainty over this western Red Sea littoral. In their ignoring and violation of the Egyptian rights, historians are of the opinion, that the Italians were encourged or even urged to do so, by the British government of the day which was "sympathetic" to Italian designs [2].

Signor Mancini (back in office as already mentioned as minister of foreign affairs since 1881) was the advocate of this new colonial policy of Italy in Africa. Indeed he was the first politician to bring to the notice of his compatriots the importance and urgency of carving a zone of influence in Eastern Africa [3]. Ere long, however, Mancini's activities as minister of foreign affairs terminated in June 1885. The task of building Italy's empire in Africa was persevered in and executed by Signor Francesco Crispi. The latter had risen to the premiership in 1887; and thanks to his efforts there were laid in Africa the foundations of Italy's colonial empire.

Yet for the success of such colonial endeavours by Mancini or by Crispi, a fact of special importance has to be taken into consideration. The Khedivate of Egypt had undergone a profound change since the dethronement of the Khedive Ismail in 1879, and the occupation of Egypt by the British in 1882. And a weak government at Cairo was destined to lose control over affairs in the Sudan. As a result, the Sudan was temporarily lost to Egypt, and this for the benefit of the new Mahdieh masters, who in their turn proved unable to stop the penetration of Italy and the spread of her influence over the Eastern Sudan.

In the seventies Egypt had already succeeded in creating a vast empire in Africa. Her rule and hegemony had extended over the Sudan proper, along the African littoral of the Red Sea, and over parts

(1) Cambridge Modern History, Vol. 12, p. 240.

(2) Neri, Italo: La Questione del Nilo (Roma 1939), pp. 75-76; Johnston, H: History of the Colonization of Africa (Cambridge 1889), p. 245; Villari, L: Idem, p. 30

(3) Villari, L: op. cit, pp. 30-31.

This conquest of Tunisia by France effected under the pretext of a frontier disturbance with Algeria had caught the Italian prime minister Benedetto Cairoli and his minister of foreign affairs Pasquale Stanislao Mancini by so much surprise that both of them had to resign office rather than face parliament (1). The resignation of Cairoli and Mancini led to the coming back of Agostino Depretis, who now formed his fourth cabinet with Mancini again as minister of foreign affairs. Almost Depretis's first act, and as a result of the loss of Tunisia, was his joining the German—Austrian Pact, a step which gave birth to the Triple Alliance of 1882 (2). As a member of the alliance, which was renewed from time to time, Italy obtained a place among the European Powers. Thanks to the prestige of the Alliance; Italy's security in Europe was maintained against outside aggression. Moreover, the Alliance was also instrumental, both directly and indirectly, in starting this country on the road of becoming a colonial (and African) power.

Thus in that "scramble for Africa" referred to above, united Italy, acknowledged then as a great power, could by no means be left behind. Therefore, under the protection of the Triple Alliance, Italy was attracted or rather prompted to direct its labours towards the possession of zones of influence in the western coast of the Red Sea. Since the opening of the Suez Canal in 1869, the Red Sea had gained much greater importance, strategically and economically, than before. And as certain historians maintain, this sea had thereby been turned from a Cul-de-Sac into a maritime highway (3): a fact which did contribute to the increase in value from political and colonial view—points of the Red Sea littoral. Accordingly, when it was intimated by Britain to the Depretis government in 1884 that, in view of French activity in Eastern Africa, the occupation by a friendly power of certain positions on the Red Sea littoral would not be regarded

---

(1) Sprigge, C: The Development of modern Italy (London 1943), p. 56; Salvatorelli, L: Concise history of Italy (London 1946), p. 594.

(2) Cambridge Modern History, Vol. 12, pp. 239-240; Struzo, L: Ibid., p 72; Sprigge, C: Idem, p. 58.

(3) Jones and Monroe: History of Abyssinia (Oxford 1939), pp. 135-136.

in the post-unification period, were persuaded of the necessity of adopting an expansionist policy in Africa. In doing this, Italy would be following also in the footsteps of the great Contiental Powers, whose greatness at that time was usually measured by the extent of their overseas possessions (1).

As a Mediterranean country, Italy had to go looking for colonial possessions in the Mediterranean (2), which is an obvious sphere for her influence. For since the days of Hannibal of Carthage strong links were forged to tie up more or less in an almost un-interrupted fashion the destinies of the southern shores of the Mediterranean with the fate of Italy (3). From the "Risorgimento" onwards, political exiles and refugees found a haven not only in Malta but in Egypt, Tripoli, Alegeria and especially in Tunis (4). And it is a well-known fact that with the revival of ambition for expansion after unity, Tunis was the country most coveted by Italy (5); and the Italian politicians looked upon Tunis as their country's first prospective colony in Africa (6).

Many arguments were advanced to explain and to justify a pursuance of this objective. For Tunisian territory was considered a natural extension of the Italian peninsula, the distance which separates Naples from Sicily being equal to that which separates Naples from Rome: "A night at sea under the moon and stars (7)". These hopes, however, were dashed to the ground when France in 1881 suddenly invaded and occupied this corner of North Africa (Tunis), lying opposite Sicily much to the anguish and resentment of the Italian people and government (8).

---

(1) Ward, B: Italian foreign policy (Oxford 1942), p. 3.

(2) Albrecht-Carrié: Italy from Napoleon to Mussolini (New work 1950), p. 216.

(3) Sencourt, R: Italy (1938), p. 48.

(4) Sturzo, L: Italy and the New World Order (London 1944), p. 30.

(5) Safwat, M: Tunis and the great Powers 1878-1881. (Alexandria 1943) pp. 124-126.

(6) Albrecht-Carrié: op. cit, p. 216.

(7) Sencourt, R: Ibid, p. 49.

(8) Correspondence respecting the affairs of Tunis. No. 2. 1881. (Sir Paget to Earl Granville. Rome, 5 April 1881. Doc. N. 3.

Yet in this study we are concerned only with a certain set of results of this Mahdiist rule, namley the partitioning of several of the Sudanese provinces among the foreign Powers, and the share of Italy therefrom.

Because of its inefficiency, the government of the Mahdiists failed to keep intact Sudanese territories in face of the determination of European powers to open up the "Dark Contient" and to divide up its territories among themselves (1).

Italy appeared on the political and colonial scene in the early eighties of the nineteenth century, much more recently than the two other prominent Powers, England and France. As a new contestant for colonial power and possessions, Italy's eyes were first turned towards expansion, in East Africa. Her ambition was the emulation of other great colonial powers, which already possessed huge empires in Africa and other continents. It is the story of this Italian expansion in these parts of Eastern Africa, which we shall attempt to relate in the present study.

To begin with there are certain facts connected with Italian expansion in Eastern Africa, which are worthy of note. First, there is the remarkable fact of the rise of Italy as a modern state in the second half of the 19th century was chiefly remarkable because of the establishment of a politically united state and accordingly a more powerful and energetic government mainly responsible for the embarking of Italy on imperialistic ventures. It is worthy of note, that in this modern and united state, various internal problems (2), economic, social and political, have cropped up. And these were the natural outcome of Italy's endeavour to achieve national unity. It was in the hope of finding a solution for these problems that Italian governments,

---

(1) Shukry, M. F: Egypt and the Sudan. History of the political union of Nile Valley in the Nineteenth century 1820-1899. (Cairo 1957), p. 446.
شكرى : مصر والسودان . تاريخ وحدة وادى النيل السياسية فى القرن التاسع عشر ١٨٢٠ — ١٨٩٩ . ص ٤٤٦

(2) King, B: History of the Italian unity (London 1912). Vol 2, p. 330; Young, H. The Italian Left (London 1949), p. 2; Villari, L; The expansion of Italy (London 1924), p. 33.

# ITALY AND THE BEGINNINGS OF HER COLONIAL EMPIRE IN EAST AFRICA

BY

EL-SAYED RAGAB HARRAZ

*(B.A. (Hons.) M.A. (Hons.) Cairo)*

The object of this study is to explain how in the eighties and nineties of the last century, Italian political influence penetrated and prevailed in East Africa, or to be more precise, on the western Coast of the Red Sea, the Eastern Sudan, and that part of the Somaliland Coast which is adjacent to the Indian Ocean. The establishment of Italian influence in these regions forms part of the story of Europe's "scramble for Africa" in the second half of the nineteenth century (1).

From the outset, however, we should point out, that this story of Italian hegemony is closely connected with a remarkable phase of development in the history of the Valley of the Nile, first when Egyptian expansion in these parts of Africa had reached its zenith; and later when the occupation of Egypt by the British forces took place. This occupation was destined to control the future of our country together with that of the Egyptian Sudan for more than seventy years.

It was during this period that the Mahdiist rebellion broke out (2), and Egypt under British pressure was forced to abandon the Sudan (1885). Thus the Mahdiists were able to establish their rule in the Sudan. A so-called Mahdieh State was formed. And during the following thirteen years, the rule of the Mahdieh proved both internally and externally disastrous to the Sudan.

---

(1) Marriott: The Makers of Modern Italy (Oxford 1931), p. 165.

(2) Shukry, M.F.: Gordon at Khartoum 1884-1885. (Cairo 1951), pp. 16-17.

the love of the romantic escape which it involves. As in t traveller's accounts, narrow escape during fierce thunder storms in the East are often romantically described by the minor poets. 'The Prophet's Scimitar' by Croly and 'The Spirit of Discovery' by Bowles may serve as two good examples of the minor poets' interest in the romantic episode.

In addition to the three dominant ideas mentioned above, there are others less emphasized themes common to both travel-books and minor poetry during the period under discussion. Closely related to the 'ruins of empire' theme for instance — there are two minor ideas, namely, the 'primitive virtues of the Eastern people' and the 'degeneration of Eastern Countries'.

Again, the 'dramatization of history' and 'patriotism' were also used by travellers and reflected by the minor poets.

All these romantic themes and ideas borrowed freely from the Near East travel-books, constitute the minor poets' debt to travellers' accounts for the romantic themes, scenes and episodes which they very often used in their poems.

The 'milieu' of English literary interest in the Near East was thus created and maintained during the later eighteenth and the earlier nineteenth centuries by both the travel-books and the romantic poetry about that region.

The episodes most extensively described in the Near East travel-books are those which contain elements of the 'strange', the 'exciting' and the 'fearful'. Hence, the Suliot episode is one of the most exciting episodes often recounted by travellers visiting Albania who dwell on the gallantry of the Suliots (the mountain tribes in Albania) in their fierce struggle against the Turkish invader of their country. Through accounts of his extraordinary valour and fortitude, to Ali Pasha, the Turkish ruler of that region (Albania) — a romantic glamour was attached by Lord Byron and his fellow-traveller Hobhouse (cf. *Childe-Harold, Canto* II and J. C. Hobhouse '*A Journey through Albania and Other Provinces of Turkey in Europe and Asia to Constantinople* during the years 1809–10, 1813). — That the travellers considered adventures embodying elements of the 'strange', the 'exciting' and the 'fearful' essentially romantic, is evident from the number and the way they dealt with them.

Thomas Hughes '(*Travels in Sicily, Greece and Albania*—1820) detailed account of the Albanian Youth's adventure killing an eagle single-handed and Hobhouse's 'romantic' description of Byron's narrow escape during a violent thunder storm in the Wilds of Albania are just two examples that may serve to illustrate this fact.

Besides the 'romantic' episodes relating to the people of the countries visited, we have accounts of the traveller's own adventures. These are, of course, more frequent than any others, and are usually told with greater zest and with more details. E. Irwin's experience with a band of Arab robbers in the Egyptian desert is a typical example of travellers recounting their own romantic adventures. (cf. P. 298 f. '*A Series of Adventures in the Course of a Voyage up the Red Sea, on the Coasts of Arabia and Egypt*' — 1780).

The treatment of the 'romantic episode' in the minor poetry of the period shows not only the excitement and vigour of that in the travel-books but also reflects a spirit similar to that in the Turkish Tales of Byron who was himself a traveller in the Near East. Many other examples of interest in the 'romantic episode' occur in minor poetry giving testimony both to the fascination of the East and to

b) *Romantic Landscape*:

The expression of an interest in "romantic landscape" is the second dominant theme common to both travellers and minor poets. In their use of this theme, the Near East travellers are undoubtedly in accord with certain aspects of the Romantic Movement; and their work, in particular, reflects many of its contemporary canone. The chief authors among the many travellers who adopted a romantic attitude in their descriptions of landscapes in the East are:

E. CLARKE : *Travels in Various Countries of Europe, Asia, and Africa*, 2 volumes published in sections between 1810 — 20.

G. KEPPEL : *Personal Narrative of n Jorney from India to England* — 1827.

EYLES IWIN : *A Series of Adventures* — 1780 and

E. L. WARING: *A Tonr to Sheeraz* — 1807.

In their "romantic" interpretation of scenery their descriptions are chararcterized by a distinction between the "beautiful" and the 'sublime"; a keen sensitiveness to the beauties of nature; and a stress on the picturesque beauty of the panoramic scene.

Among the minor poets, the same interest in Romantic landscape is clear and usually, as iy contemporary travel-books, is expressed in descriptions of Noture, either in its beautiful or sublime aspects. Byron in 'Childe Harold', 1812 (Canto II) set the vogue of romantic description of the wild and the rugged beauties of Eastern landscape. The 'strangeness' and 'glamour' of the East, repeatedly emphasized by the travellers, are again reflected in some poems by R. Heber 'Palestine' (cf. 'Poetical Works' — 1853) and H. Kirke White 'Egypt'.

c) *Romantic Episode:*

An interest in 'romantic episode', which is closely related to the interest in 'romantic landscape', appears as a third dominant theme common to both travel-books and minor poetry of the period.

in the 'larger melancholy of the time', both travellers and poets saw in the ruins of Egypt, Asia Minor and Greece the decline and fall of great civilizstions, which they contemplated with profound regret. In the travel books of this period, comments on the ruins appear both in "gothic" and in a less sentimental and more genuinely imaginative vein. Some of the better known travellers who treated this them are

RICHARD CHANDLER: (*Travels in Asia Minor* — 1775 — p.p. 155, 256)

HENRY HOLLAND : (*Travels in the Ionian Isles, Albania; etc.* — 1815 — P. 134) and

T. S. HUGHES : (*Travels in Sicily, Greece and Albania* — 1820. 11, 318)

The poets, in their turn, saw in those ruins the vindication of the universal law; the natural rise and fall of nations which history demonstrates, and felt the melancholy pleasure of contemplating them as a source of aesthetic enjoyment. The downfall of the empires of the Near East offered suitable material for romantic philosophizing to the writer of "graveyard" poetry; the spirit of whose work is closely related to that of the "gothic" in the travel books. Richard Hole, for example, in his "Ode to Melancholy" (1792) — (Poems, ed. R. Polwhele) — used ancient Palmyra to point his moral and adorn his tale. Again, according to the fashion of the time, F. Wrangham in "The Destruction of Babylon" (Poetical Works — 1795 — PP. 41 — 9), and W. L. Bowles in "The Egyptian Tomb" — (Poetical Works —1855 II. PP. 286 — 7) viewed the ancient history of the East in a romantic and melancholy manner. The remarkable fact about this theme in both travel-books and poetry, is the wide-spread insistance upon it, as distinct from its mere appearance. Also, the fact that this theme appears concurrently in both, and that the minor poet often records his indebtedness to the travel-books, clearly indicates the traveller's responsibility for the popular application of the "ruins of empire" theme to the English Near East literature.

instantaneous popularity of such oriental works as those of Southey (*Thalaba the Destroyer*, 1801); Byron's Turkish Tales 1813–1815 (*The Giaour*, *The Bride of Abydos*, *The Corsair* and *Siege of Corinth*) and T. Moore '*Lalla Rookh*' — 1817.

Of these three far reaching influences on English literature of the period we now propose to deal with that relating to the minor poetry about the Near East.

*The Relationship between Travel Books and Minor Romantic Poetry about the Near East.*

There was a close relationship between the dominant ideas in the travel books and those in the minor poetry of the late eighteenth and the earlier nineteenth centuries. In accounts of their visits to places in the East, the English travellers consistently employed many of the dominant ideas then current at home. This practice, when popularized, tended to associate certain general ideas with the Near East and led many writers at home, who had never seen that region, to emphasize those ideas whenever treated them in their works. The minor poets in particular show the effect of these dominant ideas which were mainly romantic. This influence cannot be traced to any particular traveller since it originated in the popularity of the travel books as a group. Among the host of minor poets who contributed to that body of English literature of which the Near East is the 'theme.' or 'background', may be mentioned Richard Hole, Francis Wrangham, Reginald Heber, W. L. Bowles, Henry Kirke White, and William Motherwell.

The 'Ruins of Empire' theme, and expression of interest in 'Romantic landscape' and in 'Romantic episode' are the three main themes commonly used by travellers and reflected in works of the minor poets of the period.

a) *Ruins of Empire:* Observations on various aspects of the ruins of ancient empires constitute one of the most recurrent travel-book themes which are echoed in the minor romantic poetry about the Near East. Like E. Gibbon (d. 1794) with whom they shared

Press. It is seldom possible to open a single issue of a periodical of that time without finding a critical review or a listing of some newly published travel books on the Near East.

In the 'Eclectic Review' alone, for example, no less than forty-six extensive reviews of Near East Travel books (some of them continuing through several issues) appeared between the years 1805 and 1825.

A study of these contemporary reviews of travel books shows that by the year 1820 the more important parts of the Near East had been thoughly explored and the materials amply recorded for the benefit of the countless number of eager arm-chair adventurers at home.

The great number and immense popularity of these travel books is proved not only by the testimony of contemporary magazines and writers, but also by the existing evidence of their actual number and the number of editions through which the most popular of them ran. In seventy-five years, no less than ninety of these books were published in England within the period under discussion (cf. The 'B.M. Catalogue of Books'.— different Near East entries, subheading Travel).

This great vogue of writing and reading books of Eastern travel had naturally a marked influence on certain aspects of contemporary thought and activities. It appears clearly in the social life and in arts. The popularity of oriental fashions (Greek and Turkish in particular) in dress and household decorations for example is an unmistakable indication of the fact. (cf. J.B. Botsford — 'English Society in the Eighteenth Century As Influenced from Overseas'— New York — 1924).

On the literature of that time the vogue of Near East travel books exerted an even stronger and more varied influence. First, by providing the necessary knowledge of conditions in the East, these travel accounts helped to create in England a large body of poetry and prose in which this region figures either as theme or background. Second, the interest in the travel-book material accounts for the recurrence of certain romantic ideas throughout the minor poetry about the Near East. Finally, the contemporary English reader's familiarity with the Near East through travel-books may account for the

As a result of these new developments which brought the Orient much closer to England than ever before, scores of English travellers of different social status toured the various countries of the Near Eest especially those of the Levant, (Greece, Turkey, Egypt, Syria and Palestine). The evidence collected from contemporary magazines and reviews testifying to the wide-spread popularity of Eastern travel is ample, and a few examples are here queted: A writer in the Eclectic Review' (April, 1824) declares that "No one can now pretend to have seen the world who has not made one of a party of pleasure up the Nile or taken a ride on camel-back across the Syrian desert". Then he goes on to observe how the attraction of travel in the neighbouring European countries had dwindled in face of the novelty and excitement experienced by sojourning in the land of the East. "As for France and Flanders and Switzerland, our next door neighbours, they may serve John Bull very well for a country-house; but to have seen those countries is no longer worth speaking of."

Moreover, the testimony of contemporary writers is equally sufficient. Sir W. Scott's eloquent tribute to his generation's first-hand knowledge of the Near East and the popularity of travelling there is worthy of mentien. (See Introducation — *The Talisman* — 1825).

Another contemporary writer makes the following startling comparison between the extent of travelling in the Near East in the mid eighteenth century and the early nineteenth century: "Dr. Askew had been in his youth a great traveller," the writer remarks, "at least he was so considered in those days, for he had been absent from England three years and resided at Athens and Constantinople.., This will perhaps hardly be credited at the present moment (1826), when it is scarcely possible to turn the corner of a street without meeting an Englishman recently atrived, either from the borders of the Red Sea, the Cataracts of the Nile, or the ruins of Palmyra." (vide. "The Golden-Headed Cane" — W. MacMichael, 1835)

The immense popularity of the travel accounts written by this host of Nasr East travellers within this period (1775-1845), is clearly manifest from the continuous attention they received in Contemporary

# LITERATURE OF EASTERN TRAVEL AND THE ROMANTIC MOVEMENT

BY

(Dr. MOHAMMED SAMIR ABDEL-HAMID)

## *Popularity of Eastern Travel in the Earlier Nineteenth Century.*

### *Testimony of contemporary Press.*

Throughout the eighteenth century several important conditions contributed to the growth of direct interest in the Near East and provided new and powerful incentives to travel in that region. Generally speaking, the eighteenth century was the age of exploration and discovery which witnessed an increase of travel to all parts of the world. Furthermore, it was the heyday of the "Grand Tour" and the great period of English Colonial Expansion. Three important factors have, however, directed the stream of travellers towards the East.

First is the growing interest in Archaeology which by the middle of the century made many English men on the Grand Tour to extend their travels to Greece, Asia Minor and Egypt.

Next, the focussing of Englssh colonial interests on India and England's struggles with France and Russia turned the attention of English people to the Near East as having a strategic importance for the safety of all overland routes to India (vide — J. Marriot — "The Eastern Question" 1919 and A. Dennis — "Eastern Problems at the Close of the Eighteenth Century", 1901).

Finally the closing of Western Europe to tourists because of the Continental wars during the second part of the eighteenth century was the third important factor in this respect.

in the first third of the 13th century. The poem consists of more than 4600 couplets and its subject is the quest of birds for the mythical great vulture Sīmurgh, the birds symbolizing the Ṣūfī or mystic pilgrims and the Sīmurgh God.

Ṣūfī writers also wrote long and short poetical tales to illustrate their mystical and ethical teachings. Two great mystic poets namely Sa'dī (d. 1291) in his Būstān and Rūmī (d. 1273) in his Mathnawī excelled in this type of tales. Some of these tales were of ancient origin and some were invented by the poets.

Tales of Ṣūfī significance were not usually presented because of their value and interest as works of fiction but because of the ethical and moral values that can be based on them. Thus we notice that these tales are interrupted in many parts of them by numerous verses in which the poet wanders away from the events of his story and presents his mystic or philosophical ideas. It is not within the scope of this paper to dicuss the narrative poetry of the Ṣūfīs. I think that an independent paper ought to be devoted to this subject and I hope to be able to prepare it in the near future.

Connected with epic poetry, is the versified history. Persia has known some historians who chose to write their histories in verse rather than prose. But such compositions owe their importance to the facts of history they relate and not to the form in which they are expressed. One of the big works of this type is the Ẓafar Nāmah (the book of victory) a unique Ms. preserved in the British Museum, London, which was composed by Qazvīnī, the historian of the Mongols, who lived in the 14th century. (1) It consists of seventy thousand couplets and relates the history of Iran from the Arab conquest up to the author's day when Iran was ruled by the Mongols. It seems to have been meant to be a continuation of Firdūsī's nationol epic of Iran which ended by the Arab conquest.

---

(1) Edward G. Browne published and translated a sample the of Ẓafar Nāmah verses in his: Literary History of Persia, vol. III, p. 96-97.

The layout of the story as presented by Niẓāmī shows the great ability of his creative imagination. Many scenes have been added to the old Arabian story and these invented scenes have been combined with the inherited ones, all forming a beautiful literary structure.

Another statement by the poet on how he elaborated the ancient stories which he chose to present in his poems is given in the introduction to his poem Haft Paykar (the Seven Portraits). It reads as follows:

"I sought in the records of the pleasant histories
For all that was suited to please the heart;
From all that was contained in the chronicles cf kings,
I chose, and combined what seemed good in one book."
He goes on to say:
"Of every atom I contrived to make something;
From these small fragments like a skilful jeweller,
I formed and polished not a worthless treasure;
So that the great who know how to distinguish,
Might see what to choose amongst the several portraits.
Whatever the chronicles had half-said, I said fully;
Whatever jewel he had half-pierced, I pierced wholly." (1)

The poet goes on to say how he collected material for his poems from dispersed books and long forgotten works and how he worked on this material.

Niẓāmī's romance poems became models for other poets who composed this type of poetry after him. Many of them imitated his five long poems by five of their own.

Long allegorical poems were produced by Ṣūfī or mystic poets. The greatest and most beautiful among these is the Manṭiq aṭ-Ṭayr (the Congress of Birds) composed by Farīd ad-Dīn 'Aṭṭār who died

(1) Translated by Robinson.

time he used his imagination and poetical talent in portraying those heroes. A good example of this can be seen in his poem on Laylā and the Majnūn, the two bedouin lovers.

The story of Laylā and the Majnūn as recorded in the books of Arabic literature or Arabic history occupies only a few pages. But Niẓāmī's talent made a great peom of five thousand verses out of this primitive story. The poet was reluctant to take this difficult task, but the wish of his patron encouraged him and persuaded him to undertake the composition. He describes his reluctance in the introduction to this poem by saying:

"The entrance passage to this story is extremely narrow; it would lame poetry that usually proceeds with royal grandeur.

The race-ground of poetry must be spacious if it is to show the ability of the rider." (1)

He goes on to say:

"On a trip in which I do not know the road, it is clear that I will have to present many pleasing sayings

While one may not meet with gardens nor with royal banquets, nor music, nor wine, nor wine bearers;

Only dry sands and rough mountains, until a lot of poetry is wasted on grief." (2)

But Niẓāmī, once he started, finished this poem in a short time. This induced him to say with pride:

> "These five thousand couplets and more
>
> Were indited in less than four months.
>
> Had I not been restrained by other occupation
>
> They might have been written in fourteen nights." ( )

---

(1) دهلیز فسانه چون بودتنك — گردید سخن ازشه آمدن لنك
میدان سخن فراخ باید — تاطبع سوارئی نماید

(2) در مرحله که ره ندانم — پیداست که نکته چند رانم
نی باغ ونه بزم شهریاری — نی رودونه می نه می کاری
برخشکی ریك وسختی کوه — تا چند سخن رود دراندوه

(3) Translated by Robinson in his: Persian Poetry for English Readers.

I swear that if I had seen his face, I would have kissed the earth close to him.

Even if I saw a lamb of yours in the desert, I would not even dare to come close to it !

Thus if I dared not look at a lamb belonging to you, how would I eat someone who is to you like heart, eyesight and even soul ?'" (1)

This single example presents one of the many elements of drama and imagination added to the original story by the author. The magnitude of the poem is shown by the fact that the poet had completed about 4,000 verses before he started composition on the second stage of Joseph's life which began by his imprisonment.

The story has been told several times after Firdūsī. The most famous version of later compositions is that of Jāmī.

It also includes a great deal of additions to the original story. However, we notice that Jāmī differs from Firdūsī in two ways, one of which is that he devoted the largest part of his version to the actual love story between Zulaykhah and Joseph, and the second is that he spread through this love story an air of Ṣūfism. Fortunately, the English reader, with no knowledge of Persian, can read Jāmī's version in the translation of Alexander Rogers (2) and olso in the translation of Ralph T. H. Griffith. (3)

The second great figure in the field of Persian epic and romance poetry is Niẓāmī of Ganjah who was already mentioned above. He was a man of great moral integrity and poetical talent (died between A. D. 1199—1209).Ni āmī became the master in romantic poetry whose influence was not confined to later Persian poets but went out of its linguistic boundaries to reach Turkish and Urdu poets who composed romantic poetry.

Like Firdūsī, Niẓāmī looked at the past to find his heroes. He read what was written about them in books of history, but in the same

(1) Translated from Persian by the author. This part of the story starts in verse no. 2005 of the Persian text and ends in verse no. 2046.

(2) Joseph and Zuleikhā by Jāmī. London, 1892.

(3) London 1882.

Thus you made me remain distrssed without my son; and squeezed me out of heaven and paradise.

What was your heart's grievance against Joseph that you did not let him live in this world?

That you tore his pretty body and, by portions from it, stuffed your belly?

There was an enormous herd where my son was;-why, out of them all, did you choose him to leap at?

To you, a mutton could have been better than him; it could have weighed more and contained more fat.

O you despised wolf! Why did you deprive him of the soul and deprive me of my son?

Where did you eat him? Tell me; may be I can find a ringlet of his hair,

Which would be a souvenir for me all my life; and a consolation for me when I am burried inside my tomb.'

He said this and cried out of his heart's grief, until his tears converted dust into mud.

When the wolf heard these sad statements from Jacob, the injured and broken hearted,

He began to speak by the will of God, and said: 'O leader of religion and justice!

Do not bear ill feeling and bad opinion of me! I can not deviate from the path of God's commands.

God has forbidden us to eat the pure bodies of prophets; and that is all.

I did not eat your son and would not want to eat him! I would not even dare to look at him.

O shadow of God, the Just! O honorable and greatly admired prophet! God forbids.

I have never wandered near your son, neither have I ever seen that pure and beloved one of yours.

Then the ten sons went out, speeding like the wind towards the desert.

They ran around in every direction and caught a wolf which was as fierce as a lion.

Smearing its claws and jaws with blood, they dragged it to their father.

They said: 'This wolf, unjustly, committed the crime; it is this savage wolf which devoured the body of Joseph.'

The injured Jacob looked at that wolf, pondering on this poor and innocent beast:

It was smeared with forged blood which showed also on the claws of both of its hands.

Jacob, the honorable and the man of blessed ancestry, rose up out of pain suffered by his heart and soul.

He prayed for a while to the One Who created all beings.

After he had uttered his prayers for a while, he addressed God with an all devoted heart,

And said: 'O God! By your bounty, glory, grandeur and generosity!

Endow this wolf with the faculty of speech, so that I can make a full investigation of these statements,

That I may know whether they are true or present only falsehood and forgery.

At that time the Lord of religion and justice endowed that dumb wolf with the faculty of speech.

Jacob then addressed it saying: 'O unfaithful and unloving wolf!

Why did you eat [the one] who was my soul's desire, the sun that filled my spirit with light,

The one who was for me pleasure and consolation; who was for me wisdom, dignity and poise?

What ill deed did you suffer at my hands, which caused you to sever me from my [family] ties in this way?

Naturally he used all the facts contained in Sūrat Yūsuf. But while the story in the Qur'ān begins with the well-known dream of Joseph, Firdūsī begins his poem, after the customary praise of God and his prophets, by giving the reasons for the revelation of Sūrat Yūsuf. After he has written about 170 verses, the poet tells us why he chose to make the story of Joseph and Zulaykhah a subject for his long poem. He informs us that two poets before him versified this story, one of whom is Bū al-Mu'ayyad from Balkh and the other is Bakhtyāī. He then mentions a certain prince of Iraq for whom, he says, the poem was composed. In verse 251 he begins to express some of his feelings about the story and how it is more becoming of him as a Muslim to pay attention to it rather than to the legends of the Magians.

The actual story begins in verse 337 by the birth of Jacob. He dwells on the life of Jacob and his family until he comes to the birth of Joseph in verse 795. It is only after he had composed 1190 verses that he mentions the dream of Joseph. The description of the dream itself took about 100 verses. Then he comes to the conspiracy of Joseph's brothers against him. Facts in verses 11 through 18 of Sūrat Yūsuf which take only half a page in an octavo copy of the Qur'ān are related in a very detailed and elaborate way with materials not originilly Qur'ānic but belong to Jewish and Christian origins. One example of the numerous details included in Firdūsī's poem runs as follows:

"Then (the sons of Jacob) said: 'If you do not believe us when we say that this great catastrophe was caused by the wolf,

We will dash from here now, and look for that wolf around the herd,

To bring it in front of you immediately so that you may discover how he committed this crime.'

Jacob said: 'This will be very good, and it may help to ease the sadness of my soul.'

They said: 'O father! we shall carry out this order, catch the wolf and bring it is front of you.

Have you lost all reverence for your father,

That whom his own parent cast from his bosom,

Him you will receive into yours?

A man who was nurtured by a bird in the mountains!

...........

You with your roseate countenance and musky tresses—

Seek a man whose hair is already white with age"

Rūdhābah is angry at the counsel of her attendants. She goes on to say that Zāl is the only man she loves. Witnessing her vehement attitude, the attendants change their minds and, through them, an interview is arranged between Rūdhābah and Zāl, but they use their skill in playing tricks to make him ask for the interview with Rūdhābah, thus preserving the dignity of their mistress. The interview takes placs in a private pavillion of the princess. Going towards the princess Zāl is received with all due respect and admiration. He is helped with a rope to climb to the terrace on which stood Rūdhābah[1]

The interview is enlivened with a dialogue in which each of the lovers admires his partener. At a point Zāl says:

" O sweet and graceful silver-bosomed maiden

We should do naught unbecoming our birth

For better is the seemly than the unseemly,

That which is lawful than which is forbidden." (1)

The episoode goes on to describe the difficulties they had to face until they got married. The marriage resulted in the birth of Rustum, the greatest fabulous hero of ancient Iran, whose story and adventures occupy a considerable part of the Shāh-Nāmah.

Unlike well-known epics of the West, the Shāh-Nāmah contains a collection of epics and romances put together in one great peom.

It would be interesting to discuss now how Firdūsī presented the story of Joseph and and Zulaykhah.

---

(1) Translated S. Robinson in his: Persian poetry for English Readers, London, 1883.

The episode commences with a visit which Mihrāb pays to Zāl, who receives him with distinguished honour, entertains him at a sumptuous banquet, and they separate with mutual respect. The episode, after this, runs as follows:

Then a chief of the great ones around him
Said: 'O thou, the hero of the world,
This Mihrāb has a daughter behind the veil,
Whose face is more resplendent than the sun,
From head to foot pure as ivory,
With a cheek like the spring, and in stature like the teak-tree,
Upon her silver shoulders descended two musky tresses,
Which like nooses, fetter the captive;
Her lip is like the pomegranate and her cheek like its flower;
Her eyes resemble the narcissus in the garden;
Her eyelashes have borrowed the blackness of the raven;
Her eyebrows are arched like a fringed bow.
Wouldst thou behold the mild radiance of the moon?
Look upon her countenance!
Wouldst thou inhale delightful odours?
She is all fragrance!
She is altogether a paradise of sweets,
Decked with all grace, all music, all thou canst desire!'

On hearing this description Zāl becomes enamoured of Rūdhābah, who also, hearing about Zāl from her father's description, falls in love with him. After a time, she reveals the secret of her passion to her attendants who, on hearing the story of Rūdhābah's love for Zāl, they reply:

"O crown of the ladies of the earth!
Maiden pre-eminent amongst the pre-eminent!
Whose praise is spread from Hindoustan to China;
...........

And opened fame portals as heroes demand,

Through skill of his majesty iron he melted

And steel into helm, plate and corselet he smelted,

..............

He next worked on vestment full fifty years more,

That the folk might have robes for the feast as for war. (1)

In this way, he goes on to enumerate the supposed inventions of this legendary king in the same way as any of the writers who wrote about this king in prose.(2)

But the Shāh Nāmah contains episodes of love and heroism in which the talents of its great author are displayed. Of the love episodes we can mention the story of Zāl and Rūdhābah and the story of Khorsū and Shirīn. The valour and bravery of the ancient heroes are displayed in a majestic style and with porverful words resounding with greatness. Some verses from the story of Zal and Rūdhābah will be quoted here to show the poets ability in writing romance poetry :

"Zal is the son of Sām, one of the generals of Manūchahr, king of Persia. Having the misfortune to be born with white hair, he incurs the disgust of his father, who orders him to be exposed on the savage mountain of Elburz, where he is nurtured by the Sīmurgh, an immense fabulous vulture which figures in the legends of Persia. After a time the affection of the father is revived towards his child. He is recovered from the care of the Sīmurgh, and, arrived at manhood is sent to govern the frontier province of Zābul; the adjoining province of Kābul though tributary to the Persian empire, being governed by its own king named Mihrāb.

---

(1) Translated by S. Robinson in his : Persian Poetry for English Readers, [London], 1883.

(2) See for example : Shāh Nāma'i Tha'ālibī, (Persian translation by Maḥmūd Hidāyat), p. 6, Tehran, 1328.

is the love story of the two Arab lovers Laylā and the Majnūn. The fourth is an epic on Alexandar and his history according to Persian tradition. The fifth is a collection of seven narratives put in the mouths of seven favourites of King Bahrām Gūr.

But it would be a grave mistake to suppose that the sources of inspiration for Persian narrative poems remained purely Persian, Islamic or Arabic. The range of their sources became wider all the time. They achieved their utmost width in the works of the Ṣūfī poets especially those who wrote gigantic Ṣūfī poems of great lengths. Those poets made use of stories borrowed from many races and localities and utilized them in illustrating their views. The ideas of the Ṣūfīs on universal love and universal brotherhood were very well served by these narratives borrowed from every source that was available to them. It is not within possibility in this paper to try to analyze or even to enumerate the various sources from which th Ṣūfīs borrowed their narratives. It is a matter which should be treated in an independent work. But it would be safe to state here that these sources were as varied as the people included in the Islamic world. The question which concerns us more here is the manner and style in which materials of older origins were presented to us by the Persian poets. Naturally we will have to confine ourselves to the main observations leaving minute details to a work of a larger extent.

The Persian poets, when they put into verse the stories of the past, did not reproduce these stories exactly as they had found them. They elaborated them adding a good deal of details and original contributions.

If we examine a work like the Shāh Nāmah we find two kinds of poetry. One of them is the mere mention of the original happenings of the story in verse and this at its best is versification of prose. An example of this can be found in the story of the legendary king Jamshīd who is supposed to be the originator of civilization. Some of its verses read as follows:

To the making of weapons he first turned his hand,

above mentioned dynasty assigned to him the task of versifying the national legends of Iran. Daqīqī died at an early age and was able to produce only one thousand verses dealing with the prophet Zoroaster and the rise of Zoroastrianism. These verses were incorporated by Firdūsī in his Shāh Nāmah (the Book of the Kings), the great national epic of Iran.

The Shāh Nāmah was composed during the later part of the tenth century and the early part of the eleventh. It is a poem of sixty thousand couplets narrating the legends and the history of pre-Islamic Iran. This national epic was composed from old chronicles of Iran preserved by the Persian kings and collected by order of Yazdagird III, the last king of the Sasanian dynasty. The early periods covered by it are of an absolutely legendary nature, but when it comes down to more recent dates poetry agrees with history. Reading the Shāh Nāmah one does not fail to notice the poet's great pride in his country and its past achievments. But Firdūsī, the Homer of Iran, was also a Muslim. Islam provided him with another background of which he made use in his literary compositions. At a late age he wrote a long poem on Yūsuf and Zulaykhah based on the Qur'ānic Sūrat Yūsuf.

Thus we can say that the legends, fables and history of ancient Iran gave rise to the art of narration in Persian poetry. But once the art was established, it began to widen its range of coverage borrowing stories from Islam and the Arabs.

The second great epic writer Niẓāmī of Ganjah displays the tendency of making use of Persian, Islamic and Arabic materials. He wrote five long poems, namely : Makhzan al-Asrār (the storehouse of mystrics), Khosru and Shīrīn, Laylā and Majnūn Iskandar Nāmah (the Alxander book) and Haft Paykar (the seven portraits). The first poem, the storehouse of mystries, is a poem on mysticism in which Niẓāmī gives some short tales to illustrate his mystical views, but tales here are of a secondary importance. The second, the Khosru and Shīrīn is a poem on the love story of the Sasanian king Parviz and his beautiful beloved Shīrīn. The third

their ancient legends and history the main source of their inspiration. In this very important period of their national revival they became very much interested in anything connected with their glortious past, and the stories of their heroes and conquests were counted amongest the most precious items of their legacy. Emotions aroused by pride in the past have always been expressed by poems in every land, poetry being the best and readiest medium for expressing such emotions.

The revival of the Persian language ran parallel with the revival of Persian nationalism. The first semi-independent prince 'Abdullāh b. Ṭāhir, the general of al-Ma'mūn's army, who was given the governership of Khurāsān for defeating the army of al-Amīn (about 205 A. H. = 820 A. D.) was presented with an old Pahlavi story called the Vāmiq va 'Adhrā. He declined to accept it saying that it was one of the compositions of the Magians and that it was not becoming of him as a Muslim to care for such literature. He ordered it to be destroyed (1). But this story points out to the fact that the people began to be interested in reviving their ancient literature as soon as they enjoyed a limited amount of freedom. The fact that someone presented an ancient story to his ruling prince shows that it was held in high esteem.

The two dynasties which ruled in different parts of Iran a few years later, namely the Ṣaffāris (867–903) and the Sāmānis (874–999) became patrons of Persian poetry. Two great poets who were patronised by the latter dynasty composed long narrative poems. One of them is Rūdagī (known also as Rūdakī), a great Persian poet who is said to have produced one million and three hundred thousand couplets of verse. He was born about 880 A.D. and died in 954. He versified the book of Kalīlah wa Dimnah from the Arabic version of Ibn al-Muqaffa'. A number of couplets from this work have survived in an old Persian lexicon compiled by Asadī and show a clear understanding of the Arabic text on the part of Rūdagī. The second great poet of the Sāmānī period Daqīqī began to write epical poetry in the true sense of the word. It is said that one of the rulers of the

---

(1) Dawlatshāh: Tadhkirat al-Shu'arā', p. 30.

Mother had given me a sign to prove my identity to my father.

And now my love for him is bringing my life to an end.

I have been looking for him hoping that I may see him.

And now I have given up my life because of my attachment to this hope.

Alas that my efforts never bore fruit,

And that I will never see my father's face.

Now if you become a fish in the sea

Or disappear in a darkness like that of the night,

Or climb up high in the sky like a star,

And fly away from the face of the earth until you reach the sun,

My father will still exact vengeance on you,

When he sees me lying with a brick as my pillow.

Of these noble and great men (present here)

One will carry the news to Rustum,

That Suhrāb is slain and thrown despised on the earth,

And that that he wanted you to be his avenger."

Attributing this elaborate type of speech to the heroes is common in the epics and romances of Persian literature. We can quote hundreds of examples in which the dialogue gives up the simple and natural form of conversation in favour of the more elaborate oration form.

The reason for the revival of the Persian language, namely the revival of Persian nationalism is still the first cause which created the epic poetry in the Persian language. The revival of nationalism made the people interested in their past. The ruling semi-independent princes of Persia claimed to be descendants of the ancient kings of that land. The people became interested in their history, and, the poets among them, naturally the spokesmen of national pride, began to make

representing scenes of love and affection can rank among the best ever written. An example from Firdūsī's Shāh Nāmah, given below, will help give the reader an idea about these romantic dialogues.

The strife or debate poetry (Shi'r al-Munāẓarah) is based on the dialogue presenting an argument between two contestants. Asadī Ṭūsī, the Persian poet who lived in the tenth century, wrote several examples of this debate poetry of which we can mention here the debate between Day and Night. In this debate Day and Night are presented as boasting of their 'virtues' and each one of them claiming superiority over the other. But we cannot fail to recognize the artificial nature of this type of poetry. In fact it does not present much beyond the displaying of some mental exercise and artificial skill.

In the long epics and romances we find a better kind of dialogue. Yet the parties of the dialogue are in most cases portrayed in a way that makes their conversations look more or less like orations. We can quote an example to illustrate this statement from the story of Rustum and Suhrāb. After Rustum had stabbed his son and opponent Suhrāb (they both did not know their relation until then) the latter gives a long speech in order to say that he was Rustum's son. The following are the verses in which the hero of Turan reveals his personality to his father.

" After the stab Suhrāb fell down writhing with pain and drew a sigh

He cut short his thoughts about good and bad.

To Rustum he said, 'This fate had befallen me out of my own action.

It was I who put the key in your hand to bring it about.

You are innocent of this; it is heaven's will which raised me up, then, soon destroyed me.

Those of my own age are still children engaged in play.

While I lie stretched on the ground in this way.

Said I: 'Tears are my witness, paleness of face my evidence.'

He said: 'The witness is not valid; your eye is corrupt.'

Said I: 'By the majesty of thy justice they are just and clear of sin.'

He said: 'What do you intend?' Said I: 'Constancy and friendship.'

He said: 'What do you want of me?' Said I: 'Thy universal grace.'

He said: 'Who was your companion?' Said I: 'Thought of thee, O King.'

He said: 'Who called you here?' Said I: 'The odour of thy cup.'(1) ...........

The type of dialogue presented in this kind of poetry is meant mainly to present the ideas of the poet on the subject he discusses. The story included is not of much importance.

Even the mental ability of the speakers is in many cases forgotten and the poet makes common people discuss spiritual matters and utter maxims and wise sayings. The great Mathnawī of Rūmī contains many examples of this fact. In such dialogues one would not fail to admire the beauty of the poet's style, his depth of thinking and the glorious show of ideas which follow each other in his poems. But he would fail to witness the realistic type of dialogue in which the exchange of ideas represent the level of thinking of the characters taking part in it. But the lack of realism in the case of this type of poetry does not affect to a great extent its literary value as it would in the case of dramatic writings.

It is in romantic poetry that we meet with dialogues of immense charm. Great poets like Firdūsī and Nizāmī have displayed in their romances a masterly ability and skill in portaying lovers, and, dialogues

---

(1) Translated by Raynold A. Nicholson in his "Selected Poems from the Divāni Shamsi Tabriz", Cambridge, 1898.

students to memorise them. It was in the vernacular dialects of the Arabic language and not in classical Arabic that Arabic epic poetry began to appear as a developoed art and to assert its existence in Arabic speaking lands.

Thus it can be said that Abān's attempt to establish the Mathnawī in Arabic literature was never continued.

On the other hand, the Persians developped this kind of poetry and produced in it all their poems in which they conveyed to us their history, their legends and all kinds of narratives which they made the subject of poetical compositions.

Besides the Mathnawī form which made the composition of long poems possible, the Persians developped a form of expression in poetry which is necessary for narrative compositions, namely the dialogue style. Arabic poetry has witnessed the occasional appearance of this style since pre-Islamic times. The Mu'allaqāt contain some short dialogue pieces, the like of which continued to appear in Arabic poetry after Islam.

The dialogue style is called "Tarīqat al Su'āl wa 'l-Jawāb" (the style of question and answer) by the Persians. It was applied by the Persians in short as well as in long poems. Even Ṣūfī odes can show many examples of the application of this style. The following poem by Jalāl al-Dīn Rūmī gives us an example of the application of this style in Ṣūfī odes:

He said: 'Who is at the door?' Said I: 'Thy humble slave.'

He said: 'What business have you?' Said I: 'Lord, to greet thee.'

He said: 'How long will you push?' Said I: 'Till thou call.'

He said: 'How loug will you glow?' Said I: 'Till resurrection.'

I laid claim to love, I took oaths

That for love I had lost sovereignty and power.

He said: 'A judge demands witness as regards a claim.

to the traditional form of the Arabic qaṣīdah. They developped new forms of which the most important, as regards our subject, is the Mathnawī. In this form they have produced romances and attempted to record their legends and history. Thus, it is the form most closely connected with the art of story-telling in the Islamic Persian poetry.

A Mathnawī is a many-rhymed poem. Every couplet in a Mathnawī has its own rhyme. Thus the rhyme in a Mathnawī changes from one couplet to the other. This is in clear contrast with the classical Arabic system of rhyming based on one rhyme for all the poem. The mono-rhyme system did not permit the composition of long poems in the classical Arabic and, probably, because of this reason, the above mentioned language did not possess any epic poetry in pre-Islamic times.

We hear nothing about the composition of Arabic poetry in the Mathnawī form until the second century of Islam. Then, we hear that an important poet who lived in this century, namely, Abān b.'Abd al-Ḥamīd al-Lāḥiqī (d.200 A. H.; 815-16 A. D.), wrote most of his poetical works in the Muzdawij (Mathnawī) and Musammaṭ forms (1). He devoted the great bulk of his works to the versification of prose books (2). Naturally he used the Mathnawī form, the only form capable of accomodating poems of great length. We are told that among the works he versified were the book of Kalīlah wa Dimnah, Sīrat Ardashīr, Sīrat Anūshirwān, Kitāb Bilawhar wa Būdāsif, Kitāb-Sindibād and Kitāb Mazdak (3).

Unfortunately, none of Abān's works ever reached us, and, all that we know about them is that they were versifications in the Mathnawī form of some Hindū and Persian works. After Abān we hear of no Arab poet who used the Muzdawij form in writing romances or versifying stories. However, the Muzdawij form was used at a later date for versifying facts of the various sciences to make it easy for

---

(1) Ibn al-Nadīm : al-Fihrist, p. 163.

(2) Ibid, p. 119.

(3) Ibid, 119 & 163.

a large number of Arabic words found their way and became part of it. There is of course Islam which gives the new language a cultural background completely different from the Zoroastrianism of the Pahlavi period. The most important difference as regards the subject of this paper is that new Persian borrowed the metres of poetry from the Arabs and submitted itself for a long time to canons of Arabic prosody and literary criticism. The Persians modified Arabic metres to suit their language. They also developped new forms which are completely different from the traditional Arabic qaṣīdah. But the influence of Arabic poetry on Persian poetry remained very clear. The canons of criticism applied to Arabic poetry were also applied to Persian poetry. A glance at al-Mu'jam fī Ma'āyīr Ash'ār al-'Ajam by Shams al-Dīn Rāzī shows the great extent to which the Persians have gone in this respect.

The Persian writer Niẓāmī 'Arūẓī Samarqandī asserts in his work Chahār Maqālah (written between 551 & 552 A. H.) (1) the importance of studying Arabic prose and poetry for anyone who desires to attain proficiency in writing Persian. (2)

Rashīd al-Dīn, the author of Ḥadā'iq al-Siḥr; a Persian book on prosody, says: "In learning, subtlety and force of expression, all the subsequent poets of Islam are the children of Mutanabbī." (3) Dawlatshāh says: "Without doubt eloquence and perspicuity are the property of the Arabs, and the poets of Persia, in this respect, simply follow them, especially in the science of rhetoric, of which the Arabs are past masters." (4)

But, although the influence of Arabic poetry on Persian poetry was great, it must be said that the Persians did not tie themselves

(1) Niẓamī 'Arūẓī Samarqandī: Chahār Maqālah; Introduction to the Arabic. translation by 'Abd al-Wahhāb 'Azzām and Yaḥyā al-Khashshāb, p. 8.

(2) Ibid, inroduction to the first discourse.

(3) Dawlatshāh: Tadhkirat al-Shu'arā', p. 24. Quoted and tr. by Umar Muḥammad Daudpota: The Influence of Arabic poetry on the development of Persian poetry, p. 33.

(4) Ibid., p. 34.

poets and there is no reason why it should not have produced them in pre-Islamic times. Up to the present day, the Persians show great interest in poetry and hold their poets in high esteem. Many foreign visitors to Iran have observed this attitude of the Persians towards poetry. Ancient Iran also produced many singers whose names came down to us. This is a fact that can imply the existence of poets in ancient Iran because singing depends to a great extent on poetry.

As for the Muslim writers who assure us that ancient Persia produced no poetry, their statements can be questioned. Old Persian poetry might have been lost by the time when they made their statements. In the same way, it can be argued that they might heve seen ancient Iranian poetry but did not understand it because it did not comply with their rules of prosody. The fact that the Muslims ignored altogether the Greek poetry, in spite of their wide interest in Greek sciences and philosoply is an indirect proof of this.

The view which denies the existence of Perrian poetry in ancient Iran is based on the material evidence, that no poetry or even names of poets from ancientPersia ever reached us. It is difficult to suppose that the whole poetical literature of a nation can be completely lost. But, so long as these opposed views rest on theoretical grounds, we are not likely to arrive at any definite results.

When Persia was conquered by the Arabs, and its people were mostly converted to Islam, a new era of poetry and culture started in this country. The Arabic language ruled supreme in Iran during the first three centuries of Islam, and, Persian scholars and even poets expressed themselves in Arabic. Muslim institutions replaced Zoroastrian institutions.

But with the revival of Persian nationalism in the third century of Islam, the Persian language began to attain its place again amongst its people. It did not replace Arabic altogether but began to co-exist with it in the world of letters.

The Islamic Persian language differed from the Pahlavi language the tongue of Persia during the reign of the Sasanian dynasty. The, new Persian is written in the Arabic script. In the new Persian

the first couplet of Persian poetry to the Sasanian king Bahrām Gūr. But, we may say with certainty that no poetry in the Pahlavi language ever reached us.

Thus it can be said that the only part of pre-Islamic Persian writings which can be considered as poetry (although a special type of it) is the hymns in the Avesta called "Gathas" which are attributed to Zoroaster, the prophet of ancient Iran.

The absence of any Persian poetry from the legacy of ancient Iran is not a case which modern scholars alone have noticed. Old Muslim writers also observed this fact and al-Jāḥiẓ states clearly in his book al-Ḥayawān that ancient Iran produced no poetry (1). Ibn Qutaybah holds the same view. Muslim Persian writers also like Shams al-Dīn Rāzī, the author of al-Mu'jam fī Ma'āyīr Ash'ār al-'Ajam (2), and, Muḥammad 'Awfī, the author of Lubāb al-Albāb (3), state clearly that the ancient Persians produced no poetry and that they learned the art of poesy after they had come into contact with the Arabs. Earlier than these two Persian writers, the Persian poet Fakhr al-Dīn As'ad al-Jurjānī (A.H. 440 = A.D. 1048) who versified the story of Vīs o-Rāmīn (4) from a Pahlavi version which contained neither metre nor ryhme, assures us that the ancient Persians did not cultivate the art of poetry (5).

On the other hand the Arabic writer Abū Hilāl al-'Askarī tells us that the ancient Persians produced a great amount of poetical works which were lost. He does not tell us on what grounds he bases this statement.

The whole situation as regards pre-Islamic Persian poetry can be summed up in two opposed views or suppositions: the first is that it is impossible that a country with a great civilization like Persia did not produce poetry. Persia, under Islam has produced many great

(1) Al-Ḥayawān, vol. 1., p. 36.
(2) Al-Mu'jam, p. 170.
(3) Lubāb al-Albāb, vol. 1, p. 20.
(4) Published and translated by Lees, Calcutta, 1865.
(5) Ibid, p. 11 & 12.

In any case, there is no similarity of any kind between the type of poetry contained in the Avesta and the Islamic Persian poetry from the point of view of poetical art.

An example of the Gathas hymns reads as follows in the translation of Williams Jackson:

"This I ask thee—tell it to me truly, Lord!
Who the Sire was, Father first of Holiness?
Who the pathway for the sun and stars ordained?
Who, through whom is't moon doth wax and wane again?
This and much else do I long, O God to know.
This I ask thee tell it to me truly, Lord!
Who set firmly earth below and kept the sky.
Sure from falling? Who the streams and trees did make?
Who their swiftness to the winds and clouds hath yoked?
Who, O Mazda, was the founder of Good Thought?
This I ask Thee — tell it to me truly Lord!
Who, beginant, made the dankness of the Light?
Who, beginant, sleep and waking did create?
Who the morning, noon and evening did decree.
As reminders to the wise, of duty's call?" (1)

Iran was invaded by Alexander the Great in 330 B.C. and, after the invasion, there followed six centuries of decline in Persia's power and nationalism. No poetical compositions reached us from this long period. Then came the Persian revival under the Sasanian dynasty. The language of Persia, during the reign of this dynasty, was the Pahlavi language. No poetical compositions in this language reached us. The few references to the art of poesy during the Sasanian period give us the names of a few singers who are supposed to have composed and sang poetry, and some legends about kings writing poetry. Most known among these legends is the one which ascribes

(1) Williams Jackson: Early Persian Poetry, p. 9, New-York, 1920.

# THE DEVELOPMENT OF PERSIAN NARRATIVE POETRY

BY

MUHAMMAD KAFAFI (Ph.D. London)

The Islamic Persian poetry is the poetry of the Persian speaking people which was developped in Persia after its conquest by the Arabs in the seventh century of the Christian Era. We begin to see it as a well developped art in the tenth century. Before this time (between the Arabic conquest and the tenth century) it was trying to take its shape, a shape which it has kept since then up to the present day.

But, what is the origin of this Islamic Persian poetry?

When we look at the legacy of ancient Iran, we do not find poetry among other treasures of that legacy. All that reached us from the poetry of Ancient Iran is some hymns in the Avesta, the sacred book of ancient Iran, which are believed to have been originally produced by Zoroaster in the seventh century B. C. The book as we have it today consists of texts of different dates. The oldest parts of it, from the linguistic point of view, are the Gathas which still preserve for us what is believed to be the remnants of the hymns of Zoroaster. Other parts of the Avesta which contain some metrical compositions are the Yashts, which contain praises of angels and demigods. But the metres of the poetical compositions of the Yashts are less elaborate than those of the Gathas [1] although the Yashts are of more recent date than the Gathas.

---

[1] Consult on this point Glender: Metre of the later Avesta, and, J. H. Moulton: Early Riligious Poetry of Persia.

## CONTENTS

### OF THE EUROPEAN SECTION

The Bulletin of the Faculty of Arts is issued twice a year, in May and December. All requests for copies should be made to the Cairo University Librarian, Giza. Communications regarding contributions should be addressed to the Editor of the Bulletin of the Faculty of Arts, Giza, Egypt.

---

Back numbers of this Bulletin are available at 30 P.T. for each Part.

# BULLETIN

OF

# THE FACULTY OF ARTS




VOL. XIX—PART I

MAY 1957

MEMORIAL NUMBER

for

THE LATE PROFESSOR ABDEL-WAHAB AZZAM

Cairo University Press

1960







المجلد التاسع عشر — الجزء الثانى

ديسمبر سنة ١٩٥٧

عـدد خـاص

فى ذكرى

المرحوم الدكتور منصور فهمى

مطبعة جامعة القاهرة
١٩٦١



تصدر هذه المجلة مرتين كل سنة ، فى مايو وديسمبر ، وتطلب من مكتبة جامعة القاهرة بالجيزة ، وتوجه المكاتبات الخاصة بالناحية العلمية الى المشرف على تحريرها السيد الدكتور محمد حمدى البكرى الأستاذ بكلية الآداب بجامعة القاهرة ، وثمن الجزء الواحد من أى مجلد ثلاثون قرشا مصريا .

# فهرس القسم العربى

# منصور فهمى

## بقلم تلميذه : أحمد فؤاد الأهوانى

لكل عالم جوانب متعددة تتميز بها شخصيته . ولكن السمة الغالبة على منصور فهمى ، والتى تميزت بها حياته هى الفلسفة ، تلك التى اشتغل بها ، وقام بدراستها وتدريسها ، وقضى زهرة حياته فى العمل لها ، فكان له تلاميذ فى الجامعة حضروا عليه ، وأخذوا عنه ، واتبعوا منهجه ، وكنت أحد هؤلاء التلاميذ الذين استمعوا لمحاضراته فى « الجامعة المصرية » سنة ١٩٢٧ و ١٩٢٨ و ١٩٢٩ ، حيث كان يلقى دروساً فى الأخلاق .

وفى سنة ١٩٥٩ اختاره الله لجواره وهو فى الثالثة والسبعين من العمر .

وفى هذا العدد من مجلة الآداب الذى نخصصه لذكرى الفقيد الفيلسوف نسجل لمحة عن حياته ، ثم عن مصنفاته ، ثم عن فلسفته . ونعقب ذلك ببحث من قلم الفقيد عن « علم الجمال » كان قد ألقاه متفرقا فى تسع كلمات ومقالة عن القومية العربية ، وأخرى يصف حفيده وهى آخر ما كتب .

١ — حياته :

نشأ منصور فهمى فى قرية شرنقاش من أعمال مديرية الدقهلية ، وكان مولده عام ١٨٨٦ وتعلم مثل معظم أبناء الأعيان فى الريف فى كتاب القرية ، وحذق القراءة والكتابة ، وحفظ بعض القرآن الكريم . ثم التحق بمدرسة المنصورة الابتدائية حتى حصل على الشهادة الابتدائية منها . وإذ لم تكن بالمنصورة مدرسة ثانوية فقد انتقل إلى القاهرة لإكمال تعليمه بها ، وحصل على الشهادة الثانوية سنة ١٩٠٦ ، ثم التحق بمدرسة الحقوق ، ولكنه لم يتم بها دراسته ، إذ كانت الجامعة المصرية قد عزمت على إيفاد بعثات إلى أوربا ليعود الطلبة منها بعد إتمام دراستهم للتعليم بالجامعة . وفاز منصور فهمى فى مسابقة بعثة الفلسفة إلى جامعة باريس ، وأوفد سنة ١٩٠٨ إلى فرنسا فمكث بها خمس سنوات ارتشف

من مناهل العلم على جهابذة أساتذة السوربون . وقد نوّع دراساته فاتجه للمباحث الطبيعية والفسيولوجية إلى جانب تخصصه فى الفلسفة وفروعها ، وبخاصة علم الاجتماع . وقد درس بوجه خاص على أشهر علماء الاجتماع فى ذلك الحين وهو ليفى بريل صاحب المؤلفات والبحوث المشهورة فى هذا العلم .

وأخيراً تقدم لنيل إجازة الدكتوراه وكان موضوع رسالته « المرأة فى الإسلام » . والموضوع كان يعد فى ذلك الحين حديث الساعة ، فقد كانت المرأة ترسف فى أغلال ثقيلة من الحجاب ، لم تكن مفروضة عليها من الدين نفسه ، ولكنها كانت أثراً من آثار التقاليد فى العصور المتأخرة من حياة المسلمين . ورأى أحرار الفكر ، وعلى رأسهم قاسم أمين ، صاحب الفضل فى تحرير المرأة ، وصاحب الفضل فى إنشاء الجامعة المصرية ، أن نهضة الشرق وبعث المسلمين لا يمكن أن يتم إلا بتحرير المرأة . ولاقى أحرار الفكر المنادون بهذا التحرير معارضة شديدة من أنصار التقاليد المتمسكين بها ، وأصيب قاسم أمين برذاذ من هذه المعارضة ، كما أصيب منصور فهمى .

غير أن المحنة التى أصابت فيلسوفنا من جراء هذا الاتهام نالته فى منصبه ، ذلك أنه بعد تعيينه لتدريس المذاهب الفلسفية فى يونيه سنة ١٩١٣ بالجامعة المصرية ، أبعد عن منصبه وظل مبعداً عنه ست سنوات ، ولم يعد إلى منصبه إلا فى عام ١٩٢٠ ، وظل يدرس الفلسفة إلى أن تحولت الجامعة المصرية إلى جامعة حكومية ، وأصبح أستاذاً مساعداً ، ثم أستاذاً ، ووكيلا لكلية الآداب ، ثم عميداً لها . ولم يترك العمادة إلا ليشغل منصب مدير دار الكتب ثم اختير مديراً لجامعة الاسكندرية ، وبقى بها حتى أحيل إلى المعاش سنة ١٩٤٦ .

وفى سنة ١٩٣٣ اختير عضواً بالمجمع اللغوى ، وفى العام التالى أصبح كاتب سر المجمع ، وظل فى هذا المنصب إلى أن اختاره الله لجواره سنة ١٩٥٩ .

٢ — منهجه فى التعليم :

كنا فى العقد الثالث من القرن العشرين شباباً مملوءاً بالحماسة والاندفاع والثورة والغرور . وكان أمل الواحد منا أن يتم تعليمه ويظفر بالشهادة الجامعية ليظفر بعد ذلك بوظيفة حكومية تؤمن عيشه . ولما كان معظم أساتذتنا من الأجانب ، فلم نكن نفضى بذات أنفسنا إلا لهذه القلة القليلة من الأساتذة المصريين ومنهم الدكتور منصور فهمى . ودار بيننا وبينه الحديث حول مستقبلنا ، فكان يقول : « اطلبوا العلم للعلم » .

« اطلبوا العلم للعلم » هى العبارة التى رسخت فى نفسى ، ونُقشت فى صفحة ذهنى ، حتى اليوم . وكنا فى ذلك الحين نسخر من هذا الرأى ، فلما امتدت بنا السن وعركتنا تجارب الزمن عرفنا أن طلب العلم لذاته غاية أسمى ترفع من شأنه وتأخذ بيده ، وأن الأمم ما نهضت إلا حين سعى أبناؤها يطلبون العلم للعلم ، وما تأخرت إلا حين أخضع أهلها العلم لغايات الدنيا فانصرفوا عنه .

أما منهجه فى التعليم فكان أبعد الأشياء عن « التلقين » . ولذلك لم يكن يهيئ فى محاضراته موضوعات مقررة ندونها كى نحفظها عن ظهر القلب ثم نستعيدها فى الامتحان ، وإنما كان يدير محاضراته على الأسئلة وعرض المشكلات ومحاولة حلها والتفكير فيها . كانت طريقته أشبه شىء بمحاورات سقراط يهدف منها إلى انتزاع المعرفة من النفس ، واستثارة التفكير . وهذه أمثل طريقة تفتح العقول وتكونها وبخاصة فى بحث الأمور الأخلاقية والنفسية .

ويبدو أنه هو نفسه كان يؤمن بهذه الطريقة ويصطنع هذا المنهج ، فلم يدوّن ، ولم يكتب ، اللهم إلا خطرات نفس مما كان ينشره بين الحين والحين ، وقد تيسر لى أن أشهده عن قرب فى أواخر حياته وهو يصطاف برأس البر . كان يمشى على ساحل البحر عند الأصيل ، ثم يجلس فى مواجهة البحر بعض ساعة يتأمل مغيب الشمس وابتلاع اليم لقرصها عند الأفق ، ويستمع إلى هدير الأمواج وموسيقاها ، فتتصل نفسه بعظمة الكون والطبيعة ، وينفذ عن طريق التأمل المباشر إلى الحقيقة الكبرى . وهل يمكن أن تدرك الحقيقة بالعقل والتفكير ؟ أم بالذوق والاتصال ؟ لعمرى إن طريق فلاسفة الهند ، وصوفية الشرق ، وإشراق الأفلاطونيين لهو الطريق إلى معاينة الحق . وهذا ما كان يفعله منصور فهمى فى حياته الفلسفية .

٣ — مصنفاته :

لم يؤلف منصور فهمى كتباً برأسها ، ولم يكن يعنيه أن يؤلف . فهو محدث ، وخطيب ، ومحاور ، يتصل بالناس والجمهور ، أكثر منه كاتباً يجلس فى برجه العاجى ليلقى إلى القراء بخلاصة ما دبج قلمه . ولذلك كانت معظم مؤلفاته إن لم تكن جميعها ثمرة المحاضرة أو الخطابة أو الخاطرة القصيرة مما كان ينشره فى جريدة الأهرام بوجه خاص ، أو أحاديث بالاذاعة . وقد جمعت الخطرات ونشرت فى كتاب ، وكذلك محاضراته عن رائدات النهضة النسائية .

وأحاديثه عن الجمال ثمرة تفكيره الخاص، ووحي نفسه، وهي التي سننشرها في آخر هذه المقدمة لتكون نموذجاً لبحثه الأصيل النابع من أعماق حسه ووجدانه.

وقد لفت انقطاعه عن الكتابة والتأليف النظر، فكتب يرد على أسئلة سائل قال:

« لا أظن أني انقطعت عن التأليف تماماً، إذا اعتبرنا أن في محاضراتي ومقالاتي وأحاديثي الصحافية وخطبي نوعاً من التأليف. أما إذا قصرنا التأليف على تصنيف الكتب التي قد يكرر بعضها ما في البعض الآخر في صور مختلفة دون زيادة تذكر، فربما يكون انصرافي عن هذا النوع من التأليف إلى أعمال بعض الجمعيات ذات الأهداف الخيرية النافعة المحببة إلى نفسي، وكذلك إلى الأعمال الادارية التي زاولتها وأزاولها في الأعمال الرسمية — أقول ربما يكون في ذلك ما عوقني عن المضي في سبيل هذا النوع من التصنيف.

وزيادة على ذلك فإن شغفي بالمبتكر الطريف قد يكون له شأنه في تعطيلي عن الإسراع في التأليف حين أجد أن المتقدمين لم يقصروا في خدمة الموضوعات التي تناولها المتأخرون مما يقع في دائرة تخصصي العملي، وأن ما قد يضاف إلى أعمالهم من جهودي أو جهود أمثالي من المتأخرين قد لا يفي بحاجة المطلعين منهم وذوي المكانة فيهم. وهذا كاف للتردد والإبطاء.

وزيادة على ما تقدم، فإن طبيعة اختصاصي في المسائل الفلسفية والاجتماعية ليست جذابة لجمهرة القراء عندنا في الحاضر. أما من تلذ لهم هذه المباحث من القليلين فإنهم من زملائي أو تلاميذي. ولم تنقطع صلتي بهم في تبادل الأفكار بشتى الوسائل. ومع ذلك فلدي أسس لمصنفات اجتماعية أو فلسفية، أرجو الله وأستعينه أن يوفقني لإتمامها ونشرها (١) ».

٤ — فلسفته:

ظل منصور فهمي طوال حياته يدرس الفلسفة، ويبحث عن الحقيقة، ولم يصل إلى تحديد دقيق للفلسفة ما هي، وللفيلسوف مَنْ يكون، وهو الذي كان يعده الناس فيلسوفا والذي كان بحكم صناعته ينهض بتدريس الفلسفة. وقد سألته مجلة الهلال عن الفيلسوف بين الناس كيف يكون، ومن يكون، فلم يهتد — على طريقة سقراط — إلى جواب شافٍ. وإليك بعض ما قاله في الجواب عن ذلك السؤال:

---

(١) من أوراقه الخاصة التي تفضلت زوجته الكريمة باطلاعي عليها.

« وبعد أن أخذت أعرض مختلف التعليلات والتأويلات لهذا السؤال ، قلت فى نفسى :
لا مانع من رسم صورة تخطيطية لما يتوهمه عامة الناس عن الفيلسوف . ولعلى بعد ذلك أرسم صورة للفلسفة عن أهل التذكر منها ، ثم لعلى أخيراً أهتدى لما أراه لنفسى رأيا .

تذكرت أنهم علموا فيما علموا أن الفيلسوف يحلل ويعلل ، ويفحص ويمحص ، وقد يجر ذلك إلى تحقيق وتدقيق ، وإلى إسهاب وإطناب ، وإلى جدال فيه أحياناً بعض إملال . أليس بعض من يصطنعون التعليل والتدليل ، ويتخذون الاسترسال والتطويل يظفرون من بعض الناس بألقاب فلاسفة الزمان وعباقرة الأوان ؟ وقد يقال فى سذاجة — أحياناً — لمن يدقق أو يسبح بفكره وبخياله ويحلق ... إنك لفيلسوف . فهل يا ترى يكون الفيلسوف هو الثرثار المدقق ، أو الغائص المتعمق ، أو السارح فى السموات المحلق ! لست أدرى .

ولطالما سمعت عمن يشذ بتفكيره وتصويره ، أو يتفاخم ويتضاخم بمصطلحه وتعبيره أنه أصبح فى حظيرة الفلسفة وعداد المتفاسفين . وقديما قالوا عمن شرد فى فكرته ، وتأول فى المألوف من عقيدته : بثلاثة كفر الفلاسفة العدى . تُرى أتكون الزندقة حقاً معادلة للفلسفة ، ويصبح الفيلسوف من الناس مَنْ تزندق وتمنطق . . . لست أدرى .

ولربما قيل عن الرجل الغافل عن أمور الدنيا ، المنعزل عن ماجريات الوجود ، الغبى أو المتغابى ، بأنه فيلسوف . . . فكأن الفلسفة فى نظر هؤلاء تمت إلى الغفلة أو التغافل ويكون الفيلسوف هو من اتصف بهذه الصفة أو تلك ، فهل حقاً يكون من الفلاسفة بعض المغفلين أو المتغافلين . . . لست أدرى .

ولطالما سمى فيلسوفا من لا يكترث بشىء ، ولا يثور لشىء ، ومن يرضى بكل شىء ، وينظر للأمور ناعما هادئاً فى برود وجمود مستنا بقول من قال :

دع المقادير تجرى فى أعنتها ولا تبيتن إلا خالى البال

***

ويتضح مما نقلناه أن متسور نفسه لم يكن يعد نفسه فيلسوفا بالمعنى المصطلح عليه من قديم ، ومن المعروف عن أفلاطون وأرسطو مثلا أنه كان لكل منهم مذهب كامل عن الوجود ما هو وعن طريق المعرفة والسبيل إلى بلوغ الحقائق . ولكن كانت له نظرات فى الحياة ، ومعرفة بالمذاهب الفلسفية ، ومحاولات لتحليل المجتمع الذى يعيش فيه وإصلاحه . وهذه المحاولات الفلسفية ، وآراء الإصلاح هى التى سعى إلى نشرها فى أحاديثه وفى مقالاته ،

وفى اشتراكه العملى فى الجمعيات الخيرية المختلفة . ذلك أن الفلسفة الأخلاقية إنما تبسط بالمَثَل وتنشر بالعمل .

وقد ألقى محاضرة سنة ١٩٤٠ عن الضعف الخلقى وأثره فى حياتنا الاجتماعية ، أجمل فيها فلسفته الأخلاقية ، التى يرد فيها أساس الأخلاق إلى المجتمع . ولا غرابة فى ذلك فقد درس كما رأينا على علم من أعلام المدرسة الاجتماعية وهو ليفى بريل . ليس الضمير الخلقى عنده فطرياً ، ولكنه مرآة للحياة الاجتماعية ونتيجة للتفاعل بين الأفراد فى المجتمع وثمرة لانتقال التقاليد والعادات من جيل إلى جيل . وإذا كان الأمر كذلك فالسبيل إلى إصلاح الأخلاق ، وترقية الضمير ، هو « التربية » . وبعد هذه الأصول النظرية يرد الضعف الخلقى الموجود عندنا إلى أمور ثلاثة هى : (١) مسايرة الهوى والخضوع لسلطان الشهوات (٢) الإغراق فى المجاملة (٣) ضعف الشعور بالغيرية .

ولندع منصور فهمى يتحدث عن نشأة الشعور الخلقى ، فيقول :

« لقد اصطلح الناس منذ القديم على تسمية هذا النور المتلألىء الهادى بالضمير . وليس الضمير إلا حساً معنوياً ، أو ذوقاً روحانياً ، يتركب من عناصر الحياة الاجتماعية ، وخلاصة التجارب فى العيش والمعاملات . فمنذ تكونت الجماعات البشرية والناس تغمرهم حاجات هذا الوجود وشئونه ، ويسبحون فى خضم واسع من الخبرة والمحن . وقد تتوارث الأجيال هذه الاختبارات التى لا تحصى ، فتتلقاها الذرارى وتتبادلها الشعوب المتغايرة . ومن هذا التوارث وهذا التبادل يتخلف فى الحياة ذوق أخلاقى ، يصيب منه الأفراد أقداراً مختلفة باختلاف أحوالهم وتربيتهم .

* * *

وإذا كان مذهب منصور فهمى فى الأخلاق يرجع إلى المجتمع ، فإن مذهبه فى الجمال يرتد إلى النفس شعوراً مباشراً بالجميل لذاته . وعنده أن الشعور بالجميل يتميز عن الشعور بالنافع ، أو الجليل ، وأن النفس تستشعر بالحرية من كل قيد حين تحس بالجمال حيثما يوجد .

وإذا كانت معظم المذاهب الحديثة فى علم الجمال تنفى عن الطبيعة صفة الجمال ، وترد هذا الشعور إلى الذات فقط ، وأنها هى التى تخلع على الطبيعة ما فيها من جمال ، فإن منصور فهمى يذهب مع القدماء إلى أن الكون جميل ، لأن وراء الكون ووراء الكائنات خالق مبدع أراد أن يصوره على هذا النحو البديع . ولذلك كانت فلسفته الجمالية ممتزجة بفلسفة دينية تقوم على نزعة صوفية ، وستجد هذه النزعة تتردد خلال ما كتبه من فصول فى علم الجمال .

# علم الجمال

## أبحاث لم تنشر للدكتور منصور فهمى

---

## ١ — حول التعريف بمعنى الجمال

فى القديم الغابر ، ومنذ صور الله الانسان ، وأودعه الحواس وأقر فيه العقل والتفكير ، هيأه لأن يقبل على كل جميل يقدره ، ويدبر عن كل قبيح ينفره ، ذلك هو الطبع المستقيم ، والذوق السليم ، وتلك هى فطرة الله وسنته . ولن نجد لسنة الله تبديلا .

على أن الناس فى بدوهم وحضرهم ، ومنذ غابرهم وحاضرهم ، قد يختلفون فى تقدير الجمال والقبح ، ويتباينون فى إدراك معانيه ، وذلك تبعاً لتأثير بيئاتهم ، وأحوالهم ، وتجاربهم ، وعقائدهم ، وثقافاتهم ، وعاداتهم . وأنه مهما يكن بينهم من اختلاف فى أحاسيسهم نحو الماديات ، أو فى أحكامهم العقلية على مظاهر الجمال والقبح ، فإن لهم حظاً مشتركا يجمعهم فى أصول الجمال .

ولقد يختلف الناس فى أساليب تفكيرهم ، وأنواع معارفهم وعلومهم وأقدارها ، كما يختلفون فى فهم مقاييس الخير والشر واصطناعها ، ومع ذلك فلهم أصول كلية متشابهة فى المنطق ، وقواعد التفكير ، ولهم معالم مرعية يترسمونها فى السلوك والأخلاق .

وعلى ذلك ، فقد يظفر المفكرون بأصول جامعة لتذوق معنى الجمال ، تسكن النفوس إليها ، ويُهتدى بها .

قالوا قديما : إن الله جميل يحب الجمال !

وبذلك أسندوا هذا الوصف لواجب الوجود ، والمصدر الأول لكل موجود . فكأن الله قد يتجلى فى بعض صفاته الرفيعة من طريق كل شىء يبدو للانسان ، شائقا ، رائعاً ، بديعا . ولعل الكثير من الناس حين يرددون هذه الكلمة الجامعة القصيرة على ألسنتهم فى مختلف المناسبات ، قد لا يدركون منها كل ما تشمله من المعانى ، على نحو ما يدرك المفكر المتعمق ، والعالم المدقق . لكن حسب من يرددها عند أية مناسبة تواتيه ، أنه يشعر فى قرارة نفسه بهزة ربانية شائقة إذا نظر إلى مرئى محسوس يعجبه ، أو إذا ألقى سمعه للحن يطربه ، أو إذا علق وجدانه وإرادته بعمل يستوجبه ويحمده ويمجده . ولعل من يتأثر حينئذ بما أعجبه أو أطربه أو حمده واستوجبه قد يسائل نفسه : ما كنه ما يتجلى من الجمال فى الصورة التى أعجبه جمالها ، أو فى النغمة التى أطربه وقعها ، أو فى العمل الممجد المحمود ؟ حقاً ليس كل شىء تراه ونحسه يروقك ويعجبك ، وليس أى صوت تسمعه يشجيك ويطربك ، وليس أى عمل تقوم به أو يقوم به غيرك موضعا للتحميد والتمجيد . ومن ثم قد يقول الانسان لنفسه : إن ذلك الاعجاب والاطراب والحمد إنما كان أثراً للجمال ، فما هو إذن هذا الجمال ؟ وما هى حدوده ؟

ولكى نيسر تحديد الجمال ، يجدر بنا أن ننظر إليه فى مختلف الأشياء التى يبدو فيها ، ومن مختلف وجهات نظر الناس لهذه الأشياء ، حين يلوح الجمال فى تضاعيفها ، ويلحق ركبه ومعانيه توابع أخرى قد تتصل طلعتها بطلعته : كمعانى الخير والحق ، ومعانى المنفعة التى طالما اتصلت أو التبست بمعنى الجمال والتصقت به التصاقا .

يقف أحدنا على شاطىء النيل فى فيضانه المخيف ، فيروقه منظر السفن الجاريات ، والماء المتدفق المنهمر ، والأمواج المتلاحقة ، والمجرى المرتفع ، وقد يستغرق ذلك الناظر فيما تحس نفسه من فيض النشوة والسرور ، على حين يقف مهندس الرى المسئول ، مبلبل الخاطر ، يشغل عقله أخطار الفيضان ، وما يخشى من هذا الطغيان ، فيسوق هذا المنظر نفسه إلى نفس المهندس هولا وكآبة ورعباً ؛ فباختلاف وجهتى النظر لشىء واحد يختلف شعوران متغايران أحدهما أنست به النفس ، والآخر ضاقت به الصدور .

وقد ينظر أحدنا فى الشتاء إلى مصطلى يتدفأ به المقرور ، تشتعل فيه النار ويتحرك لهبا فى تموجاته الذهبية المتشابكة ، فتلذ له صورة الجمال البادى فى تموج اللهب وثورانه وجريانه ، فيتأمل مستغرقاً فى لذاذة ذلك المنظر الأخاذ ، على حين أن شخصاً آخر

يقرب من الدفء ليغنم لذة الحرارة السارية فى أوصاله ، من غير أن يشغله جمال المنظر وتموج اللهيب .

وقد يطيب لأحدنا أن ينظر إلى فراشة زاهية الألوان ، تدور حول زهر أو ثمرة فى حديقة غناء ، أو إلى طائر يتنقل بين الأغصان ، ويشدو بين الأفنان ، فى حين أن البستانى الخبير ربما ينظر إلى تلك الفراشة فى حركاتها وسكناتها ، وإلى ذلك الطائر فى تنقله وشدوه ، نظرة المكتئب والمرتاب ، أو نظرة المستبشر المغتبط ، عندما يلوح له فى تلك الرقصات وفى تلك التنقلات ضر للأزهار أو خير للثمار .

وقد ينظر رب الأسرة وعائلها المجدود ، المحدود الثروة والموارد ، إلى ثوب فتاته العروس مزركشاً بألوان ولواحق ، فيتبرم بما كلفه ذلك الثوب من ماله ورزق عياله ، فى حين لا ترى الفتاة ولا يرى عروسها من ذلك الثوب إلا متعة النفس ، بما فيه من زخرف وجمال .

ومن ثم قد تنتزع نظراتنا من الأشياء المحيطة بنا ، سحر جمالها مجرداً منفكا عما يلاحق هذا الجمال من منافع أو أضرار ، ومن فوائد أو أخطار .

فكأنى بمعنى الجمال يريد أن يتقدم إلى النفوس بذاته ، خالصا منزها مما عداه ، خاليا من الشوائب واللواحق . ولكن قد يجتمع الجميل والنافع ويلتقيان ، كما لو رأيت لوحاً زيتياً بهرتك ألوانه ، وخلبتك روائعه ، وجذبتك مغازيه ومعانيه . أو زهرية شاقك شكلها ودقة قالبها ، فعمدت إلى اقتناء اللوح وشراء الوعاء ، لتنتفع بهما فى تزيين حجرتك وتجميل مكتبك . فهل كان انتفاعك بهما للتجميل والتزيين هو الباعث الاول والدافع الرئيسى لاقتنائهما ، أو أن تقديرك لما فيهما من جمال هو أول ما أغراك ودفعك ، ثم أتى الانتفاع بعد حسك بالحسن وشعورك بالجمال ؟

ألا إن معنى الجمال كان هو المقدم والباعث الأكبر . ليست المنفعة هى التى تولد عنها الجمال ، وإنما هو الجمال الذى أرادك على أن تقتنى ما اقتنيت ، وتستخدم ما استخدمت ، ثم تنتفع بعد ذلك بإحساس التجميل والتزيين .

إن الجمال له أسلوبه الخاص المتميز فى أن يتقدم إلى النفس ، يباغتها بذاته قبل أن يباغتها بما يتخلف عنه أو يتصل به من الأسباب الأخرى ، فمقدار الحرص على الجمال لذاته دون مخلفاته ومعقباته يكون أثره فعالا فى النفس عميقاً ، ووقعه عزيزاً عندها لذيذا لديها .

وكذلك للجمال أثره فى النفس بما يميزه عن أثر سواه من المعانى ، فأثر الشىء النافع كثيراً ما يدعو المنتفع إلى رغبة الاقتناء والاستخدام والاستهلاك . أما الأثر الذى يحدث عن الشىء الجميل : فكثيراً ما يتبرأ من قيود التملك والاستخدام ، فقد يتمتع أحدنا بامتزاج الأضواء وألوانها المختلفة فى وقت الأصيل على سفح المقطم ، وقد يتمتع بالشمس الغاربة وألوان الشفق حينما يتدلى قرص الشمس ويغوص فى البحر الخضم .

على أنه لا يمر بخاطر المرء أن تكون هذه الأضواء المتموجة على شرفات الربى ، أو تلك الشمس الغائصة بين أمواج البحار مما نملكه أو نستهلكه ، ولكن نتمنى لو امتد هذا المنظر أو ذاك طويلا ، ليمد فى متعتنا دون أن يبيد ، فكان معنى الجمال يتصل بمعنى الحرية والبقاء والخلود . أما معنى المنفعة فيتصل بالملكية والاستخدام والقيود .

وكذلك قد يختلف الجميل عن النافع فى الوسائل الذهنية التى تكتشف معنى الجميل وتحدد معنى النافع . فمعنى النافع يحتاج إلى التفكير والقياس والمقارنة بالنسبة للأغراض والغايات التى نتطلع إليها . وأما معنى الجمال فإنه يصل إلى نفسك دون تفكير أو تقدير أو تدبير .

وكذلك يتميز معنى الجمال عن معنى الحق أو معنى الخير ، ولا أريد التفصيل . فإذا شئنا أن نحدد الجمال ، ونستخرج له تعريفا مجملا مما قدمنا من الأمثلة والاشارات فهو على الجملة : معنى ربانى يعلو بجناحى الحرية والاستقلال عن كل علاقة . فهو فى نفسه غاية . وهو يبدو فى الشىء المحدود وفى الشكل المحسوس ، ليمثل حدى الوجود فى المقيد المحدود ، والمطلق الممدود ، والمرئى والخفى ، والمادة والروح ، والصورة والمعنى ؛ فهو شعاع ربانى يتصل بالمعانى العليا ، وبأصل الأصول ، الذى هو روح كل شىء وبارىء كل شىء ، والله جميل يحب الجمال !

## ٢ – حول الفن الجميل ومصدره ومرماه

إذا سبقت عبارة الفن وجرت فى دارج اللغة على ألسنة الناس دون أن تتصل هذه العبارة بوصف من الأوصاف ، فإنها قد تدل على قدرة الانسان حين يعمل شيئا ما أو يحقق أمراً ما ، على نحو من المهارة والبراعة . فيقال لمحترف النجارة أو الصياغة أو غيرهما من الحرف : إن هذا المحترف هو فنى أو فنان أو ابن فن . لأنه يحقق بوسائل حرفته وأدوات صناعته ما يطلب إليه على صورة يتجلى فيها نوع من الاتقان يحمل على الاعتراف بأن فى العمل حذقاً وفناً .

وقد يقال للعروسين اللبقين حين يسعى كل منهما إلى ترغيب صاحبه فيه وتحبيبه إلى نفسه : إنهما يحذقان فن الترغيب والتحبيب . فعبارة الفن إذا جردت عن كل وصف تكون أليفة للحذق ومرادفة للمهارة . على أن هذا المعنى العام قد تحدد بحكم الاستعمال فقد أطلقت كلمة الفن على نشاط الإنسان المتصل بمشاعره وعواطفه وخياله وأحكامه . ومع مرور الزمن وارتقاء اللغة ونموها : اتسمت هذه المظاهر المحسوسة بوصف الرفيع أو بوصف الجميل ، ومن ثم أسند إلى كلمة الفن كلمة الرفيع أو كلمة الجميل حين يراد الاستدلال على المظاهر الجميلة التى نشاهدها ونحسها فى هذا الوجود .

ولقد تمخض تطور العرف البشرى وتاريخه عن خمسة من المظاهر المشهورة لها فروعها ولواحقها ، وكلها ترسم صورة من نفسية البشرية منذ نشأتها ، وكلها تمت إلى معنى الرفعة ، وكلها تتصل بالجمال . تلك هى فنون : البيان ، والغناء ، والعمارة ، والنحت ، والتصوير . ويرى المولعون بالتقسيم والتصنيف أن يحتفظ الناس بعبارة الفن الجميل لما يتجلى من هذه المظاهر عن طريق البصر كالتصوير والنحت والعبارة . وأن يحتفظوا بعبارة الأدب الجميل لما يدرك بالسمع من هذه المظاهر كالغناء والبيان .

ومهما يكن من نفع لهذا التقسيم والتصنيف ، فليس من حرج عندنا أن نطلق عبارة الفن الجميل على كل مظاهره الخمسة المتقدمة ، فكلها موصول بمعنى الجمال وكلها تجمعها العاطفة والخيال عند من يحققها من أهلها وعند الذين يتأثرون بها من الناس .

ومهما يكن من تيسير لفهم الأمور وإدراك الحقائق حين نقسم ونرتب ونبوب مظاهر النشاط النفسى والفكرى ونقرها فى دوائر معينة ونضعها فى قوالب محدودة مبينة . فإن بين مختلف هذه المظاهر والمعارف علاقات شديدة وروابط عديدة حتى أنه ليس بالعسير أن ترد جميعها إلى أصل من الأصول ومنبع واحد من المنابع . مثلها فى ذلك مثل أفراد القبيلة الواحدة يتناسلون ويتكاثرون ويتفرقون فى كل زمان ومكان ، لكنهم لابد راجعون إلى جد جامع ينتمون إليه وتنتهى عندهم شجرة أنسابهم . أو كمثل الجداول المتفرقة ، المتشعبة من نهر تخرج منه ، فإنها قد ترد إلى الينبوع الأول الذى يستمد النهر منه ماءه العذب الفرات . وكذلك الأمر فى مظاهر الفنون الجميلة فإنها مهما تعددت وتنوعت أو انحصرت فى ناحيتين أو خمس من النواحى التى تواضع الناس عليها — فإن معين المعنى الجميل يستقر هنالك وراء أقسامها وأصنافها المتنوعة ، وينساب منه إليها فيضه الصافى السخى ، سواء تجمعت وانحصرت أم تبعثرت وانتشرت . على أن فى الحصر هداية وتيسيراً لرواد الجمال حين ينشدونه من أيسر سبيل وأقرب طريق ، ويقصدون إلى السياحة فى ربوعه القريبة وأوديته الدانية .

فإذا كان من الميسور عليك أن تحس الجمال حين تسمع المنثور البليغ والشعر الجيد ، أو حين تشهد مسرحية طاب لك منها حسن العرض والأداء والإلقاء ، أو حين تأخذك النشوة لتغريد يطربك ، أو حين تقف خاشعاً بين أكناف الآثار والمبانى ، وروائع المعابد والمغانى ، أو حين تقف عند تمثال أو رمز يذكرانك بعبقرية لمعت ، أو حوادث وقعت تجر إليك أغنى الذكريات وأطيب العظات ، أو حين تطالع نقشاً من النقوش فتستشف منه دقيق تعبيره وتناسق ألوانه ، فإنك فى ذلك تستقبل جملة من المعانى كما تتدانى إلى حسك طائفة من الصور والأشكال .

هبك وقفت فى معبد من معابد الفراعين ذات القواعد والأوتاد والسوارى والأروقة الشداد ، وذات الرموز وذات الهياكل ، وكلها من الجلاميد لا تضعف ولا تبيد — أفلا تستشعر من كل هذا معنى الربوبية فى عظمتها ومعنى الألوهية فى قوتها وبقائها وخلودها ؟ ! ثم هب أنك شهدت مسجداً قد علت منائره إلى السماوات وتعددت فى أروقته النقوش وزخارف الحروف والآيات ، التى ترف حول كلماتها أروع معانى البقاء والفناء — أفلا تستشعر فى موقفك الدينونة تتهادى إلى صدرك حاملة معانى الصمدانية ، وطلاوة الوحدانية ؟ !

وقس على ذلك فأنت تقرأ فى صفحات الفنون رائعا بليغا من المعانى إذا كانت نفسك مستطيعة أن تستشف المعانى من أسطار كتاب الفنون الجميلة التى تواضع عليها الناس .

وهناك جمال كتب فى صفحات لم يحتويها كتاب الفنون المعروف ، صفحات مشرقة الجمال فيها من الفن معان لمن يستطيع أن يقرأها :

فهذه صحراء مترامية الأطراف يسير فى آفاقها عند الغروب قطيع الإبل وحولها بدو ولوا وجوههم لله خاشعين مصلين .

وهذه أم رءوم حانية على رضيعها وعلى وجهها بشر الرحمة ونور الحنان .

وهذا شيخ ناسك منقطع لربه عاكف على كتابه، ملازم لصومعته أو محرابه، وحوله إشعاع الرضوان وإشراق الإيمان .

وهذا عالم فى معمله ومخبره مكب على مجهره مستغرقا فى الكشف والتفكير .

ففى كل هذا وأشباه هذا مما تحفل به نواحى الوجود ، ما يشعر بأن المعانى الجميلة والخطرات الرفيعة تغنى بها الدنيا وتحفل بها الحياة ، تارة من يد الإنسان وأخرى من يد الله أكبر فنان .

وبعد . فقد نسائل أنفسنا عن مصدر المعنى الجميل كما نسائلها عن غاية الفن الجميل ومرماه . أما مصدر المعنى الجميل فهو الأزلية وفطرة البشرية التى فطر الله الناس عليها حين وهبهم قوى وملكات يتذوقون بهما معنى الجمال ، وتختلف هذه الملكات قوة باختلاف أفرادهم : فمنهم الموهوبون بأشدها حساسية وأزخرها وأولئك هم الفنانون الحقيقيون .

ومنهم من يقدرون للجمال آثاره ويحمدون أسراره فى مختلف مظاهره ، وأولئك هم المثقفون المستنيرون .

ومنهم من لا تصل إلى صدورهم نسمات الجمال إلا من مظاهره القوية التى تحمل شحنة هائلة تصل إلى كل نفس وتتغلغل فى كل صدر ، وأولئك هم سائر الناس .

وإذا كانت الأزلية هى المصدر القديم الأول لكل جمال خالص غير مشوب فإن العقل ليقف حائرا عاجزا عن إدراك كنه الجمال ، فيرسل النظريات تلو النظريات ، ويبعث بالافتراضات تلو الافتراضات ، وهو قانع ، فى عجزه ، بتعريف الجمال بمظاهره وآثاره وبتقريب معناه عن طريق قصصه وأخباره . وأخيراً يقول : حسبى من الجمال أنه يهزنى

حين يغنى فأحس أنه الجمال ، وأردد : إنه الجمال . سالكا فى ذلك طريق المتصوف المجذوب حين يقول فى ذكره وتسبيحه : الله هو الله ! !

إذاً فمصدر الجمال هو تلك الأزلية المطلقة ، ومبعث الفنون الجميلة عند الفنان هو ذلك النشاط الحر المتصل بها ، لا يقيده قيد ، ولا يسير إلا بإلهام .

وهنا قد يلتبس معنى الحرية فى الفن : فما مدى تلك الحرية ، وماذا عسى أن يكون هذا الإلهام الصادق للفنان الجدير ؟

ولعل أول ما يعن للخاطر أن الحرية لا تتقيد بقيود ولا تحدها حدود . ولكن الحقيقة أن الحرية فى الفن الجميل والإلهام الحر عند الفنانين يتقيد بسيرهم على محيط الدائرة حين يصدرون عن مبدأ الجمال وينتهون إليه كما هو خالص مستمد من الأزلية ومن الله يحدده العقل السليم ويقره العرف المتطور المستقيم ويستسيغه الذوق القويم وتهدى إليه فطرة الله . وكل من العقل والعرف والذوق والفطرة لا يمكن أن يتناقض وحيا أو يتنافر إلهامها . فكلها تهدف إلى الأحسن بعد الحسن وتسير قدما فى طريقها إلى الكمال .

وعلى ذلك فإن الحرية للفنان الموهوب لا يمكن أن تسول إليه تصوير الفاحشة ليغرى بها ، أو تشخص الخيانة ليحض عليها ، أو تبرز الإباحية ليزكيها . أو ترسم الضلالة ليدعو إلى السير فيها ، فإن ذلك كله ليس من مطالب العقل السليم أو العرف الصالح أو مألوف الذوق المستقيم ، كلا ولا من فطرة الخالق ولا من وحى الله . فإذا انحدر الفنان إلى تصوير ما أسلفنا ، فإنك لا تحس إلا الذل والاسفاف والهوان . لأن ذلك من عمل الشيطان .

وأخيراً ، فليس للفنان أن يلبس الحق بالباطل باسم الحرية فى الفن ، وليعلم أن الفن يرفع ويسمو بالناس إلى المعانى الخالدة ، ولا ينحط إلى حضيض الشهوات ، والفن السليم وراءه الله والحق مقصده ومرماه والخير غايته وقصاراه .

## ٣ – المؤثرات المختلفة فى الفن الجميل

فى الكون تنتشر المعانى الجميلة ، بتقدير من الله وفضل ؛ وفى الطبيعة تنتشر ألوان من الحسن وآيات من البهاء ، ويصدر عن الإنسان الممتاز الراقى أعمال وأفعال تدعو إلى التقدير والإعجاب . ومهما تختلف المصادر لمظاهر الجمال ، فإن الفنون الجميلة البادية فى محيط معيشتنا وحياتنا الاجتماعية تستمد صورها وحياتها من الانسان ، ومع ذلك فليست هى إلا ثمرة من ثمرات سعيه وكسبه وإنتاجه وممارسته لمختلف الأشياء والتجارب ، ومزاولته لها . ولقد كان فى فطرة الإنسان منذ نشأته ، وفى استعداده وفى متناول قدرته عندما اتصل بحقائق الكون ومادة الأرض أن يصبغها بصبغته الإنسانية ، وأن يطبعها بمعنويات تنتزع من معناه البشرى انتزاعاً ، فينفخ فيها من روحه ، ويمنحها ضروباً من الألوان والمعانى لم تكن لها من ذاتها ولا فى كنه حقيقتها ، وكأنه يكسبها روحا يخلعه عليها ، وحياة تجرى فى مادتها الجامدة ، وتنسحب على صورها ، وتستشف من مظاهرها .

ولعل هذه المقدرة الانسانية ، التى يُضفيها الانسان على الأشياء وفى مادة الوجود المحسوس الظاهر ، أقول لعلها هى هبة الله الفنية التى ميز بها آدم وذريته . ووفقاً لهذه النظرة تصبح الفنون الجميلة خاضعة لسنن الانتاج البشرى ، فتحكمها قوانينه وتؤثر فيها عوامله .

فالفنان إذن هو أداة طيعة قد توصل إلى الأشياء تأثيرات الجنس الذى منه نسل هذا الفنان ، وتأثيرات المحيط الذى نشأ فيه ، وتأثيرات الظروف الزمنية والمكانية الضيقة والتأثيرات الشخصية والنفسية التى تتصل به من قريب وتمازجه ، وعلى الجملة تأثيرات كل أمر من شأنه أن يؤثر فى نشاطه وعمله وإنتاجه .

فعامل الجنس الذى نسل منه الفنان يبدو فى مجموعة الاستعدادات المعنوية والجسمية التى يورثها السلف من يخلفه من الأجيال والذرارى ، وتتصل هذه الاستعدادات ببنية الأجسام وتركيبها ، وتنسجم مع متنوع الأخلاط والأمزجة ، وهى قد تتم منتوجات جنس

من الأجناس بطابع مهما تكن درجة تميزه ووضوحه وظهوره أو درجة خفائه وإبهامه ، فقد يدل عند الخبيرين المحققين على جنسية المنتج ، بل على الأصول البعيدة التي تفرع منها هذا الجنس ، وعلى الاستعدادات الفطرية الأولى في هذه الأصول ، على الرغم مما يصادف هذه الاستعدادات ويطرأ عليها من ضروب التغيير والتهذيب و تعديل والتكييف .

ولقد اضطرت الأجناس البشرية ، منذ الغابر البعيد ، بحكم الأحداث والحاجات ، إلى الهجرة والتنقل من مكان إلى آخر وقد تختلف أجواء هذه الأمكنة التي تستقر فيها الأجناس ، وتختلف محيطاتها وطبائع التربة التي يشملها المحيط . فإذا استقر الجنس لعدة قرون في مكان معين ، وتقادم عليه العهد فيه ؛ كان لا بد له أن يتأثر بحالة هذا المكان فتتغير خصائصه الأولى وفقاً لآثار المناخ ، وحالة الأرض في سهولتها أو وعورتها أو رطوبتها وجفافها أو فقرها وغناها ، أو جدبها وخصبها ، وغير ذلك مما يدخل في صفات المكان وأحوال المحيط .

فالأجناس الجرمانية واللاتينية والاغريقية مثلا تنتسب جميعها إلى أصل آرى واحد ، قد انفصلت عنه ، وانفكت منه لتسكن في بقاع وأجواء مختلفة ، فأصبح لكل من الجرمان واللاتين والاغريق خصائص منوعة ومتفرقة بتنوع الأمكنة ، وتفوق الأجواء التي سكنوا فيها وسكنو إليها . وقد انضافت هذه الخصائص الطارئة التي تكونت بحكم الظروف إلى الخصائص الآرية الأولى ، وأثر ما تهيأ منها لكل قبيل في منتوجاته الفنية بحيث يصبح من اليسير على الناقد أن يميز بين طابع الفن الاغريقي والجرماني واللاتيني .

ومثل الأجناس حين تنتقل إلى مختلف الأجواء ، ومتنوع البيئات والأمكنة كمثل البذور لنوع واحد من النبات ، تبذر في مختلف الأجواء والأراضي فيتخلف عنها نبات يختلف بعضه عن بعض في سيقانه وأوراقه وأزهاره وثماره . على أن عامل الجنس ، وإن كان له أثر يذكر في الفنون الجميلة ، فليس هو وحده العامل المؤثر في منتوج الفنانين ، فهناك المحيط وما يتصل به من مادة ومحتويات ، فما يحتويه المحيط وما يشمله من حجر صلب أو رخو ، أو أصناف من الرخام أو أنواع من الصلصال ، أو ضروب من المناظر وألوان مختلفة من الأضواء ، كل ذلك له أثره في صور الانتاج الفني . فالنحت في الحجر الرخو قد ييسر للمثال الموهوب الاستجابة إلى وحي الذوق والجمال في إظهار القسمات أو إبراز الحركات مما لا يتيسر في الحجر الصلب الشديد . وقد يتأثر الذوق المعماري بمادة المحيط

فقد تغاير المبانى فى الأرض المتربة المبانى فى الأرض الصلبة المتحجرة ، وذوق المعمارى الذى يعمل فى الوعر وفى الجبال يختلف عن ذوقه فى السهول والوديان ، وشعر الشاعر الناشىء فى بيئة فيها الرياض والأنهار الجاريات ، والأشجار الباسقات ، والربوات والغابات ، يغاير شعر من ينشأ فى الأرض الجرداء ، أو مهامه الصحراء ، وكذلك كل ما ينتج من أنواع الفنون لا بد أن يحمل شيئاً من آثار الجنس والبيئة والمحيط .

وقد تؤثر الحياة الاجتماعية ، والعادات المرعية ، والحالات النفسية ، والعقائد الدينية والمذهبية ، والظروف الطارئة فى منتوج الفنان ، لأن الفن بطبيعته لا يعدو أن يكون ترجماناً للحياة الواقعية ، وتصويراً للحقائق البادية وما وراءها ، فالأدب فى أوقات الثورات والنكبات والكوارث ، غيره فى أوقات السلام والرخاء والدعة ، والموسيقى والأناشيد فى أوقات القلق والاكتئاب غيرها فى أوقات الاطمئنان والسرور والنعيم وهكذا يتأثر الفنان بالشئون الاجتماعية والسياسية المحيطة به .

وكذلك قد يتأثر الفن والفنان بحالاته النفسية والشخصية ، فحالة الشاعر الأعزب ، لا تسعفه بتصور المعانى العائلية ولا ترقى بخياله إلى تصوير معانى البنوة وما فيها من عطف ورحمة وإحساس بجمال الطفولة ولطفها وسذاجتها وجلال الأبوة وحنوها ورقتها ، كما توافى هذه المعانى العالية خيال الشاعر المتزوج الوالد . وشاعر الاستهتار والمجون غير شاعر التدين والتعبد . وقس على هذا كل ذى فن فى فنه وفى إنتاجه .

وكذلك فقد يكون لما تنتجه الصناعة من أدوات الفنانين أثر بارز فى إتقان الفنون ، ففى تقدم الألوان والأصباغ ، وفى تقدم الأدوات الصناعية التى تستعمل فى الزخارف وفى النحت ، وفى التحكم فى الأضواء وتكييفها ، ما له أثر بالغ فى كل ضرب من ضروب الفن الجميل .

لكن مهما يكن الفن الطريف محكوماً بالجماعات ونظمها ، وبالمحيطات وتركيبها وبالأجواء واختلافها ، فان الهبة الإلهية الخاصة التى تمنح لأهل الفن فى الحس بالجمال ، هى الأصل الأول . وإن تأثرت بالمحيط فهى تنزع لأن تعلو على تأثيراته وتنفك من أربطته ، وتنطلق من دوائره الضيقة إلى حيث ترقى فوق المحيط وفوق الحياة ، نزوعاً إلى أصلها الأول عند الجميل الذى لا يحد جماله ، ولا ينتهى كماله .

## ٤ ــ الفن الجميل بين شئون الدنيا والدين

حين يبدو الفن الجميل فى مظاهره المحسوسة فهو إنما يصدر عن الحرية المطلقة التى تدرك الجمال وتحسه . فالفن والفنان يأبيان القيود والأغلال ، وينفران من التوجيه إلا بدانع من نفسهما وطبعهما حين يتوخيان السير على محيط دائرة معينة تتسع أو تضيق للمعانى المتدرجة فى سلم الجمال وفقاً لظروف المكان وصروف الزمان فى تطوره أو تدهوره .

وعلى ذلك فليست غاية الفن الجميل ولا مهمة الفنان قاصرتين على محاكاة صور معينة ظاهرة ونقلها مجردة من المعنى . وإنما غاية الفن والفنان أن يغوصا فيما وراء هذه الصور المحسوسة حتى يقعا على معنى بليغ عميق أو مثل أعلا يلهمه الفنان وتكشفه نفسه وتنزع نحوه تلك الصورة الظاهرة المحسوسة .

وبمقدار ما تكون المعانى التى تنشد وتطلب من وراء هذه الصور عالية محلقة فى سماء الرفعة والجمال وبمقدار ما يدعو اقتناصها إلى إلهام فنى ونشاط نفسى وجهد ، بقدر هذا نرى الفن راقياً متعالياً . ثم بمقدار ما تتسم الصور التى ينشدها أهل الفن بطابع من الحياة المادية العادية نرى الفن خائراً ومظهره متهافتاً فاتراً .

ومما تقدم نفهم إذن أن الفن شىء مغاير بذاته للماديات التى يستخدمها وقد تستخدمه . والفن مصدره ونهايته فى معنى الجمال . والجمال موزع فى الوجود وفى الطبيعة ، مطموس فى مختلف نواحيه وبين جنباتها وقد يكون على هذا الجمال غشاوة تضعها يد الدهر على قسماته . وقد يكون فى ألوانه ظلمة تخلعها الصروف والغير . لكن يد الفنان وقدرته وعبقريته تخرج الجمال من طى الخفاء وترفع عن قسماته الغشاوة وتزيل عن ألوانه الظلمة وتجعله مشرقاً جلياً يسر الناظرين .

ولم يكن الفن عند ظهوره وسيلة لتفريج النفوس ، أو إرضائها ، أو نفعها ، أو تسليتها . وإنما يجىء الفرح والرضاء والتسلية والنفع مجيئا عرضا بعد ظهور الفن الجميل . فموقف الناس منه كموقفهم مما يكشفه العلم والعقل من قوى الطبيعة وقوانينها . فالناس يستخدمونها

فيما يحقق لهم غايات ومآرب من الحياة لم يكن العلم ليقدر تحقيقها عند اكتشافه لتلك القوانين وعند إقراره ما قرر من النظريات .

وما أشبه الفن الجميل فى خروجه من بدايته وانتهائه إلى نهايته بالنهر يجرى فى واديه إلى منصبه طليقاً حراً بين النجاد والوهاد . ومع ذلك فإن الوهاد تجذبه والنجاد تصده وترده والمصب يستدعيه إلى مواصلة الجريان ويستدرجه إليه . ثم إن الأرض التى حول هذا النهر يحيا به مواتها وتكثر بمائه خيراتها .

وما دمنا نسلم بأن الفن لا يكون فناً حقاً إلا إذا اتجه باحثاً عن المعنى الجميل وجعل من ذلك المعنى مصدره وغايته ، وأنه يبحث عن هذا المعنى الجميل حراً مستقلا لا يقيده قيد ولا يثقله شرط ، ما دمنا نسلم بهذا ، فقد ندرك حينئذ كيف يستشف معنى الروعة عند مبنى يبدعه معمار فنان من خلال خطوط تتلاقى وأبعاد تنسجم ومواد تصطفى وتؤلف. وكيف نستشعر حسن القسمات وخفة الحركات والرشاقة المياسة من تمثال يصوره عبقرى نحات . وكيف يشيع فى النفس إحساس واضح تثيره قوة التعبير من لوح تلونه ريشة رسام من الملهمين. وكيف يؤخذ المرء ويسحر ببيان بارع أرسله أديب مطبوع أو صدح به شاعر قادر . ثم كيف تسمو الروح فى نشوة الطرب إلى عالم نقى رفيع عندما تنسكب فى الأسماع ألحان موسيقية أو أنغام صوتية تبعثها أنامل العازفين البارعين أو ترسلها أصوات المغنين الموهوبين .

ونحن إنما يكون تأثرنا بالغاً بهذه المظاهر لأن الفنان يزاوج فى فنه ويمزج فيه بين المحسوس والمعنوى ويغترف من الهامه الحر وحسه المرهف المتاز ليعبر عن فيض مشاعره بأداته الخاصة به سواء أكانت ريشة أو منحاتاً أو معزفاً أو قلماً وبياناً .

ومنذ الغابر البعيد وفقاً لطبيعة الحياة المادية تطاول الانسان على قدسية الفنون الجميلة المزهوة باستقلالها عن حاجات الناس ومنافعهم ، فاستخدمها استخداماً نفعياً من أجل أخلاقه ، ومسالكه ، وتربيته ، وسياسته الاجتماعية ، وترفه ، ونعيمه ، وسلامته ، وصحته وما إلى ذلك من شئون الحياة ومآربها .

فكلنا مثلا قد يعلم أن السخاء حميد وأن الشح بغيض ، ولكن هذا العلم قد لا يبلغ بنا إلى تمجيد السخاء وبغض الشح بمقدار ما يفعل الفن فى نفوسنا إذا هو دعا لتمجيد هذه الفضيلة والتنفير من هذه الرذيلة . فلرب واعظ فياض اللسان بالغ البيان ، ولرب مسرحية محبوكة الحوادث يكفلان للنفس أثراً عميقاً فى التنفير من الشح وفى تقدير السخاء .

وطالما انبثت دعوة السياسيين ودعاة المذاهب فى بلاغة الأسلوب والتأثير ففرقت الناس أحزاباً وشيعاً وحببت إليهم مذاهب ومبادىء وبغضت غيرها عندهم. وكثيراً ما تدخل الفن الجميل فى شئون التجارة فروج سلعاً ما كانت لتظفر بهذا الرواج إلا لحسن العرض الفنى والوضع الأخاذ.

وطالما تحققت للناس غايات من الترف والراحة وألوان من النعيم أمنتهم من أن يحسوا شدائد الحياة وأحزان الوجود. فكم من فكاهة فنية راقية تنتشل الانسان من مشاغله وتسرى عنه أحزانه. وكم من نغمات عالجته من كآبته وخففت أشجانه. وكم من يد هندسية فنية خطت فى فضاء الأرض المغانى والمدن توفر فيها كل ما يسعد ساكنيها من وسائل الصحة ومهيئات السلامة ومن أسباب تجميل يرهف الذوق وتزيين يرقق الاحساس فنعم ساكنوها وصحت فيهم الأجسام والأذواق والأحلام ولم يكن كل ذلك إلا نتيجة لانتفاع الناس بالفن الجميل وبلواحقه فى شئون معاشهم ودنياهم.

وطالما انتفع الناس كذلك بالفن الجميل وما إليه فى شئون دينهم. فالدين يقوم فى أبعد أصوله على الاعتراف بقوة لا تدركها الأبصار وعلى الخضوع لمن لا تدرك ذاته ولا تحد وعلى الرغم من أن العقل قد استخدم قوى الطبيعة وسخرها للانسان فإنه كان ولا يزال عاجزاً عن فهم الأصل الأول وعن إدراك غاية الخلق ومصيره. ولقد كان الناس ولا يزالون فى حاجة إلى تقريب المسائل الروحانية إلى الأذهان عن طريق ما هو مألوف عندهم وما هو محسوس. لذلك تدخل الفن الجميل ليقرب إلى الناس نفحات الدينونة التى فطر الانسان عليها وليدنى إلى أفهامهم معناها. ومن ثم اتخذت الرموز لتمثيل المعانى الدينية. ومن ثم نقل الفن الجميل الكثير من تعاليم الدين فى أثواب من البيان الأخاذ والتشبيهات الطلية المقربة عندما عز على الأفهام أن تدرك المعانى المجردة.

ولقد كانت المعابد فى مختلف العصور وعند مختلف الأجناس آهلة بوحى الفن ومظاهره وتوجيهاته فازدانت بالتصاوير والنقوش والزخارف المختلفة. وترتبت عظمة المعابد وروعتها على سلطان الدين فى أهله وأشياعه وتأثرهم به وقدرتهم على الاستجابة لهذا الأثر من تعظيم الدين وتفخيمه بتعظيم معابده وتفخيمها.

فمنذ أبعد العصور وفى أقدم الهياكل صدحت الآلات وجلجلت التسابيح والصلوات بل قد يستعان أيضا بالحركات الايقاعية المنسقة فى جملة من المظاهر الدينية. وقد جسم النحت

والتصوير أشباح القديسين والعابدين ورسمت المناظر التي ترغب في ثواب أو ترهب من عقاب . وقد استخدم البيان في الدعوة إلى الله فترددت على ذروات المنابر عبارات وجدت سبيلها في القلوب وشقت طريقها إلى النفوس .

فالفنون الجميلة وأدواتها المختلفة إذن ينتفع بها الدين وتنتفع بها الدنيا . وإذا كان القادرون الراقون من أهل العبادة الرفيعة في غنى عن المحسوسات وكان في قدرتهم أن يدعلوا بالمعاني العالية مجردة عن كل عون مادي فإن أكثر الناس تعوزهم هذه المقدرة وهذا الرقي الروحي وكان لهم عذرهم عند التعبد في الاستعانة بمظاهر الفن الجميل .

ولقد هيأ الانتفاع بالفن الجميل إلى أن رأى البعض أن الفنون الجميلة إنما كانت لحاجات الناس ومنافعهم وتوجيههم وأنها قامت لخدمة المجتمع ولأغراض الحياة .

ومهما يكن الأمر فيما يقال في استقلال الفنون الجميلة عن كل شيء وحريتها المطلقة أو اتصالها واستخدامها لكل شيء فإن معاني الجمال والخير والحق كلها تلتقي عند الله وكلها ينتفع بها لله .

فلنمجد إذن الجمال والفن الجميل وليأخذ الناهلون من نبعه الصافي دون أن يكدروه ، وليترشفوا منه دون أن يعكروه .

## ٥ – الجمال الانسانى

يتمثل المرء للناس بما يبدو من جسمه المحسوس، وبما يصدر من آثار عقله وتفكيره، وبما يتحقق من نتائج إرادته وفعاله.

أما جمال جسمه المحسوس فيبدو فى بلوغ كل جزء من أجزاء هذا الجسم كماله المقدر له، المهيء لأداء عمله الموائم على خير وجه، مع مقاومة هذه الأجزاء للآفات المتلفة، واستعصائها على عوامل الفساد، ومع ذلك يكون ثم تناسق فى النسب بين الأعضاء والأجزاء يرتاح إليها النظر، ويطمئن إليها البصر. فإذا استوفى الجسم الانسانى ذلك فى مجموعه وفى أجزائه، تأتت له المتعة وتيسرت له الغبطة.

وعلى ذلك فجمال العضلة مثلا يلوح فى المرونة وقوة الاحتمال المناسبة للمألوف من عملها على خير وجه، وجمال البشرة يكون فى سمكها الموائم لحماية ما تحتها، وفى نعومتها المعينة على تأدية وظيفتها. وجمال الصوت فى خلوه من نشوز الجرس، ومما تتأذى به المسامع، وقس على ذلك كل ما يتصل بأجزاء الجسم الانسانى وكل ما يرتبط بأعضائه مما تنزع إليه هذه الأجزاء وتلك الأعضاء من الكمال النسبى المقدر المرسوم.

وقد تختلف درجات الجمال الجسمى فى مختلف الأجزاء فى الفرد الواحد، وفى الأفراد على اختلاف أعمارهم وبيئاتهم. فالجمال المحسوس فى الطفولة يغاير ما يتوفر منه فى ذوى الشيخوخة، والجمال فى النساء يغاير الجمال فى الرجال، وجمال البدو يغاير جمال الحضر. وقد يختلف الجمال باختلاف ذوق مقدريه وثقافاتهم وهكذا قد تتعدد الاحكام فى تقدير جمال الجسم تبعاً لاختلاف الشعوب والزمان والمكان، وظروف البيئات، ودرجة العلم والعرفان.

لكن مهما يكن من أمر هذا الاختلاف فالكل مجمع على أن فى سير الجسم فى أجزائه أو فى مجموعه سيراً متناسقاً إلى حدود مقدرة مع السلامة من عوامل الفساد أساساً للجمال.

ولذلك يعتبر صوت الطفل إذا خشن وغلظ ، وصوت الرجل إذا رق ولان ، وصوت المرأة إذا جش واشتد ، كل ذلك يعتبر منافياً للجمال ، لأنه انحراف عن السنن المقدرة والقوانين المقررة ، وقس على ذلك كل المظاهر الحسية الأخرى فى الانسان ، لأن انحراف كل مظهر عن طبيعته المألوفة المتناسقة إنما يكون قلباً للأوضاع ، وقبحا يستوجب النفور .

أما جمال العقل فيبدو فى بلوغه المستوى المناسب لما قدر له من علم ومعرفة ، وفقاً لظروف الزمان والمكان والأحوال التى تصحب العقل فى تدرجه وتعليمه ، وتؤازر فى تنشئته وتقويمه . فيعتبر عقل الطفل جميلا ، ومظهره التفكيرى سليما ، ما دام النمو الطبيعى لهذا العقل يؤهل لإدراك ما يصح للطفولة أن تدركه من الأمور المناسبة وفقاً للمحيط الذى ترعرعت فيه ، وطبقاً للمعلومات والتجارب التى أحاطت بتلك الطفولة .

ويعتبر عقل الشيخ جميلا ما دام يهيء لإدراك ما ينبغى أن تدركه الشيخوخة من أمور تتناسب مع السنين التى قطعتها من العمر ، والتجارب التى صادفتها فى الحياة .

على أن المعارف والتجارب قد تختلف بين فرد وآخر ، وبين زمان وآخر ، وبين جماعة وجماعة أخرى ، ومهما يكن من أمر ذلك الاختلاف ، فاتصال الذهن بالمعرفة اتصالا منسجما منطقيا ، واستضاءته بضيائها فى شدة لمعانه أو خفوته ، وتشبثه بأسباب الحقائق ، كل ذلك من شأنه أن يسم العقل بالجمال والسلامة .

أما النوع الثالث من الجمال الانسانى ، فهو جمال الأفعال ، وهو الغاية التى تتجه إليها إرادة كل عاقل ، والهدف الذى يرمى إليه كل رشيد ، وإنه ليخرج على صفة الحرية والرشد كل من يتهيأ له لون يجمل به عمله ، ويزين به فعله ثم يعدل عن ذلك اللون الجميل إلى ما ليس بجميل .

وليس من المعقول أن يتبين شخص ناحية الجمال ويستطيع أن يوجه إليها أفعاله ، ويسير فى ميدانها أعماله ، فيتنكب طريقها إلى ناحية القبح والسوء . وليس من المعقول أن يتهيأ لشخص قالب حسن يصب فيه جهوده ، ثم يعدل عن هذا القالب البديع الرفيع إلى قالب قبيح وضيع . ولقد يصدق سقراط فى زعمه حين ذهب إلى أن من يتبين — فى وضوح ويقين — سبيل الخير محال أن يتنكبه إلى سبيل الشر ، ومن يتضح له

الطريق السوى ، لا يعدل عنه إلى الطريق الوعر العصى ، فتعلق الارادة بما ينبغى أن يعمل فى حالة من الحالات هو الذى يصطلح على تسميته بالواجب ، وللواجب روعته وجماله . وإن طبع الأعمال الانسانية بطابع الواجب ، وإلباس هذا الواجب ثوبه الجميل ، هو ما جرى العرف على تسميته بالفضيلة التى تستأثر على النفوس بسحرها المسيطر .

على أن الناس وفقاً لاختلافهم فى التجارب وفى الثقافات وفى العادات وفى المحيطات وفيما هو بسبيل ذلك قد يختلفون فى تقدير الجميل من الأفعال ، وفى تقرير معانى الواجبات وهذا الاختلاف نتيجة للاختلاف المقدور منذ الأزل بين الناس ، ومن شأنه أنه أوقع الخلف بين بعضهم وبعض فى تقدير درجة الجمال فى بعض الأعمال الانسانية المتصلة بالأخلاق . لكنهم مهما اختلفت تقديراتهم وتبلبلت آراؤهم ، فهم متفقون فى الأصول وفى الكثير من الفروع عند حكمهم على الأفعال من حيث حسنها وقبحها .

فجميع الناس من بدو وحضر ، متقدمين ومتأخرين ، يقدرون أن الاعتراف بالجميل فضيلة وأن شكر المنعم واجب ، وأن الاساءة مذمومة وكراهية المسىء حقة ، وأن الكرم والشجاعة وما إلى ذلك من صفات الخير كلها ممدوحة ، وأن الجبن والشح وما إلى ذلك من صفات القبح مذموم ومرذول .

ومما أسلفنا يتضح لنا أن الجمال الجسمى والجمال العقلى والجمال الخلقى كل ذلك يتآزر فى إبراز صورة الجمال الانسانى . ولقد كان لهذا التآزر فى مختلف نواحى الجمال الانسانى أثر فى الأخبار الدينية التى قرنت صور الأنبياء بالجمال المتمثل فى تمام الجسم والعقل والخلق .

وفى الحق أن جمال الانسان لا تتحقق له روعته إلا إذا تساندت نواحيه ، فمهما حسنت قسمات الوجه ، وتساوقت نسب الجسم ، وكان العقل ناقصاً والأفعال منحرفة غير مستقيمة فإن ذلك النقص وهذا الانحراف قد يزريان بجمال القسمات ، فسوء المخبر قد ينتقص ويحد من حسن المنظر .

وخلاصة القول أن الجمال الانسانى نزوع كل ما فى الانسان للاندماج فى السنن العالية للأمور ، طوعا للنسق العام المقدر ، والنظام الشامل المقرر ، وإنك عندما تعد جسمك ليقوم بما ينبغى أن يقوم به من الأعمال منسجما فى ذلك مع المعقول والمألوف والفضيلة ،

فإنك بذلك تهيئه للجمال ، وإنك حين تعد عقلك لمعرفة ما يجدر به معرفته منسجما في ذلك مع الرغبة في الحق السليم ، وتوخى المنطق المستقيم ، فانك بذلك تهيئه لصورة من الجمال .

وأنك حين تعد عملك لما ينبغي أن يكون عليه هذا العمل وتصله بمعنى الواجب متمشيا في ذلك مع تحقيق مطالب قواك الأخرى ، فانك بذلك تهيء هذا العمل للجمال .

ومن المعروف أن قواعد الصحة التي يطلب مراعاتها تعد الناس للجمال المحسوس ؛ وأن قواعد العلم والتعليم التي يرجى للعقول بلوغها ، تهيء للجمال المعنوى ، وأن قواعد التربية والتهذيب التي يرغب إلى الناس في اتباعها بشتى الوسائل تهيء للجمال الخلقي . ومن يتسم بجمال الجسم والعقل والسلوك ، وينسق بينها جميعاً فإنه جدير بالاعجاب ، حقيق بما يزدان به من جمال إنساني يستوجب حب الناس له ، واحترامهم إياه .

## ٦ ـ الأدب الراقى والفن الجميل

الأدب الراقى فن جميل قوامه البيان ، وما البيان إلا أداة فى استطاعتها أن تعين النفوس على الرفعة والتسامى ، كما فى مقدورها أن تنزل النفوس بسحرها إلى حضيض من الاسفاف والشهوات .

وإذا أردنا أن نضع حداً للأدب الراقى ، فهو على الجملة كل قول فنى جميل مركب تحس النفس بجماله وتطاوع تأثيره فى ارتياحها وانتعاشها ، وانقباضها وانكماشها .

وربما يتبادر إلى الأذهان أن الجمال لا يولد فى النفس إلا ارتياحاً وانبساطاً ، لكن الجمال فى الأدب يقترن معناه بالغاية التى من أجلها يساق القول الفنى المركب ، فإذا كان الأديب قاصداً من وراء قوله أن يثير الأشجان ويهيج الأحزان ، فأهاجها ونبهها فى النفوس ، فإن كلامه يكون جميلا ، وأدبه رائعاً ، لأنه أثار انفعالا قوياً ومعنى أبدياً حين نرى أن الفرح والحزن كلاهما من طبيعة النفوس ومن فطرة الله التى فطر الناس عليها .

وكذلك إذا كان من مقاصد الأديب أن يطمئن النفوس إلى مبدأ من المبادىء السليمة أو صفة من الصفات القويمة ، فسلط على القلوب قوله الفنى ، وعبارته الخلابة ، ليوطد فى نواحيها هذه المبادىء أو الصفات ، فإنه ولا شك جدير بصفات الأديب ، وأن أدبه وبيانه جديران بصفات الأدب الرفيع وخليقان بأن يعدا من الفن الجميل .

وقد نسائل أنفسنا عن دعامات الجمال التى يقوم عليها الأدب الرفيع ، وهى تبدو فى نظرنا ثلاث دعائم : الأسلوب والمعنى والذوق الفنى . فما هى يا ترى العناصر التى يجب أن تتوفر فى الدعامة أى فى عبارة الأديب وأسلوبه حتى تكون جميلة ، فتؤثر أثرها فى النفوس ؟

ولكى تكون العبارة جميلة قالوا : إنه ينبغى أن تتوفر فيها بعض صفات منها رقة الكلمات وألفها ، ومنها جمال جرسها ورخامتها .

ومنها حسن الترتيب بين بعضها وبعض بحيث لا تلجىء القارىء أو السامع إلى كد الذهن ليبحث عن المعنى بين نظامها المرتب المطرد المتسق .

فالعبارة الأدبية إذا رقت فيها الكلمات ، وطاب للسمع منها وقع النبرات ، وتناسقت فى طياتها الأوضاع ، فإنها تظفر بصبغة الجمال .

أما إذا كانت العبارة قد بنيت على ألفاظ وحشية غير مألوفة أو منفردة غليظة لا تطيب للسمع ولا يستسيغها الذوق أو اضطرب ترتيبها فتأخر من الألفاظ ما ينبغى تقديمه ، وتقدم منها ما ينبغى تأخيره ، وأضمر منها ما ينبغى إظهاره ، وبان منها ما ينبغى إضماره فإن القول يختل ومزاجه يعتل ، ومهما يحو هذا القول من معنى بديع أو نظر وفيع ، فإن العبارة الركيكة تبسط على المعانى غمامة وترهق الأفكار والنظرات كآبة وقتامة .

ومثل المعنى الحسن الدقيق فى الأسلوب الميسر الأنيق كمثل الزهرة فى البستان ، تزهو بحسنها بين خمائله . أما مثل المعنى الحسن الدقيق فى الأسلوب المختل والتركيب المعتل فهو كمثل الزهرة فى الرمال أو بين الخرائب والأطلال . فهى وإن كانت جميلة فى ذاتها ، فجمالها هذا ناقص الرواء فاتر البهاء ، لأنه لا جمال فى المبنى يواتيه ، ولا رواء فى المنبت يناجيه ؟ فكأنه جمال يتيم .

ولقد يكون الكوكب المتلألىء بين أمثاله فى السماء الصافية أجمل من الكوكب المستتر بين ركام السحب ، ولقد يكون وجه الحسناء المشرق السافر أروع منه فى شفائف الحجب .

وهكذا يتناسق اللفظ الجميل مع المعنى الجميل .

إذا كان الأسلوب الفنى الراق أو العبارة البديعة فى البيان والأدب معتمدة على رقة الكلمات ولطفها وجمال جرسها ووقعها وحسن ترتيبها ونظامها ، فقد نتساءل مرة أخرى : علام إذن يعتمد المعنى ليكون سامياً جميلا ؟

وأغلب ظنى أنه يعتمد فى أكثر روائع الأدب عند مختلف الشعوب ، على دعامتين :

أولاهما — تتصل بالانفعالات النفسية القوية ، والتأثرات الصادقة العميقة مما يتصل بمعانى : الحب والشوق والحنين والشكوى والفرح والابتهال والمدح والقدح والرضا والغضب والآمال والآلام وغير ذلك من مظاهر النفوس وخلجات القلوب مما هو من طبيعة الخلق وجبلة الوجود .

وثانيتهما — تتصل بالحكمة حين توقظ عيونها وتنبه روائعها وخلاصاتها التى تقطرت من تجارب الأجيال ، واستخلصت على مر السنين — ما هو كامن فى فطرة الناس من نزعات الحق والخير . وحين تحرك ما هو ساكن فى الفؤاد من أصول الفضائل فتظهر آثارها ويجرف تيارها ما يعلق بالصدور من آثام ورذائل وإحن وأوضار .

أما إذا تناول الأديب نواحى الانفعالات النفسية التى يثير بها خسائس النفوس وهفوات القلوب . فليس فيما يقوله جمال . ولعلك تقول لى : كيف تنكر الجمال فيما يؤثر فى النفوس ؟ فأقول : نعم إن الذى يثير فى نفوس الناس شهوات دنيئة هو مؤثر بلا شك ، ولكنه غير جميل ، وليس كل مؤثر يصح أن نخلع عليه صفة الجمال . لأن التأثير كما يكون بالجمال قد ينتج من وسائل أخرى لا تمت إلى الجمال بصلة ، كتأثير السحرة الذين تنطلى عليك طرائقهم وأنت واثق أنهم كاذبون وأنك لتعجب كيف أخذت بما قالوا وأسرت بما فعلوا ، ولكن بعد أن يفوت الأوان . فهناك فرق إذن بين التأثير الحقيقى الذى يسكبه فى النفوس شعاع الجمال وبين التأثير الزائف الذى تسوقه غواية خادعة أو أكذوبة بارعة .

وقد يستعين الأديب فى تزيين معانيه التى يغترفها من فيض انفعالاته القوية بما يوحيه إليه خياله النامى المطرد النماء الخاضع لقانون التطور والارتقاء فيتخذ ألواناً من التشابيه أو الاستعارات أو الكنايات ، وهو خاضع فى ذلك لوحى ذوقه الذاتى المتصل بعبقريته الخاصة ومحيطه الشخصى .

ونعود أخيراً فنتساءل عن الدعامة الثالثة من دعائم الأدب ، وهى دعامة الذوق الفنى .

فالذوق الفنى الصحيح هو الذى يبين لنا الغث والسمين ويفصل بين المعنى الجميل والمعنى المشوه . والذوق هو قدر تشترك فيه العقول السليمة فتتفق جميعاً فى حكم واحد على شىء واحد . فمن من الناس يرى الزهرة فلا يقول : إنها جميلة ، أو مَنْ مِن الناس يرى القمر فلا يقول : إنه باهر خلاب ، ومنْ من الناس لا يرى صفاء الجدول الرقراق أو يسمع تطريب العندليب فلا يعجب بذلك الجمال ؟

هذه بذور إحساس عام بذرها الله فى نفوس البشر بحيث أن أول عين من عيون الناس وقعت على الزهرة قد استحسنتها ، وأول أذن سمعت تطريب العندليب قد استجملته .

هذا هو معنى الذوق العام الطبيعى ، فهو حكم فطرى ورأى توقيفى ألهمه مبدع الجمال خلقه كأنه ينجلى على قلوبهم فيما يتراءى لهم من صور الجمال ، لأنه جمال غير محدود وحسن يتصل بالسرمدية واللانهائية .

والجمال المحدود الفانى الذى قد نحسه يتصل بمعانى الجمال الممدود الباقى الذى لا ينضب له معين ، فكأنه شعاع الشمس ترسله حزمة من خيوطها وقت الشروق ، ثم تسترده من بيننا وقت الغروب ، والشمس باقية دائما كمنبع للجمال خالد لا يغيض .

على أننا بعد أن بينا أهم العناصر التى تدخل فى بناء الأدب ، قد نسائل أنفسنا كيف يكون الأديب أديبا ؟

وليس لذلك من جواب شاف إلا أن نقول : إنها هبة الله يؤتيها من يشاء من عباده المتأثرين المؤثرين ، فلا الحياة الاجتماعية وما بها من أحداث ونكبات وثورات وأفراح وأتراح كافية لأن تخلق الأديب ، وإنما هى موجهة فحسب .

تحس قلوب الناس آثار النكبات ، ولكن الأديب وحده هو الكفيل بتصويرها فى أبلغ صورة وأقوى عبارة ، ويدرك الناس ما يمر بهم من عبر زاجرة فلا يستطيعون إبراز صورتها كما يبرزها الأديب الموهوب . وتتأثر قلوب الناس بسحر الطبيعة وجمال الكون وعظمة الوجود ، ثم لا يستطيع أحد غير الأديب البليغ أن يصف ما يرى من جمال الطبيعة وعظمة الوجود .

إذن فالأدب فن جميل موهوب لا مكسوب ، ومهما يتوفر للمرء من كسب أدواته واصطناع وسائله فإن كسب الأدوات وتوفير الوسائل ليس له دخل فى الاستعداد الطبيعى ولا فى الذوق الفطرى .

فليستمتع الناس من الأدب بآثار القرائح المتطورة ، وليخضعوا لما يوحى به إلى الأديب المطبوع دون أن يسألوا عن الأصل والينبوع ، فالأصل هو هبة الله وأثر من آثار إحسانه ، وفيض على الوجود من فيض رضوانه .

## ٧ — الموسيقى

لعل الموسيقى هى أبرز نواحى الفنون الجميلة وأبعدها غوراً فى التأثير على النفوس ولكنها مع ذلك أكثر من غيرها غموضاً وتعقيداً عند من يريد من الباحثين أن يوضح العلل فى تأثيرها وأن يستجلى حقيقتها . فهى وإن حركت النفوس فى يسر وسهولة فإن إدراكها يستعصى على العقول ، وهى وإن شرحت الصدور وأراحت المشاعر فإن فهمها يكد الأذهان ويعيى الخواطر .

وعبارة الموسيقى أصلها اغريقى ولعلها دخلت فى اللغة العربية من نحو عشرة قرون أى فى الفترة التى اشتدت فيها صلة الفكر العربى بالفكر اليونانى . وكانت تلك العبارة تدل عند أهلها اليونانيين على أوسع مما قيدها به العرف الآن إذ ربطها بالأنغام الصوتية وحدها على حين كانت من قبل تطلق على كل من يزاول فناً من الفنون الجميلة ويستلهم من رباتها التى صورها خيال الأقدمين من اليونان فتفيض هذه الربات على مزاول الفن من فيضها وتوحى إليه بوحيها سواء أكان شعراً أو قصصاً أم حركات يصح بها الجسم ويتجمل . ولكنه مع مرور الزمن ضاق هذا المعنى وتحدد ، فخرجت منه الحركات التى يقصد منها تربية الجسم وتقوية عضلاته وتعويده احتمال الشدائد فأصبح معنى الموسيقى يطلق على فنون الانسجام الصوتى ، وعلى أبحر الشعر وميزانه ، وإعداد آلات الطرب ، ونقد المدونات المنظومة ، وعلى الرقص والمسرحيات . فكأن الموسيقى إذن كانت تنتظم كل الفنون الجميلة عند اليونانيين فى الغابر القديم .

ثم تطور الأمر مع تعاقب الزمن من جديد حتى أصبحت عبارة الموسيقى لا تدل إلا على شىء واحد وهو فن الانسجام الصوتى سواء أكان صادراً عن مختلف الآلات والمزاهر أم كان من الأوتار الصوتية فى الحناجر . فالموسيقى إذن لا تخرج عن أنها حس مادى تحمله تلك الموجات الأثيرية إلى أسماعنا لتثير فينا إحساسات وانفعالات تتبعها المعانى والأخيلة والذكريات .

وليس من الهين على الباحثين أن يضعوا للموسيقى تعريفاً يشبع النفوس ويقنع الضمائر .
ولكن غاية ما قد تحد به أنها فن يمزج الأنغام والأصوات مزجاً لطيفاً حتى يطيب للأسماع
ويؤثر فى النفوس .

والأسماع تختلف حيال الموسيقى باختلاف السامعين وباختلاف طبقاتهم وسنهم
وتجاربهم وأجناسهم وزمانهم ومكانهم . فالصوت الذى يهز الشرقى غير الصوت الذى يهز الغربى
والذى يطرب السودانى قد لا يطرب الهندى ، والذى ينتشى به الطفل الصغير قد لا ينتشى به
الرجل المثقف الكبير ، ولكن مهما يكن من اختلاف صور التأثير الموسيقى فإن هناك قدراً
مشتركا من التأثير يعم جميع الأجناس والطبقات والأزمنة والأمكنة ، وهذا القدر هو
تحويل القلوب إلى الآفاق الصوتية السحرية الجذابة كما يتحول الفراش من الظلام إلى شعاع
النور وانتشال النفوس مما يثقلها من الشواغل والسمو بالمستنير منها إلى آفاق معنوية عالية
وإيقاظ جملة من الانفعالات والذكريات والعواطف تختلف فى حدتها ونشاطها وألوانها
باختلاف النفس المتأثرة التى هى كمسرح لهذه الانفعالات والذكريات والعواطف .

على أن هذا التأثير المتقدم ذكره ليس خاصاً بالموسيقى وحدها ، لأنه قد ينبعث
فى النفس من جمال التصوير ودقة العمارة مثلا وغير ذلك من مختلف الفنون .

ولكن الموسيقى قد امتازت عن كل الفنون الجميلة بشىء نستطيع أن نسميه بلاغة
التأثير وحدته فأنت إذا نظرت إلى خط واحد مرسوم فإنه لا يثير فى نفسك ما يثيره رنين
نغمة واحدة تتهادى إلى أذنك فتحرك قلبك تحريكا .

واننا نرى الطبيعة سخية علينا بضروب من الألوان والأضواء زينت بها الزهر والسماء
والنجوم والكواكب كما هى سخية بجمال التقسيم ولطف الحركات وأناقة القسمات التى أغدقتها
على كثير من الكائنات الحية المختالة بقدها أو جمال تقاطيعها كالانسان أو رشاقة خطوها
وجميل حركاتها كالغزلان ، أو خفة انتقالها وعذوبة تحولها كالفراش على الأزهار والطيور
على الأشجار ، ولكن الطبيعة لم تكن سخية فيما تبرزه لنا من الأصوات والألحان كأنها
قد تركت ذلك لاجتهاد الانسان وتوثبه إلى عالم النغمات ، فالطبيعة قد اقتصرت على أن تسمعه
تغريد الأطيار وخرير الجداول والأنهار وحفيف الأشجار وجعلت هذا عاملا بدائياً
من عوامل الالهام وتركت لنفسه هو أن يبتدع من رنين الحناجر الموهوبة واختراع الآلات

المختلفة ما يقطع به شوطاً بعيداً ومدى واسعاً فى عالم الجمال الصوتى ، كأن ابتداع النغمات المؤثرة قد جعل من خصائص الانسان .

فنحن نرى الموسيقى شيئا شائعا فى مختلف العصور وبين كل الاجناس وما ذلك إلا لطابعها الانسانى العام كأنها غريزة من عيون الغرائز التى تتجلى فى الفطرة البشرية ، فمنذ عرف الانسان نفسه عرف لوناً من الآلات الموسيقية ساذجا بسيطا اتخذه من أنابيب الغاب فجعله مزماراً وشد الشعر فجعل منه أوتاراً وشد الجلود على جذوع الأشجار المنخوبة فجعل منها الدف كما ابتدع نغمات توقيعية من صفقات الأكف ، كما عرفت الأمهات هدهدة الأطفال فى المهاد ، وعرف الحداء ومد الصوت بالغناء فى الأسفار والحروب والحوادث والابتهالات والصلوات والخطوب ، ثم أخذ كل هذا يتطور مع الزمن فتعددت الالآت الموسيقية وتنوعت الصور الصوتية تمشيا مع تقدم الانسان وارتقاء الشعوب . ومن أجل ذلك نجد أن موسيقى كل أمة هى أظهر مشخصاتها وأجلى مقوماتها التى تتميز بها أمة عن أمة وتنفرد بها ثقافة عن ثقافة وتستأثر بها نفسية عن نفسية ، وما ذلك إلا لأن أثر الموسيقى ينبعث من طبيعة النفس أكثر مما ينبعث من المؤثر الخارجى آلة كان أو صوتاً . وقد يحسب بعض الناس أن أثر الموسيقى ناشىء عن اتساق النغمات وانسجام الألحان كما يحسب بعض آخر أنه ناشىء من الصور والمعانى والأخيلة التى تثور فى النفس عن سبيل هذه النغمات والأصوات ولعل التأثير الحقيقى للموسيقى ناشىء من تزاوج النغمات بالصور والمعانى والأخيلة التى تنسجم مع نفسية السامع أو نفسية الشعب الذى ينتمى إليه السامعون .

ولما كان للموسيقى أثر شامل فى التأثير على النفوس فانها قد استخدمت استخداما عمليا : استخدمها الطب فى علاج كثير من الأمراض العصبية ، واستخدمها الدين فى الاتصالات الروحية ليزيد من جلالها وعميق تأثيرها واستخدمتها الجيوش فى تخفيف أعبائها وحفز هممها وشب حماسها ؛ فهى على العموم كثيرة المنافع عظيمة الآثار .

ولعله يكون للموسيقى فى المستقبل شأن جليل ، حين تقرب الأيام بين أذواق الناس وبين ثقافات الشعوب وتيسر لهم بالمذياع سماع ألوان راقية منها تألفها الآذان فى جميع البقاع وتثير فى كل النفوس خير ما يستثار فيها من المعانى الرفيعة . فتصبح خير أداة للخير وأبرع وسيلة لتأليف النفوس على حب السلام .

فليجعل كل من وقته نصيباً لسماع الموسيقى الراقية ففيها تخفيف للمتاعب وارتقاء بالأذواق وسمو بالأرواح والأخلاق .

## ٨ — التمثيل والمسرح

التمثيل المسرحي من موضوعات الفن الجميل الذى يشغف به المثقفون والأدباء ، وتقدره الحضارة الراهنة ويذكر له أثره البالغ المريح فى التسلية البريئة ، وفى تهذيب النفس وفى ترقية الذوق والوجدان ، وفى تزويد الناس بأسمى المبادىء وأقوم الفكر ، وفى تبصيرهم بحالات النفوس البشرية ووقائعها وبما يثار فى الحياة الاجتماعية من موضوعات جديرة بالتفكير وحرية بالتدبير . وليس من المناسب أن أدخل فى تفصيلات حول موضوع التمثيل المسرحي فى هذه الكلمة المجملة فهى لا تتسع لتفصيلات لا يسمح الوقت بالدخول فيها وقد لا يقتضيها المقام .

إنما أقول أن تلك الدور الفخمة المجملة بالنقوش وبالزخارف الرائعة التى يقصد اليا أحدنا لشهود مسرحية قد تتحرك عند شهودها انفعالاته وتأثراته أو تنطلق فى ساحاتها مسراته وضحكاته ، أو يعجب أحدنا بإلقاء ممثل بارع قدير . أقول إن تلك الدور ومظاهر تحقيقها قد تستمد وجودها من فطرة الانسان ونزعات فى طبيعته الاجتماعية حين تبعثه فطرته ونزعاته لأن يشرك غيره من الناس فى مختلف تأثراته وحين يرغب فى أن يبسط لغيره مكنون عواطفه وحين ينزع لمحاكاة غيره فيما يظهر به الغير من مختلف المظاهر التى قد تنتقل من شخص لآخر عن سبيل العدوى النفسية والمحاكاة .

فنزولا على حكم الفطرة يشرك المرء غيره عند أفراحه وعند أتراحه ، وفى تأملاته وفى ابتهالاته وانفعالاته . ونزولا على حكم طبيعته فى رغبة المحاكاة والتقليد يهم المرء لمحاكاة الغير فيما هو محمود من أحوال الغير ، أو مما قد يؤثر فى النفس من شئون ذلك الغير .

فإذا اجتمع الناس لمواساة مهموم ، أو للعطف على مألوم ، فإنما هم فى حقيقة فى الأمر يشهدون صورة للهم يمثلها ذلك المهموم ويستعرضون صورة للألم يمثلها المألوم ، فكأنهم فى موقفهم هذا يحضرون مأساة تبدو عباراتها فيما يبديه ذلك الحزين المتألم من حركات وإشارات وكلمات .

وإذا اجتمع الناس فشهدوا اغتباط المغتبطين وهناء الفرحين ، فإنهم إنما يشهدون تمثيلا للفرح والحبور والغبطة والسرور يبدو فى مختلف الأشكال والأحوال .

وإذا أثر شخص فى نفس شخص آخر بأسلوبه فى التعبير أو فى التفكير أو فى الاشارات والحركات فيجتهد هذا الشخص الآخر فى أن يحاكى الاول فى مخبره أو فى مظهره . وهذه المحاكاة ليست إلا ضرباً من التمثيل ولوناً من ألوانه ، وكأن عناصر التمثيل إذن ذات صلة وثيقة بنزعات النفس ومن طبيعة الانسان .

على أن للتمثيل المسرحى وصوره المختلفة أصولا ممتدة فى التاريخ وفى الحياة الاجتماعية عدا ما له من اتصالات بطبيعة النفس . ففى الشعوب البدائية يجتمع الناس حول زعمائهم فى المعتقدات فى مكان معين ليستقبلوا بركات هؤلاء الزعماء ويتعلموا من تعاويذهم ورقاهم إزالة الآلام وتحقيق الآمال بطبيعة النفس . فلقد كان اليونانيون فى غابر حضارتهم يجتمعون فى مواسم الحصاد فى ساحات معينة كذلك لتمجيد آلهتهم الذين يغدقون عليهم خيرات الحصاد . وكان مظهر هذا التمجيد يبدو فى الأناشيد التى يرسلونها وفى الأفراح التى يذيعونها فى الألعاب والمباهج حول الهيكل ، ويأتى الناس من كل مكان ليشتركوا فى هذه الأعياد القائمة والمواسم الباسمة .

وكان العرب فى غابر جاهليتهم يجتمعون فى أسواق تقام فى عدة أماكن من جزيرتهم فى أوقات معلومة ليعرضوا ما كان يتأتى لهم من أشعار رائعة وأخبار ممتعة . كما كان يجتمع فى تلك الاماكن أشراف العرب للمتاجرة ، وللمفاخرة ، وللمنافرة ، ولمناداة الأسرى والتحكيم فى الخصومات .

وعند المصريين فى مختلف العصور كانت تهيأ فى مختلف النواحى والقرى حلقات لسماع السامرين ولرؤية اللاعبين .

وفى كل ما تقدم ذكره دليل على أن أصول المسرح ومقوماته قد وجدت منذ القديم فى كل بيئة وفى كل حين ، لأن تلك الاجتماعات مهما تنوعت أشكالها كانت تظهر فئتين من الناس : فئة المتفرجين والمستعرضين والمستمعين والمتعظين والمسترشدين . وفئة اللاعبين والعارضين والواعظين والمرشدين والموجهين .

ولعل البلاد التى كانت تقل فيها الأمطار كبعض بلاد الشرق وبلاد اليونان كانت تهيأ تلك الاجتماعات والحفلات فى مسارح الهواء الطلق حول الانصاب والمعابد

يجلس عند مظلاتها البسيطة المكونة من فروع الأشجار السدنة والكهان والخواص .
فئة الناس من المحتفلين فكانوا يستصلحون لمجالسهم الساحات ويستخدمون الربوات
كات ليتمكنوا من رؤية الكهان وليستمعوا نبوآتهم وأقوالهم ، ليتمكنوا من رؤية
بين والمحتفلين ، وليشهدوا لعبهم وأعمالهم فى تمجيد آلهتهم ومظاهر تمجيدهم .

ومع تقدم الزمن واتساع تجارب الانسان اتخذت المدرجات لجلوس القاصدين
تفرجين وبمقداراً عظمة الحفلات وتنوعها وما قد يندرج فيها من أناشيد وطقوس
ألوات مما يقتضى سعة فى المكان واستطالة فى زمن العرض بمقدار ما اتسعت
ارح الأولى .

ومن ثم انقسمت أمكنة المجتمعات العامة فى دور الملاهى ، وفى العبادة كذلك إلى
مين رئيسيين : أحدهما للعارضين وثانيهما للشاهدين . فالأصل إذن فى دور التمثيل
ينحصر فى مسرح لمن يعرض ومدرج لمن يشهد .

ومع ضرورات التقدم وازدياد الحضارة تنوعت المقاعد فى دور التمثيل والملاهى
تعددت المرافق والأدوات فى مختلف المسارح حتى وصلت هذه الدور إلى ما وصلت إليه
ن عمارة أنيقة تجتمع فى أبهائها المجالس المريحة والأضواء المختلفة والنقوش الخلابة والمناظر
لجذابة والملابس المنوعة والأصوات المكيفة وما إلى ذلك مما يعين أدق صور الحياة
لظاهرة بل وأدق معانى الحياة الباطنة .

وفى القديم الغابر البعيد كان الممثل هو الشخص الذى يقوم بدور مشهود أمام طائفة
من الناس سواء أكان هذا الدور يبدو فى أنشودة تنشد ، أو فى قصة تذكر ، أو فى عظة
تلقى ، أو فى مأثرة تذاع أو فى حركات وألعاب تبدو فيها الدقة والمهارة حسب الاستعدادات
التى تختلف باختلاف الأشخاص الذين يقومون بعرض أدوارهم فى الإنشاد أو فى ذكر القصة
أو فى إذاعة التفريح أو فى غير ذلك من مظاهر التمثيل .

ومهما تختلف استعدادات الممثلين واللاعبين فهم يشتركون فى إبراز هبة فنية وعرضها
على غيرهم من الناس فالتمثيل فى الأصل صنعة مشتركة لكل صاحب فن يبدو أنه أقدر
من غيره على إبراز هبته سواء أكانت هبة فى الصوت أو الحركات أو الإلقاء .

ومع مرور الزمن والتقدم ومع توزيع الأعمال والأخذ بسبيل الاختصاص أصبح التمثيل فناً يتقنه أهله بعد ممارسة واحتراف وجهاد طويل ، كما أصبحت المسارح ودور التمثيل من أدق العمارات التى تتجلى فيها علوم المهندسين وفنون المزخرفين والنقاشين والمصورين .

وإذا كان أول صور التمثيل عند ذكر تاريخه المدون يتمثل فى أعياد اليونانيين ، وفى حفلاتهم بأيام الحصاد ثم فى طواف شاعر من شعرائهم يلقى أقاصيصه وأشعاره على عربة يتخذها مسرحاً ، فقد انتهى فن التمثيل إلى تلك المسارح التى يمثل فيها عشرات ومئات وتتنوع فيها المناظر حتى كأنها تبدو قطعة من الحياة الواقعة . ولم تتقدم المرأة لأعمال التمثيل إلا فى عهد الرومانيين. على أنه بعد أن اضمحلت المدنية الرومانية وهجرت ملاهيها العامرة ، وأهمل الغربيون بعد اضمحلالها هذا الفن الجميل فترة من الزمن أخذ العرب يتلمس ذلك الفن عند طائفة من الشعراء والمداحين المتجولين فى مختلف القرى والمدائن يقصون الأقاصيص وينشدون الأناشيد ويضحكون الناس بهزلياتهم إلى أن حل القرن الخامس عشر وما بعده ، فنهضت دور التمثيل والملاهى والمسارح نهضة على غرار ما كانت عليه فى صورها اليونانية والرومانية؛ ومنذ تلك القرون وبخاصة فى القرن السابع عشر وضعت أسس المسرح الحديث .

على أن المحترفين بالتمثيل لم يجدوا الاحترام اللائق بفنهم إلا فى بلاد اليونان فى الغابر ، وعند الانكليز ثم فى مختلف الأمم فى الزمن القريب . وربما يرجع تفويت حقهم فى الاحترام فى بعض الأمم وفى بعض العصور لأنه دخل فى زمرة من احترفوا التمثيل طائفة ممن أعوزتهم الثقافة الرفيعة أو الأخلاق المهذبة أو لأنهم تعاطوا تمثيل النزعات الهدامة أو الإباحية .

وفى هذه الأيام التى رقت فيه ثقافة الممثل وارتفعت المعانى التى يمثلها فيما يقدم له من الأدب الرفيع أصبح الممثل معلماً وملهما ومثيراً لأنبل النزعات والعواطف وجديراً من الشعوب بكل تقدير يقدر به المعلم المؤثر والموجه الصالح والمسلى المهذب .

## ٩ – العمارة

حديثنا اليوم عن العمارة ونشير فيه إلى لمحة عاجلة عن تاريخها ، وعما يرجى أن تحققه للناس من ترفيع لأذواقهم ، وخير فى حياتهم وإسعاد .

وعبارة العمارة تشمل فى معناها توجيهات العلم بالحقائق الهندسية الواقعة ، كما تشمل وحى الذوق السليم ، وإلهام الجمال الأخاذ ، فهى وإن دلت على العلم بإقامة المبانى وتشييدها ، فإنها تدل على الفن فى إبراز هذه المبانى فى أجمل الأشكال وأروع الصور .

ولعل العمارة هى من أشد ظواهر الحياة الاجتماعية اتصالا بمختلف المعلومات وأنواعها ، ومن أجدرها بنشر مظاهر الروعة فى الحياة وبسط الجمال للأنظار ، ومن أحراها بإثبات تحضر البشر ورقيه فى درجات المدنية ، ومبلغه من الكرامة الانسانية .

وما من أمة كان لها شأن فى التاريخ إلا خلقت أثراً من الآثار المعمارية سجلت به منزلتها فى الذوق الفنى ، ودونت به مكانتها من الرقى والعرفان .

ومهما يكن من حاجة الفن المعمارى إلى طائفة من المعارف والعلوم الرياضية والطبيعية والكيمائية والمعدنية ، وأحوال التربة والظواهر الجوية والأرضية ، وغير ذلك من شتى المعلومات فإن أشد ما يرتبط بعلم العمارة ، وألصق ما يتصل بفن المعماريين إنما يبدو فى مراعاة النسب بين أجزاء المبنى القائم ، وفى تزيينه بصنوف من الحلية تنسجم مع المبنى المشيد ، وفى اصطناع المادة المواتية التى تتحقق بها الأغراض والمطالب لهذا البناء ، وفى إيحاء المعنى الذى من أجله أقيم .

ولعل مراعاة النسب وانسجامها ، ومواءمة التحلية وتناسقها وحذق الأغراض التى يشاد من أجلها مبنى من المبانى ، وإيحاء المعانى التى تتخلف من وراء المبنى الشاخص لعل ذلك فيه الدليل على ما يحيط أعمال العمارة من دقائق النشاط الفكرى ولطائف الفطنة النفسية ، وفيه البرهان الواضح على منزلة العمارة من النفوس ، وقيمة الرسالة التى تؤديها الهندسة

المعمارية بين الناس ، ودقة ما تقاضى به تلك الرسالة حاملها من علم ومهارة ، وذوق ، ولباقة واستلهام وإيحاء .

وحين تقاضى فنون العمارة أهلها علما ومهارة وذوقاً ولباقة وإلهاما فنياً ، فان حيزها يتسع لنشاط الكثيرين من أهل الفنون الاخرى ومصطنعيها ومحققيها ممن تجمعهم بالمعماريين وشائج الفن الجميل ، فكم من عمارة شامخة تلتقى فى ساحاتها تصاوير المهرة من المصورين ، وتجتمع فى باحاتها ألواح ذوى المواهب من النقاشين ، وتبرز من حناياها زخارف كبار المزخرفين ، فكانت منزلتها من ضروب الفنون الجميلة منزلة الساحة التى تحل عندها مظاهر الجمال وتنتشر فى ميادينها أفانين سحره وأنواع سره ! وكم من عمارة ترجمت نشاط النفس البشرية بما فيها من فكر وعاطفة وخيال ، وعبرت عن مختلف حاجاتها المادية والروحية بما يتمثل فى تلك العمارة من النسب وضروب التجميل والتزيين .

وإن أغلب ما تتمثل فيه العمارات ذات الذكر هى المتاحف التى تجمع بين شتيت آثار الأجيال البائدة ، وهى معاهد العلم التى يتفقه فيها الناس ويراضون عندها بالأدب ، وهى المصانع القوية الأركان الشديدة البنيان التى تنتج للناس أدوات عيشهم المريح ، وهى المعابد والهياكل التى تتحرك فى أجوائها مشاعر الناس فيذكرون مجاهل دنياهم وغيوب أخراهم ، وهى الملاهى التى عندها يستريحون من عناء الكد ومتاعب الجد ، وهى القصور التى تمثل العظمة والأبهة ، وهى القلاع التى تشير إلى قوة الغالبين وبأس المسيطرين ، وهى البيوت الأنيقة والمبانى الرشيقة التى تهيىء للناس لذاذة حياتهم العائلية ورفاهيتهم المادية والمعنوية ، وهى المدافن التى يستثار بهـا ذكريات من فقدوا من أحباب وأصحاب ويستذكر بها ما قد تشير إليه من أحساب وأنساب .

على أنه مهما تتعدد الصور التى تتشكل بها العمارة ، ومهما تعوزها ضروب من المعارف فان التاريخ هو أدناها صلة بفن المعمار وأكثرها استفادة من هذا الفن الجميل . وذلك لأن الشعوب تفنى كما تفنى الأفراد وتبيد كما تبيد ، لكن المادة التى تتركب منها عمارة من العمارات ويتألف منها مبنى من المبانى سواء أكانت تلك المادة من الحجر أم الخشب أم من صنف من المعادن كثيراً ما تصمد للدهر والزمن ، وأن الرسوم والاطلال التى تبقى أو تتخلف عن هياكل العمارات القائمة أو المبانى المحطمة هى على كل حال قد تكون فى عمرها أطول

من عمر الأفراد والأمم ، وقد يستدل من ذلك العمر الممدود وهذا الرسم المشهود على ما وصلت إليه تفكيرات البائدين في معافاتهم وأحوال الغابرين في حضاراتهم .

ومنذ نشأ الانسان كانت غريزته في حب البقاء هي أول البواعث لمظاهر العمران . فاتقاؤه الحر والقر وخوفه من عاديات الأحداث وشر الأوابد والضوارى كل ذلك كان يوحى إليه ليهيء من فروع الأشجار ويجعل من صخور الجبال وكهوفها وتراب الأرض وجلود الدواب ما يتخذ منه كنا ومسكناً وملاذاً يتقى به ما يخاف ، ويلتمس عنده الراحة والاطمئنان ، وظل الانسان زمناً مديداً يقنع بما توحى به إليه غريزة البقاء من اتخاذ مسكنه في محياه ، ومدفنه في مماته ، ومهده في مولده على حالة ساذجة لا تتعدى أنواع الكهوف والمخابيء والعرائش والأكواخ والحفر ، حتى إذا ما مضى على نشأة الانسانية زمن مديد وعهد بعيد ، قدر له تفكيره وتجاربه بعدئذ أن يشهد البنيان ويمده بالزخارف ، وفقاً لخطة ترسم ، ولنظام يتبع ، ومنذ ذلك الحين الذى نجهل بدايته وأوانه يبدأ تاريخ فن العمارة ، ولكل شعب طابع خاص في عماراته ومبانيه ، ولكل عصر من عصور التاريخ صبغة يصبغ بها ذلك الفن الرفيع . وليس في الطاقة أن نسترسل في القول والبحث في تاريخ الفن المعمارى وهو طويل متشعب ، لكنه يلاحظ على وجه الاجمال أن العناية بفن العمارة كانت دائماً من حظ الحكام وأهل العقد والحل في مختلف الشعوب والأمم فكان قادة الشرق القديم وأكاسرته ، وفراعين مصر وطغاة اليونان ، وقياصرة الروم ، وخلفاء الاسلام وسلاطينه كانوا أكثرهم من شادة الآثار المعمارية وأقواس النصر والهياكل والقلاع والملاهى والمعابد والمعاهد والمساجد التى أبقى الدهر منها على كثير برغم تتابع السنين وكر الأجيال ، ولما تقدم الزمن واضمحلت مدنية اليونان واضمحلت كذلك مدنية الرومان أخذ الغزاة والفاتحون ممن قامت حضارتهم على الحضارتين القديمتين اليونانية والرومانية يقلدون وحى الفن المعمارى في هاتين الحضارتين مع شيء يسير من التحوير والتطوير .

وفى القرون الوسطى كان أهل الإقطاع وسلوك ذلك الزمن وذوو النفوذ فيه يقيمون المعابد والمعاهد العلمية والقلاع والقصور ويستلهمون في بنائها ما كان لهم من عنجهية وسيطرة وديننونة وإيمان .

وفى زمن النهضة وحينما اكتشفت أمريكا وراجت التجارة بين القارة القديمة والجديدة وأثرى التجار أقيمت القصور وأنشئت المبانى وتعددت أنواعها الدالة على الثراء والغنى .

ولما حل الزمن الحديث فى الغرب أخذ الملوك فى العودة إلى تقليد الروم فى العناية بالمبانى العامة فطبعوا عليها عظمة ملكهم وجبروتهم وأبهتهم حتى إذا جاء الزمن القريب والمعاصر الذى تقدمت فيه الصناعة الآلية وزادت المخترعات وراجت نزعات الحكم الديمقراطى حين يتجه لأن يحقق لسواد الناس أقساطا من متع الحياة وييسر لهم حظوظاً من العيش المريح لم تكن من قبل إلا من نصيب الأغنياء وذوى النفوذ انتشرت أنواع العمارات الكبيرة الجامعة لكثير من الناس كما انتشرت المبانى الصغيرة التى توفر لأوساطهم ذوى الكسب المحدود السكن المريح وتذوق الجمال الميسر المبسط فى ذلك السكن .

ولعل الديمقراطية حين تنزع لتمتع الجميع بحظهم من متاع السكنى فإنها مع ما ترعاه من حاجات الصحة والسلامة فى تخطيط المدائن والقرى ترعى الترفيع لأذواق الناس بمحاولات الفن المعمارى الحديث ، وما فيه من الجمال المبسط الأخاذ . ولعل بلاد الشرق العربى حين يجىء دورها فى تحقيق آمال الديمقراطية وإشاعة المبانى الجميلة المريحة لسواد الناس لعلها تستلهم مع ذلك نفحات الشرق فيما يوحيه من جمال بيئته الخاصة وتاريخه الملىء الممدود .

ولعل الناس حين يبحثون عن سعادة العيش وغبطة الحياة فيستعينون عليها بمختلف الفنون الجميلة ، لعلهم يجدون من فن العمارة أوسع نافذة لاسترواح المتعة والاطمئنان ولتذوق الحياة الجميلة الوادعة .

# ١٠ – المجتمع العربى فى أبرز مقوماته

العربى إنسان قبل أن يكون عربياً ، فمقومات عروبته تلحق بمقومات أنانيته وتضفى عليها صبغة خاصة تميز العربى فى كيانه ومسلكه ومسعاه ، وتميز المجتمع العربى فى وضوح عند من يقدرون ما للمجتمعات من مشخصات وخصائص .

فالعربى كإنسان ينزع إلى ما ينزع إليه الآدمى السليم الفطرة من رغبته فى حياة عزيزة تسعد ، ونفور من حياة وضيعة تشقى ، وإقبال على ما فى العيش ووسائله من محاسن ، وإدبار أو مقاومة لما فى شئونه من مساوىء ، وحرص على ما يكفل للمرء حقه من الحرية والكرامة واحترام الشخصية وإثبات الذات ، وحب المحسن وبغض المعتدى واشتهاء الاستمتاع بنعم هذا الوجود ، وبعناصر الخير فيه ، وما إلى ذلك كله من ضروب النزعات التى تنطوى فى مقومات البشرية السوية .

على أن الأقدار تقضى على جماعة من الناس أن يعيشوا فى مكان معين من الأرض ، ويروضون أنفسهم وذراريهم على مظاهر اجتماعية معينة تجمع بينهم ، ويتمرسون فى نواحى يشتركون من مجرى التاريخ ، وعندئذ تجعل لهم من ذلك كله سمات مشخصة ، ومقومات يتميزون بها عن الناس .

ويبدو جلياً أن لغة العرب هى أوضح مشخصات العروبة أو هى أبرز مقومات المجتمع العربى ، وإنما كان لتلك اللغة من طول العمر وسرعة الانتشار وقوة الاستيلاء وما هو لها من المرونة فى التعبير عن المعنويات ودقائقها ، وما لهـا من قدرة على التعبير عن المدلولات المادية والحضارية ، وما يمازجها من فخامة البيان ، وتماسك البنيان يجعلها فى مكان الصدارة من مقومات العروبة ومشخصات مجتمعها .

على أن موقع المجتمع العربى ، وتوسط نجوعه وأقطاره بين قارات العالم القديم وتخير الأقدار له لإلهامات الأديان السماوية الكبرى ، التى قامت عليها معالم الهداية البشرية

الأساسية التى فتحت للوجدان أبواباً ونوافذ للمثاليات والمعنويات وحفزت نفوس الناس وهممهم لضروب من التأملات والعلم والمعرفة ، كل ذلك كان من شأنه أن يهيء النفسية العربية لحساسية خاصة ، وأن يلونها بما تتشخص وتتميز .

ولعل المجتمع العربى الذى يمتد من شاطىء بحر العرب شرقاً إلى المحيط الأطلسى غرباً ، فى رقعة متواصلة متلاحقة ، والذى تسكنه جموع من الناس ، تجرى على ألسنتهم لغة العرب ويحسون فى أنفسهم معانى العروبة وآدابها ، يستشعرون فى صدورهم أحاسيسها لا يجهلون ما ربوعهم وأقطارهم من تنوع وتفاوت فى المظاهر الاقليمية ، وما فى نفوسهم من ألوان النشاط والاستعداد وما فى أراضيهم من ضروب الثروات الظاهرة على وجه الأرض والمستخفية فى باطنها مما يغرى هذه الجموع بالتكافل والتضامن لاستغلال هذه الثروات المتكاملة لصالحهم فى المعاش .

ولم يكن فى تكامل الأقاليم العربيـة فحسب ما يوحى بترابط مجتمع العرب ، إنما فى موجبات الأطماع الاستعمارية والسياسية ومظاهر العدوان عليها ما كان ذا أثر شديد فى توثيق الوشائج وتقوية الروابط فى هذا المجتمع ، إذ تنبهت شعوبه إلى أغراض المستعمرين وما يعملونه لتفتيت وحدة العرب وتوهين قوتهم لتخطف أقاليمهم فزادتهم تلك اليقظة والتنبه تشبثاً بتقوية الوحدة فى العروبة طواعية لنزعة الكفاح من أجل البقاء .

وقد أدى ذلك إلى تكوين جامعة الدول العربية ، وانعقد ذلك على ميثاق بين بلادها من شأنه أن يوثق العلاقات ، وأن ينسق الخطط السياسية فى سبيل التعاون وصيانة الاستقلال والسيادة ، وتحقيق الأهداف لتخليص المجتمع العربى من كيد الطامعين واستغلالهم .

ولقد عمل هذا الكيد على تعويق التواصل بين الأقاليم العربية بالاستيلاء على فلسطين وكان فى ذلك ما أشعل رغبة العرب فى اتحاد مجتمعهم ، كما كان فى إيمان ثورة مصر الحديثة ودعوة قادتها للعروبة ما سعر فى الصدور جذوة مقدمة للتساند والتكافل والتآزر بين العرب .

وإذا أضفنا إلى ما تقدم ذكره من مقومات المجتمع العربى ما رسبته الأيام فى وجدان أهله من أدب لغتهم ، وموجاتهم الثقافية الماضية والحاضرة وما توحى به تقاليدهم

من الحمية للعزة ، ومن الإباء ، ومن النجدة ، ومن الوفاء ، ومن تقدير الحرية والرغبات في التحرر ، ومن شمول الخصال الوطنية وما إلى ذلك من معنويات من شأنها أن تهيىء لرسالة عالمية مرجوة للانقاذ من أنانية الحياة العصرية وماديانها ، وللانقاذ من عدا فى وجه المعتدين، فإن فى ذلك ما يصح وضعه فى حساب مقومات المجتمع العربى التى ينبغى أن تقوم عليها تربيته ، وتنبثق من نواحيها ثقافته ، لكى يتصف بالعروبة حقاً ، ولكى تكون الثقافة مستمدة من كيان المجتمع وحياته وشخصيته .

وإذن ففى اللغة ، وفى تواصل الأرض ، وفى تداخل التاريخ وتشابكه وفى تلاقى المصالح المشتركة ، والآمال والآلام المتبادلة ، وفى الطموح إلى مكانة مرموقة من العزة فى عالم السياسة الدولية ما يصح أن تتلمح فيه مقومات مجتمع عربى ورابطة عروبة ليس لها انفصام .

## ١١ — حفيد

سعى إلى وأنا فى فراش المرض ودرج إلى سريرى فى خطواته المتلاحقة المتقاربة ليدعونى بصوته العذب فى لكنته المتعثرة . وكانت الصحة والعافية تتلبس جسمه المليء المستدير ، وتلمع عيناه الزرقاوتان بالحيوية والنشاط ، وتعلو جبينه الوضاء إشراقة الطهر ، وفى وجهه الغض ، وتقاسيمه الباسمة ، وثناياه المتلألئة مسحة النقاء والهناء . ومددت يدى أتلمس بظهرها شفتين رقيقتين وقبلة رطبة ناعمة أنعشت ذبولى . ووجه إلى الطفل نظرات فيها معان تقصر الألفاظ دون تصوير لمساتها السماوية البادية فى عينيه الوادعتين . أترى هى نظرات التطلع يمازجها خلو ذهنه من أدوات العلم ووسائل المعرفة . . . ؟ أهى تعبير لأحاسيس يستجلب بها منازع الحب ويستشعر بهما ملامس الحنان . . . ؟ أهى مظهر لما يتفاعل فى نفسه من عناصر البراءة والسذاجة ورهبة الخفى وخوف المجهول . . . ؟

ونظرت إلى الحفيد الحبيب الذى جاوز العامين بقليل وأنا أكبره بنيف وسبعين عاماً وهى مرحلة طويلة تفصل بين عصرين وتباعد بين عمرين . تفصل بين عصر تكونت فيه وتمرست فى أساليبه ، وخضعت لمقتضياته . وبين عصر يقبل على هذا الصغير بأساليبه ومقتضياته . . . وقلت فى نفسى أنه لن ير الكثير مما رأيت أو يعلم الكثير مما علمت ، على أن ثمت حقيقة خالدة لا مناص من أن يشعر بها ويدركها كما يشعر بها الناس ويدركونها ما داموا هم الناس . تلك هى الخضوع لجاذبية الطفل والاستسلام لسحرها الواقع . وتساءلت عن الخصائص التى يختص بهما السويون من الأطفال لكى تهوى إليهم الأفئدة . أترى يحبون طوعاً لما تتوارثه الأجيال والقرون من حب غريزة حب الذات حين يقدر الآباء فى أبنائهم عوناً على جلب المنافع ودفع المكاره . . . ؟ أيحبون لبراءتهم من الشر وفى طبيعة الدنيا الشرور ، فمالت قلوب مجربيها للطفولة البريئة من الشرور وضروب الأذى . . . ؟ أيحبون لأنهم أدوات لبقاء المجتمع واستمراره ورقيه ، والانسان بطبعه

ميال للبقاء وحريص عليه ومشوق لطلب الأرقى والأكمل . . . ؟ ومهما يكن من جواب فقد قضت المشيئة الأزلية بحب الأطفال أن يتمتعوا بأساليب العطف والمرحمة ، وهكذا يترتب عمران الكون على أنانية والد وحدبه على من ولد ، وعلى تعاونه وتراحم بين قادر وعاجز . حكمة بالغة وأنانية مقدسة ومنطق سليم فى شئون الخلق ومجرى الأمور .

دارت فى نفسى على هذا النحو دوامة من التفكير إلى أن استقرت حولى معنى يتجلى فى الحب السوى للذات ويظهر فى أنانية حميدة تدفع لبقاء النوع ، معنى يتجلى فى الأنانية الفطرية المحتومة ، فيجعل الناس يشفقون بأبنائهم وذويهم ، ويغذونهم بالبر والاحسان . ويتهيأ جهاز تلك الأنانية فى شكله المحدود أو فى شكله الممدود من عائلة ضيقة أو أسرة واسعة تقام على نساء ورجال يتوافقون ويثمرون ذرية يتبينون فيها بعض ما لأنفسهم من خلال ، ويتلمحون لديها بضعة من مادتهم ولحومهم ، وقطرات من دمائهم . . . ولقد ظل هذا الجهاز وما يتعلق به من آثار وقرار وديار أقوى الدعامات لبناء المجتمع السليم ، وظل هو الوعاء الأشد لحوافز الناس فى شتى العصور لمدخور الناس ومنشودهم لهناءة العيش .

ومنذ القديم الغابر على مر الأيام تشكلت فى مختلف المجتمعات مختلف الصور فى الأسر والعائلات على أنها ظلت على الدوام معطرة بنفحات المحبة ومنسمة بالتواصل وبالألفة والتعاطف والتعاون . وقد قدست مختلف الأديان وطقوسها الروابط العائلية ، وكذلك رعت حرماتها التقاليد والقوانين . ولم تنل السنون وتعاقبها شيئاً من جوهر الجهاز العائلى ولم تغير شيئا من أخص مقوماته فى القدسية والتساند . . . فالأسرة إذن هى أساس المجتمع ومن جوها تهب شتى المقومات الخالدة التى يتنسم منها الانسان فهى حقاً قدس الأقداس الذى تتجه إليه مسالك العيش وتصدر عنه فلسفته ومن حوله يستمد المعلمون والواعظون والمصلحون والمشرعون أنقى ما لديهم من أصول التربية والوعظ والاصلاح والتشريع . إن العائلة الموفقة هى بنت القيم ، وأحد مراكز الاستقرار وأشمخ المنارات وأعلاها للارشاد فى معترك الحياة . وكم فى مراحل الحياة من منارات ومعالم أرستها يد الله ووضعتها للهداية ، ولكن قد يزيغ عنها السائرون اللاهثون وينحرف عن دلالتها الغافلون ويتعثرون .

وعند هذه المعانى التى دارت فى رأسى بين شرود التفكير واسترخاء المرض ، وتبينت منها أن فى الطفولة صورة المؤمم الأول لنزعات الحنو الغامر وقبلاته وأن فى العائلة الأساس الأبدى لأصول التعاون والتراحم ، وأن أصول الخير والصلاح للبشرية ينشد من تلك الناحيتين ، جعلت أصوب نظرى إلى الحفيد ، وهو يقبل إلى الغرفة ويدبر ، ويلعب ويصخب ، ويدفع بعربته الصغيرة فى فرح ومرح ، ويغرق هنا وهناك بصيحاته وضحكاته حيث ينتقل من مكان إلى مكان ليشيع البشاشة وليدخل السرور إلى القلوب الحانية عليه وإلى النفوس الهافية إليه ، وجعلت أقول فى نفسى لو أنك يا بنى كنت شاباً وفى سن تدرك فيه النصيحة لأمسكت عنك نصحى لأنك ستكون لأيام غير أيامى ، وتقضى فيك بغير ما قضت فى ، وهيهات للشباب أن يستجيب لنصح الناصحين . فأما وأنت لا تدرك الآن ما أقول فأمنيتى لك أن تأتم بمنارات الهداية الربانية ، وأن تؤمن بالله حق الإيمان ، وأن تحرص على بناء عائلة تنشق من جوها الطاهر النقى ، وتركن إلى دفئه العاطفى ، وأن تسكن إلى ما سكن إليه جدك من دين ومبدأ وخلق .

# قطاع غزة

## ظروفه الجغرافية وأحواله الاقتصادية[1]

للدكتور يوسف أبو الحجاج

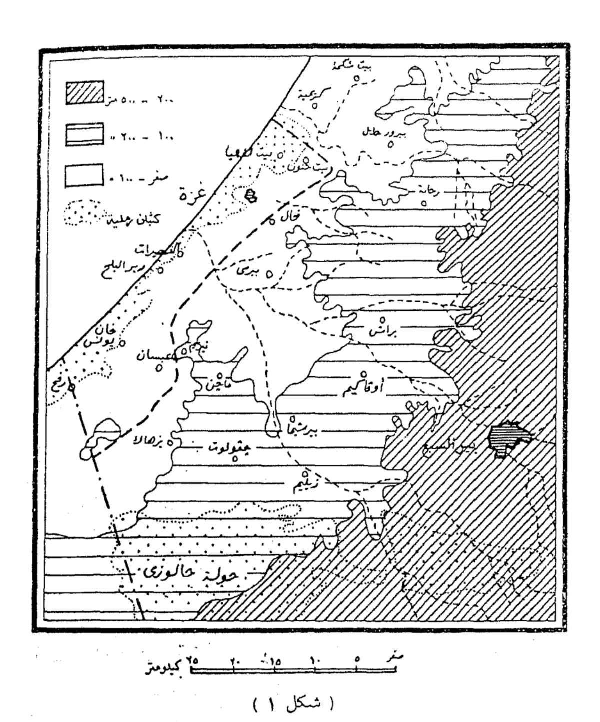
المدرس بكلية الآداب ــ جامعة عين شمس

لا يؤلف قطاع غزة اقليما من الأقاليم بأى معنى جغرافى ، فهو جزء صغير من منطقة ساحلية ( شكل ١ ) تمتد الأرض على جوانبه فى الاقليم المصرى أو فى سائر فلسطين امتداداً طبيعياً لا انقطاع فيه . ومن يصل إلى القطاع بالطريق البرى أو بالسكة الحديدية قادماً من شبه جزيرة سيناء لا يشعر بأنه انتقل إلى أرض جديدة انتقالا فجائياً ، إنما هو تدرج لطيف أثناء رحلته ، فالظروف الصحراوية البحتة تسود معظم المنطقة الساحلية لشبه جزيرة سيناء حيث الكثبان الرملية التى يتخذ بعضها الشكل الهلالى ( برخانات ) والمجردة من الحياة النباتية إلا من بعض الأعشاب الفقيرة المتناثرة ، أو من النخيل الذى يلمحه المسافر هنا وهناك حيث تقوم بعض الواحات البسيطة التى تعتمد على المياه الجوفية . وقبل دخول القطاع وابتداء من بلدة « الشيخ زويد » تقريباً ( بين العريش ورفح ) يكون المنظر قد أصابه بعض التغيير فكثرت الخضرة نوعا وازدادت أشجار التين الشوكى والبطيخ بشكل واضح ، وإن ظلت أشكال السطح محتفظة بمظهرها دون أدنى تغيير يمكن ملاحظته .

ويستمر هذا المنظر بعد تجاوز الحدود المصرية الفلسطينية ودخول القطاع . وكلما تقدم المرء شمالا فى الطريق إلى مدينة غزة ماراً بخان يونس ودير البلح ازدادت الخضرة والزراعة وكثرت أشجار التين الشوكى كثرة واضحة بحيث يشيع استخدامها سياجاً للحقول ، وكثرت الحيوانات وعلى رأسها الماعز والأغنام مع بعض الإبل .

---

(١) بعض مادة هذا البحث مأخوذ من مذكرات للكاتب كتبت أثناء زيارة قصيرة لقطاع غزة فى صيف عام ١٩٥٥




( شكل ١ )

ويحدث التغيير هنا بالتدريج أيضاً ، ولكن معدل سرعة التغير أعلى منه فى شبه جزيره سيناء بوجه عام . ولا شك أن ذلك يرتبط بتغير اتجاه ساحل البحر المتوسط . فإن هذا الساحل يمتد من الشرق إلى الغرب بوجه عام فى شبه جزيرة سيناء من قناة السويس فى الغرب إلى قرب بلدة « الشيخ زويد » فى الغرب ، ومن ثم فإن العناصر المناخية التى تحمل المطر وهى الرياح الغربية والانخفاضات الجوية الشتوية التى تتحرك على البحر المتوسط من الغرب إلى الشرق بوجه عام تسير موازية لهذا الساحل ، على حين أن سائر

الساحل — فى قطاع غزة وفى أقصى شرق ساحل شبه جزيرة سيناء — يمتد من الشمال إلى الجنوب بوجه عام ، أى يعترض اتجاه هذه الرياح والانخفاضات التى تسقط به لذلك قدراً أكبر من المطر ، يكفى لقيام بعض الحياة النباتية الطبيعية ، كما يكفى لنمو بعض الحاصلات الشتوية .

ومع ذلك فليس هناك تغير كبير فى أشكال السطح : نطاق من الكثبان الرملية تليه نحو الداخل أرض مموجة تنتشر فيها تلال منخفضة لطيفة الانحدار وتمتد بينها سهول تضيق هنا وتتسع هناك — وإذا وقف المرء على أحد هذه التلال قرب خط الهدنة واتجه ببصره نحو الشرق ، نحو فلسطين المحتلة ، رأى أرضاً يغلب عليها التموج أيضاً وتنتشر فيها التلال المنخفضة ، ولا يختلف المنظر العام فيها عن نظيره فى القطاع .

وسوف نتناول وصف سطح القطاع بشيء من التفصيل فيما بعد ، ولكننا قصدنا من هذه المقدمة أن نبرز أمرين . الأمر الأول هو أن الانتقال إلى فلسطين من الاقليم المصرى انتقال تدريجى منتظم ، وهى ظاهرة عامة فى مختلف أنحاء الوطن العربى فليس هناك حواجز مناخية صارمة تفصل قطراً عن قطر ، انما هو دائماً تدرج بطيء لا فجأة فيه ، الأمر الذى كان عاملا أساسياً فى سهولة الاتصال والاختلاط بين أبناء هذا الوطن من أقصاه إلى أقصاه . والأمر الثانى هو أن أى دراسة جغرافية لقطاع غزة لا بد أن تقوم على أساس أنه جزء من منطقة أوسع . فما يمكن دراسته بمعزل ، والارتباط بينه وبين سائر أجزاء هذه المنطقة ارتباط وثيق على أى مستوى جغرافى . والواقع أن هذا المعنى ينطبق على فلسطين كلها كجزء من الوطن العربى . وقد عبر عن بعض وجوه هذا الترابط جغرافى بريطانى حين قال عن فلسطين قبل مأساة ١٩٤٨ بعامين إنها من الناحية الاقتصادية كل مترابط لا يسهل تجزئته ، وأن فكرة تقسيم فلسطين وتقطيعها والاحتفاظ فى الوقت نفسه بهذا الاقتصاد المترابط فكرة خيالية ، مضيفاً إلى ذلك قوله إن هناك ما يبرر ربط فلسطين سياسياً بالمناطق المجاورة [١] .

وبعد حدوث المأساة عبر عن هذا المعنى نفسه أحد أعضاء سكرتارية هيئة الأمم المتحدة الذى وصف خط الهدنة الذى يفصل هذا القطاع عن موارده وأسواقه العادية

---

(١) انظر يوسف أبو الحجاج ، المصدر رقم ٩ : ص ٤٥

بأنه يمثل مأساة اقتصادية جعل منها تركز عدد كبير من اللاجئين فى القطاع كارثة اقتصادية [1] .

ولا يزيد طول قطاع غزة كثيراً عن ٤٠ كيلو متراً على حين أن عرضه أقل من ١٠ كيلو مترات فى معظم الأنحاء . فهو شريط صغير ولكن لموقعه الجغرافى أهمية خاصة .

فمدينة غزة ، المدينة الرئيسية فى القطاع ، اكتسبت أهمية تجارية منذ عهد قديم بحكم موقعها فى ملتقى ثلاث طرق تجارية عظيمة : الطريق القادم من البتراء والعقبة عبر الصحراء ، والطريق المتجه شمالا إلى دمشق ، والطريق الساحلى الممتد جنوباً إلى الاقليم المصرى . وجاء ذكرها كثيراً فى التاريخ . خربها الاسرائيليون منذ وقت مبكر تحت قيادة ألكسندر جانيه A. Janné وكانت إبان الحكم الرومانى جزءاً من مقاطعة « سوريا الفلسطينية Syria Palaestina » ، ووصفت فى عهد الرسول بأنها مدينة مزدهرة غنية ، وكان لها أهميتها الرئيسية لتجار مكة الذين كانوا يأتون اليها بقوافلهم فى طريقهم لسوريا ، وجمع فيها عمر بن الخطاب جزءاً من ثروته [2] . وقرب نهاية القرن الثامن الميلادى عانت الكثير من التنازع الدموى بين القبائل البدوية شأن كثير من مدن فلسطين الأخرى ولكن نهضت من جديد فيما بعد ، فيصفها كتاب القرن العاشر ( ابن حوقل مثلا ) بأنها مدينة كبيرة غنية بها مسجد رئيسى جميل . وتعرضت للتخريب مرة أخرى فيما بعد قبل وصول الصليبين الذين احتلوها حتى استردها منهم صلاح الدين بعد موقعة « حطين » وطرد منها ريتشارد قلب الأسد .

ولكن غزة ومنطقتها كانت بحكم موقعها وظروفها الجغرافية الأخرى الملائمة تنهض دائماً من كل كبوة تتعرض لها على يد العناصر الدخيلة على حياتها فيستأنف أهلها نشاطهم التجارى المحتوم ، ويستأنف سكان منطقتها نشاطهم الزراعى أو الرعوى طالما ساد السلام وامتنع الغزاة . وهكذا يصف « ابن الفدا » المدينة فى القرن الرابع عشر الميلادى بأنها مدينة متوسطة الأهمية ذات بساتين مزدهرة ويصفها « ابن بطوطة » بأنها مدينة كبيرة مزدحمة بالسكان .

---

(١) باستر المصدر رقم ١ ، ص ٣٢٣

(٢) أنسيكلوبيديا الاسلام . المصدر رقم ٣ ، تحت « غزة » .

وفى القرن الخامس عشر يصفها « خليل الزاهرى » بأنها مقر مملكة واسعة وبأنها مدينة جميلة تقع فى سهل غنى بالفواكه [1] .

وفى الحرب العالمية الأولى كانت ميداناً لمعارك كثيرة بين الانجليز والأتراك ، كما يشهد بذلك كثير من الخرائب المحلية بها ، ولكنها سرعان ما استعادت عمرانها . وقبل كارثة عام ١٩٤٨ كانت مدينة على جانب من الرخاء تقوم بوظيفة جمع وتوزيع الموالح (الحمضيات) والقمح والشعير والذرة من منطقتى غزة وبير سبع . فكان يجمع فيها سنوياً نحو خمس مجموع إنتاج فلسطين من الموالح وما يقرب من ١٥٠,٠٠٠ طن من الحبوب لترسل إلى الشمال فيصدر بعضها من ميناء يافا [2] .

## الظروف الجغرافية

لعله قد ظهر من هذه المقدمة أننا بإزاء منطقة تغلب عليها التضاريس الهادئة ، وإن كانت لا تخلو من التنوع فى أشكال السطح . ولا بد لتحليل هذه التضاريس من كلمة موجزة عن التكوينات الجيولوجية التى يتألف منها القطاع .

ترجع كل هذه التكوينات تقريباً إلى الزمن الرابع ( شكل ٢ ) ولذلك فلسنا بحاجة إلى الدخول فى تفصيلات أحداث الأزمنة السابقة ، إلا من عصر واحد له أهمية خاصة من الناحية الجغرافية هو عصر البليوسين ، العصر السابق للزمن الرابع مباشرة . ففى أوائل ذلك العصر أصاب المنطقة الساحلية هبوط تكتونى تمخض عن ظهور حوض يتخذ شكل قمع طرفه الضيق فى منطقة بير السبع وطرفه الواسع فى منطقة غزة وما حولها من منطقة يافا فى الشمال إلى منطقة رفح فى الجنوب . هذا هو حوض غزة — بير سبع [3] . وقد أدى تكونه إلى توغل البحر فيه على شكل خليج ، على نحو ما حدث فى حوض النيل الأدنى

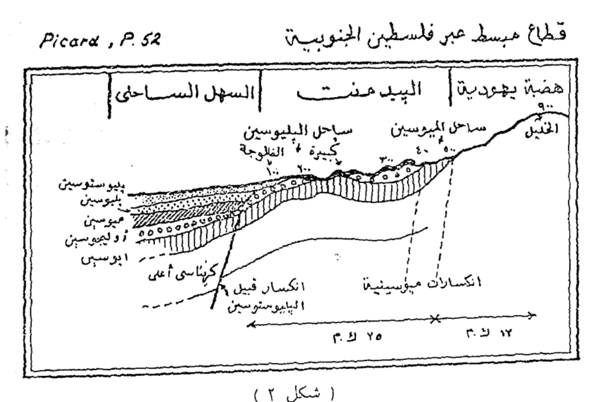
---

(١) انسيكلوبيديا الاسلام ، المصدر رقم ٣ تحت « غزة » .

(٢) باستر المصدر رقم ١ ص ٣٠٢٢

(٣) يرى بعض العلماء أن حوض غزة ــ بير السبع يمثل حوضا انكساريا يفصل النقب عن هضبة يهودية ، فيشبه بذلك حوض مرج بن عامر الذى يمتد بين حيفا ووادى الاردن ويفصل هضبة السامرية عن هضبة الجليل . انظر بيرودريش المصدر ٢ ، ص ٢١٠

حيث توغل الخليج البليوسيني جنوباً حتى قرب اسوان . وفى هذا الخليج بفلسطين الجنوبية أرسبت التكوينات الطفلية الرملية التى تعرف بطبقات « الساقية » . وفى أواخر البليوسين وفى أوائل الزمن الرابع حدثت حركة ارتفاع فى المنطقة الساحلية على نحو ما حدث فى جهات أخرى فى الشرق الأوسط وأدت إلى انحسار مياه هذا الخليج بالتدريج ، فتحول فى أول الأمر إلى مستنقعات ثم إلى مجموعة من البحيرات المنفصلة ثم جفت هذه البحيرات تماماً فى نهاية الأمر « وجاءت رواسب الزمن الرابع المختلفة فغطت تكوينات « الساقية » فى كل مكان تقريباً فى قطاع غزة . ولكن نظراً لأن هذه التكوينات تمثل طبقة صماء فإنها تحول دون تسرب المياه السطحية إلى أعماق بعيدة ، ومن ثم يمكن الوصول اليها بحفر الآبار إلى عمق متوسط والانتفاع بها فى الزراعة .




( شكل ٢ )

وإذا كان منسوب المياه الجوفية يختلف من مكان إلى آخر فمرجع ذلك إلى أن حركة الارتفاع السابق ذكرها كانت مصحوبة ببعض التواءات خفيفة هى صورة مصغرة جداً للالتواءات التى صحبت نفس هذه الحركة فى جهات أخرى من العالم العربى كما فى جبال لبنان والاقليم السورى ومحدبات سيناء الشمالية . واتخذت هذه الالتواءات فى قطاع غزة وما حوله صورة قباب صغيرة ، طمرتها تكوينات الزمن الرابع فيما بعد ، فأصبحت طبقات « الساقية » بعيدة نوعاً عن سطح الأرض الحالى فى الأحواض التى تقع بين هذه

القباب السفلية والتى يصل سمك رواسب الزمن الرابع فيها إلى أكثر من ١٠٠ متر ، ولكننا أقرب إلى هذا السطح فوق هذه القباب مباشرة بحيث أمكن الوصول اليها على عمق لا يزيد كثيراً على أربعين متراً فى بعض الجهات . وينعكس ذلك بطبيعة الحال فى منسوب المياه الجوفية .

وكان الزمن الرابع خلواً من الأحداث الجيولوجية الجسيمة ، فى قطاع غزة وفى السهل الساحلى الجنوبى كله فى الحقيقة . كان عصر إرساب قارى لم يتعرض الساحل خلاله للهبوط فلم يطغ عليه البحر فى أى فترة من فتراته ، والرواسب البحرية لا وجود لها على السطح فى أى مكان ، ومن المشكوك فيه جداً أن يكون لها وجود تحت هذا السطح إلا فى البقاع القريبة جداً من الساحل (شكل ٣) . وتكوينات البليوسين الظاهرة على جانبى الجزء الأوسط من وادى غزة لا تعلوها رواسب بحرية بل رواسب نهرية حصوية ورواسب من نوع « اللويس » والحفر حتى عمق ١٢٠ متراً شرق غزة بنحو كيلومتر واحد لم يثبت وجود أى رواسب بحرية ترجع للزمن الرابع[١] . وليس من الضرورى أن يفسر وجود بعض الآثار الرومانية تحت البحر فى الجزء الشمالى من الساحل الفلسطينى الجنوبى (كما فى قيصرية وعتليت) بحركة هبوط ساحلية حديثة ، فالأرجح أن هذا الجزء من الساحل يرجع للنحت البحرى ، وأنه ظل يتراجع طيلة الألف سنة الأخيرة نتيجة لهذا العامل ، بدليل أن الأودية التى تنحدر من الجروف الساحلية هناك تنتهى فجأة فى شكل أودية معلقة . ومعنى ذلك أن هذه الآثار المغمورة بمياه البحر يمكن أن تعزى إلى تقدم البحر فى بطء نحو الداخل نتيجة للتعرية البحرية الساحلية لا بسبب هبوط حديث فى الساحل .

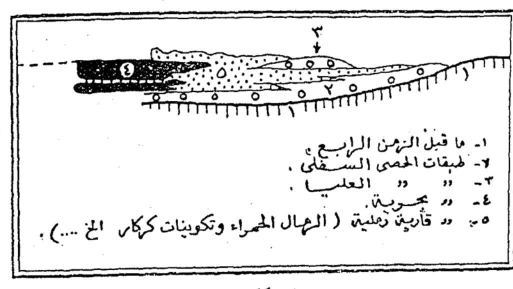
هكذا كان قطاع غزة كسائر السهل الساحلى الجنوبى لفلسطين بوجه عام مسرحاً للارساب القارى خلال الزمن الرابع ، تكوينات حصوية فى الفترة الأولى من ذلك الزمن تمثل المراوح الغرينية التى أرسبتها أنهار تنحدر من هضبة يهودية نحو الساحل ، وتكوينات رملية تتخذ شكل الكثبان الرملية تكونت أثناء الجزء الأوسط والأخير من الزمن الرابع ، ثم تكوينات من « اللويس » أرسبتها الرياح ابتداء من أواسط ذلك الزمن حتى الوقت الحاضر .

---

(١) بيكار : المصدر ٧ ص ٨٩ — ٩٠

وتنحصر الأهمية الجغرافية للتكوينات الأولى — أى التكوينات الحصوية التى ترجع للبليستوسين الأسفل — فى أنها الطبقة الخازنة للمياه الجوفية . ولكنها قليلة الأهمية فى تفسير أشكال السطح الراهنة وفى تفسير خصائص التربة ، فهى لا تظهر على سطح السهل الساحلى إلا نادراً وفى بقاع محدودة المساحة . ولا نجدها بشكل واضح إلا فى أقصى الشرق قرب حافة الهضبة الداخلية فى جنوب فلسطين ( شكل ٣ ) .

قطاع مبسط عبر السهل الساحلى بجنوب فلسطين . Picard, P.90




( شكل ٣ )

أما الكثبان الرملية فينبغى أن يميز بين نوعين منها ، الكثبان القديمة فى الداخل ، والكثبان الحديثة على الساحل .

وقد تكونت الكثبان القديمة فى البليستوسين الأوسط بوجه خاص فى صورة سلاسل طولية موازية لساحل البحر بوجه عام من حيفا فى الشمال حتى منطقة غزة فى الجنوب . وهى تتألف من ثلاث سلاسل تتكون من حجر رملى كلسى متماسك ، وتشبه الكثبان الساحلية الموجودة قرب الاسكندرية بالاقليم المصرى والتى تتألف من الكلسى الحبيبى بوجه خاص ، وهى تعرف فى فلسطين بتكوينات كركار Kurkar . وأصلها رمال كثبانية فى معظمها تماسكت فيما بعد بالمادة الكلسية . ولعل هذه المادة الأخيرة وصلت إلى هذه الرمال فى شكل محلول جيرى تصاعد خلالها بفعل الخاصية الشعرية ، أو لعلها ترجع إلى تسرب مياه الأمطار فى التكوينات الرملية وإذابتها لفتات الحفريات الموجودة بها ، فتكونت بذلك تلك المادة الكلسية اللاحمة ، ومهما كان التعليل الصحيح فإننا بإزاء كثبان ساحلية

قديمة تكونت على اليابس ، لا إرسابات بحرية ، لا بدليل خلوها من الحفريات البحرية الكبيرة فحسب بل كذلك بدليل وجود الطبقات المتعارضة cross-beddings التي تميز الكثبان الرملية المعروفة . وتعتبر السرعة الفائقة التي تتم بها عملية التحام هذه الرمال الكثبانية من أهم الظاهرات التي تميز كل الساحل الشرقي للبحر المتوسط في الحقيقة . ويستطيع المرء أحياناً أن يلاحظ الحجر الرملي وقد تجمع حول القطع الفخارية وعلب الأكل الملقاة على الشاطىء منذ بضع سنوات فقط ، مما يدل على أن التحام الرمال الشاطئية يمكن أن يتم في وقت قصير للغاية .

وتمتاز هذه الكثبان القديمة من الناحية المورفولوجية بامتدادها في خطوط مستقيمة تذكر بكثبان « السيف » في الصحراء الليبية الشمالية فتختلف بذلك عن الكثبان الحديثة التي ينقصها الانتظام في تجمعها كما سنرى . وهي تتفاوت في ارتفاعها من ٤٠ متراً فوق مستوى سطح البحر إلى ٥٠ متراً تحت هذا المستوى كما يتضح في المنطقة الواقعة شرق مدينة غزة بكيلو متر واحد . كما يلاحظ أخيراً أن تكوينات « كركار » هذه تتخللها طبقات رقيقة من الرمال الحمراء أو ذات اللون البني والتي تعرف محليا باسم « الحمرة » والتي تظهر في الحقيقة بنفس الصورة في جميع أنحاء السهل الساحلي من سيناء جنوبا حتى الحدود التركية شمالا [1]. ولا شك أن طبقات « الحمرة » هذه مشتقة من تكوينات « كركار » نفسها وأنها تخلفت من التعرية الجوية على سطح هذه التكوينات في فترات معينة خلال الزمن الرابع وفي ظل مناخ البحر المتوسط الحالي . فهي نوع من التربة الحمراء terra rossa الرملية التي ترتبط بهذا المناخ . ونظراً لأنها وثيقة الشبه بتكوينات « اللويس » المنتشرة على السطح في منطقة غزة فإن في ذلك دليلا على ثبات الأحوال المناخية في هذه المنطقة خلال النصف الثاني من الزمن الرابع على الأقل .

أما الكثبان الحديثة فتمتد على طول الساحل بقطاع غزة كجزء من نطاق الكثبان الكبير الذي يميز الساحل الفلسطيني بين رفح ويافا بوجه خاص ، والذي تزيد مساحته فيما بين هاتين المدينتين على ٢٥٠ كيلو مترا مربعا . وهكذا يختلف الساحل هنا بعض الشيء عن الساحل الذي يمتد إلى الشمال من يافا حيث نجد أنه باستثناء منطقة « الحضيرة » يضيق

(١) اتين د فوما ، المصدر ٤ ، ص ١٦٨

نطاق الكثبان بشكل واضح . ولعل ذلك يرجع إلى أن الساحل شمال يافا تسوده التعرية البحرية القوية على حين أن المنطقة الساحلية الجنوبية أكثر انبساطا فى سطحها وأكثر ملاءمة لتوغل الرمال وانتشارها . كما يلاحظ أن هذه الكثبان أكثر ارتفاعا عن سطح البحر من كثبان الشمال بوجه عام ومنطقة خليج حيفا بوجه خاص . وقد يصل الفرق فى الارتفاع إلى أكثر من ٣٠ متراً . ولكن هذا لا يرجع كما قد يتبادر إلى الذهن إلى أن الارساب كان أعظم فى الجنوب منه فى الشمال ، فإن سمك التكوينات الرملية فى الجنوب لا يزيد كثيراً عنه فى خليج حيفا . والسبب فى اختلاف الارتفاع هو اختلاف مستوى السطح الذى تجمعت فوقه هذه الكثبان أثناء الزمن الرابع ، ففى الجنوب حيث منطقة الكثبان القديمة ، كان السطح أعلى منه فى الشمال حيث تجمعت الكثبان الساحلية على طبقات صلصالية أفقية تخلو من الكثبان القديمة [1] .

أما تكوينات اللويس فهى تنتشر انتشاراً واسعاً فى المنطقة الممتدة من شرق بير السبع إلى ملتقى وادى الشريعة بوادى غزة . أما فى قطاع غزة فهى توجد فى النطاق الداخلى أى الشرق مختلطة برمال الكثبان القديمة ( تكوينات كركار ) والتى لا تختلف عنها كثيراً كما ذكرنا ، وهى كتلك الرمال إرساب قارى نقلتها الرياح ، والأنهار أيضاً إلى حد ما ، من التكوينات البليوسينية المجاورة ابتداء من أواسط الزمن الرابع حتى الوقت الحاضر .

* * *

وفى ضوء ما تقدم يتضح أن قطاع غزة يتكون من نطاقين فيزيوغرافيين يختلفان فى مظاهرهما المورفولوجية كما يختلفان فى خصائص التربة فيهما — وبالتالى فى مدى صلاحية كل منهما للاستقرار البشرى ، هما نطاق الكثبان الساحلية الحديثة والنطاق الداخلى .

### ١ ـ نطاق الكثبان الساحلية :

يمتد هذا النطاق على طول الساحل فى قطاع غزة من أقصاه إلى أقصاه ويشغل أكثر من ثلث مساحة هذا القطاع ( شكل ١ ) ويتراوح الارتفاع بين ٣٠ ، ٥٠ متراً فوق سطح البحر . والكثير من هذه الكثبان تتخذ الشكل الهلالى أى أنها من النوع الذى يسمى « البرخانات » ، وهى ظاهرة نراها فى الساحل الشمالى من شبه جزيرة سيناء

---

(١) بيكار ، المصدر ٧ ص ١٠١ ، ١٠٢

كما ذكرنا فى مقدمة هذا البحث ، على أنه يندر أن توجد هذه « البرخانات » منعزلة بعضها عن البعض الآخر ، بل يلتحم بعضها بالبعض الآخر التحاماً جزئياً ، كما أنها تختلط بمناطق رملية لا تتخذ هذا الشكل الهلالى أو أى شكل هندسى آخر . وهكذا فنحن بازاء نطاق ينقصه الانتظام فى سطحه مما جعل منه حاجزاً منيعاً بين الساحل والداخل كثيراً ما يزيد اتساعه على خمسة كيلومترات .

ولكن هذا الحاجز المنيع من وجهة النظر العسكرية ، أو الذى كان منيعاً بعبارة أصح ، مصدر ضعف وخطر من الناحية الاقتصادية . فضلا عن كونه منطقة مقفرة لا تصلح للزراعة أو السكنى إلا بدرجة محدودة للغاية ، فان كثبانه ليست ثابتة بل تدفع الرياح رمالها نحو النطاق الداخلى مما يشكل خطراً على الزراعة وعلى مراكز السكنى . وهى فى الوقت نفسه تطل على البحر مباشرة فى صورة جرف رملى ، على المرء أن يهبط منه هبوطاً فجائياً إذا أراد الوصول لشاطىء البحر . وإذا أضفنا إلى أن الساحل يمتاز هنا باستقامته التامة ، أى بخلوه من الفجوات والتعاريج وبالتالى من الموانىء الطبيعية ، أدركنا السبب أن السكان لم يكونوا فى أى وقت شعباً بحرياً بل إنهم أعطوا ظهورهم للبحر ، وكان اتجاههم برياً بحتاً أى نحو الداخل حيث اشتغلوا بالزراعة أو الرعى أو التجارة . وتعلل استقامة الساحل بأنه ساحل يسوده الإرساب لا النحت البحرى كما فى سواحل فلسطين الشمالية . وقد عملت الرواسب — ومن بينها بعض طمى النيل الذى يحمله التيار الساحلى حتى هذه المنطقة — على ملء الفجوات وتنظيم خط الساحل على هذا النحو الملفت للنظر [1] . ومن المعروف أن مدينة غزة التى تقع فى النطاق الداخلى ليس لها إلا ميناء صغير . ولا يتيسر الوصول للشاطىء مباشرة إلا للسفن الشراعية التى تصل فى أواخر الصيف فى الوقت الذى لا تكون فيه الرياح خطرة على هذا النوع من السفن .

هكذا تحالفت رداءة الساحل فى أغراض الملاحة ، وعدم صلاحية نطاق الكثبان الملاصق للزراعة ، على جعل هذا الجزء من قطاع غزة منطقة خلاء سكانى تقريبا . بذلت فى السنين الأخيرة مجهودات لزراعة بعض أنواع النبات التى يمكن أن تنمو فى مثل هذه الرمال مثل نبات الخروع الذى يمكن الاستفادة بزيته فى الأغراض الطبية ، كما تبذل

---

(١) ليس من الضرورى اذن ان ندخل العامل التكتونى فى الموضوع فنفترض ان الساحل هابط فى الشمال ومنبثق فى الجنوب . انظر المصدر السابق ص ١٠١

الجهود باستمرار لغرس « مصدات » للرياح لتحول دون زحف رمال هذه الكثبان المتحركة على مزارع النطاق الداخلى .

٢ ــ النطاق الداخلى :

وهو النطاق المعمور من قطاع غزة . وهو من حيث التضاريس أكثر انتظاما فى سطحه من النطاق السابق ، ولكنه لا يعتبر تام الانتظام . فلسنا بإزاء منطقة سهلية منبسطة على النحو الذى نعهده فى دلتا النيل مثلا ، إنما هى منطقة مموجة السطح تعلو هنا وتنخفض هناك ، وتكثر بها الربوات . ومن أجل ذلك يستعين المزارعون القادرون على إيصال ماء الرى إلى الحقول بما يعرف بالهوايات ( جمع هواية ) وهى عبارة عن أعمدة مجوفة من الأسمنت ارتفاع الواحد منها نحو مترين تتصل بأنابيب الرى بقصد إيجاد منفذ للهواء الذى يوجد فى هذه الأنابيب والذى من شأنه ــ لولا هذه الهوايات ــ أن يعيق انسياب الماء فى هذه الأرض المموجة .

وتعرف الربوات التى أشرنا إليها باسم التبات ( جمع تبة ) وهى تلال حجرية قليلة الارتفاع تتكون من الحجر الرملى ( تكوينات كركار ) بوجه خاص ، وتخلفت أصلا عن عوامل النحت والتقطيع التى تعرض لها السطح أثناء الزمن الرابع . ويغلب على قممها الاستدارة ، وإن كان بعضها مسطح القمة ذا جوانب شديدة الانحدار فيتخذ الشكل المعروف بالميزا mesa فى الاصلاح المورفولوجى . ويغلب على هذه التبات بوجه عام أن تتخذ الشكل الطولى ، وإن كان فيها ما يقرب الشكل القبابى أو المخروطى . وقد تتسع مساحة السطح العلوى فى بعض التبات الكبيرة بحيث يمكن أن يقام عليها معسكر حربى صغير .

وقد كان لهذه « التبات » شأنها فى كثير من العمليات العسكرية التاريخية فى منطقة غزة . وقد اعتبرت تبة « على المنطار » التى تقع على بعد كيلومترين تقريباً شرق غزة مفتاح المدينة من الناحية الشرقية . ومن « التبات » الأخرى التى اكتسبت أهمية فى التاريخ العسكرى للمنطقة ، وخاصة فى الحرب العالمية الاولى ، تبة « الشلوف » و « التل الأخضر » وتبة « البرجالية » وتبة « المنصورة » وتبة « الشيخ عباس » ، وكلها تقع إلى الجنوب من مدينة غزة . وقد أثرت عوامل التعرية وخاصة السيول وروافدها فى جوانب هذه التلال الصغيرة بحيث يندر أن نجد سطحا مستقيما منتظما من أعلى التل لآخره . وقد حدث كل هذا بالتأكيد خلال الزمن الرابع وحده .

أما الأجزاء المموجة أو السهلية التى تقع بين هذه الربوات فهى مراكز العمران الوحيدة تقريباً فى القطاع . فالتربة هنا ، وهى تتكون من الرمال القديمة الحمراء « الحمرة » والناوين، متوسطة الخصوبة ، وكلاهما كما رأينا إرساب قارى مما حملته عوامل التعرية من التكوينات البليوسينية فى الشرق . وتحت هذه التربة السطحية التكوينات الحصوية التى ترجع إلى أوائل الزمن الرابع كما أسلفنا وترتكز على طبقة صماء من تكوينات الپليوسين فتسمح بذلك باختزان المياه الجوفية . هذا فضلا عن أن الأحوال المناخية السائدة لا تحول دون هذا العمران .

وإذا كانت « خان يونس » « ودير البلح » مدينتين صغيرتين يغلب عليهما طابع الريف المجاور فإن « غزة » مدينة عامرة يتجاوز سكانها اليوم ١٠٠,٠٠٠ شخص . وهى مدينة جميلة تمتد على سطح متموج مما ينعكس مثلا فى طريقها الرئيس الطويل الذى ينخفض هنا ويرتفع هناك . وفى هذا السطح المتموج ، وفى قلة ارتفاع مبانيها بوجه عام ، وفى اعتدال حرارتها وكثرة الخضرة فيها ، ما يذكر لأول وهلة بمنظر بعض مدن انجلترا الصغيرة فى أجزائها المموجة السطح .

وهى مدينة داخلية موقعا ووظيفة . فهى تبعد عن البحر بنحو ٤ كيلو مترات ، ويفصلها عنه نطاق الكثبان الساحلية ، وميناؤها صغير كما أسلفنا لا يكاد يستحق تسمية ميناء فى الحقيقة . وكانت تؤدى دائماً وظيفة المركز التجارى لمنطقة داخلية تمتد بينها وبين بير سبع ، فضلا عما كان لها من أهمية كمحطة على الخط الحديدى والطريق البرى الموصلين بين الاقليم المصرى وسائر الأقطار الشامية .

## الاحـــوال المناخية

يدخل قطاع غزة — كسائر السهل الساحلى الفلسطينى — ضمن إقليم البحر المتوسط بوجه عام . يتجلى هذا فى أحواله الحرارية كما يتجلى فى نظام المطر فيه . فالشتاء معتدل الحرارة ، ومتوسط الحرارة فى شهر يناير فى مدينة غزة ٥٣ درجة فهرنهايتية [1] أو نحو ١٢ درجة مئوية ، ورغم ان المدى الحرارى اليومى واضح ( يصل إلى نحو ٨ درجات مئوية ) فإن متوسط الحرارة الدنيا بالليل لا يقل عن ٧ درجات مئوية . والصقيع لا يكاد

(١) ستامب ، المصدر ٨ ، ص ١١٥

يكون له وجود حتى فى هذا الشهر وفى الشهر الذى يليه وهما أبرد شهور السنة . والشمس ساطعة فى أكثر من نصف أيام الشتاء . وكل هذه صفات نموذجية تقريباً لشتاء اقليم البحر المتوسط .

ويصاحب الربيع تغير سريع إلى جو أكثر حرارة . وفى هذا الفصل بوجه خاص تهب رياح الخماسين التى ترتفع أثناءها الحرارة ارتفاعاً كبيراً بحيث وصلت فى مدينة غزة فى إحدى مرات هبوبها إلى ٨٤ درجة فهرنهايتية أو أكثر من ٢٩ درجة مئوية . ولكن هذه الرياح الحارة لا تهب إلا فى جزء محدود من السنة ، وهى أقل وطأة فى حرارتها منها فى الاقليم المصرى على كل حال .

والصيف حار باعتدال ، فيصل متوسط الحرارة فى أحر شهور السنة فى مدينة غزة إلى ٧٨ درجة فهرنهايتية أو أكثر من ٢٥ درجة مئوية . ويلاحظ أن أحر الشهور هنا — كما فى سائر السهل الساحلى — هو شهر أغسطس ، لا شهر يوليه ، ويرجع ذلك بطبيعة الحال إلى تأثير البحر الذى لا تبعد عنه غزة إلا بضعة كيلومترات ، فالبحر يمتص حرارة الشمس ببطء[1] إذا قورن باليابس ويفقدها ببطء أيضاً ، فيتأخر بذلك شهر الحرارة القصوى فى هذه المنطقة الساحلية عنه فى المناطق الداخلية البعيدة عن البحر . ونحن نعرف نفس هذه الظاهرة فى الاقليم المصرى كما يتضح من المقارنة بين القاهرة والاسكندرية حيث يتخلف شهر الحرارة القصوى فى الاسكندرية ( أغسطس ) من ١٥ إلى ٢٠ يوما عنه فى القاهرة[2] .

ومن الظاهرات التى تبدو غريبة لاول وهلة أن حرارة الصيف فى غزه أقل منها فى الجهات التى تقع إلى شمالها ، أى رغم أنها أقرب إلى خط الاستواء من هذه الجهات . فهى — كما يتضح من الجدول الآتى الذى يبين متوسط درجة الحرارة فى أشد شهور السنة حرارة — أقل حرارة من بيروت بل أقل حرارة من الاسكندرونة التى تقع فى أقصى شمال السواحل الشامية .

| | | |
|---|---|---|
| غزة | ٣٠َ | ٢٥° مئوية |
| بيروت | ٤٠َ | ٢٩° » |
| الاسكندرونة | ٤٨َ | ٢٧° » |

(١) فيشر ، المصدر ٥ ص ٣٨٦
(٢) محمد عوض ، نهر النيل ١٩٢٣ ص ١٩٣

ولعل مرجع هذا الفارق الواضح إلى تأثير السلاسل الجبلية فى الشمال حيث تؤدى إلى إعاقة وصول الرياح الملطفة للجهات الشمالية [1] ، وهو تأثير ينعدم فى حالة غزة التى لا تقوم من حولها مثل هذه الجبال .

وغزة إذن ليست شديدة الحرارة فى الصيف . وصيفها فى الحقيقة ساحلى منعش لا يختلف عن صيف مدينة الاسكندرية مثلا فى الإقليم المصرى ( الاسكندرية ٢٦ ٢٥°م فى أغسطس ) .

أما المطر فيتركز فى نصف السنة الشتوى فيسقط كله تقريباً فيما بين اكتوبر وأبريل ، والصيف فصل جفاف تام . وكما هو الحال فى سائر سواحل فلسطين تعتبر الأمطار المبكرة التى تسقط فى اكتوبر ونوفمبر أقل أهمية من الأمطار الربيعية التى تكتسب أهمية خاصة بالنسبة للزراعة . على أنه إذا كان قطاع غزة يتمتع بخصائص إقليم البحر المتوسط من حيث نظام المطر ، وطبيعة هذا المطر ، والعوامل المؤدية اليه ، فإنه يبعد كثيراً عن الصورة النموذجية لهذا الإقليم من حيث كمية المطر التى تصيبه ومن حيث عدد الأيام المطيرة خلال السنة . فمجموع المطر السنوى فى غزة لا يزيد كثيراً على ١٦ بوصة ( ٤٠٠ ملليمتر تقريبا ) . والجدول الآتى يبين مدى قلة المطر فى غزة بمقارنتها ببعض البلاد التى تقع إلى شمالها على الساحل الشامى [2] .

| البلد | كمية المطر السنوى ( بالبوصات ) | عدد الأيام المطيرة ( فى السنة ) |
|---|---|---|
| غزة . . . . | ١٦ر٥ | ٤١ |
| يافا . . . . . | ٢٣ | ٥١ |
| حيفا . . . . | ٢٧ | ٦٢ |
| بيروت . . . | ٣٥ر٧ | ٨٢ |

وواضح أن كمية الأمطار وعدد الأيام المطيرة تقلان باطراد من الشمال إلى الجنوب ، الأمر الذى يعلل بقلة الارتفاع فى الجنوب بالنسبة للشمال ، وبأن الانخفاضات الجوية

(١) فيسر : المصدر ٥ ص ٢٨٦ .
(٢) ستامب : المصدر ٨ ص ١١٥

والرياح التى تهب على السواحل الجنوبية لا تقطع مسافة كبيرة فى مرورها على البحر ، فتكون حمولتها من الرطوبة ، أقل بذلك منها فى الشمال . وإذا تذكرنا أن مدينة غزة تقع فى الجزء الشمالى من القطاع أدركنا مدى قلة كمية المطر فى سائر أجزائه حيث تقترب فى الحقيقة من الظروف شبه الصحراوية ، سواء من حيث صغر كمية المطر أو قلة عدد الأيام المطيرة . وكان لكل ذلك انعكاسه الواضح فى الكيان الاقتصادى للقطاع .

## الاحـــوال الاقتصـــادية

لعل القارىء قد أدرك من الخلاصة التى أسلفناها للظروف المورفولوجية والبيدولوجية والمناخية السائدة فى القطاع أننا بإزاء منطقة لا يمكن أن تكون من المناطق الغنية . فأكثر من ثلث المساحة كثبان رملية مقفرة تهدد رمالها الأرض القابلة للزراعة ، والباقى ، أى النطاق الداخلى ، يتوزع بين ربوات حجرية مقفرة أيضا ، وبقاع متوسطة الخصوبة يمكننا الاستفادة من المياه الجوفية فى أغلب الحالات ، وإن كانت قليلة المطر بوجه عام ، ثم بقاع بين هذه وتلك تصلح للرعى إلى حد متواضع ولكن رداءة تربتها أو شح الماء فيها يحول دون استغلالها للزراعة الناجحة . والواقع أن مجموع المساحة المزروعة فى القطاع لا يزيد على ١٣٦٫٠٠٠ دونم (أى نحو ٢٧٫٠٠٠ فدان) توجد فى شكل رقاع متفرقة لا فى صورة متصـلة .

وفضلا عن قلة المطر ، بحيث لا يكفى بمفرده لحاجات الزراعة الناجحة على أى نطاق واسع ، فإنه مطر غير مضمون يتذبذب فى كميته بصورة صارخة . وكما هو الحال بالنسبة لمعظم فلسطين هناك سنوات جفاف لا يسقط خلالها من المطر إلا نحو ٦٠ ٪ مما يسقط فى السنوات العادية . وفشل المحصول فى الجهات التى تسودها تربة « اللويس » فى قطاع غزة والمنطقة المجاورة له من الأمور العادية [1] . ثم إن هذا المطر يهطل فى الغالب فى شكل رخات غزيرة قد تكون الطبيعة فيها أسخى مما ينبغى ، فتلحق الضرر بالتربة حتى فى هذه الجهات قليلة المطر حيث يشيع أن تزيد الكمية التى تسقط فى يوم واحد فى الشتاء والربيع على متوسط الكمية الشهرية كما فى منطقة بير سبع مثلا [2] .

---

(١) يوسف أبو الحجاج المصدر ٩ ، ص ١٤

(٢) المصدر السابق ص ١٥

من أجل ذلك كانت الحبوب ، لا الأشجار ، هى المحصولات الرئيسية كما يتضح من الجدول المرفق . والشعير والقمح بوجه خاص يشغلان معظم المساحة المزروعة ، يضاف إليهما القاذرة التى لا بد لها بالطبع من الرى الصناعى باعتبارها محصولا صيفيا والشعير أهم من القمح بسبب قلة المطر أيضاً ، والمحصول فى أغلب الحالات يمتاز بالتذبذب فى كميته بسبب تذبذب كمية المطر من عام لآخر .

المساحة المزروعة فى قطاع غزة (٢)

| المحصول | المساحة بالدونم |
|---|---|
| الشعير والقمح والذرة | ١٠٠ر٠٠٠ |
| الخضروات | ٢٠ر٠٠٠ |
| الموالح | ٦ر٠٠٠ |
| الفواكه الأخرى | ١٠ر٠٠٠ |

ويلى الحبوب من حيث المساحة المزروعة الخضروات . أما الموالح (الحمضيات) فلا تزرع إلا فى نسبة صغيرة من المساحة الكلية ، ولا تنجح إلا حيث توفرت وسائل الرى الصناعى اعتماداً على المياه الجوفية . ولكنها يمكن أن تعطى محصولا طيباً حين تلقى العناية اللازمة وتتوفر لها مياه الرى ، كما هو الحال مثلا فى بعض البساتين المجاورة لمدينة غزة حيث يمكن للمرء أن يشهد أشجار البرتقال وقد حملت بالثمار التى قد تتجمع فى عناقيد فى كل منها عشر برتقالات أو خمس عشرة برتقالة . ومن الفواكه الأخرى فى القطاع العنب واللوز ، كما أن البطيخ محصول صيفى له بعض الأهمية ويمتاز بحلاوة المذاق . وأخيراً فإن كثرة أشجار التين الشوكي مما يلفت النظر فى القطاع . وفى خلال الحرب العالمية الأولى كانت هذه الأشجار بمثابة حاجز عسكرى أسهم فى مناعة غزة ، ووصفه بعض العسكريين بأنه لا يقل مناعة عن الأسلاك الشائكة من حجم مشابه .

ولا تجرى بالقطاع والمنطقة المجاورة له أنهار دائمة يمكن أن تيسر حل مشكلة الرى . ووادى غزة ، الوادى الرئيسى والذى ينبع من منطقة عسلوج ، ورافده الرئيسى وادى الشريعة الذى ينبع من جنوب هضبة يهودية ومن منطقة قرية الظاهرية ويمر ببير السبع ، واديان

(٢) باستر المصدر ١ ، ص ٢٢٤

جافان معظم السنة . وهكذا تبرز أهمية المياه الجوفية التى تعتبر المصدر الرئيسى للرى الصناعى فى القطاع كما هى كذلك فى فلسطين كلها فى الحقيقة .

ومما يعطى فكرة عن مدى ضعف الانتاج فى قطاع غزة أن أحد الباحثين[1] قدر مجموعة قيمة هذا الانتاج منذ بضع سنوات ( ١٩٥٥ ) بنحو ٨٠٠٫٠٠٠ جنيه مصرى فقط ، منها ٢٥ ٪ قيمة إنتاج الحبوب ، ومنها ١٨ ٪ قيمة الموالح ، ومثلها للخضروات ، ونحو ١٢ ٪ للفواكه الأخرى ، ومثلها للمنتجات الصناعية ، والباقى قيمة المنتجات الحيوانية من صوف ولبن ولحم وجلود مع قدر ضئيل جداً من السمك .

ورغم هذه الموارد المحدودة أصبح قطاع غزة بعد تدفق اللاجئين إليه بعد كارثة فلسطين يؤوى اليوم أكثر من أربعة أمثال عدد سكانه الأصليين . ففى هذا القطاع الصغير ( ٢٥٨ كيلو متر مربع ) يتركز أكثر من ٢٢٠٫٠٠٠ لاجىء ( يعيش الكثيرون منهم فى معسكرات كبيرة ، منها اثنان يضم كل منها أكثر من ٢٠٫٠٠٠ شخص ) ، بالاضافة لسكانه الأصليين الذين يصلون اليوم إلى أكثر من ٩٠٫٠٠٠ شخص . وهكذا فإن كثافة السكان بالنسبة للقطاع كله تصل إلى نحو ٣٠٠٠ شخص فى الميل المربع أى سبعة أمثال الكثافة فى بريطانيا . وإذا أخرجنا من المساحة المناطق غير المأهولة — ومعظمها كثبان رملية — والتى تقدر بنحو نصف المساحة الكلية وجدنا أن الكثافة فى الميل المربع من الأرض المأهولة تصل إلى ٦٠٠٠ شخص أو سبعة أمثال الكثافة فى بلجيكا .

وهذه بالطبع أرقام شاذة تنتظر من وضع شاذ بالغ الشذوذ كوضع قطاع غزة . وهكذا فرغم ما تنفقه حكومة الجمهورية العربية المتحدة — التى تتحمل تبعاتها هنا بإيمان وعزيمة ، ودون من أو دعاية ، ناظرة لهذه التبعات كجزء من رسالتها الكبرى تجاه الوطن العربى كله — ، ورغم ما تقدمه للاجئين هيئة الإغاثة والتعمير الدولية التى تسهم بأكثر من نصف مجموع واردات القطاع ، فإن حياة السكان ، لاجئين وأصليين ، لا يمكن إلا أن تكون حياة قاسية .

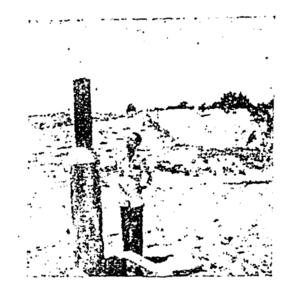
## المســـــــتقبل

إن مجال التحسين فى ظل الوضع الراهن مجال محدود للغاية الأسف . من الممكن مضاعفة الجهود للحد من حركة الكثبان الرملية ، ولكن المشكلة الأساسية هى أن المساحة

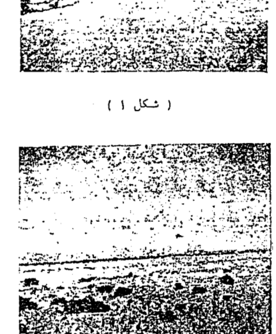
---

(١) المصدر السابق ص ٣٢٤

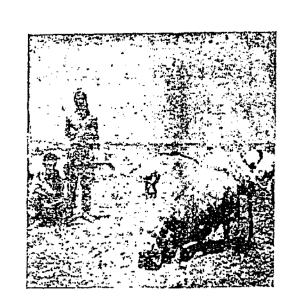
( شكل ١ )



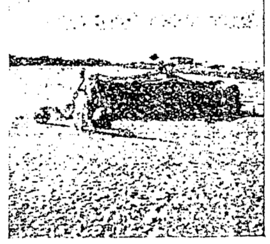
( شكل ٢ )



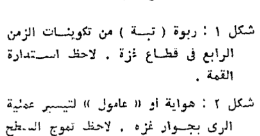
( شكل ٣ )



( شكل ٤ )



( شكل ٥ )



شكل ١ : ربوة ( تبة ) من تكوينات الزمن الرابع فى قطاع غزة . لاحظ استدارة القمة .

شكل ٢ : هواية أو « عامول » لتيسير عملية الرى بجوار غزه . لاحظ تموج السطح

شكل ٣ : منظر مألوف فى الشقة الساحلية بقطاع غزه وشمال سيناء .

شكل ٤ : أحد رعاة الغنم بجوار خط الهدنة .

شكل ٥ : احدى خيام البدو بجوار غزة ، وهى مصنوعة من شعر الماعز .

القابلة للزراعة جد ضئيلة بعد ان إغتصب الصهيونيون معظم الاراضى . وليس هناك أمل كبير فى الاستفادة من حفر آبار جديد لأن مستوى المياه الجوفية مهدد بالهبوط فى هذه الحالة . والاستفادة من المياه الشتوية لوادى غزة تستلزم إقامة سد على هذا الوادى شرق القطاع أى فى منطقة يحتلها الصهيونيون . وقد يكون من الممكن التوسع فى صناعة المنسوجات المحلية خاصة وأن الكثير من اللاجئين جاءوا من مدينة « المجدل » التى كانت مركزاً لصناعة النسيج ، ولكن تبقى مشكلة السوق التى يمكن أن تصدر اليها هذه المنسوجات إذا تذكرنا أن أكبر سوق لها هى الاقليم المصرى الذى يملك صناعة منسوجات ضخمة . وقد يكون من الممكن أيضا زيادة الصادرات من الخضر والفاكهة للسوق المصرية ، ولكنها لن تكون إلا زيادة محدودة أمام حاجة سكان القطاع المتزايدين .

ورغم أنه لا توجد بيانات كافية عن تطور نمو السكان، فمن المعروف أن عدد المواليد بين اللاجئين يصل إلى ٥٠٠ شخص على الأقل كل شهر . ومعنى هذا أن مجموع سكان قطاع غزة سيزداد إلى نحو نصف مليون فى سنوات قليلة ، إذا استمر الاتجاه الحالى للزيادة ، وظلت العصابة الصهيونية تحتل أرض اللاجئين ومعظم أراضى سكان القطاع الأصليين .

وبعد ، فإن قطاع غزة ليس إلا صورة مصغرة لمأساة فلسطين كلها ، هذا القطر الذى لم يكن بحكم ظروفه الطبيعية إلا على قدر أهله ، والذى حاولت أبواق الدعاية الصهيونية منذ وقت بعيد أن توهم الناس بأنه قطر عامر بالامكانيات لا ينقصه إلا العناصر «المتقدمة» لتخلق فيه المعجزات الاقتصادية . وسوف يلمح من يزور قطاع غزة وراء خط الهدنة عدداً من المستعمرات اليهودية التى تبرزها الدعاية الصهيونية فيما تبرز كعنوان لهذا النوع من « المعجزات » . وقد يخالجه شىء من الشعور بالإعجاب بهذه المستعمرات الأنيقة التى تقوم فى مثل هذه البيئة غير المواتية خاصة إذا علم أن اليهود قد أنشأوا نحو ٤٠٠ مستعمرة جديدة فى مختلف أنحاء فلسطين المحتلة منذ صنعت دولتهم المزعومة . ولكن هذا الشعور لا يلبث أن يزول إذا علم أنه رغم كل هذا العدد الكبير من المستعمرات ـ التى شيدت بأموال أتت من الخارج على كل حال ـ ورغم أحدث الآلات المستخدمة فى زراعة أراضيها ورغم استمرار تدفق الأموال من الخارج ، فإن الانتاج الزراعى فى فلسطين المحتلة بوجه عام أقرب للعجز منه للاعجاز . وحتى بالنسبة للموالح لم يصل الإنتاج حتى الآن إلى رقم عام ١٩٢٨ / ١٩٢٩ حين لم يكن هناك شىء اسمه اسرائيل . وكانت النتيجة خلق اقتصاد

زراعى مصطنع ينقصه التوازن ، ويعتمد على رأس مال مستورد ووقود مستورد وقطع غيار مستوردة ، دون أن يؤدى هذا الاقتصاد - كما لاحظ أحد الخبراء الأمريكيين - إلى زيادة فى إنتاج السلع الأساسية ولا فى مقدرة البلاد على التصدير . ولذلك ارتباطه بالظروف الجغرافية لفلسطين والتى لا تسمح بمثل هذا الترف فى استخدام الآلات ، كما أن له ارتباطه بعجز اليهود - بحكم مزاجهم الطفيلى - عن ممارسة الأعمال المنتجة فى العرف الاقتصادى ، والزراعية بوجه خاص . ولم يعد خافياً على أحد اليوم أن اليهود الذين هرعوا إلى فلسطين بعد كارثة ١٩٤٨ يدفعون إلى الريف دفعاً ، وأن حكومتهم تتخذ فى هذا السبيل وسائل مختلفة كان آخرها العمل بسياسة « من السفينة إلى الأرض » التى أصبح الوافدون الجدد ينقلون بمقتضاها إلى الريف بعد دخولهم اسرائيل مباشرة ، أى دون أن تتاح لهم فرصة البقاء فى أى مدينة ولو لفترة قصيرة حتى لا يتشبثوا كمن سبقوهم بالحياة فيها ويرفضون الاتجاه إلى الأرض ، الأرض التى طردوا منها أهلها نزلاء معسكرات اللاجئين فى الوقت الحاضر (١) .

ولعله قد أصبح واضحاً بعد هذا الاستطراد القصير أن هذه المستعمرات الصهيونية الكثيرة فى الأرض المجاورة لقطاع غزة والتى لا تختلف من حيث تربتها ، أو مناخها ، أو كمية المياه الجوفية بها ، اختلافاً يذكر عن ظروف النطاق الداخلى من هذا القطاع لاتستند على أسس اقتصادية ، وأن الأهداف العسكرية والسياسية ، لا الأهداف العمرانية، هى الاعتبار الأول الذى تقوم هذه المستعمرات على أساسه ، والواقع أن الصهيونيين وضعوا هذه الأهداف نصب أعينهم منذ أخذوا ابتداء من عام ١٩٤٠ على الأقل ، يقومون بدراسة التربة ويحفرون الآبار وينشئون حقول التجارب الزراعية فى جهات مثل مناطق خان يونس ، وبير السبع ، وعسلوج ، ومناطق أخرى فى النقب . وقبل كارثة فلسطين بعام واحد نشرت إحدى المجلات الجغرافية الأمريكية (٢) خطاباً لأحد المشرفين على هذا المشروع يعترف فيه بأن أحد الأهداف الرئيسية من إنشاء المستعمرات فى هذا الجزء من فلسطين ، وفى أجزاء من الجليل الأعلى أيضاً ، هو إثبات « حقهم » فى هذه الأجزاء إذا أخذ بمبدأ التقسيم !

---

(١) انظر فى تفصيل هذا الموضوع يوسف ابو الحجاج المصدر رقم ٩

(٢) Geog Review ، يوليو ١٩٤٧ ص ٤٥٩

إن حل المشكلة الاقتصادية الخطيرة لقطاع غزة لا يلتمس فى تنفيذ أى مشروع من صنف هذه المشروعات البراقة التى طالما نشر دعاة الصهيونية بما ستاخذه من معجزات بقصد تضليل الرأى العام العالمى والتمهيد لمؤامرتهم الاجرامية .

فالحل الوحيد هو ألا يكون هناك شىء اسمه قطاع غزة ، وأن تعود فلسطين كلها لأهلها ، وهم وحدهم القادرون حقا على خلق المعجزات الاقتصادية فى ظل نهضة العرب الجديدة واتجاههم المحتوم نحو الوحدة الشاملة لوطنهم الكبير الذى يملك من عناصر التكامل الاقتصادى ما يتيح لأهله أنجع الوسائل لحل مشكلات بيئاتهم واستغلال إمكانياتها الوفيرة ، لخيرهم وخير الإنسانية جمعاء .

## مصـــادر البحث


(1) Baster, J.: "Economic Problems in the Gaza Strip", Mid. East Jour, Summer 1955, pp. 323-7.

(2) Birot, P. et Dresch, J.: La Méditerranéé Orientale et le Moyen Orient Arabe, Paris, 1956.

(3) Encyclopeadia of Islam, under "Ghazza".

(4) Etienne de Vaumas, Le Liban, Paris, 1954.

(5) Fisher, W. B.: The Middle East, London, 1950.

(6) Kallner, D. H. and Rosenan, E.: "The Geographical Regions of Palestine", Geog. Review, 1939.

(7) Picard, L.: Structure and Evolution of Palestine, Jerusalem, 1943.

(8) Stamp, D.: Asia, London, 1952.

(٩) يوسف ابو الحجاج « الكيان الاقتصادى لاسرائيل » ، الجمعية الجغرافية المصرية ــ الموسم الثقافى لسنة ١٩٥٧ ص ٣ ــ ٥٠

# أبو نصر الفارابي

## ( ٢٥٩ – ٣٣٩ هـ ) = ( ٨٧٠ – ٩٥٠ م )

للدكتور ابراهيم بيومى مدكور

مؤسس مدرسة ، وواضع دعائم مذهب . أخلص لتفكيره ، فسما به عن مستوى الأحداث السياسية والاجتماعية ، وعاش عيشة التأمل والنظر فى جو ملىء بالقلق والاضطراب . ألف وكتب ، وتتلمذ له أناس مباشرة أو عن طريق كتبه ورسائله . وامتد أثره إلى الأجيال التالية ، وكان حجة من حجج الفكر الانسانى فى الشرق والغرب .

قامت حوله دراسات مختلفة منذ أخريات القرن الماضى ، تحاول أن تترجم له ، وأن تجمع ما تفرق من مؤلفاته . وأن توضح ما غمض من فلسفته . واحتفلت تركيا سنة ١٩٥٠ بمرور ألف سنة على وفاته ، وأتاحت الفرصة للكشف عن بعض مخلفاته ، وأثارت طائفة من المشاكل التى تتصل به . ولا نستطيع أن نجزم بأنها حلت جميعها ، ومن يدرى إن كان ثمة سبيل إلى حلها ، اللهم إلا إن زادت مصادرنا واستكملت معلوماتنا . ولا تزال المكتبات العامة والخاصة فى الشرق تختزن طائفة من مخطوطات التراث الاسلامى ، ولا يكشف عنها إلا بقدر ، وكل ما نرجو أن تخرج كلها إلى عالم النور .

وقد سبق لنا أن وقفنا على الفارابى بحثا مستفيضا منذ ربع قرن تقريبا [١] . وسنحاول هنا أن نعرض فى اختصار لحياته ، ومؤلفاته ، وفلسفته ، مشيرين خاصة إلى ما يعتورها من حلقات مفقودة ، وما أثير حولها من شبه واعتراضات .

### حياتـه :

لم يترجم لنفسه كما صنع بعض مفكرى الاسلام ، ولم يحاول أحد تلاميذه أن يعرّف به كما صنع الجوزجانى مع أستاذه ابن سينا . ولا نجد عنه لدى أصحاب التراجم ما ينقع الغلة

(١) Madkour, La Place d'Al-Fârâbi dans l'Ecole Philosophique Musulmane, Paris 1934.

ويفى بالحاجة ، ومن بينه ما يثير الشك كالذى ورد فى الترجمة الطويلة نوعا التى وضعها صاحب « وفيات الأعيان » (١) . ولا تزال فى حياة الفارابى نقط غامضة وأمور مثار الخلاف .

وتنقسم هذه الحياة إلى مرحلتين واضحتين : تمتد أولاهما إلى نحو الخمسين من عمره ، ولا نكاد نعرف عنها شيئا يذكر ، اللهم إلا أنه ولد بوسيج من أعمال فاراب ، إحدى ولايات ما وراء النهر ، فى منتصف القرن الثالث للهجرة ( ٢٥٩ هـ = ٨٧٠ م ) . ونكاد نجزم اليوم أنه من أصل تركى ، وإن كانت معلوماتنا عن أسرته ونشأته ناقصة . فيقال إن أباه كان من قواد الجيش ، وإنه هو نفسه اشتغل بالقضاء زمناً فى ولايته (٢) . ومما لا شك فيه أنه قامت فى فاراب حركة فكرية نشيطة واسعة ، على أثر امتداد الاسلام إليها فى أوائل القرن الثالث الهجرى . ومما يشهد لذلك ظهور أعلام آخرين بها معاصرين للفارابى ، أمثال الجوهرى اللغوى المشهور صاحب « الصحاح » .

استطاع الفارابى أن ينهل من حياض هذه الحركة ، وكانت ثقافته فى أساسها دينية لغوية ، فأقبل على العلوم الاسلامية من فقه وحديث وتفسير ، وتعلم العربية إلى جانب التركية والفارسية ولا نظن أنه عرف لغة أخرى ، وما رواه ابن خلكان من إلمامه بسبعين لساناً أقرب إلى الأسطورة منه إلى التاريخ الدقيق (٣) . وقد ثبت لنا أنه لم يعرف اليونانية من تحليله لكلمة السفسطة (٤) . ولم يفته أن يفيد من الدراسات العقلية المحيطة به من رياضة وفلسفة ، ولعله يتجه إليها إلا متأخراً . ولا يبدو — على عكس ما يقال (٥) — أنه عنى بالطب عناية خاصة . وحين أولع بالدراسات العقلية لم يقنع بما توفر لديه منها فى موطنه الأصلى ، بل شاء أن ينهل من حياض أوسع ، فلم يكن له بد من الرحلة والانتقال .

وهنا تبدأ المرحلة الثانية من حياته ، وهى مرحلة الشيخوخة والنضج الكامل . وكانت بغداد هدفه الأول ، لما كان لها من منزلة ثقافية ممتازة طوال القرن الرابع للهجرة ،

---

(١) ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ١٢٧٥ هـ ، جـ ٢ ، ص ١١٢ — ١١٤
(٢) ابن أبى أصيبعة ، عيون الانباء فى طبقات الاطباء ، كنجسبرج ، ١٨٨٤ ، ٢ ، ص ١٣٤
(٣) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ص ١١٣
(٤) الفارابى ، احصاء العلوم ، القاهرة ، ١٩٤٩ ، ص ٦٥
ابراهيم مدكور ، تصدير السفسطة من منطق الشفاء ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، ص هـ .
(٥) ابن أبى أصيبعة ، عيون الانباء ، جـ٢ ، ص ١٣٤

وفيها التقى بباحثين مختلفين بين فلاسفة ومترجمين . ويظهر أن المنطق بوجه خاص اجتذبه إليه ، فكانت صلته وثيقة بكبار المناطقة البغداديين ، وفي مقدمتهم أبو بشر متى ابن يونس الذى كان يعد إمام المنطق فى عصره . وقد صاحبه الفارابى زمناً ، ولم يلبث أن فاق عليه ، وسمى « المعلم الثانى » لما انتهى إليه من منزلة منطقية ممتازة . وتتلمذ له منطقى آخر مشهور هو يحيى بن عدى .

وبعد عشرين سنة تقريباً من إقامته فى بغداد ، اتجه نحو مركز ثقافى آخر فى حلب ، حيث كان بلاط سيف الدولة بن حمدان الذى عد من أخصب وأرقى البيئات العلمية فى عصره . جمع أشهر الشعراء واللغويين والعلماء والفلاسفة ، وبرغم أنه كان يقوم على نزعة عربية واضحة ، فإنه لم يكن فيه للعنصرية أثر يذكر على بساط العلم والثقافة . فالتقى هناك الفارسى والتركى والعربى ، وتناقشوا وتجادلوا ، وتخاصموا وتحاربوا باسم الدراسة والبحث . وكان الفارابى فى هذا البلاط عالماً وباحثاً أولا ، فلم يقبل على زينة الملك وأبهته ، بل تفرغ للبحث والدرس ، عاش عيشة المتصوف ، علم تلاميذه ووضع كتبه ورسائله عند مجتمع الماء ومشتبك الرياض .

وقد بقى فى الشام إلى أن توفى سنة ٣٣٩ ﻫ ( ٩٥٠ م ) ، وإن قام ببعض الرحلات القصيرة . وليس يبعد أن يكون قد ذهب إلى مصر فى هذه الفترة الأخيرة من حياته ، ويؤكد ذلك ابن أبى أصيبعة [١] ، ومصر والشام مرتبطان من قديم ، ولم تخل الدولة الطولونية والإخشيدية من حركة فكرية جديرة بالاغراء . ومهما يكن من أمر فإنا نعتقد أنه مات موتاً طبيعياً ، ونستبعد كل البعد ما ذهب إليه البيهقى من عدوان بعض اللصوص عليه فى تنقلاته بين دمشق وعسقلان [٢] . ويبدو أنه وصل إلى منزلة مرموقة فى بلاط سيف الدولة ، الذى حرص على أن يصلى مع بعض خواصه على جثمانه تكريماً له .

**مؤلفـاته :**

كتب الفارابى وألف كثيراً ، وإن لم تبلغ مؤلفاته فى عددها ما بلغته مؤلفات بعض أقرانه ومعاصريه ، كالكندى والرازى الطبيب . وتكاد تزيد على السبعين ، إن أخذنا برواية بعض أصحاب التراجم كالقفطى وابن أبى أصيبعة . ولكن يجدر بنا أن نلاحظ أولا أن

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٣٥

(٢) ظهير الدين البيهقى ، تاريخ حكماء الاسلام : دمشق ، ١٩٤٦ ، ص ٣٣-٣٤

فى القوائم التى قدموها تكراراً ، فيذكر الكتاب الواحد تحت اسمين مختلفين أو أكثر ، وثانياً أغلب هذه المؤلفات رسائل وبحوث مختصرة تقع فى بعض ورقات .

ويمكن أن تقسم إلى قسمين متعادلين تقريباً . منطقية وغير منطقية .

ويدور القسم الأول حول أجزاء « الأرجانون » تعليقاً أو تلخيصا لكل جزء منها أو مجموعها ، ولم يصلنا منها إلا القليل ، ولا يزال أغلبه مخطوطا ، وقد نشر بعضه أخيراً [١] وينصب القسم الثانى على أجزاء الفلسفة المختلفة من طبيعة ، ورياضة ، وميتافيزيقى ، وأخلاق ، وسياسة . وقد وصلنا منه قدر لا بأس به ، وكفيل بأن يعطينا فكرة واضحة عن فلسفة الفارابى فى مختلف نواحيها . ومن بينه ما كان موضع شك ، ككتاب « فصوص الحكم » و « المفارقات » [٢] . وليس فيه ما ينصب على دراسات علمية بمعناها الدقيق ، فلا ذكر للطب عنده ، وحديثه عن الكيمياء دفاع عنها أكثر منه شرح وتحليل لها .

ونحن أميل إلى ما ذهب إليه ابن خلكان من أن الفارابى ألف معظم كتبه فى بغداد ودمشق [٣] ، ولا ندرى إن كان ألف شيئا فى المرحلة الأولى من حياته ، وإن صح فهل انصب على دراسات نقلية أو عقلية ؟ إن كانت الأولى فلا ذكر لها مطلقاً لدى أصحاب التراجم . وقد حاول بعض الباحثين أن يرتب كتبه ترتيباً زمنياً [٤] ، ولكننا نتساءل هل لذلك جدوى إن كانت قد وضعت فى الثلاثين سنة الأخيرة من حياته ، أى فى مرحلة النضج الكامل ؟ ومن المحقق أننا لا نلحظ تطوراً فى تفكيره ولا فى آرائه .

ويمتاز أسلوبه بالدقة والتركيز ، فهو يعنى بلفظه وعبارته ، يروى فيهما كما يروى فى آرائه وأفكاره ، وفى جمل مختصرة يحاول أن يؤدى أغزر المعانى وأكثرها . وفى هذا ما يفسر لنا كيف وضع ماكس هورتن كتاباً ضخما يشرح فيه تلك الرسالة التى امتد إليها الشك ، وهى « فصوص الحكم » [٥] ، فهو ذو أسلوب خاص ، لا يكاد يخطىء فيه من ألفه ، يمقت التكرار والترادف ، ويؤثر الايجاز والاختصار . ويظهر أنه كان من أنصار

(١) Dr. Mubahat Türker, Fārābī'nin, Ankara. 1958.

(٢) Georr, Fārābī est-il l'auteur des " Fuçus al Hikam " ?, R E I,1941—1946, 31—39; Aydin Sayili, Belleten, 1951.

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان : ج ٢ ص ١١٢

(٤) Aydin Sayili, *op. cit.*

(٥) M. Horten, Das Buch der Ringsteine Fārābi., Münster, 1906.

التعاليم السرية ، يرى مع شيشرون أن الفلسفة لا يصح أن توضع فى متناول العامة والدهماء [1] ، وعلى مؤلفيها أن ينحوا فيها منحى الاغلاق والتعمية والتعقيد [2] ، كم نلاقى اليوم عنتا فى تفهم بعض جمله القصيرة ومعانيه المضمرة .

ويكاد يلتقى منهجه مع أسلوبه ، فهو يجمع ويعمم ، ويرتب ويؤلف ويحلل ليركب ، ويقسم ويفرع ليركز ويصنف . ويبدو فى بعض رسائله وكأن لا هدف له إلا التقسيم والتبويب ، فرسالة « ما ينبغى أن يقدم قبل تعلم الفلسفة.» أشبه ما يكون بفهرس يعرض فيه المدارس الفلسفية اليونانية مبينا مصادر تسميتها وأسماء رؤسائها ، ويقف خاصة عند كتب أرسطو وأغراضها وأسلوبها [3] . وكتاب « إحصاء العلوم » ليس إلا محاولة لتصنيف العلوم ، وتعد الأولى فى بابها فى تاريخ الفكر الاسلامى [4] . وما التصنيف إلا ضرب من جمع المعارف وتكوين المعانى ، وبعبارة أخرى نوع من التركيب .

وهو شغوف بالمتقابلات ، فالنفى يستدعى الاثبات ، والوجود يقابل العدم ، ولا تكاد تخطر له فكرة إلا ويذكر مقابلها ، وما أشبه فى هذا بأفلاطون بين اليونان وبسكال بين المحدثين . وله « رسالة فى جواب مسائل سئل عنها » ينحو فيها هذا النحو بوضوح ، فنجد فيها باطراد المسألة ونقيضها تتعارضان وتتقابلان بغية الوصول إلى حل كامل ، وكم تذكرنا بمحاورة « بارمنيدس » .

والمهم عنده أن يشرح أساس النظرية ودعامة المذهب ، وأن يجلى الأمور الغامضة ، ويمحص المسائل المختلف فيها ليدلى فيها برأيه . وأما الموضوعات فلا تستوقفه ، وما يفترضه معروفا يشير إليه دون أن يطيل فى شرحه . ومن خير الأمثلة على ذلك رسالته « فى أغراض الحكيم فى كل مقالة من الكتاب الموسوم بالحروف » [5] . وما أقربها من بحوثنا التى تقدم بها كتاباً جديداً أو ننقده ، ويمكننا أن نقارن بينها وبين مقال لفيلسوف معاصر فى نفس

---

(1) Cicéron, De nat., 2, 6.

(2) الفارابى ، الجمع بين رأيى الحكيمين ، ليدن ١٨٩٥ ، ص ٤ — ٦

(3) المصدر السابق ، ص ٤٩ — ٥٥

(4) صاعد الأندلسى ، طبقات الأمم ، بيروت ١٩١٢ ، ٥٣

(5) الفارابى ، المصدر السابق ، ص ٣٤ — ٣٨

الموضوع [1] . لهذا لم يكن غريباً أن يجد فيه ابن سينا مفتاحا لكتاب « ما بعد الطبيعة » لأرسطو [2] .

وقد انتشرت مؤلفات الفارابى فى الشرق فى القرنين الرابع والخامس الهجرى ، وانتقلت إلى الغرب حيث تتلمذ له من تتلمذ من الأندلسيين [3] . وترجم بعضها قديما إلى العبرية واللاتينية ، فامتد أثرها إلى الاسكولائية اليهودية والمسيحية [4] ، وأخذ فى نشرها منذ أخريات القرن الماضى ، وترجم قسط منها إلى بعض اللغات الأوربية الحديثة . ولكنها لا تزال فى حاجة ماسة إلى إحياء ونشر دقيق كامل ، لا سيما ومكتبات استامبول أضحت فى متناولنا أيسر من ذى قبل ، وفى وسعنا أن نتدارك من طريقها بعض النقص .

**فلســـفته :**

للفارابى فلسفة واضحة المعالم محدودة الأهداف ، أخذ فيها من غيره ، ثم صورها بصورة جعلتها تلائم ظروفه والبيئة التى عاش فيها . وربط أجزاءها بعضها ببعض ربطا وثيقاً ، بحيث أضحت من أكثر الفلسفات تناسقاً وانسجاما . والفارابى منطقى فى كل شىء : فى تفكيره وتعبيره ، فى جدله ومناقشته ، فى عرضه واستدلاله . وقد تقوم فلسفته على بعض المبادىء الخاطئة ، وقد تقول بآراء أثبت العلم بطلانها ، ولكنه قدر لها أن تحيا طويلا ، وأن تمتد إلى مدارس مختلفة ، وفيها ما يبدو حديثا على قدم العهد به . وسنبين فى اختصار ميزاتها وعناصرها الرئيسية ، مشيرين أولا إلى دراسات الفارابى المنطقية .

**١ ــ منطقه :**

ذكرنا من قبل أنه عنى بالمنطق عناية كبيرة ، وكتب فيه كثيراً ، إلا أنه لا يكاد يخرج عن منطق « الأرجانون » على النحو الذى وصل به إلى العالم العربى . فهو يرى أن « صناعة المنطق تعطى بالجملة القوانين التى شأنها أن تقوم العقل ، وتسدد الانسان نحو

---

(١) Brehier, Aristotle's Metaphysics by W. D. Ross, compte rendu bibliographique dans revue des Etudes Grèques, Paris, 1926, t. 39, p. 293 and suivantes.

(٢) القفطى ، تاريخ الحكماء ، ليبتزج ، ١٩٠٣ ، ص ٤١٦

(٣) بالنثيا ، تاريخ الفكر الأندلسى ، ترجمة الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ، ١٩٥٥ ، ص ٢٢٣ وما بعدها .

(٤) De Menasce, Arabische Philosophie, Bern, 1948, p. 27—28.

طريق الصواب ونحو الحق فى كل ما يمكن أن يغلط فيه [1] » . ويشبهها بصناعة النحو والعروض ، فى أنها من المعقولات كالنحو من الألفاظ والعروض من الأوزان [2] .
ويبرز جانب المنطق العملى التطبيقى ، ملاحظا أن قوانينه آلات تمتحن بها المعقولات ، كما تمتحن الأبعاد والأحجام والأثقال بالمقاييس والمكاييل والموازين [3] . والمنطق يعيننا على تبين الحقيقة فيما نلتمس تصحيحه عند أنفسنا ، أو عند غيرنا ، أو ما يلتمس غيرنا تصحيحه عندنا ، فيرسم لنا الطريق الذى ينبغى أن نسلك ، ومن أين نبدأ ، وكيف ننتهى إلى أن نفضى لا محالة إلى ملتمسنا [4] . ولا تغنى الدربة فى الأقاويل والمخاطبات الجدلية ، ولا الدربة فى الهندسة والحساب عن قوانين المنطق ، كما لا يغنى حفظ الشعر والخطب عن قوانين النحو [5] . وليست صناعة المنطق — كما يظن — فضلا لا يحتاج إليه ، لأن الفطرة لا تغنى عنها بحال [6] .

ويظهر أن الفارابى ، وقد شبه المنطق بالنحو غير مرة ، خشى أن يخلط بينهما ، فحرص على أن يبين أن النحو ينصب على الألفاظ وحدها فى حين أن المنطق ينصب على المعانى ، وصلته بالألفاظ إنما ترجع فقط إلى أنها قوالب لهذه المعانى . هذا إلى أن النحو يعرض لقوانين اللغة ، واللغات متعددة بتعدد الشعوب والأجناس ، بينما يعرض المنطق للعقل الانسانى فى كل مكان وزمان [7] .

وموضوع المنطق هو مسائله التى تدرس فيها قوانين المعقولات ، وتنقسم إلى ثمانية أجزاء : المقولات أو « قاطيغورياس » والعبارة أو « بارى ارمنياس » والقياس أو « أنالوطيقا الاولى » ، والبرهان أو « أنالوطيقا الثانية » ، والحكمة المموهة أو « سوفسطيقا » ، والخطابة أو « ريطوريقا » ، والشعر أو « بويطيقا » . والجزء الرابع أهمها وأشرفها ،

---

(1) الفارابى ، احصاء العلوم ، القاهرة ، ١٩٤٩ ، ص ٥٣
(2) المصدر السابق ، ص ٥٤
(3) المصدر السابق .
(4) المصدر السابق ، ص ٥٤ — ٥٥
(5) المصدر السابق ، ص ٥٨ — ٥٩
(6) المصدر السابق ، ص ٥٩
(7) المصدر السابق ، ص ٦٠ — ٦٢

لأنه هدف المنطق الحقيقي ، وما قبله من أجزاء تمهيد له وتوطئة ، وما بعده تطبيق له أو تحرز من أمور يخشى أن تخلط به [1] .

ولسنا فى حاجة أن نشير إلى أن الفارابى ينحو فى كل هذا منحى أرسطو ، وإن كان يعد الخطابة والشعر من الكتب المنطقية ، وقد وقع فى هذا بعض المشائيين من قبل ، وخاصة فى مدرسة الاسكندرية [2] . ومنهم من ضم « ايساغوجى » فرفوريوس إلى مؤلفات أرسطو ، واعتبره من « الأرجانون » ، وهذا ما لم يذهب إليه المعلم الثانى . ولا شك أن « كتاب البرهان » عظيم الشأن فى نظر أرسطو ، ولكن كشفه الذى كان يباهى به فى « كتاب القياس » .

والجديد فى منطق الفارابى أمران : أولهما أنه أخذ نفسه بتعريب المنطق الأرسطى تعريباً صادقاً ، وصوغه فى قالب يلائم العالم العربى . وها هو ذا يصرح فى مقدمة رسالة له نشرت أخيراً أنه سيعرض نظرية القياس كما أفادها من أرسطو ، متحريا أن يعبر عنها بألفاظ مشهورة عند أهل اللسان العربى ، وأن يمثل لها بأشياء مشهورة عند أهل زمانه . لأنهم لا يفهمون عبارة أرسطو ، ولا أمثلته التى كانت مثار غموض أحياناً . ولا يضير المنطق الأرسطى فى شىء أن يعرب ، ولا قوانينه أن توضح بأمثلة غير تلك التى ارتآها فيلسوف اليونان [3] .

ومن جهة أخرى يضع الفارابى دعائم القسمة الخماسية للاستدلال ، مبيناً أنه برهانى إن أوقع فى النفس اليقين ، وجدلى إن أوقع فيها شبه اليقين عن حسن قصد ، وسوفسطائى إن أوقعه عن سوء قصد وتضليل ، وخطابى إن أوقع فى النفس ظناً غالباً ، وشعرى إن أوقع فيها تخيلا تنقبض له أو تنبسط [4] . وتستخدم هذه الأنواع على حسب الحاجة ومستوى المخاطبين ، فالفلاسفة والعلماء إنما يعتمدون على الاستدلال البرهانى ، ورجال الفرق يكتفون بالأقيسة الجدلية ، والساسة يلجأون إلى الأقيسة الخطابية . وإذا كان لا بد أن

---

(1) المصدر السابق : ص ٥٤ ــ ٥٥

(2) Madkour, l'Organon d'Aristote dans le monde Arabe, Paris, 1934, p.12—14

(3) الفارابى : كتاب القياس الصغير نشر
Dr. Mubahat Türker, Fârâbî'nin bazi Mantik, Ankara 1958, p. 244—245.

(4) الفارابى : احصاء العلوم : ص ٦٤ ــ ٦٩

نخاطب الناس على قدر عقولهم ، فمن الخرق أن نستعمل الأقيسة البرهانية مع العامة والدهماء [1] .

## ٢ ــ وحدة الفلسفة :

يرى الفارابي أن الفلسفة واحدة ، وأنه لا بد لكبار الفلاسفة أن يتفقوا فيما بينهم ، لأن الحقيقة هدفهم جميعاً . وأفلاطون وأرسطو « وهما مبدعا الفلسفة ، ومنشئا أوائلها وأصولها ، ومتمما أواخرها وفروعها ، وعليهما المعول في قليلها وكثيرها ، وإليهما المرجع في يسيرها وخطيرها [2] » . متفقان فيما بينهما ، وما يبدو عليهما من خلاف ليس إلا ظاهراً وصوريا ، وإذن ليس ثمة مشائية ولا أفلاطونية ، ولا رواقية ولا أبيقورية ، بل مدرسة فلسفية واحدة هي مدرسة الحقيقة . والحزبية ضارة في الفلسفة ضررها في السياسة ، ويدرك الفارابي الفيلسوف والمؤرخ هذا الخطر ، ويلاحظ أن متعصبي التلاميذ والأتباع هم الذين باعدوا المسافة بين كبار الفلاسفة ، إذ لا هم لهم إلا البحث عن أوجه الخلاف والنظريات المتقابلة محرفين لها ومبدلين [3] . وكأنا في هذا نستمع إلى أحد فلاسفة القرن الثامن عشر ينعى على رجال عصر النهضة خصوماتهم المذهبية .

ليس القول بالجمع بين الفلاسفة جديداً ، فقد كان نزعة سائدة في المدارس اليونانية المتأخرة ، وفي مدرسة الاسكندرية خاصة . وفي حديث فرفوريوس عن أستاذه أفلوطين ، يلاحظ أنه وجد في مؤلفاته آراء الرواقيين والمشائيين مختلطاً بعضها ببعض [4] . وقد وضع هو نفسه عدة مؤلفات للتوفيق بين أفلاطون وأرسطو [5] ، وجاراه في ذلك عدد غير قليل من رجال مدرسة الاسكندرية [6] . إلا أن واحداً من هؤلاء لم يذهب بالجمع والتوفيق مذهب الفارابي ، فقالوا بوحدة المذاهب الفلسفية المختلفة . وهذا خطأ ولا شك وقع فيه الفارابي ، ودافع عنه كثيراً ، وعقد أكثر من بحث لإثباته .

---

(١) الفارابي ، الجمع بين افلاطون وارسطو ، ص ٢٦ ــ ٢٧

(٢) المصدر السابق .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٢

(٤) Porphyre, Vie de Plotin, tr. Bréhier (Coll. Budé) t.I, p. 15.

(٥) Picavet, Esquisse d'histoire générale et comparée .... Paris 1907 p. 15.

(٦) Ravaisson, Essai sur la Métaphysique d'Aristote, Paris, 1816, t. II, p. 510.

ومهما يكن من أمر هذا الخطأ فإنه دعامة كبرى تقوم عليها الفلسفة الإسلامية ، ذلك أنها فلسفة توفيقية : توفق بين أفلاطون وأرسطو ، كما توفق بين الدين والفلسفة . والحقيقة الدينية والحقيقة الفلسفية متفقتان موضوعاً وإن اختلفتا شكلا . وفى هذا ما يجمع خصائصها ومميزاتها الرئيسية ، فهى فلسفة مشائية امتزجت بعناصر أفلاطونية وأفلوطينية ، وهذه العناصر نفسها هى التى مكنتها من التلاقى مع تعاليم الإسلام . ولا نزاع فى أن الفارابى هو أول من أظهر هذا البناء الجديد فى صورة واضحة ، وسار على نهجه من جاءوا بعده ، فإذا كان ابن سينا قد عنى بإبراز جانبه الأفلاطونى فإن ابن رشد قد شغل ببيان ما بين الحكمة والشريعة من الاتصال .

ويدور توفيق الفارابى حول نقطتين أساسيتين : تنقيح المشائية وصبغها بصبغة أفلاطونية بحيث تكون أقرب إلى تعاليم الإسلام ، وتفسير الحقائق الدينية تفسيراً عقلياً ، فهو ينحو بالفلسفة منحى دينياً ، ويفلسف الدين ، ويسير بهما فى اتجاهين متقابلين رغبة فى أن يلتقيا ويتآخيا . وينصب التنقيح الذى رمى إليه على نظريتين : إحداهما قسمولوجية والأخرى سيكولوجية ، ونعنى بهما نظرية العقول العشرة ونظرية العقل . ويقوم تفسيره العقلى على نظريتين أخريين : إحداهما فى النبوة ، والثانية فى التأويل . ومجموع هذه النظريات الأربع يلخص فلسفة الفارابى ، وهى مرتبطة بعضها ببعض ، وتهدف إلى غرض واحد .

### ٣ ـ نظرية العقـول العشرة :

جزء هام من أجزاء الفلسفة الإسلامية ، توضح عالم السماء والأرض ، وتفسر ظواهر الحركة والتغير ، فهى دعامة الفلك والطبيعة . ويراد بها خاصة حل مشكلة الواحد والمتعدد ، وبيان وجه الصلة بين المتغير واللامتغير . والواحد فى نظر الفارابى هو الواجب الوجود بذاته ، فلا يحتاج إلى غيره لا فى وجوده ولا فى بقائه . وهو عقل يعقل ذاته ، فهو عاقل ومعقول معاً . وهو مباين بجوهره لكل ما سواه ، فلا شبيه له ولا مثيل ، ولا ضد له ولا ند ، ووحدانيته مبرأة من كل معانى الشرك والتعدد [1] .

وإذا كان كذلك ، فما أثره فى الكون ؟ وما الصلة بينه وبين المتعدد ؟ هذا ما أجهد الفارابى نفسه فى توضيحه ، ولم يجد سبيلا إلى حله إلا عن طريق ضرب من الفيض

---

(١) الفارابى : فى مبادىء آراء أهل المدينة الفاضلة ، ليدن ١٨٩٥ ، ص ٥ـ١٠

والصدور . وفى رأيه أن الواحد لا يصدر عنه إلا واحد ، وقد صدر عن واجب الوجود من ناحية أنه عالم بذاته وأنه مبدأ الخير والنظام موجود هو العقل الأول . فالعالم يساوى الخلق ، ويكفى أن يعلم الشىء ليوجد . والعقل الأول ممكن الوجود فى ذاته واجبه بغيره ، ويعقل الواحد كما يعقل نفسه ، فهو واحد فى ذاته ومتعدد بهذه الاعتبارات . وهنا يخطو الفارابى الخطوة الأولى نحو التعدد ، فمن العقل الأول من ناحية أنه واجب الوجود بغيره وأنه يعقل الواحد صدر عنه عقل ثان ، ومن ناحية أنه ممكن الوجود فى ذاته وأنه يعقل نفسه صدر عنه الفلك الأعلى بمادته وصورته ، ذلك لأن لكل فلك صورة خاصة به هى نفسه . وعلى هذا النحو تسير السلسلة إلى أن تكتمل العقول العشرة والأفلاك والنفوس الفلكية . والعقل العاشر والأخير — أو العقل الفعال — هو الذى يحكم عالم الأرض ، وعنه تصدر النفوس البشرية والأركان الأربعة [1] .

وهذه العقول والنفوس متفاوتة الرتبة ، وأولها أسماها ، وتجىء النفوس الفلكية بعد العقول ، وتليها الأفلاك ، وأخيراً الأرض وعالم المادة فى المرتبة الرابعة [2] . وقديما قال الاغريق بقدسية كل ما هو سماوى ، ودنس كل ما هو أرضى . وتعاليم الاسلام صريحة فى أن السماء قبلة الدعاء ، ومصدر الوحى ، وهدف المعراج ، وكل ما فيها طاهر ومطهر . فالفارابى فى هذا يلتقى مع التعاليم الدينية والفلسفية ، إلا أن صعوبته أنه استخرج عالم الأرض الدنس من عالم السموات المقدس .

والعقول عشرة تبعاً لعدد الكواكب والأفلاك ، ذلك لأن الفارابى يردد النظريات التى قال بها فلكيو اليونان ، وخاصة بطليموس . وتتلخص فى أن القسموس مكون من تسعة أفلاك يحيط بعضها ببعض ، وتتحرك كلها حركة أزلية دائرية حول الأرض . ومصدر هذه الحركة العقول والنفوس ، ولكل فلك عقل ونفس يختصان به ، والعقل العاشر يدبر شئون العالم الأرضى . والنفس هى المحرك المباشر للفلك وإن كانت تستمد قوتها من العقل ، فهى تتحرك وتحرك فلكها باشتياقها إلى العقل وسعيها وراء الكمال ، فشوقها مبعث حركتها . والعقول بدورها فى شوق مستمر ، يشتاق أدناها إلى ما هو أسمى منه ، وتشتاق جميعا إلى الواحد الذى يعد المحرك الأول وإن كان لا يتحرك [3] .

---

1 المصدر السابق ، ص ٥٨ — ٥٩
2 المصدر السابق ص ٢٠ — ٢٢
3 المصدر السابق ص ٢٥ — ٢٧

وبذا تتم الحركة الفلكية بضرب من الجذب الروحى ، فينجذب الأدنى دائما نحو الأعلى . وهذه ديناميكية روحية شبيهة بديناميكية ليبنتز ، وإن قامت على قوى روحية غير متعادلة . وكأنما الفارابى الموسيقى يحاول أن يحقق فى عالم الأفلاك تناسقاً مماثلا لتناسق الأصوات والنغم . بيد أن فلكه لا يقوى على النقد ، فإن كشف كوبرنيق قضى على كل النظريات الفلكية القديمة .

ومهما يكن من أمر فان آراء الفارابى الطبيعية ترتبط ارتباطاً وثيقا بنظرياته الفلكية ، فعن العقل العاشر صدرت المادة الأولى أو الهيولى التى هى دعامة الأركان الأربعة ، وعنه أيضاً تصدر الصور المختلفة التى تتكون الأجسام منها ومن الهيولى . وما العالم الأرضى إلا مجموعة أشكال مختلفة من تلاقى الصورة بالمادة وانفصالها عنها . فالكون ثمرة اتصال الصورة بالهيولى ، والفساد نتيجة انفصالها . وتحدث الشمس بحركتها الحرارة والبرودة الضروريتين للتغير ، والعقول المفارقة جميعها توفر من الحركات ما يلائم العالم الأرضى . وبذا تختلط الطبيعة بالقسمولوجيا ، ويخضع عالم الأرض لعالم السماء [1] .

ومع هذا ينكر الفارابى التنجيم الذى كان شائعاً فى عصره ، والذى قال به الرواقيون ورجال مدرسة الاسكندرية من قبله . ينكره وإن كان لا ينكر قانون السببية وارتباط الأسباب بمسبباتها ، ذلك لأن الأسباب مباشرة وغير مباشرة ، وإذا كان من اليسير الكشف عن الأولى فإنه كثيراً ما عز الوقوف على الثانية ، ومن هنا تجىء الصدفة والاتفاق . ولا سبيل إلى ضبط الأمور الاتفاقية ، فأنى لمنجم أن يربط بين موت أمير وخسوف أو كسوف ؟ وأنى له أن يعقد صلة بين قيام حرب وظهور كوكب ما ؟ والأمور الاتفاقية ضرورية على كل حال فى السياسات والشرعيات ، لأنها تبعث على الخوف والرجاء ، وتحفز على الطاعة والعمل [2] .

وهكذا يحل الفارابى مشكلة الحركة والتغير عن طريق نظرية العقول العشرة . وبواسطتها يحاول أيضا أن يحل مشكلة الصلة بين الواحد والمتعدد ، ويوفق بين هيولى أرسطو القديمة والخلق الذى قال به الاسلام . فالمادة قديمة قدم العقول العشرة ، ومخلوقة

---

(١) المصدر السابق : ص ٥٩

(٢) الفارابى : فيما يصح ولا يصح من احكام النجوم ، ليدن ١٨٩٠ : ١٠٧ — ١١٠

لأنها صدرت عن العقل الفعال ، إلا أن هذا الخلق يكاد يكون صوريا بحيث لا يحقق ما رمى إليه القرآن ! ! ولكى يصون التوحيد ، لجأ الفارابى إلى هذه العقول الفاصلة بين الله وعالم الأرض المتغير ، إلا أنه أسبغ عليها من الصفات ما يجعلها تختلط بالواحد !

فى نظرية العقول العشرة عناصر يمكن ردها إلى أصولها المختلفة ، فجانبها الفلكى يلتقى كل الالتقاء مع ما ذهب إليه أرسطو فى تفسير حركة الأفلاك ، وقولها بالصدور يرجع إلى أفلوطين ومدرسة الاسكندرية . ولكنها فى مجموعها نظرية فارابية أملتها نزعة الفارابى التوفيقية ، ومنهجه فى الجمع والتركيب . فهو يوفق فيها بين أفلاطون وأرسطو من جانب وبين الدين والفلسفة من جانب آخر . وقد صادف نجاحاً لا بأس به لدى فلاسفة القرون الوسطى شرقا وغربا . بيد أن فى التوفيق عادة ضرباً من التساهل من جانب ومن آخر ، وإذا رضى قوم غضب له آخرون ، وهكذا كان مصير هذه النظرية . فلدى المسلمين يعتنقها ابن سينا مخلصاً ويعرضها عرضا دقيقا مفصلا ، فى حين يحمل عليها الغزالى حملة شعواء . وبين مفكرى اليهود لا يشير إليها ابن جبيرول مطلقا ، بينما يأخذ بها ابن ميمون فى حماس . وبالرغم مما أثارته فى الفلسفة المسيحية من نقد وملاحظة ، فإن بعض عناصرها كانت موضع التقدير والاعتبار .

## ٤ ـ نظرية العقــل :

فى علم النفس الأرسطى ضبط ودقة عرفا منذ القدم ، وفيه دراسة موضوعية استلفتت الأنظار . فصنف أرسطو وظائف النفس تصنيفا لم يسبق إليه ، وأبرز وحدتها برغم تعدد قواها ، وبين الصلة بينها وبين الجسم . وعرض لنظرية العقل وإن لم يوضحها تماما ، فأثار مشكلة شغلت الأذهان فى التاريخ القديم والحديث . ولذا عدّ كتابه « فى النفس » فى مقدمة الكتب السيكولوجية القديمة ، وربما امتاز على بعض المؤلفات الحديثة . وكان له شأنه فى القرون الوسطى ، وأحرز فيها منزلة لا تقل عن « الأرجانون » .

عرف هذا الكتاب فى العالم العربى ، وترجم غير مرة من السريانية واليونانية ، وترجم معه بعض شروحه القديمة ، وخاصة شرح الاسكندر الأفروديسى وتامسطيوس وسمبليقيوس [1] . ودرسه فلاسفة الاسلام دراسة مستفيضة ، فعلقوا عليه بدورهم ولخصوه ،

---

(١) القفطى ، تاريخ الحكماء ؛ ص ٤١

ووضعوا فى علم النفس بحوثا ووسائل مختلفة ، تأثروا فيها بأرسطو وأخذوا عنه وعنوا على الأخص بمشكلة العقل التى تعد فى مقدمة مشاكل الفلسفة المدرسية .

قدر الفارابى هذه المشكلة حق قدرها ، ورأى فيها ما يأخص نظرية المعرفة بأسرها . وربطها بأجزاء مذهبه ربطا وثيقا ، فهى متصلة بنظرية العقول العشرة ، وأساس لنظرية النبوة . عالجها فى غير موضع ، ووقف عليها رسالة عرفت جيداً فى الشرق والغرب ، ونعنى بها « مقالة فى معانى العقل » التى ترجمت إلى اللاتينية فى تاريخ مبكر .

وهو يقسم العقل أولا إلى علمى يستنبط ما يجب فعله ، وعملى يتم به جوهر النفس . ويقسم الأخير ثانياً إلى هيولانى .( ὑλικός ) وبالملكة ( χαθέξιν ) ، ومستفاد ( ἐπίχτητός ) [1] .

والعقل الهيولانى ، أو العقل بالقوة كما يسميه أحيانا ، نفس أو جزء من نفس أو قوة من قوى النفس أى شىء معد لأن ينتزع ماهيات الوجودات ويدركها . فهو أشبه ما يكون بمادة تنطبع عليها صور الموجودات ، كالشمع الذى ينقش عليه بحيث يصبح هو والنقوش شيئا واحداً . وهذا النقش ليس شيئا آخر سوى المدركات والمعقولات . فالمعقول موجود إذن بالقوة فى الأشياء المحسوسة ، وعند انتزاعه منها بواسطة الحواس يوجد فى الذهن بالفعل [2] . وفى هذا ما يوضح الادراك والتجريد ، تلك العملية الذهنية الهامة التى تخرج بالمعقولات من عالم القوة إلى عالم الفعل . وبانتقال هذه المعقولات إلى الذهن ، يتحول العقل بدوره من عقل بالقوة إلى عقل بالفعل .

وإذن العقل بالفعل ، أو بالملكة فى تسمية أخرى ، مرتبة من مراتب التدرج الذهنى يصل إليها الانسان عند اكتساب طائفة من المعقولات . وما دام الذهن لا يلم بالمعقولات كلها ، فهو عقل بالفعل بالنسبة لما أدركه ، وعقل بالقوة بالنسبة لما لم يدركه . والمعقولات نفسها موجودة بالقوة فى الأشياء المحسوسة ، فإن انتزعت منها تحولت إلى معقولات بالفعل . ومتى وصل الانسان إلى مرتبة العقل بالفعل استطاع أن يدرك نفسه ، وهذا إدراك لا صلة له بالعلم الخارجى ، بل هو إدراك ذهنى مجرد [3] .

---

(١) الفارابى ؛ عيون المسائل ؛ ص ٦٤
(٢) الفارابى ، مقالة فى معانى العقل ؛ ص ٤٢ — ٤٣
(٣) المصدر السابق ؛ ص ٤٤

ومتى وصل العقل إلى إدراك الأشياء المجردة سما إلى مرتبة أخرى ، هي مرتبة العقل المستفاد . ويراد بها تلك المرتبة التي يصبح فيها العقل البشري أهلاً لإدراك الصورة المجردة التي لا تخالط المادة ولا تتصل بها كالعقول المفارقة . ويختلف هذا الادراك العقلي عن الادراك الحسي ، من ناحية أنه ضرب من الحدس والإلهام ، أو بعبارة أخرى من الادراك المباشر . وهذه المرتبة أسمى مراتب الادراك البشري ، وليست في متناول الناس جميعاً ، وما تفاوتهم في معلوماتهم إلا لتفاوتهم في مراتب عقولهم . وقليلون منهم يصلون إلى مرتبة العقل المستفاد ، حيث ينكشف الخفي ، ويتصلون مباشرة بعالم العقول المفارقة [١] .

ففي وسع العقل أن يسير في تدرج صاعد ، من عقل بالقوة إلى عقل بالفعل ، ثم إلى عقل مستفاد . وتختلف كل مرتبة عن التي تليها وإن مهدت لها ، فبينما العقل بالقوة مجرد مستقبل للصور الحسية ، إذ بالعقل بالفعل يحتفظ بالمعقولات ويدرك المعاني الكلية ، ويسمو العقل المستفاد إلى مرتبة الاتصال والفيض والالهام . والمدركات ذات رتب متفاوتة ، فهي في أساسها معقولات بالقوة موجودة في الأشياء الحسية ، وإذا ما انتزعت منها عن المادة أضحت معقولات بالفعل ، وفوق هذه الصور المجردة التي يمكن أن تكون تجردت في المادة بحال [٢] .

غير أن هذا التدرج لا يتم وحده ، لأن نقطة البدء فيه معقولات وعقل بالقوة . ولا يمكن بحال الانتقال من القوة إلى الفعل إلا بمؤثر هو فعل بطبيعته ، وهذا المؤثر هو العقل الفعال آخر العقول العشرة . فالمعرفة الانسانية تتوقف على مدد من العقول المفارقة ، والعقل الفعال من العقل الانساني بمثابة الشمس من العين . فهذه لا ترى إلا في الضوء ووضح النهار ، وعقولنا لا تدرك إلا إن كشف العقل الفعال عنها الغطاء وأنار السبيل أمامها [٣] . وبذا يختلط التصوف بالفلسفة ، وتتلاقى المعرفة العقلية مع الفيض والإلهام .

هذه هي نظرية العقل عند الفارابي ، وهي تحمل آثاراً أرسطية ، ففيها على نحو ما قدمنا تقسيمات وتعبيرات وتشبيهات مستمدة من أرسطو . ويصرح الفارابي بأنه عول فيها على

---

(١) المصدر السابق ، ص ٤٥ ــ ٤٦ في مبادىء آراء أهل المدينة الفاضلة ، ص ٥٢

(٢) المصدر السابق ، ص ٤٦

(٣) الفارابي ، في المدينة الفاضلة ، ص ٤٤ ــ ٤٥

الجزء الثالث من « كتاب النفس »[1]، ولكنه أضاف إليها عناصر أخرى . فالعقل المستفاد على نحو ما صوره لا يمت لأرسطو بصلة ، ذلك لأنه يدنو كثيراً من العقول المفارقة ، وهو همزة الوصل بين المعرفة الانسانية والكشف الإلهي . وهو بهذا يختلف عن العقل المستفاد الذى قال به الاسكندر الأفروديسي والكندى ، وإنما هو وليد نزعة الفارابي الصوفية وميوله الأفلوطينية . ويزيد هذا وضوحا ما للعقل الفعال من أثر فى كسب المعرفة ، فهو أيضا أثر كشف وإلهام ، يهب الذهن الصور المجردة ويضىء أمامه السبيل . وفى هذا ما يربط علم النفس بالقسمولوجيا ، وينتقص نشاط العقل الانسانى ، فهو لا يكاد يدرك إلا إن أمدته السماء بأضوائها . إلا أن هذا النقص لا يضير المتصوفة فى شىء !

وكان لهذه النظرية أثر كبير فى القرون الوسطى ، فأخذ بهـا ابن سينا وزادها قوة ووضوحاً ، وتأثر بها ابن رشد برغم تمسكه بأرسطو . وبين مفكرى اليهود يكاد ابن ميمون يرددها حرفياً . وعند المسيحيين كانت فى مقدمة المشاكل الفلسفية ، لأنها كانت تدور حول نظرية المعرفة وتتصل كل الاتصال بخلود النفس . وقد نشأ عنها اتجاهات ومذاهب مختلفة تناصر آراء الفارابى وابن سينا أحياناً ، وتناقضها أحياناً أخرى . ويمكننا أن نقول فى اختصار إن نظرية العقل أهم نظرية إسلامية أثرت فى الفلسفة المسيحية .

### ٥ ـ نظرية النبوة :

يعتمد كل دين سماوى على الوحى والإلهام ، وما النبى إلا بشر منح المقدرة على الاتصال بالله والتعبير عن إرادته . والاسلام ككل الديانات السامية الكبرى يستمد قوته من السماء ، « وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى علمه شديد القوى » . وليس شىء ألزم لفيلسوف مسلم من أن يحتفظ فى مذهبه بمكان للنبوة ، فيوفق بين العقل والنقل ، بين لغة الأرض ولغة السماء . وهذا ما أخذ به الفارابى نفسه ، فقال بنظرية فى النبوة تعد من أهم المحاولات فى التوفيق بين الفلسفة والدين ، وتعتبر أسمى جزء فى مذهبه . تقوم على دعائم من علم النفس وما وراء الطبيعة ، وتتصل اتصالا وثيقاً بالسياسة والأخلاق .

ولقد عنى بالمجتمع وشئونه عناية خاصة ، وكتب فى السياسة أكثر من بحث ، وسمى « صاحب المدينة الفاضلة » ، وربما كان فى الظروف المحيطة به ما دفعه إلى ذلك .

---

(١) الفارابى : فى معانى العقل ، ص ٤٢

وهو يرى أن المدينة كل مرتبط الأجزاء ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر . ولكل فرد عمل خاص تؤهله له كفايته ومواهبه ، والأعمال الاجتماعية متفاوتة بتفاوت غاياتها . وأشرفها ما اتصل بالرئيس ، لأنه من المدينة بمثابة القلب للجسد ، فهو مصدر الحياة ، ومبعث التناسق والنظام . ولا بد له من أن يكون سليم البنية جيد الفهم ، محباً للعلم ، نصيراً للعدالة ، وأن يسمو إلى درجة العقل الفعال الذى يستمد منه الوحى والإلهام [1] .

وكم تذكرنا هذه الصفات برئيس جمهورية أفلاطون ، وتزيد عليها الاتصال بالعالم العلوى ، وكأنا أمام مدينة سكانها قديسون ورئيسها نبى . والاتصال بالعقل الفعال ميسور من طريقين : طريق التأمل ، وطريق الإلهام . فبالدراسة والبحث ترقى النفس — كما قدمنا — إلى درجة العقل المستفاد حيث تتقبل الأنوار الإلهية ، ولا يسمو إلى ذلك إلا الأرواح القدسية ، أرواح الفلاسفة والحكماء التى تستطيع أن تخترق الحجب وتدرك عالم النور ، « والروح القدسية لا تشغلها جهة تحت عن جهة فوق ، ولا يستغرق الحس الظاهر حسها الباطن ، وقد يتعدى تأثيرها من بدنها إلى أجسام العالم وما فيه ، وتتقبل المعلومات من الروح والملائكة بلا تعليم من الناس [2] » . فبفضل الدراسات النظرية الطويلة يستطيع الحكيم الاتصال بالعقل الفعال .

وهذا الاتصال ممكن أيضا عن طريق المخيلة ، على نحو ما يحدث للأنبياء ، فكل إلهاماتهم وما يصلهم من وحى أثر من آثارها . والمخيلة ذات شأن هام فى علم النفس الفارابى ، فهى وثيقة الصلة بالميول والعواطف ، وذات دخل فى الأعمال العقلية والحركات الارادية . وتبتكر قدراً من الصور الذهنية التى لا تحاكى الأشياء الحسية ، وعنها تنتج الأحلام والرؤى ، وإذا ما فسرت الأحلام تفسيراً علميا ، أمكن عن طريقها تفسير الوحى والإلهام . ذلك لأن الإلهامات النبوية إما أن تتم فى النوم على صورة الرؤيا الصادقة ، أو فى اليقظة على صورة الوحى . والفرق بين هاتين الصورتين نسبى ، والإلهام بينهما فى الرتبة ، وما الرؤيا الصادقة إلا شعبة من شعب النبوة .

---

(١) الفارابى ، المدينة الفاضلة ، ص ٤٦ ، ٥٥ — ٦٠ .

(٢) الفارابى ، الثمرة المرضية ، ص ٧٥

ومتى تخلصت المخيلة من أعمال اليقظة ، تفرغت أثناء النوم لبعض الظواهر النفسية ، فتخلق صوراً جديدة ، أو تجمع صوراً ذهنية قديمة على أشكال مختلفة محاكية أو متأثرة ببعض الاحساسات والمشاعر الجسمية أو العواطف والمدركات العقلية . فأحوال النائم العضوية وإحساساته وعواطفه الكامنة ذات أثر فى تكوين أحلامه ، فنحلم بالماء أو السباحة مثلا فى لحظة يكون فيها مزاجنا رطباً . وكثيراً ما مثلت أحلامنا تحقيق رغبة أو الفرار من رهبة ، فيتحرك النائم تلبية لنداء عاطفة خاصة ، ويجاوز مرقده ويضرب شخصا لا يعرفه أو يجرى وراءه [1] . ولسنا فى حاجة أن نشير إلى أن هذه الملاحظات على بساطتها تشبه التجارب العلمية التى قام بها فرويد وهرفى ومورى بين علماء النفس المحدثين .

وفى وسع المخيلة أن تشكل الصور الذهنية بشكل العالم الروحانى ، فيرى النائم السموات ومن فيها ، ويشعر بما فيها من بهجة ولذة . وقد تصعد المخيلة إلى العالم العلوى ، وتتصل بالعقل الفعال ، فتتقبل منه الأحكام المتعلقة بالأعمال الجزئية والحوادث الفردية ، وهذا الاتصال يحدث ليلا ونهاراً ، وبه تفسر النبوة ، فهو مصدر الرؤيا الصادقة والوحى . يقول الفارابى « إن القوة المتخيلة إذا كانت فى إنسان قوية كاملة جداً ، وكانت المحسوسات الواردة عليها من خارج لاتستولى عليها استيلاء يستغرقها بأسرها . . اتصلت بالعقل الفعال وانعكست عليها منه صور فى نهاية الجمال والكمال . وقال الذى يرى ذلك إن لله عظمة جليلة عجيبة . . ولا يمتنع إذا بلغت قوة الانسان المتخيلة نهاية الكمال أن يقبل فى يقظته عن العقل الفعال الجزئيات الحاضرة والمستقبلة . . ، فيكون له بما قبله من المعقولات نبوة بالأشياء الإلهية . وهذا هو أكمل المراتب التى تنتهى إليها القوة المتخيلة والتى يبلغها الانسان بهذه القوة [2] » .

فميزة النبى الأولى أن تكون له مخيلة قوية تمكنه من الاتصال بالعقل الفعال أثناء اليقظة وفى حال النوم ، وبها يصل إلى ما يصل إليه من كشف وإلهام ، وليس الوحى شيئا آخر سوى فيض من الله عن طريق العقل الفعال . وهناك أشخاص قويو المخيلة ، وإن كانوا دون الأنبياء ، فيتحقق لهم ضرب أدنى من الكشف والإلهام ، وبذا يضع الفارابى الأولياء والواصلين فى مرتبة أقل من مرتبة النبوة . أما العامة والدهماء فمخيلتهم ضعيفة لا تسمو إلى الاتصال بالعقل الفعال ، لا ليلا ولا نهاراً [3] .

---

(١) الفارابى . المدينة الفاضلة ، ص ٤٨ — ٤٩
(٢) المصدر السابق ، ص ٥١ — ٥٢
(٣) المصدر السابق ، ص ٥٢

ليست نزعة التوفيق وحدها هى التى دفعت الفارابى إلى القول بهذه النظرية ، فقد انتشرت فى القرن الثالث والرابع الهجرى موجة من انشك تنكر النبوة والأنبياء ، وردد أصحابها بعض الأدلة التى كان يقول بها منكرو النبوة من السمنية وبراهمة الهند . وفى مقدمة هؤلاء الشكاك ابن الراوندى الخارج على المعتزلة ، ومحمد بن زكريا الطبيب ، وكلاهما خصم قوى عنيف . ويستنكر الأخير خاصة محاولة التوفيق بين الفلسفة والدين ، ويرى أن الفلسفة هى السبيل الوحيد لإصلاح الفرد والمجتمع ، وأن الأديان مبعث التناقس والتطاحن [1] . وقد أثارت هذه الحملة الأوساط الاسلامية على اختلافها ، وحفزتها إلى الدفاع عن معتقداتها . وكان لا بد للفارابى أن يساهم فى ذلك بنصيب ، فأقام النبوة على أساس عقلى وفسرها تفسيراً علمياً .

وعوّل فى تفسيره على نظرية الأحلام الأرسطية التى عرفت فى العالم العربى ، وأخذ بها الكندى من قبل [2] . وأساسها أن الحلم صورة ناتجة من المخيلة التى تعظم قوتها أثناء النوم على أثر تخلصها من أعمال اليقظة [3] ، غير أن أرسطو يرفض أن تكون الرؤى وحياً من عند الله ، ولا يقبل مطلقاً التنبؤ بواسطة النوم ، وإلا أصبح فى مقدور العامة والدهماء — وما أكثر أحلامهم — أن يدعوا التنبؤ بالغيب [4] . وهنا يفترق الفارابى عن أستاذه ، ويقرر أن الانسان يستطيع بواسطة مخيلته الاتصال بالعقل الفعال ، إلا أن هذا مقصور على طائفة ممتازة وجمع مختار . والعقل الفعال مصدر الشرائع والإلهامات السماوية ، وهو فى رأيه أشبه ما يكون بالملك الموكل بالوحى الذى جاءت به تعاليم الاسلام . وفى وسع النبى أو الفيلسوف الاتصال بالعقل الفعال ، أولهما عن طريق المخيلة ، والآخر عن طريق النظر والتأمل . ولا ضير فى ذلك ، لأنهما يرتشفان معاً من معين واحد ، ويستمدان علمهما من مصدر رفيع . والحقيقة الدينية والحقيقة الفلسفية أثر من آثار الفيض الإلهى عن طريق التخيل أو التأمل .

وكان لنظرية النبوة الفارابية أثر واضح فى الشرق والغرب ، بل وفى التاريخ المتوسط والحديث . فاعتنقها ابن سينا فى إخلاص ، وعرضها عرضا يشبه تماما ما قال به الفارابى .

(1) Kraus et Pines, Encyc. de l'Islam, II, p. 1136.

(2) محمد عبد الهادى ابو ريده ، رسائل الكندى الفلسفية ، القاهرة ١٩٥٠ ، ص ٢٩٣ — ٣١١

(3) Aristote, Traité des Rêves, I, 9—10.

(4) Aristote, la Divination, I, 2—3

وسلم بها ابن رشد مندهشا من معارضة الغزالى لها ، لأنها تدعم التعاليم الدينية . وتبين أن الكمال الروحى لا يتم إلا باتصال العبد بربه [1] . وانتقلت إلى التفكير الفلسفى اليهودى ، فاستمسك بها ابن ميمون ، وعنى بها عناية خاصة [2] . ومما يلفت النظر أن اسبينوزا فى « رسالته الدينية السياسية » يقول بنظرية شبيهة بها ، ولعله تأثر فيها بابن ميمون [3] . وامتد هذا الصدى إلى بعض مفكرى الاسلام المعاصرين ، أمثال جمال الدين الأفغانى والأستاذ الإمام .

### ٦ ـ التـــــأويل :

فى التعاليم الدينية سمعيات وأمور لا يتيسر إثباتها عن طريق العقل ، كالمعجزات واليوم الآخر بما فيه من حشر ونشر وصراط وميزان وحساب وعقاب . والتسليم بها ركن من أركان الدين ، ولا يسع المؤمنين إلا أن يقبلوها اكتفاء بصدق ما صدرت عنه . وقد يحاول فريق أن يفسرها تفسيراً عقلياً ، فيلجأ إلى التأويل أو إخضاعها لبعض القوانين الطبيعية . وللمعتزلة فى هذا شأن ملحوظ ، فقد ضربوا فى التأويل بسهم وافر كى يردوا على المشبهة الذين يعزون إلى البارىء صفات تتنافى مع الوحدة والتنزيه .

وللفارابى أيضاً محاولات نكتفى بسرد أمثلة منها . فهو يسلم بالمعجزات لأنها وسيلة إثبات النبوة ، ويرى أنها ، وإن كانت خارقة للعادة ، لا تنقض قوانين الطبيعة . ذلك لأن مصدر هذه القوانين عالم الأفلاك وما فيه من عقول تدبر عالم الارض ، ومتى أمكن الاتصال بها حدث ما لا الف لنا به ولا عهد . وفى النبى — كما قدمنا — قوة روحية تربطه بالعقل الفعال . ويستطيع عن طريق هذا الاتصال أن يسقط المطر صيفاً ، أو يشق القمر ، أو يحول عصا إلى ثعبان ، أو يبرىء الأكمه والأبرص [4] . وبذا يحاول الفارابى — على نحو ما صنع الرواقيون — أن يخضع للسببية أموراً تخرج عليها وتنقضها .

وفى القرآن إشارة إلى أمور سمعية مختلفة ، كاللوح والقلم ، ويرى الفارابى ألا تؤخذ على ظاهرها ، فليس القلم آلة يكتب بها ، ولا اللوح صحيفة يسجل عليها ، بل كل ذلك

---

(١) ابن رشد ، تهافت التهافت ، ص ١٢٦

(٢) Maimonides, le Guide des Egarés, Paris 1856—66, t. I, p. 259—333.

(٣) Spinoza, Traité théologico-politique, Paris, 1872, p. 14—24

(٤) الفارابى ، الثمرة المرضية ، ص ٧٢

رمز للضبط والتسجيل [1] . وفيه أيضاً أحاديث مستفيضة عن اليوم الآخر وما فيه من حساب وعقاب ، ولا يستطيع متدين أن ينكر ذلك وإلا هدم مبدأ الجزاء والمسئولية . ويسلم الفارابي كل التسليم بما فى الآخرة من نعيم مقيم أو عذاب أليم ، ولكنه يردهما إلى أمور روحية لا صلة لها بالجسم وخواص المادة ، فالروح لا البدن هى التى تنعم أو تتألم ، وتسعد أو تشقى [2] .

ويتمشى هذا التفسير والتأويل مع نزعة الفارابي الروحية ، وقد أخذ بها ابن سينا وطبقه ما وسعه ، فالعرش والكرسى فى نظره يرمزان لعالم الأفلاك ، والصلاة ليست مجرد حركات جسمية ، وإنما تهدف إلى التشبه بالعالم العلوى [3] . وكأنما شاء هذان الفيلسوفان أن يقيما ديناً فلسفيا وفلسفة دينية . إلا أن هذا لم يرض الغزالى ، وحمل عليه حملة عنيفة مستمسكا بحرفية النصوص ودلالتها اللفظية . ولم يرض أيضاً ابن رشد ، وإن كان من أنصار التوفيق بين الفلسفة والدين ، لأنه كان يرى سلامتهما فى فصل أحدهما عن الآخر ، لا فى مزجهما مزجا لا يقوى عليه المتدين العادى ، وقد يضل فى فهمه بعض الباحثين [4] .

* * *

وفى وسعنا أن نلاحظ الآن أن مذهب الفارابي منسجم كل الانسجام ، متناسق كل التناسق ، ترتبط أجزاؤه بعضها ببعض تمام الارتباط . فمن الواحد علة العلل ، ينتقل الفارابي إلى العقول العشرة التى صدر عنها عالم السموات والأرض . وفلكه تسيره عقول مدبرة ، والطبيعة بما فيها من كون وفساد تخضع لهذه العقول ، وعلم النفس محكوم بواحد منها هو العقل الفعال . ولا تخرج السياسة ولا الأخلاق على ذلك ، فالسعادة التى ينشدها الانسان ليست إلا اتصالا بالعالم العلوى ، والمدينة الفاضلة إنما تهدف إلى هذه الغاية .

وهذا المذهب الروحى مثالى ، ذلك لأن الفارابي يكاد يرد كل شىء إلى الروح ، فإلهه روح الأرواح ، وفلكه تدبره أرواح سامية ، ورئيس مدينته إنسان سمت روحه

---

(1) الفارابي : المدينة الفاضلة ، ص ٦٧

(2) المصدر السابق ، ص ٧٧

(3) ابن رشد . فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال ؛ ص ٢٦ مناهج الادلة ؛ ص ١٢٠ — ١٢١

(4) ابن سينا . تسع رسائل فى الحكمة والطبيعيات . القاهرة ١٩٠٨ ، ص ١٢٨ — ١٢٩

على بدنه ، وهذه الروحية تؤمن الإيمان كله بالأفكار والمعاني ، وما هي إلا ضرب من الحماس البالي للنظر والتأمل . فالأول فكرة الأفكار وعقل يعقل نفسه ، والموجودات الأخرى وليدة هذا العقل وذلك التفكير . ومن طريق النظر والتأمل يستطيع الانسان أن يتصل بالعالم العلوى ويحظى بالسعادة القصوى . وليس ثمة روحية أوثق اتصالا بالمثالية من هذه .

ولئن كان مذهب الفارابي وليد القرون الوسطى ، فانه يشتمل على آراء حديثة بل ومعاصرة . فهو يناصر العلم ويدعو إلى التجربة ، ويستنكر العرافة والتنجيم . ويؤمن الايمان كله بالسببية والحتمية إلى حد أنه يقول بأسباب لما لم تعرف أسبابه الظاهرية . ويقدس العقل تقديساً يدفعه لأن يلائم بينه وبين النقل ، بحيث تتآخى الحكمة والشريعة ، ويسلم الحكماء من طغيان بعض العامية والدهماء .

## مصـــــادر (١)

### (أ) حيـــاته :


١ ــ ابن ابى اصـيبعة ، عيون الأنباء فى طبقات الأطباء . كنـسبرج ١٨٨٤ ؛ جزءان , الفارابى جـ ٢ ، ص ١٣٤ ــ ١٤٠ ) .

٢ ــ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، القاهرة ١٢٧٥ هـ ؛ جزءان ( الفارابى ، جـ٢ ص ١١٢ ــ ١١٤ ) .

٣ ــ جمال الدين القفطى ، تاريخ الحكماء ، ليبزج ١٩٠٢ ( الفارابى ، ٢٧٧ ــ ٢٨٠ ) .

٤ ــ ظهير الدين البيهقى ، تاريخ حكماء الاسلام ، دمشق ١٩٤٦ ،( الفارابى ، ص ٣٠ ــ ٣٥ )

٥ ــ محمد ابن اســحق النـديم ، الفهرســت ؛ ليبزج ١٨٨١ ( الفارابى ، ص ٢٦٣ ) .

٦ ــ مصطفى عبد الرازق ، فيلسوف العرب والمعلم الثانى ، القاهرة ١٩٤٥ الفارابى ، ص ٥٥ ــ ٧٦ ) .


### (ب) مؤلفـاته :


1. Ayden Sayili, *Revue de la Société d'Histoire Turque*, Ankara 1951, t. XV, No 57.
2. Bouyges (M.), *Notes sur les Philosophes arabes connus des Latins au moyen âge* dans *Mélanges de l'Université de St. Joseph*, Beyrouth, 1924 t. IX, 2, P. 49—70.
3. De Menasce, *Arabische Philosophie*, Bern 1948, 6, P. 27—28.
4. Georr (K.), *Fârabî est-il l'auteur des Foucus?* dans R.E.I. 1941, p. 31—39.
5. Massignon (L.) *Notes sur le texte originol arabe du "Des intellectus" d'Al Fârâbî* dans *Arch. d'hist. doct. et Litt. au moyen âge*, Paris 1930 t. IV, P. 151—158.
6. Mubahat Turker, *Fârâbî'nin Bazi Mantik*, Ankara, 1958.
7. Steinschneider (M.). *Al Faravi des Arabischen Philosophen, leben und Schriften* dans *Mémoires de l'Académie impériale des sciences de St. Petersbourg*, VIIe, t. XIII' No 4' 1869.


---

(١) نكتفى بأن نشير الى امهات المصـادر القديمة ؛ وأحدث ما كتب عن الفارابى، ونوردها مرتبة ترتيبا ابجديا .

(ج) فلســفتة :

١ ــ الفارابى :

(ا ، التمرة المرضيه فى بعض الرسالات الفارابية : ليدن ١٨٩٠

(ب) رسالة فى آراء اهل المدينة الفاضلة : ليدن ١٨٩٥

(جـ) احصاء العلوم : القاهرة ١٩٤٩

(د) كتاب القياس الصغير ، انقرة ١٩٥٧

٢ — Gilson (E.) Les sources greco-arabes de l'augustinisme dans Arch. d'hist. Doct. et Litt. au moyen âge, Paris 1930, t. IV.

٣ — Madkour (I.) La place d-Al Fârâbî dans l'Ecole philosophique musulmane' Paris 1934.

# نقوش خربة براقش

## على ضـــوء مجموعة محمد توفيق

للدكتور خليل يحيى نامى

---

### المجموعة الرابعة وهى المجموعة الأخيرة (١)

### نقش رقم ١٢٨

قطعتان مكسورتان من نقش واحد ، وهما نقش هاليفى رقم ٥٠٥ ونقش رقم ٥٠٦ = RES رقم ٣٠٠٠ (٢) ، والقطعة الأولى من هاتين القطعتين مبنية مقلوبة فى جدار السور ، ومرسوم على يسارها رسم شعار حرف تاء فوقه رسم شعار آخر غريب لم نألفه فى النقوش العربية الجنوبية ، وهذان الشعاران غير موجودين فى نقش هاليفى رقم ٥٠٥ ، والقطعة الثانية من هاتين القطعتين مبنية بجوار القطعة الأولى .

(١) [ق د م] | و م ع ذ ر | ب ن | أ ش ر س .

(٢) [٠ ٠] ب | ع م ك ر ب | م ث ع ى | و د م .

(٣) ٠ ٠ ٠ و م ع ن | و ذ | ى ث ل | ذ ى م .

التـرجمة

(١) مقدم ومؤخر (البناء) من الأساس .

(٢) ٠ ٠ ب عميكرب تقدمة بخور (للاله) ود .

(٣) ٠ ٠ ٠ ٠ ومعين وشعب يثل ضد منّ .

---

(١) نشرت المجموعة الثالثة من هذه النقوش فى مجلة كلية الآداب — المجلد الثامن عشر الجزء الثانى ديسمبر سنة ١٩٥٦ ص ١ — ٣٦ ؛ وتتضمن هذه المجموعة النقوش من ٧٦ الى ١٢٧

(٢) انظر مقدمة RES رقم ٣٠٠٠ ص ٢٨٨

(١) ٠|و م ع ذ ر = [ ق د م ] | و م ع ذ ر .

يظهر فى الصورة جزء من ميم ( ق د م )

ب ن | أ ش ر س :

ينتهى السطر الثانى بهذه الفقرة كما يتبين من رسم الشعارين الموجودين فى نهاية نقش هاليفى رقم ٥٠٥ ، لذلك لم نكمل هذه الفقرة بما أضافه المستشرقون إليها فى هذا السطر لأن مكان التكملة التى أضافها المستشرقون وهى [ ع د | ش ق ر ن ] فى أول السطر الثانى من نقش هاليفى رقم ٢٠٦ .

(٢) ع م ك ر ب :

نسخ هاليفى هذا العلم كما يلى : و م ك ر ب [١] ، ولكن صحته هى : ع م ك ر ب ، كما أثبتناه فى النص ، والعين واضحة جلية فى صورة محمد توفيق لهذا النقش .

(٣) ب ن | ذ ى م = ب ن | ذ ى م [ سَ ر س م ] :

مكان هذه التكملة فى أول السطر الرابع !

## نقش رقم ١٢٩

قطعة مكسورة من نقش مبنية تحت النقش السابق ، وهذه القطعة مكونة من ثلاثة سطور مكسورة ومكشوطة ، وهى عبارة عن نقش هاليفى رقم ٥٠٧ = RES. رقم ٣٠٠١ .

* * *

(١) ٠ ب ن م | أ هـ ل | غ ر ب ت .

(٢) ن س و | ك ع ث ت ر | ذ ق ب ض [ م | ] .

(٣) ر | ذ ى هـ ر ق | و ب | ذ ت | ن ش [ ق م | ] .

---

(١) انظر J. A. المجموعة السادسة مجلد ١٩ ، نقش ٥٠٦ س ٢ ص ٢٣٠

## الترجمة

(١) .. أهل غربت (أو غرابة).

(٢) .. (للاله) عثتر ذى قبض.

(٣) ذو يهرق ويحق (الإلهة) ذات نشق.

## التعليقات

(١) ب م:

الحرف الاول من هذين الحرفين مكشوط، ولكنه من المحتمل أن يكون ميما!

أ ه ل | غ ر ب ت:

العلم (غربت) واضح جلى فى صورة محمد توفيق لهذا النقش، غير أن حرف التاء مكشوط ولا يظهر منه إلا نصفه الأول، وقد نسخ هاليفى هذا العلم كما يلى: ب ر [1] ا ز ت، وقرأه المستشرق الكبير G. Ryckmans كما نسخه هاليفى، وقرأه المستشرق Hartmann: ذ ر ب [2] ت ن!

وجاء اسم (غربت) فى نقش معينى آخر من العلا هو نقش JSa رقم ١٣٠ = RES رقم ٢٣٧٢: كليب غربت، كما جاءت (ذغربت) فى نقش JSa رقم ٢١٢ = RES رقم ٣٢٨٣ س ٢: ك ى ش ر ح أ ل | ذ غ ر ب ت، وهو نقش معينى من العلا أيضاً، وجاءت كذلك فى نقش معينى آخر من العلا هو نقش JSa رقم ١٩٧ = RES رقم ٢٨٤٠ س ٣: مرثد | ذغربت،

(٢) ن س و = [و ب] ن س و = وابنه،

ك ع ث ت ر | ذ ق ب ض. = ك ع ث ت ر | ذ ق ب ض [م].

(٣) ر | ذ ى ه ر ق = [ع ث ت] ر | ذ ى ه ر ق.

و ب | ذ ت | ن ش. = و ب | ذ ت | ن ش [ق م]:

---

(١) انظر J A المجموعة السادسة مجلد ١٩ رقم ٥٠٧ س/١ ص ٢٣١

(٢) انظر R E S المجلد الخامس نقش رقم ٣٠٠١ ص ٢٨٨ — ٢٨٩

نسخ هاليفى هذه الفقرة كما يلى : و ب | ذ ت |[1] ن ت ، وقرأها المستشرقون[2] كما أثبتناها فى النص ، وكذلك هى ظاهرة فى صورة هذا النقش .

### نقش رقم ١٣٠

قطعة من نقش مكتوبة على إطار حجر مبنى تحت النقش السابق ، ولم أجد هذا النقش فى مجموعة هاليفى .

* * *

| ت أ م ن م | و ش ر ع ت م | [ ب ذ ت | أ ر خ ] .

### الترجمة

إدارة وإمارة الضرائب المخصصة د ( أو التى خصصت أو كتبت د ) .

### التعليقات

ت أ م ن م | و ش ر ع ت م :

يشبه هذا التركيب التركيب المعينى المشهور الوارد فى كثير من النقوش وهو ت أ م ن م | و س ش ر ع | ب ذ ت | أ ر خ فى نقش Gl رقم ١٠٨٣ س ٩ ، ت أ م ن | و س ش ر ع | ب ذ ت | أ ر خ فى نقش جلازر رقم ١١٥٠ س ٣ ، كما يشبه التركيب الوارد فى نقشنا هذا التركيب المعينى الوارد فى نقش جلازر رقم ١٣٠٢ س ٣ وهو : ت أ م ن | و م خ ض ن | ب أ هـ ل | أ ر خ ، ولذلك أكملنا هذا السطر بجملة الصلة الواردة فى كثير من النقوش المعينية . وهى : ب ذ ت | أ ر خ .

### نقش رقم ١٣١

قطعة من نقش مبنية مقلوبة تحت النقش السابق ، وهذه القطعة هى عبارة عن نقش هاليفى رقم ٥٠٨ = R ES رقم ٣٠٠٢ .

* * *

( ١ ) س م ن | و أ م ر أ س م ن | . .

( ٢ ) م ل ك ى | م ع ن .

(١) انظر J A. المجموعة السادسة مجلد ١٩ رقم ٥٠٧ س ٣ ص ٢٣١

(٢) انظر R E S المجلد الخامس نقش رقم ٣٠٠١ تعليقة رقم ٣ ص ٢٨٩

### الترجمة

( ١ ) . . . وسادتهما أو ورؤسائهما .

( ٢ ) ملكا معين .

### التعليقات

( ١ ) . س م ن | و أ م ر أ س م ن | . . . :

نسخ هاليفى هذا السطر كما يلى : م ن | و س م س أ م ن [١] ، ولكن الظاهر فى صورة محمد توفيق لهذا النقش هو ما أثبتناه من قبل فى النص .

( ٢ ) م ل ك أ ى | م ع ن :

نسخ هاليفى هذا السطر كما يلى : ر | ك ى | م ع ن [٢] ، وقرأه المستشرقون كما هو ظاهر فى الصورة ، وكما أثبتناه من قبل فى النص [٣] .

### نقش رقم ١٣٢

قطعة من نقش مكونة من ثلاثة سطور ، وهى عبارة عن نقش هاليفى رقم ٤٢٥ = RES رقم ٢٩٣٠ .

* * *

( ١ ) ر | و أ أ ش ر | و .

( ٢ ) ى | و أ ك ر ب | ك ت [ ر ب ] .

( ٣ ) ر | ذ ى ه ر ق | و ب .

### الترجمة

( ١ ) وآشور و .

( ٢ ) والقرابين التى قدمت أو خصصت .

( ٣ ) ذى يهرق وبحق .

---

(١) انظر J A المجموعة السادسة مجلد ١٩ ص ٢٣١ نقش رقم ٥٠٨ س/١

(٢) انظر J A المجموعة السادسة ص ٢٣١ نقش رقم ٥٠٨ س/٢

(٣) انظر R E S المجلد الخامس نقش رقم ٣٠٠٢ ص ٢٨٩

### التعليقات

(٢) و أ ك ر ب | ك ت = و أ ك ر ب | ك ت [ ر ب | ] :

نسخ هاليفى هذه الفقرة كما يلى : و أ ك ر ب | ب ، ولكن الظاهر فى صورة محمد توفيق لهذا النقش هو ما أثبتناه من قبل فى النص ، وهو يتفق وما جاء فى كثير من النقوش المعينية .

### نقش رقم ١٢٣

قطعة من نقش مكونة من سطرين ومبنية فى أسفل الجدار ، وهى نقش هاليفى رقم ٤٢٦ [١] = RES رقم ٢٩٣١ .

* * *

(١) [ و ن ك ر ] ح م | و ع ث ت ر | ذ ى هـ ر ق | ا .

(٢) . . . . ر م | ب ف ر ع | ف ر ع | ع ث ت ر .

### الترجمة

(١) ونكرح وعثتر ذويهرق .

(٢) . . . . من ضريبة بواكير الثمار التى قدمت لعثتر .

### التعليقات

(١) ح م | و ع ث ت ر | ذ ى هـ ر ق = [ و ن ك ر ] ح م | و ع ث ت ر | ذ ى هـ ر ق : وذلك كما أكملها المستشرقون من قبل [٢] .

### نقش رقم ١٣٤

قطعة من نقش مكونة من ثلاثة سطور مكسورة ومكشوطة ، وهى مكتوبة بخط ردىء على حجر مبنى على النقش السابق ، وهذه القطعة هى عبارة عن نقش هاليفى رقم ٤٢٧ [٣] = رقم ٢٩٣٢ .

---

(١) انظر J A المجموعة السادسة مجلد ١٩ ص ٢١٥ نقش رقم ٤٢٦
(٢) انظر R E S المجلد الخامس ص ٢٤٤ نقش رقم ٢٩٣١
(٣) نقش هاليفى مكون من سطرين فقط انظر J A المجموعة السادسة مجلد ١٩ ص ٢١٥

( ١ ) ٠ | م و ق هـ م | كسر فى النقش .

( ٢ ) و ب ذ | م أ د | ب ن | .

( ٣ ) ا و | ب ك ل | أ ل [ أ ل ت | ] .

التر جمة

( ١ ) ٠ موقه

( ٢ ) وبما أضيف من

( ٣ ) بكل آلهة

التعليقات

( ١ ) ٠ | م و ق هـ م | :

الظاهر فى الصورة أثر حرف ثاء فى أول النقش ، ويوجد فى نهاية هذا السطر كسر ينتهى بعد ذلك النقش ، ويوجد بجوار هذا النقش نقش هاليفى رقم ٤٢٨ الذى يبدأ بحرفين هما : د ق ، وقد أضافهما هاليفى إلى نهاية السطر الأول من نقش رقم ٤٢٧ [١] .

( ٣ ) ب ك ل | أ ل . . = ب ك ل | أ ل [ أ ل ت ] ؛ وهذا السطر غير موجود فى نقش هاليفى رقم ٤٢٧ .

نقش رقم ١٣٥

قطعة من نقش مبنية بجوار النقش السابق ، وهى مكونة من ثلاثة سطور ، وهذه القطعة هى عبارة عن نقش هاليفى رقم ٤٢٨ [٢] = RES رقم ٢٩٢٢ .

* * *

( ١ ) د ق كسر فى السطر .

( ٢ ) ف ر ع ن | م ب .

( ٣ ) ب ن س | ح ى و .

---

(١) نقش هاليفى رقم ٤٢٨ ، هو نقش توفيق برقم ١٣٥

(٢) نقش هاليفى مكون من سطرين هما عبارة عن السطر الثانى والثالث من هذا النقش ، انظر J. a المجموعة السادسة مجلد ١٩ ص ٢١٥ نقش رقم ٤٢٨

### الترجمة

( ١ ) . . . . . .

( ٢ ) بواكير الثمار .

( ٣ ) ابنه حيو .

### التعليقات

( ١ ) السطر الأول مكسور ولا يظهر منه إلا حرفان ، وقد أضاف هاليفى هذين الحرفين إلى النقش السابق وهو نقش هاليفى رقم ٤٢٧ ، وذلك كما بينا من قبل فى تعليقاتنا على النقش السابق .

## نقش رقم ١٣٦

قطعة من نقش مبنية مقلوبة فى جدار الحائط ، وهى مكونة من سطرين غير واضحين ، وهذه القطعة هى عبارة عن نقش هاليفى رقم ٤٣٠ [1] = RES رقم ٢٩٣٥ .

* * *

( ١ ) [ و ذ ت ] | ن ش ق م | و ب | .

( ٢ ) و م ل ك | م [ ع ] ن | و [ سَ ل أ ] .

### الترجمة

( ١ ) وذات نشق وبحق .

( ٢ ) وسلك معين وقدم .

### التعليقات

( ١ ) | ن ش ق م = [ و ذ ت ] | ن ش ق م .

( ٢ ) وملك | م . ن | و = و م ل ك | م [ ع ] ن | و [ سَ ل أ ] : نسخ هاليفى هذا السطر كما يلى : و م ل ك | ر و ن | و سـ .

---

(١) انظر A J المجموعة السادسة مجلد ١٩ ص ٢١٥ نقش رقم ٤٣٠

## نقش رقم ١٣٧

قطعة من نقش مبنية مقلوبة تحت النقش السابق ، وهى مكونة من ثلاثة سطور ، وهذه القطعة هى عبارة عن نقش هاليفى رقم ٤٣١ [١] = RES رقم ٢٩٣٦ .

* * *

( ١ ) ط ل | س ع د أ ل | ب [ ن | ] .

( ٢ ) ق ب ض م | أ ه ل | س ب [ ر ر | ] .

( ٣ ) | م [ ع ن | و ذ ] ى ث ل | .

### الترجمة

( ١ ) . . سعدئيل بن .

( ٢ ) قبض التى أداها .

( ٣ ) معين وشعب يثل .

### التعليقات

( ١ ) سعد أ ل | ب = سعد أل | ب [ ن | ] :

نسخ هاليفى السطر الأول كما يلى : ل ل | س ع د أ ل ، ولكن الظاهر فى صورة توفيق لهذا النقش هو ما أثبتناه من قبل فى النص .

( ٢ ) ق ب ض م | أ ه ل | س ب = [ ك ت ر ب | ع ث ت ر | ذ ] ق ب ض م | أ ه ل | س ب [ ر ر ا ] :

وذلك كما أكملها المستشرقون من قبل [٢] .

( ٣ ) م . . ى ث ل | :

لم ينسخ هاليفى هذا السطر [٣] ، ومن الجائز أن تقرأه كما يلى :

---

(١) نقش هاليفى مكون من سطرين هما الأول والثانى من هذا النقش ، انظر J A المجموعة السادسة مجلد ١٩ ص ٢١٦

(٢) انظر RES رقم ٢٩٣٦ ص ٢٣٦ — ٢٣٧

(٣) انظر J A المجموعة السادسة مجلد ١٩ ص ٢١٦ نقش رقم ٤٣١

م [ ع ن | و ذ ] ى ث ل كما فى نقش هاليفى رقم ٥٠٦ = RES رقم ٣٠٠٠
= نقش توفيق رقم ١٢٨ س ٣ .

## نقش رقم ١٢٨

قطعة من نقش مكتوبة على إطار حجر ، وهى غير واضحة فى الصورة ومكتوبة بخط ردىء ، ولم أجدها فى مجموعة هاليفى التى نسخها من خربة براقش .

* * *

ن | م [ ح ] ف د ن [ ه ] ن | ق ر ن [ و ] | و ب ن | ن . . .

### الترجمة

البرجان الذان فى قرناو ومن . .

### التعليقات

م | ف د ن | ن = م [ ح ] ف د ن [ ه ] ن .
ق ر ن . = ق ر ن [ و | ] .
ومن الجائز أن تقرأ هذا النقش كما يلى : م [ ح ] ف د ن | [ ب ] ق ر ن و
= البرج الذى فى قرناو !

## نقش رقم ١٢٩

قطعة من نقش مكونة من سطرين ، والسطر الأول من هذا النقش مكسور ومكشوط ، وبعض حروفه غير ظاهرة فى صورة توفيق لهذا النقش ، وهذا النقش هو نقش هاليفى رقم ٤٤٢ [1] = RES رقم ٢٩٤٤ .

* * *

(١) . . ق [ ن ] ى ه س م | و ى أ ت م [ ر | ع ث ت ر ] .
(٢) [ أ ب ] ى د ع | ى ث ع | و و ق ه أ ل .

---

(١) انظر J A المجموعة السادسة مجلد ١٩ ص ٢١٧ نقش رقم ٤٤٢

### الترجمة

( ١ ) مقتنياتهم ورضى ( الإله ) عثتر .

( ٢ ) أبى يدع يثع ووقهئيل .

### التعليقات

( ١ ) . . ق . ى هـ س م = ق [ ن ] ى هـ س م :

ومن الجائز أن تقرأ هذه الكلمة كما يلى : [ أ ] ق [ ن ] ى هـ س م = مواشيهم .

و ى أ ت م = و ى أ ت م [ ر | ع ث ت ر ] :

وذلك كما أكملها المستشرقون من قبل[1] .

( ٢ ) ى د ع | ى ث ع = [ أ ب ] ى د ع | ى ث ع .

### نقش رقم ١٤٠

قطعة من نقش مكسورة من وسطها ، ومكونة من سطرين ، وهى عبارة عن نقش هاليفى رقم ٤٣٨[2] = R E S رقم ٢٩٤١ .

***

( ١ ) [ ب ك ب ] و د ت ن | . . . ذ ن | م ب ن ى ن

( ٢ ) [ و ر ث د | أ ] هـ ل | ه . . ت | س ل أ س م

### الترجمة

( ١ ) بالضرائب . . . هذا البناء .

( ٢ ) ووضع أهل . . . وقفهم أو تقدمتهم .

### التعليقات

( ١ ) . . و د ت ن = [ ب ك ب ] و د ت ن :

---

(١) انظر R E S رقم ٢٩٤٤ المجلد الخامس ص ٢٥٠

(٢) انظر J A المجموعة السادسة مجلد ١٩ ص ٢١٧

وذلك وفقا لما أكمله المستشرقون من قبل[1] .

(٢) ٠٠٠ هل = [ و ر ث د | أ ] هل[2] .

### نقش رقم ١٤١

نقش مكون من سطرين طويلين ؛ ومرسوم على يمينه شعار ضلفة الباب ، وهو عبارة عن نقوش هاليفى رقم ٥٠٩ ، ٤٢٤ ، ٤٣٧ ، ٤٣٥ = Hommel, S.C. ص ١٠١ = R E S رقم ٢٩٢٩ ، ولا يوجد فى نقوش هاليفى رسم الشعار ، كما أن نقش هاليفى رقم ٥٠٩[3] هو عبارة عن السطر الأول من نقشنا هذا حتى العبارة التالية (وسقنى ع ث ) ، ونقش هاليفى رقم ٤٢٤ هو عبارة عن السطر الثانى من هذا النقش حتى أسماء الأعلام التالية ( ووقهئل ريم صدق وسعد ) ، وقد صور الأستاذ محمد توفيق النقش بتمامه ، وهذا هو نصه .

* * *

(١) ص د ق م | و س ع د أ ل | و ى ح م أ ل | و ب هـ ن س م | ص د ق
أ ل | و ص د ق | و ى س م ع أ ل | و هـ ن أ | و ر ث د | و أ و س | و ى أ و س
أ ل | و س م ع | و م ر د | و و هـ ب أ ل | و ت ح ى | و ب ن ن | و ر ث د أ ل |
و ى ذ ك ر أ ل | ب هـ ن ى | س م ع | ذ ع د ر | ذ ح ف ن | أ هـ ل | ج ب أ ن |
س ل أ | و س ق ن ى | ع ث [ ت ر | ذ ق ب ض م | و و د م | و ] ن ك ر ح م |
و ع ث ت ر | ذ ى هـ ر ق | ك ل | م ب ن ى | م ح ف د ن هـ ن | ذ ح ف ن | و ل
ب أ ن | و ص ح ف ت | ب ى ن [ |

(٢) ق د م م | و م ع ذ ر م | ب ن | أ ش ر س | ع د | ش ق ر ن | و ى و م |
و هـ ب | م ث ع ت | و د م | و ى و م | ذ ب ح | ع ث ت ر | ذ ق ب ض | و و
د م | ب أ ح ض ر ▱ ع ع ع ع ▱ و ى و م | ذ ب ح | ع ث ت ر |
ذ ى هـ ر ق | ب ح ض ر س | أ ذ ب ح م ▱ ع ▱ و ى و م | س ك ب ر |

(١) انظر J. A. المجموعة السادسة مجلد ١٩ ص ٢١٧

(٢) انظر R E S المجلد الخامس ص ٢٤٨ نقش رقم ٢٩٤١

(٣) انظر نقش هاليفى رقم ٥٠٩ فى J. A. المجموعة السادسة مجلد ١٩ ص ٢٢١

(٤) انظر نقش هاليفى رقم ٤٢٤ فى J. A. المجموعة السادسة مجلد ١٩ ص ٢١٤ — ٢١٥

أ ب ى د ع | ى ث ع | و و ق هـ أ ل | ر ى م | ص د ق | و س ع د [ أ ل | م ع ]
ن م | ب ك ل | م ن ت خ ن | و ى و م | س ث ب | ك س م | أ ب ى د ع |
ى ث ع | و و ق هـ أ ل | ر ى م | و م سَ د | م ع ن | ب [ م سَ و د |
م ن ع ن ] .

## الترجمة

( ١ ) صادق وسعدئيل ويحيئيل وأبناؤهم صدقيئل وصادق ويسعئيل وهانىء ورئد وأوس ويأوسئيل وسامع ومارد ( أو مراد ) ووهبئيل ونحى وبنان ورئدئيل ويذكرئيل أبناء سامع ذى تعدّر ( أو عدّار ) من ( قبيلة ) حفن أهل جاّن نذروا وقدموا لعثتر ذى قبض وود ونكرح وعثتر ذى يهرق كل مبنى البرجين الذين لحفن ولبآن ا ، والممر أو ( الخندق ) الذى بين . . . . .

( ٢ ) مقدم البناء ( أو الجزء الخارجى من البناء ) ومؤخره ( أو الجزء الداخلى منه ) من الأساس حتى القمة ، ويوم أن قدموا تقدمة بخور لود ، ويوم أن ذبحوا لعثتر ذى قبض وود فى أفنية الهيكل ٤٠ ذبيحة ، ويوم أن ذبحوا لعثتر ذى يهرق فى فناء هيكله ذبائح ( عددها ) عشرة ، ويوم أن عين أبى يدع يثع ووقهئيل ريام صادقا وسعدئيل كبيرين على شعب معين بكل منتخان ! ، ويوم أن فرض عليهم أبى يدع يثع ووقهئيل ريام ودار ندوة معين فى دار الندوة العالى الخراج . . . . .

## التعليقات

( ١ ) ص د ق م | و س ع د أ ل :

نسخ هاليفى هذين العلمين كما يلى : ص د ق | س ع د أ ل[1] .

( ٢ ) و ب هـ ن س م | ص د ق أ ل :

نسخ هاليفى هذه الفقرة كما يلى : و ب هـ ن س م | ى د[2] ع أ ل ، ولكن الظاهر فى صورة هذا النقش هو ما أثبتناه من قبل فى النص .

(١) انظر نقش هاليفى رقم ٥٠٩ ف ٨ / المجموعة السادسة مجلد ١٩ ص ٢٣١

(٢) انظر نقش هاليفى رقم ٥٠٩ فى ٨ / المجموعة السادسة مجلد ١٩ ص ٢٣١

و م ر د :

نسخ هاليفى هذا العلم كما يلى : و م[1] ر ٠ د ، وقرأه المستشرقون هكذا :

و م ر [ ث ] د ، ولكن الصحيح كما يتضح من صورة هذا النقش هو ما أثبتناه من قبل ، ويوجد كسر بعد حرف الراء ، ولكنه كسر صغير لا يتسع لكتابة أى حرف فيه .

و ى ذ ك ر أ ل :

حرف الذال غير واضح فى صورة هذا النقش ، ويخيل للناظر إليه أنه حرف باء ، وقد نسخه هاليفى باءً | أى أنه نسخ هذا العلم كما يلى :

و ى ب ك ر أ ل ، ولكن المستشرقين قرأوه : و ى ذ ك ر أ ل[2] ، كما أثبتناه فى النص .

ب هـ ن ى | س م ع | ذ ع د ر | ذ ح ف ن | أ هـ ل | ج ب أ ن :

نسخ هاليفى هذه الفقرة كما يلى : ب ن ى | س م ع | ب ع د ز | ذ ح . . . . [3] بن أ ن ، ولكن الظاهر فى الصورة هو ما أثبتناه من قبل .

و س ق ن ى | ع ث . . . = و س ق ن ى | ع ث [ ت ر | ذ ق ب ض ] :

النقش مكسور بعد حرف العين والثاء ، ويظهر فى صورة هذا النقش جزء من أسفل الحرفين المكملين لكلمة ( عثتر ) وهما حرفا التاء والراء فقاصل فالجزء الأسفل من حرف الذال والقاف ، وكذلك جزء من الساق اليمني من حرف باء ، وهذه الحروف من كلمة : ذ ق ب ض .

. . . . ن ك ر ح م = [ و و د م | و ] ن ك ر ح م :

بدء السطر الأول من نقش هاليفى رقم ٤٢٧ مكسور كما يتضح من صورة هذا النقش وينقصه ما يقرب من أربعة حروف أو خمسة .

م ح ف د ن هـ ن | ذ ح ف ن | و ل ب أ ن :

---

(١) انظر نقش هاليفى رقم ٥٠٩ فى T A المجموعة السادسة مجلد ١٩ ص ٢٣١

(٢) انظر .Hommel, S. C ص ١٠١ ، RES رقم ٢٩٢٩ ص ٢٤٢

(٣) انظر نقش هاليفى رقم ٥٠٩ فى TA المجموعة السادسة مجلد ١٩ ص ٢٣١

نسخ هاليفى هذه الفقرة كما يلى : م ح ف د ن ه ن . . . . [1] ن ، وقرأها المستشرقون كما يلى : م ح ف د ن ه ن [ | ظ ر ب ن | و ل ب أ [2] ] ن ، ولكن فى صورتى نقش هاليفى رقم ٤٣٧ و ٤٣٥ هو ما أثبتناه من قبل فى النص ، وقد جاءت ( ذحفن ) اسما لقبيلة أو بطن فى أول هذا النقش ، وقد ترجمنا هذه العبارة فى النص كما يلى : البرجان اللذان لأهل حفن ولبآن ، ومن الجائز أنهما اسما البرجين وبخاصة وأن ( لبآن ) جاءت من قبل كاسم لبرج[3] ا و ص ح ف ت | ب ى ن :

من الجائز أن تقرأ هذه الفقرة كما يلى : و ص ح ف ت | ب ى ن [ ا ] أو كما يلى : و ص ح ف ت | ب ى ن [ ه ا ] لأن الظاهر فى الصورة جزء من خط ، وقد يكون هذا بقية فاصل أو جزء حرف الهاء ا ويتنهى السطر الأول بالفقرة السابقة كما يظهر من صورة نقش هاليفى رقم ٤٣٥ س/ ١ ، ومما لاشك فيه أن هذا السطر ناقص كما يتضح من أول السطر الثانى من نقشنا هذا .

(٢) و ى و م | س ك ب ر | أ ب ى د ع | ى ث ع | و و ق ه أ ل | ر ى م :

نسخ هاليفى هذه الفقرة كما يلى : و ى و م | س ك ر ب | أ ب ى د ة | ى ث ع | و و ق ه أ ل | ر ى م ، ولكن الظاهر فى الصورة هو ( س ك ب ر ) عوضا عن ( س ك ر ب ) التى نسخها هاليفى[4] ، وفعل ( س ك ب ر ) هو أفعل من فعل (ك ب ر ) ومعناه : كبّـر . عـظّم ، عينه كبيرا أو عظيما على أو قلده رتبة كبير أو عظيم ، وفاعل فعل ( س ك ب ر ) هو عبارة عن العلمين التاليين وهما ( أبى يدع يثع ووقهئيل ريام .

ص د ق | و س ع د . . . . ن م = صدق | وسعد [ أل | م ع ] ن م :

---

(١) انظر نقش هاليفى رقم ٤٣٧ ؛ نقش رقم ٤٣٥

(٢) Hommel, S. C. ص ١٠١ ، R E S المجلد الخامس رقم ٢٩٢٩ ص ٢٤٢ وتعليقة ٢ ص ٢٤٣

(٣) Ryck. NPS ج ١ ص ٢٤٥ ـ نقش هاليفى رقم ٥٢٥ = توفيق ٤٦ = R E S رقم ٣٠٢٢ س/١ ؛ هاليفى رقم ٥٢٤ = توفيق رقم ٤٧ = RES ٣٠٢١ س ٢ ، نقش توفيق رقم ١٤٩ = R E S رقم ٢٩٥٢ س ٢

(٤) انظر نقش هاليفى رقم ٤٢٤ فى J A المجموعة السادسة مجلد ١٩ ص ٢١٥

صادق وسعدئيل هما الكبيران اللذان عيناهما أبي يدع يثع ووقهئيل ريام كبيرين على معين .

ب ك ل | م ن ت خ ن :

هكذا هي ظاهرة في الصورة ، وقد نسخها هاليفي كذلك[1] ، وقد قرأها المستشرقون كما يلي (ب ك ل | م خ ت ن ن)[2] ، وقد جاءت هذه اللفظة في نقش هاليفي رقم ٥٩٩ = C I H رقم ٤٦١ س ٨ : م خ ت ن ه و ، وترجمها ناشر Corpus بما يلي : domus nuptialis, asylmic ، وقال المستشرق Rhodokanakis بإنها تقابل hutnû في اللغة الآشورية ومعناها سكين حادة ، كما تقابل أيضا الفعل ختن في اللغة العربية ، وقد تساءل هل هي تدل على هيكل للذبائح أو على مكان في الهيكل تقام فيه عملية الختان . . .[3] الخ .

أما لفظة (م ن ت خ ن ) الظاهرة في صورة توفيق لهذا النقش ، والتي نسخها كذلك أيضا هاليفي فهي من مادة (ن ت خ ) ومعناها في اللغة العربية نزع أو قلع وفي اللغة العبرية nittah معناها : قطع اللحم قطعاً ، لذلك من الجائز أن نقول إن معنى (م ن ت خ ) هو نفس معنى (م خ ت ن ) في اللغة العربية الجنوبية القديمة أو أن لفظة (م ن ت خ ) هي تحريف من كاتب النقش لكلمة (م خ ت ن ) ومهما يكن من أمر فورود هذا التركيب بعد تعيين شخصين في رتبة كبيرين على معين قد يدل على الحقوق الشرعية التي تكفلها هذه الرتبة ، أو على الالتزامات التي تتطلبها هذه الرتبة ، ونجد في لسان العرب مايلي : ونتخ بالمكان تنتيخاً كتنخ ومعناها أقام وثبت ، ولذلك من الجائز أن نترجم ذلك النص كما يلي : عين أبي يدع يثع ووقهئيل ريام صادقا وسعدئيل كبيرين على معين بكل الحقوق أو المراسيم الشرعية التي تخولها لهما هاتان الرتبتان ، أو من الجائز أن يقال أيضا إن هذا التركيب يدل على حقوق شرعية خاصة يمارسها الكبير كذبح الذبائح وتقدمة القرابين ، أو في كل عمليات الختان وما شابه ذلك من الطقوس الدينية التي تقام في المعبد .

---

(١) انظر نقش هاليفي رقم ٤٢٧ س ٢ في J A المجموعة السادسة مجلد ١٩ ص ٢١٦

(٢) انظر R E S المجلد الخامس نقش رقم ٢٩٢٩ ص ٢٤٢ وتعليقة ٢ ص٢٤٣

(٣) انظر Rhod, St. جـ ٢ ص ٣٥

و م س د | م ع ن | ب . . = و م س د | م ع ن | ب [ م س و د | م ن ع ن | ] .

### نقش رقم ١٤٢

قطعة من نقش مكونة من سطرين طويلين مكسورين ومكشوطين ، ومن الجائز أن يكون السطر الأول من هذا النقش عبارة عن نقش هاليفى رقم ٤٤٣ [١] = RES رقم ٢٩٤٥ ، نقش هاليفى رقم ٤٤٤ [٢] = RES رقم ٢٩٤٦ ، أما السطر الثانى من نقشنا هذا فلم أجده فى مجموعة هاليفى التى نسخها من خربة براقش .

* * *

(١) ى و م | ا ب ن ى | و ع ل [ ل ى | ج ] ن أ | هـ ج ر ن | ق ر ن و | ب ق ل [ ب | . . . . ] د ع | م ع ب ر | ن ض [ ح ] | [ م ح ف د ] ن | ى ث ع ن | و ص ح ف ت ن هـ ن | ش ب م | و ش ب م

(٢) و [ أ س ] ط ر س م | ع ث ت ر | [ ش ر ] ق ن | و ع ث ت ر | ذ ق ب ض م | و و [ د م | و ن ك ] ر ح م | و ع ث ت ر | ذ ى هـ [ ر ق ] | و أ ل أ ل ت | م ع ن م | و ى ث ل | و م ل ك | م ع ن م

### الترجمة

(١) يوم أن بنوا وعلوا سور المدينة قرناو ب ق ل . . . . . . فى اتجاه خزان (أو مياه) البرج يثعان والممرين (أو الخندقين) شبام وشبم . . .

(٢) ووثائقهم (الإله) عثتر شارقان (أى المشرق) وعثتر ذى قبض وود ونكرح وعثتر ذى يهرق وآلهة معين ويثل وملك معين .

### التعليقات

(١) و ع ل . . . . ن أ | هـ ج ر ن | ق ر ن و = و ع ل [ ل ى | ج ] ن أ | هـ ج ر ن | ق ر ن و .

(١) انظر نقش هاليفى رقم ٤٤٣ فى J A ٨ المجموعة السادسة مجلد ١٩ ص وهو مكون من سطرين وينتهى عند عبارة ( قرنو/١١ىك ل ) .

(٢) انظر نقش هاليفى رقم ٤٤٤ فى J A ٨ المجموعة السادسة مجلد ١٩ ص ٢١٨ وهو مكون من سطرين وينتهى عند عبارة (و ص ج ف ت ن هـ ن/ش ب م .

(٢) ب ق ل ٠ :

يظهر فى صورة هذا النقش حرف باء فحرف قاف فحرف لام ، فحرف آخر نصفه مكسور وقد يكون هذا الحرف باءً أو ضادا ، ومن الجائز أن نقرأه : بقلب أى فى قلب أو فى داخل أوفى ، وقد قرأه المستشرقون ( بقلح ) ، وقد جاءت ( قلح ) فى نقوس معينية هى نقش Gl رقم ١١٥٠ = RES رقم ٢٧٧٤ س ٢ ، كما جاءت فى نقش .Hal رقم ٢٥٢ = RES رقم ٢٨٢٧ س ٨

م ع ب ر | ن ض ٠ | = م ع ب ر | ن ض ٠ :

نسخ هاليفى هذه الفقرة كما يلى : م ع بَ ر | ن ف ، وحرف الضاد فى نسخة توفيق مكسور ولكنه واضح جلى فى صورة محمد توفيق لهذا النقش .

(٢) و ٠ ٠ ط ر س م = و [ أ س ] ط ر س م :

الظاهر فى الصورة حرف واو فكشط يستطيع الإنسان أن يتبين فيه رأسى الحرفين الألف والسين .

ع ث ت ر | ٠ ٠ ق ن = ع ث ت ر | [ ش ر ] ق ن :

يوجد فى الصورة بعد كلمة (عثتر) فاصل فكسر نستطيع أن نرى فى خلاله حرفى الشين والراء .

ذ ق ب ض م | و و ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ر ح م = ذ ق ب ض م و و [ د م | و ن ك ] ر ح م :

يوجد بعد الواوين كسر وكشط يمتد إلى راء ن ك ر ح م . ولكن الظاهر من خلال هذا الكسر والكشط ذيول الحروف التى أكملنا بها النقص .

و ع ث ت ر | ذ ى هـ ٠ ٠ ٠ = و ع ث ت د | ذ ى هـ [ ر ق | ] :

يوجد كسر بعد هاء (يهرق) حتى واو ( و أ ل أ ل ت ) .

### نقش رقم ١٤٣

قطعة من نقش مكونة من ثلاثة سطور مكسورة ، وهى غير موجودة فى مجموعة هاليفى التى نسخها من خربة براقش .

***

( ١ ) |و[ى]وم[|] . . .

( ٢ ) ن|وأخ ط ب س|و

( ٣ ) [ذ ق ب ض]م|وب| .

**الترجمة:**

( ١ ) . . وبوم أن

( ٢ ) وأباره أو أسسه أو أخطاب ! و

( ٣ ) ذى قبض بحق .

**التعليقات**

( ١ ) و . و م = و[ى]وم[|] .

( ٢ ) . . . م = [ذ ق ب ض]م .

**نقش رقم ١٤٤**

ثلاثة حروف مكتوبة بخط كبير على حجر طويل ، وقبل هذه الحروف الثلاثة مكشوط ، ولا يظهر فيه أى أثر للكتابة كما يظهر من صورة هذا النقش ، وهذه الكتابة غير موجودة فى مجموعة هاليفى التى نسخها من خوبة براقش .

***

( ١ ) . . . . . . . . ع د ر .

**نقش رقم ١٤٥**

قطعة من نقش مكونة من سطرين ، وهى عبارة عن نقش هاليفى رقم ٤٤٥ [١] = R E S رقم ٢٩٤٧ [٢] .

***

( ١ ) وب|أل ى ف ع|رى[م|] .

( ٢ ) |أ ـ]أل ت|م ع ن|و ى ث ل .

---

(١) انظر J. A. المجموعة السادسة ص ٢١٨

(٢) انظر R E S المجلد الخامس نقش رقم ٢٩٤٧ ص ٢٥١

## الترجمة

(١) و بحق إلينع ريَم .

(٢) آلهة معين ويثل .

## التعليقات

(١) أ ل ى ف ع | ر ى ٠ = أ ل ى ف ع | ر ى [م] :

حرف الميم مشطوف كما يظهر من صورة محمد توفيق لهذا النقش ، ولم ينسخه أيضاً هاليفى فى نسخته .

(٢) ٠ أ ل ت | م ع ن = [أ ل] إ ل ت | م ع ن :

حرف اللام المزادة مكشوطة كما يظهر من صورة هذا النقش ، ولم ينسخها هاليفى فى نسخته ، ولكن يستطيع الإنسان أن يتبين معالم هذا الحرف فى الصورة

## نقش رقم ١٤٦

قطعة من نقش مبنية مقلوبة فى جدار السور ، وهى مكونة من ستة سطور ، والسطران الأول والسادس من هذه القطعة مكسوران ومكشوطان ولا يظهر منهما إلا بقايا بضعة حروف ، كما أن يساره مكسور ومكشوط ، وهذا النقش هو نقش هاليفى رقم ٤٤٦ ، غير أن نقش هاليفى رقم ٤٤٦ مكون من أربعة سطور ، وقد قال المستشرقون إنه يكمل نقش هاليفى رقم ٤٤٧[1] = RES رقم ٢٩٤٨ .

***

(١) . . . . . . . . . . . . . .

(٢) و ن | ك و ن | أ س د | ع م م | ب ث هـ | م ع م ر ن | و م ن

(٣) و ف ى | [٠] ذ م ر ت ن | و هـ م | ى س ت أ ى و | ب ع ل | [٠] ذ م ر ت [ن] .

---

(١) لا يوجد نقش هاليفى فى مجموعة توفيق ، وانظر نقش هاليفى رقم ٤٤٦ ، ٤٤٧ فى مقاله A. F. L. Beeston, Notes on old South Arabian Lexicography V, Le Muséon Tome LXVI, p. 115, 122.

(٤) وش ع ن | أ ق ن [ى] | و أ ج د | ث و ر | ا ب ن | هـ . . . | ر م ن | . .

(٥) . . . هـ | م ب ر هـ ن | ر ض و م | ذ م ب ر هـ [|] ض و م | و س ق [ ن ى .

(٦) . . . . . . . ذ ت . . . . . . . . . . . .

## الترجمة

(١) . . . . . . . . . . . . . .

(٢) . وكان ما أعلنته وثيقة هيكل البخور . . . .

(٣) حفظ أو سلامة . . . الهيكل وهم يستعطفون (أو يسترحمون) رب أو سيد . . . .

(٤) وساعده بصغار الماشية وثور واحد من . . . . . . . .

(٥) . . . . . . . . . . . . . . . وقدم

(٦) . . . . . . . . . . . . . . . . .

## التعليقات

(١) أ س د | ع م م = الرجال الذين عموا أو أعلنوا أو وكان ما تضمنته أو بينته . . . الخ :

جاءت لفظة ب ت ع م م في نقش نامي[1] رقم ٤ س ١ — ٢ ، وقد ترجمناها باعلان أى باثبات .

ب ث هـ | م ع م ر ن = وثيقة هيكل البخور :

نسخ هاليفي هذه الفقرة كما يلي : ب ا ث د | م[2] ع [ ] ر ن ، وقرأها المستشرقون :

---

(١) انظر نقوش عربية جنوبية مجلد كلية الآداب العدد التاسع المجلد الأول مايو سنة ١٩٤٧ ص ٢٥ ، ٢٦ وانظر ايضا مقال A. F. L. Beeston, عن هذا النقش فى مجلة BSOS المجلد ١٢ جـ ١ سنة ١٩٤٩ ص ١ — ٣ ، مقالته فى Le Museon, مجلد ٦٦ ص ١١٩

(٢) انظر A J المجموعة السادسة مجلد ١٩ ص ٢١٨ نقش هاليفى رقم ٤٤٦

ب ق ه | م ع ض ر ن ؟ ب ق ه | م ع ذ ر ن ؟ ب ق ه | م ع ذ ن[1] ن ؟
ب ث ه | م ع ض[2] ر ن ، ولكن الظاهر فى الصورة هو ما أثبتناه من قبل ، وقد ترجمنا : ب ث بمعنى وثيقة ، أما الهاء فهى هاء الإضافة لأنها مضافة إلى لفظة : م ع م ر ن .

(٣) و ف ى | ذ م ر ت ن :

لم ينسخ هاليفى الكلمة الأولى غير أنها واضحة جلية فى صورة هذا النقش ، أما اللفظة الثانية فهى فى الصورة كما نسخها هاليفى ، ومن الجائز أن تقرأها : [م] ذ م ر ت ن بمعنى منشدات الهيكل !

ب ع ل | ذ م ر ت ن :

الظاهر فى الصورة بعد كل كلمة ( بعل ) فاصل لحرف مكشوط غير ظاهر فى الصورة ، وقد نسخه هاليفى سينا ، ولكن من الجائز أن تقرأ ميما أى : م ذ م ر ت ن وتترجم السطر الثالث هكذا : حفظ أو سلامة منشدات الهيكل وهم يستعطفون أو يسترحمون رب أو سيد المنشدات !

و ش ع ن | س ق ن = و ش ع ن | أ ق ن [ ى ] :

(٤) و ش ع ن | س ق ن = و ش ع ن | أ ق ن [ ى ] :

لم ينسخ هاليفى من الكلمة الأولى إلا حرف النون ، ومن الجائز أن تقرأ هذه الفقرة كما يلى : [ ى س ] و ش ع ن ومعناها ساعد أو منّ على .

(٥) م ب ر ه ن = سراج أو موقد .

وهو اسم مشتق من فعل ( بره ) بمعنى أضاء كما فى اللغة الحبشية abreha = أضاء !

ر ض و م :

من الجائز أن يكون اسم السراج أو اسم الموقد

ذ م ب ر ه | ض و م = من مصابيح أو مواقد الملجأ :

ترجمنا ( ض و م ) بملجأ مستندين فى ذلك إلى كلمة ( ض و ى ) الواردة فى نقش Olne س ٤ !

---

(١) انظر RES – المجلد الخامس رقم ٢٩٤٨ ص ٢٥١ ، ٢٥٣

(٢) انظر A. F. L. Beeston, Le Muséon tome LXVI, p. 118

## نقش رقم ١٤٧

قطعة من نقش مكتوبة على اطار حجر ، ولا توجد هذه القطعة فى مجموعة النقوش التى نسخها هاليفى من خربة براقش .

ب . | م ب ن ى س م | و س َ ل [ أ س م ] .

### الترجمة

.. مبانيهم وقرابينهم أو مبناهم وتقدمتهم .

### التعليقات

و س َ ل . . = و س َ ل [ أ س م ] .

## نقش رقم ١٤٨

قطعة من نقش مبنية مقلوبة فى جدار الحائط ، وهى عبارة عن نقش هاليفى رقم ٤٤٨ = R E S رقم ٢٩٤٩ وخط هذا النقش غير واضح وهو مملوء بالكسور والكشوط .

***

( ١ ) ع ] ض م | و ت ق د م | ب ن | أ ش ر س | ع د | ش ق ر ن | و ى و م | ك .

( ٢ ) . . . . . . . . . . . . . . . . | ذ ت ى ن | ب م س ق ى ت |

( ٣ ) ت | و أ ر ض | ج ن [ أ | ب ى ] ت ه س | ن ع م ن | ب ن | ص ل و ت | .

### الترجمة

( ١ ) خشب وحجارة مصقولة من أساسه حتى القمة ويوم أن .

( ٢ ) . . . . . . . . هاتين ، فى الاراضى المسقية ( أو فى القنوات ) .

( ٣ ) وأرض سوربيته نعمان من مقدم ( أو أول ) البناء .

(٢) أول السطر الثانى مكشوط ، والظاهر فى صورة هذا النقش كما يبدو لى هو كما يلى : | و ذ | ح ر ق ف ط | ب ر ج ل ، وقد نسخ هاليفى هذه الفقرة كما يلى :
و ذ | ح ر ق ر أ | ب ر ج ل !

ذ ت ى ن :

هو مثنى اسم الاشارة : ذ ت = هاتان ، ومن الجائز أن تكون ترجمته كما يلى :
من هاتين القبيلتين ، ومن الجائز أن (ح ر ق ف ط) هى اسم إحدى القبيلتين أى أنا قد نترجم السطر الثانى كما يلى : ومن (قبيلة) حرقفط برجال هاتين القبيلتين فى الأراضى المسقية أو فى القنوات !

(٢) و أ ر ص | ج ن . . . ت ه س = و أ ر ض | ج ن [أ | ب ى] ت ه س :

نسخ هاليفى هذه الفقرة كما يلى : و أ ر ض | ج ن . . ت ه س | وقرأها المستشرقون كما يلى : و أ ر ض | (ب) ن [ا ب ى] ت ه س[١] | .

## نقش رقم ١٤٩

قطعة من نقش مكونة من أربعة سطور ، والسطر الأول منها مكسور ومكشوط ، ولا تظهر منه فى الصورة إلا بقايا بعض الحروف وكذلك السطر الرابع فهو مكسور أيضا ، وأوله مكشوط ، وهذا النقش هو نقش هاليفى رقم[٢] ٤٤٩ = RES رقم ٢٩٥٠

* * *

(١) . . . . . . . . . . . . . .

(٢) . . | أ] ه ل | ب ن ى | [ذ] ر ب ع ن | م ت ك أ ن | و ك ل | أ ه ل | ب ن [ى] .

(٣) ش ع] ب ه س | و ك | م ل ك ه س | ى و م | [ح] ف ر | و س ن ط | ب ب ض ع .

---

(١) انظر RES المجلد الخامس نقش رقم ٢٩٤٩ ص ٢٥٤

(٢) انظر J A المجموعة السادسة مجلد ١٩ ص ٢١٩ نقش رقم ٤٤٩

(٤) ٠ ٠ ٠ | م ل ك | م ع ن م | و ر ث د | أ و س ع ث ت | ه ق ن ى ت [ س | .

## الترجمة

(١) . . . . . . . . . . . . .

(٢) الذى بنه قبيلة ربعان ! . . . . وكل ما بنته . . . .

(٣) شعبه ولملكه يوم أن حفر ونقب بالقرب من (أو فى إقايم) .

(٤) ٠ ٠ ٠ ملك معين ووضع أوس عثت ممتلكاته تحت حماية .

## التعليقات

(٢) ٠ ٠ ٠ ه ل = [ ٠ | أ ] ه ل .

٠ ر ب ع ن = [ ذ ] ر ب ع ن[١] .

و ك ل | أ ه ل | ب ن ٠ = و ك ل | أ ه ل | ب ن [ ى ] .

(٣) ٠ ٠ ب ه س = [ ش ع ] ب ه س .

ه ف ر = ( ح ) ف ر .

(٤) أول السطر الرابع مكشوط ، وأغلب ذيول حروف هذا النقش مكسورة ، ولذلك تظهر لفظة ( و ر ث د ) فى الصورة كما يلى : ( و ر ئ د ) وقد نسخها هاليفى كذلك[١] ، كما يظهر العلم ( أ و س عثت ) فى الصورة كما يلى :

( أ و س ع ى ت ) وينتهى هذا السطر فى نسخة هاليفى بالصدر الأول من هذا العلم المركب ، وقد جاء هذا العلم فى نقش G l رقم ١٠٨٣ وهو نقش معينى من خربة معين وهو عبارة عن نقش توفيق رقم ١١ ، ودو فى هذا النقش من قبيلة جبآن أصدقاء اليفع ريام وابنه هو ف عثت ملكى معين[٢] .

## نقش رقم ١٥٠

قطعتان من نقش مكتوبتان على حجرين كبيرين ، والسطر الأول من القطعة الأولى

---

(١) انظر RES المجلد الخامس نقش رقم ٢٩٥٠ ص ٢٥٥ .

(٢) انظر نقش G l رقم ١٠٨٣ س ٢

مكسور ومكشوط ، وهذه القطعة هى عبارة عن نقش هاليفى رقم ٤٥٣[١] = GI رقم ١٦٦٢ ، أما القطعة الثانية من هذا النقش فيوجد فيها شقان وكسور وخدوش ، وهى عبارة عن نقش هاليفى رقم ٤٥١[٢] = GI رقم ١٦٦١ . وهاتان القطعتان هما نقش RES رقم ٢٩٥٢[٣] .

***

(١) . . . . | أ هـ ل ] | ج ب [أ] ن | م [و د] د ت | [أ ب ى] د ع | ى ث ع | و و ق هـ أ ل | ر ى [م | م ل ك] ى | م ع ن | س َ ل أ | و س ق ن ى | ع ث ت ر | ذ ق ب [ض]

(٢) م | ى و م | ذ ب ح | ] ع ث ت ر | ذ ى هـ ر ق | ب أ ح ض ر هـ س | | ع | | و ى و م | ب ن ى | م ح ف د ن | [ل ب] أ ن | ذ ع ن ن | خ ل ف | هـ ج ر ن | ى ث ل | ب ل ق م |

(٣) [و ى و م | ح ف ر | و] س ن ب ط | ب أ ر س | ت غ ل | س ن | م ط ر ن | ث ع د | و ص ى ر | م س ف ح ت [س] | و ى و م | أ ت م | و ص ى ر | ن خ ل س و | ذ ب .

(٤) . . . . | ب ب] ض ع هـ س | و ى و م | س م خ ض | و و هـ ب | أ ب ى د ع | ى ث غ | م ل [ك] | | [م] ع ن | و م ع ن | و ذ | ى ث ل | ع م س م ع | ص ر .

**الترجمة**

(١) . . . . أهل جبآن أصدقاء أبى بدع يثع ووقهيل ريام ملكى معين وقفوا ونذروا لعثتر ذى قبض .

(٢) يوم أن ذبحوا لعثتر ذى يهرق فى أفنية هيكله عشرة (ذبائح) ، ويوم أن بنوا بحجارة البلق البرج لبآن بباب المدينة يثل .

(١) انظر J A المجموعة السادسة مجلد ١٩ نقش رقم ٤٥٣ ص ٢١٩
(٢) انظر فى J A المجموعة السادسة مجلد ١٩ نقش رقم ٤٥١ ص ٢١٩
(٣) انظر فى RES المجلد الخامس نقش رقم ٢٩٥٢ ص ٢٥٦

(٣) ويوم أن حفروا وقبوا بئره تغل فى ناحية الحقل المروى تعد ، ونظم أجواله (أو جداوله أو قنواته) ، ويوم أن أتم وقيد نخيله (أو نظم حدائق نخيله) التى فى .

(٤) . . . . ويوم أن سلم أبي يدع يثع ملك معين وشعبا معين ويثل إدارة الأرض واستثمارها إلى عمى سميع . .

### التعليقات

(١) |ج ب ٠ ن|م٠ ٠ د ت|د ع|ى ث ع = [أ هـ ل] |ج ب [أ] ن|م [و د] د ت| [أ ب ى] د ع|ي ث ع .

و و ق هـ أ ل|ر ى٠ ٠ ٠ ى|م ع ن = و و ق هـ أ ل|ر ى [م| م ل ك] ى|م ع ن .

١ — ٢ ع ث ت ر|ذ ق ب ٠ ٠ ع ث ت ر|ذ ى هـ ر ق = ع ث ت |ذ ق ب [ض م|ى و م|ذ ب ح|ع ث ت ر|ذ ي هـ ر ق .

(٢) ب ن ى|م ح ف د ن|٠ ٠ أ ن = م ح ف د ن|[ل ب] أ ن .

(٣) س ن ب ط|ب أ ر س|ت غ ل = [و ى و م|ح ف ر|و] س ن ب ط|ب أ ر س|ت غ ل :

ت غ ل اسم للبئر وهو واضح جلى فى صورة توفيق لهذا النقش ، وقد نسخ هاليفى هذه الفقرة كما يلى :

س ن ب ط|ب أ ر س|ت ٠ إ ل ، وقد جاءت لفظة (ت غ ل) اسما لقناة فى نقش C I H رقم ٣٣٠ س ٣[1] .

م س ف ح ت ، = م س ف ح ت [س] .

(٤) ض ع هـ س = [ب ب] ض ع هـ س .

م ل ٠ ٠ ٠ ع ن = م ل [ك|م] ع ن .

---

(١) أنظر كتاب Ryck., N.P.S. جـ ١ ص ٣٥٩

## نقش رقم ١٥١

سطر من نقش مكتوب على إطار حجر مبنى فى جدار الحائط ، وهو مكسور ومكشوط ، وهذا السطر هو عبارة عن نقش هاليفى رقم ٤٥٤ [١] = RES رقم ٢٩٥٤ [٢]

* * *

وب [ | ] ا شع [ ب ] هسم | م ع ن | و [ ب ] | شع ب هسم | ذ ى ث ل .

### الترجمة

وبشعبهم معين وبشعبهم سكان يثل .

### التعليقات

و ب ، شع ، هسم = و ب [ | ] شع [ ب ] هسم .

و ، | شع ب هسم | ذ ى ث ل = و [ب] | شع ب هسم | ذ ى ث ل :

لم ينسخ هاليفى من هذا النقش إلا ما يلى :

هسم | م ع ن | و ب | شع ، وقد قرأه المستشرقون كما يلى :

[ شع ب ] هسم | م ع ن | و ب | شع [ ب هسم ] .

## نقش رقم ١٥٢

قطعة صغيرة من نقش مبنية مقلوبة فى جدار الحائط ، وهى مكونة من ثلاثة سطور ، وهذا النقش هو نقش هاليفى رقم ٤٥٠ [٣] = RES رقم ٢٩٥١ [٤] .

* * *

(١) | و د م | [ ى ] و م | و هـ ب | م ث [ ع ى .

(١) انظر فى كتاب ١٨ ا المجموعة السادسة مجلد ١٩ ص ٢٢ نقش رقم ٤٥٤

(٢) انظر فى RES المجلد الخامس ص ٢٥٩ نقش رقم ٢٩٥٤

(٣) انظر فى A J المجموعة السادسة مجلد ١٩ ص ٢١٩ نقش رقم ٤٥٠

(٤) انظر فى RES المجلد الخامس ص ٢٥٥ – ٢٥٦ نقش رقم ٢٩٥١ ؛

(٢) ع ش ق | ع م أ ن س | [ ع ] ش ق | ٠ ٠

(٣) [ ى ] و م | س ث ب | ك س | ح ف ن | ٠

### الترجمة

(١) (الإله) و د يوم أن قدّم تقدمة بخور ٠ ٠

(٢) نظّم (أو أصلح) عس آنس حرانة .

(٣) يوم أن ألزمه حقن .

### التعليقات

(١) ٠ و م = [ ى ] و م .

م ث ٠ ٠ = م ث [ ع ى | ] .

(٢) ٠ ش ق = [ ع ] ش ق :

وذلك كما نسخها هاليفى فى[1] نسخته ، ولكن الظاهر فى الصورة خدش قد يستطيع الإنسان أن يتبين من خلاله أثر حرف نون ، لذلك من الجائز أن تقرأ هذه الكلمة كما يلى : [ ن ] ش ق [ م | ] = بلدة نشق ، وتترجم السطر الثانى من هذا النقش كما يلى :

وأصلح عس آنس فى بلدة نشق !

(٣) ٠ و م = [ ى ] و م .

### نقش رقم ١٥٣

قطعة صغيرة من نقش وهى مبنية تحت النقش السابق ، وهى عبارة عن نقش هاليفى رقم ٤٥٢ [٢] = E S R رقم ٢٩٥٣ [٣] .

* * *

(١) [ ع ث ] ت ر | ذ ى هـ ر ق | أ ذ [ ب ح م ٠

---

(١) انظر فى J A المجموعة السادسة مجلد ١٩ ص ٢١٩ نقش رقم ٤٥٠.

(٢) انظر فى J A المجموعة السادسة مجلد ١٩ ص ٢١٩ نقش رقم ٤٥٢

(٣) انظر فى R E S المجلد الخامس ص ٢٥٨ نقش رقم ٢٩٥٣

(٢) . . | ]بنى | بىتس | ر .

(٣) . . | ] عم أنس | بعثت [ر |

### الترجمة

(١) (الإله) عثتر ذى يهرق ذبائح .

(٢) . . بنى هيكله (أو بيته) ر . .

(٣) . . عمى آنس بحق (الإله) عثتر .

### التعليقات

(١) . . . تر = [عث]تر .

أذ . . = أذ[بحم] .

(٣) بعثت . = بعثت[ر|] .

### نقش رقم ١٥٤

قطعة من نقش مكونة من سطرين صغيرين ، مكسورين ومكشوطين ، وهى من النقوش التى نسخها محمد توفيق من داخل خربة براقش ، ولم أجد هذا النقش فى مجموعة هاليفى التى نسخها من خربة براقش .

* * *

(١) . . ] | بلقم | وع[ضم |

(٢) يه]رق | وعث[تر |

### الترجمة

(١) حجارة بلق وخشب .

(٢) يهرق و (الإله) عثتر .

### التعليقات

(١) وع = وع[ضم|] .

(٢) رق = [ ع ث ث د | ذ ى ه ] ر ق .
و ع ث . . = و ع ث [ ت ر | ] .

### نقش رقم ١٥٥

قطعة من نقش مكونة من سطرين مكسورين ومكشوطين ، ولا يظهر من السطر الأول إلا بعض الخطوط ، كما أنه لا يظهر من السطر الثانى إلا حروف كلمة : ب ن ى ، وهذا النقش من النقوش التى نسخها محمد توفيق من داخل خربة براقش .

* * *

(١) . . . . . . . . . . . .

(٢) | ب ن ى | . . . . .

### نقش رقم ١٥٦

قطعة من نقش مكونة من سطرين صغيرين ، وهى من النقوش التى نسخها محمد توفيق من داخل خربة براش ، ولا يوجد هذا النقش فى مجموعة هاليفى التى نسخها من الخربة .

* * *

(١) ا و د [ | ب ] ح ض ر س .
(٢) م | ب م [ س و د | م ن ع ن .

### الترجمة

(١) (الإله) و د فى ساحة هيكله .
(٢) فى دار الندوة المنيع .

### التعليقات

(١) و د | . ح ض :

من الجائز أن تقرأ هذا السطر كما يلى : و د [ | ب ] ح ض [ ر س ] .

(٢) م | ب م : .

من الجائز أن نقرأ هذا السطر كما يلي : [ م ع ن ] م | ب م [ سَ و د | م ن ع ن ] وذلك وفقاً لما جاء في كثير من النقوش المعينية .

## نقش رقم ١٥٧

نقش مكون من سبعة عشر سطراً ، وقد نسخه محمد توفيق من داخل خربة براقش ، وهذا النقش هو نقش هاليفى رقم ٤٨٤ = G I رقم ١٠٩٢ = G I رقم ١٢٢٥ = R E S رقم ٢٩٨٠ = فخرى رقم ١٤[1] .

## نقش رقم ١٥٨

قطعة صغيرة من نقش مكونة من سطرين ، وهى مكسورة ومشطوفة ، وهذا النقش من النقوش التى نسخها توفيق من داخل خربة براقش ، ولا يوجد هذا النقش فى مجموعة هاليفى التى نسخها من خربة براقش .

(١) م | أ هـ ل | ج ب أ [ ن | ]

(٢) . . [ | ] ب ع ث ت ر [ | ] .

### التـــرجمـة

(١) . أهل جبآن . . .

(٢) . . . . بعثتر . .

### التعليقـــات

(١) أ هـ ل | ج ب أ = أهل | ج ب أ [ ن | ]

(٢) . . ب ع ث ت ر . . = . . [ | ] ب ع ث ت ر [ | . . . ] .

---

(1) A. Fakhry, An Archeological Journey to ymen, P. III, PL. LV.
G. Ryckmans, Epigrapical Texts, p. 12-13

# الجاحظ المعـــتزلى

للدكتور عبد اللطيف حمزه

فى خلافة الأمويين — أو فى فترة محدودة من زمن هذه الخلافة — كان التاريخ الفكرى للعراق متصلا أشد اتصال بتاريخ عالم جرىء من العلماء هو « الحسن البصرى » . وقد وجد هذا العالم الجرىء من الحياة القائمة فى هذا الإقليم ما شجعه على المضى فى طريقه إلى حرية الفكر . فبلغ من ذلك حداً لم تعرفه البصرة من قبل :

وليس أدل على هذه الحرية الفكرية التى عرف بها الحسن البصرى ، ولا أدل على نجاحها فى زيادة الإنتاج الفكرى من ظهور « واصل بن عطاء » الذى كان تلميذا للحسن ثم قيل أنه اختلف معه فى مسألة من مسائل الكلام وهى : ما حكم صاحب الكبيرة فى الدين؟ أيعتبر مؤمنا كما قالت المرجئة أم كافرا كما قالت الخوارج؟ وأصر التلميذ يومئذ على اعتبار صاحب الكبيرة فى منزله بين المؤمنين وبين الكافرين. ومنذ ذلك الحين رأينا واصلا يعتزل الحسن . وزعم الباحثون أنه منذ ذلك الوقت أصبح واصل على رأس فرقة من فرق الدين — هى فرقة المعتزلة .

وقضت خلافة الأمويين ، وأتت بعدها خلافة العباسيين . فأتى معها تفوق الفرس وبلايا الفرس . أقول بلايا الفرس لأن هؤلاء لم ينوا منذ قيام الدولة العباسية عن الكيد لهذا الدين الجديد الذى أضاع استقلالهم ، وظفر بدينهم ، وطغى على قوميتهم إلى حد كبير . فى ذلك الوقت ظهر الإلحاد وقويت الزندقة . وخاف الخلفاء يومئذ شر هذه الحركة على أنفسهم وعلى دولتهم وعلى دينهم الذى أوجب عليهم أن يفكروا جديا فى الأمر ، وأن يتعقبوا الزنادقة الذين أصبح خطرهم دينيا وسياسيا فى وقت معا .

والذى لا يحتمل الشك هو أن حكومة العباسيين لم تكن لتقوى على رد الزنادقة والملاحدة ، وأن الخلفاء العباسيين مع بطشهم ومنتهم لم يكونوا يستطيعون القضاء على هذه الطائفة لولا أن قيض الله للإسلام والمسلمين فرقة المعتزلة : فقامت هذه الفرقة بمحاربة الزنادقة وغيرهم بمثل سلاحهم . والزنادقة يومئذ كانوا يعتمدون فى زندقتهم على المنطق وكانوا يصطنعون فى الحادهم العقل والفلسفة . والمعتزلة أنفسهم كانوا يعرفون كيف يستخدمون هذين السلاحين معا . ومن هنا جاء فضل المعتزلة على الدين . ومن هنا صح أن يقال إن المعتزلة أنقذوا المسلمين ووقوهم شر الملاحدة والدهرية والمجوس والشكاكين .

* * *

ومهما يكن من أمر المعتزلة فنحن نعرف أنهم بنوا أفكارهم على خمسة أصول لا يسمى معتزليا إلا من اعتنقها :

(أولها) القول بالمنزلة بين المنزلتين — أى أن مرتكب الكبيرة — كما قال واصل — ليس بكافر وليس بمؤمن ، ولكنه بين بين . فهو فاسق . والفاسق يستحق النار .

(ثانيها) القول بالوعد والوعيد . فأذا استحق الفاسق وعيد الله وجب على الله أن يدخله النار . وإذا استحق المؤمن وعد الله وجب على الله أن يدخله الجنة وهنا نلاحظ أن فى قولهم « وجب على الله كذا » غلوا فى التعبير لم يرض عنه المتحرجون من رجال الدين من أصحاب المذهب الأول وهو مذهب أهل السنة .

(ثالثها) القول بالعدل الالهى . فالله تعالى عادل لأنه يجزى الناس بأعمالهم أن خيرا فخير وإن شرا فشر . ومعنى ذلك أن الناس مخيرون فى هذه الأعمال وليسوا مجبرين عليها ؛ لأنه تعالى وهبهم العقل . والعقل يميز بين الحسن والقبيح يعرفهما بطبيعته ولو لم يدل عليهما شرع أو فضيلة أو مذهب أو قانون . فالناس جميعا يرون الأمانة طيبة لأنها طيبة ، والخيانة سيئة لأنها سيئة وهكذا .

(رابعها) القول بتوحيد الله . ولقد دعاهم ذلك إلى تفسير صفاته تعالى تفسيرا يتفق ومعنى التوحيد . فقالوا إن الله عليم بذاته لا بعلم كالذى نعرفه ؛ قدير بذاته لا بقدرة كالتى نعرفها ، حى بذاته لا بحياة كالتى نعرفها ، سميع وبصير بذاته

لا بسمع ولا ببصر كاللذين نعرفهما وهكذا . فهو تعالى واحد لا شريك له ولا شبيه له ، وليست واحدة من هذه الصفات طارئة عليه .

( خامسها ) الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . ولا يكون ذلك إلا بالقلب . فان لم يكف فباللسان . فان لم يكف فباليد . فان لم يكف فبالسيف فى نهاية الأمر . وهذا الأصل الأخير من أصول المعتزلة هو الجانب التنفيذى فى قانونهم العام . أو هو نقطة الإتصال بينهم وبين الدولة . ومن أجل هذا كان لهم نفوذ كبير فيها . بل من أجل هذا كانوا كالمسخرين — من حيث يشعرون أو لا يشعرون — للدفاع عن الدولة من ناحية الدين . وبالفعل كان المعتزلة خطرا كبيرا يخشاه الزنادقة وأهل الإلحاد .

* * *

ونحن نعلم أن المعتزلة كانوا طائفتين أو مدرستين : مدرسة البصرة ، ومدرسة الكوفة . ومدرسة البصرة أقدم عهدا من مدرسة الكوفة . ومدرسة البصرة هى التى تهمنا الآن . فأستاذاها الأولان هما : واصل بن عطاء وعمرو بن عُبيد . ومن أشهر تلاميذها المخلصين النظام وتلميذه الجاحظ .

ونحن نعلم أيضا أن المعتزلة — أو المفكرين الأحرار كما يسميهم الأوربيون بهذا الإسم — قامت آراؤهم حقا على حرية العقل ؛ يؤمنون بسيطرته على كل شيء . فكان كل واحد من المعتزلة يرث عن سابقه حرية الفكر. ثم كان يتفوق على سابقه فى هذه الحرية أيضا . فكان التلميذ المعتزلى الممتاز يدرس مع أستاذه آراء المعتزلة بوجه عام ثم يعرف آراء شيخه بوجه خاص . ثم هو لا يكتفى بذلك حتى تكون له أفكار غير أفكار أستاذه كما كانت لأستاذه أفكار غير أفكار من سبقوه . من أجل ذلك أثرت عن بعض المعتزلة أفكار خاصة فى معنى الإعتزال . وكان يطلق اسمه على الطائفة التى تتبعه فى القول بهذه الأفكار . فكان يطلق على أتباع واصل اسم الواصلية وعلى أتباع النظام اسم النظامية . وعلى أتباع الجاحظ اسم الجاحظية وهكذا .

ولكن هل صحيح أنه كانت هناك طائفة تسمى الجاحظية نسبة إلى الجاحظ لها مبادؤها التى تمتاز بها عن سائر طوائف المعتزلة ؟ أو بعبارة أخرى : هل كانت

للجاحظ نفسه أفكار يتفرد بها ويستطيع البحث الحديث أن يقول أن أحدا قبله من رجال المعتزلة لم يعرفها ؟ .

نحن نميل منذ الآن إلى أن الجاحظ يوشك ألا تكون له مسألة بعينها قد اختص ببحثها وتوفر طويلا على هذا البحث . وأرى أن الجاحظ إنما كان بوقا عظيما للمعتزلة يذيع آراءهم ويتناول هذه الآراء بالشرح والتكملة حينا ، وبالنقد على عادته فى تناول الأشياء كلها حينا آخر . ونحن نعرف أن الجاحظ مشهور بتوليد المعانى وأن أسلوبه الكتابى كان مطاوعا له فى ذلك كل المطاوعة . فكان إذا أطاعه أسلوبه وجرى معه تفكيره إلى فكرة جديدة أو كالجديدة فذاك . وإلا فانه يكتفى حينئذ بأن يكون شارحا أو ناقدا فحسب .

آية ذلك أن الذين يطلعون على آراء المعتزلة ويتتبعون حركاتهم وأقوالهم ، يرون أنهم درسوا التاريخ الإسلامى دراسة جيدة ، وأنهم حرصوا على أن تكون لهم آراؤهم فى تفسير كل حادثة على حده ، وأنهم كانوا يحكمون على هذا بأنه أخطأ أو يحكمون لذاك بأنه أصاب ، ويتهمون هذا بانه كافر ، ويصفون ذاك بأنه مؤمن ، ويرمون ثالثا بأنه فاسق . وقد وصلوا من هذا كله شيئا فشيئا إلى تلك الأصول الخمسة التى أشرت اليها . وهم من أجل هذا كله لم يتركوا مسألة إلا ألموا بها ، ولا رأيا إلا شرحوه ونجادلوا فيه . فتحدثوا الينا فى إرادة الله وعله الخلق . وتحدثوا الينا فى الطفرة والحركة السكون . وتحدثوا فى الحواس والمعارف والكمون . وتحدثوا فى حرية الإرادة وفى أفعال الإنسان التى يأتيها بنفسه ، وفى الأفعال التى تتولد عن أفعاله كذلك . وتحدثوا فى اعجاز القرآن وخلق القرآن . وتحدثوا فى العدل والمسئولية والإمامة . وردوا على الدهرية والملاحدة والزنادقة والنصارى واليهود والمجوس . وناقشوا فرق الشيعة والمرجئة والجبرية والرافضة والنابتة . وحللوا شخصيات أبى بكر وعمر وعثمان وعلى ومعاوية . وعرضوا لخلفاء بنى أمية جميعا . وكونوا لأنفسهم رأيا فى كل شخص من هؤلاء . وأخيرا كانوا يعلنون فى الناس كل هذه الآراء . وكانت المسائل التى تحدث فيها الجاحظ إلى الناس مبعثرة هنا وهناك . شأنها فى ذلك شأن مسائل المعتزلة كلها بوجه عام . وأكبر الظن أن مسائل المعتزلة إلى ذلك الوقت كانت خاضعة للإتفاق والمصادفة أكثر من خضوعها للنظام والقصد اللذين

يعرفهما العلم أو البحث . فكأن هذه المسائل كلها — كما يقول أستاذنا أحمد أمين — «كانت ارهاصا لعمل فلسفى منظم يأتى فيما بعد ويقوم به أمثال الكندى والفارابى وابن سينا » .

وعرض بسيط وسريع للمشهور لنا من رسائل الجاحظ يقوى عندنا الظن بأنه لم يكن أكثر من سجل عظم لأفكار المعتزلة . وشارح كبير لهذه الأفكار :

١ — فللجاحظ رسالة فى « استحقاق الإمامة » أشار فيها إلى أنه لم يكن ثم نظام لانتخاب الخليفة ، وان الناس بعد موت النبى اجتمعوا فى السقيفة واستقر رأيهم على أبى بكر ليكون الخليفة . ولما مات هذا رضى الناس بعمر . وإذن فأبو بكر وعمر كانا أولى الناس بولاية أمر المسلمين بعد موت النبى . وإذن فلا عذر للشيعة فى الطعن فى انتخابهما وإيثار على بن أبى طالب عليهما .

٢ — وللجاحظ رسالة « فى بنى أمية » عدد فيها أخطاء الأمويين وكفر بعضهم من أجلها ورد فى هذه الرسالة على النابتة « وهم فرقة قالت أن سب الولاة والحكام فتنة يراد بها التفرقة » . فرد عليهم الجاحظ « بأن من الكفر أن نحجم عن سب أهل الكفر . ومن الفتنة ألا نسب أهل الفتنة . » وكيف نجمع على لعن القاتل . ثم إذا كان هذا القاتل سلطانا ظالما أو أميرا عاصيا لم نستحل سبه ولا خلعه ولا نفيه ولا لومه » .

٣ — وللجاحظ رسالة فى مدح النبيذ لا تدلنا على شىء أكثر من أنه كان — كغيره من رجال المعتزلة — يطعن فى رجال الحديث من علماء الدين ويتهمهم بأنهم جماعون الحديث يقبلونه فى سذاجة البسطاء دون أن يتناولوه بشىء من تمحيص العلماء .

٤ — وللجاحظ رسالة فى حجج النبوة سنشير بعد قليل اليها .

٥ — وله رسائل فى الرد على أهل الديانات الأخرى والفرق الدينية غير المعتزلة . رد فى واحدة منها على النصارى . ورد فى رسالة أخرى على الرافضة . والرافضة يومئذ كانت أعدى أعداء المعتزلة . والرافضة فى الأصل فرقة من فرق الشيعة سميت بهذا الإسم لأنه لما خرج زيد بن على بن الحسين سئل عن رأيه فى أبى بكر وعمر فأحسن القول فيهما وترحم عليهما ، فرفضه قوم من الشيعة فسموا الرافضة . ومن ثم انقسم الشيعة قسمين رافضة وزيدية . وكل منهما تفضل عليا على عمر وأبى بكر . ولكن الزيدية أرفق بهما وأدنى من الرافضة إلى الصواب .

٦ — وأخيرا نعرف أن للجاحظ رسالة سماها « فضيلة الإعتزال » أو « فضيلة المعتزلة » رد عليها ملحد كان قبل الحاده معتزليا ؛ وهو ابن الراوندى فى كتاب سماه « فضيحة المعتزلة » . ثم رد على ابن الراوندى معتزلى آخر هو أبو الحسين الخياط فى كتاب سماه « الإنتصار » .

هكذا نلاحظ أن هذه المسائل كلها هى بعينها موضوعات المعتزلة منذ ظهورهم . تكلم فيها واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد وأبو الهذيل العلاف وثمامة بن الأشرس . وتكلم فيها بنوع خاص أستاذ الجاحظ المباشر وهو « النظام » .

ولكن مهما قيل فى أمر الجاحظ المعتزلى فليس هناك شك فى أن رجلا عظيما مثله قد أباح لنفسه كل هذا الحظ من حرية الرأى ، واستفاد من هذه الحرية فى الأدب والنقد والعلم لا بد أن يكون له موقف خاص من هذه المسألة الحامة التى شغلت بال المفكرين من قبله على اختلاف مللهم ونحلهم . وهذه المسألة بطبيعة الحال « هى حرية الإرادة » . فهل صحيح أن الإنسان يعتبر حرا فى إرادته ، مسئول حقا عن أفعاله التى تصدر عنه ، يختار بنفسه ولنفسه هذه الأفعال ولا يختارها الله له ؟ .

أما الجبرية وهم القائلون بالجبر فقد أراحوا أنفسهم وكفوها مؤونة البحث ، وقالوا إن الإنسان مجبر لا مخير .

وأما الزنادقة وهم أشتى هذه الطوائف كلها وأكثرهم تفكيرا فى الأمر فقد كانوا كأنهم لا يريدون أن يجدوا فى الإسلام حلا مرضيا لهذه المشكلة : فهذا رجل كابن المقفع كان كثير التفكير فى هذه المسألة بالذات . ويظهر أنه لم يشأ أن يجد الجواب عنها فى « المزدكية » وهى دين آبائه وأجداده من الفرس ، ولا فى « الإسلام » وهو دين الدولة العباسية التى أظلته . ولكنه وجد حلا لها فى « المانوية » . والرسالة التى تسبت اليه فى الزندقة والتى رد عليها القاسم بن ابراهيم الزبدى تنهض دليلا على ما نقول . فاذا كان شيء يستحق التفاتنا فى هذه الرسالة التى تشير اليها الآن . فان هذا الشيء هو حديث ابن المقفع عن الإسلام وحديثه عن المانوية . أما حديثه عن الإسلام فينم عن سخرية وتهكم وشك يقصد به الطعن فى هذا الدين . وأما حديثه عن المانوية فينم عن احترام وإيمان بهذه العقيدة التى ارتاح اليها ابن المقفع ، لأنه كما قلت وجد فيها حلا لهذه المشكلة التى شغلته وهى مشكلة حرية الإرادة .

وأما الجاحظ فانه لم يكن زنديقا وإنما كان معتزليا شديد الإخلاص للاعتزال . ولا شك أنه فكر فى هذه المسألة بالذات . ولا شك أيضا أنه كان يوافق المعتزلة فى القول بأن الإنسان يخلق أفعاله ويختارها وان الله لا يخلقها له ولا يختارها . وأكبر الظن بعد ذلك أن الجاحظ وجد حلا لهذه المسألة فى « نظرية الطباع » .

وخلاصة هذه النظرية — كما يمكن أن نعرف ذلك من رسالته « حجج النبوة » — أن الله خالف بين طبائع الناس كما خالف بين طبائع الأشياء . فالنار من طبيعتها التسخين ، والثلج من طبيعته التبريد . ولا يمكن أن يكون العكس . والسبع من طبيعته الوثب : والحديد من طبيعته القطع ، والسم من طبيعته القتل ، والغذاء من طبيعته أن يقيم . وكذلك أراد الله — كما يقول الجاحظ — « أن يكون المطبوع على المعرفة عالما ، والمهيأ للحكمة حكيما ، وذو الدليل مستدلا ، وذو النعمة منتفعا بها » . « وإذا كان الله تعالى لم يخلق عباد فى طبع عيسى بن مريم ، ويحيى بن زكريا ، وآدم ابى البشر ، وخلقهم ناقصين ، وعن درك مصالحهم عاجزين ؛ وأراد منهم العبادة ، وكلفهم الطاعة » كان من الحكمة إذن أن يبعث الله فيهم الرسل والأنبياء يعلمون الناس « لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » .

ويظهر أن الجاحظ طبق هذه النظرية نفسها على العالم الأخروى نفسه فقال إن من طبيعة الجنة أن تجذب اليها أهل الجنة ، وإن من طبيعة النار أن تجذب اليها أهل النار . بل ان أهل النار لا يخلدون فيها عذابا وإنما يصيرون إلى طبيعة النار ! ! !

ثم يظهر أيضا أن نظرية الطباع عند الجاحظ ولدت له مسألة أخرى أغرم بالكلام فيها كما يقول المؤرخون ، بل كان أول الذين عرضوا لشرحها من رجال المعتزلة . هذه المسألة الأخيرة هى « مسألة المعارف أو المدركات العقلية » . فكان الجاحظ يقول أن المعارف أو الأشياء التى ندركها بعقولنا نتيجة طبيعية لاتجاه الحواس ومن طبيعة حواسنا أن تحس . وهذا الذى نحسه نتيجة لازمة لذلك . فانت إذا أنعمت ببصرك فى هذا الكلام الذى تقرؤه الآن أدركت أنه كلام صحيح أو غير صحيح . وإنعامك النظر إلى الكلام عمل إرادى بمحض إختيارك ورغبتك . ولكن إدراكك لمعنى الكلام وإقتناعك أو عدم إقتناعك به عمل إضطرارى أو ضرورى لا خيرة لك فيه

وعلى هذا فانت إذا وصل إلى علمك دين من الأديان لا بد أن تكون واحدا من أربعة رجال :

١ — فأما أن تكون رجلا أدركت ما فى هذا الدين من الصواب فاقتنعت به واعتنقته . وأنت فى هذه الحالة مؤمن مصدق .

٢ — وأما أن تكون رجلا أدركت ما فيه من الصواب ولكن كابرت وعاندت ولم تعتنق الدين . وأنت فى هذه الحالة كافر ومعاند .

٣ — وأما أن تكون رجلا عجزت عن إدراك ما فى الدين من الصواب فلم تستطع أن تعتنق أو لا تعتنق . فأنت فى هذه الحالة معذور لأن الله تعالى « لا يكلف نفسا إلا وسعها » .

٤ — وأما إذا لم يكن الدين نفسه قد وصل اليك فأنت فى هذه الحالة الأخيرة لا لوم عليك .

وعلى هذا فالكافرون عند الجاحظ عددهم قليل ؛ لأنهم محصرون فقط فى هؤلاء الذين سماهم معاندين ؛ لأنهم عرفوا الحق وكبر عليهم أن يدخلوا فيه .

غير أنه مما يجدر ذكره أن نظرية الطباع التى فكر الجاحظ فيها طويلا إلى هذا الحد لم تكن من ابتداعه ولو أن له فيها فضل التوسع والشرح ، لأنها كثيرة الورود فى كلام أستاذه النظام ، وفى كلام الفرق الدينية الأخرى عدا المعتزلة .

وكذا فان نظرية الجاحظ فى المعارف يمكن أن تكون أثرا واضحا من آثار ثقافته اليونانية قبل كل شيء . فان هذه النظرية — وهى نظرية المعارف — تذكر الباحث دائما بنظرية « سقراط » فى المعرفة . وأكبر الظن أن الجاحظ وكثيرين غيره من رجال المعتزلة لم تكن عقولهم فارغة من مثل نظرية سقراط فى المعرفة ونظرية أفلاطون فى المثل ونظرية السفسطائيين فى الحواس . على أن من يطلع على كتاب الإنتصار الذى أشرت اليه بدهش كيف أن ثمامة بن الأشرس من معتزلة الكوفة كان أيضا يقول بنظريتى المعارف والطباع . وكان الجاحظ نفسه يجل ثمامة ابن الأشرس هذا إجلاله لأستاذه النظام ويذكره بخير فى كتبه ورسائله .

( والخلاصة ) حتى الآن أن اعتزال الجاحظ يظهر فى شيئين . يظهر أولا فى شرحه آراء القدماء من رجال المعتزلة والدعوة الحارة إلى الأخذ بهذه الآراء .

ومن هذه الناحية نستطيع أن نطمئن إلى أن الجاحظ كان بمفرده جريدة مذهبية كبرى نهضت بتسجيل آراء المعتزلة ، كما نهضت بالإكبار من شأن عظمائهم عامة وعظمة النظام منهم خاصة . وفي هذا يقول الجاحظ « في كل ألف سنة رجل لا نظير له إن كان هذا صحيحا فهو النظام » .

والشيء الثاني الذي ظهر فيه اعتزال الجاحظ هو هذه الآراء التي عرف بها وكانت نتيجة لازمة لتفكيره في المسألة الهامة التي شغلت فلاسفة الأديان في كل زمان ومكان — وهي مسألة حرية الإرادة .

ومن هذه الناحية الأخيرة يمكننا القول بأن هذه الحرية الفكرية الواسعة التي عرف بها الجاحظ كانت تبشر بظهور أفكار كثيرة يضيف بها الرجل شيئا جديدا إلى الإعتزال ، أو يكون بها الرجل نفسه على رأس فرقة أخرى من فرق الذين قد لا تقل شأنا عن فرقة المعتزلة .

ولكن يظهر أن الجاحظ — لحسن حظه أو لسوء هذا الحظ — أراد أن يكون معتزليا وكفى . نعم أراد أن يكون معتزليا وكفى . وكان يدرك إدراكا واضحا أن الدولة لم تكن تشجع الحرية كما ينبغي ، وإن هذه الحرية لم تكن مطلقة لغير القائلين بالإعتزال . وإذا كان الإنتاج الفكرى وليد الحرية . فان هذا الإنتاج الفكرى كان متوقعا من هؤلاء المعتزلة قبل غيرهم من الناس . وبالفعل كان الجاحظ كاتباً حراً منتجا بمعنى أنه كان يقول دائما ما يرضي الحكومة العباسية وما يرضي كذلك خاصة الشعب ممن يسايرون الحكومة العباسية .

وعلى ذلك فأنا أميل إلى أن الجاحظ — كما قلت — لم يضف شيئا لأراء المعتزلة ، وأنه إذا كان رجل قد أضاف اليها هذا الشيء الكثير الجديد فليس هذا الرجل هو الجاحظ أولا وإنما هو أستاذه النظام .

( وبعد ) فمن الجائز أن يكون هو هذا المعنى الذى قصد اليه الأستاذ (كارادى فو) حين قال : « ولا أظن أنه من الممكن أن نستخرج من مؤلفات الجاحظ فلسفة أو مذهبا من مذاهب الفلسفة . لكننا نجد لديه روحا فلسفية . وذوقا أو إنجذابا قويا نحو الحياة الفكرية » .

عبد اللطيف حمزة

# وثيقـــــة بيـــــع

## دراسة ونشر وتحقيق

للدكتور عبد اللطيف ابراهيم

مدرس الوثائق بكلية الآداب ـ جامعة القاهرة

---

**مقدمة :**

موضوع هذا البحث يدور حول وثيقة جديدة من المجموعة الضخمة ، من وثائق العصور الوسطى والعصر العثمانى ، المحفوظة بأرشيف محكمة الأحوال الشخصية بالقاهرة [1] ( المحكمة الشرعية سابقاً ) . وهى وثيقة أصلية [2] لم يسبق دراستها أو نشرها أو تحقيقها ، بل هى أول وثيقة تنشر من هذه المجموعة القيمة من الوثائق العربية .

رقم الوثيقة : ١٦٨ محفظة ٢٥

نوع الوثيقة : خاصة .

موضوع التصرف : بيع عقار ـ أراضى بناحية إدموه بالاشمونين .

---

(١) J. Deny : Sommaire des Archives Turques du Caire, p. 217.

(٢) اتضح لنا بالدراسة الپاليوجرافية الدقيقة لخط الشهود ـ الى جانب الدراسة الدبلوماتية ـ ان الوثيقة اصل وليست صورة . انظر خط شاهدى التصرف فى الوجه سطر ٣٦ ـ ٤٧ لوحة رقم ٤ ، خط الشهود على الأسجال الحكمى فى الظهر سطر ٢٤ ـ ٢٧ لوحة رقم ٧ ، وقد وقع كل منهم عقب شهادته بخط يده .

المتصرف : (أ) المشترى السلطان قايتباى موكل، الأمير قجماس الاسحاقى وكيل.
(ب) البائع الصفوى جوهر بن عبد الله من جانى بك.

تاريخ الوثيقة : ٢٥ شوال سنة ٨٧٤ هـ.

أبعاد الوثيقة : ٢٥٧,٥ × ٣٢,٨ سم.

## أولا ــ الدراسة

### ١ ــ فى الشكل :

الوثيقة مكتوبة على ورق نباتى سميك نوعاً، يضرب لونه إلى الاصفرار، والراجح أنه من صناعة مصر فى ذلك الوقت، ورغم أن عمر الوثيقة يزيد على خمسمائة عام، إلا أن التلف قد أصابها فى مواضع قليلة، كما أن بها آثار رطوبة فى مناطق مختلفة، وخاصة فى الدرج الأول والثانى [1] : والوثيقة على وجه العموم كاملة وفى حالة جيدة، تبعاً لطريقة حفظها فى علبة من الصفيح، ولهذا أفلتت من عدوان الدهر وأثر الزمن، الذى لاتته جل الوثائق المحفوظة فى هذا الأرشيف التاريخى الكبير.

والدرج الأول به عدة ثقوب وخروق، وبعض حروف الكلمات الواردة فى السطر الأول بالذات متآكلة مثل لفظ « بسم » و « ليسجل » فى وجه الوثيقة [2]، وعلامة القاضى الموثق « الحمد لله على جزيل نعمايه » فى الظهر [3]، وكذلك كتبت كلمة « باطنة » على كشط [4] فى ظهر الوثيقة.

والوثيقة مكتوبة من الوجه والظهر، مطوية على هيئة ملف ( roll ) من أسفل إلى أعلى، وقد كتب فى الوجه عقد البيع بتاريخ ٢٥ شوال سنة ٨٧٤ هـ، وفى الظهر الاشهاد أو الاسجال على صحة التصرف والحكم بلزومه على يد القاضى الموثق بتاريخ ٢٢ ذى القعدة سنة ٨٧٤ هـ.

• • •

(١) وجه الوثيقة سطر ٥ : ٨، ١٢ لوحة رقم ١، ٢
(٢) وجه الوثيقة سطر ١ : ٢ ــ لوحة رقم ١ شكل ٤
(٣) سطر ١ ــ لوحة رقم ٥ شكل ١٩
(٤) سطر رقم ١٦، ٢٢ ــ لوحة رقم ٦، ٧

أما طريقة إخراج الوثيقة فهى لا تختلف عما كان متبعاً فى وثائق العصر المماليكى عامة ، من حيث ترك قدر من البياض فى أول الوثيقة قبل البسملة ، وذلك بحسب ما يقتضيه الحال ، وهى عادة سار عليها كتاب الوثائق فى ذلك العصر وقبله ، طبقاً لتقاليد وقواعد مرعية ، استقر عليها الوضع وصارت عرفاً أو قانوناً فى نظر الكتاب جميعهم — كبارهم وصغارهم ، الرسميين منهم وغير الرسميين — لا يتحولون عنه [1] . وكذلك ترك الكاتب ربعاً من عرض الدرج بياضاً دون كتابة كهامش أيمن تبعاً لما درج عليه الكتاب المعتبرين ، وهو اعتبار حسن لا يكاد يخرج عن القانون .

ووردت على الهامش الأيمن ثلاثة نصوص أو اشهادات مختلفة تثبت ما يلى :

١ — وقف المتصرف فيه أو المبيع وهو جميع النصف من ناحية إدموه على جامع السلطان قايتباى بالصحراء وعلى أرباب الوظائف وغير ذلك من جهات بروقربات بتاريخ ٢٨ جمادى الآخر سنة ٨٧٩ هـ [2] ، ويبلغ طول هذا النص ٣ر٢٠ سم .

٢ — جريان المتصرف فيه فى ملك البائع العفوى جوهر وحيازته وتصرفه حال صدور البيع [3] ، ويبلغ طول هذا النص ٨ر٢٤ سم .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٢ ص ١٢١ — ١٢٨ ، ج ٦ ص ١٩٥ — ١٩٦ ، ج ٩ ص ٢٣٣ — ٢٣٥

عبد اللطيف ابراهيم : وثيقة الأمير آخور كبير قراقجا الحسنى ( مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة — م ١٨ ج ٢ ) ص ١٨٩ حاشية ٢ ، ١٩٠ حاشية ١

(٢) لم نعثر على وثيقة الوقف الأصلية ؛ ولكنى وجدت صورتين صحيحتين لها — الأولى ملف أو لفافة من دروج الرق الأوصال المخيطة رقم ٨٨٨ بأرشيف الأوقاف : والثانية كتاب مجلد رقم ٨٨٦ بنفس الأرشيف تاريخها ٢٤ ، ٢٨ جمادى الآخر سنة ٨٧٩ هـ . وقد ورد فى كل منهما وصف لعمائر السلطان قايتباى بالصحراء . وهى الجامع والقبة والسبيل والمكتب وغيرها . كما ورد فيها ذكر الحصة المتصرف فيها بالبيع — وهى بأراضى ناحية ادموه — من بين العقارات الموقوفة ثم مرتبات ارباب الوظائف وغير ذلك ؛ واخيرا نجد توقيع كل من الشاهدين محمد بن محمد بن الركن الأسيوطى وابو بكر بن احمد الزعيفرينى اللذين وقعا على هذا النص الهامشى . انظر نص الوثيقة حاشية أ ؛ لوحة رقم ١

وجه وثيقة قايتباى اوقاف ٨٨٨ ، رقم ٨٨٦ ص ١٢ — ٢٦ ، ١٢٢ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ٢٤٥

Mayer : The buildings of Qaytbay as described in his endowment deed, pp.6—16, 64, 87.

(٣) انظر نص وجه الوثيقة حاشية ب لوحة رقم ٢

٣ — أهلية المتعاقدين — الصفوى جوهر البائع والسيفى قجاس وكيل المشترى — ورضاهما التام فى حال صحة كل منهما وسلامته ، على ما تضمنه عقد البيع [١] ، ويبلغ طول هذا النص ٢ر٢١ سم .

* * *

وعدد دروج الوثيقة ستة [٢] ، ويبلغ طولها كلها ٥ر٢٥٧ سم ، ويتراوح طول الدرج الواحد بين ٢ر٤٢ — ٣ر٤٣ سم ، وعرضه بين ٦ر٣٢ — ٩ر٣٢ سم ، وعدد السطور الواردة فى الوجه تسعة وأربعون سطراً ، وفى الظهر سبعة وثلاثون سطراً . أما المسافة بين السطور فى الوجه فهى تتفاوت بين ٧ر٣ — ٥ سم .

وتبدأ الكتابة فى وجه الملف وظهره عند نقطة واحدة ، وعلى بعد مساو من بداية الدرج الأول تقريباً ، وإذا كانت الكتابة على الوجه تغطى جل مساحة الدروج ، فإننا نجد حوالى الثلث الأخير من الظهر — بعد توقيعات الشهود على الاسجال الحكمى — خال من الكتابة تماماً .

أما الحبر الذى كتبت به الوثيقة فلونه أسود داكن به قدر من أكسيد الحديد ، والوثيقة مكتوبة بخط اصطلح على تسميته بالديوانى — فيما عدا الألفاظ والعبارات التالية وهى : « ليسجل » فى أول وجه الوثيقة ، التصديق على شهادة شاهدى التصرف أسفل توقيع كل منهما ، ثم الحمدلة والتاريخ والحسبلة فى ظهر الوثيقة ، فهذه كتبت بقلم جليل بخط القاضى الموثق نفسه — وهو ينتمى فى أصله إلى خط التوقيع المطاق [٣] ، إذ يتصف بالاستدارة وفيه ميل إلى التقوير ، كما أن فى سطوره تقوير على نسبة تقوير حروفه [٤] .

ومهما يكن من أمر ، فالخط مكتوب بدقة وعناية ، بيد كاتب ماهر متعلم ، وأغلب الكلمات واضحة مقروءة . ومن دراسة خط الوثيقة ظاهراً وباطناً ، وخاصة طريقة الكاتب فى معالجة الألفاظ واتجاه الحروف وأشكالها ، يتضح لنا أن الكاتب شخص واحد [٥] ،

(١) انظر نص وجه الوثيقة حاشية ج لوحة رقم ٢

(٢) انظر الجدول ص ١٤١ حيث تجد بيانا مفصلا لكل درج .

(٣) عبد اللطيف ابراهيم : وثيقة الأمير آخور كبير قراقجا الحسنى ص ١٩٠ — ١٩١ وما بها من حواشى .

(٤) انظر اللوحات رقم ٢ ، ٣ ، ٥ ، ٦

(٥) انظر الخط الذى كتبت به البسملة والحمدلة والتصلية فى كل من وجه وظهر الوثيقة سطر ١ ، وكذلك ألقاب السلطان قايتباى الواردة فى الوجه سطر ٢—٧ وتلك الواردة فى الظهر سطر ٢ — ٤ لوحة رقم ١ ، ٥

وإذا كان ذلك كذلك فمن المحتمل أن يكون كاتب الوثيقة [1] هو الشاهد العدل الكاتب المجيد الموقع الشيخ محمد بن محمد بن الركن الأسيوطى ، وذلك بمقارنة الخط الذى كتبت به ألقاب القاضى الموثق والواردة فى متن الاشهاد بتلك التى جاءت فى صيغة شهادة الشيخ الأسيوطى والتى كتبها بخط يده فى ظهر الوثيقة [2] .

* * *

وقد جرى كاتب الوثيقة على ما كان شائعاً فى ذلك العصر ، من كتابة نص الوثيقة تباعاً ، بحيث لا نجد بين سطورها نقطاً أو فواصل بين كل عبارة وأخرى ، أو بين كل موضوع والذى يليه . فالوثيقة تبدأ وتنتهى من غير أن نعرف لها تبويباً أو وقفاً ، وهذه هى طبيعة الكتابة فى ذلك العصر وعلى أنماطها سار كاتب الوثيقة .

وقد أهمل الكاتب الهمزات إهمالا تاماً ، إذ اغفلها فى آخر الكلمات مثل الارا (وجه سطر ٨ ، ظهر سطر ٦ ) ، الأمرا (وجه سطر ١٠ ) ، الأنبيا (وجه سطر ١٩ ) ، اشترا (وجه سطر ٢٤ ) ، ابدا (وجه سطر ٣٤ ) ، العلما والفضلا (ظهر سطر ١٠ ، ١١ ) ، القضا (ظهر سطر ١٢ ) ، الادا (ظهر سطر ١٦ ) — كما أبدل الهمزة اللينة فى أواسط الكلمات ياء مثل شايعا (وجه سطر ١٦ ) ، ساير (وجه سطر ١٩ ) ، البايع (وجه سطر ٢٢ شكل ٨ ، سطر ٢٨ ، ٣١ ، ٤٣ ، ٤٤ ) ، قضايه (ظهر سطر ١٢ ) ، مسيولا وشرايطه (ظهر سطر ٢٢ شكل ٢٩ ) .

ومن الناحية الباليوجرافية توجد كثير من الملاحظات التى تسترعى الانتباه ، كما أن قواعد الكتابة غير مستقرة دائماً ، فقد دأب الكاتب على إيجاز بعض الألفاظ عند كتابتها أو إغفال بعض الحروف أحياناً تبعاً لطريقته وسرعته فى الكتابة مثل المذكور (وجه سطر ٢٢ شكل ٨ ، سطر ٢٨ ) ، دينار (وجه سطر ٢٦ شكل ١١ ) ، البايع (وجه سطر ٢٢ شكل ٨ ، سطر ٢٦ ، ٢٩ ، ٣١ ) ، ووقع (وجه سطر ٣٤ شكل ١٢ ) ،

---

(١) يظهر أن المحرر والكاتب شخص واحد ، فقد كان الشيخ الاسيوطى من الخبراء فى الشروط ، العارفين بأمور صناعة التوقيع والكتابة ؛ فهو الذى حرر الوثيقة كلها فى صيغتها القانونية الشرعية — عقد البيع فى الوجه والاسجال فى الظهر — كما قام بكتابتها بنفسه ؛ باعتبارها وثيقة خاصة للسلطان قايتباى . أنظر ترجمته فى التحقيقات العلمية — تحقيق رقم ٤٩

(٢) انظر ظهر الوثيقة سطر ٩ — ١٠ لوحة رقم ٥ ، سطر ٢٤ — ٢٥ لوحة رقم ٧

تعالى (ظهر سطر ٢٣ شكل ٢١) ، معرفتهما ، فيهما ، رفعته (ظهر سطر ١٨ ، ٢٠ ، ٢٣ على التوالى) ، وأحياناً أخرى يصل الحرف المفرد باللاحق به أو السابق عليه فى نفس الكلمة الواحدة مثل ان مولانا (سطر ٢ شكل ٣) ، أعز الله (وجه سطر ١ : شكل ٥) ، اشترى (وجه سطر ١٢) ، أعلاه (وجه سطر ٢٧ ، ٤٤ شكل ١٤) ، اشهاده وأعوانه (سطر ٧ شكل ٢١ ، ٢٢ على التوالى) ، شوال (ظهر سطر ٩ شكل ٢٢) ، الكريمة (ظهر سطر ١٣ شكل ٢٤) ، ذى القعدة[1] (ظهر سطر ١٤ شكل ٢٧) شهادته (ظهر سطر ١٩ شكل ٢٦) ، اسجاله (ظهر سطر ٢٦ شكل ٢٣) — كما نجده يصل بعض الألفاظ ببعضها مثل الحمد لله وصلى الله (وجه سطر ١ شكل ٢) ، توكيلا شرعياً (وجه سطر ١٢ شكل ٦) ، وينسب اليه (وجه سطر ٢٠ شكل ٧) ، المشار اليه (وجه سطر ٢٤ شكل ١٠) ، نعم الوكيل (وجه سطر ٢٥ شكل ١٣) ، معتد به (ظهر سطر ٢٣ شكل ٣٠) — وقد جاءت بعض الألفاظ منفصلة مثل خمس مايه (وجه سطر ٢٥) ، ثمان ميه (وجه سطر ٣٥ ، ظهر سطر ٩ ، ١٥) أو متصلة مثل سبعماية (وجه سطر ٢٦).

وكذلك أهمل الكاتب الشكل إهمالا تاماً ، فيما عدا لفظ إدْمُوه (وجه سطر ١٧) ، أما النقط فإذا كنا نجده أحياناً ، فإن كثير من الكلمات والألفاظ وردت دون نقط ، بل إن سطوراً بأكملها جاءت خالية منه تماماً[2] ، أو قد نجده أحياناً موضوعاً فى غير مكانه .

***

هذا وقد حرصت على نشر المتن وإخراجه فى صورة صحيحة مستقيمة ، دون الاخلال بأصله وشكله ، وكل سطر جعلته سطراً تماماً عند النشر ، وتركت نص الوثيقة — عقد البيع فى الوجه والإسجال الحكمى فى الظهر ، وأبقيت على كل منهما دون تعديل أو تغيير ، وذلك ليتعرف القارىء الأساليب والصيغ القانونية الخاصة بالبيع ، والاشهاد عليه فى هذه الوثيقة المملوكية الجركسية .

---

(١) هذه كتبها القاضى الموثق نفسه بخط يده .

(٢) انظر وجه الوثيقة سطر ١ ، ٤ ، ٥ ؛ ١ ، ٢٠ — ٢٢ ، ٢٤ ، ٢٦ ، ٢٧ ؛ ٢٩ ، ٣١ ، ٣٣ ، ٣٤ لوحة رقم ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ — ظهر الوثيقة سطر ١ ، ٢ ؛ ٨ ؛ ١٠ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٥ ، ١٧ — ٢٣ لوحة رقم ٥ ، ٦ ، ٧

## جدول لبيان طول كل درج من دروج الوثيقة

وعرضه بالسنتيمتر وعدد سطوره

| رقم الدرج | طول الدرج | متوسط عرض الدرج | عرض الهامش الأيمن | عدد السطور الوجه |
|---|---|---|---|---|
| ١ | ٤٢ر٨* | ٣٢ر٧ | ١٠ر٦ | ٣ |
| ٢ | ٤٣ر١ | ٣٢ر٦ | ١٠ر٢ — ١٠ر٥ | ٩ |
| ٣ | ٤٣ر٣ | ٣٣ر٩ | ١٠ر٨ | ٩ |
| ٤ | ٤٣ | ٣٢ر٨ | ١١ | ٨ |
| ٥ | ٤٣ | ٣٢ر٨ | ١١ر٢ — ١١ر٧ | ١١ |
| ٦ | ٤٣ر٣+ | ٣٢ر٦ | ١١ر٧ — ١٢ر٤ | ٩ |

* تشغل الكتابة مسافة قدرها ١٢ر٦ سم فقط من نهاية هذا الدرج ، أما أوله فبياض لا كتابة فيه لمسافة ٣٠ر٢ سم فيما عدا تأشيرة على الهامش الأيمن ، وعلى بعد ٢ر٧ سم من السطر الأول نصها : « الشيخ صدر الدين أعزه الله تعالى » . ولعلها بخط قاضي القضاة محب الدين بن الشحنة الحنفي الى احد نواب مذهبه فى ذلك الوقت ، وهو الفاعل الوثيقى القاضى الشيخ صدر الدين ابو الخير محمد بن ابى عبد الله محمد بن الرومى الحنفى خليفة الحكم العزيز بالديار المصرية ؛ ليقوم بالاشهاد على التصرف القانونى ( البيع ) — اى بتوثيقه والحكم بصحته .

انظر ألقاب القاضي الموثق بنص الوثيقة — الظهر سطر ٩ — ١١ ؛ وكذلك انظر عبد اللطيف ابراهيم : وثيقة السلطان قايتباى — اوقاف رقم ٨٨٧ — كتاب المؤتمر الثالث للآثار فى البلاد العربية ص ٤٣٤

+ تحتل الكتابة مسافة طولها ٢٤ر٥ سم فقط من بداية هذا الدرج ، أما بقيته — وحتى نهاية الوثيقة — فخال من الكتابة تماما ، ويبلغ طوله ١٧ر٨ سم .

٢ ــ فى الموضــوع :

( ا ) وجه الوثيقة ــ عقد البيع والشهادة عليه :

١ ــ الافتتاحية : البسملة والحمدلة والتصلية [١] .

٢ ــ نوع التصرف : بيع ــ ونصه « هذا مكتوب تبايع صحيح شرعى لازم محرر معتبر مرعى . . . . . » وعلى الهامش الأيمن لفظ « ليسجل » [٢] بخط القاضى الموثق .

٣ ــ الفاعل القانونى : المشترى السلطان الملك الأشرف أبو النصر قايتباى المحمودى ووكيله الأمير قجماس الاسحاقى ، والبائع الصفوى جوهر بن عبد الله من جانى بك الجمدار ــ وقد عُرف كل منهم بذكر وظيفته وألقابه المختلفة ثم الدعاء له [٣] .

٤ ــ المتصرف فيه : جميع النصف من جميع أراضى ناحية إدموه بالأشمونين بالوجه القبلى من أقاليم الديار المصرية ، خلا ما بأراضى الناحية المذكورة من الرزق الجيشية والاحباسية ، وطرق المسلمين ومقابرهم وسبلهم ومساجدهم .

وتذكر الوثيقة الحدود الأربعة لناحية ادموه بدقة تامة ، وأن الأرض المتصرف فيها بالبيع جارية بيد البائع وملكه وتصرفه بدلالة مكتوب أو مستند شرعى موثق [٤] .

٥ ــ الثمن : ألف وخمسمائة دينار من الذهب الظاهرى والأشرفى الطيب السالم من العيب الشرعى معاملة الديار المصرية آنذاك ، وهذا الثمن النقدى حال الدفع أو الأداء غير مؤجل [٥]

٦ ــ اقرار البائع : اعترف البائع بقبض الثمن بتمامه وكماله من مال المشترى على يد وكيله ، وأنه لم يتأخر له قبلهما من الثمن المذكور شىء قل ولا جل .

---

(١) سطر ١ لوحة رقم ١ تحقيق رقم ١
(٢) سطر ٢ لوحة رقم ١ تحقيق رقم ٢
(٣) سطر ٢ ــ ١٥ لوحة رقم ١ ، ٢ تحقيق رقم ١٠ ، ١٥ ، ٢٢
(٤) سطر ١٦ ــ ٢٢ لوحة رقم ٢ ، ٣ تحقيق رقم ٢٤
(٥) سطر ٢٥ ــ ٢٦ لوحة رقم ٣ تحقيق رقم ٢٧ ، ٢٨

وقد عاد البائع مرة أخرى وأقر صراحة أنه لا يستحق قبل المشترى ووكيله ، أى حق من الحقوق على الاطلاق لما مضى من الزمان وإلى تاريخه[1] .

٧ — التخلية والتسليم والتسلم : خلى البائع بين المشترى وما منه المبيع ، ليتسلم ذلك التسلم الشرعى بعد النظر أو الرؤية والمعرفة والتقليب الكافى ، وذلك كله بعد أن انعقد البيع صحيحاً بالإيجاب والقبول الشرعيين[2] .

٨ — تاريخ التصرف : ٢٥ شوال سنة ٨٧٤ هـ[3] .

٩ — الدعاء الختامى : الحسبلة[4] .

١٠ — صيغ الشهادة : وردت شهادة كل من الشاهدين بخطه بالصيغة الثانية ، متطابقة لفظاً ومعنى[5] .

١١ — توقيع الشاهدين : محمد بن محمد بن الركن الأسيوطى ويحيى بن عمر بن احمد السفطى ، وكتب كل منهما توقيعه بخط يده دون ذكر للمذهب الذى ينتمى اليه[6] .

١٢ — تصديق القاضى الموثق : وردت تأشيرة الموثق أسفل كل توقيع فى سطرين ، وهى علامة على أداء الشاهد لشاهدته وقبولها شرعاً[7] .

---

(١) سطر ٢٧ — ٢٨ ، ٢١ — ٣٢ لوحة رقم ٢ تحقيق رقم ٣٩

(٢) سطر ٢٩ — ٣٠ لوحة رقم ٣ تحقيق رقم ٤٣

(٣) سطر ٢٤ — ٣٥ لوحة رقم ٤ تحقيق رقم ٤٥

(٤) سطر ٢٥ لوحة رقم ٤ تحقيق رقم ٤٦

(٥) سطر ٢٦ — ٤٦ لوحة رقم ٤ تحقيق رقم ٤٧

(٦) سطر ٤٥ ، ٤٧ لوحة رقم ٤ تحقيق رقم ٤٩ ، ٥٠

(٧) سطر ٤٦ — ٤٧ ، ٤٨ — ٤٩ لوحة رقم ٤ تحقيق رقم ٥١ ، ٥٢

(ب) ظهر الوثيقة – الاسجال الحكمى والشهادة عليه (١) :

١ – الافتتاحية : البسملة والحمدلة والتصلية [٢] .

٢ – علامة القاضى الموثق : الحمد لله على جزيل نعمايه [٣] .

٣ – الفاعل الوثيقى : القاضى الشيخ أبو الخير محمد بن أبى عبد الله محمد بن الرومى الحنفى خليفة الحكم العزيز بالديار المصرية [٤] .

٤ – نص الاشهاد : وفيه اشهد القاضى الموثق على نفسه من حضر مجلس حكمه وقضائه بتاريخ ٢٢ ذى القعدة سنة ٨٧٤ ﻫ على ما يأتى :

أولا : أنه ثبت عنده ثبوتاً صحيحاً شرعياً تاماً معتبراً مرضياً ، بشهادة العدول من الموقعين وكتاب الحكم وغيرهم من الشهود المقبولة شهادتهم شرعاً على ما يأتى :

---

(١) الأسجال او الاشهاد على عقد البيع عمل من أعمال التوثيق فيه معنى الشهر والعلانية فى مجلس الحكم – انظر ظهر الوثيقة سطر ١٢ – وتتضح لنا أهمية التوثيق فى العصر المملوكى من تهافت الناس – كبيرهم وصغيرهم – على اثبات تصرفاتهم المختلفة ، وحرصهم على توثيقها بالاشهاد عليها امام القضاة . وهذا يجعل من عقد البيع محررا رسميا موثقا له قوة تنفيذية ، وتصبح الوثيقة سندا شرعيا مقبولا فى كل ظرف وحال ، وهكذا يكون الغرض من الاشهاد تأييد واجازة العقد حتى لا يكون هناك مجال الى فسخه .

ويظهر أن القاضى الموثق ، قد قرا عقد البيع وبحثه بحثا وافيا من جميع النواحى فى مجلس حكمه ، وتأكد من ان صياغة الوثيقة تؤدى المعانى التى يريدها طرفى العقد ( كل من المشترى ووكيله والبائع ) من غير لبس او غموض ، وأنها جائزة شرعا ، ولذلك حكم بصحة العقد ولزومه حكما صحيحا شرعيا ، ثم امر بتسجيله ليكون مشهرا وحجة على المتعاقدين والغير ، وكتب بخطه على الهامش الأيمن فىبداية وجه الوثيقة « ليسجل » ، ثم اشهد على نفسه بذلك من حضر مجلس حكمه وقضائه فى ٢٢ ذى القعدة سنة ٨٧٤ ﻫ . هذا وقد روعى فى صياغة الاشهاد او الأسجال الشروط التى نص عليها الفقهاء ؛ فجاءت كاملة من الناحية الفقهية مستوفاة لشروط الصحة الشرعية .

عبد اللطيف ابراهيم : التوثيقات الشرعية والاشهادات ( مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة – م ١٩ ج ١ ) ص ٣٠٠ – ٣٠٥ ؛ ٢١٤ – ٢٢٠ وما بها من مصادر .

(٢) ، (٣) سطر ١ لوحة رقم ٥ تحقيق رقم ١ ، ٥٤ على التوالى .

(٤) سطر ٩ – ١١ لوحة رقم ٥ ؛ ٦ تحقيق رقم ٥٨

(أ) اشهاد المشترى السلطان قايتباى على نفسه بجميع ما نسب اليه فى عقد البيع ، المدون فى وجه الوثيقة ، والمؤرخ فى ٢٥ شوال سنة ٨٧٤ ﻫ ، بشهادة شاهدى التصرف محمد بن محمد بن الركن الأسيوطى ويحيى بن عمر بن احمد السفطى[١] .

(ب) اشهاد كل من السيفى قجماس وكيل المشترى ، الصفوى جوهر البائع على نفسه بجميع ما نسب اليه فى عقد البيع المذكور ، ومعرفتهما المعرفة الشرعية ، بشهادة الشاهدين السابق ذكرهما[٢] .

(ج) مضمون فصلى الملك والحيازة ، والاعذار المسطرين بهامش وجه الوثيقة بشهادة الشهود العدول آخر الفصلين المذكورين[٣] .

ثانياً : أنه حكم بموجب ذلك — أى بما ثبت عنده — بصحة عقد البيع ولزومه ، حكماً صحيحاً شرعياً تاماً معتبراً مرضياً مسئولا فى ذلك مستوفياً شرائطه الشرعية[٤] .

٥ — الدعاء الختامى : الحسبلة[٥] .

٦ — صيغ الشهادة : جميعها متفقة فى المعنى وبعضها متطابقة لفظاً ومعنى، وتبدأ صيغة الشهادة الأولى بلفظ « اشهدنى » أما باقى الصيغ فتبدأ بلفظ « وبذلك اشهدنى » . وصيغة شهادة الشاهد الثانى والثالث متفقة ومتطابقة فى اللفظ والمعنى ، وكذلك صيغة شهادة كل من الشاهد الرابع والخامس والسادس[٦] .

٧ — عدد الشهود ومذاهبهم[٧] : ستة شهود — وهم محمد بن محمد بن الركن الأسيوطى ، يحيى بن عمر بن احمد السفطى ( وهما شاهدى التحرير والتصرف ) ومحمد ابن محمد بن محمد بن الحسن الجعفرى ، عبد القادر بن محمد الحنفى ، عبد القادر بن محمد

---

(١) سطر ٧ — ٩ لوحة رقم ٥ ، ٦ . وجه الوثيقة سطر ٣٦ — ٤٠
(٢) سطر ١٦ — ١٨ لوحة رقم ٦ . وجه الوثيقة سطر ٤١ — ٤٤ ، ٤٠ — ٤٦
(٣) سطر ١٨ — ٢٠ لوحة رقم ٦ تحقيق رقم ٣٤ ، ٤٠
(٤) سطر ٢٠ — ٢٢ لوحة رقم ٦ تحقيق رقم ٦٥ ، ٦٨
(٥) سطر ٢٤ لوحة رقم ٧ تحقيق رقم ٤٦
(٦) سطر ٢٤ — ٢٧ لوحة ٧ تحقيق رقم ٧٣
(٧) بحثنا التوثيقات الشرعية والاشهادات ص ٣١٠ — ٣١٣ وما بها من مراجع .

الرومى ، محمد بن محمد بن محمد الرومى — وقع كل منهم بخط يده ، والشاهد الاخير هو ابن القاضى الموثق [1] . ولم يذكر أحد منهم المذهب الذى ينتمى اليه غير الشاهد الرابع وهو حنفى ، أما كل من الاول والثالث فهو شافعى والثانى مالكى المذهب [2] .

٨ — التسجيل : أمر القاضى الموثق بتسجيل عقد البيع بعد الحكم بصحته وتوثيقه على يديه ، ليكون حجة على المتعاقدين وغيرهم ، وكتب بخط يديه لفظ « ليسجل » بصيغة الأمر على الهامش الأيمن فى بداية وجه الوثيقة [3] .

---

(١) سطر ٢٧ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٣٣ ، ٣٥ ، ٣٧ لوحة رقم ٧ شكل ٣٤ تحقيق رقم ٧٨

(٢) انظر التحقيقات رقم ٤٩ ، ٥٠ ، ٧٦

(٣) سطر ٢ لوحة ١ تحقيق رقم ٢

## ثانيـــا : النص

### ( ا ) وجه الوثيقة :

الشيخ صفي الدين اعزه الله تعالى

(٨) [illegible]

١ — [بسـ]ـم الله الرحمن الرحيم الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد واله وصحبه وسلم [1]

٢ — هذا مكتوب تبايع صحيح شرعى لازم محرر معتبر مرعى مضمونه ان مولانا [2] المقام الشريف

٣ — الامام الاعظم المجاهد [4] المظفر [5] السلطان [6] المالك الملك الأشرف سلطان الاسلام

ا ٤ — والمسلمين قاتل الكفرة والمشركين محى العدل فى العالمين منصف المظلومين من الظالمين

---

( ا ) يوجد عن الهامش الأيمن فيما بين السطر ٤ ــ ٩ النص التالى ، وقد كتب فى تاريخ متأخر عن تاريخ الوثيقة نفسها بحوالى خمس سنوات : لوحة رقم ١

الحمد لله وحده ــ وقف مولانا المقام الشريف السلطان المالك الملك ــ الاشرف ...و النصر قايتباى المنوه باسمه الشريف ــ قرينه نصره الله تعالى جميع الحصـ... ارانى ناحية ادموه ــ المحدود ذلك قرينه وما هو من حقوق ذلك على مصالح ــ جامعه المعروف بانشايه الكاين بالصحرا ومصالح ــ سبله وارباب الوظايف بذ... وعلى جهات ــ بر وقربات عينها فى وقفه حسبما يشهد بذلك مفصلا ــ وقفا ونظرا...

٥ — قاهر الخوارج والملحدين مبيد الطغاة والمارقين حامى حوزة الدين جامع كلمة الايمان قامع عبدة

٦ — الصلبان (٧) وارث + الملك (٨) سلطان ملوك العرب والعجم والترك (٩) ملك البرين والبحرين

٧ — خادم الحرمين الشريفين ظل الله الوارف ورحمته السابغة للبادى والعاكف وناصر دينه الذى قطعت

٨ — الارا بتفضيله ولا مخالف هو ابو النصر قايتباى (١٠) شيد الله تعالى ملكه وسلطانه ونصر جيوشه

٩ — واعوانه وجدد له فى كل يوم نصرا وملكه بساط الارض برا وبحرا وكبت عدوه غما وقهرا وكل (١١)

١٠ — الجناب (١٢) العالى الاميرى (١٣) الكبيرى السيفى (١٤) قجماس الاسحاقى (١٥) احد السادة الامرا بالديار المصرية الملكى الاشرفى (١٦)

١١ — اعز الله نصرته فى ابتياع ما يذكر فيه بما يراه من الثمن قليله وكثيره وفى التسلم والتسليم والمكاتبة والاشهاد على الوجه الشرعى وتعاطى ما يشرح فيه

---

= واستحقاقا وشروطا كتاب — وقفه الشرعى (١٧) الجامع لذلك واخره الموافق لتاريخه بشهادة — شهوده فى تاريخين اخرهما الثامن والعشرين من جمادى — الاخرة سنة تسع وسبعين وثمانماية وحسبنا الله ونعم الوكيل .

شهد فى اصله بذلك | شهد فى اصله بذلك

محمد بن محمد بن ( الركن ) الاسيوطى (١٨) | ابو بكر بن احمد الزعيفرينى (١٩)

+ كذا فى الأصل — لوحة رقم ١

١٢ — توكيلا شرعياً بشهادة شهوده و بقضيه ذلك وحكمه اشترى[٢٠] ×

ب ١٣ — لمولانا المقام الشريف السلطان المالك الملك الاشرف ابى النصر قايتباى المنوه باسمه الشريف اعلاه

١٤ — شرفه الله تعالى وعظمه وكيله الشرعى فى ذلك بشهادة شهوده هو الجناب العالى الاميرى السيفى قجماس المشار اليه فيه

١٥ — من الجناب العالى الصفوى[٢١] جوهر بن عبد الله من جانى بك[٢٢] احد الجمدارية[٢٣] بالخدم الشريفة الملكى الاشرفى اعزه الله تعالى جميع[٢٤]

١٦ — الحصة التى مبلغها النصف اثنا عشر سهما من اصل اربعة وعشرين سهما شايعا[٢٥] ذلك من جميع اراضى ناحية[٢٦]

١٧ — إدمُوه[٢٧] بالاشمونين بالوجه القبلى من اقاليم الديار المصرية ولكامل ذلك حدود اربعة الحد القبلى ينتهى[٢٨] الى طوخ

١٨ — الجيل+[٢٩] والحد البحرى ينتهى الى غيط بنى سمرج[٣٠] والحد الشرقى ينتهى الى بحر السيد يوسف على نبينا وعليه

١٩ — افضل الصلاة والسلام وعلى ساير الانبيا والمرسلين والحد الغربى ينتهى الى الجبل الابيض بحد ذلك

٢٠ — كله وحقوقه[٣١] الداخلة فيه والخارجة عنه وما يعرف بذلك وينسب اليه خلا ما باراضى الناحية المذكورة فيه من الرزق الجيشية

---

× فى الأصل « لشترى » ـ لوحة رقم ٢

(ب) يوجد على الهامش الأيمن فيما بين السطر ١٣ — ١٨ النص التالى :

لوحة رقم ٢

الحمد لله وحده ـ يشهد من يوضع اسمه اخره بمعرفة الجناب الصفوى جوهر من جانى بك البايع المشار اليه اعلاه وجميع اراضى ناحية ادموه بالاشمونين المحدود ذلك الموصوف أعلاه ـ المعرفة الشرعية وبجريان ما شمله عقد التبايع المسطر اعلاه فى ملك الصفوى جوهر المشار اليه فيه وحيازته وتصرفه حال صدور التبايع المسطر اعلاه يعلم شهوده ذلك ويشهدون به مسيولين فى ذلك .

شهد بمضمونه — شهد بمضمونه

احمد بن احمد بن فضل عرف بالعويرى (؟) وكتب عنه باذنه — على بن كامل (؟) بن محمد المحمودى شهدا بذلك وقبلا وكتب عنه باذنه

+ فى الأصل « الجبل » انظر لوحة رقم ٢

( ج ) يوجد على الهامش الأيمن فيما بين السطر ٢١ — ٢٦ النص التالى :

لوحة رقم ٣

الحمد لله وحده ـ اشهد على كل من الجناب العالى الاميرى السيفى قجماس :-

٢١ — والاحباسية وطرق المسلمين ومقابرهم وسبلهم ومساجدهم[٣٢] المعلوم ذلك
جميعه اصلا ومستثنى العلم الشرعى النافى للجهالة[٣٣] ج

٢٢ — الجارى ذلك بيد البايع المذكور وملكه وتصرفه بدلالة مكتوبه الشرعى[٣٤]
الثابت مضمونه المحكوم بموجبه فى الشرع الشريف واصل له

٢٣ — رقا والاول ورق[٣٥] وخصم كل منهما بقضية هذا التبايع بفصل انتقال
موافق لتاريخه وشهوده وبقى ذلك بيد الوكيل

٢٤ — المشار اليه ليسلم ذلك لموكله مولانا المقام الشريف المنوه باسمه الشريف اعلاه
نصره الله تعالى اشترا صحيحا شرعيا[٣٦]

٢٥ — بثمن[٣٧] مبلغه من الذهب الظاهرى والاشرفى[٣٨] الطيب السالم من العيب
الشرعى معاملة الديار المصرية الان الف دينار واحدة وخمسماية دينار

٢٦ — نصف ذلك سبعماية دينار وخمسون دينارا حال جميع ذلك اعترف الصفوى
جوهر البايع المشار اليه انه وصل اليه واستوفى[٣٩]

٢٧ — من مال مولانا المقام الشريف على يد الجناب العالى السيفى تجماس المشار
اليه جميع الثمن المعين اعلاه بتمامه وكماله وانه لم يتاخر

٢٨ — للبايع قبل مولانا المقام الشريف المشترى له المشار اليه اعلاه نصره الله تعالى
ولا قبل السيفى تجماس من الثمن المذكور شى قل ولا جل

---

= والجناب العالى الصفوى جوهر المتبايعين المشار اليهما اعلاه اعزهما الله تعالى شهوده اشهادا شرعيا — فى صحته وسلامته (٤٠) انه لا دافع له ولا مطعن فيما تضمنه مكتوب التبايع المسطر باعاليه ولا فيمن شهد بذلك ولا فيما شهد به ولا فى شى من ذلك وحسبنا الله ونعم الوكيل .

| شهد عليهما بذلك | شهد عليهما بذلك |
|---|---|
| احمد بن محمد المو (؟) المنوفى | محمد بن محمد الكليباتى (؟) |

شهدا عندى بذلك

اعزهما الله تعالى

٢٩ — وخلى(٤١) البايع بين المشترى وما منه المبيع المذكور فيه ليتسلم ذلك التسلم الشرعى لموكله المنوه باسمه الشريف اعلاه شرفه الله تعالى وعظمه

٣٠ — وذلك بعد النظر والمعرفة والتقليب الكافى(٤٢) فى ذلك والمعاقدة الشرعية المشتملة على الايجاب والقبول الشرعيين (٤٣) واقر

٣١ — البايع انه لا يستحق قبل المشترى له مولانا المقام الشريف نصره الله تعالى ولا قبل الجناب السيفى قجماس المشار اليه فيه حق ولا استحقاق

٣٢ — ولا دعوى ولا طلباً ولا ذهباً ولا فضة ولا فلوسا ولا مقبوضا ولا رجوعا به ولا ثمنا ولا بقية منه ولا عيناً ولا دعوى به ولا حقا

٣٣ — من الحقوق على الاطلاق ولا مالا من الاموال على العموم ولا يمينا بالله تعالى ولا شيا قل ولا جل لما مضى من الزمان والى تاريخه (٤٤)

٣٤ — ووقع الاشهاد على ذلك وبالتوكيل فى ثبوته والدعوى به وطلب الحكم به وابدا الدافع وتقيه التوكيل الشرعى وتم فى الخامس والعشرين من

٣٥ — شوال المبارك سنة اربع وسبعين وثمان ميه(٤٥) وحسبنا الله ونعم الوكيل(٤٦)

٣٦ — اشهد(٤٧) على مولانا المقام الشريف اا — اشهد على مولانا المقام الشريف

٣٧ — الامام الأعظم المجاهد اا — الامام الاعظم المجاهد

٣٨ — المظفر السلطان الملك الاشرف اا — المظفر السلطان الملك الاشرف

٣٩ — ابى النصر قايتباى المنوه باسمه اا — ابى النصر قايتباى المنوه باسمه

٤٠ — الشريف اعلاه شرفه الله تعالى اا — الشريف اعلاه شرفه الله تعالى

٤١ — وعظمه والجناب العالى الاميرى السيفى قجماس اا — وعظمه والجناب العالى الاميرى

٤٢ — المشترى الوكيل المشار اليه اعلاه اعز الله تعالى اا — السيفى قجماس المشترى الوكيل

٤٣ — نصرته والجناب الصفوى جوهر البايع اا — المشار اليه اعلاه اعز الله تعالى نصرته

٤٤ — المشار اليه اعلاه بجميع ما نسب اليهم اعلاه وكتب(٤٨) اا — والجناب الصفوى جوهر البايع

٤٥ — محمد بن محمد بن الركن الاسيوطى(٤٩) — المشار اليه اعلاه بجميع ما نسب اليهم

٤٦ — اخبرنى بذلك بلفظ الشهادة — اعلاه وكتب

٤٧ — اعزه الله تعالى وادام النفع به(٥١) — يحيى بن عمر بن احمد السفطى(٥٠) اا

٤٨ — اخبرنى بذلك بلفظ الشهادة

٤٩ — ايده الله تعالى احكامه واحسن اليه(٥٢)

(ب) ظهر الوثيقة :

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد [ و آله ] و صحبه وسلم[٥٣]

١ — بسـ[ـم الـلـ]ـه الرحمن الرحيم    الحمد لله على جزيل نَعمايه[٥٤]

٢ — ثبت[٥٥] ما نسب لمولانا المقام الشريف الامام الاعظم المجاهد المظفر السلطان المالك الملك الاشرف سلطان

٣ — الاسلام والمسلمين قاتل الكفرة والمشركين محيي العدل فى العالمين منصف المظلومين من الظالمين قامع الخوارج

٤ — والملحدين مبيد الطغاة والمارقين حامى حوزة الدين جامع كلمة الايمان قامع عبدة الصلبان

٥ — وارث الملك سلطان ملوك العرب والعجم والترك ملك البرين والبحرين خادم الحرمين الشريفين ظل الله الوارف

٦ — ورحمته السابغة للبادى والعاكف وناصر دينه الذى قطعت الارا بتفضيله ولا مخالف ابى النصر قايتباى شيد الله [ تعـ]ـالى

٧ — ملكه وسلطانه ونصر جيوشه واعوانه وجدد له فى كل يوم سرورا ونصرا وملكه بساط الارض برا وبحرا من اشهاده

٨ — على نفسه الشريفة شرفها الله تعالى وعظمها بجميع ما نسب اليه فى مكتوب التبايع المسطر باطنه على ما نص وشرح باطنه وباطنه مورخ بالخامس

٩ — والعشرين من شوال المبارك سنة اربع وسبعين وثمان ميه [٥٦] لدى سيدنا [٥٧] العبد الفقير الى الله تعالى الشيخ الامام العالم العلامة

١٠ — صدر الدين شرف العلما اوحد الفضلا مفتى المسلمين ابى الخير محمد بن سيدنا العبد الفقير الى الله تعالى الشيخ الامام العالم العلامة

١١ — صدر الدين شرف العلما اوحد الفضلا مفتى المسلمين ابى عبد الله محمد ابن الرومى الحنفى [٥٨] خليفة الحكم العزيز بالديار المصرية اعز الله تعالى احكامه ونصرته بشهادة شهيدى [٥٩] ذلك

١٢ — واشهد على نفسه الكريمة بذلك من حضر مجلس حكمه [٦٠] وقضايه وهو نافذ الحكم والقضا ماضيهما وذلك فى

١٣ — اليوم المبارك

## ١٤ — الثانى والعشرين من ذى القعدة الحرام [٦١]

١٥ — من شهور عام اربعة وسبعين وثمان ميه وانه ثبت عنده ثبت الله تعالى مجده وانجح قصده بشهادة من اعلم له تلو رسم شهادته

١٦ — باطنه + وهما الشاهدان المنبه عليهما اعلاه علامة الادا والقبول [٦٢] على الرسم المعهود فى مثل ذلك اشهاد كل من المقر العالى

١٧ — السيفى قجماس الوكيل اعز الله تعالى نصرته والجناب العالى الصفوى جوهر المتبايعين المشار اليهما باطنه على نفسه بجميع ما نسب اليه فى مكتوب

١٨ — التبايع المسطر باطنه على ما نص وشرح باطنه ومعرفتهما* المعرفة الشرعية وثبت عنده ثبت الله تعالى مجده وانجح قصده بشهادة من اعلم

---

+ هذا النقط مكتوب على كشط — انظر سطر ٢٣ لوحة رقم ٦، ٧ . تحقيق رقم ٧١

* اغفل الكاتب حرف النساء فى هذا اللفظ تبعا لطريقته وسرعته فى الكتابة . لوحة رقم ٦

١٩ ـــ له تلو رسم شهادته اخر فصلى الملك والحيازة [٦٣] والاعذار [٦٤] المسطرين بهامش باطنه اعلام التادية والقبول على الرسم المعهود فى مثل ذلك

٢٠ ـــ مضمون الفصلين المذكورين فيه على مانص وشرح فيهما* ثبوتا صحيحا شرعيا تاما معتبرا مرضيا وحكم [٦٥]

٢١ ـــ اعز الله تعالى احكامه واحسن اليه بموجب [٦٦] ذلك ولزوم [٦٧] التابع المسطر باطنه على مانص وشرح باطنه حكما صحيحا شرعيا

٢٢ ـــ تاما معتبرا مرضيا مسبولا فى ذلك مستوفيا شرايطه الشرعية [٦٨] عالما بالخلاف [٦٩] فيما فيه الخلاف من ذلك واشهد على نفسه الكريمة بذلك فى التاريخ الذى سيكمل [٧٠]

٢٣ ـــ بخطه الكريم اعلاه ادام الله تعالى رفعته* وعلاه وفيه مصلح على كشط باطنه صحيح ذلك معتد به فى موضعه [٧١] وحسبنا الله ونعم الوكيل

٢٤ ـــ وحسبنا الله ونعم الوكيل [٧٢] اشهدنى [٧٣] سيدنا العبد الفقير الى الله تعالى

٢٥ ـــ الشيخ الامام العالم العلامة صدر الدين شرف العلما اوحد الفضلا مفتى المسلمين الحاكم المشار اليه اعلاه اعز الله تعالى احكامه واحسن اليه على نفسه الكريمة

٢٦ ـــ بما نسب اليه فى اسجاله المسطر اعلاه فشهدت عليه به فى تاريخه وكتب

٢٧ ـــ محمد بن محمد بن الركن الاسيوطى [٧٤]

٢٨ ـــ وبذلك اشهدنى اعز الله تعالى احكامه واحسن اليه فشهدت عليه به فى تاريخه وكتب

٢٩ ـــ يحيى بن عمر بن احمد السفطى [٧٥]

٣٠ ـــ وبذلك اشهدنى اعز الله تعالى احكامه واحسن اليه فشهدت عليه به فى تاريخه وكتب

٣١ ـــ محمد بن محمد بن محمد بن الحسن الجعفرى [٧٦]

---

* أغفل الكاتب حرف التاء والياء فى هذه الالفاظ تبعا لطريقته رسرعته فى الكتابة . لوحة رقم ٦ ، ٧

٣٢ ــ وبذلك اشهدنى ايد الله تعالى احكامه واحسن اليه فشهدت عليه به في تاريخه وكتب

٣٣ ــ عبد القادر بن محمد الحنفى اا

٣٤ ــ وبذلك اشهدنى ايد الله تعالى احكامه واحسن اليه فشهدت عليه به في تاريخه وكتب

٣٥ ــ اا عبد القادر بن محمد الرومى [٧٧]

٣٦ ــ وبذلك اشهدنى والدى ايد الله تعالى احكامه واحسن اليه فشهدت عليه به في تاريخه وكتب

٣٧ ــ محمد بن محمد بن محمد الرومى [٧٨] اا

## ثالثا ــ التحقيقات والتعليقات العلمية

### (أ) وجه الوثيقة :

١ ــ هذه هى افتتاحية الوثيقة ، وقد وردت فى سطر مستقل ، وعلى ذلك مصطلح كتاب الانشاء فى القديم والحديث على حد قول القلقشندى . ويظهر أن كتاب الوثائق الخاصة بالتصرفات القانونية المختلفة ، كانوا يكتبون ــ بعد البسملة ــ الحمدلة والتصلية على رسول الله وآله وصحبه فى نفس السطر كما هو الحال فى هذه الافتتاحية . فالحمدلة والتصلية من توابع البسملة فى جل الافتتاحيات تقريباً .

دكتور عبد اللطيف ابراهيم : التوثيقات الشرعية والاشهادات ــ العدد الثانى من سلسلة الوثائق التاريخية القومية (مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة م ١٩ ج ١ مايو ١٩٥٧) ص ٣٦١ ــ ٣٦٣ تحقيق رقم ١ ، ٢ وما بهما من مصادر .

٢ ــ هذا هو اللفظ الخاص بتسجيل كل من عقد البيع والاشهاد عليه ، وقد ورد على الهامش الأيمن فى بداية وجه الوثيقة ، وهو بخط القاضى الموثق الشيخ محمد ابن أبى عبد الله محمد بن الرومى الحنفى خليفة الحكم العزيز بالديار المصرية ، وقد قام بكتابته بعد أن حكم بصحة التصرف القانونى ولزومه .

وجدير بالملاحظة أن هذا اللفظ يرد دائماً بصيغة الأمر .

بحثنا التوثيقات الشرعية والاشهادات ص ٣٠٦ ، ٣٦٣ ــ ٣٦٤ تحقيق رقم ٣

ومع إيماننا الكامل بأن عقود البيع تكتسب صحتها ومفعولها بين المتعاقدين إثر موافقتهم عليها ، نتيجة توافق الايجاب والقبول وتطابقهما ، لأن المسلمين عند شروطهم كما يقول الفقهاء ، ومع اعترافنا بأن حكم البيع فى الشريعة الإسلامية أنه فور وقوعه صحيحاً نافذاً ، باعتباره عقد فورى contrat instantané ، يترتب عليه نقل ملكية المبيع للمشترى دون توقف على أى إجراء من أى نوع كان ، هذا مع العلم بأن القبض يزيد نقل الملكية تأكيداً.

الكاسانى : بدائع الصنائع فى ترتيب الشرائع ج ٥ ص ٢٤٣

سليمان مرقص ومحمد على امام : عقد البيع ص ٢١ ، عبد الفتاح عبد الباقى : محاضرات فى العقود ج ٢ عقد البيع ص ١٠ ، السنهورى : الوسيط فى شرح القانون المدنى الجديد ج ٤ العقود التى تقع على الملكية م ١ البيع والمقايضة ص ٢٢ ، ٤٠٩ ــ ٤١٠ وما بها من مصادر .

وبالرغم من هذا فإن التسجيل عُرف فى العصر الوسيط فى مصر الإسلامية إبان حكم المماليك ، لأنه لو كان الملك ينتقل بالعقد مباشرة ، ما كان هناك داع للتسجيل ، وبذلك سبقت الشريعة الاسلامية فى مصر المملوكية من الناحية الواقعية والتطبيقية ، جميع النظم فى مختلف البلاد من حيث تسجيل العقود وشهرها .

وعقد البيع موضوع دراستنا ـ لم يكف لتكوينه الايجاب والقبول ، بل لقد حرر كتابة فى عقد رسمى ، ثم صدر الأمر من القاضى الموثق بتسجيله .

والواقع أن عدم التسجيل لا يرفع من العقد الموثق كيانه القانونى ، والآثار الملزمة المترتبة عليه ، ولكن كان لا بد من أن تحاط المعاملات بين الأفراد ، وكافة التصرفات القانونية ، بنوع من الضمان والاحتياط ـ أعنى بالتسجيل ؛ ويظهر أن الظروف المضطربة التى مرت بها مصر فى عصر المماليك قد دعت إلى ذلك الأمر وأوجبته ، أى أن البيع المجرد فى ذلك الوقت لم يكن ينقل ملكية العقار فيما نعتقد . ومن الناحية العملية كان لا بد من تسجيل وشهر التصرف ، بسبب عدم الاطمئنان فى العصر المملوكى ، إذ لم يقتنع المشترى بأن الحق قد انتقل اليه بموجب العقد وحده أي التصرف غير المسجل .

بحثنا التوثيقات الشرعية ص ٣٢٨ ـ ٣٣٢ وما بها من مصادر .

ونحن لا نتفق مع رجال القانون فى القول بأن نظام التسجيل وشهر الحقوق العقارية ما كان لازماً ، ولم يكن معروفاً فى الشريعة الإسلامية فى مصر ، وأنه أمر حديث العهد نسبياً .

محمد كامل مرسى : شرح القانون المدنى الجديد ـ شهر التصرفات العقارية ص ٩ ، ١١٢ ، محمد حلمى عيسى : شرح البيع ص ٣٦٥ ، السنهورى : البيع ص ٤٤٠ ، أنور سلطان : العقود المسماه ص ١٩٢ حاشية ١ ، عبد الفتاح عبد الباقى : عقد البيع ص ١٣٤ ، بحثنا التوثيقات الشرعية ص ٣٠٦ ، ٣٦٣ تحقيق رقم ٣ وما به من مصادر .

لقد عرفت محاكم العصر المملوكى نظام التسجيل بما لها من سلطة قضائية وولائية فى آن واحد . وعقد البيع كغيره من التصرفات القانونية الناقلة للملكية ، كان يجب توثيقه وتسجيله ، وقد وقعت تحت أيدينا عشرات من الوثائق الدبلوماتية الخاصة ، التى تؤكد هذه الحقيقة وتثبتها واضحة جلية للباحثين فى ميدان الوثائق وتاريخ القانون على السواء .

بحثنا التوثيقات الشرعية ص ٣٣٢ ـ ٣٣٥ وما بها من مصادر .

ومهما يكن من أمر ، فإن تسجيل الوثائق أو العقود والاشهادات عليها قد عرفته مصر الاسلامية المملوكية ، والعبارات الواردة على هامش كثير من الوثائق تؤكد لنا وجوب التسجيل ولزومه ، وقد أشار إلى ذلك قاضى القضاة عبد الرحمن بن خلدون المالكى حين تحدث عن وظيفة العدالة فقال : « وحقيقة هذه الوظيفة القيام عن إذن القاضى بالشهادة بين الناس . . . . . . . . وكتبا فى السجلات تحفظ به حقوق الناس وأملاكهم وديونهم وسائر معاملاتهم » ابن خلدون : المقدمة ص ٢١٢

حقاً لقد أوجبت الظروف السياسية والاجتماعية والمالية ، قيام نظام التوثيق والتسجيل فى المجتمع الاسلامى وخاصة فى ذلك العصر . بحثنا التوثيقات الشرعية ص ٢٣٥ ـ ٢٤١ وما بها من مصادر . ويظهر أن المشترى كان يسرع بعد الموافقة على العقد إلى توثيقه وتسجيله إذا كان المبيع عقاراً ، وذلك حفظاً لحقوقه . عيسى : شرح البيع ص ٧٧

ومن دراستنا لمجموعة كبيرة من الوثائق العربية المملوكية ، يمكن القول بأنه كان لنظام توثيق العقود وتسجيلها قواعد شبه مستقرة وأصولا مرعية فى مصر الاسلامية .

ومما لاشك فيه أن الغرض الأول من التسجيل هو أن تصبح وثيقة البيع التى تم توثيقها وتسجيلها مشهرة وحجة على الغير وإلا لما كان هناك داع إلى :

(ا) ـــ تحرير الوثيقة وكتابتها .

(ب) ـــ توثيقها بالاشهاد عليها .

(جـ) ـــ الأمر بتسجيلها .

ولتفسير ذلك نقول إن إبرام البيع بتدوينه فى محرر رسمى موثق acte authantique notarié بالاشهاد عليه ، كان لازما كدليل لاثبات البيع ـ فالكتابة تقطع فى الدلالة على الارادة ، كما أنها أداة اثبات للعقد تجعله صالحا للتسجيل والشهر ـ وإمعانا فى الحصول على وسيلة قوية للاثبات عند التنازع ، ويقصد بالكتابة والشهادة فى البيع عند الشرعيين الاثبات ودفع الريبة عند الحاجة . غير أن بعض البيوع وإن كانت صحيحة من غير كتابة ، لا تنتج آثارها إلا إذا اثبتت فى محرر ، ويظهر أن بيع العقار فى ذلك العصر لم يكن يترتب عليه نقل الملكية إلا إذا سجل ، ولذلك فان التسجيل كان يستلزم كتابة العقد وتدوينه فى محرر رسمى ، لأن التسجيل لا يرد على العمل القانونى فى ذاته negotium بل على المحرر المثبت Instrumentum .

محمد كامل مرسى : شرح القانون المدنى الجديد ـ العقود المسماه جـ ٦ عقد البيع وعقد المقايضة ص ١٩٢ ـ ١٩٤ ، السنهورى : البيع ص ٥١ ـ ٥٢ ، عيسى : شرح البيع ص ٣٥ ، محمد سلام مدكور : الفقه الاسلامى ـ المدخل والأموال والحقوق والملكية والعقود ص٣٨٢

ومن كل هذا يظهر أن التسجيل كان لازما لنقل الملكية فى العصر المملوكى ، وخاصة بعد توثيق العقد والتحرى من صحته تحريا بالغا ، فاذا ماسجل وشهر كانت صحته مقطوعا بها ، فيكون للشهر هذه الحجية المطلقة فى مواجهة المتعاقدين وفى مواجهة الغير على السواء .

وكان يشرف على ذلك كله ، القاضى الموثق ، الذى يأمر بعد الفحص الدقيق للعقد والاشهاد عليه بإجراء التسجيل ، ومعنى هذا أن التسجيل والشهر ـ لا التصرف ـ هو الذى ينقل الحق ، ومهمة التسجيل هو نقل الحق العينى لا مجرد إعلان التصرف . السنهورى : البيع ص ٤٣٥ ـ ٤٣٧ .

ومن ثم يمكن القول بأن عقد البيع كان من أهم العقود التى يجرى عليها التسجيل وأوسعها انتشارا فى عصر المماليك فى مصر والشام .

وقد عرض الأستاذ الدكتور عبد الرازق السنهورى لهذا الموضوع فى كتابة «البيع والمقايضة» ، وكاد يصل إلى ما كان متبعا فى العصور الوسطى ـ العصر المملوكى فى بمصر خاصة ـ إذ يقول : « . . . . . على أنه مما خفف من عيوب تنظيم شهر الحقوق العينية نظام إدارى وضع لجبى الضرائب العقارية عرف بنظام المكلفات . . . . ويتم نقل الحقوق على الأرض فى حال الحياة بحجة رسمية يحررها القاضى الشرعى ، بحضور الشهود ، وبعد ترخيص من المديرية . وكان القاضى الشرعى قبل أن يحرر الحجة بنقل الحق ، يتحقق من صحة الحجج السابقة التى صدرت للبائع ، ثم يحرر الحجة بنقل ذلك فى دفتر أعد لتقييد التصرفات ( المضطبة ) ، ثم يتلو ذلك عملية تسجيل فى سجل خاص بالمديرية . والغرض من هذه العملية اثبات كل تغيير فى شخص الملتزم بالضريبة العقارية فى المكلفات . فكان هذا النظام الذى وضع فى الأصل لتنظيم جبى الضريبة العقارية بواسطة المكلفات وإثبات الأشخاص المتعاقبين الذين يلتزمون بدفع هذه الضريبة ، يستخدم فى الوقت ذاته كطريق لشهر الحقوق العينية ، إذ كان السجل الخاص بكل مديرية علينا ، يستطيع ذوو الشأن الاطلاع عليه لمعرفة الحقوق التى ترتبت على الأراضى . ويخلص من ذلك أن التصرف كان شكليا لابد من تحريره فى حجة رسمية بواسطة القاضى الشرعى ، بل يبدو أن الحق

كان لا ينتقل إلى المتصرف إليه إلا بعد تسجيله فى سجل المديرية . . . . . . »
السنهورى : البيع ص ٤٤٠ ـ ٤٤١ ، جرجس حنين : الأطيان والضرائب ص١٤٩ ـ ١٥١ وما بعدها .

ومع احترامنا لهذا الرأى فى ضوء الحقائق المعروفة عن نظام الملكية العقارية فى مصر إبان القرن التاسع عشر الميلادى ، إلا أن مصر الاسلامية المملوكية عرفت التسجيل كنظام مستقل بذاته قبل ذلك بخمسة قرون تقريباً ، ودون أى ارتباط بنظام جباية الضرائب العقارية .

وإذا كانت ظاهرة الإهمال فى تسجيل العقود لم تختف فى عهد قانون التسجيل فى العصر الحديث ، فإن الشيء الجدير بالملاحظة والتقدير فى عصر المماليك هو حرص الناس — كبيرهم وصغيرهم — على توثيق بل وتسجيل عقودهم فور انعقادها ، كما يمكن القول بأن العرف قد جرى على أن يكون التسجيل لازماً ، بل ومرتبطاً تمام الارتباط بعملية التوثيق وتابعاً لها .

فعقد البيع الذى بين أيدينا تم فى ٢٥ شوال سنة ٨٧٤ هـ ثم وثق وسجل فى ٢٢ ذى القعدة سنة ٨٧٤ هـ أى فى الشهر التالى مباشرة .

ولعل الأسباب التى حملت الناس فى العصر المملوكى على المبادرة إلى تسجيل عقودهم لا تخرج عن الأسباب التى يقول بها فقهاء القانون اليوم وهى :

(١) — أن المشترى لم يكن له الحق فى ملكية العين المبيعة (إدارة العين والتصرف فيها) ما دام البيع لم يسجل .

(ب) — أن الملكية لم تكن تنتقل فعلا إلا من تاريخ التسجيل ، ولم يكن لانتقالها أثر رجعى يستند إلى وقت البيع . وأوضح دليل على هذا ، الاسراع فى توثيق وتسجيل العقود فور انعقادها .

(جـ) — ان فى هذا استقرار لنظام إنتقال الملكية العقارية فى مصر المملوكية .

السنهورى : البيع ص ٢٢ حاشية ١ وما بها من مراجع ، ص ٥٠ حاشية ٣ ، ص ٤٨٥ ، ٥٠٩ ـ ٥١٤ ، سليمان مرقص ومحمد على امام : عقد البيع ص ٢٥٦ ـ ٢٥٧ ، عبد الفتاح عبد الباقى : عقد البيع ص ١٧ ، ١٢٧ ـ ١٣٨ ، ١٥٨ ، ١٦٤

وليس معنى هذا أن عقد البيع فى العصر المملوكى كان عقداً شكلياً لا يتم إلا بالتسجيل ، بل هو عقد بيع لم تتغير طبيعته من حيث كونه عقداً رضائياً contrat consensuel ،

وينتج جميع آثار البيع بمجرد توافق الارادتين فيما عدا نقل الملكية بالفعل ، فعقد البيع يتم بالتراضى ولو لم يسجل ، وليس المقصود من التسجيل أن يكون ركناً أساسياً لانعقاد البيع وصحته ، فالأمر لا يعدو جعل انتقال الملكية مرتبطاً بالتسجيل ، وهو إجراء فرضه العرف والتقاليد التى درجت عليها النظم القضائية فى المحاكم المملوكية بسبب الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية فى ذلك العصر .

أما طبيعة العقد وشروط انعقاده ، وطريقة اثباته وكافة آثاره ، ما عدا نقل الملكية فإنها جميعاً لم تتأثر بالتسجيل ، فالتسجيل مجرد إجراء متعلق بانتقال الملكية Formalite de Transfert ، ولا يتعارض بتاتاً مع رضائية عقد البيع ، وإنما التسجيل يعدل آثاره بالنسبة العاقدين وغيرهم ، فجعل نقل الملكية غير مترتب على مجرد العقد بل أرجأه إلى حين حصول التوثيق والتسجيل .

٣ — هذا اللقب وما يليه من الألقاب السلطانية سبق لنا دراستها فى أبحاث سابقة ، وقد تواتر الكتاب الرسميون وغير الرسميين على نعت سلاطين المماليك السابقين واللاحقين بها بقصد التعريف . قراءة : مذكرة التوثيقات الشرعية ص ١٦ ، بحثنا وثيقة الغورى أوقاف ٨٨٣ ـ دراسة ونشر وتحقيق ( تحت الطبع ) ، التوثيقات الشرعية ص ٣٦٤ تحقيق رقم ٤ ، القلقشندى : صبح الأعشى ج ٦ ص ٩ ـ ١٠ ، المقريزى : السلوك ( نشر زيادة ) ج ١ ص ٤٥٤ حاشية ٢ ، حسن الباشا : الألقاب الاسلامية ص ١٦٢ ، ١٦٦ ، ٣٥٧ ـ ٣٥٩ ، ٤٨٢ انظر ألقاب السلطان قايتباى فى وثائقه المختلفة المحفوظة بأرشيف وزارة الأوقاف ومحكمة الأحوال الشخصية بالقاهرة . بحثنا وثيقة السلطان قايتباى ـ العدد الثانى من سلسلة الدراسات الوثائقية ـ كتاب المؤتمر الثالث للآثار فى البلاد العربية ص ٣٩٠ حاشية ١ ، وثيقة برسباى محكمة ٩٢ ، وثيقة جقمق محكمة ٩٧ ، وثيقة اينال دار الكتب ٦٢ تاريخ ، وثيقة العادل طومان باى دار الكتب ٢١٠٠ تاريخ ، وثيقة سبيل المؤمنين أوقاف ٨٨٢ . وغيرها من الوثائق المملوكية .

٤ — من الألقاب السلطانية ، ألقاب أكابر أرباب السيوف كنواب السلطنة ونحوهم ، وقد أطلق اللقب على كثير من سلاطين المماليك البحرية ومنهم الناصر محمد بن قلاوون . ويعتبر لقب المجاهد اختصاراً « للمجاهد فى سبيل الله » و « المجاهد فى الله » وما أشبه ذلك .

ولا غرابة فى نعت السلطان قايتباى بهذا اللقب ، بعد ان انتهت حركة الجهاد الاسلامى الكبرى ضد الصليبين ، بتطهير سواحل الشام منهم ، وبعد أن استولى برسباى على قبرس .

ومهما يكن من أمر فقد ظل هذا اللقب مستعملا حتى القرن العاشر الهجرى ، وهذا اللقب يشير عادة إلى تسجيل موقف معين وقفه صاحبه ، والسلطان قايتباى جاهد الفرنجة عندما هاجموا السواحل فى الاسكندرية ودمياط سنة ٨٧٨ هـ ، وكذلك المتمردين وغيرهم على حدود الدولة فى شمال الشام .

ومما تجدر الاشارة إليه أن هناك من كان يلقب بالمجاهد ولم يخض معركة مهمة فى حياته مثل الأمير اينال العلائى . حسن الباشا : الألقاب الاسلامية ص ٤٥١ ـ ٤٥٢ ، القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٦ ص ٢٦ .

٥ ـ المظفر أخذا من الظفر وهو النصر ، وهو من ألقاب أكابر أرباب السيوف ، واللقب يشمل إلى جانب معناه الحربى مدلولا دينيا . وقد عرف هذا اللقب فى مختلف أنحاء العالم الاسلامى على مدى العصور . وقد شاع استعماله فى عصر المماليك وصار من الألقاب السلطانية . القلقشندى : نفس المصدر جـ ٦ ص ٢٨ ، حسن الباشا ص ٤٧٣ ـ ٤٧٤

٦ ـ انظر ما سبق الاشارة إليه فى بحثنا هذا تحقيق رقم ٣ وكذلك بحثنا وثيقة الغورى أوقاف ٨٨٣ تحقيقات: رقم ٢٤ ـ ٢٨ وما بها من مصادر ( تحت الطبع ) ، التوثيقات الشرعية ص ٣٦٥ تحقيق رقم ٥ ، حسن الباشا ص ٣٢٣ ، ٤٤٤ ، ٤٩٦ ، ١٦٠ ، ٣٢١ ، ٤٢٣ ، ٤٦٤ ، ٥١١ ـ ٥١٢ ، ٤٢٦ ـ ٤٢٧ ، ٤٤٨ ، ٢٥٥ ، ٢٣٥ ، على التوالى وما بها من مصادر .

٧ ـ أضيف إلى لفظ قامع بعض كلمات لتكوين ألقاب مركبة مثل « قامع عبدة الصلبان » ، وقد أطلق هذا اللقب على صلاح الدين أثناء حروبه ضد الصليبين ، وهزيمته لهم فى حطين واستيلائه على بيت المقدس . حسن الباشا ص ٤٢٤ ـ ٤٢٦ . وورود هذا اللقب ضمن ألقاب قايتباى يدل على استعماله حتى نهاية القرن التاسع الهجرى تقريبا .

٨ ـ أضيف إلى وارث بعض كلمات لتكوين ألقاب مركبة مثل « وارث الملك » فهو من الألقاب السلطانية . القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٦ ص ٧٤ . ويلاحظ أن الألقاب الخاصة بوراثة الملك كانت شائعة لدى سلاجقة الروم الذين اعتبروا أنفسهم الورثة الشرعيين للسلاجقة . حسن الباشا ص ٥٢٧ ـ ٥٢٨

ويظهر ان اللقب قد أطلق على قايتباى عندما آل إليه الملك بعد فترة قصيرة من الحكم المملوكى غير المستقر فى الداخل والخارج، تولى فيها كل من الظاهر يلباى وتمربغا. ابن اياس: صفحات لم تنشر من بدائع الزهور (نشر د. محمد مصطفى) ص ١٩٤ ، ٢٠٣ - ٢٠٤ ، بدائع الزهور (ط. اسطنبول) ج ٢ ص ١٠١

ولا شك أن قايتباى قد انتهت إليه السيادة على جزء مهم ورقعه واسعة من العالم الاسلامى، بتفويض من الخليفة العباسى بالقاهرة وموافقة الأمراء المماليك، وبذلك أصبح الوارث للملك.

٩ — انظر ما ورد فى بحثنا هذا تحقيق رقم ٣ وكذلك بحثنا وثيقة الغورى أوقاف ٨٨٣ تحقيقات رقم ٣٤ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٢٨ على التوالى وما بها من مصادر، وكذلك وثيقة قايتباى أوقاف ٨٨٦ ص ٥ ، Mayer: The buildings of Qaytbay as described in his endowment deed. p. 3.

وثيقة اينال دار الكتب ٦٢ تاريخ. القلقشندى: نفس المصدر ج ٦ ص ٤٦ ، ٥٤ ، ٥٨ ، ٧١ - ٧٢ ، حسن الباشا ص ٣٣٧ ، ٣٤٩ ، ٥٠٣ ، ٢٦٧ ، ٣٨٤ على التوالى.

١٠ — السلطان قايتباى هو المشترى الأصيل بصفته موكلا. انظر ترجمته فى كل من:

السخاوى: الضوء اللامع ج ٦ ص ٢٠١ - ٢١١ رقم ٦٩٧

ابن اياس: صفحات لم تنشر من بدائع الزهور (نشر د. محمد مصطفى) ص ٤٠٣ - ٤٠٤ ، بدائع الزهور (ط. اسطنبول) ج ٣ ص ٢ - ٣ ، ٢١٧ - ٢١٨ وما بعدها.

ابن العماد الحنبلى: شذرات الذهب ج ٨ ص ٦ - ٩

عبد اللطيف ابراهيم: وثيقة السلطان قايتباى أوقاف ٨٨٧ (كتاب المؤتمر الثالث للآثار) ص ٣٩٠ - ٣٩٨ وما بها من مصادر.

١١ — الأصل أن يتبايع المتعاقدان أصالة عن نفسيهما، ولكن ليس من اللازم أن يبيع الشخص أو يشترى بنفسه، بل يجوز له أن يفعل ذلك بواسطة وكيل ينيبه عنه فى ذلك، إما للترفع لمركزه وسلطانه. أو لكى يتخفف من عناء مباشرتها بنفسه.

السنهورى : البيع ص ٤١ ، ٩٣ . محمد سلام مدكور : الفقه الاسلامى ص ٤٧٤ ، عبد الفتاح عبد الباقى : عقد البيع ص٦٤ ، المغنى والشرح الكبير جـ ٥ ص٢٠١ وما بعدها ، قدرى : مرشد الحيران م ٩٢١

والوكالة نوع من الولاية ، وهى تطلق فى اللغة على الحفظ . وقد أجاز الفقه الاسلامى التوكيل بصفة عامة فى كل تصرف يصح أن يباشره المرء بنفسه ، وفى ذلك يقول المرغينانى فى الهداية جـ ٦ ص١١٠ « كل عقد جاز أن يعقده الانسان بنفسه جاز أن يوكل به غيره » .

محمد يوسف موسى : الأموال ونظرية العقد فى الفقه الاسلامى ص ٣٦١ - ٣٦٢

والوكالة كما يعرفها الفقهاء « هى إقامة الانسان غيره مقام نفسه فى تصرف جائز مملوك له معلوم » .

أحمد أبو الفتح : كتاب المعاملات ص ٥٦٦ - ٥٦٧ ، أحمد ابراهيم : كتاب المعاملات الشرعية المالية ص ١٧٧ ، قدرى : مرشد الحيران م ٩١٥

أما عن الشروط الواجب توافرها فى الموكل والوكيل والموكل فيه فانظر المراجع التالية :

الكاسانى: البدائع جـ ٦ ص١٩ - ٢٠ وما بعدها، البابرتى: العناية جـ ٦ ص١٠٩ - ١١١، الزيلعى: تبيين الحقائق جـ ٤ ص٢٥٤ وما بعدها . أحمد أبو الفتح : المعاملات ٥٦٨ - ٥٦٩ ، محمد كامل مرسى : العقود المدنية الصغيرة ص ٣٩٩ ، ٤٠١ - ٤٠٣ ، السنهورى : نظرية العقد ص ٣٠٨ - ٣٠٩ حاشية ، محمد سلام مدكور : الفقه الاسلامى ص ٤٧٦ - ٤٧٧ ، على الخفيف : مختصر أحكام المعاملات الشرعية ص ١١٦ ، محمد يوسف موسى : الأموال ونظرية العقد ص ٣٦٤ - ٣٦٥ ، قدرى : مرشد الحيران م ٩١٦ - ٩١٨

وعقد الوكالة من العقود الرضائية بين الموكل mandat والوكيل mandataire ، فالوكالة نيابة اتفاقية mandat conventionnel special ، ومصدرها اتفاق العاقدين ، وركنها الايجاب والقبول وتتم بهما ، فهى عقد جائز . الخفيف : نفس المرجع ص ١١٥ ، محمد يوسف موسى : نفس المرجع ص ٣٦٣ ، محمد سلام مدكور : نفس المرجع ص ٤٧٥ - ٤٧٦ وما بها من مصادر .

وعقد الوكالة يلتزم الوكيل بمقتضاه القيام بتصرف قانونى لحساب الموكل ، أى باسمه وفى ذمته . د . جمال مرسى بدر : النيابة فى التصرفات القانونية ص ٨٧ - ٨٨

فالتوكيل عقد به يؤذن الوكيل بعمل شيء باسم الموكل وعلى ذمته Le mandat est un contrat par lequel une personne est chargée de faire une chose au nom du mandataire et pour ce dernier.

محمد كامل مرسى : العقود المدنية الصغيرة ص ٢٩٣ ، ٢٩٦ .

والأصل فى الفقه الاسلامى أن الوكيل لا يتم تعيينه إلا بعلمه . ومهما يكن من أمر ، ففى عقد الوكالة متى بلغ الوكيل أن شخصا وكله فى القيام بعمل من الأعمال ، فله أن يقوم بهذا العمل ، ويعتبر أخذه فى القيام به قبولا منه للتوكيل . محمد يوسف موسى : نفس المرجع ص ٢٥٨ وما بها من مصادر ، محمد وحيد الدين سوار : التعبير عن الارادة فى الفقه الاسلامى ص ٦٣ عن الكاسانى : البدائع جـ ٦ ص ١٩ – ٢١ ، ٢٣ ، الفتاوى الهندية جـ ٣ ص ٥٦٢ .

ولا يتم العقد إلا بقبول الوكيل وقد يتضح القبول من إجراء العمل الموكل فيه
Le contrat ne se forme que par l'acception du mandataire, laquelle peut resulter du fait de l'execution.

محمد كامل مرسى : العقود المدنية الصغيرة ص ٢٩٣ – ٢٩٤

ولا بد أن تكون الوكالة فى عمل معين محدد مثل التوكيل فى الشراء كما هو الحال فى الوثيقة – أى عمل ليس من أعمال الادارة – والوكالة الخاصة بالشراء ، وإن كانت مقصورة على عمل معين ، فانها تشتمل كذلك توابع العمل الضرورية أى لوازمه ، مثل تحرير العقد وتوثيقه وتسجيله . والوكالة الخاصة لا تجعل للوكيل صفة إلا فى مباشرة الأمور المحددة فيها .

محمد كامل مرسى : عقد البيع ص ٩٤ حاشية ٢ ، ص ٥٣٩ – ٥٤٠

والتوكيل الخاص لا يترتب عليه إلا الاذن للوكيل باجراء الأعمال المبينة فى التوكيل وتوابعها الضرورية Le mandat spécial ne donne pouvoir que d'agir dans les affaires qu'il spécifie et leur consequences nécessaires

محمد كامل مرسى : العقود المدنية الصغيرة ص ٤٢٠

ومعنى هذا أن تصرف الوكيل بالشراء ، مقيد بما يقيده به الموكل من ناحية الثمن ، وصنف المشترى ، ونوعه وصفته ، أي الاطلاق له إذا لم يكن هناك تقيد فى الوكالة ، فاذا خالف الوكيل فى شيء مما قيده به الموكل ، كان تصرفه غير نافذ على الموكل ، ووقع الشراء للوكيل نفسه ولا خلاف فى ذلك بين الفقهاء .

أحمد أبو الفتح : المعاملات ص ٥٧٢ ـ ٥٧٦ ، محمد يوسف موسى : الأموال ونظرية العقد ص ٣٦٨ ، الكاسانى : بدائع الصنائع جـ ٦ ص ٢٩ ، قدرى : مرشد الحيران م ٩٣١ ـ ٩٤٢ وما بها من مصادر .

والواقع أن التعبير الذى صدر من الوكيل ( قجماس ) الذى يمثل الموكل ( قايتباى ) إنما هو تعبير عن إرادة الموكل ( المشترى الأصيل ) الذى يعمل ويتكلم باسمه ، فى حدود التعليمات الصادرة له من الموكل فى عقد الوكالة وهى على ماورد فى وجه الوثيقة سطر ١١ :

( ا ) فى ابتياع ما يذكر فيه .

(ب) فى التسلم والتسليم .

(ج) المكاتبة ( تحرير وكتابة العقد ) .

( د ) الاشهاد ( توثيق العقد ) .

فعلى الموكل تنفيذ ما التزم به وكيله وباسمه بموجب التوكيل Le mandat doit exécuter les engagements pris en son nom, en vertu du mandat.

كامل مرسى : العقود المدنية الصغيرة ص ٤٤٧ . السنهورى : البيع ص ٩٣

وهذه نتيجة أن الوكيل ينوب عن الموكل ، ولكن لايكون ذلك إلا إذا قام الوكيل بالعمل فى حدود وكالته . وفى الشريعة الاسلامية اختلفت المذاهب فى موضوع الوكالة ، فأبو حنيفة يرجع حكم العقد إلى الموكل ، أما حقوق العقد فترجع إلى الوكيل ، ولكن الشافعى يرجع حكم العقد وحقوقه إلى الموكل دون الوكيل . السنهورى : الوسيط ـ الالتزام ـ ص ١٩٠ ـ ١٩١ حاشية وما بها من مصادر .

ومهما يكن من أمر فالعقد فى حالة الوكالة ينتج أثره فى شخص الموكل مباشرة ، فالموكل لا الوكيل هو الذى يجب أن تتوفر فيه الأهلية ، والعبرة بالوقت الذى يباشر فيه

الوكيل العقد ، ويكون تعامل الوكيل مع الغير ( البائع مثلا ) ولحسابه ، ومن ثم فأثر العقد لا يلحق الوكيل بل الموكل ، وتتولد علاقة مباشرة فيما بين الموكل والغير ويختفى شخص الوكيل من بينهما ، فهما المتعاقدان وهما اللذان ينصرف إليهما أثر العقد ، وعلى هذا فحكم العقد يكون للأصيل اتفاقاً .

السنهورى : الوسيط ( الالتزام ) ص ١٩٥ ـ ٢٠٠ ، مرسى : العقود المدنية الصغيرة ص ٤٠١ ـ ٤٠٢ ، ٤٤٨ ، محمد يوسف موسى : الأموال ونظرية العقد ص ٣٧٣ ، ٣٧٦ الكاسانى : البدائع جـ ٦ ص ٣٣ ـ ٣٤ ، الزيلعى : تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق جـ ٤ ص ٢٥٦ ـ ٢٥٧ ، أحمد أبو الفتح : المعاملات ص ٥٨٢

وعقد الوكالة من عقود التبرع — ولكن يصح فيه اشتراط أجر — فهو بطبيعته من العقود التى بلا مقابل . مرسى : العقود المدنية الصغيرة ص ٤١٠ ، محمد سلام مدكور : الفقه الإسلامى ص ٤٧٥ ، ٤٩٠ ـ ٤٩١ ، أحمد أبو الفتح : المعاملات ص ٥٧٢

ويظهر أن الوكالة فى حالتنا كانت تبرعاً من الوكيل فجماس للموكل قايتباى وبدون أجر .

وتنتهى الوكالة — باعتبارها عقد غير لازم — بانتهاء الغرض منها أى بإتمام العمل الموكل فيه Le mandat finit par la conclusion de l'affaire pour laquelle le mandat est donne. وبانتهاء الوكالة يجب على الوكيل أن يرد للموكل السند المعطى له بالتوكيل .

مرسى : العقود المدنية الصغيرة ص ٤٥٦ ، ٤٦٤ ، الخفيف : مختصر أحكام المعاملات الشرعية ص ١٢١ ـ ١٢٢ ، محمد سلام مدكور : الفقه الاسلامى ص ٤٩٠ ـ ٤٩١ ، محمد يوسف موسى : الأموال ونظرية العقد ص ٣٧٨ ، أحمد أبو الفتح : المعاملات ص ٥٨٣ ، البدائع جـ ٦ ص ٣٧ ـ ٣٩ ، الزيلعى جـ ٤ ص ٢٨٦ ـ ٢٨٧

١٢ — الجناب من الألقاب الأصول التى تفتتح به سلسلة الألقاب ، وهو فى أساسه أحد ألقاب الكناية المكانية التى بدأ استعمالها فى المكاتبات ، ولم يظهر فى الكتابات الأثرية إلا متأخراً . حسن الباشا ص ٨٤ ، ١٠٦ وهو من ألقاب أرباب السيوف والأقلام ، وقد استقر مصطلح ديوان الانشاء فى عصر المماليك البحرية على تدريج مراتب لقب الجناب حسب ما يلحقه من ألقاب متفرعة عليه ، وبذلك قسم إلى « الجناب الكريم العالى » ودونه « الجناب العالى » .

ويطلق « الجناب العالى » على كبار مقدمى الألوف ، وعلى أمير آخور ونائب الإسكندرية — وقد تولى قجماس الوظيفتين — ولم يختلف المصطلح فى عصر المماليك البرجية عنه فى عصر المماليك البحرية . حسن الباشا ص ٢٤١ ـ ٢٤٧

القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ٤٩٥ ، جـ ٦ ص ١١٥ - ١١٦ ، ١٣٦ ، ١٥٧ ، جـ ٧ ص ١٤١ ـ ١٤٢ ، ١٥٦ ، جـ ١١ ص ٧٧

١٣ — استعملت النسبة من لقب الأمير وهى « الأميرى » كلقب عسكرى ، وقد عمم القلقشندى فى عصر المماليك البرجية استعمال هذه النسبة للأمراء إذا كانوا من أرباب السيوف . القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٦ ص ١٠ كما أن إضافة ياء النسبة إلى اللقب ترفع من رتبته فى حالة استعماله لغير السلطان ، فالكبيرى أعلى من الكبير . حسن الباشا ص ٩٠ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٨٥

١٤ — السيفى نسبة إلى كلمة السيف لغويا ، وكان هذا اللقب يأتى فى آخر الألقاب أى قبل الاسم مباشرة ، وإذا جاء لقب السيفى قبل الاسم دل ذلك على أن الملقب يسمى هو نفسه سيف الدين . حسن الباشا ص ١٠٨ ـ ٩ ١

ومهما يكن من أمر فقد اصطلح على أن تتبع الألقاب الأصول ( الجناب ) مباشرة بصفات خاصة بها مثل ( العالى ) . وهكذا كانت صفة العالى تلى الجناب ، وكانت هذه الصفات الخاصة يليها لقب يميز طبقة الملقب ( لقب تميز ) فكان يقال ( الأميرى ) إذا كان الملقب من العسكريين ، وكان لقب التمييز الدال على النوع يليه صفة ( الكبيرى ) فيقال « الجناب العالى الأميرى الكبيرى » . ثم يلى ذلك صفات مختلفة كانت تترك حرية اختيارها وترتيبها للكتاب حسب ما يتحلى به صاحب اللقب من صفات وحسب ما يتراءى لهم ، ومن أمثلة هذه الصفات ( السيفى ) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١١ ص ٧٧ ، حسن الباشا ص ١٠٨ ـ ١٠٩ وما بها من مصادر .

وقد وردت ألقاب قجماس الاسحاقى فى وثيقة قايتباى أوقاف ٨٨٧ كما يلى :.

« المقر العالى المولوى الأميرى الكبيرى السيدى المالكى المخدومى السيفى قجماس نائب السلطنة الشريفة بالثغر السكندرى الملكى الأشرفى » بحثنا وثيقة السلطان قايتباى (كتاب المؤتمر الثالث للآثار ) ص ٤١٢ ـ ٤١٣

١٥ ــ هو الأمير قجماس الاسحاقى الظاهرى ثم الأشرفى ، وكيل المشترى السلطان قايتباى . نشأ فى خدمة أستاذه الظاهر أبو سعيد جقمق ، جود الخط وحج رفيقا لتمربغا ، ورقاه خشقدم خازندار كيس ، وكان مقربا للسلطان قايتباى فاسكنه فى بيته بالباطلية كما قرره فى الخزندارية فى جماد أول سنة ٨٧٥ هـ ، ثم أرسله إلى الشام نائبا وبعد ذلك ولاه نيابة الاسكندرية فى رجب سنة ٨٧٥ هـ ، وأنعم عليه بتقدمة فى جماد آخر سنة ٨٧٧ هـ . ولما هاجم الفرنجة سواحل مصر ـ الاسكندرية ودمياط ـ أمره السلطان قايتباى بالخروج لصدهم ومتابعتهم حيث ساروا وذلك فى سنة ٨٧٨ هـ .

ولما عين أمير آخور فى جماد أول سنة ٨٨٠ هـ ، سكن فى بيت تمر الحاجب بالقصر تجاه المدرسة الكاملية ثم سكن بيت الدوادار الكبير بالقرب من الحسينية . وفى ربيع أول سنة ٨٨٢ هـ تولى نيابة الاسكندرية وجمع بينها وبين الأميراخورية الكبرى . وفى أثناء توليته نيابة الاسكندرية أشرف على عمارة قلعة السلطان قايتباى بها ، كما عمر لنفسه جامعاً وتربة وخانا ظاهر باب اسكندرية المسمى باب رشيد ، وجدد جامع الصوارى ظاهر باب السدرة ، وعمر رباطا على شاطىء بحر السلسلة .

وفى القاهرة بنى قجماس مدرسة بالقرب من خوخة ايدغمش بالدرب الأحمر ـ وهى المعروفة بجامع أبو حريبة ـ للجمعة والجماعات وجعل بها متصدراً ( مدرساً ) وقارئاً للبخارى ، ونقل ما كان قرره من التصوف بالجامع الأزهر إليها ، وكذلك عمر تربة بالقرب من تربة قانم التاجر ، وقرر بها صوفية ووظائف وأرصد لذلك كله أوقافاً ، وسافر أمير حاج المحمل فى ربيع آخر سنة ٨٨٣ هـ .

وأخيراً قرره السلطان قايتباى فى شوال سنة ٨٨٥ هـ فى نيابة الشام بدلا من قانصوه اليحياوى ، فأنشأ مدرسة بدمشق ، كما أسهم فى عدة حروب ، وكانت لشجاعته أثرا كبيراً فى هزيمة القوات العثمانية ، وكان قجماس حسن السيرة ، ديناً خيراً ، محتشما لين الجانب ، انساناً متواضعاً محبا للعلماء والصالحين ، توفى فى يوم الخميس ٢ شوال سنة ٨٩٢ هـ ولم يخلف غير زوجته .

السخاوى : الضوء اللامع جـ ٦ ص ٢١٣ رقم ٧٠٦ ، ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٣ ص ٥٢ ـ ٥٣ ، ٧٧ ، ٨٥ ـ ٨٦ ، ١٠٦ ، ١١٧ ، ١٣٨ ، ١٤١ ، ١٤٥ ، ١٧٠ ، ٢٣٨

وكان الأمير قجماس من بين الذين شرط السلطان قايتباى النظر لهم على أوقافه الكبيرة .

وثيقة قايتباى أوقاف ٨٨٧ ، ٨٨٦ ص ١٥٨ Mayer: The buildings of Qaytbay p. 85. ، بحثنا وثيقة السلطان قايتباى (كتاب المؤتمر الثالث للاثار) ص ٤١٢ - ٤١٣

١٦ — قد يتصل بين اللقب الدال على الوظيفة وبين لقب النسبة إلى السلطان (الأشرفى) لقب (الملكى) ، وفى هذه الحالة يشير الترتيب اللقبى إلى أن صاحب اللقب كان يشغل هذه الوظيفة فى عهد السلطان المنسوب إليه فى حالة كتابة الوثيقة . حسن الباشا ص ١١١

١٧ — انظر بحثنا هذا - الدراسة ص ١٣٧ حاشية ٢

١٨ — انظر ترجمته فى بحثنا هذا تحقيق رقم ٤٩

١٩ — هو محمد المحب أبو بكر بن أحمد بن يوسف بن محمد بن الشهاب أبى العباس ابن أبى المحاسن القرشي المخزومى الزعيفرينى الأصل الدمشقى ثم القاهرى الشافعى . ولد سنة ثمان وعشرين وثمانمائة ، حفظ القرآن عند الشمس محمد بن على بن صلاح المناوى ، وسمع مع أخيه بمكة على التقى بن فهد فى سنة ثلاث وأربعين وثمانمائة . واشتغل بالتجليد فى بيته وتكسب بالشهادة ، وقد استرقه أبو الطيب الأسيوطى فصار بذلك وجيها . مات فى جمادى الأولى سنة ثلاث وتسعين وثمانمائة بعد رفيقه الأسيوطى بقليل وربما جاوز الستين .

السخاوى : الضوء اللامع جـ ٧ ص ١٢٢ رقم ٢٦٠

وقد وقع على عدد كبير من وثائق عصر قايتباى منها وثيقة قايتباى أوقاف ٨٨٦ ص ١٦٣

٢٠ — وردت صيغة الفعل القانونى فى الماضى ، ولا شك أن أدل لفظ على إنشاء العقد وتكوينه هو الفعل الماضى لأنه يكون قاطعاً فى الدلالة على تمام الارادة . محمد سلام مدكور: الفقه الاسلامى ص ٣٨١ ، ابن رشد : بداية المجتهد جـ ٢ ص ١٢٩

٢١ — الصفوى نسبة إلى صفى الدين وقد اختص هذا اللقب بالاسم جوهر . وجوهر كان من الطواشية أو الخدام الخصيان ، وهم كالأستاذون فى الدولة الفاطمية . القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٧٧ . وكان هؤلاء الخدام يعتبرون من الطبقة العسكرية فى عصر المماليك .

القلقشندى : نفس المصدر جـ ٥ ص ٤٨٩ ، حسن الباشا ص ١٠٤ ـ ١٠٥ ، ٣٧٨ - ٣٧٩ .

ومن المحتمل أن تكون الألقاب الفخرية التى منحت للصفوى جوهر ، القصد منها تثبيته فى وظيفته أو تعويضه .

٢٢ ـــ يستفاد من المصادر التاريخية المعاصرة ، أن المملوك ـ بعد أن يقضى فترة فى الطباق السلطانية أو اصطبل الأمير ـ كان يعتق ثم يخرج له خيلا وقماشا ويصير من الجمدارية . ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٣ ص ٤٢٩ ، ٤٥٤ ، جـ ٤ ص ٢ ، جـ ٥ ص ٤٧٩ . والجمدارية من العسكر وليسوا من الأمراء .

وربما كان جوهر هذا من مماليك الجناب العالى الأميرى الكبيرى السيفى جانى بك الأشقر المغربى الشهير بأمير حاج الملكى الأشرفى دوادار السلطان قايتباى .

السخاوى : الضوء اللامع جـ ٣ ص ٥٥ رقم ٢١٧ . وثيقة قايتباى أوقاف ٨٨٦ ص ١٤٢ ، ١٥٨ . Mayer: op. cit. pp. 76, 85.

بحثنا وثيقة السلطان قايتباى اوقاف ٨٨٧ (كتاب المؤتمر الثالث للاثار) ص ٤١٢ .

٢٣ ـ الجمدار من جملة العساكر أو المماليك السلطانية ، وهو الموظف الذى يتولى الباس السلطان أو الأمير ثيابه .

القلقشندى : نفس المصدر جـ ٥ ص ٤٥٩ . وأصله جاما دار ، من لفظين فارسيين أحدهما جاما ومعناه الثوب ، والثانى دار ومعناه ممسك . المقريزى : السلوك جـ ١ ص ١٣٣ ، ٣٧١ والبقجة هى رنك الجمدار ، كلمة فارسية الأصل وهى الصرة من القماش توضع بها الثياب .

زكي محمد حسن: فنون الاسلام ص٢٢٦ . Mayer: Saracenic heraldry p. 14-15.

٢٤ ـــ لإزالة الوهم بقدر الامكان واحتياطاً ومنعاً لما عساه يحصل من النزاع بين المتعاملين أو غيرهم ، يجب أن يكتب فى وثيقة البيع كلمة « جميع » قراعة : مذكرة التوثيقات الشرعية ص ٢٢

٢٥ ـــ المبيع هو جميع الحصة التى قدرها النصف من جميع أراضى ناحية إدمو بالاشمونين مشاعا ، ولما كان المبيع شيئاً معيناً بنوعه vente de chose de genre

لا بذاته ، فإن الملكية لا تنتقل إلا بالافراز ، ولا يمكن تسجيل البيع لنقل الملكية إلا بعد إفراز المساحة المبيعة — وهذه حالة نادرة — ذلك أن الشيء قبل إفرازه غير معروف بالذات ، فهناك إذن استحالة طبيعية فى أن تنتقل ملكيته إلى المشترى قبل الافراز .
السنهورى : البيع ص ٤٢٥ ، ٤٢٨

والملكية الشائعة وسط بين الملكية المفرزة والملكية المشتركة ، فالحصة فى الشيوع شائعة فى كل المال ، ولا تتركز فى جانب منه بالذات ، وهذا ما يميز الملكية الشائعة عن الملكية المفرزة . والشيء المملوك فى الشيوع لا يملكه الشركاء مجتمعين ، بل يملك كل شريك أو مشتاع copropriétaire حصة فيه ، وهذا ما يميز الملكية الشائعة عن الملكية المشتركة . أنور سلطان : العقود المسماه ص ٤١٢

والمالك فى الشيوع له أن يتصرف فى حصته الشائعة بكافة أنواع التصرفات القانونية ومنها البيع ، فكل شريك فى الشيوع يملك حصته ملكا تاماً ، وله أن يتصرف فيها دون حاجة إلى موافقة باقى المشتاعين ، وبحيث لا يلحق الضرر بهم . وبيع حصة معلومة على الشيوع — قبل فرزها — صحيح جائز لأن المالك يبيع ما يملك ، وعلى ذلك يحل المشترى محل البائع ويصبح مالكا على الشيوع بنسبة الجزء الذى اشتراه ، لأنه لا يمكن أن تكون له حقوق أكثر من سلفه ، وسلفه لم تكن له ملكية مفرزة بل ملكية شائعة .

محمد حلمى عيسى : شرح البيع ص ١٩٠ - ١٩١ ، أحمد ابراهيم : كتاب المعاملات ص ١٣١ ، أحمد أبو الفتح : المعاملات ص ٣٠٠ - ٣٠١ ، محمد كامل مرسى : العقود المسماه ج ٦ ( عقد البيع ) ص ٥١٢ - ٥١٦ وما بعدها .

٢٦ — الناحية كلمة مرادفة لبلدة أو قرية ، استعملها العرب منذ الفتح الاسلامى لمصر ، وقد درجت على ذلك كتب الخطط والتاريخ والوثائق العربية فى العصور الوسطى .

رمزى : القاموس الجغرافى ج ١ ص ١٢

٢٧ — إدموه من القرى القديمة بالأشمونين ، اسمها الأصلى دموه ثم صرف إلى ادمو بزيادة ألف فى أولها . ويقول ابن الجيعان إن إدمو مساحتها ٩٥٦ فداناً ، بها رزق ١٨ فدان وعبرتها كانت ٢٠٠٠ دينار . التحفة السنية ص ١٧٤ . محمد رمزى : نفس المرجع قسم ٢ ج ٢ ص ١٩٥

وتتبع ادموه الآن مركز المنيا محافظة المنيا . مصلحة المساحة : كشف بأسماء المدن والنواحي ص٣٢٧ ؛ وعن الاشمونيين انظر القلقشندى : نفس المصدر ج ٣ ص٣٩٤ - ٣٩٥

Grohmann : Studien zur Historischen Geographie und verwaltung des Frühmittelaterlichen Agypten, Wien, 1959. s. 34-36.

٢٨ — لا بد من ذكر الحدود الأربعة للعقار المبيع ، وروى عن أبى يوسف أن التعريف يحصل بذكر حدين ، وفى آراء أخرى بثلاثة حدود . إلا أن زفر قال إنه لا يحصل إلا بذكر الحدود الأربعة .

وهذه الوثيقة قد كتبت على أحوط الوجوه ، وتحرز فيها الكاتب عن مواضع الخلاف ، ولذلك ذكرت الحدود الأربعة حتى يكون التعريف حاصلا على جميع الأقوال .

والقول بأن حدها القبلى ينتهى إلى طوخ الخيل ، أفضل وأدق من القول بأن حدها القبلى طوخ الخيل ، لأنه على إحدى الروايتين عن أبى يوسف يدخل الحد مع المحدود فى البيع .

ولما كان المبيع فى حالتنا مشاعاً فإنه يكتفى بتحديد الكل الذى منه هذا الجزء ، لكونه ليس له حدود خاصة ، فجعل تحديد ما اشتمل عليه تحديداً له .

قراءة : مذكرة التوثيقات الشرعية ص ١٧ - ١٩ ، ٢٤

٢٩ — طوخ الخيل من القرى القديمة ، قال ياقوت فى معجم البلدان ( ط . ليبزج ) مجلد ٣ ص ٥٥٦ « وهى قرية فى صعيد مصر على غربى النيل ، وطوخ الخيل قرية أخرى بالصعيد فى غربى النيل يقال لها طوخ بيت بمون ، ويقال لها طوة أيضاً » .

وطوخ الخيل هى حقيقة طوخ طوة ، لأنها تجاور ناحية طوه ، ولكنها ليست طوخ بيت بمون ، لأن طوخ بيت بمون هى قرية أخرى تسمى طوخ الجبل بالاخميمية ، وقد التبس الامر على ياقوت بين طوخ الخيل وطوخ الجبل ، لتشابه حروفهما فظنهما إسما لقرية واحدة ، وهى طوخ الخيل هذه ، والصواب أنهما قريتان .

ويقول ابن الجيعان فى التحفة السنية ص ١٨١ إن طوخ الخيل مساحتها ٢٩٦٨ فداناً ، بها رزق ٨٦ فدان عبرتها ٦٠٠ دينار .

انظر رمزى : نفس المرجع السابق ص ٢٠٢ . ابن مماتى : قوانين الدواوين ص١٦٣

وتتبع طوخ الخيل الآن مركز المنيا محافظة المنيا . كشف بأسماء المدن ص ٢٣٩

٣٠ ــ بنى سمرج قرية قديمة اسمها الأصلى بنى سراج ، من كفور انطية من أعمال الأشمونين ، حرف اسمها الأصلى إلى بنى سمرج ، ويقول ابن الجيعان فى التحفة السنية ص١٧٨ ؛ بنى سمرج من كفور الطية عبرتها ٢٠٠٠ دينار . وقد وردت فى تربيع سنة ٩٢٣ هـ باسم بنى سمرج البحرية ، وبنى سمرج القبلية ، بولاية الأشمونين ، وفى تاريخ سنة ١٢٣٠ هـ ضمتا إلى بعضهما وصارتا ناحية واحدة باسمها الحالى . رمزى : نفس المرجع السابق ص ٢٣١

وتتبع بنى سمرج الآن مركز سمالوط محافظة المنيا . كشف بأسماء المدن ص ٢٤٦

٣١ ــ مثل هذه العبارة تدل على أن المحرر الكاتب للوثيقة ، كان يحترز فى كتابة عقد البيع عن ذكر ما يترتب عليه فساد التصرف الذى كتبت الوثيقة به ، والأحسن عدم ذكر الطريق والمسيل أصلا ، ويكتفى عن ذكرهما بذكر المرافق ، فإن لم يكن لها طريق خاص ولا مسيل ماء خاص ، انصرف لفظ المرافق إلى غيرها من باقى الحقوق .

هذا والحقوق جمع حق ، وهو ما تبع للمبيع ولا بد له منه ، ولا يقصد إلا لأجله كالطريق والشرب للأرض ، وحقوق الارتفاق وهى حق الشرب ويتبعه حق المجرى ، وحق المسيل وحق الجوار . ابن عابدين : رد المحتار على الدر المختار جـ ٤ ص ٣٥ ، الكاسانى : بدائع الصنائع جـ ٦ ص ١٨٨ وما بعدها ، الزيلعى : تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق جـ ٤ ص ٩ وما بعدها ، السيواسى : فتح القدير جـ ٥ ص ٥٠٥ ، قراعة : مذكرة التوثيقات الشرعية ص ٢٤ ــ ٢٥ ، أحمد أبو الفتح : كتاب المعاملات ص ٤٢ ــ ٤٧ ، محمد يوسف موسى : الأموال ونظرية العقد فى الفقه الإسلامى ص ١٧١ ــ ١٨٥ ، أحمد ابراهيم : كتاب المعاملات الشرعية المالية ص ١٧ ــ ٣٠ وما بعدها ، على الخفيف : أحكام المعاملات الشرعية ص١٦ ــ ٢٥ ؛ محمد حلمى عيسى : شرح البيع ص ٤٢١ ــ ٤٣٥

٣٢ ــ الرزق الجيشية والاحباسية هى رزق بلا مال غالبا ، لا يدفع لها عبرة ــ فقد كانت معفاة من الخراج نوعا ما ــ والعبرة مصطلح يقصد به الضريبة العقارية التى كانت تخرج لبيت المال وهى المعروفة بالخراج . رمزى : نفس المرجع جـ ١ ص ١٧ ، ٢١ . القلقشندى : نفس المصدر جـ ٣ ص ٤٣٨ .

ذكر ابن الجيعان فى كتابه التحفة السنية ص ١٧٤ ، أنه كان بادموه رزق قدرها ١٨ فدانا ، وقد استثنت الوثيقة ـ من أصل المبيع وهو جميع الحصة التى قدرها النصف من جميع أراضى ناحية إدموه بالأشمونين ـ ما بأراضى الناحية المذكورة من الرزق الجيشية ( الاقطاع ) والاحباسية (الأوقاف) ، وطرق المسلمين ومقابرهم وسبلهم ومساجدهم ، وذلك لأن هذه الأخيرة من الأملاك العامة التى لا يجوز تملكها أو بيعها ، فهى من كيان وجود الدولة المملوكية ، ومن مستلزمات الجماعة الاسلامية التى ينتفع بها انتفاعا عاما ، ولذلك يكون بيعها باطلا بطلانا أصليا ، لأن الشيء مما لا يقبل التعامل به . وقد احترس الكاتب من الخلط بين الأملاك العمومية وملك البائع ، ولذلك استبعد الجزء الداخل فى الأملاك المخصصة للمنافع العامة . محمد سلام مدكور : الفقه الاسلامى ص ١٨٠ ، محمد حلمى عيسى : شرح البيع ص ١١٣

٣٣ — لا يعتبر المشترى راضياً رضا صحيحاً إلا إذا كان عالماً بالمبيع علماً كافياً بنفسه أو بالوكيل عنه ، فرؤية الوكيل فى الشراء أو القبض ورضاه ، تكفى وتغنى عن رؤية الموكل وهو المشترى الأصيل ورضاه ، ويسقط معها خيار الرؤية ، ويصير العقد لازماً بالنسبة للموكل .

والعلم الكافى هو العلم النافى للجهالة . أحمد فتحى زغلول : شرح القانون المدنى ص ٢٢٧ ، أحمد ابراهيم : كتاب المعاملات ص ١٢٠ ، محمد سلام مدكور : الفقه الإسلامى ص ٥٥٤ ، الزيلعى : تبيين الحقائق جـ ٤ ص ٢٨ ، الكاسانى : بدائع الصنائع جـ ٥ ص ٢٩٥ ـ ٢٩٦

ومعنى ذلك أن المبيع معين تعينا نافيا للجهالة الفاحشة .

هذا وأحكام العلم بالمبيع مأخوذة عن أحكام خيار الرؤية فى الشريعة الاسلامية التى يقصد بها رفع الجهالة اليسيرة لا الجهالة الفاحشة . محمد حلمى عيسى : شرح البيع ص ١٤٧ ـ ١٤٨

وقد عرضت بعض كتب الفقه الاسلامى والقانون لموضوع خيار الرؤية — انظر المصادر التالية : ابن عابدين : رد المحتار جـ ٤ ص ٦٥ ـ ٦٩ ، السيواسى : فتح القدير جـ ٥ ص ١٣٧ ـ ١٥١ ، الزيلعى : تبيين الحقائق جـ ٤ ص ٢٤ ـ ٣٠ ، الكاسانى : بدائع الصنائع جـ ٥ ص ٢٩٢ ـ ٢٩٩

السنهورى : البيع ص ١١٧ ـ ١٢٣ ، أحمد ابراهيم : المعاملات ص ١٢٠ ـ ١٢١ ، محمد سلام مدكور : الفقه الاسلامى ص ٥٤٨ ـ ٥٥٧ ، عيسى : شرح البيع ص ٢٣٢ ـ ٢٣٦ وما بعدها ، محمد كامل مرسى : العقود المسماه جـ ٦ ( عقد البيع ) ص ١٣٦ ـ ١٣٧ ، على الخفيف : أحكام المعاملات الشرعية ص ١٤٨ ـ ١٥٣ ، أحمد أبو الفتح : المعاملات ص ٢٢٠ ـ ٢٢١ ، ٢٩٦ ـ ٢٩٨

ومهما يكن من أمر فان جل الفقهاء المسلمين يقولون إن الوصف يغنى عن الرؤية ، والبيع على الوصف جائز شرعا ، وليس للمشترى عند ذاك خيار الرؤية ، وإنما له خيار الخلف فى الوصف ، بل إن الوصف يجعل إقرار المشترى أنه عالم بالمبيع بمثابة الرؤية .

ولا شك أن المشترى يجب أن يكون عالما بالمبيع علما كافيا ، ويعتبر العلم كافيا ، إذا اشتمل العقد على بيان المبيع وموقعه وأوصافه وحدوده الأساسية بيانا يمكن من تعرفه مما يجعل المبيع مميزاً عن غيره ، واضحا فى ذهن المشترى ـ فهذا الوصف الدقيق يقوم مقام الرؤية الحقيقية ، والمذاهب الثلاثة بخلاف الحنفى تستغنى عن الرؤية بالوصف .

الزيلعى : تبيين الحقائق جـ ٤ ص ٢٨ ، حلمى عيسى : شرح البيع ص ٣٤٦ ـ ٣٤٨ وما بعدها ، كما إن إقرار المشترى صراحة فى عقد البيع بأنه عالم بالمبيع ، يجعل إقراره حجة عليه ، كما يسقط حقه فى طلب إبطال البيع بدعوى عدم علمه به إلا إذا ثبت تدليس البائع أو إذا رده بخيار العيب . ابن عابدين : رد المحتار جـ ٤ ص ٢٣ ، ٦٥ ـ ٦٧ ، الكاسانى : بدائع الضائع جـ ٥ ص ١٦٣ ، السنهورى : البيع ص ١١٤ ، ١٢٣ ، الجزيرى : الفقه على المذاهب الأربعة جـ ٢ المعاملات ص ١٦٩ ـ ١٧٣ ، ٢١٤ وما بعدها . والواقع أن الوصف مهما كان دقيقا نافيا للجهالة الفاحشة ، لا يصل إلى درجة الرؤية المحققة للمعرفة ، والتى يتم بها ويكمل معها الرضا ، وترتفع الجهالة المفضية إلى الضرر .

محمد سلام مدكور : الفقه الاسلامى ص ٥٤٨ ـ ٥٥١

ومهما يكن من أمر فقد تحقق فى عقد البيع موضوع دراستنا الأمور التالية :

١ ـ وصف المبيع مشاعا . سطر ١٦ ـ ٢٠

٢ ـ إقرار المشترى بالعلم . سطر ٢١

٣ ـ الرؤية عند التخلية . سطر ٢٩ ـ ٣٠

٣٤ – يقصد بذلك أن البائع الصفوى جوهر يملك الشىء المبيع ، وأنه جار بيده وملكه وتصرفه حال صدور البيع بدلالة مكتوبة ( مستنده أو عقد ملكيته ) الشرعى الموثق . وقد ثبت ذلك أيضا بشهادة الشاهدين الواردة على الهامش الأيمن فيما بين السطر ١٣ – ١٨ ، انظر نص وجه الوثيقة حاشية ب لوحة رقم ٢ . ويظهر من صيغة الشهادة الموضوعية « يشهد من يوضع اسمه . . . . . » والتوقيع « وكتب عنه باذنه » أن الشاهدين لم يوقعا بخطهما لأنهما لا يعرفان الكتابة ، وقد قام بالتوقيع بالنيابة عنهما من كتب اسم كل منهما باذنه وفى حضوره . بحثنا التوثيقات الشرعية ص ٢٨٦ تحقيق رقم ٥٤ وما به من مصادر .

والواقع أن تصرف البائع صحيح ، لأنه تصرف فيما يملك وقت البيع ، والملك التام من شأنه أن يتصرف فيه المالك تصرفا مطلقا ، بجميع أنواع التصرفات الجائزة شرعاً ومنها البيع ، لأنه لنفاذ البيع يجب أن يكون البائع مالكا للمبيع ، حتى يمكنه نقل ملكية المبيع إلى المشترى ، ولأن بيع ما ليس مملوكا للبائع لا ينعقد فى الشريعة الاسلامية . الفتاوى الهندية جـ ٣ ص ٢ – ٣ ، أحمد ابراهيم : المعاملات الشرعية المالية ص ١١٩ ، أحمد أبو الفتح : كتاب المعاملات ص ٢٤٠ ، محمد يوسف موسى : الأموال ونظرية العقد ص ١٦٥ ، ١٦٧ ، محمد سلام مدكور : الفقه الاسلامى ص ١٨١ – ١٨٢ السنهورى : البيع ص ٢٦٨

ولكن ما هى الطريقة التى اكتسب بها البائع حق الملكية ؟ هل كان سنده الشرعى عقد بيع أم منشوراً باقطاع ؟ لأن القلقشندى فى كتابه صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٥١ يقول : « إن بلاد الديار المصرية بالوجهين القبلى والبحرى بجملتها كانت جارية فى الدواوين السلطانية واقطاع الأمراء وغيرهم من سائر الجند إلا النزر اليسير مما يجرى فى وقف من سلف من ملوك الديار المصرية . . . . . . » .

وهل يعتبر منشور الاقطاع سنداً للملكية ، وعلى هذا يعتبر الاقطاع فى ذلك الوقت ملكا تاماً ؟ وإذا كان التصرف فى الاقطاع بالوقف صحيحاً ، فهل هو كذلك فى حالة البيع ؟

المعروف أنه لا يصح لصاحب الاقطاع أن يتصرف فى اقطاعه بالبيع ، لأن الاقطاع ليس ملك رقبة بل منفعة ، ولكن يظهر أنه فى النصف الثانى من القرن التاسع الهجرى ، توافرت الأملاك بسبب ما أجازته الشريعة لولى الأمر ( السلطان المملوكى ) ،

من حق التصرف بالبيع فى الاقطاع ، والأراضى التى لا مالك لها ( المباحة ) ، أو التى يموت عنها صاحبها دون أن يكون له وريث ، وكذلك فى أملاك بيت المال المعمور بسبب الظروف السياسية والحربية والمالية التى مرت بها الدولة المملوكية فى أواخر عهدها . وهكذا تصبح هذه الأراضى المبيعة ملكا تاما لمن يشتريها وله حق التصرف فيها . القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١٣ ص ١١٢ – ١١٧ ، الباز العرينى : الاقطاع الحربى بمصر زمن سلاطين المماليك ص ٢٣ – ٢٤ وما بها من مصادر .

ومن ثم فنحن لا نشك فى أن البائع قد آلت إليه ملكية المبيع عن طريق الشراء بسند الملكية Titre de propriéte المحرر الموثق ، الذى قدمه كدليل مادى على حقه فى ملكية المبيع الذى تصرف فيه بالبيع ، لا ينازعه فيه أحد حتى تاريخ البيع . والراجح عندنا أن سنده كان عقد بيع Titre de vente ، لأن العقد أحد أسباب الملك التام .

محمد يوسف موسى : الأموال ونظرية العقد ص ١٨٥ ، ٢٠٠ ، كما ان هذا المستند دليل خطى ثابت — أخذ به القاضى الموثق بعد أن تحقق من صحته . بحثنا التوثيقات الشرعية ص ٣٨٨ – ٣٩٠ وما بها من مصادر . ويظهر أن البائع فى ذلك العصر كان يتحتم عليه تقديم المستندات اللازمة للمشترى عند العقد — وخاصة تلك التى تثبت ملكيته — حتى يتيسر له إجراء التوثيق والتسجيل . عبد الفتاح عبد الباقى : عقد البيع ص ١١٩ – ١٢٠ ، ١٤١

وهكذا يمكن القول بأن مستندات الملكية لا يقصد بها عقد البيع الصادر من البائع إلى المشترى فحسب بل يقصد بها جميع المستندات المثبتة لملكية البائع ، وهى تلك التى قدمها للبائع الصفوى جوهر لوكيل المشترى الأمير قجماس الاسحاقى ليسلمها لموكله السلطان قايتباى . وجه الوثيقة سطر ٢٣ – ٢٤

السنهورى : البيع ص ٥٩١ ، محمد حلمى عيسى : شرح البيع ص ٤٠٥

٣٥ — هذه إشارة إلى مواد الكتابة المستعملة فى ذلك العصر ، ومعظمها إما من الرق أو الورق – الشامى والمصرى – بأنواعه المختلفة . ويمكن القول بأن جل الوثائق المملوكية أصولا أو صوراً ، كانت مطوية على هيئة ملفات ( rolls ) من الرقوق المخيطة أو الورق الأوصال ، على حد تعبير كتاب الوثائق فى عهد المماليك .

القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٢ ص ٤٧٦ ، ٤٨٠ ، ٤٨٤ ـ ٤٨٨ ، جـ ٦ ص ١٩١ ، ابن خلدون : المقدمة ص ٣٩٩ ، المقصد الرفيع المنشا ( مخطوط ـ تصوير شمس ـ جامعة القاهرة رقم ت ٢٤٠٤ ) ص ١٢٠ ، ابن النديم : الفهرست ص ٣١ ، المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٤٧٠ حاشية ١ ، ٤٩٧ حاشية ٥

وعن الوثائق المملوكية المكتوبة على رق أو ورق انظر بحثنا دراسات تاريخية وأثرية فى وثائق من عصر الغورى ( تحت الطبع ) .

Grohmann: From the world of Arabic papyri pp. 24—25, 46—48, 53—56.

Hans Ernst: Die Mamlukischen Sultansurkunden des Sinai-Klosters. Wiesbaden 1960.

٣٦ ـــ لا بد أن تشتمل الوثيقة على ذكر ما يفيد صحة التصرف القانونى الذى كتبت به ، ونفاذه ولزومه وخلوه مما يفسده ، ولهذا كان أبو زيد الشروطى وبعض من بعده من أهل الشروط ، يكتبون فى وثيقة البيع ما يأتى : « شراء صحيحا باتا بتاتا لا شرط فيه ولا خيار ولا فساد . . . . » وكذلك كانوا يكتبون : « شراء صحيحا » لأن هذا هو الغرض ، وكتابة عبارة « اشتراء صحيحا شرعيا » اقرار من المشترى بصحة البيع وملكية البائع للمبيع أو محل التصرف . قراعة : مذكرة التوثيقات الشرعية ص ٢٦ ـ ٢٧

٣٧ ـــ الثمن Le prix ركن أساسى من أركان البيع ، وهو يميز البيع عن الهبة التى تقوم على إعطاء المال دون مقابل ، فاذا انعدم ركن الثمن بطل البيع فى الشريعة الاسلامية ، هذا وتسمية الثمن وتعريفه تعريفاً مانعا من الجهالة حين البيع لازمة ، فلو باع بدون تسمية الثمن أو تعريفه كان البيع فاسدا أو باطلا ، عبد الفتاح عبد الباقى : عقد البيع ص ٩٠ ، على الخفيف : أحكام المعاملات الشرعية ص ١٦٩ ، قراعة : مذكرة التوثيقات ص ١٩ ـ ٢٠

هذا ويلزم لتوافر ركن الثمن ، وبالتالى لقيام البيع وانعقاده ، تحقق الشروط التالية فى الثمن وهى أن يكون :

( ١ ) نقديا أى مبلغا من النقود une somme d'argent ، وفى الشريعة الاسلامية يعتبر العقد بيعا سواء أكان المقابل الذى يؤديه المشترى من النقود أو من غيرها

من الأشياء ، فالمقايضة فى الشريعة الاسلامية تدخل فى رحاب البيع وتعتبر صورة منه .
والوثيقة التى ننشرها وهى موضوع هذه الدراسة ، عقد بيع لأن طبيعة المقابل أو الثمن نقد ، ولأن البيع يتميز عن المقايضة بأن أحد المحلين المتبادلين فى البيع وهو الثمن يجب أن يكون نقوداً .

السنهورى : البيع ص٢٦٤ ـ ٣٦٥ . محمد حلمى عيسى : شرح البيع ص٢٠٧ ومابعدها ، عبد الفتاح عبد الباقى : عقد البيع ص ٩١ ـ ٩٢ ، الجزيرى : كتاب الفقه على المذاهب الأربعة ج ٢ المعاملات ص ١٤٧ وما بعدها .

(ب) حقيقياً جدياً Prix réel, serieux ، بمعنى أن يقصد المتعاقدان التزام المشترى بدفعه ، فلا يكفى أن يذكر فى العقد وجود الثمن ، إذا كان المشترى لا يلتزم بدفعه فى حقيقة الواقع ، لأن الثمن فى مثل هذه الحالة يكون صوريا Prix ficitif, simule
السنهورى : نفس المرجع السابق ص ٣٨٣ ـ ٣٩٠ وما بعدها ، عيسى : نفس المرجع ص ٢٠٩ ، عبد الفتاح عبد الباقى : نفس المرجع ص ٩٥

(ج) محدداً أو مقدراً Prix determiné ، والثمن المحدد أو المقدر هو الذى يعين مقداره فى عقد البيع . السنهورى : نفس المرجع السابق ص٢٦٧ ـ ٢٧٠ وما بعدها ، عيسى : نفس المرجع ص٢١٦ ـ ٢١٧ ، عبد الباقى : نفس المرجع ص٩٩ ، أحمد ابراهيم : المعاملات ص ١٣٧ ـ ١٣٨

والثمن المحدد فى هذه الوثيقة ليس تافهاً dérisoire ، بل هو ثمن بخس Prix vil ، ومع ذلك فإنه لا يمنع من قيام البيع صحيحاً شرعياً ، والثمن البخس هو الذى يرتقى إلى مرتبة الجدية ، ولكنه يقل كثيراً عن قيمة المبيع ، والأصل أن للمتعاقدين الحرية الكاملة فى تقدير الثمن الذى يشاءان ، لأن عقد البيع من عقود المفاوضة أو المساومة contrat de gré à gré ، فلا يلزم أن يكون الثمن متناسباً مع قيمة المبيع ، فبخس الثمن لا يؤثر فى البيع ، إلا أن الثمن فى بخسه يجب ألا يصل إلى حد التفاهة ، لأن الثمن التافه يأخذ حكم المعدوم ويبطل البيع .

وقد يكون الثمن بخساً يدخله الغبن الفاحش ، ومع ذلك يكون جدياً . وآية أن الثمن جدى ، أن يكون البائع قد أبرم العقد بقصد الحصول عليه مهما كان بخساً ، ولعل البائع قد رضى بالثمن البخس مضطراً لسبب من الأسباب ، لعل أهمها المصادرة فى ذلك العصر .

ومهما يكن من أمر فإن بخس الثمن يعيب البيع فى حالة واحدة ، هى حالة بيع عقار مملوك لغير كامل الأهلية أو ناقصها ، ولما كان البائع كامل الأهلية — فهو حر معتق — فله أن يبيع ماله بأى ثمن شاء ، وإن باعه بثمن قليل لم يؤثر فى سلامة البيع مقدار الغبن الذى لحق به ، مهما كان هذا الغبن فاحشاً ما دام الثمن جدياً ، وقصد البائع أن يحصل عليه.

وفى الفقه الاسلامى يمنع الغبن اطلاقاً فى الأموال الربوية ، وفيما عدا الأموال الربوية لا يؤثر الغبن إذا لم يصحبه تغرير ، ولكن مجرد الغبن إذا كان فاحشاً يؤثر فى بيع أموال المحجور وبيت المال والوقف فيجعل العقد فاسداً باطلا .

الكاسانى : بدائع الصنائع جـ ٦ ص ٣٠ ، عبد الفتاح عبد الباقى : نفس المرجع ص٩٨ ـ ٩٩ ، ١٠٧ ، السنهورى : نفس المرجع السابق ص٣٨٣ ـ ٣٨٤ ، ٥٩٢ ـ ٥٩٦ ، عيسى : نفس المرجع ص ٢١٠ ـ ٢١١ ، أنور سلطان : العقود المسماه — شرح البيع والمقايضة ص ٧٩ ، الجزيرى : المعاملات ٢٨٣ ـ ٢٨٤ ، أحمد أبو الفتح : المعاملات ص ١٨٠ ـ ١٨٢ ، أحمد ابراهيم : المعاملات ص ١٢٤

وإذا كان محل الالتزام ( الثمن ) نقوداً ، وجب أن تكون هى أيضا معينة بنوعها ومقدارها . وفى الوثيقة نلاحظ أن الثمن مقدر بالدنانير فى عقد البيع حسب المكان والزمان، ويظهر أن البائع قد اشترط استيفاء حقه ذهبا ، وهذا ما يسمى بشرط الذهب Clause d'or فيكون الثمن واجب الوفاء بالذهب payable en or ، لا بما يعادل قيمة الذهب من السكة السائدة فى ذلك العصر وهى الفلوس النحاسية أو غيرها ، لأن الذهب وحده هو العملة الثابتة التى لها قوة الابراء غير المحدودة . وكذلك يمكن القول بأن اشتراط الدفع بالذهب الطيب السالم من العيب الشرعى وزنا وعياراً يقطع فى جدية الثمن .

وفى الوقت الذى غمرت فيه النقود الرديئة والزغل والزيوف الأسواق المصرية ، واختفت فيه الدنانير الذهبية والدراهم الفضية ، وخاصة عند ما ضعفت الثقة فى السكة المملوكية وحل محلها النقد الذهبى والفضى الفرنجى ، عملت مصر تبعا لذلك على تخفيض الضريبة المفروضة على الذهب لحاجتها إليه ، سواء أكان سبائك أو سكة مضروبة من العملة الفرنجية الذهبية المعروفة فى الوثائق والمصادر التاريخية العربية المعاصرة باسم الافلورية أو الإفرنتية وهى دنانير مشخصة .

وثيقة السيفى قرابغا أوقاف ١١٨٩ ، وثيقة السلطان برسباى أوقاف ٨٨٠ ص ١٧٦ ، وثيقة جوهر اللالا محكمة ٨٩ ، وثيقة الزينى خشقدم محكمة ٩٠ ، القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٣٧ ـ ٤٣٨ . المقريزى : السلوك ج ١ ص ٦٨ حاشية ٥ . .

وبالرغم من ذلك ، قل تدفق الذهب على مصر بسبب احتكار سلاطين المماليك الجراكسة لتجارة التوابل والبهار والتوابل ، وخاصة فى عهد برسباى الدقماقى الذى عمل على احلال سكته الذهبية من الدنانير الأشرفية محل الدنانير الافرنجية الافلورية . السخاوى : الضوء اللامع ج ٣ ص ٨ رقم ٣٨ ، دائرة المعارف الاسلامية مادة « برسباى »
Lane poole : A history of Egypt in the middle ages p. 340
Gennep : Le ducat vénitien en Egypt, Paris 1897, pp. 4—13, 18..

ومهما يكن من أمر ، فقد قل الذهب فى مصر بسبب قلة إنتاج المناجم المصرية ، كما أن نظام المقايضة قلل أيضا من تدفق الذهب على مصر ، لأن سعر السلع فى حالة المقايضة كان يزيد عن سعرها فى حالة الدفع نقداً ، وهذه الأسباب جميعا وهى قلة تدفق الذهب الأوربى ، وقلة إنتاج المناجم ، ونظام المقايضة ، إلى جانب نشاط القرانصة الصليبيين ومهاجمتهم للقوافل التجارية البحرية فى شرق البحر المتوسط ، قد أدت إلى اضطراب كبير فى العملة الذهبية المملوكية ، فهى لم تستقر على وزن معين أو عيار ثابت .

توفيق اسكندر : نظام المقايضة فى تجارة مصر الخارجية فى العصر الوسيط (مجلة الجمعية التاريخية المصرية م ٦ سنة ١٩٥٧) ، صبحى لبيب: التجارة الكارمية وتجارة مصر فى العصور الوسطى ( مجلة الجمعية التاريخية م ٤ عدد ٢ مايو ١٩٥٢ ) .

ورغم المحاولات المختلفة للحصول على كميات من الذهب إلا أن هذا المعدن النفيس استمر فى التناقص ، مما أدى إلى أن تصبح الدنانير الذهبية المملوكية منخفضة فى الوزن والعيار على السواء . فقد كان وزن دينار السلطان قايتباى يتراوح بين ٣٫٣٧ ـ ٣٫٤١ جم . بحثنا وثيقة السلطان قايتباى (كتاب المؤتمر الثالث للآثار) ص ٤١٠ حاشية ١ وما بها من مصادر . بينما كان الدينار الاشرف برسباى والظاهرى جقمق متساويان فى الوزن ، إذ تقول وثيقة الجمالى يوسف ناظر الخواص الشريفة محكمة ١٠٥ بتاريخ ٨٤٩ هـ ما نصه :

« . . . . . الذهب الظاهرى المتعامل به يومئذ بالديار المصرية زنة كل دينار درهم واحد وثمن درهم بصنج الفضة . . . . » وفى موضع آخر ما نصه : « . . . . . . الذهب

العين المصرى المختوم الظاهرى . . . . . . . » وتذكر وثيقة الظاهر بيبرس محكمة ١٢٦ ما احتاجته عمارة الربع الظاهرى فى سنة ٨٦٥ هـ فتقول ما نصه : « . . . . . . . من الذهب الطيب الاشرفى الوازن المتعامل به بالديار المصرية ثلاثة الاف دينار كل دينار من ذلك درهما وثمن درهم صنج الفضة . . . . . . . » .

وقد ورد فى وثيقة كل من محمد بن تغرى برمش محكمة ٢٦١ ، ووثيقة طرابای من على باى محكمة ٢٦٥ ما نصه : « . . . . . . بالذهب الاشرفى والظاهرى الطيب الوازن السالم من عيب مثله معاملته الان بالديار المصرية . . . . . . » .

ومن هذه النصوص يتضح لنا أن وزن الدينار الاشرفى يعادل وزن الدينار الظاهرى فكل منهما يزن درهما وثمن بصنج الفضة أى ما يوازى ٥١ر٣ جم باعتبار وزن الدرهم ١٢ر٣ جم .

٣٨ — لا شك فى أن الدينار الاشرفى هو الذى ينسب إلى السلطان الملك الاشرف أبو النصر برسباى ( ٨٢٥ — ٨٤١ هـ ) ، فقد ضرب برسباى السكة الذهبية مراراً فى سنى حكمه ، منها سنة ٨٢٩ ، ٨٣٦ ، ٨٣٧ ، ٨٣٨ ، ٨٤٠ هـ وغيرها . وكان وزن ديناره ( الأشرفى ) يتراوح بين ٣٨ر٣ — ٤١ر٣ جم .

Lane poole: Catalogue of the collection of Arabic Coins preserved in the Khedivial Library at Cairo, p. 269.

— Catalogue of Oriental Coins in the British Museum (The coinage of Egypt) vol. IV, p. 204 pl. VIII.

Lavoix: Catalogue de Monnaies Musulmanes de la Bibliothèque Nationale, T. III, pp. 419—425, pl. IX.

أنظر دينار الأشرف برسباى بمتحف الفن الإسلامى رقم ١٣٤٧١/٥ لوحة رقم ١٢

ارسله[ه]
[لا] اله الا الله
[محمـ]ـد رسول الله
[بالهدى]

بالقاه[ـرة]
السلطان الملك الاش[رف ب]
ابو النصر برسباى ع[ـز نصره]
. . . . . . . . . . .

والدينار الأشرفى من أجود الدنانير فى العصر المملوكى الجركسى ، وفى ذلك يقول ابن إياس : بدائع الزهور جـ ٢ ( ط . بولاق ) ص ٢٢ « وكانت معاملته من أحسن المعاملات من أجود الذهب والفضة ولا سيما الأشرفية البرسبهية ، فإنها من خالص الذهب وإلى الآن يرغب إليها الناس فى المعاملة » .

ومهما يكن من أمر فقد ضرب برسباى فى سنة ٨٢٧ هـ دنانيرا بوزن يزيد على وزن تلك التى كانت متداولة فى الأسواق ، كما عمل على إصلاح السكة الذهبية ، ففى سنة ٨٢٩ هـ ، ٨٣١ هـ أبطل التعامل بالدنانير المشخصة ، وأمر بضرب الافلورية أشرفية فى دار السك المملوكية بالقاهرة . المقريزى : السلوك ( مخطوط ) جـ ١١ ص ٣٧١ ـ ٣٧٦ ، ٣٩٢ ـ ٣٩٩ ، ٤٠٤ ـ ٤٠٦

Gennep: Le ducat vénitien en Egypt, p. 18.

والراجح عندنا أن الدنانير الظاهرية تنسب إلى السلطان الظاهر أبو سعيد جقمق ( ٨٤٢ ـ ٨٥٧ ) ، فقد ضرب جقمق السكة الذهبية فى كل من القاهرة وحلب فى عدة سنوات منها ٨٤٢ ، ٨٤٣ ، ٨٤٦ هـ وغيرها . وكان وزن ديناره ( الظاهرى ) يتراوح بين ٣٧ر٣ ـ ٤٢ر٣ جم .

Lane poole : Cat. of the collection of Arabic Coins, pp. 270—271.
— Cat. of Oriental Coins (The coinage of Egypt) vol. IV, p. 206, pl. VIII.

Lavoix: op. cit. pp. 429—440, pl. IX.

وثيقة الجمالى يوسف ناظر الخواص محكمة ١٠٥

أنظر دينار الظاهر جقمق بمتحف الفن الاسلامى رقم ٣٧٨٢/٦ لوحة رقم ١٢

[ارسله]
[لا] اله الا ا [لله]
[محـ]ـمد رسول الإ[له]
[بالهدى]

بالقاه[ـرة]
[ا] لسلطان الملك الظ[اهر]
[ابو سعـ]ـيد جقمق [عز نصره]
. . . . . . . . . . . .

ومن الملاحظ على هذه الأوزان الخاصة بالدنانير الأشرفية والظاهرية الموجودة فى مجموعات المتاحف العالمية ، أنها تقل عن الأوزان التى قررتها الوثائق المملوكية ونصت عليها صراحة وهى درهم وثمن أو ما يساوى ٣٫٥١ جم . أنظر الحاشية السابقة رقم ٣٧

ولعل السبب فى نقص وزن الدينار يمكن أن نرده إلى تآكل معظم الدنانير بالمتاحف بسبب كثرة تداولها أو قص أجزاء منها لمعرفة عيار الذهب فيها .

وقد سار جقمق على سياسة برسباى فى تمصير الدنانير الافلورية كما يستفاد من النص السابق ذكره وهو « الذهب العين المصرى المختوم الظاهرى » فالنص يؤكد أن الدينار الظاهرى لم يكن من الذهب الافلورى أو البندقى ، الذى عمل برسباى من قبل على الحد من تداوله فى الأسواق المصرية ، بل وابطال التعامل به بعد ضرب الدينار الأشرفى بالسكة الإسلامية .

السخاوى : الضوء اللامع ج ٣ ص ٧١ رقم ٢٨٧ ، دائرة المعارف الاسلامية مادة « جقمق » .

والثمن المقدر فى عقد البيع وهو ألف وخمسمائة دينار من الذهب الأشرفى والظاهرى ، حال الدفع أى واجب الاداء فور العقد . أحمد أبو الفتح : نفس المرجع ص ٣٦٥ ، الجزيرى : كتاب الفقه على المذاهب الأربعة ج ٢ المعاملات ص ١٥١ . فالقاعدة هى أنه يجب على المشترى أداء الثمن والوفاء به فى نفس الوقت الذى يقوم فيه البائع بتسليم المبيع ، ودفع الثمن paiement du prix هو الالتزام الأساسى الواجب على المشترى ، الذى يلتزم بدفع الثمن الذى تحدد بالمبلغ النقدى الذى ارتضاه المتعاقدان فى عقد البيع ، إذ البيع إنما هو نقل ملكية المبيع فى مقابل دفع الثمن .

السنهورى : البيع ص ٧٦٩ ـ ٧٧٠ ، عيسى : نفس المرجع ص ٥٤٧ ، عبد الفتاح عبد الباقى : نفس المرجع ص ٢٨٩ ـ ٢٩٠

٣٩ — اعترف البائع الصفوى جوهر بقبض جميع الثمن واستيفائه بتمامه وكماله من مال المشترى على يد وكيله ، أى أن القبض قد تم بوصول الثمن إليه ، وأنه لم يتأخر له قبلهما من الثمن المذكور شىء قل ولا جل ( سطر ٢٦ ـ ٢٨ ) . ثم عاد البائع وأقر صراحة أنه لا يستحق قبلهما حق ولا استحقاق . . . . . . . . لما مضى من الزمان

وإلى تاريخه ( سطر ٣٠ ـ ٣٣ ) ، وهكذا ابرأ البائع المشترى ووكيله من الثمن المذكور فى عقد البيع .

وقد ورد اعتراف البائع وإقراره بقبض الثمن بصيغة الفعل الماضى . أنظر تحقيق رقم ٢٠ وكذلك جاء فى النص بعض الألفاظ القانونية مثل الاستحقاق وهو طلب الحق ، فكل حق يجب للغير على العين المبيعة أو على منفعتها كلها أو بعضها هو استحقاق ، والاستحقاق بمعنى ظهور أن المبيع كله أو بعضه غير مملوك لبائعه — بأن لم يكن مملوكا أصلا أو مملوكا لغيره — من شأنه حرمان المشترى من جزء من الشىء المبيع أو من بعض منافعه .

ابن عابدين : رد المحتار جـ ٤ ص ١٩٩ وما بعدها ، عبد الفتاح عبد الباقى : نفس المرجع ص ٢٥١ ، أحمد أبو الفتح : نفس المرجع ص ٣٢٧ وما بعدها ، عيسى : نفس المرجع ص ٤٦٣

كما أقر البائع بأنه لا حق له فى الرجوع بالبيع ؛ وذلك بفسخ العقد قضائياً — برفع الدعوى على المشترى يطلب فيها فسخ البيع — وخاصة بعد أن وفى المشترى بالتزاماته الناشئة عن العقد وأهمها دفع الثمن المستحق عليه .

السنهورى : البيع ص ٨١٣ وما بعدها ، ص٨٢٦ ؛ قراعة : مذكرة التوثيقات الشرعية ص ١٥٥

٤٠ — يجب أن يشتمل العقد على ما يفيد أن المتصرف والمتصرف اليه — البائع والمشترى — يملك هذا التصرف ، وانه صدر منه فى حال نفاذ تصرفاته ؛ وصحة بدنه وكمال عقله ؛ وأنه غير مكره عليه بل حصل بطوعه ورضاه ، وأنه لا علة به من مرض ولا غيره تمنع صحة الاقرار ونفاذ التصرف ، فلا دافع له ولا مطعن فيما تضمنه عقد البيع ، كما أنه لا يوجد عذر عند أى من طرفى العقد — وهما كل من وكيل المشترى والبائع — يمنعه من الجرى على موجب العقد شرعاً .

وهذا كله لأجل ألا يكون هناك محل لنقض التصرف القانونى ، أو فسخه من جانب الطرفين ، أو أحدهما أو غيرهما ، أى أنه ليس هناك ما يسوغ نقض الالتزامات التى يرتبها العقد ، ولأن هذا مناف للقاعدة العامة القائلة بأن المسلمين عند شروطهم إلا شرطا أحل حراما وحرم حلالا ، وكما يقول رجال القانون المحدثين العقد شريعة المتعاقدين .

قراءة : مذكرة التوثيقات الشرعية ص ٢٧ ـ ٢٨

٤١ ـــ العقد الملزم للجانبين contrat synallagmatique ، هو العقد الذى ينشىء التزامات متقابلة فى ذمة كل من المتعاقدين . وفى عقد البيع يلتزم البائع بنقل ملكية المبيع ، فى مقابل أن يلتزم المشترى بدفع الثمن . والظاهرة الجوهرية فى هذا العقد هو هذا التقابل القائم ما بين التزامات أحد الطرفين والتزامات الطرف الآخر . السنهورى : الوسيط ـ نظرية الالتزام ص ١٥٨!

وتسليم المبيع Delivrance إلى المشترى من أهم التزامات البائع obligations du vendeur ، وهذا الالتزام فرع عن التزامه بنقل ملكية المبيع ، ويلتزم البائع بتسليم المبيع إلى المشترى بالحالة التى كان عليها وقت البيع ، والمقدار الذى عين له فى العقد بالملحقات التى تتبعه .

السنهورى : البيع ص ٥٥٦ ـ ٥٥٨ ، عبد الفتاح عبد الباقى : عقد البيع ص١٧٦-١٧٧

ولتسهيل انتقال الملكية Transfert de la propriété من البائع إلى المشترى ، استعيض عن التسليم الفعلى بتسليم حكمى أو صورى ، وهو يتم بمجرد تراضى المتعاقدين ، ويتراضيان على أن المبيع قد تم تسليمه من البائع إلى المشترى ، ويتميز التسليم الحكمى عن التسليم الفعلى بأنه اتفاق convention أو تصرف قانونى acte juridique وليس بعمل مادى . السنهورى : البيع ص ٥٩٣ ، أحمد أبو الفتح : المعاملات ص ٣١٦ . ويكون ذلك بالنص فى العقد على أن البائع تخلى عن المبيع أو ما منه المبيع ليتسلمه المشترى .

ويظهر أن هذا النص قد شاع إدراجه فى عقود البيع فى ذلك العصر حتى صار شرطا مألوفاً clause de style لا يخلو منه عقد . سليمان مرقص ومحمد على امام : عقد البيع ص ٢٠

وهناك من يقول بأن تضمين البيع هذا الشرط ، كان يكفى لجعله ناقلا للملكية بمجرد انعقاد البيع ، ولو كان تسلم المبيع فى حقيقة الأمر لم يتم ماديا . عبد الفتاح عبد الباقى : نفس المرجع ص ٨ ـ ٩ ، ١١٩ وما بعدها . والواقع أن الغاية الأساسية من عقد البيع بالنسبة للمشترى هى نقل ملكية المبيع إليه .

والحقيقة أن التخلية لازمة لصحة التسليم ، والأرض الزراعية توضع تحت تصرف المشترى بالتخلى عنها . عيسى : شرح البيع ص ٤٠١ ، عبد الفتاح : نفس المرجع ص ١٩٠ .

وفى الشريعة الاسلامية التسليم فى المبيع ( العقار ) ، هو أن يخلى البائع بين المبيع وبين المشترى ، على وجه يتمكن المشترى من قبضه من غير حائل ولا مانع ، والمراد بقولهم بلا حائل ولا مانع أن يكون المبيع مفرزاً . ابن عابدين : رد المحتار جـ ٤ ص ٤٤ ـ ٤٥ ، الكاسانى : بدائع الصنائع جـ ٥ ص ٢٤٤ ـ ٢٤٥ ، مرسى : العقود المسماة جـ ٦ عقد البيع ص ٢٢٥ ، أحمد ابراهيم : نفس المرجع ص ١٤٤ ، محمد يوسف موسى : نفس المرجع ص ٤٥٠

هذا والمشترى فى أكثر مذاهب الفقه الاسلامى ليس له أن يتصرف فى المبيع قبل قبضه ، بالرغم من أنه أصبح مالكا له ، وهذا يوضح لنا وجوب التخلية والقبض أو تسلم المبيع قبل التصرف فيه . السنهورى : البيع ص ٤٢٣ حاشية ١

وقد تصرف السلطان قايتباى فى المبيع بالوقف بعد ذلك بحوالى خمس سنوات أى فى سنة ٨٧٩ هـ ، وهذا التصرف جائز شرعاً لأنه أصبح مالكا للمبيع الذى إنتقل إليه بعد قبضه وتسجيله .

والواقع أن للتسليم وجهين ، فكما أنه التزام على البائع باجرائه ( عن طريق التخلية ) ، فهو يتضمن أيضاً التزاماً على المشترى بتسلم المبيع obligation de prendre livrasion ، فهو حق له وواجب عليه فى نفس الوقت . فالتسليم والتسلم أمران متلازمان فور تمام العقد ، والتسلم فى أغلب صوره هو العملية المتممة للتسليم .

عبد الفتاح عبد الباقى : نفس المرجع ص ١٩٧ ، ٣١٤ ، السنهورى : البيع ص ٨٤٥ وما بعدها ، محمد حلمى عيسى : شرح البيع ص ٥٨٥ ـ ٥٨٦

٤٢ — أنظر بحثنا هذا تحقيق رقم ٣٣

٤٣ — لكى يتم العقد ويكون معتبراً شرعاً ، يجب أن تتحقق أركانه وشروطه التى لا بد منها ، ومن هذه الشروط ما يتعلق بالأركان نفسها ( الايجاب والقبول ) ومنها ما يتعلق بموضوع العقد ، ومنها أخيراً ما يتعلق بالعاقد ، وهكذا تكون المعاقدة الشرعية .

( أولا ) الايجاب والقبول : العقد هو ربط بين كلامين أو عبارتين صادر كل منهما عن طرف ، والواقع أن كل عبارة تصدر من طرفى عقد البيع تعتبر إيجاباً ، وأن تسمية إحداهما إيجاباً والأخرى قبولا ليست إلا تسمية اصطلاحية فقط لا واقعية . أحمد أبو الفتح :

المعاملات ص ۲۲۸ ـ ۲۳۳ ولكى ينتج ركنا العقد وهما الإيجاب والقبول أثرهما ، ويكون للعقد وجود معتبر شرعاً ، يجب أن يتوافر فيهما ثلاثة شروط :

( ۱ ) أن يكون كل منهما صادراً من شخص مميز عاقل ، يدرك ما يقول ويعنيه حقاً ، وبهذا يكون تعبيره معبراً حقاً عن إرادته .

( ۲ ) أن يتوافق الايجاب والقبول على شىء واحد ، أى على محل العقد بعينه ( المبيع والثمن ) .

( ۳ ) اتصال القبول بالايجاب فى مجلس العقد إن كان الطرفان حاضرين معاً .

محمد يوسف موسى : الأموال ونظرية العقد فى الفقه الاسلامى ص ٢٥٤ ـ ٢٥٧

ولا شك أنه يجب لتكوين عقد البيع — وسائر العقود — وهو عقد رضائى contrat consensuel حصول الرضا consentiment الصحيح المجرد عن الاكراه بين المتعاقدين ، وهو تقابل الايجاب والقبول وتطابقهما ، ويشترط فى الرضا وهو ركن من أركان البيع ، أن يكون شاملا كل الشروط اللازمة لتكوين العقد . كما يجب أن يكون رضا أحد طرفى العقد مطابقاً لرضا الطرف الآخر تمام المطابقة ، وأن يتصل القبول بالايجاب فى مجلس العقد ، ويقال لذلك توافق الايجاب offre والقبول acceptation ، أو توافق الإرادتين الصحيحتين المتطابقتين accord des volontés ، أيا كان طريق التعبير عن الإرادة ومظهره .

محمد كامل مرسى : العقود المسماه جـ ٦ ( عقد البيع ) ص ٣٣ — ٣٧ وما بعدها . السنهورى : عقد البيع ص ٤١—٤٥ ، ٥٠ ، محمد يوسف موسى : نفس المرجع ص ٢٥٧ ، الهلالى وحامد زكى : شرح القانون المدنى — فى عقود البيع والحوالة والمقايضة ص ٤٩ ـ ٥٠ ؛ محمد سلام مدكور : الفقه الاسلامى ص ٣٥٩ وما بعدها .

السنهورى : الوسيط — نظرية الالتزام ص ١٧٠ ـ ١٧٢ ، ٢٠٥ ـ ٢١٧ وما بعدها ، عبد الفتاح عبد الباقى : نفس المرجع ص ١٦ ، ٢٩ ـ ٣٠ ، أحمد ابراهيم : المعاملات الشرعية المالية ص ٧٧ ، ١١٤ ـ ١١٥ ، على الخفيف : أحكام المعاملات الشرعية ص ٦٨ ـ ٧٤ ، ١٦١ ، الجزيرى : الفقه على المذاهب الأربعة جـ ٢ ، المعاملات ص ١٥٥ ـ ١٦٠

ويقرر فقهاء الشريعة الاسلامية أن البيع ينعقد بالايجاب والقبول Pollicitation ، دون حاجة إلى ورقة رسمية بل ولا إلى ورقة عرفية ، فمجرد توافق الايجاب والقبول يكفى فى عقد البيع ، أعنى أنه يجب لانعقاد البيع أن يحصل الرضا بين طرفيه ، على طبيعة العقد La nature du contrat وموضوعه وهما المبيع والثمن .

ابن عابدين : رد المحتار جـ ٤ ص ٥ ، ١١ ، الكاسانى : بدائع الصنائع جـ ٥ ص ١٣٦ - ١٣٧ ، البابرتى : العناية ، السيواسى : فتح القدير جـ ٥ ص ٧٤ ، ٧٨ - ٨١

مرسى : نفس المرجع السابق والجزء ص ٥٦ ، عبد الفتاح : نفس المرجع ص٣٢-٣٤، ٣٧ ، ٣٩ ، ٥٦ ، حلمى عيسى : نفس المرجع ص ٣٥ - ٣٩ .

( ثانياً ) موضوع العقد : أو محله كما يعبر الفقهاء هو ما وقع عليه التعاقد ، فهو الغرض من العقد والمقصود منه ، والذى به تتعلق أحكامه وآثاره . ففى حالة البيع ، موضوع العقد هو كل من المبيع والثمن .

١ — المبيع L'objet de la vente ، والمبيع أو المحل فى واقع الأمر ركن فى الالتزام لا ركن فى العقد ، فمحل الالتزام هو الشىء الذى يلتزم المدين القيام به ، وصار الالتزام بنقل الملكية محله هو الشىء ذاته الذى تنتقل ملكيته ، والمبيع ليس هو الشىء ذاته بل هو الحق فيه - أى بيع حق الملكية . ولا ينعقد البيع إلا إذا توافر فى الشىء المبيع الشروط التالية وهى أن يكون :

موجوداً ، معينا ، داخلا فى دائرة التعامل ، مقدور التسليم وقت التعاقد ، مملوكا للبائع.

ابن عابدين : نفس المصدر السابق جـ ٤ ص ٣ ، ١٣ ، ١٠٥ ، ١٠٨ - الكاسانى : نفس المصدر السابق جـ ٥ ص ١٣٨ ، السيواسى : نفس المصدر السابق جـ ٥ ص ١٩١ -١٩٥ السرخسى : المبسوط جـ ١٢ ص ١٩٤ وما بعدها .

السنهورى : الوسيط - نظرية الالتزام ص ٣٧٥ - ٣٨٣ ، ٣٨٦ - ٤١٣ ، البيع ص ١٩١ - ١٩٤ ، ٢٢٥ - ٢٢٦ ، ٢٦١ - ٢٦٢ ، ٢٦٨ - حلمى عيسى : نفس المرجع ص٩٦ ، ١٠٨ ، ١٤٢ وما بعدها : محمد سلام مدكور: نفس المرجع ص ٤٢٧ ، الجزيرى: المعاملات ص ١٦٣ - ١٦٨ ، محمد يوسف موسى : نفس المرجع ص ٣٠٥ - ٣١٦ ، عبد الفتاح عبد الباقى : نفس المرجع ص ٧٢ - ٧٣ ، ٨٥ . الخفيف : نفس المرجع

ص ٩٤ - ٩٥ ، ١٦٢ ، أحمد أبو الفتح : نفس المرجع ص ٢٣٤ - ٢٣٨ ، أحمد ابراهيم : نفس المرجع ص ١٣٠ - ١٣١

٢ — الثمن : أنظر بحثنا هذا تحقيق رقم ٣٧ وما به من مصادر .

( ثالثاً ) العاقد : لا شك أن من أركان العقد وجوب الرضا وصحته كما رأينا ، وصحة الرضا بالأهلية ، والواقع أن الأهلية يجب توافرها فى الالتزام القانونى . ولا جدال فى أن العقد يعتمد أولا وقبل كل شىء على إرادة المتعاقدين ويستمد قوته منها ، لأن جوهر التصرف القانونى هو الإرادة ، والإرادة هى العنصر المكون والمنشىء للعمل القانونى . فالإرادة هى مصدر الالتزامات ، والمقصود بها الإرادة التى تصدر من صاحبها بنية إحداث أثر قانونى معين هو إنشاء الالتزام ، والارادة بهذا التحديد هى العمل القانونى .

السنهورى : نظرية العقد ص ١٤٧ ، ٣١٣ ، الوسيط — نظرية الالتزام ص ١٤٤ ، ١٧٢ ، ١٧٨ ، ٢٦٥ ، ١٢٩٦ . فمن شروط صحة عقد البيع الأهلية ، والأهلية منطقها التمييز ، لأن الارادة لا تصدر إلا عن تمييز ، فمن كان كامل التمييز كان كامل الأهلية ، وأهلية التصرف واجبة فى كل من المشترى والبائع ، أى أنه يجب أن يكون كلاهما متصفا بالأهلية الشرعية للتصرف capacité legale de s'obliger ، وهى تقتضى بلوغ سن الرشد .

السنهورى : البيع ص ١٠٨ - ١١٠ ، عبد الفتاح عبد الباقى : نفس المرجع ص ٥٨ - ٥٩ وما بعدها . وتنقسم الأهلية قسمين : أهلية الوجوب ، أهلية الاداء .

عبد اللطيف ابراهيم : وثيقة الأمير آخور كبير قراقجا الحسنى ص ١٩٢ حاشية ٢ وما بها من مراجع .

وأهلية الأداء هى صلاحية الشخص لاستعمال الحق ، وتتوقف عليها المعاملات والتصرفات على كافة أنواعها ، والأصل أن كمال هذه الأهلية تثبت له وعليه كل الحقوق والواجبات ، ولتعتبر كل عقوده وتصرفاته نافذة شرعاً وقانوناً ، والمقصود بالأهلية دون تحديد أهلية الأداء .

البدائع جـ ٧ ص ١٧١ ، المبسوط جـ ٢٤ ص ١٦١ وما بعدها ، رد المحتار جـ ٤ ص ٥

محمد يوسف موسى : نفس المرجع ص ٢١٦ - ٢٢٦ ، السنهورى : الوسيط — نظرية الالتزام ص ٢٦٥ - ٢٦٨ وما بعدها . مرسى : العقود المسماة جـ ٦ عقد البيع ص ٩٨ وما بعدها . أبو زهرة : الملكية ونظرية العقد ص ٢٧١ ، الخفيف : نفس المرجع ص ٩٦ - ١٠١ وما بعدها ، أحمد أبو الفتح : نفس المرجع ص ٢٣٣

الجزيرى : الفقه على المذاهب الأربعة جـ ٢ المعاملات ص ١٦٠ - ١٦٢

محمد سلام مدكور : الفقه الاسلامى ص ٤٣٨ وما بعدها . عيسى : نفس المرجع ص ٢٧٦ وما بعدها .

٤٤ — أنظر بحثنا هذا تحقيق رقم ٣٩

٤٥ — هذا هو تاريخ التصرف القانونى (البيع) الوارد فى البروتوكول الختامى للوثيقة ، وهو مكتوب بخط كاتب الوثيقة . وأما موضع التاريخ فى الكتاب ، فالذى استقر عليه حال كتاب الزمان كتابة التاريخ فى آخر الكتاب على حد قول القلقشندى فى صبح الأعشى جـ ٦ ص ٢٦١ - ٢٦٢

والتاريخ عنصر أصيل ولازم فى ختام الوثائق الدبلوماتية العامة والخاصة . لأنه يدلنا على الزمن الذى دونت فيه الوثيقة وشهادة الشهود على ما ورد فيها من تصرف قانونى .

وهذه الوثيقة مؤرخة باليوم والشهر والسنة — وذلك دفعاً للاشتباه والالتباس — بالتقويم الهجرى وهو مدار التأريخ الإسلامى .

عبد اللطيف ابراهيم : التوثيقات الشرعية والاشهادات ص ٣٨٢ تحقيق رقم ٥٠ وما به من مصادر .

Hans Ernst: Die mamlukischen Sultansurkunden, Wiesbaden, 1960.

٤٦ — الحسبلة هى الدعاء الختامى فى نهاية عقد البيع فى وجه الوثيقة وقبل شهادة الشهود مباشرة . وقد اصطلح الكتاب على أن يكتبوا الحسبلة بلفظ الجمع «حسبنا» على اعتبار أن المتكلم يتكلم بلسانه ولسان غيره من الأمة ، لا أن الجمع للتعظيم لأنه ليس بلائق بالمقام . ويلاحظ كذلك أن الحسبلة تسبقها «واو» لا معنى لها ، إذ لا علاقة بين الحسبلة

وما قبلها حتى يعطف عليه والواجب حذفها . وترد الحسبلة دائما فى ختام الوثائق المملوكية الخاصة ، وأحياناً كثيرة فى ختام الوثائق العامة .

بحثنا التوثيقات الشرعية ص ٢٩٨ تحقيق رقم ٦٣ وما به من مصادر .

Hans Ernst: Die mamlukischen Sultansurkunden, Wiesbaden, 1960.

٤٧ — يبدأ نص الشهادة بلفظ « اشهد » بالصيغة الذاتية . والواقع أنه فى قول الشاهد « اشهد » معنى اليمين ، والأصل أن لا يشهد الشاهد إلا على ما يعرف . ومحل اشتراط الفقهاء لفظ «اشهد» إنما هو فى الشهادة الملزمة ، التى يترتب عليها وجوب الحكم على القاضى ، وهى المعنية بالشهادة عند الاطلاق . ويلاحظ كذلك أن صيغة شهادة الشاهدين متطابقة ومتفقة لفظا ومعنى .

بحثنا التوثيقات الشرعية ص ٢٠٧ ـ ٢١٠ ، ٢٨٣ تحقيق رقم ٥١ وما بها من مصادر .

هذا ويشترط أن تكون الشهادة بمجلس القاضى ، لأن الغرض من الشهادة الحكم بموجبها ، فلا بد أن تكون بحضرة القاضى وفى مجلس حكمه . بحثنا هذا تحقيق رقم ٦٠ وما به من مصادر .

الحكمة من الشهادة هنا هى شهادة الشاهدين على ما صدر من التصرف الذى كتبت الوثيقة به ، وعلى طرفى العقد وهما المشترى ووكيله والبائع بجميع ما نسب إليهم فى عقد البيع .

قراءة : مذكرة التوثيقات الشرعية ص ٢٨ ـ ٢٩

٤٨ — هذا اللفظ الوارد فى آخر نص الشهادة « وكتب » يدل على أن الشاهد قد وقع بخط يده ، بعد أن قام بكتابة عبارة الشهادة بألفاظها التى أداها فى مجلس الحكم ، وهذا يقطع فى الدلالة على أنه متعلم عارف بالكتابة ، فكأن الشاهد يقول « وبذلك شهدت وكتبت » فى التاريخ الذى شهد فيه .

بحثنا التوثيقات الشرعية ص ٢٩٩ تحقيق رقم ٦٤ وما به من مصادر .

٤٩ — هو محب الدين محمد بن محمد بن على بن الركن عمر بن حسن الأسيوطى القاهرى الشافعى . ولد سنة ثمان وعشرين وثمانمائة بأسيوط ، ويعرف فى بلده بابن الركن لقب جده الأعلى ، وفى القاهرة بكنيته أبو الطيب . حفظ القرآن والشاطبية والمنهاج وألفية النحو ، قدم القاهرة بعد الأربعين ونزل عند ابن عمه أبى الحجاج الأسيوطى ، وتبحر

فى القراءات والعربية والفقه وأصوله ، وتدرب فى صناعة الشروط كما راجع فضلاء أرباب المذاهب فى مسائل الخلاف حتى تميز ، وأشير اليه بالفضيلة وحسن الفهم والتؤدة ، والتثبت وجودة الخط والعبارة ، وارتقى حتى انفرد بكتابة مستندات السلطان قايتباى فمن دونه ، وركن الناس إليه فاعتمدوه ، فقد كان فقيها عالما بالشروط الشرعية ، عارفا بأمور صنعة التوقيع ، خبيرا بكيفية كتابة العقود ، عالما فاضلا ، وجيها عند الأمراء وأرباب الدولة ، فهو من أعيان الموقعين فى عصره . وقد حج مراراً ، واستقر فى خدمة الشيخونية بعد ابن الشحنة الحنفى ، فزاد دخله وكثر أعداؤه .

وفى سنة ٨٩٢ هـ غضب عليه السلطان قايتباى ووبخه ، بل وقصد الاخراق به ، فلم يحتمل هذا كله وألقى بنفسه عمداً فى النيل عند المقياس ومات غريقا فى صفر سنة ٨٩٣ هـ .

السخاوى : الضوء اللامع جـ ١١ ص ١١٨ رقم ٣٦٨ ، ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٣ ص ٢٤٢

وقد وقع كشاهد على كل من عقد البيع فى وجه الوثيقة سطر ٤٥ ، وعلى الاسجال الحكمى التوثيقى فى ظهرها سطر ٢٧

٥٠ — هو يحيى بن عمر بن أحمد بن يوسف القاهرى المالكى ، ويعرف بالسفطى نسبة لخال أمه . ولد حوالى سنة ثمان وعشرين وثمانمائة بالقاهرة . حفظ القرآن وتعلم الفقه ، وجلس مع قريبه المذكور شاهداً . فبرع فى الشروط وترقى حتى صار أحد أعيان الموقعين فى عصر السلطان قايتباى . استنابه الحسام ابن حريز فى القضاء ثم صار نقيباً فى بابه ، كما ولاه السلطان وظيفة مباشرة بعض الأوقاف . وقصد فى القضايا المهمة فتمول وأثرى ، وبنى عمارة بالجودرية بالقاهرة . وكان حسن الكتابة والفهم ، لديناً مع ترفع وتمقت للضعفاء ونحوهم بحيث خدش ذلك من محاسنه . مات فى ليلة الثلاثاء ٢٤ صفر سنة ثمان وسبعين وثمانمائة ، وصلى عليه فى محفل عظيم بجامع الماردانى ، ودفن بالتنكزية بالقرب من باب القرافة ، وقد خلف تركة هائلة .

السخاوى : نفس المصدر جـ ١٠ ص ٢٣٧ — ٢٣٨ رقم ١٠٠١

وقد وقع كشاهد على كل من عقد البيع فى وجه الوثيقة سطر ٤٧ ، وعلى الاسجال الحكمى التوثيقى فى ظهرها سطر ٢٩

٥١ ، ٥٢ — هذه هى تأشيرة القاضى الموثق مجد بن محمد بن الرومى الحنفى الذى قام بالحكم بصحة التصرف ولزومه وبتوثيق عقد البيع . وقد كتب القاضى العبارتين بخط يده عقب توقيع الشاهدين سطر ٤٦ ـ ٤٧ ، ٤٨ ـ ٤٩ شكل ١٥ ، ١٦

ويظهر أن التصديق على توقيع الشاهدين ، قد تم قبل الاشهاد والحكم بصحة التصرف ولزومه مباشرة ، وهذه التأشيرة أو العلامة تدل على أداء الشاهدين لشهادتهما أمام الموثق وقبولها شرعاً ، وأن الشاهدين متنصبان للشهادة متسمان بالعدالة ، ولم يكتب القاضى الموثق ذلك أسفل توقيع كل منهما إلا إذا كان قاصداً الأعلام بصحة التوقيع ، وسلامته من الريب من جميع النواحى ، أو فى حالة ما إذا قصد الاحتجاج به فى محكمة أخرى أو ربما أمام مذهب آخر بعد ذلك . بحثنا التوثيقات الشرعية ص ٤٠١ وما بعدها تحقيق رقم ٦٧ وما به من مصادر .

( ب ) ظهر الوثيقة :

٥٣ — أنظر بحثنا هذا تحقيق رقم ١

٥٤ — هذا هو نص الحمدلة الواردة فى بداية الاسجال الحكمى التوثيقى فى ظهر الوثيقة . والمعروف أن الحمدلة من توابع البسملة ، ولكنها هنا جزء أساسى وأصيل فى إفتتاحية الاشهاد ، وقد قام القاضى الموثق بكتابتها بخط يده ، فهى علامته على حد قول القلقشندى .

وقد اصطلح الكتاب على الابتداء بالحمدلة فى كثير مما يكتبونه ، أما القضاة الموثقون فقد كان لكل منهم صيغة معينة من الحمدلة باعتبارها علامته ، ويكتبها القاضى بخطه فى سطر مستقل أو فى نفس سطر البسملة بقلم جليل ، ويظهر أنه كان لكل قاض علامته الخاصة المميزة التى ينفرد بها دون غيره من القضاة فى عصره ، فهو يفتتح بها الاشهاد فى ظهور الوثائق التى تعرض عليه لتوثيقها .

والحمدلة تعبر عن شخصية الفاعل الوثيقى ، كما كانت تغنى عن التوقيع والختم .

بحثنا التوثيقات الشرعية ص ٣٦٢ تحقيق رقم ٢ وما به من مصادر .

وقد وردت هذه العلامة « الحمد لله على جزيل نعمايه » بعد البسملة والتصلية فى ظهور الوثائق المملوكية التالية : وثيقة السيفى قرقماس أمير سلاح محكمه ١٠٤ ، وثيقة فاطمة المدعوة ستيته ابنة السيفى اينال بن عبد الله المحمدى محكمه ١١٣ ، وثيقة شمس الدين محمد

ابن الشهابى احمد بن شمس الدين محمد العجمى محكمة ١٦٠ ، وثيقة السلطان قايتباى أوقاف رقم ٨٨٨ ، رقم ٨٨٧ ، بحثنا وثيقة السلطان قايتباى - كتاب المؤتمر الثالث للآثار ص ٤٤٣ .

٥٥ — الثبوت لغة حصول أمر وتحققه عن طريق معرفته حق المعرفة، واشهاد القاضى بثبوت العقد أو التصرف حكم بعدالة البينة ( الشهادة ) عنده ، ومعنى هذا أن الثبوت جار مجرى الحكم . وقول القاضى الموثق : « ثبت ما نسب لمولانا المقام . . . . من اشهاده على نفسه . . . . بجميع ما نسب إليه فى مكتوب التبايع المسطر باطنه . . . . بشهادة شهيدى ذلك . . . . . » سطر ١ - ١١ ، معناه ثبوت قيام البينة والاقرار بها وتزكيتها وقبولها شرعا .

والثبوت عند الحنفية حكم بتعديل البينة وقبولها وجريان ذاك المشهود به .

بحثنا التوثيقات الشرعية ص ٢٨٠ تحقيق رقم ٤٨ وما به من مصادر .

٥٦ — هذا هو تاريخ التصرف القانونى الوارد فى ختام وجه الوثيقة. أنظر تحقيق رقم ٤٥

٥٧ — هذا اللقب وغيره من الألقاب الفخرية الدينية سبق لنا دراستها فى أبحاث أخرى.

أنظر بحثنا التوثيقات الشرعية ص ٣٦٦ — ٣٦٨ تحقيقات رقم ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ١٣ ، ١٥ وما بها من مصادر .

أما عن صدر الدين فهو من ألقاب العلماء والقضاة . بحثنا التوثيقات الشرعية . ص ٣٧٢ تحقيق رقم ٢٩ ، القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٨٩ ، ج ٦ ص ١٦٨ - ١٧٠ ، حسن الباشا ص ٣٧٧ .

وشرف العلماء ، من الشرف وهو العلو ، وقد دخل لفظ شرف فى تكوين كثير من الألقاب المركبة فى عصر المماليك ، مثل « شرف العلماء » للقضاة النواب ، وهو أقل مرتبة من « شرف العلماء فى العالمين » و « شرف العلماء العاملين » لقضاة القضاة وأكابر العلماء . حسن الباشا ص ٣٥٥ ، صبح الأعشى ج ٦ ص ٥٥ - ٥٦

أما أوحد الفضلاء ، فقد دخل لفظ أوحد فى تكوين كثير من الألقاب المركبة مثل « أوحد الفضلاء » وهو من ألقاب العلماء ، وربما استعمل فى غيرهم من أرباب الأقلام ، وقد خصصه القلقشندى لكتاب الدست وأمثالهم من كتاب الانشاء .

القلقشندى : نفس المصدر ج ٦ ص ١٠ - ١١ ، ٣٩ ، ١١١ . حسن الباشا ص ٢١٨ بحثنا التوثيقات الشرعية ص ٣٥٧ تحقيق رقم ٢٨ .

وكذلك مفتى المسلمين ، فقد دخل لفظ مفتى فى تكوين كثير من الألقاب المركبة مثل « مفتى المسلمين » وهو من ألقاب العلماء . القلقشندى : نفس المصدر جـ ٦ ص ٧٠ ، بحثنا التوثيقات الشرعية ص ٣٧٠ تحقيق رقم ٢٦ .

٥٨ — هو القاضى الموثق الشيخ صدر الدين أبو الخير محمد بن أبى عبد الله محمد ابن الرومى الحنفى ، الذى صدر على يديه الاشهاد . وقد قام بمهمتين من صميم سلطته ، الأولى قضائية وهى الحكم بصحة عقد البيع ولزومه ، والثانية ولائية وهى توثيق عقد البيع والأمر بتسجيله .

وهو محمد بن محمد بن محمد بن احمد بن اسماعيل بن داود الصدر بن الصدر القاهرى الحنفى ، نزيل السيوفية ويعرف بابن الرومى . السخاوى : الضوء جـ ٩ ص ١٩٤ رقم ٤٧٤

٥٩ — هما الشاهدان محمد بن محمد بن الركن الاسيوطى ويحيى بن عمر بن احمد السفطى . أنظر ترجمة كل منهما فى بحثنا هذا تحقيق رقم ٤٩ ، ٥٠

٦٠ — يقصد بذلك أن القاضى الموثق قد اشهد على نفسه ، من حضر مجلس حكمه وقضائه فى ٢٢ ذى القعدة سنة ٨٧٤ هـ بما ثبت عنده ثبوتاً صحيحاً شرعياً. بحثنا هذا ص١٤٤—١٤٥ .

والحاضرون بمجلس التوثيق هم جماعة من الشهود العدول ، من الموقعين وكتاب الحكم الذين كان يختارهم القاضى بعناية فائقة ، ممن تتوفر فيهم العدالة . وهؤلاء العدول كانوا يحضرون بمجلس الحكم والتوثيق لمعاونة القاضى ومساعدته فى وظيفته الأصلية ، وهى القضاء والحكم الى جانب وظيفته الولائية وهى التوثيق ، والقيام بناء على أمره بعملية التسجيل .

بحثنا التوثيقات الشرعية ص ٣٨٣ تحقيق ٥١ ، ص ٤٠١ تحقيق ٦٧ وما بها من مصادر .

ويظهر ان عقود البيع الصادرة على يد شهود أمام السلطة الدينية التابع لها المتعاقدان ، وبغير توقيع من البائع والمشترى ، طبقاً للعرف الذى كان جارياً وقتئذ ، تعتبر صحيحة خصوصاً إذا تبين أن العقد نفذ عقب حصوله ، واستولى المشترى على المبيع . حلمى عيسى : شرح البيع ص ٣٣

٦١ — هذا هو تاريخ الاشهاد أو الاسجال الوارد فى ظهر الوثيقة ، والذى جاء فيه الحكم بصحة عقد البيع ولزومه على يد القاضى الموثق محمد بن محمد بن الرومى الحنفى .

وقد استقر العرف على أن يترك كاتب الاشهاد فى ظهر الوثيقة ، موضع التاريخ بياضاً ليثبت فيه القاضى الموثق التاريخ بخطه ، وذلك لأهميته الكبيرة فى إكساب الاشهاد الموثق صفة الصحة والرسمية .

ويلاحظ أن القاضى الموثق كتب التاريخ بخط يده ( اليوم والشهر فقط ) فى وسط الاشهاد بقلم جليل . القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٦ ص ٢٣٤ — ٢٣٥ ، ٢٥٢ ، ٢٦١ ، جـ ١٢ ص ٣٤٢ ، ٣٤٩ . بحثنا التوثيقات الشرعية ص ٣٨٤ تحقيق رقم ٥٢ وما به من مصادر ، بحثنا هذا تحقيق رقم ٧٠

٦٢ — يقصد بذلك شهادة الشاهدين الواردة فى نهاية البروتوكول الختامى فى وجه الوثيقة بتاريخ ٢٥ شوال سنة ٨٧٤ هـ ، وهى شهادة على التحرير والتصرف فى آن واحد .

بحثنا هذا تحقيق رقم ٤٧ ، ٥١ ، ٥٢ وما به من مصادر .

بحثنا التوثيقات الشرعية ص ٣٨١ تحقيق رقم ٤٩ وما به من مصادر .

٦٣ — أنظر بحثنا هذا تحقيق رقم ٣٤ وما به من مصادر .

٦٤ — أنظر بحثنا هذا تحقيق رقم ٤٠ .

٦٥ — الحكم بمعنى قضاء القاضى عبارة عن قطع الحاكم ( القاضى ) المخاصمة أو المنازعة وحسمه إياها . ويقال لهذا الحكم حكم الالزام ، لأنه يكون حكماً ملزماً أو قطعياً ، ولا خيرة فيه للمتبايعين لأنهما ملزمين بالحكم منفذ عليهما . والغرض من الحكم الإلزام به وتمكين أهل الحقوق من حقوقهم ، كما أن الحكم فى هذه الحالة لا يمكن التعرض لنقضه ، ويمتنع على أى حاكم آخر إبطاله مادام موافقا للشرع .

والواقع أن الحكم الصادر من القاضى الموثق فى محاكم العصر المملوكي ، كان حكماً قضائياً وإدارياً ملزما واجب التنفيذ فى آن واحد ، كما كانت له حرمته واحترامه وسلطانه بالنسبة للجميع ، فلا يكون هناك نزاع فتستقر الحقوق وتصان .

بحثنا التوثيقات الشرعية ص ٣٩١ تحقيق رقم ٥٥ وما به من مصادر .

٦٦ — موجب الشىء ما أوجبه ذلك الشىء واقتضاه ، والموجب فى باب الحكم أعم من المقتضى ، وهو التحقيق والحكم بالصحة . ومن ثم فالحكم بالموجب معناه أن الحكم صدر صحيحاً ويأتى مقتضياته الشرعية . فالحكم بالموجب عبارة عن قضاء القاضى بالالزام .

بما يترتب على ذلك الأمر على الوجه المعتبر عنده فى ذلك شرعاً ، ويستدعى ذلك أمران هما أهلية التصرف وصحة الصيغة فيحكم القاضى بموجبا .

وقد شرط شيوخ وأئمة المذهب الحنفى لاعتبار الحكم بالموجب ، أن يكون قد وقع الترافع والتنازع عند الحكم .

بحثنا التوثيقات الشرعية ص ٣٩٢ تحقيق رقم ٥٦ وما به من مصادر .

٦٧ — المعروف أن القضاء فى اللغة معناه الالزام ، ومعنى حكم القاضى إلزامه لكل فرد . فالحكم بالصحة عبارة عن قضاء القاضى بصدور التصرف من أهله فى محله على الوجه المعتبر عنده شرعا ، ومعنى صحة التصرف كونه صدر صحيحا بحيث تترتب عليه آثاره . فالحكم بالموجب وبالصحة عبارة عن قضاء القاضى بالالزام ، والمعروف كذلك أن الحكم هو إنشاء إلزام فى مسائل الإجتهاد المتقاربة ، والمراد بالالزام التقرير التام بعد أن ثبت عند القاضى على حد قول ابن عابدين .

فالالزام تابع ومرتبط بالحكم بل هو فى الحقيقة جوهر الحكم ولبه والغرض منه ، ومعنى هذا أن العقد قد وقع صحيحا لازما نافذا ، لأن تنفيذ حكم القاضى والالزام به أمر واجب ، ويترتب على التنفيذ تمام الفعل القانونى ولزومه وابرامه .

بحثنا التوثيقات الشرعية ص ٣٩٣ تحقيق رقم ٥٧ ، ص ٣٩٤ تحقيق رقم ٥٨ ، ص ٤٠٨ تحقيق رقم ٧٤ وما به من مصادر .

٦٨ — لا بد من توفر واستيفاء شروط الصحة الشرعية فى الوثيقة الدبلوماتية ؛ ولكى تكون الوثيقة شرعية ، لا بد أن تكتب فى شكل قانونى لا يدع مجالا للنزاع أو الخصام ، وذلك بمراعاة الشروط الشرعية اللازمة التى نص عليها الفقهاء ، والقاضى الموثق ومساعدوه من الموقعين وكتاب الحكم ، هم أعلم الناس بالشروط اللازم توافرها فى المحرر المراد توثيقه ، وهم أدرى الناس بما يجب ذكره بوضوح ودون لبس فى الصياغة القانونية .

قراءة : مذكرة التوثيقات الشرعية ص ٣ — ٤ ، ١٥ — ٣١

والملاحظ أن الوثيقة قد استوفت كل الشروط الشرعية الواجب توافرها فى عقد البيع — بحثنا هذا ص١٤٢-١٤٣ . وقد روعى فى ذلك كله إزالة الوهم أو الغموض الذى

قد يترتب عليه نزاع فى المستقبل ، أو فساد العرف وعدم شرعيته ، وذلك بأن احتاط الكاتب لذلك باستخدامه لكافة العبارات الفقهية اللازمة ليكون العقد جديراً بالثقة .

بحثنا التوثيقات الشرعية ص ٢٨٥ تحقيق رقم ٥٣ ، ص ٢٩٥ تحقيق رقم ٥٩ ، ص ٤٠٣ وما بها من مصادر .

٦٩ — يشترط فى القاضى شروط متعددة أوردتها كتب الفقه المختلفة ، ومنها أن يكون عالماً بالخلاف . والخلاف هو اختلاف المجتهدين من الأئمة والقضاة فى الأحكام الشرعية ، من جهة الحل والحرمة والصحة والفساد ، والخلاف إنما هو فى الجزئيات الاجتهادية منها فقط لا فى الكليات ولا فى مورد النص من الجزئيات ، لأن الكليات قطعية يقينية فلا خلاف فيها :

أحمد أبو الفتح : المعاملات ص ٢٢ — ٢٤ .

والقاضى إن لم يكن يعلم بالخلاف لم يجز قضاؤه ، وهذا شرط نفاذ القضاء ، أى العلم بالخلاف فيما فيه الخلاف فيما قصد الحكم به . ذلك أن حكم القاضى يرفع الخلاف ويجعل حكم تلك الجزئية الخاصة الصحة عند الجميع .

بحثنا التوثيقات الشرعية ص ٢٩٦ تحقيق رقم ٦٠ وما به من مصادر .

٧٠ — يقصد بذلك تاريخ الاشهاد نفسه وهو ٢٢ ذى القعدة سنة ٨٧٤ هـ — بحثنا هذا تحقيق رقم ٦١ . ومن هذا يتضح لنا أن نص الاشهاد — الخاص بتوثيق التصرف القانونى الوارد فى الوجه — كان يكتب فى الظهر قبل أن يقوم القاضى باجراءات التوثيق . وكان كاتب الاشهاد يترك مكان العلامة ( الحمدلة ) والتاريخ والحسبلة بياضاً ليكتبها القاضى الموثق بنفسه بقلم جليل . وثيقة الأمير خاير بك من مال باى دار الكتب ١٩٤٨/٤ تاريخ .

٧١ — هذه العبارة وأمثالها كثيراً ما ترد فى نهاية بعض الوثائق ، وقبل الحسبلة مباشرة . وهى تعقيب من كاتب الوثيقة على ما وقع فيه من اخطاء أو سقطات أو كتابة على كشط أو غير هذا وذاك . وقد اعترف الكاتب بصحة اللفظ الذى كتبه على كشط فى هذا الاشهاد وهو « باطنه » سطر ١٩

عبد اللطيف ابراهيم : وثيقة الأمير آخور كبير قراقجا الحسنى ص ١٩٦ حاشية ٢ ، ص ٢٥١ تحقيق رقم ٩٤ — ٩٦

٧٢ — هذا هو الدعاء الختامى فى نهاية متن الاسجال الحكمى فى ظهر الوثيقة ، وقبل شهادة الشهود مباشرة . بحثنا هذا تحقيق رقم ٤٦ . وقد اصطلح على أن يترك كاتب الاشهاد موضع الحسبلة فى ختامه يامناً ، ليقوم القاضى الموثق بكتابتها بخط يده بقلم جليل فى سطر واحد ( سطر ٢٤ ) ولكن يلاحظ أن الحسبلة الواردة فى السطر السابق ( سطر ٢٣ ) بخط الكاتب نفسه .

٧٣ — تبدأ الشهادة عقب الحسبلة مباشرة بهذه الصيغة وهى « اشهدنى سيدنا . . . . » أما باقى صيغ الشهادات الخمس التالية فتبدأ هكذا : « وبذلك اشهدنى اعز الله تعالى احكامه أو أيد الله تعالى احكامه . . . . » وعلى هذا درجت جل صيغ الشهادات فى وثائق العصر المملوكى الثانى . ويظهر أن القاضى الموثق قد طلب الشهادة ضمنيا من الشهود ، على صدور الحكم منه بصحة البيع ولزومه ، وتوثيق العقد فى حضورهم .

وتنتهى صيغ الشهادات جميعاً بما نصه « . . . . فشهدت عليه به فى تاريخه وكتب » ثم توقيع الشاهد .

عبد اللطيف ابراهيم : التوثيقات الشرعية ص ٣٦٩ تحقيق رقم ٦٤ وما به من مصادر ، وثيقة الأمير آخور كبير قراقجا الحسنى ص ١٩٧ – ١٩٨ ، بحثنا هذا تحقيق رقم ٤٧ .

وهذه الصيغة تدل على ان الشاهد يعرف الكتابة ، فقد وقع بخط يده بعد أن قام بكتابة عبارات الشهادة بألفاظها التى اداها بها فى مجلس الحكم ، والحكمة من الشهادة هنا ، هى شهادة الشهود على صدور الحكم من القاضى الموثق بصحة التصرف ( البيع ) ولزومه فى مجلس التوثيق .

٧٤ — انظر هذا البحث تحقيق رقم ٤٩ وما به من مصادر .

٧٥ — انظر هذا البحث تحقيق رقم ٥٠ وما به من مصادر .

٧٦ — هو محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن عبد الله بن أبى عمر محمد ناصر الدين الجعفرى القاهرى الشافعى الموقع ، ويعرف بناصر الدين الجعفرى . ولد فى سنة ٧٩٤ هـ بالجعفرية ، وحفظ القرآن وجوده ، وتعلم على شيوخ عصره اللغة والفقه ، وناب فى القضاء بالبلاد عن الشيخ البلقينى ثم بالقاهرة فى سنة ٨٥٧ هـ ، وكتب التوقيع دهراً ، وقد حج مراراً أولها سنة ٨٢٩ هـ ، كما ناب فى قضاء جدة ، وجاور بالمدينة ثلاثة أعوام .

وكان بارعا فى الفرائض والتوثيق متكسبا منه غالب عمره ، لا يمل من الكتابة فيه مع سلامة الفطرة ، وغلبة الغفلة ، ومزيد التواضع والتقشف ، وكان يتردد على المؤرخ السخاوى كثيراً .

مات بعد أن شاخ وهرم فى يوم الجمعة سلخ ذى الحجة سنة ٨٨٧ هـ .

السخاوى : الضوء اللامع جـ ٩ ص ٢١١ رقم ٥١٩

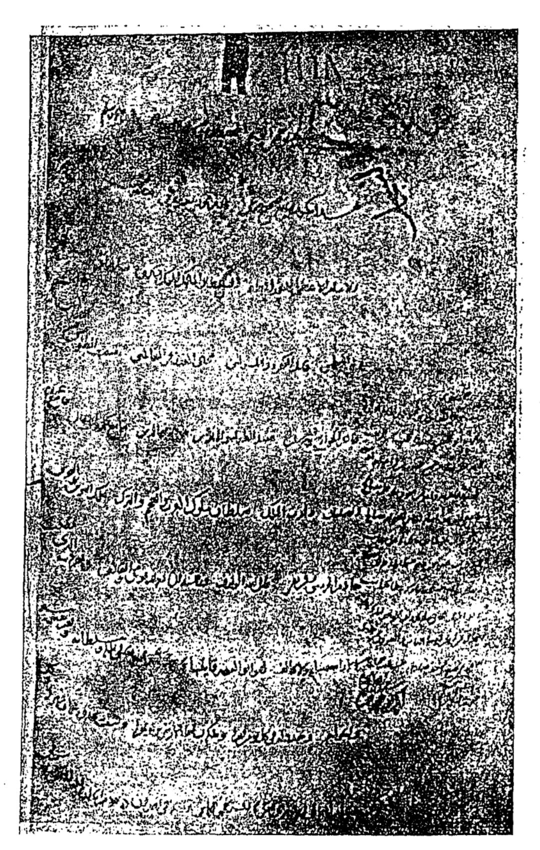
٧٧ — لعله أخو القاضى الموثق محمد بن محمد الرومى الحنفى .

٧٨ — هذا الشاهد هو ابن القاضى الموثق ، فقد كان لكل قاض فى مجلس حكمه مجموعة خاصة من أعيان الموقعين ، وكتاب الحكم من الشهود العدول ، وكان بعضهم من أسرته وذوى قرباه ، وعن هذا الطريق كان الواحد منهم يصل الى منصب القضاء أحيانا .

والمعروف أن أبناء العلماء والرؤساء تثبت عدالتهم على الحكام ، ويحكم القاضى بعدالة من تثبت عدالته لديه ، ويسجل له اسجالا بذلك ويشهد عليه .

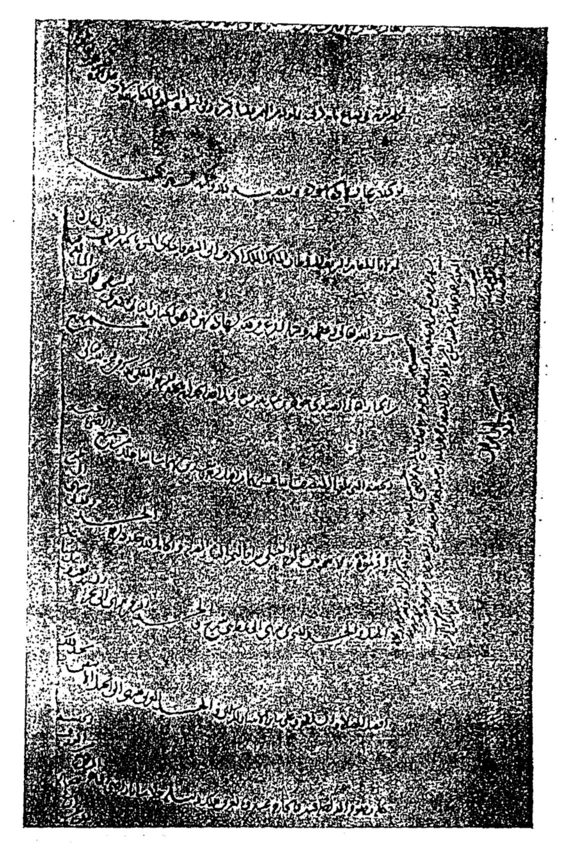
بحثنا التوثيقات الشرعية ص ٤٠٣ ، ص ٤١٢ تحقيق رقم ٧٩ ، ص ٤١٣ تحقيق رقم ٨٠ وما به من مصادر .

( لوحة رقم ١ )



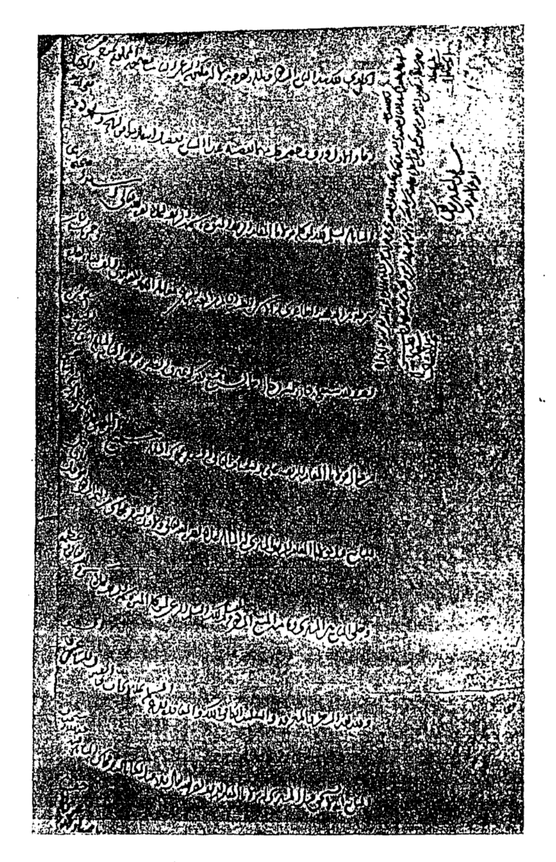
بداية وجه الوثيقة رقم ١٦٨ بأرشيف محكمة الاحوال الشخصية بالقاهرة

( لوحة رقم ٢ )



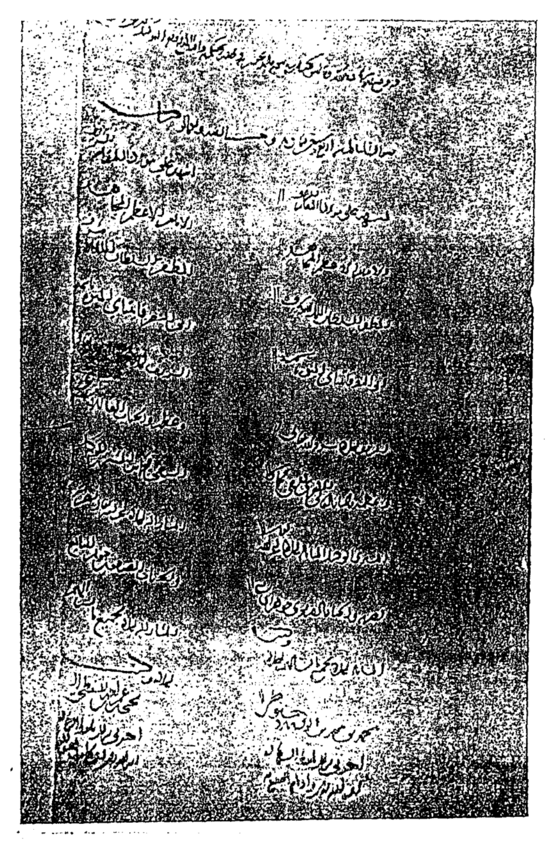
جزء من وجه الوثيقة ورد فيه التصرف القانوني

( لوحة رقم ٣ )



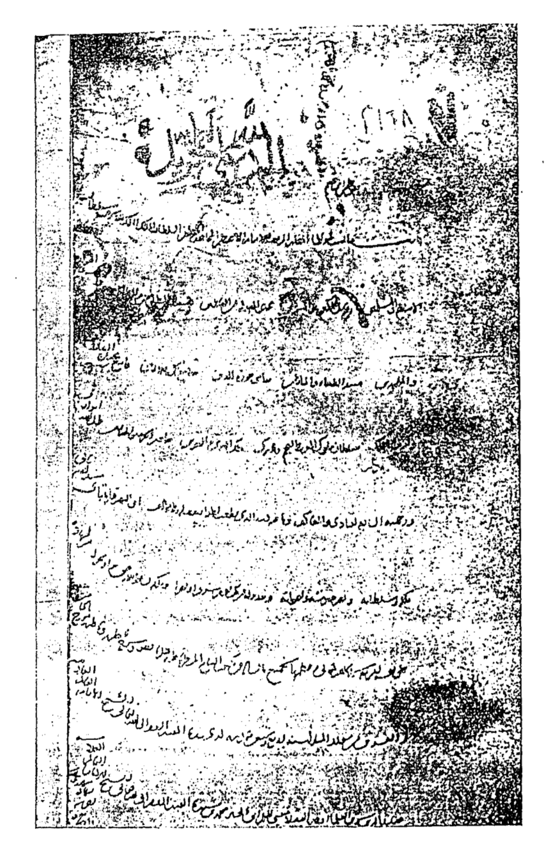
جزء من نص الوثيقة ورد فيه ذكر الثمن

( لوحة رقم ٤ )



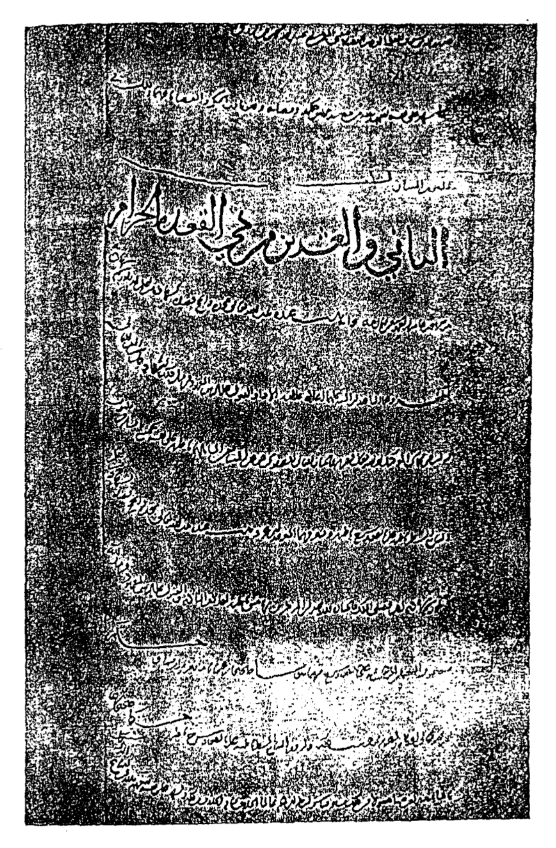
نهاية وجه الوثيقة ـ شهادة كل من الاسيوطى والسفطى

( لوحة رقم ٥ )



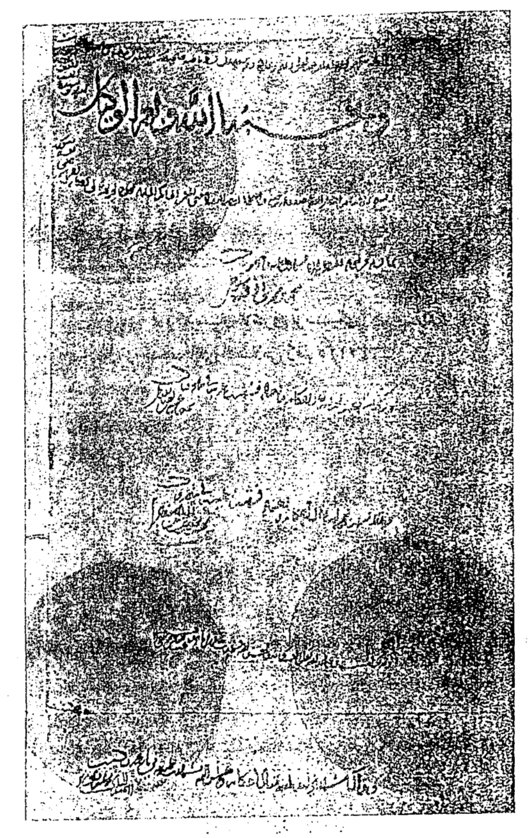
بداية ظهر الوثيقة وعلامة القاضي الموثق ( الحمدلة )

( لوحة رقم ٦ )


الثاني والعشرين من ذي القعدة الحرام

جزء من نص الانسجال ورد فيه التاريخ

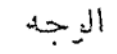
( لوحة رقم ٧ )



الدعاء الختامي في نهاية الإسجال وشهادة بعض الشهود

( لوحة رقم ٨ )

الظهر



الوجه





الدينــار الاشرفى برســباى

متحف الفن الاسلامى رقم ٥/١٣٤٧١

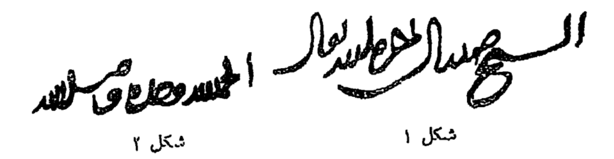




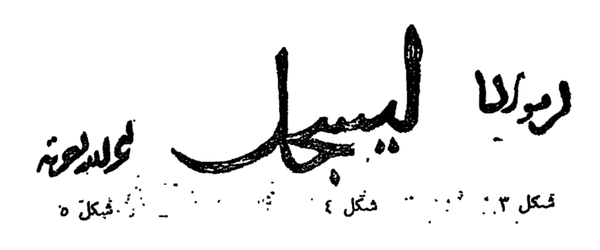
الدينار الظاهرى جقمق

متحف الفن الاسلامى رقم ٦/٢٧٨٢

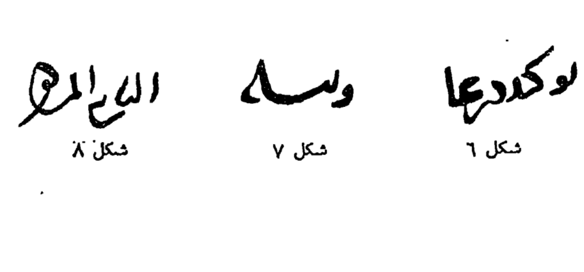
( لوحة رقم ٩ )



شكل ١ شكل ٢



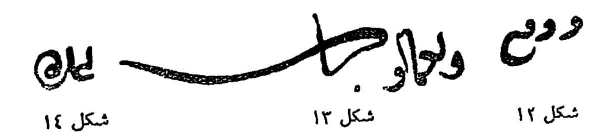
شكل ٣ شكل ٤ شكل ٥



شكل ٦ شكل ٧ شكل ٨



شكل ٩ شكل ١٠ شكل ١١



شكل ١٢ — شكل ١٣ — شكل ١٤

شكل ١٥ — شكل ١٦

شكل ١٧ — شكل ١٨

( لوحة رقم ١١ )



شكل ١٩

شكل ٢٠　　شكل ٢١　　شكل ٢٢　　شكل ٢٣

شكل ٢٤　　شكل ٢٥　　شكل ٢٦

( لوحة رقم ١٢ )



شكل ٢٧

شكل ٢٨ شكل ٢٩ شكل ٣٠ شكل ٣١

شكل ٣٢ شكل ٣٣ شكل ٣٤

# الشُفْتا فى إتيوبيا منذ العصور الوسطى
## وأثرهم فى تاريخ البلاد السياسى والاقتصادى

للدكتور زاهر رياض

معهد الدراسات الافريقية

لم تساعد طبيعة إتيوبيا الجبلية على قيام حكومة مركزية فيها إلا فى العصور الحديثة حين قامت الحكومة القوية التى تفرض قوتها على أجزائها المختلفة . وقامت — خلال العصور الوسطى — الحكومات المختلفة التى تسيطر كل واحدة منها على جزء من البلاد وقامت بينها الحروب المختلفة من أجل محاولة كل منها بسط سيادتها على الأخرى . ولذا كان استقرار الأمن والسلام أمرا من الصعوبة بمكان . كما كان انتشار اللصوصية وقطع الطريق أمرا طبيعيا . وإذا كانت هذه الحرفة قد قامت فى البلاد السهلة المنبسطة كمصر . فان قيامها فى البلاد الجبلية مثل إتيوبيا أكثر سهولة ويسرا . هذا إلى أن استمرار الحروب بين الملوك والأمراء من شأنه أن يساعد على قيام هذه الحرفة بل على نشاطها وازدهارها . فكثيرا ما لجأ هؤلاء الملوك المتحاربون إلى قطاع الطريق من أجل طلب المساعدة أو من أجل إيقاع الاضطراب والخلل فى أراضى الأعداء . ونهب الأهالى من أجل دفعهم إلى الثورة ما دامت حكومتهم لا تعمل على حمايتهم .

من أجل ذلك شاعت حرفة اللصوصية وقطع الطريق فى إتيوبيا منذ أقدم العصور وتألفت العصابات التى تضم العدد الكبير منهم وهم الذين نعنيهم بكلمة الشفتا .

وكان ضعف الحكومات يساعد من ناحية أخرى على نشاط هذه العصابات فتكثر من الإغارة على القرى والمدن تسلب الفلاحين ما يملكون وتقتل من يتعرض لها منهم . ويكفى أن يذكر حتى الآن اسم الشفتا لرجل الشـارع فى أديس أبابا أوغيرها من المدن فى إتيوبيا لترى إمارات الرعب والفزع قد ارتسمت على وجهه

فى أبشع صورة . وليس هناك من بلد أخرى فى العالم أثرت عصابات قطاع الطرق فى تاريخها السياسى والإقتصادى بمقدار ما أثرت هذه العصابات فى تاريخ إتيوبيا . بل كانت فى أوقات كثيرة من التاريخ تكاد تسيطر على تطور الحوادث سيطرة تامة . بل كانت الحكومة لعبة فى أيديها .

ولعل أقدم ما لدينا من وثائق عن نشاط هؤلاء الشفتا ذلك النص الذى تركه لنا الملك عيزانا فى القرن الرابع الميلادى والذى عثر عليه ليتمان فى سنة ١٩٠٥ وهو مكتوب باللغات الحبشية والسبأية والإغريقية عن حملات حربية قام بها هذا الملك من أجل القضاء عليهم .

ويقول النص الأول من هذه النقوش ( أن قبائل البجة التى تعيش فى الصحراء وتأخذ من الرومان جعلا سنويا كبيرا قد سببت كثيرا من الاضطراب لأن أفرادها لا يخضعون لقانون ، محبون للقتال ، ناهبون للقوافل )[١] لأن مملكة مرو قد سقطت ولم تعد هناك دولة قوية يرهبونها [٢] فأرسل اليهم عيزانا أخويه شيعازانا وهيديفا فانتصرا عليهم وأسرا ستة من زعمائهم وساقا أمامهما ماشيتهم وأربعة آلاف وأربعمائة من رجالهم .

ومن هذا النص أيضا عرفنا أن الملك أرسل حملة أخرى إلى سارانى وهى قبيلة بدائية متوحشة تسكن إقليم أفان لأنها لا تخاف ارتكاب الجرائم إذ هاجم أفرادها قافلة وقتلوا جميع أفرادها فأرسل اليهم الملك ثلاثة جيوش ولحقهم هو بنفسه حيث دارت المعركة التى انتهت بأن أسر الملك قائدهم بعد أن قتل المئات من الرجال والنساء والأطفال واسترق أعدادا أخرى [٣] .

كما جاء أيضا فى هذا النقش أن حملة ثانية أرسلت إلى النوبة وكاسو ( لأن أهلها هاجموا القوافل بعد أن كانوا قد أقسموا للملك ألا يفعلوا ذلك فوصلت الشكاوى من اعتداءاتهم إلى آذان عيزانا فى أكسوم فأرسل ضباطه للتحرى . فلما وصل

---

(١) L'Empire du Prêtre Jean T. I p. 145.

(٢) Budge, Vol. I p. 244.

(٣) Ibid p. 248.

هؤلاء إلى النوبة جردوا من أسلحتهم وسرقت أموالهم . وقد حذرهم الملك مرارا ولكنه لم يجد منهم إلا آذانا صماء ولم تكن إجابتهم على هذا التحذير سوى استمرارهم فى السرقة والنهب ) .

ومن هذه النصوص نستطيع أن نعرف أن اللصوصية وقطع الطريق كانت مهنة متفشية منذ القرن الرابع الميلادى فى الشمال والغرب والجنوب من المملكة الإتيوبية . وهى الأجزاء البعيدة عن سلطة الحكومة . وقد أخذت الحكومة على عاتقها مقاومتها بارسال الحملات الحربية لسحقها بل أن الملك نفسه كان يخرج على رأس هذه الحملات من أجل تأمين التجار على أموالهم .

وفى خلال المدة المحصورة بين القرنين الرابع والسابع الميلادى ظلت الحبشة دولة قوية مرهوبة الجانب حتى لقد رفض عيزانا أن يرضخ للامبراطور قسطنطين الثانى حين أرسل له تيوفيل ليطلب منه الإنفصال عن كنيسة الأسكندرية وقبول المذهب الأريوسى[1] كما استطاع بعض الأباطرة الإتيوبيين أن يحافظوا على سلطانهم فى اليمن والحجاز وأن يقيموا هناك الولاة معترفين بسلطة الأباطرة الاتيوبيين عليهم[2] وإذا كان هذا النفوذ قد توقف لبعض الوقت فان أباطرة آخرين استطاعوا أن يعيدوه إلى ما كان عليه كما فعل كالب Caleb فى القرن السادس[3] حين أرسل حملة من أجل نصرة المضطهدين الذين طلبوا منه الحماية .

وكانت ميناء عدول خلال هذه المدة التى أشرنا اليها ، ميناء نشطة مزدحمة بالتجارة ترد اليها السفن من الموانى المصرية ومن الهند وسيلان . كما تشرف على مجموعة من الطرق البرية التى تخرج من خلفها لتوزيع التجارة التى ترد اليها من مصر عن طريق النيل وإلى الصومال وإلى الهضبة الحبشية حيث كان ملك الأجوا يستقبل القوافل وقد بلغت فى بعض الأحيان أكثر من خمسة آلاف جمل يحرسها الرجال المسلحون وإلى أرض الساسو ( الوبلجا ) لمبادلتها بالماشية والملح[4] وقد أثارت ثروة كثير من المدن الاتيوبية دهشة الرحالة كوزماس حين قدم اليها من الهند فى تلك الأيام :

(١) L'Empire du Prêtre Jean. T. I p. 151, 152.

(٢) Ibid p. 154.

(٣) Ibid p. 164.

(٤) Ibid p. 160.

وإذا ما ظهر الإسلام وأوقع كفار قريش الأذى بالنبي (ص) وأصحابه لم يجد النبي من يعطي الحماية لأنصاره خيرا من ملك إتيوبيا فأرسل له هجرتين وجدا في قوته الحمى والأمان ولم يرضخ لتهديدات تجار مكة حين أرسلوا اليه مرتين يطلبون تسلم اللاجئين [١].

ولكن هذه القوة التي تمتع بها إمبراطور إتيوبيا وهذه الثروة التي مكنتها من اعداد أكثر من حملة ناجحة عبر البحر . لم تكن تمنع عصابات الشفتا من الهجوم على القرى واصطياد الرجال والنساء وإرسالهم إلى أسواق الرقيق فقد امتلأت أسواق فارس ومصر واليمن والجزيرة العربية بالرقيق من الأحباش وقد رأينا في بيت عبد المطلب جد النبي واحدة منهن هي أم أيمن التي سهرت على تربية النبي في طفولته وصبوته وشبابه . كما أمدتنا المصادر الإسلامية بأسماء كثيرين من الموالي الأحباش الذين عاشوا في بيوت قريش . كما كان معظم جنود مكة المرتزقة من الأحباش . وكان تجار العرب يستعينون بهم بكثرة في حروبهم القبلية . وفي خراسة قوافلهم وكان يطلق عليهم اسم العسكر تمييزا لهم عن العرب المواطنين . وكان رئيسهم في العادة عربيا يطلق عليه اسم السيد . وإليه يرجع فخر الإنتصار في المعارك التي يخوضونها . وكانوا يحملون العنزة (الحربة القصيرة) وهي السلاح المفضل لديهم [٢] ولم تكن الأحوال الإقتصادية في إتيوبيا من السوء بحيث تدفع بالأهالي أو بعضهم إلى أن يبيعوا أولادهم أو نساءهم بل على العكس فقد كانت الثروة تتدفق على البلاد من أنحاء كثيرة كما كان الخير عمها يدفع بالملوك إلى تجهيز هذه الحملات الحربية الناجحة التي بعثت كثيرا من الغنائم والإسلاب إلى الجند المشتركين فيها . فلا بد أن الهجمات المتوالية لعصابات الشفتا هي التي زودت هذه الأسواق بهذه الإعداد الكبيرة من الرقيق الإتيوبي . ...

ولم تلبث سلطة الأباطرة الاتيوبيين أن ضعفت منذ القرن التاسع الميلادي حين نزل التجار المسلمون بالجهات الشرقية وحالوا بين الأهالي وشاطىء البحر وطردوا

---

(١) الكامل لابن الاثير جـ ٢ ص ٢٩

(٢) Rossini, Storia d'Etiopia p. 215.

اليهود والإغريق والمصريين من الموانى الاتيوبية واحتلوا مكانهم واشتغلوا بالتجارة حتى رأينا سلطة ملوك أكسوم لا تمتد إلى أكثر من هضبة حماسين . وكان ضعف ملوك أكسوم مشجعا للقبائل البربرية التى كانت تعيش على حدودها الشرقية والغربية على أن تزحف لتنعم بهذا الخير الذى منعها من وروده قوة الملوك السابقين . وكانت الموجة الأولى من البجة . فقد ساعدت الدولة الرومانية دولة النوبة على أن تهاجم البليمين الوثنيين الذين يعيشون على حدودها الشرقية ويهددونها من وقت لآخر بمختلف الغارات ويخضعون لسلطة ملوك أكسوم فلم تجد هذه القبائل أمامها إلا أن تنتشر فى الصحراء الشرقية حتى ساحل البحر فى انتظار وقت ملائم. ولم تلبث هذه القبائل ومعها البجة والزنافج التى كانت تعيش على الرعى أن وجدت فى ضعف ملوك أكسوم الفرصة التى طالما انتظرتها فدخلت أكسوم من الغرب وتدفقت كالتيار الجارف حتى وصلت تجرى وبسطت قبائل البجة التى سكنت الساحل سلطانها على كل الساحل الأفريقى واشتغل منهم كثيرون بقطع الطريق فى البر كما اشتغل آخرون بالقرصنة البحرية فكانوا فى الناحيتين خطرا على التجارة (١) وفى هذا الوقت أيضا قامت دولة شوا الإسلامية فى الجنوب . ونحن وإن كنا لا نعرف على وجه التحقيق كيفية قيام هذه الدولة ولا متى اتخذت لها عاصمة ثابتة ولا أين كانت هذه العاصمة إلا أننا نعرف أنها قامت فى نهاية القرن الثالث الهجرى وأن مؤسسها هو أحد أولاد ود بن هشام الذى ينتسب إلى قبيلة مخزوم إحدى القبائل العربية التى هاجرت من شبه الجزيرة العربية أيام عمر بن الخطاب (٢) ولكن لا بد أن هؤلاء الذين قدموا من أفراد هذه القبائل العربية المهاجرة قد تجمعوا حول زعيم واستقروا فى ناحية من نواحى شوا ولم يشعروا بسلطة تمنعهم من تنظيم انفسهم على نحو ما تنظم الدول السياسية نفسها . فكل هذا يؤكد انعدام سلطة الحكومة . فى أجزاء كثيرة من الهضبة الحبشية . ولا بد أن هذه السلطة الضعيفة لم تستطع أن تكفل للاتيوبيين الأمن والطمأنينة . فعاثت عصابات الشفتا فى طول البلاد وعرضها تنهب وتسلب وتسرق من السكان من تستطيع أن تبعث به إلى أسواق الرقيق فى اليمن

---

(١) Luca dei Sabelli p. 212.

(٢) Cerulli ; Rossegna di Studi Etiopici V. I Anno I.

والقاهرة وبغداد وكانت جزر الدهلك مركز تجارته . بعد أن أصبحت مركزا لإمارة لها أسطول تجارى عنى مؤرخو العرب بالتغنى به . وقد امتد نفوذ حكام اليمن اليها وأصبحوا يأخذون من واليها جزية سنوية قدرها ألف رقيق نصفهم من النساء[1] وهذه الجزية ولاشك دليل على ازدياد قوة الشفتا فى البلاد الإتيوبية حين استطاعوا أن يجمعوا من الرقيق أعدادا هائلة يرسلون بعضها إلى سلاطين الدهلك ليدفعوها جزية إلى سلطان اليمن . وتحدثنا المصادر العربية أن سلاطين اليمن قد اعتمدوا على هذا الرقيق اعتمادا كليا فى تكوين جيوشهم ولم تكن هذه المئات الخمس التى يأخذونها من سلطان الدهلك لتكفى تموين جيوشهم فلا بد أن هذا الرقيق الذى يسلم اليهم عن طريق هذه المعاهدات لم يكن إلا جزءا يسيرا من أعداد هائلة يقدمها لهم آخرون من تجار الرقيق وزعماء الشفتا . لاسيا وأننا نعرف أيضا أن الرقيق فى اليمن لم يكن استخدامه قاصرا على الجيش بل امتد حتى شمل جميع مناصب الدولة . وقد استطاع هولاء الرقيق أن يسقطوا دولة بنى زياد[2] ويقيموا دولة حبشية اعتمدت بدورها على كل من يرد اليهم من رقيق إتيوبيا . ولم تكن اليمن وحدها مقصد تجار الرقيق بل كانت مصر والشام وبغداد أسواقا تعج برقيق إتيوبيا ولا يمكننا أن نتصور كثرة هذا الرقيق الاتيوبى الذى انتشر فى كل هذه الأسواق إلا ونتصور معها سلطة عصابات الشفتا وهى تمرح بين قرى تلك البلاد تأسر من تشاء دون ما رقيب . بل أن بعض الملوك شاركوهم هذا العمل تارة من أجل الإثراء وتارة من أجل الإنتقام من خصومهم من الملوك الأخرين . ولا شك أن هذه الأعداد الكبيرة من الرقيق إنما تمثل جزءا من اليد العاملة التى تعمل فى انتاج الغذاء للأهالى فنقصها يؤدى إلى نقص الإنتاج وإلى زيادة البؤس وإلى هرب الفلاحين من الأرض وانضمامهم إلى عصابات الشفتا طلبا للقوت . فهى حلقة مفرغة تدور دون توقف .

وفى نهاية القرن السابع الهجرى والثالث عشر الميلادى تعرضت دولة شوا الإسلامية لحالة قاسية من الفوضى حين انقسمت البلاد بين أكثر من أمير . يجلس

(١) اعلام الطراز المنقوش ص ٦

(٢) اللطايف السنية ص ١١ ب

كل واحد منهم على العرش لفترة قصيرة أو طويلة حتى يظهر أمير آخر يقتله أو يضطره إلى الهرب ويجلس على العرش مكانه . وقد استعان كل هؤلاء الأمراء بعصابات الشفتا تجندهم وتدفع بهم إلى نهب البلاد وحرقها . وتذخر هذه الفترة بكثير من الأسماء التى لم يكن أصحابها أمراء أو سلاطين يقودون جيوشا [1] يغيرون بها على المدن يقتحمونها وينهبونها دون أن يكون لهم غرض سياسى ظاهر . ولم يكن هؤلاء القواد المجهولون سوى زعماء لعصابات من الشفتا انتهزت فرصة هذه الفوضى الشاملة وصالت فى البلاد باحثة عن غرضها أو تنضم إلى إحدى الجيوش الثائرة لتصل إلى ما تريد من نهب وسلب . ولم يكن هؤلاء الأمراء الثائرون يجرأون على منعهم بل ربما كانوا يشجعونهم على عملهم فليس بغريب أن تقاسى البلاد نتيجة كل هذا فتتوالى عليها المجاعات التى بلغ من كثرتها أن سميت كل واحدة منها باسم تمييزا لها . كما حدث فى السنوات الهجرية ٦٥٠ و٦٥٧ و٦٧٠ مما كان سببا فى انتشار الطاعون فى سنتى ٦٦٠ و٦٧١ هـ [2] .

ويحدثنا ابن فضل الله العمرى صاحب مسالك الأبصار وينقل عنه القلقشندى صاحب صبح الأعشى [3] أن هدية ( وهى إحدى الولايات الإسلامية التى نشأت فى شرق إتيوبيا فى القرن الرابع عشر ويخضع سلطانها لسلطة الإمبراطور ) كانت أكثر البلاد عسكرا ويقدر عددهم بأربعين ألف فارس سوى المشاة الذين يبلغون ضعف هذا العدد وهم أنشط سكان الساحل فى تجارة الرقيق وكان الامبراطور يحاول دائما منع هذه التجارة بالتضييق على التجار ومنعهم من خصيهم . فكانوا يقصدون قرية اسمها وشلو . أهلها من الهمج الذين لا دين لهم حيث يخصون العبيد ثم يجلبونهم إلى هدية ، ومعنى هذا أن عصابات الشفتا كانت تهجم على القرى فى خفية عن أعين الحكومة متحدية أوامرها بمنع تجارة الرقيق وقوات الحكومة تطاردها وتمعن فى مطاردتها فيهربون منها إلى حيث لا تمتد سلطتها . فيقومون بعمليتهم المقوتة ويعودون حيث ينتظرهم التجار فى أسواق هدية فيتسلمون البضاعة جاهزة . وقد ساعد

---

(1) Rassegna di Studi Etiopici Vol I.

(2) Ibid.

(3) جـ ٥ ص ٣٢٧

هذه العصابات على الإنتشار بعد هذه الأجزاء عن سلطة الحكومة ومناخ هذه الجهات الحار الذى ينهك جنود الحكومة [1] فلا يتحملونه لمدة طويلة حتى كانوا فى بعض الأوقات يرغمون قوادهم على إنهاء الحملة والعودة إلى بلادهم لعدم تعودهم هذا النوع من المناخ وكذلك ما كان يتمتع به حكام الولايات الشرقية من استقلال داخلى فى ولاياتهم . حيث تجرأت عصابات الشفتا على أن تسود البلاد مخربة ناهبة سالبة ، قبل أن يلجأ الأمير إلى السلطة المركزية طالبا العون . فقد قام حق الدين بن أحمد حرب أرعد يقود هذه العصابات متحديا سلطة جده على بن صبر الدين بن عمر ولسمع وعمه ملا أصفح حتى إذا لجأ هذا العم إلى الإمبراطور مستنجدا به لم يتردد فى قتله. وظل يسود الركن الشرق عشرة سنوات كاملة وهو يخرب البلاد ويسجن النساء والأطفال حتى قتل فى إحدى غزواته سنة ١٣٧٢ م . وفى خلال هذه الفترة تعرضت التجارة الاتيوبية بين الساحل والداخل لأسوأ ما تتعرض له التجارة من التعطل بسبب هجمات هذه العصابات حتى كانت القوافل لا تسير إلا نهارا وأفرادها مدججون بالسلاح . وإذا ما مات حق الدين ترأس جماعته أخوه سعد الدين الملقب بأبى البركات وظل يعيث بهذا الإقليم كله زهاء ثلاثين سنة كانت كافية لأن تعطى اسمه على كل الأجزاء المنخفضة حتى شاطىء البحر الأحمر فسمى بر سعد الدين حتى قتل سنة ١٤٠٢ م بعد أن حوصر فى زيلع ثلاثة أيام [2] أيام حكم الملك داود وفر أولاده العشرة إلى اليمن حيث أكرمهم الملك الناصر وساعدهم حتى استطاعوا أن يعودوا إلى إتيوبيا بعد إثنى عشرة سنة ليقودوا الناهبين من جديد وظلت قوات الدولة تتعقبهم وتمعن فى قتلهم وسجن من يقع فى يدها منهم حتى انتهى أمرهم سنة ١٤٣٢ م .

وتحفظ لنا السجلات الاتيوبية أسماء كثيرين من القواد عملوا إلى جانب الإمبراطور من أجل القضاء على عصابات الشفتا وتطهير البلاد من شرهم . فقد كان زلن حسن قائد الجيوش الإمبراطور عمدا صيون ممعنا فى محاربة منصور بن سعد الدين وشهد له الجميع بالشجاعة حتى مات فى خدمة مولاه [3] كما كان على رأس جيش

(1) Budge p. 292.

(٢) الالمام ص ١٠

(٣) الالمام ص ١٢

زرء يعقوب الذى وجهه لقتال حاكم هدية، يامو أخوه وكذلك الجرد محمد حاكم هدية الجديد الذى ظل يقارع بدلاى بن سعد الدين حتى قتله فأنعم عليه الإمبراطور بألقاب التمجيد والتشريف . كما تصور لنا هذه الوثائق أيضا مقدار الخراب الذى أنزلته هذه العصابات بالبلاد ، فقد غنم سعد الدين فى إحدى غزواته أربعين ألف بقرة أخذ منها سليم بن عيان زوج إبنته إثنى عشرة ألف بقرة . وما فعله أولاد سعد الدين بعد عودتهم من اليمن كان أدهى وأمر . فقد غزا جمال الدين بن سعد الدين إقليم بالى فاسروسى مالا يدخل تحت حصر وغنم غنائم عظيمة حتى صار يحسن إلى كل فقير بثلاثة رءوس من الرقيق الذى بلغ من كثرته أن بيع الرأس بربطة من القات . ولا نستطيع أن نتصور مقدار الخراب الذي أنزله بالبلاد إلا حين نقرأ ما كتبه عنه المؤرخ يرثيه بعد موته فقد قال ( واسر من أسرة الكفرة مالا يدخل تحت حصر حتى امتلأت بلاد الهند واليمن وهرمز والحجاز ومصر والشام والروم والعراق وفارس من رقيق الحبشة ) [1].

وعندما تولى العرش زرء يعقوب ( ١٤٣١–١٤٦٥ ) ورأى ما عليه هذه العصابات من قوة حتى عجزت قوات الحكومة عن القضاء عليها ابتدع تنظيمه الإدارى الأول وعمل على تنفيذه بكل دقة رغم الصعوبات التى قامها فى وجهه أبنه ومن يلوذ به. وكان هذا التنظيم ينحصر فى أن يجعل من العاصمة المركز الحقيقى لدولة موحدة قوية . منها تصدر الأوامر إلى جميع أجزاء البلاد . فيحملها رسل أقوياء إلى حكام أقوياء أقامهم فى مقاطعات دولته تنحصر مهمتهم فى تلقى أوامر الحكومة وتنفيذها إلى جانب الحكام التقليديين وكانت سلطة هؤلاء الموظفين المعينين من قبل الإمبراطور ليكونوا عين الحكومة ويدها تفوق سلطة الحكام التقليديين بما يستندون عليه من سلطة الحكومة وقوتها [2] وبذلك أصبح قصر الإمبراطور فى العاصمة مصدر السلطة كلها وتجمعت فى يد كل القوة وخضع له جميع رعاياه فأطلت إتيوبيا على البحر الأحمر بقوة حقيقية بعد أن حرمت منها منذ قيام الأسرة الزجوية فى القرن العاشر بل قبل ذلك .

---

(١) الالمام ص ٣٢

Bruce, Vol. III p. 101. (٢)

وفى بداية القرن السادس عشر نجد الإمبراطور لبنا دنجل (١٥٠٦ – ١٥٤٠) يوجه قائده الجرد أبون لمحاربة زعيم من زعماء الشفتا هو بكر بن أزر الذى كان قد جمع حوله جموعا من الصومال والمفسدين وقطاع الطرق [1] وظل يعبث بالبلاد مستندا على مركزه كفرد من العائلة المالكة فى إيفات وبلغ هذا اللص وأعوانه من قطاع الطريق من السلطة أن تغلب على قوات الحكومة وقتل الجرد أبون ونصب نفسه سلطانا على إيفات فلم يحل ذلك دون أن يعهد الإمبراطور بهذه الحرب إلى قائد آخر من قواده كان بمثابة اليد اليمنى للجرد أبون هو القائد أحمد بن ابراهيم الملقب بالأشول . وكانت هدنة الامبراطور مع السلطان محمد بن أبى بكر بن أزر والإعتراف به سلطانا على إيفات هو الذى حول أحمد بن ابراهيم من موقفه الطبيعى بين صفوف الإمبراطور إلى موقف الثائر فى وجهه لأنه رضى عن هذا الفساد الذى انتشر فى الصومال . فسار إلى إيفات وعزل السلطان محمد ووضع مكانه سلطانا جديدا هو عمردين ابن أخى السلطان . وكان عدم تأييد الإمبراطور لبنا دنجل لقائده فى هذه الخطوة الجديدة هو الذى دفعه إلى إعلان سخطه على الإمبراطور والإستقرار فى أبوت التى كانت ذات مركز حصين غاضبا . وهناك تقدم اليه وتجمع حوله كل غاضب على السلطان محمد بن أبى بكر . وسار وسطاء الصلح بين الإمام والسلطان ونجحوا فى التقريب بينهما . إلا أن استمرار السلطان فى تشجيع عصابات الشفتا وهجوم هؤلاء على القرى أكثر من مرة ناهبين ما تصل اليه أيديهم متمتعين بحماية السلطان لهم دفعه مرة أخرى إلى إعلان ثورته فى وجه كل من السلطان والإمبراطور إعلانا عن رغبته فى الضرب على أيدى قطاع الطريق والمفسدين من أجل استتباب الامن فى البلاد . وكانت هذه الرغبة، إلى جانب تدين الإمام وتقواه، أكبر حافز على أن تنضم اليه جماعات كثيرة العدد من الشعب الراغب فى استقرار الأحوال والتمتع بالأمن والسلام [2] وكانت قوته الجديدة هذه – إلى جانب تأييد الأتراك له – كافية لأن تجعله يمنع ممثلى الحكومة من القدوم إلى هرر حيث استقر . كما حث الناس على عدم دفع الضرائب إلى جباة الحكومة مادامت عاجزة عن القضاء على هذه العصابات . ومادام السلطان محمد بن أبى بكر هو الذى يضفى حمايته عليها .

(١) فتوح الحبشة ص ٦

(٢) فتوح الحبشة ص ١٥

ونجحت ثورة الإمام أحمد وسيطر على البلاد زهاء إثنتى عشرة سنة ولم يستطع الإمبراطور جلاوديوس ( ١٥٤٠ – ١٥٥٨ ) – وقد ارتقى العرش عقب وفاة لبنا دنجل – التغلب عليه إلا بعد أن استعان بقوة البرتغاليين فى سنة ١٥١٦ . وكان البرتغاليون قد قدموا إلى أفريقيا فى هذا العصر بحثا عن طريق إلى الهند غير طريق مصر ونجحوا فى الوصول اليها وأقاموا لهم إمبراطورية هناك . وخيل اليهم أنهم يستطيعون أن يستقروا فى إتيوبيا كما استقروا فى أجزاء أخرى على الساحلين الشرقى والغربى للقارة . ولكن تنبه الإمبراطور إلى خطرهم جعله يلجأ إلى طردهم من البلاد . . فلم يتردد هؤلاء ( الحلفاء ) فى أن يحاولوا إثارة الفتنة فى البلاد مستعينين بكل ثائر على الإمبراطور [1] وبعصابات الشفتا التى عادت إلى الظهور عابثة بالأهالى الذين أنهكتهم الحروب الطويلة السابقة وكانت مساعدة بعثات التبشير البرتغالية لهذه العصابات واضحة إلى حد أن دعا الإمبراطور ميناس المطران الكاثوليكى إلى حضرته وأمره فى لهجة قاسية أن يوقف نشاطه وأن يترك البلاد [2] بالرغم مما كان يسبغه عليه قبل ذلك من حماية ورعاية الأمر الذى كان موضع الإنتقاد من رجال الدين الوطنيين .

وكانت قبائل الجالا قد أخذت تدخل إتيوبيا من الغرب منذ القرن الرابع عشر وكان دخولها فى أول الأمر سلميا يستقرون فى الأماكن المنخفضة يرعون مواشيهم فى سكون وهدوء ولكنهم لم يلبثوا أن تحولوا عن هذه الحياة السلمية إلى حياة الحرب فانضموا أولا إلى عصابات الشفتا [3] ثم استقلوا عنهم وكونوا عصابات جديدة تعمل مستقلة لصالحها واجتاحوا جنوب إتيوبيا وشرقها ووسطها وصاروا يغيرون على القوافل ينهبونها ويقتلون رجالها . وسلطة الحكومة أعجز من أن تصل اليهم إلا إذا دفعت اليهم بالأموال تسترضيهم [4] وقد اكتسحت عصاباتهم جودجام أيام جلاوديوس وقتلته حين قاومهم كما اكتسحت أقاليم دوارو وفاتاجار أيام

---

(١) Budge II p. 358.

(٢) Ibid p. 493.

(٣) Islam in Ethiopia p. 111.

(٤) سيرة الحبشة ص ١٥ من النص

أصنف سجد[1] بعد أن أغارت على هرر وضربتها وأرغمت القائد نور ابن اخت الإمام أحمد على الفرار من وجهها هائماً. كما أغاروا على شوا أيام صرصا دنجل[2] كما نهبوا والووداموت وكان يعنيهم الإستيلاء على الماشية أكثر من أى شيء آخر بل كانوا لا يترددون عن قتل الرجال لعدم حاجتهم اليهم . بل اكتفوا بالصغار يسترقونهم[3] ولم يعجزوا عن الوصول إلى الرهبان فى أديرتهم . ومن الواضح أن سبب ذلك يعود إلى حالة الضعف والعجز التى سيطرت على الحكومة المركزية نتيجة لكفاحها الطويل ضد الإمام أحمد من ناحية ، والكاثوليك ومن والاهم من ناحية أخرى . بل كانت القافلة تتخذ الطريق الطويل البعيد عن خطر الجالا وتفضله على القصير القريب من مراعيهم فقد وصل إلى إتيوبيا فى القرن السابع عشر القاضى حسن بن أحمد الحيمى موفدا من قبل إمام اليمن إلى الإمبراطور فاسيلاداس وكانت قوات الحكومة تحرسه وتسلمه وقافلته من سلطان إلى سلطان يحرسه . إلا أن ذلك لم يمنع من أن يقع فى أيدى إحدى هذه العصابات فتسلبه ما معه رغم أن القوات التى كانت تحرسه قد بلغت ألفى رجل بالحراب والخيل[4] .

ومر قرنان من الزمان منذ أيام الإمبراطور فاسيلاداس ( ١٦٣٢ – ١٦٦٥ ) حتى منليك الثانى ( ١٨٨٩ – ١٩١٣ ) اعتزلت فيها إتيوبيا العالم حتى نسيها . سار فيها تاريخ هذه البلاد خلالهما على وتيرة واحدة . يعتلى أحد الأباطرة العرش فتقوم عليه ثورة أوثورات من الرءوس طورا ومن القبائل الثائرة طورا آخر. وقد ينجح الإمبراطور فى سحقها فيظل على عرشه حتى يموت أو تنجح إحداها فى سحق جيش الإمبراطور وقتله فيغتصب العرش أحد المغتصبين ليتولاه فترة تنتهى بقتله . ولا جدال فى أن البلاد قاست خلال هذه الفترة الطويلة ما لم تقاسه فى أى وقت آخر . ولا بد أن عصابات الشفتا تمكنت من البلاد وتمرح فيها وقتما تشاء وكيفما تشاء . ولا بد أن الثوار قد استعانوا فى أوقات كثيرة بهذه العصابات حتى كانوا يتركون لهم الحبل على الغارب يسلبون ويقتلون وفق ما يريدون ما داموا يقدمون

---

(١) Budge II p. 606.

(٢) Ibid p. 607.

(٣) Ibid p. 608.

(٤) سيرة الحبشة ص ١٧ من النص

لم العون وقت الحاجة اليه . فاذا كان تكلاهيمانوت (١٧٠٦ – ١٧٠٨) – تحت تأثير الطامعين من حاشيته – قد ثار على أبيه الإمبراطور ياسو الأول (١٦٨٢–١٧٠٦) فقد استعان بقوة الشفتا فلم تطل مدته . وخلفه تيوفيلس (١٧٠٨ – ١٧١١) ولم تطل مدته كذلك وخلفه يوسنيوس (١٧١١ – ١٧٢٠) الذى كان مغتصبا للعرش وليس من أفراد الأسرةالسليمانية فقامت عليه الثورات من كل جانب ولم تطل مدته. واعتلى العرش باكافا بن ياسو (١٧٢٠ – ١٧٣٠) فعمل على سحق قوة كل من الأشراف والشفتا وهو وإن كان غرضا نبيلا يرمى من ورائه إلى إعادة السلام إلى البلاد إلا أن وسيلته اليه كانت حروبا متصلة قضت على الأخضر واليابس وقعت مغبتها على رءوس الشعب . وكانت هذه الفوضى سببا فى طمع الدول المجاورة فقد شجعت بادى الثانى ملك الفونج على يدفع بالعصابات تغير على إتيوبيا لأن إمبراطورها أجار أخا لبادى هرب اليه من سطوة أخيه ومات الإمبراطور ليترك البلاد من جديد مسرحا لفوضى لا مثيل لها . ولم تزد قوة الأباطرة الذين تولوا العرش خلال المدة التالية عن أن يكونوا ألعوبة فى يد الرءوس أو عصابات الشفتا .

وفى خلال هذه الفترة زار جيمس بروس المستكشف الإسكتلندى إتيوبيا من أجل البحث عن منابع النيل فترك لنا وصفا شائقا لرحلته فى خمس مجلدات (١) ولكنه ترك لنا أيضا وصفا لحالة البلاد الداخلية ومنه نستشف كيف كان الإمبراطور لا يملك من الأمر شيئا . يغلبه على كل الأمور بعض الزعماء الذين أحاطوا به وكانت هذه الحاشية منقسمةعلى نفسها وتكون أحزابا يحاول كل منها التسلط على الإمبراطور.

وفى خلال المدة بين ١٧٨٠ ، ١٨٥٥ لم يستطع إمبراطور واحد أن يجلس على عرش إتيوبيا مدعيا أنه نجوس نجشت . بل تقاسم البلاد أكثر من زعيم يحاول كل منهم أن ينشر نفوذه على مقاطعة أو أكثر . وكان أظهر الرءوس فى نهاية هذه المدة أى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ثلاثة هم الملك سهلاسلاسى فى شوا وهو الذى ينتمى إلى الأسرة السليمانية ثم الرأس عالى فى أمهرا والرأس روبى فى تجرى ولم يتحرج كل منهم عن الإستعانة بالشفتا من أجل التغلب على

---

(1) Bruce, Travels to Discover the Sources of the Nile

خصومه . فكان كل منهم يرحب بمن ينضم اليه منهم ويجزل العطاء لرئيسهم بل يهبه من القاب الصدارة ما يطفىء غروره (١) واجتهد كل منهم فى اختراع الوثائق التى تثبت أنه الوارث الحقيقى للعرش السليمانى . وقد اعترفت فرنسا بالرأس ووبى وأرسلت اليه بعثة رسمية تعقد معه معاهدة صداقة بينما اعترفت انجلترا بالملك سهلاسلاسى وأرسلت اليه بعثة أخرى . ولكن لم يكتب لواحد من الشخصيات الثلاث أن يكون صاحب السلطة الحقيقية ولا أن يحمل لقب نجوس نجست ولكن الذى حمله أحد زعماء عصابات الشفتا هو الملقب بالرأس كاسا والذى حمل بعد ذلك اسم ثيودور الثانى فى سنة ١٨٥٥ وفى خلال ذلك كانت هرر أفضل المراكز التجارية فى إتيوبيا بسبب بعدها النسبى عن مسارح الحروب وكانت ترسل القوافل إلى الشاطىء وكان من الضرورى لهذه القوافل أن تمر فى البلاد قاحلة تمرح فيها قبائل الشفتا وكانت قوافل هرر تتغلب على تلك الأخطار بدفعها الاتاوات الباهظة لهذه العصابات (٢) .

كان هذا الرأس كاسا إبنا لامرأة فقيرة تبيع الدواء للناس فى شوارع جوندار ولكنه كان شجاعا جريئا انضم إلى قوات الرأس عالى حيث تعلم الفروسية وأجادها خصوصا وقد أوكل اليه مهمة الإعتناء بالخيل . ولم يلبث أن استقل عنه وألف عصابة قوية انضم اليه فى عضويتها كل راغب فى المخاطرة والنهب . وعاث فى الأرض فسادا . وبلغ من جرأته أن هجم على قوات الرأس عالى نفسه وهزمه . فدب الرعب فى قلوب ملوك الأقاليم فصار يمنح نفسه الألقاب الحربية كما شاء . وإذا ما دارت الحرب بين الرءوس المتنازعين وسمع عن انتصار أحدهم انقض عليه وهو ما يزال تعبا من آثار المعركة وهزمه . ولم يلبث أن وجد نفسه فارس الميدان المجلى خصوصا بعد أن هجم على الملك جون الثالث فى جوندار وأخرجه منها وحبسه فى مجدلا التى اتخذها مركزا لقواته (٣) فأطلق على نفسه لقب نجوس نجست وكتب إلى مصر يدعوها إلى إرسال مطران لتتويجه . ورغم جلوسه على العرش فان من عرفوه

(١) Budge II p. 608.
(٢) التنافس الدولى فى بلاد الصومال ص ٢٢
(٣) Budge II p. 494.

من الملوك والرءوس كانوا يحتقرونه بسبب أصله الوضيع [1] ولم يترك ثيودور بعد جلوسه على العرش — ما اعتاده أيام الشفتا من حياة السلب والنهب وكان يصادر أملاك كل من يغضب عليه ويسميها أملاك التاج [2] بل كان يترك لرجال جيشه الحبل على الغارب لينهبوا ما يشاءون[2] كما نهب محتويات الأديرة من الكتب والمخطوطات (لأجل أن يحفظها فى كنيسة مخلص العالم التى بناها) كما احتقر كل قوانين الدولة واستهان بتقاليدها ومقدساتها .

ولم يكن من السهل على ثيودور أن يكسر شوكة الشفتا إذا كان هو نفسه أحدهم ولذا عاث الجلا فى البلاد يهجمون على القرى ينهبونها تحت قيادة ملكتهم وركيت واستعان بهم خصومه فى ثوراتهم عليه كما فعل حاكم سمن وحفيد الراس ووبى فعاد يطاردهم . وحدث أن وقع فى يدهم صديقه القنصل البريطانى بلاودن فنزل ثيودور عند إرادتهم وقبل أن يدفع لهم فدية من أجل إطلاق سراحه [3] .

ولم يقف نشاط الشفتا أيام جون الرابع خصوصا فى مناطق الحدود [4] فقد شعرت قبائل الجالا أنهم أصحاب فضل عليه لأنها ساعدت الحملة البريطانية فى تقدمها إلى مجدلا فى يناير سنة ١٨٦٨ فقضت على ثيودور ويرون أن جون لم يأت إلى العرش إلا بمساعدتهم ومساعدة البريطانيين [5] فأطلقت يدهم فى نهب جنود ثيودور وفى نهب مدينة مجدلا . ووصل من نفوذ هذه العصابات أن أصبحت خطرا على جون نفسه [6] فرحب بما عرضه عليه منليك ملك شوا من أن يستقل الأخير بجميع أقاليم الجالا حتى والو شمالا رغم أهمية هذه المناطق إذ هى الطريق الطبيعى بين جوندار والبحر حتى إذا قدمت إيطاليا واشترت شركة Rabattino ميناء عصب أرسلت بعثة بقيادة الكونت انطونلى إلى منليك لا إلى جون لتطلب منه المعونة والمساعدة على تقدم هذه المستعمرة الجديدة . وكما كان هؤلاء الشفتا سببا

(١) Ibid p. 498.
(٢) Ibid p. 499.
(٣) Ibid p. 496.
(٤) السودان بين المهدى وكتشنر ج ٢ ص ١٣٠
(٥) Budge II p. 522.
(٦) Ten years in Mahdi's Camp p. 259.

فى هزيمة ثيودور تسببوا أيضا فى هزيمة جون فى المتمة امام عبد الله التعايشى فى مارس سنة ١٨٨٩ وقتله. فقد انتصر على الدراويش أولا وغنم معسكرهم فكان هجوم هؤلاء الشفتا على ما تركوه قد صرف نظرهم عن تعقب أعدائهم فعادوا اليهم وهزموهم وقتلوا الملك بل حملوا معهم جثته أيضا [١] .

وكان منليك الثانى أول أمبراطور لم يحاول الاستفادة من الشفتا بل كان أول من يضرب على يدهم. إذ عرف أن اطمئنان الأهالى إلى قوتهم أول عوامل الإستقرار وساعده على ذلك أنهم لم يكونوا أصحاب فضل عليه بل انضموا إلى خصمه الراس منجاشا بن جون حين ثار عليه وكان إنتصار منليك عليه بداية الطريق لا إلى القضاء على سلطة الأمراء فحسب بل إلى القضاء على سلطة الشفتا .

وكان انتصار منليك على الإيطاليين فى عدوة سنة ١٨٩٦ ثم تحالفه مع الفرنسيين فى سنة ١٨٩٧ ثم فتحه الأقاليم الجنوبية والجنوبية الغربية بمساعدتهم [٢] وكذلك استيلاؤه على هرر معالم الطريق التى أدت به إلى توطيد سلطة الحكومة ورفع هيبتها والقضاء على قوة الشفتا الذين لم يجدوا نصيرا يعتمدون عليه أو قوة داخلية أو خارجية تستأجرهم . كما كانت عودة الحكم المصرى بالسودان فى سنة ١٨٩٩ نذيرا جديدا بالقضاء على قوتهم فى مناطق الحدود الاتيوبية السودانية . بعد أن استقرت الأحوال هناك . كما يعود الفضل فى القضاء على قوتهم فى أجزاء أخرى من البلاد إلى المراكز الحربية التى أسسها منليك وإلى قوات البوليس التى وكل اليها المحافظة على الأمن داخل المدن الكبرى وهو إجراء كان منليك أول من نظمه .

وكان القضاء على قوة الشفتا وخاصة فى الأقاليم الجنوبية الغربية نذيرا بالضرب على أيدى تجار الرقيق فشعر سكان جما وكافا بالأمان على أنفسهم لأول مرة مما أدى إلى استقرار قبائل الشنقلا فى الغرب .

وكان انصراف لدج ياسو ( ١٩١٣ — ١٩١٧ ) إلى ملذاته ينتهبها أينما كانت وإهماله لواجباته ثم مقاومته لسلطة البوليس النظامى الذى أنشأه جده منليك مما أتاح لقوات الشفتا إلى تعود إلى سابق قوتها وسيطرتها على البلاد . إلا أن ارتقاء

---

(١) Ten years in Mahdi's Camp. p. 266.

(٢) Budge II p. 533.

الرأس تفرى إلى منصب الوصى على العرش كان إيذانا ببدء عصر جديد فى تاريخ إتيوبيا . إذ كان يؤمن أن الإستقرار الداخلى أولى خطوات السير نحو الحضارة فلم يلبث أن استصدر فى سنة ١٩٢٣ مرسوما بالغاء الرق وجعل عقوبة الإعدام لكل تاجر رقيق [١] ولم يعترف بغير الرق المنزلى . فكان هذا أول ضربة أصابت الشفتا فى إتيوبيا إذ كان اصطياد الرقيق والاتجار فيه اهدف الأول من غاراتهم . وفى نفس السنة قبلت إتيوبيا عضوا فى عصبة الأمم مما يعطيها الحق فى أن تطلب من هذه الهيئة كل مساعدة من أجل القضاء على تجارة الرقيق . وكان الغاء تجارة الرقيق فى السودان أيضا مطاردة تجارة فى المناطق الجنوبية الضربة الثانية [٢] وبذلك فقدت عصابات الشفتا أكبر معين لها . فذهبت تبحث عن معين جديد فى الرءوس الثائرين ومنهم الإمبراطور السابق لدج ياسو [٣] فقامت الحكومة تطاردهم وتقضى على حركتهم . وبذلت الكنيسة فى هذا السبيل مساعدتها للحكومة فأصدر المطران مرسوما بحرمان كل من لا يقدم مساعدته للحكومة فى هدفها . بل خرج المطران فى كثير من الأحيان يصاحب الجيوش الإمبراطورية فى حربها فلم تأت سنة ١٩٢٤ حتى كانت قوات الحكومة قد سيطرت على الحالة تماما وخصوصا فى الشمال والغرب وأصبحت سلطة الحكومة محسوسة فى كل مكان .

وإذا ما ارتقى العرش فى سنة ١٩٣١ باسم الإمبراطور هيلاسلاسى حتى كان أول هدف له تأسيس الحكومة المركزية القوية التى تسيطر على كل أجزاء البلاد والقضاء على سلطة الرءوس قضاء تاما . [٤] ثم تركيز السلطة فى يد القصر وبذلك فقدت عصابات الشفتا كل مساعدة يمكن أن ترتكز عليها فى أى جهة من الجهات وكان إشراف وزارة الداخلية على جهاز إدارى منظم دقيق لحكم الولايات والإشراف على الأمن فيها الفضل فى استقرار الأمن . وكانت مسئولية الوزراء أمام الإمبراطور شخصيا [٥] مما يزيد فى اهتمامهم بالأمر .

(١) Light and Darkness in East Africa p. 134.

(٢) Budge II p. 533.

(٣) Ibid p. 542.

(٤) The Government of Ethiopia p. 277.

(٥) دستور اثيوبيا الأول الصادر فى سنة ١٩٣١

ولكن هذه الإصلاحات لم يكتب لها النجاح والاستمرار بسبب الإحتلال الإيطالى الذى بدأ فى سنة ١٩٣٦ فاضطر الإمبراطور إلى الإستعانة من جديد بهؤلاء الشفتا من أجل مقاومة قوات الإحتلال . فاذا كان الإمبراطور قد اضطر إلى الخروج من إتيوبيا فى مايو سنة ١٩٣٦ فقد عين بضعة من الرءوس لقيادة القوات غير النظامية التى ظلت تقاوم القوات الإيطالية [١] وترك لهذه القوات حرية الإستعانة بجميع الوسائل الممكنة من أجل الوصول إلى أهدافها. فكانت الإستعانة بقوات الشفتا وقطاع الطريق إحدى هذه الوسائل . واستمر هذا الصراع خمس سنوات كانت حياة هؤلاء الأبطال صورة صادقة لحياة الشفتا الأولين وكانت دوريات الجنود الإيطاليين تطاردهم حتى إذا فشلت انقضت على القرى تنهبها وتخرب ما تصل اليه أيدى أفرادها [٢] ولم تكن هذه القوات الاتيوبية لتتردد بدورها فى الهجوم على القرى من أجل الحصول على الغذاء أو من أجل حرمان الإيطاليين من الاستيلاء على المحصول الذى قارب النضج . وكانت محاربة هذه العصابات تعد فى نظر قواد الجيش الإيطالى عملا حربيا جبارا يستحق الجنود وقوادهم الصغار عليه مزيدا من التكريم بالألقاب والرتب الحربية ومن أجل ذلك حرص هؤلاء القواد على الإتفاق مع عصابات الشفتا على أن يمثلوا معهم معارك من حين لآخر من أجل إظهار أنفسهم أمام قوادهم بمظهر المجدين فى القضاء على الثوار الوطنيين طلبا لمزيد من الرتب والألقاب . وقد بلغ من قوة الوطنيين ومن يعاونهم من عصابات الشفتا أن اضطر كثيرون من المحتلين الإيطاليين إلى أن يحبسوا أنفسهم داخل أسوار معاقلهم وقلاعهم . وكانت قوافل السيارات التى تحمل البضائع الإيطالية بين ثغر مصوع وأديس أبابا أكثر ما يغرى هذه الفرق والعصابات فينقضون عليها يقتلون أفرادها ويستولون على ما تحمله من مواد غالية مفيدة [٣] وطبيعى أن كثيرين من أفراد عصابات الشفتا لم تكن تفهم من هذه الحركات وتعضيد بعض الرءوس لهم إلا الرغبة العامة فى القضاء على الرجل الأبيض أينما كان .

---

(١) Ethiopia Review Nov. 1944.

(٢) Travels in Ethiopia p. 44.

(٣) Travels in Ethiopia p. 45.

وآن للإحتلال الإيطالى أن يرحل وأن تعود الحكومة الوطنية إلى البلاد فى سنة ١٩٤١ بل أن يعود رجال المقاومة الوطنية إلى تسلم بعض المراكز الرفيعة جزاء ما قدموا لبلادهم . ففهم بعض زعماء عصابات الشفتا أن سوف تطلق يدهم فى البلاد من جديد فعاثوا فسادا وكانت الحكومة الجديدة بامكانياتها المحدودة أعجز من أن تضرب على يدهم . ولكن ذلك لم يمنعها من أن تقوم بالواجب فأخذت فى مطاردتهم بل لم تتردد فى الإستعانة ببعض قوات الجيش من أجل القضاء عليهم . وكانت هذه العصابات قد اتخذت من منطقة الشمال مسرحا لأعمالها . فاذا ما اتجهت اليها قوات الحكومة تطاردها اتجهت وجهة أخرى وسرعان ما وجدت هذه الوجهة فى منطقة الأوجادين حيث عسكرت بعض القوات البريطانية إستنادا إلى معاهدة التحالف التى عقدتها الحكومتان فى سنة ١٩٤٢ فأخذت فى الإغارة عليها معتقدة أن هذا العمل سوف يبعث على رضا الحكومة عنهم . وإذا ما اتجهت الحكومة اليها تطاردها فى هذا الميدان الجديد اعتقدت أن مطاردة الحكومة لها ليست إلا على سبيل الترضية للقوات البيضاء الحليفة . ولكن المطاردات الحكومية ازدادت عنفا وقوة . مما دعا عصابات الشفتا إلى ترك الإغارة على القوات البريطانية البيضاء والعودة إلى سياستها القديمة وهى الإغارة على المدن الاتيوبية ونهبها مما اضطر الحكومة فى بعض الأحيان إلى وقف التجارة فى بعض الطرق والإستعانة بالجيش من جديد للحد من نشاطهم . وفى سنة ١٩٤٤ إستطاع فريق منهم أن يدخل العاصمة تحت سمع الحكومة وبصرها وتهاجم دارا لتاجر أرمنى وتقتله وولده وتسلبهم ما خف حمله وغلا ثمنه وأن يعود أفراده إلى مراكزهم سالمين [١] ولكن عين الحكومة الساهرة لم تلبث أن قبضت على هذا الفريق وقدمته للمحاكمة فحكم عليهم جميعا بالإعدام وشهدت العاصمة جثثهم تتأرجح على أعواد المشانق فى السوق العام .

وكان لسلسلة التشريعات الإدارية التى سنتها الحكومة بين سنتى ١٩٤١ , ١٩٤٨ وخاصة فى سنة ١٩٤٢ الفضل الكبير فى القضاء على عصابات الشفتا فقد قسمت البلاد إلى إثنتى عشرة مديرية [٢] وقسمت كل مديرية إلى عدد من الأجزاء

---

(١) جريدة برهانى سلام فبراير سنة ١٩٤٤

(٢) تترجم الجرائد العربية الاتيوبية كلمة Province بكلمة مديرية وكلمة District بمعاطعة .

Sub Province وقسمت هذه الأجزاء بدورها إلى مقاطعات وقسمت هى الأخرى إلى وحدات صغيرة Sub District . على أن يرأس كلا من هذه المديريات والمقاطعات وأجزائهما موظفون معينون يرأسهم حاكم المديرية المسئول أمام وزير الداخلية وينتهى هذا الجهاز الإدارى بأصغر وحداته وهى القرية التى يرأسها الشوم أو العمدة [١] . وهو معين بدوره بواسطة نفس الجهة إلا أنه يراعى فيه أن يكون أحد أعيان القرية فأصبح شعور الأهالى بوجود سلطة قوية للحكومة يجعلهم قادرين على التكاتف فى سبيل رد هذه العصابات [٢] وكان لمستشار وزارة الداخلية البريطانى ومن معه من المستشارين الإقليميين فى المديريات ( هرر — جما . ديسى ) الفضل فى المساعدة على قيام الحكومة بواجبها فقد حظيت الإدارة البوليسية بفريق كبير منهم [٣] .

وكان لشبكة الطرق التى شقها الإيطاليون خلال احتلالهم للبلاد الفضل فى القضاء على قوات الشفتا إذ استطاعت الحكومة الوطنية الجديدة — فوق الإستفادة منها إلى أقصى حد — أن ترسم برنامجا يقوم على صيانة هذه الطرق وشق طرق جديدة مستعينة فى ذلك بهيئة النقطة الرابعة الأمريكية . وبلغ ما صرف عليها فى سنة ١٩٤٤ أكثر من مليون جنيه .

وكذلك عمدت الحكومة إلى دفع المرتبات المنتظمة إلى موظفيهـــا فى الأقاليم وخاصة لرجال البوليس والجيش [٤] وكان هؤلاء جميعا سرعان ما يتهاونون فى أعمالهم بل ينضمون إلى هذه العصابات إذا ما تأخرت هذه المرتبات إما طلبا للقوت أو إنتقاما من الحكومة على ما اعتقدوه أنه إهمال لهم أو رغبة فى الإنضمام إلى من يدفع لهم أجورا أعلى عاجلة . فكان انتظام دفع المرتبات وإن لم يقصد به علاجا مباشرا لكثرة إنتشار عصابات الشفتا إلا أنه أدى إلى عدم انتظامهم فى أفرادها بل إلى تعاونهم مع عمال الحكومة فى القبض على أفرادها .

---

(١) مرسوم رقم ١ لسنة ١٩٤٢

(٢) Travels in Ethiopia p. 118.

(٣) The government of Ethiopia p. 93.

(٤) The government of Ethiopia p. 184.

وليست هذه الإصلاحات الإدارية ، أو زيادة قوة البوليس ؛ أو القضاء على نفوذ الأشراف وتجـار الرقيق ، أو مد الطرق من أجل سرعة وصول القوات الحكومية المطاردة بكافية وحدها للقضاء على عصابات الشفتا ما لم يقرن ذلك كله بالعمل المتواصل من أجل رفع مستوى الحياة وإيجاد عمل لكل عاطل وغذاء لكل جائع . ولذا كان اتجاه الحكومة فى العصر الحديث نحو الصناعة والتصنيع والإكثار من المصانع التى تزيد الثروة المادية من جهة وتستوعب عددا أكبر من المواطنين من جهة أخرى إجراء آخر غير مباشر أدى إلى الحد من نشاط هذه العصابات فقد أدخلت كثير من التحسينات على المصانع التى كانت موجودة من قبل حتى كبرت واتسعت . مثل صناعة الصابون واستخراج الزيت وعمل السجاير وأنشئت أخرى لصناعات جديدة مثل حلج القطن وغزله ونسجه وصناعة الأسمنت والسكر وهذه كلها استوعبت عددا كبيرا من العمال بلغ عددهم فى سنة ١٩٥١ سبعة آلاف عاملا وارتفع فى سنة ١٩٥٤ إلى إثنى عشر عاملا كما فتحت الحكومة أبواب البلاد لرءوس الأموال الأجنبية بين هولندية وأمريكية . ويوغوسلافية وإسرائيلية من أجل استغلالها فى إنشاء صناعات جديدة حتى وصل رأس المال المستثمر فى الصناعة إلى مائة مليون دولار إتيوبى [١] ولا شك أن أجر العامل الأتيوبى وإن كان متواضعا بالنسبة إلى أجر زميله الأوروبى إلا أن كفايته لمطالبه المتواضعة أدت به إلى حياة أرغد أغنته عن طلب القوت من موارد أخرى كان الإنضمام إلى عصابات الشفتا إحداها . ويتراوح أجر العامل الأتيوبى فى الوقت الحاضر بين ١٨٠ و ٢٠٠ ريالا فى السنة . وهو مبلغ لم يكن يحصل عليه لو اشتغل فى الزراعة أو الرعى فى أقل من خمس سنوات .

وكذلك كان اتجاه الحكومة إلى الإكثار من المدارس وخاصة الفنية منها وإقبال الشباب على الإلتحاق بها ــ وكلها بالمجان ــ له الأثر الكبير فى صرف نظرهم عن طلب المال من وجوهه غير المشروعة فقد وصل عدد المدارس التى أنشأتها الحكومة فى السنين الأخيرة إلى عشرين مدرسة ثانوية [٢] عدا المدارس الفنية التى بلغت

---

(١) Ethiopia To-Day p. 115.

(٢) Ethiopia Observer Magasine, April 1958.

مصاريف إنشائها إلى أكثر من سبعين مليونا من الدولارات الأمريكية [١] بينما بلغ عدد المدارس الإتيوبية أكثر من ٦١٠ مدرسة [٢] كما أخذت فى إصلاح نظام توزيع الأراضى على الفلاحين وكذلك نظام الضرائب العقارية . وهذه الخطوة وإن كانت ولا شك تؤدى إلى الإستقرار وضمان الفلاحين لعيشهم مما ينتج حتما غير مباشر لنشاط عصابات الشفتا إلا أنه ينقصه إجراء أشد فاعلية وهو تمليك الأرض للفلاحين . وهو أمر لم تباشره الحكومة الإتيوبية حتى الآن . فما زالت الأرض من الوجهة النظرية ملكا للإمبراطور وله حق وهبها إلى من يشاء ملكية موقتة أو دائمة وفقا لمشيئته [٣] .

فهذه الإصلاحات كلها سوف تساعد على رفع المستوى الإقتصادى للأفراد . الأمر الذى يؤدى ولا شك إلى عدم دفع الناس إلى الإنضمام إلى عصابات الشفتا بل إلى عدم تكوينها أصلا ولكن هذه المشاريع كلها سوف لا يظهر أثرها سريعا . فإنتقال أمة من حالة الرعى أو الزراعة إلى حالة الصناعة لا يمكن مطلقا أن يتم قبل قرن من الزمان على الأقل . وتمتع الأهالى بنتائج هذه المشروعات وإن جاء قبل ذلك بقليل إلا أنه بطيء أيضا ، إلا أن الإصلاح الزراعى أسرع وأقوى أثرا. فمن المسلم به أن الحكومة الحاضرة تتجه إلى زيادة كمية الحاصلات [٤] وإجراء التجارب لأجل تحسين أنواعها وكذلك إلى زيادة الرقعة الزراعية أو التغلب على مشكلة المياه ببناء الخزانات الأرضـــية لخزن ماء المطر . وقد لقيت بعض هذه المجهودات نصيبا كبيرا من النجاح وكذلك مقاومة أمراض الحيوان وزيادة إنتاجها من الألبان والنسل [٥] . إلا أن هذه الجهود كلها سابقة لأوانها إذ مازالت مساحة الأرض كبيرة بالنسبة لعدد السكان رغم أن ما زرع منها لا تزيد نسبته عن ١٠ ٪ من الأرض القابلة للزراعة [٦] والحاصلات وإن كثرت وحسنت

---

(١) Ibid Jan. 1959.

(٢) بحث فى الدستور الأثيوبى ص ٩١

(٣) Ethiopia Observer Aug. 1957.

(٤) Ethiopia To-Day pp. 82, 83.

(٥) Ethiopia To-Day p. 85.

(٦) Ibid p. 72.

أنواعها وارتفعت أسعارها مازالت محصورة فى يد طبقة خاصة من الإقطاعيين ووحدة الأرض هى الجاشا وهى تقدر بثمانين فدانا [1] ولذا كانت النتيجة إشتغال الفلاح الاتيوبى فى الأرض أجيرا لا يشعر بدافع يدفعه إلى بذل الجهد ما دام لا يعمل إلا بالأجر أو المشاركة . هذا إلى ضعف الضريبة الزراعية إذ لا تزيد عن خمسين دولارا إتيوبيا ( ٦ جنيهـــات ) عن الأرض الجيدة وأربعين للأرض المتوسطة الجودة وخمسة عشر للأرض الضعيفة مما جعل نصيب ضريبة الأرض الزراعية من إيرادات الدولة التى بلغت فى سنة ١٩٥٨ مائة وأربعين مليونا من الدولارات لا تزيد عن ٣,٩٦٠,٥٠٢ أى بنسبة ٢,٥ ٪ هذا إلى أن أرض الكنيسة معفاة من الضرائب فتوزيع الأرض على الفلاحين هو الطريق الطبيعى لأستقرار الأحوال والقضاء على عصابات الشفتا عن طريق رفع المستوى الإقتصادى إلى جانب إنقاص وحدة الأرض الزراعية من الجاشا إلى الفدان وفرض الضريبة الزراعية على الوحدة الأخيرة . ولا شك أن هذه الخطوة تخلق من الاتيوبيين ( وجلهم من الزراع والرعاة ) ملاكا للأرض يقومون على خدمتها تدفعهم إلى ذلك دوافع المصلحة الشخصية فيقبلون على زراعتها بنفس راضية حين يشعرون أنهم سوف يجنون نتيجة تعبهم وكدهم فيقبلون على دفع ضريبتها بنفس راضية أيضا فيزداد إيراد الحكومة فتصرفه على بناء الخزانات الأرضية أو النهرية . أو حفر الآبار والسواقى . وحينئذ لن يجد المواطن الاتيوبى ما يدفعه إلى تكوين عصابات الشفتا إذ لا يكفى أن تكون الحكومة راغبة فى الإصلاح تواقة اليه ليتم هذا الإصلاح بينما يدها مغلولة عن القيام بالتزاماتها فى حدود مواردها الضيقة ومستوى الأهالى المنخفض . واضطرارها فى بعض الأوقات إلى التجاوز عن الضرائب الزراعية مشاركة منها للأهالى فى التغلب على النكبات التى تنزل بهم [2] .

---

(1) Ibid p. 61.

(2) جريدة العلم يوليو سنة ١٩٥٩

# ثبت بمصادر البحث

## مصادر عربية :

١ ـ اعلام الطراز المنفوس لعلى بن ابراهيم الشافعي ( مخطوط ) .

٢ ـ الالمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الاسلام لتقى الدين احمد ابن على المقريزى .

٣ ـ بحث فى الدستور الاتيوبى لزاهر رياض ـ القاهرة سنة ١٩٥٨

٤ ـ السودان بين المهدى وكتشنر لابراهيم فوزي ـ القاهرة سنة ١٩٠١

٥ ـ سيرة الحبشة للحيمى حسن بن احمد ـ القاهرة سنة ١٩٥٨

٦ ـ فتوح الحبشة لشهاب الدين بن احمد ـ كامبردج سنة ١٨٩٥

٧ ـ الكامل فى التاريخ لابى الحسن بن على المعروف بابن الأثير ـ القاهرة سنة ١٩٢٢

٨ ـ اللطايف السنية فى اخبار المماليك اليمنية لمحمد بن اسماعيل الكبسى الحميرى ( مخطوط ) .

## مصادر اجنبية :

1. Alexander McLeish (Editor) ; Light and Darkness in East Africa, London 1927.
2. Bruce, James ; Travels to Discover the Sources of the Nile, London. 1922.
3. S. W. Budge ; History of Ethiopia, London 1928.
4. Cerulli ; Rossegna di Studi Etiopici, Anno I.
5. Conti Rossini ; Storia d'Etiopia, Rome.
6. Luca dei Sabelli ; Storia d'Abyssinia, Rome IXV.
7. David Buxton ; Travels in Ethiopia, London 1958.
8. Ernest Luther ; Ethiopia To-Day London 1958.
9. Jean Doresse ; L'Empire du Prêtre Jean, Paris 1957.
10. Mergery Perham ; The Government of Ethiopia, 1938.
11. Ohrvalder ; Ten Years in Mehdi's Camp, London.
12. Spencer Trimingham ; Islam in Ethiopia, London 1952.

## جرائد ومجلات :

١٣ ـ جريدة العلم الاتيوبية تصدر اسبوعيا باللغة العربية فى اديس ابابا .

١٤ ـ برهانا سلام تصدر اسبوعيا باللغة الأمهرية فى اديس ابابا .

15. Ethiopian Magazine, Monthly Magazine, Addis Abeba.
16. Ethiopia Observer, Monthly Magazine, Addis Abeba.

مطبعة جامعة القاهرة ٢١ / ١٩٦١ / ٤٥٠

تم طبع هذه المجلة بمطبعة جامعة
القاهرة فى يوم الخميس ١٣ من رجب
سنة ١٣٨١ الموافق ٢١ من ديسمبر
سنة ١٩٦١

مدير المطبعة
على حسين عاصم

what journeying in the desert feels like. From morn till eve you sit aloft upon your voyaging camel ; the risen sun, your task-master, still lenient on your left, mounts vertical and dominant : «then for a while, and a long while, you see him no more, for you are veiled and shrouded, and dare not look upon the greatness of his glory, but you know where he strides over head by the touch of his flaming sword. No words are spoden, but your Arabs moan, your camels sigh, your skin glows, your shoulders ache, and for sights you see the pattern and the web of the silk that veils your eyes, and the glare of the outer light. Time labours on—your skin glows, your shoulders ache, your Arabs moan, your camels sigh, and you see the same pattern in the silk, and the same glare of light beyond ; but conquering time marches on, and by-and-by the descending sun has compassed the heaven, and now softly touches your right arm, and throws your lank shadows over the sand». Then begins your time for resting—your veil is thrown aside, your tent is pitched, books, maps, cloaks, toilet luxuries litter your spread-out rugs, you feast on scorching toast and fragrant tea, sleep sound and long ; then again the tent is struck, the comforts packe, civilization retires from the spot shehad for a single night annexed, and the Genius of the Desert stalks in. In such subjective, familiar confidences as these lies a part of the spell that Kinglake casts upon us—while we read we are in the East.

In his review of *Eothen*, Warburton did justice to Kinglake and his work. His estimate was fair and sound. «Other books» he says, «contain facts and statistics about the East ; this book gives the East itself in vital actual reality. Its style is conversational ; or the soliloquy rather of a man convincing and amusing himself as he proceeds, without reverence for others' faith, or lenity towards others' prejudices». He goes into further details and sums up in these words : «It is a real book, not a sham ; it equals ANASTASIOUS, rivals VATHEK ; its terseness, vigour, bold imagery, recall the grand style of Fuller and South to which the author adds a spirit, freshness, delicacy, all his own». (see The Quarterly Review ; 1845 ; Vol. LXXV. 29).

characteristic of the book, as we have said before, is its individuality. «Whether he writes well or ill «says Prof. Elton. »he is always himself. and little debt to Beckford . . or other forerunners can be detected». (Survey ; 1830-1880. I. 176) The least that can be said in favour of *Eothen* is that it is the expression of an engaging personality—boisterous in tone here and there. it is true ; but the plain style and familiar language put he author on terms of easy fellowship with his readers. who consequently travel through the whole work in pleasant company.

*Eothen's* success and enduring popularity have not been easily attained. The book shows every sign of care and labour. From the author's Preface we learn how he had begun the task of writing some account of his Eastern tour more than once without success, and how at last the idea had occured to him of shaping his narrative as a series of informal talks or letters to a friend (Eliot Warburton in fact) who was then projecting a similar tour to the East. Even then he was so critical of his own work that he took much trouble in revising, re-touching and re-polishing it before submitting it to the publishers. When it finally appeared, it did not at once have a spectacular success, but later it began to grow rapidly in popularity. At prexent, the best judges have pronounced that as a lasting monument of literary force the work is over-refined.

*Eothen* differs in many respects from *The Crescent and the Cross.* In fact it is unique among English travel books for its genuine literary qualities, which soon made it a classic and brought its author well-deserved and lasting fame. Its populqrity is, strictly speaking, a paradox. It fascinates by viollating all the rules which convention assigns to narrative accounts. It traverses the most interesting regions of the world, yet it never aims at giving a clear description of any one of them. The Troad provokes only the author's recollections of his childish raptures over Homer's *Iliad* ; Stamboul elicits only an accunt of the murderous services rendered by the Golden Horn to the Sultan, whose 'seraglio', palace and council chambers it washes ; in Cairo the plague shuts out all other thoughts ; while in Jerusalem we hear only how pilgrims have vulgarized the Holy Sepulchre, turning it into a 'Bartholomew Fair', Kinglake's has been a sentimental journey and so he gives us everywhere not history, antiquities, geography, statistics, but only Kinglake, only his own sensations, thoughts and experiences. We are told, for example, not what the desert looks like, but

features of both works, let us now turn our attention to *Eothen*, which we intend to place in juxtaposition with Warburton's book, in order to assess the literary value of the latter in a more effective manner.

The place that *Eothen* holds at present in the literature of travel has vindicated its claim to literary merits. Style, form, spirit, diction, all have combined to make the book stand the test of time. Like all other works of art it is universal, honest and sincere ; by these qualities it is distinguished from *The Crescent and the Cross* which—as admitted by its author—was written for an English public that. was evidently of a certain epoch (*i.e.* the Victorian), with certain habits of thought and a peculiar religious and political outlook on the East. These habits and this outlook, we must always bear in mind, were but little changed from those of the preceding century. Warburton seems to have been an ardent champion of those conservative ideas, and in his work a zealous propagator of them. That they found favour is shown by the comment of a contemporary magazine, the *Britannia*, which ends its review by saying : «We are proud to claim him as a countryman, and are content that his book shall go all the world over, that other countries may derive a just impression of our national character». Thus, to a very great extent, *The Crescent and the Cross* reflects the Victorian type of writer and could be appreciated best, or rather only, by a contemporzry public. So from a purely literary view-point it is no longer regarded as interesting or possessing a high value. In *Eothen*, Kinglake describes the East with elegance and yet with genuine sincerity. Though not full of dry details and 'measurements true', the book conveys a clearer picture of the East and gives a truer impression of all that is Oriental than *The Crescent and the Cross* or any other of the usual type of travel books. Warburton himself was one of the most enthusiastic admirers of *Eothen* and took every opportunity of bearing witness to its great literary merits. After quoting from one of its passages describing Eastern travel, Warburton declares it to be a «work containing more vivid, truthful, and brilliant description, more delicate and subtle humour, than any other book upon the East». The book's great success is equally due to the author's literary talents and his particular qualifications as a traveller in the East equipped with a tolerant attitude, sympathic understanding, wide imagination, impartial reasoning and a fair knowledge of human nature. A distinct

the Camels seemed as if they had just come from the East with gifts : and the palm—tree offered its branches to strew the holy ground : every shepherd appeared to have a mystic character ; and, when 'night came with stars', I looked eagerly for His, and tried to trace it over Bethlehem». (P. 144).

Individuality and originality are the main characteristics of *Eothen*, and are another point of difference between this work *and The Crescent and the Cross* In his usual modest way Kinglake forewarns us that the book is superficial in its character as he has earnestly tried to discard from it all valuable matter derived from the works of others. «I believe I may truly acknowledge» he declares in the Preface «that from all details of geographical discovery, or antiquarian research—from all display of 'sound learning and religious knowledge'—from all historical and scientific ilustrations—from all useful statistics—from all political disquisitions—and from all good moral reflections, the volume is thoroughly free». All this is absolutely true and herein lies *Eothen's* real greatness. As a literary product, it has not suffered at all from the absence of all that 'useful and valuable information' ; on the contrary it has gained considerably in artistic beauty, elegance and charm. All trace of 'sound learning, and religious kowledge' was banished not because the author lacked interest or the necessary equipment to supply them, but because he was firmly resolved on originality and independence of judgement ; and these are the graces of his narrative. Warburton's plan is quite the reverse. He seems to have made special efforts to parade his knowledge of classics, history, politics and religion on every possible occasion. He wanted to be erudite and sparkling at the same time, to display an interest in both the realistic and the romantic aspects of life in the countries he visited. His ambition was to make of his one book a compendium of romance and information on the countries of the Near East, a romantic narrative and a guide-book full of useful information for those who proposed to visit the East. Originality and individuality were bound to be sacrificed under these conditions, and the author anticipates what his readers would soon find for themselves. Acknowledging his indebtedness to various writers, he says: «I have not (intentionally) followed in the foot-steps, or used the thoughts of any other ; but I confess to have borrowed freely, in other respects, from as many as seemed suited to my purpose». Having said that much about the general

the perfectly worldly tone in which I speak of Jerusalem and Bethlehem». It is impossible for Warburton to be so independent. genuine and candid. On a certain occasion. as he describes Jerusalem and its various localities of traditional sanctity, he recounts how his guide pointed out such scenes as the house where Mary dwelt, where 'Dives' revelled, and where dogs licked the sores of Lazarus ; the spot where the cock crew. the cavern where Peter wept—to all this incredible talk he listened with reverence, without any attempt or apparently any desire to examine, scoff or condemn ; when in the Holy Land he felt that he ought inevitably to experience a manner of pilgrim enthusiasm, and this feeling he endeavoured to cultivate and cherish as though it had been a religion in itself. It is difficult to speak of such things gravely, he admits ; and yet, he says, «I would not have one light feeling or expression intermingled with the solemn subjects of which this chapter attempts to treat». To justify this rigid scholastic attitude he goes on to say : «when we visit Marathon or Salamis, it would shame us to be insensible of their heroic associations ; and the pilgrim who can scoff within the alls of Jerusalem does his heart as little justice». *(The Crescent and The Cross* Vol. II, P. 100). Contrast this with the fleeting mood of the author of *Eothen* who, in the chapter dealing with the Holy City candidly owns that the enthusiasm which had glowed (or seemed to glow) within him, for one blessed moment when he knelt and kissed the shrine of the Virgin at Nazareth, was not rekindled at Jerusalem, amid the hum and the bustle of active life. So too, in Bethlehem, he forgets all about the sacred associations of the place and indulges in a description of the pleasant mischief and coquetry of the romping girls, with their pretty faces and large burning eyes whose sight would gladden any man's soul. He ends his account of this innocent and light-hearted scene by maintaining that though such behaviour may seem wrong or impious yet, «loving the truth, you will not so disown sweet Bethelehem you will not disown, or dissemble your right good hearty delight, when you find, as though in a Desert, this gushing, spring of fresh and joyous girlhood». (Eothen', P. 240) Describing his feelings on his visit to the same place under similar circumstances, Warburton says, «The reader may smile ; but it was with something like grave respect I looked upon each carpenter in Bethlehem ; the very donkeys assumed an additional interest ; and the cross, with which they are so singularly marked, a meaning ;

Unlike Warburton's and the majority of travel-books on the East, *Eothen* is neither solid nor formal ; it is light, witty and elegant. In other words, it is the «sentimental journey» of a traveller who did travel for the sake of enjoying the experiences of the journey.

'Sentimental truth' is the core of difference between the two books and it is this which consitutes the literary merit of *Eothen* as a work of art and renders it different from other commonplace records of Eastern travel. In its author we find not a teacher but a companion, an agreeable fellow-traveller who effectively displays wit and humour in every subject he handles, placing it in happier relief. Compare, for example, Warburton's uniformly solemn attitude with, that of Kinglake, whose response varies with the varying associations of places. The notion of adhering to 'sentimental' truth and of dwelling only upon those matters which happened to interest the author, disregarding all else, would cartainly have been unforgivable in an ordinary record of travels through lands not previously explored. But, as Kinglake himself says, in the Preface to the first edition, «where the countries which one visits have been thoroughly and ably described, and even artistically illustrated by others, one is fully at liberty to say as little as one chooses». Kinglake's excuse for *Eothen* is truth, and the outstanding peculiarity of the work is its freedom from any sort of prejudice. He tells us of objects not as he knows them to be but as they actually seemed to him. The result is that *Eothen* conveys not those impressions which ought to have been produced upon ordinary people, but those which were in fact, received on the spot by the writer, whose predisposition to share other people's notions was very slight.

The seemingly perverse manner of treating certain subjects has apparently been forced upon the author by his plan of adhering to 'sentimental' truth. «As I have felt so I have written ;» he says, «and the result is, that there will often be found in my narrative a jarring discord between the associations properly belonging to interesting sites, and the tone in which I speak of them». He ought, for instance, as he himself pointed out, to have felt as strongly in Judaea as in Galilee, but this was not so. «The religious sentiment (born in solitude) which had heated my brain in the Sanctuary of Nazareth was rudely chilled as the foot of Zion, by disenchanting scenes, and this change is accordingly disclosed by

difference between the two authors is that Kinglake tells you of objects not as he knows them to be, but as they seemed to him on the spot—while Warburton obviously does the reverse.

Both narratives are an account of a tour in the Near East, including Egypt, Palestine, Syria, Turkey and Greece. But as a work of art, Warburton's book, with its melodramatic and selfconscious tone, can hardly compete with the fine literary and scholarly quality of *Eothen*, which still holds its eminent place as a classic, and is, perhaps, the best book of travel in the English language. Yet in the beginning, at least during its author's life-time, *The Crescent and the Cross* enjoyed a far greater popülartity than its rival. In the *Dublin University Magazine* (Feb. 1852) a contemporary writer suggests one reason for this. In *Eothen*, he says. «Passages of beauty, almost of sublimity, stand isolated from our sympathies by the interposed cynicism of a few caustic remarks ; and scenes of the World's most ancient reverence and worship become needlessly disenchanted under the spell of some sceptical sneer». He attributes this weakness,«which prevents the indisputable power and grace of *Eothen* from having their full effect with the public, «to Kinglade's lack of what he calls 'a changeful truth'—versatile propriety of feeling which enables the author to enter the heart of each successive subject. It is precisely this quality, he maintains, which made Warburton's book so attractive to the public. Such an attitude did not, however, last for long and though *Eothen* did not immediately have the success of *The Crescent and the Cross*, it soon outstripped Warburton's book in populqrity and has ever since remained a favourite among thousands of readers for whom its one-time rival possesses little more than antiquarian interest. Two reasons have been suggested for the later popularity of this most charming travel account : (a) *Eothen* is youthful—vivaciously, even boisterously youthful—and after over a hundred years it has not lost the power to communicate the zest and lightheartedness with which Kinglake invested his wanderings in the East ; and (b) the second and more important factor—unlike the majority of travel-books, Eothen is not a record of outward, objective facts, but a series of personal impressions by a keen and shrewd observer, with an eye for colour and adventure, a never-failing sense of humour, and the charm and chivalry that win the confidence of strangers.

*The Crescent and the Cross ; or, Romance and Realities of Eastern Travel.*

If one is asked to give one's general impression of *The Crescent and the Cross* after a reading of *Eothen*, one is bound to concede many a point against Warburton His book is neither as brilliant nor as clear as *Eothen* : it is, indeed, dull in parts.

Though written with more of sincerity, it does not necessarily contain more of truth. In it we look in vain for the rapid glance, the subtle humour, the sudden thought, the accidental association or sentimental truth ; instead we have a sober, solidly digested narrative—a statement of facts, ostensibly directed to the positive end of instruction, but failing of its purpose. Warburton's attitude and method were quite different from Kinglake's, who may have held the same moral and political convictions, but never attempted to press upon his reader, as Warburton did, upon every occasion. In *Eothen* (originally subtitled 'Traces of Travel brought Home from the East') the author estimates things not by their general relative importance but by the degree in which, whether by disposition or accident, they interested him at the time. His work is characterised by its subtle, indirect way of revealing foibles, and by an amusing method of criticizing Oriental manners and customs while at the same time giving us an abundance of useful and interesting information. His imaginary conversation between the Turkish Pacha and an English traveller, his humorous impressions of Lady Hester Stanhope, his interesting account of the Greek consul and the cock, or of the Plague in Cairo, and finally his amusing, inflated raputures in the presence of the Pyramids and the Sphinx, are suitable examples to illustrate the truth of our claim.

They are, superficially, a mixture of light comedy and pleasant ranting, but if we read them intelligently and without prejudice we shall be impressed with the realities of Eastern life and thought in a far better and more enjoyable way than from the reading of an ordinary travel book. Add to all these elements of fascination the unbroken luxuriance of style and the easy flow of casual epigram or negligent simile (Greek holy days not kept holy «but kept stupid»; the mule who «forgot that his rider was a saint and remembered that he was a tailor»). With these points in mind we shall show how different were Warburton's attitude towards the East and his treatment of the subject. The major

# A LITERARY ESTIMATE OF "EOTHEN" IN RELATION TO "THE CRESCENT AND THE CROSS"

BY

Dr. MOHAMMED SAMIR ABDEL-HAMID

The fourth decade of the nineteenth century dawned on a procession of Oriental pilgrims—variously qualified or disqualified to hold the gorgeous East in fee—who, with ' bakshish' (tips) in their purses, a theory in their brains, an unfilled diary -book in their portmanteaus, sought out the Holy Land, the Sinai peninsula or the valley of the Nile. With very few exceptions these travellers, who went to the East with no purpose but to vindicate or realize what they had previously read, returned home after a few months of hurried and superficial visits to fill up hundreds of pages with well-known facts and insignificant details. That type of traveller is facetiously treated in contemporary magazines in an age when everybody seemed to have written an Eastern book. A humorous writer claimed that there was scarcely anybody in society who had not then been up to the Second Cataract (of the Nile).

The nature of these multifarious accounts of Eastern travel varied according to the writer. Some were honest, others amusing, poious, or sentimental. Honesty, fun, piety or artificial colouring, all failed to attain success and in due course were destined to an unregrettable oblivion.

Only two of the vast multitude of books on the Near East made a spectacular and durable success. The first is Kinglake's classic *Eothen* which, on account of its intrinsic merits, remained unyielding to the vicissitudes of fortune. Its stubborn rival, published almost at the same time (1844), was Eliot Warburton's

# CONTENTS

## OF THE EUROPEAN SECTION

The Bulletin of the Faculty of Arts is issued twice a year, in May and December. All requests for copies should be made to the Cairo University Librarian, Giza. Communications regarding contributions should be addressed to the Editor of the Bulletin Dr. M. H. El-Bakry, Faculty of Arts, Giza, Egypt.

---

Back numbers of this Bulletin are available at 30 P.T. for each Part.

# BULLETIN

OF

# THE FACULTY OF ARTS




VOL. XIX—PART II

DECEMBER 1957

MEMORIAL NUMBER

for

THE LATE PROFESSOR MANSOUR FAHMY

Cairo University Pre

1961

